إيڤو آندريتش

وقائع مدينة تراڤنك

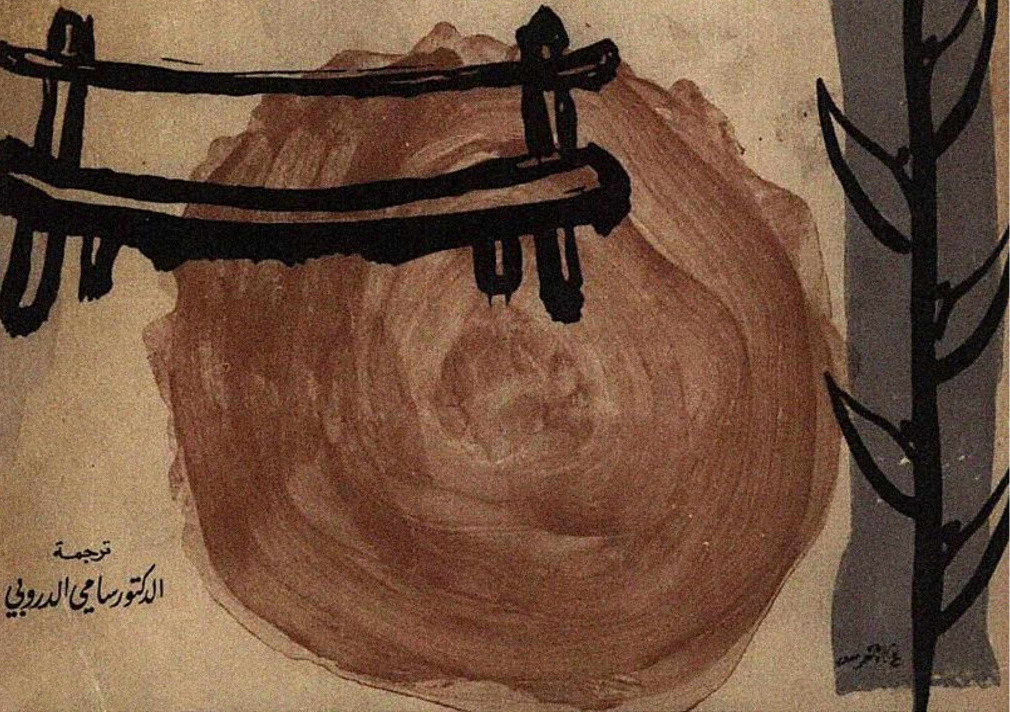

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

إيفو آندريتش

وقائع مدينة ترافنك

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

وقائع مدينة ترافنك

الطبعة الأولى ــ دمشق ١٩٦٤

مقدمة المترجم

يرتبط ايفو آندرتش في نفسي بذكريات جميلة لا سبيل الىنسيانها ، بذكريات رحلة قمنا بهـا عام ١٩٥٩ الى يوغوسلافيا وفدا ثقافيا يمثل الجمهورية العربية المتحدة باقليميها ، فأما الاقليم الشمالي فمنه عبد الله عبد الدائم وكاتب هذه السطور ، واما الاقليم الجنوبي فمنه نجيب محفوظ وعبد المنعم الصاوي . صحبة ممتعة اذن . ونصل الى بلغراد ، فلا تسل عن الترحيب بنا والاهتمام . ألسنـا من الجمهوريـة العربية المتحدة التي تمثل بقيام الوحدة بين اقليميها تحديا من اكبر التحديات للاستعمار الذي أوجد التجزئة وفرضها وادامها ـ كان يوم ٢٨ ايلول الكالح الذي ثأر فيه الاستعمار لنفسه بضعة وشراسة بعيدا حينذاك . ونقضي في اتحـاد الجمهوريات اليوغوسلافية قرابة شهر بين طبيعة لا أروع من سهولها وجبالها وغاباتها وانهارها والبحيرات وبين شعب طيب الاعراق كريم النفس مضياف ، نهارنا تنقل من مدينة الى مدينة ومن متحف الى متحف ومن مزرعة الى مزرعة ومن مصنع الى مصنع ، نشهد كيف يبني الشعب نظامه الاشتراكي وكيف يعزز وحدته الوطنية ، وليلنا سهر بعضه في مسارح الاوبرا والتمثيل وقاعات الموسيقى والرقص الشعبي والغناء وسهر بعضه الآخر في القراءة . نعم في القراءة ، قراءة كتب أهديت الينا بُعيد وصولنا ، منها هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته العربية الآن . كنت متى انتهت سهرة الليل استحث الخطى للعودة الى الفندق بما اطيق من سرعة ، لأفتح الكتاب على الصفحة التي غفوت عليها في الليلة البارحة ، فأستأنف القراءة بشوق ما بعـده شوق . لم أكن قد قرات شيئا لايفو آندرتش قبلذاك ، ولا كان اسمه في أذهاننا شيئا ذا بال على كل حال . فمـا ان ولجت هـذا العالم الـذي يدخلني اليـه ايفو آندرتش حتى احسست ان خطاي يقودها ساحر كبير من سحرة الكلمة . وحسبت انني أحقق اكتشافا اذ أدرك قيمة هذا الكاتب العظيم . وعقدت النية على نقل بعض آثار ايفو آندرتش الى العربية متى عدنا الى الوطن ، فما ان صرت في القاهرة حتى عكفت على انفاذ ما عقدت النية عليه ، ونشرت

الترجمة العربية لكتاب « جسر على نهر درينا » بالقاهرة ؛ وانقضت أشهر قليلة ، فاذا اسم ايفو آندرتش ملء اسماع العالم الادبي غداة حصوله على جائزة نوبل للآداب .

• • •

أخذ الادب اليوغوسلافي يشق طريقه الى العالم بعد أن ظل خلال مدة طويلة من الزمان مجهولا فيما وراء الحدود اللغوية التي نبت فيها . ولئن تحمس عدد من شعراء اوروبا وكتابها في القرن الماضي للشعر اليوغوسلافي ونقلوا بعض قصائده واشاعوها (أمثال ياكوب جريم وهردر وجوته وميريمه وميكيفتش وبوشكين) ، ولئن ترجم الى بعض اللغات الاجنبية عدد من آثار الادب اليوغوسلافي الكلاسيكي في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، فان الاهتمام بالأدب اليوغوسلافي قد وثب في أيامنا هذه وثبة قوية بعد قيام المجتمع اليوغوسلافي الجديد تجربة اشتراكية اصيلة مستقلة . فهذا ما يشهد به ثبت المؤلفات الادبية اليوغوسلافية التي ترجمت ونشرت خارج يوغوسلافيا في الفترة الممتدة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٦٠ ؛ ان هذا الثبت الذي نشرته « الوكالة اليوغوسلافية لحقوق المؤلف » يقول لنا ان نحوا من أربعمائة أثر أدبي يوغوسلافي قد ترجم وطبع في ٢٤ دولة من دول العالم حتى سنة ١٩٦٠ ؛ وينصب اهتمام الناشرين الاجانب على مؤلفات ايفو آندرتش وميروسلاف كرليجا خاصة . لكن ايفو آندرتش الذي نقدم اليوم الترجمة العربية لكتابه « وقائع مدينة ترافنك » يحتل بعدد مؤلفاته المترجمة منزلة الصدارة من عناية العالم بالأدب اليوغوسلافي ، حتى قبل حصوله على جائزة نوبل للآداب . فرواياته التي نشرت بعد الحرب العالمية الثانية : « جسر على نهر درينا » ، « وقائع مدينة ترافنك » ، « الآنسة » ، وأقاصيصه وحكاياته ، قد نشرت ، حتى عام ١٩٦٠ ، في ست وثلاثين طبعة بثلاث عشرة لغة أجنبية : الانجليزية ، الروسية ، الفرنسية ، الايطالية ، الالمانية ، البولندية ، السويدية ، الهندستانية ، الاكرانية ، التشيكية ، السلوفاكية ، اللتوانية ، البلغارية . ومنذ عام ١٩٥٣ طبعت روايته « جسر على نهر درينا » أربع طبعات في المانيا ، وثلاث طبعات في الاتحاد السوفياتي (حيث ترجمت سبعة كتب من مؤلفات ايفو آندرتش) وطبعتين بالانجليزية أولاهما في لندن والثانية في نيويورك .

• • •

فالادب اليوغوسلافي اذن أدب غني رفيع . واذا شئنا أن نعطي لمحة عن تاريخه فخير ما نفعله هو ان نعير القلم واحداً من ابنائه ، (كما فعل المترجم الفرنسي لكتاب « وقائع مدينة ترافنك ») هو الاستاذ مدحت بكتش الناقد الادبي الذي كان محاضرا في كلية الآداب بجامعة ليون ثم أصبح مدرسا للأدب في كلية الآداب بسارايفو عاصمة البوسنة ، وطنه ووطن ايفو آندرتش معا . فيقول لنا :

« نشأ الادب اليوغوسلافي وتطور في القرون الوسطى بتأثير عاملين : عامل بيزنطي ارثوذكسي في الشرق ، وعامل روماني كاثوليكي في الغرب. فرغم أن الانقسام الديني الكبير الذي وقع عام ١٠٥٣ قد انتهى بتوزيع البلاد على هاتين الكنيستين ، فان التقاء الشرق بالغرب هو الذي تدين له القرون الوسطى اليوغوسلافية بتراثها الواسع الذي يضم أنواعا ومواضيع فنية وأدبية كثيرة » .

« وكانت هذه الانواع والمواضيع المشتركة بين جميع الآداب الكبرى في ذلك العصر تؤكد المستوى الفكري في بيئة تحاول أن تهضم عناصر الثقافات المجاورة وأن تلقي عليها طابعها الخاص . وقد تجلى هذا الاتجاه الخالق في الفنون التشكيلية خاصة ، فكان ما رأيناه في أديرة الصرب من فن التصوير وفن العمارة ؛ ونحن نشعر به أيضا في فن جديد من فنون الادب هو تاريخ ملوك الصرب وأساقفتها ، وهو فن كان رائده القديس ساقا (١١٦٩ ـ ١٢٣٦) الذي نظّم استقلال الكنيسة الوطنية والتعليم الوطني ، وبعده تعاقب عدد كبير من كتاب السير على مر العصور ، فاذا نظرنا الى جملة آثارهم رأينا أن قيمتها تاريخية بوجه خاص ، ففيها تفاصيل ثمينة عن الحياة السياسية والروحية في دولة الصرب الى حين نشوب معركة كوسوفو الفاجعة عام ١٣٨٩ ، التي كانت أول هزيمة أمام الغزو التركي .

« لم يكتف المحتل بازالة الدول اليوغوسلافية المستقلة في القرن الخامس عشر ، بل بسط سيطرته على دول البلقان عدة قرون فخنق الحياة الفكرية في البلاد حين كانت أوروبا تهم أن تدخل عصر النهضة . ولكن لئن حكم على الادب المكتوب بالهلاك في اللحظة التي كانت تنشأ فيها المطبعة (لقد أسست أول مطبعة يوغوسلافية بمدينة تسيتينه عام ١٤٩٣) فان هذا الافلاس الفاجع قد عوّض عنه نشوء ملحمة وطنية زاخرة كان خلقها يسير جنبا الى جنب مع جهد دائم في سبيل التحرير .

« هي ملحمة واسعة تضم أكثر من عشرة آلاف قصيدة ، ويتراوح عدد أبياتها بين مائة ألف ومائتي ألف بيت من البحـــر الطويل ، وتتجمع قصائدها في عشرة أقسام . وهذه الاقسام تتناول شخصيات بارزة ، أو أحداثا فذة (كشخصية الامير ماركو ، وموقعة كوسوفو) أو أسراً من الامراء (كأسرة آل نيبمانتش) أو فترة معينة من الكفاح ضـــد الاتراك (كفاح رجال العصابات وثوار الحرب الوطنية من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر) . ان شعراء لا أسماء لهم قد تناولوا هذه الوقائع التاريخية ، فأعملوا فيها خيالهم تطريزا وتوشية ، مستمدين في بعض الاحيان شيئا من عناصر الادب المكتوب في القرن الخامس عشر أو شيئا من الاساطير السلافية والقصص المسيحية . ولكن الخيط الـذي ينظم هذه الاقسام انما هو فكرة التحرر تحاصر النفس ولا تبارحها .

« وبينما كانت تنشأ هذه الملحمة التي كان الناس يتناقلونها بالرواية جيلا عن جيل الى أن جمعها وثبتها فوك قرەدجتش في القرن التـاسع عشر ، عرف الادب اليوغوسلافي مع ذلك « عصر نهضة » هو أيضـا ، بفضل الحريات التي كانت تتمتع بهـا مدن الساحل ، وخـاصة راكوز (دوبروفنك) . وهكذا استطاع الادب الدلمـاسي والراكوزي أن يتبع تطور الادب الايطالي ، على أن له روحه الخاصة . ولا شك ان أبرز آثار هذا الادب كوميديات الكاتب الراكوزي مارن درجتش (١٥٠٨ ـ ١٥٦٧) الذي سبق مسرح شكسبير ومسرح موليير في حـدة الملاحظة وحميـا القريحة ، وكذلك في اختيار المواضيع من مثل : « البخيل » أو « جورج داندان » أو « غيظ الحب » أو « حلم ليلة صيف » . وقد طبق أساليب الكوميديا التي نراها في « بلوت وتيرانس » على مواضيع مستمدة من الحياة الاجتماعية في عصره (دور المال ، صراع الطبقات) . ونجح نجاحا رائعا في تصوير اللون المحلي وفي تنويع اللغات بتنوع البيئات والمناطق ؛ وتعدمسرحية دوندو ماروبه من أبرز الآثار التي تمثل المسرح اليوغوسلافي .

« ويسيطر اسم ايفان جوندولتش على القـرن التالي ، وهو كاتب راكوزي أيضا ؛ ومن أهم آثاره ملحمة « عثمان » ، وهي مؤلفة من عشرين نشيدا ، وفيهـا يتغنى جوندولتش (١٥٨٩ ـ ١٦٣٨) ، على طـريقة « انقاذ القدس » بأول نصر كبير تحققه الجيوش المسيحية على الاتراك ، وهو النصر الذي فاز به الامير البولوني رادسلاس سنة ١٦٢١

« ويشهد القرن الثامن عشر انتشـار التعليم وقيام الصحافة ونشوء

مراكز سياسية وثقافية في شمال البلاد : في نوفي ساد ثم في بلجراد لـدى الصربيين ، وفي زغرب لـدى الـكرواتيين ، وفي لوبليانا لـدى السلوفانيين . فنرى الثقافة اليوغوسلافية تتمثل مستحدثات العلم الأوروبي والمدنية الغربية ، وتعمل في تحرير الآداب من سلطان رجال الدين . واستطاع دوسيتيئي أوبرادوفتش (١٧٤٢ ـ ١٨١١) بآثاره المتنوعة أكبر التنوع ـ من أقاصيص صغيرة ، وحكايات خرافية ، وروايات اسفار ـ وكذلك باقتباسات لمؤلفات فنلون ولابروير وفولتير وغيرهم ، ان يغرس في الشبيبة الصربية معاني التسامح الديني والاخوة الانسانية والحرية ، وأن يغرس فيها أيضا حب العلم والادب . وقام ماتيا رلجكوفتش (١٧٣٢ ـ ١٧٩٨) وفالانتين فودنك (١٥٧٨ ـ ١٨١٩) بمثل هذا الدور تقريبا في كرواتيا وسلوفينيا » .

« وفي القرن التاسع عشر تظهر الرومانسية اليوغوسلافية التي تمثل اكثر من مدرسة شعرية ، ونشهد قيام حركة أفكار ديموقراطية تهدف الى توحيد البلاد على صعيد الفكر . ويعد فوك قرهدجتش (١٧٨٧ ـ ١٨٦٤) رائد هـذا التيار الجديد . لقد اشترك قره دجتش اشتراكا فعالا في العصيان الصربي (١٨٠٤ ـ ١٨١٢) ، واصلح قواعد الكتابة الكيريلية وبسّطها فأصبحت صوتية تماما ، وادخل لغة التخاطب في الآداب الصربية الكرواتية . لقد كانت اللغة الادبية الصربية حتى ذلك الحين لا تزيد على ابقاء اللغة الاكليركية التي كانت لغة القرون الوسطى والتي كان الشعب لا يكاد يفهمها . ان فوك هو أول من أدرك جمال الشعر الشعبي وأدرك خطورة شأنه ، فحمل ذلك العبء الكبير ، عبء جمع الاغاني الشعبية والاقاصيص الشعبية التي أصبحت للأجيال الجديدة أمثلة تحتذى ومصدر وحي والهام .

« وفي كرواتيا رأينا الحركة التي تسمى بالحركة الايليرية تتبنى حوالي عام ١٨٣٠ آراء فوك وتنشيء بذلك الوحدة الثقافية الصربية الكرواتية . وفي سلوفانيا ، أقصي الشمال الغربي ، حيث ترجع التقاليد الادبية الى عهد الحركة البروتستانتية التي قامت في القرن السادس عشر بقيادة بريموج تروبار (١٥٠٨ ـ ١٥٨٦) ، أعقبت النزعة الرومانسية النزعة العقلية التي سادت في عهد فتوحات نابوليون والمقاطعات الايليرية (فودينك) .

« على هذا النحو تهيأ عصر جديد من عصور الادب اليوغسلافي ، فرأينا تفتح

مواهب كثيرة على حين فجأة . ويبرز ثلاثة شعراء ينتمون الى الجنسيات الاساسية الثلاث ، هم : پيتار پتروڤتش نياجوش (١٨١٣ - ١٨٥١) لدى الصربيين ، وايفان ماجورانتش (١٨١٤ - ١٨٩٠) لدى الكرواتيين ، و ف پريشيرن (١٨٠٠ - ١٨٤٩) لدى السلوڤانيين . وقد ظهرت كبريات مؤلفاتهم في وقت واحد تقريبا (١٨٤٦ - ١٨٤٧) . ان « اكليل الجبال » لنياجوش ، و « موت اسماعيل آغا » لماجورانتش ، هما من عيون الآثار الادبية . وقد استطاع نياجوش خاصة أن يعبر في صورة كلاسيكية عن عذابات فكر راق تقلقه مشكلات الحياة الانسانية والصراع بين الامم وضرورة النضال في سبيل العدالة والحرية ، وهي ضرورة فاجعة مجيدة معا » .

« ورغم أنهم عاشوا هم الثلاثة في العصر الرومانسي ، فليس يصدق هذا الوصف حقا الا على أعقابهم ونذكر منهم دجورا ياكشتش (١٨٣٢ - ١٨٧٨) الذي يملك مزاجا بيرونيا حقا ، ويوڤان يوڤانوفتش زماي (١٨٣٣ - ١٩٠٣) الذي ظلت قيثارته خلال نصف قرن تغني جميع آلام وطنه وجميع أشواقه .

« ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يظهر في المسرح الصربي تيار واقعي بظهور كوميديات الطباع والعادات التي كتبها پوپوڤتش ستيريا (١٨٠٦ - ١٨٥٦) ، ويظهر هذا التيار الواقعي في الرواية الكرواتية بظهور مؤلفات أوجوست شينوا (١٨٣٨ - ١٨٨١) وفي الاقصوصة السلوڤانية بظهور اقاصيص فران لڤستيك (١٨٣١ - ١٨٨٧) . وقد بحث النثر اليوغوسلافي عن نماذجه الرئيسية لدى كبار الروائيين الروسيين والفرنسيين . والافكار الجديدة هي التي الهمت سڤيتوزار ماركوڤتش (١٨٤٦ - ١٨٧٥) آثاره ، وهو مؤسس الحركة الاشتراكية الصربية . واخذت المسائل الاجتماعية تشغل عددا كبيرا من الروائيين الذين اصبحوا على احتفاظهم بوجهات نظرهم الشخصية ، يطبقون طريقة واحدة في الوصف والتحليل الواقعي الطبيعي . وارتبطت هذه الواقعية فيما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ بموضوعات وطنية صرفة ، وبثت في روايات واقاصيص ياكوف اجنياتوفتش (١٨٢٤ - ١٨٨٨) ولازا لازارفتش (١٨٥١ - ١٨٩٠) وانتي كوڤاتشتش (١٨٥٢ - ١٨٩٧) ويانكو كرسنيك (١٨٩٨ - ١٩٢٧) كل ما تتصف به الامور المعاناة من نضارة ومن نبرة الصدق .

« وبين الشعراء يشتد الحرص على وصف الانسجام والجمال في مناظر الطبيعة بالبلاد التي راى الشاعر فيها النور ، في صورة متحررة من الحماسة الرومانسية (فويسلاف ايلتش ١٨٦٢ ـ ١٨٩٤) ، ويقوى الاهتما مبالتعبير عن الثورة على مظالم المجتمع الحديث (انطون آخكرتس ١٨٥٦ ـ ١٩١٢ ؛ سيمون جريجورتشتش ١٨٦٥ ـ ١٩١٢ ؛ سيمون جريجورتشتش ١٨٦٥ ـ ١٩٠٨) ، وتبرز العناية بتصوير المصير الفاجع لشعب ما يزال اكثره خاضعا لاضطهاد الامبراطورية النمسوية ـ المجرية ، شعب يرى الالوف من ابنائه ينفون انفسهم في بلاد بعيدة محاولين ان يكسبوا خبز يومهم (لسكا شانتتش ١٨٦٨ ـ ١٩٢٤) .

« وتأثر الشعر اليوغوسلافي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالمدارس الشعرية الاجنبية من فرنسية ونمسوية وسكاندينافية (بودلير ، ڤرلين ، هوفمانشتال ، ابسن) . فالبرناسيون والرمزيون الفرنسيون كانوا أساتذة الشاعرين الصربيين يوڤان دوتشتش (١٨٧٤ ـ ١٩٤٣) وميلان راكتش (١٨٧٦ ـ ١٩٣٩) اللذين أوصلا قواعد النظم الى ذروة الكمال . ونلاحظ تأثير الرمزية في مسرح الكاتب الراكوزي ايڤو ڤونيوڤتش (١٨٧٨ ـ ١٩٢٨) وفي القصائد الغنائية التي نظمها الشاعر السلوفاني أوتون يوپانتشتش (١٨٧٨ ـ ١٩٤٩) . والى جانب هذا الشاعر تميز الكرواتي فلاديمير نازور (١٨٧٦ ـ ١٩٤٩) بتفاؤله وايمانه بالقوى الحية في البلاد . ومن بين أبناء هذا الجيل الذي سبق الحرب العالمية الأولى عبَّر السلوڤاني ايڤان تسانكار (١٨٧٦ ـ ١٩١٨) وهو كاتب مسرحي ومؤلف روائي وشاعر ، عبَّر تعبيرا رائعا عن مشكلات المدنية الحديثة وعن الهزات الاجتماعية والاخلاقية التي تؤذن بتحولات كبرى . وهذه المشكلات نفسها التي ضاعفتها كثيرا جلبة الحروب والثورات هي التي ألهمت آثار اقوى مزاج في الادب اليوغوسلافي الحالي ، اعني ميروسلاف كرليجا (المولود عام ١٨٩٣) . ان مسرحياته ورواياته وقصائده لهي سمفونية اضطرابات الانسانية الحديثة حقا .

« ولئن شهد النصف الاول من الفترة الواقعة بين الحربين تكاثر المدارس الادبية ، فلقد تميزت السنون الثلاثون الاولى من هذا القرن بحركة تجمع روحي . ان مجرى التاريخ اليوغوسلافي قد امتحن ضمير الكتاب ومشاعرهم . وكان لا بد من انتظار الوقت الراهن لتقديرهم حقَّ قدرهم ومعرفة قيمتهم . هكذا ايڤو آندرتش سيد الرواية الصربية الكرواتية ، وهكذا القصاص السلوڤاني بريجيهوڤ فورانتس (١٨٩٣ ـ

١٩٤٠) الذي أودع لوحاته التي تصور حياة الفلاحين في كارنتيا ملاحظات تبلغ مبلغ الرؤى .

« وجاءت حرب ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ ، جاء النضال في سبيل تحرير الوطن ، فأوحى بآثار شعرية وتاريخية كثيرة . وفي اثناء هذا النضال انما كتبت آثار خالدة ، من ذلك كتاب « المدفن المشترك » للشاعر الشاب ايفان جوران كوفاتشتش الذي سقط في ساحة القتال سنة ١٩٤٣ ؛ ورأينا الشاعرين الكبيرين ، جوپانتشتش ونازور ، يساهمان في تصوير تلك الحماسة الملحمية التي اطلقها تفجر الطاقة الوطنية .

« ومنذ عام ١٩٤٥ يظهر ميل قوي الى تنوع الفنون الادبية والاساليب الادبية . نخص بالذكر الآثار الاصيلة التي كتبها الشاعر اوسكار داڤتشو وروايته « القصيدة » (١٩٥٢) التي تدرس دراسة دقيقة الظروف الروحية لطائفة من الشبان كانوا يقاومون الاحتلال في بلغراد ؛ وكذلك الرواية المرموقة التي كتبها دوبرتسا تشوستش (المولود سنة ١٩٢١) عن المصير المثير الذي لقيته مفرزة من الانصار في صربيا ، وهي رواية « الشمس » التي نشرت عام ١٩٥٠ .

« ان الادب اليوغوسلافي منفتح لجميع مساعي الفن الحديث ، دون ان ينسى جوهر تقاليده . فهو يعالج موضوعاته التي يختارها من حياة الامة معالجة مرتبطة بالافكار والتساؤلات والاذواق التي يعانيها الانسان عامة .

« اذا شئنا الاقتصار على الارقام وحدها قلنا ان بين السبعة عشر مليونا من اليوغوسلافيين ، اربعة عشر مليونا يتكلمون اللغة الصربية الكرواتية . ولكن يوغوسلافيا الآن دولة اتحادية . والجمهوريات الست التي تتألف منها هذه الدولة الاتحادية متساوية في الحقوق . وان اربع جمهوريات منها ، هي الصرب وكرواتيا والبوسنة الهرسك والجبل الاسود تستطيع ان تتخاطب بلغة واحدة ، ولكنها لا يمكن ان تحاول فرض هذه اللغة على سلوڤانيا ومقدونيا ، ولا يمكن ان يخطر ببالها ذلك ؛ ان الادب السلوڤاني يحتل مكانة ممتازة . ومقدونيا تنتج آثارا ادبية جيدة ، وتعتز الآن بأنها ثبتت لغتها اذ انشأت لها اول معجم » .

• • •

ولد ايفو آندرتش بمدينة ترافنك سنة ١٨٩٢ ، وهو ينتمي الى اسرة كاثوليكية رقيقة الحال يعمل افرادها في الحرف والتجارة . وقد توفي ابوه فجأة ولما يتجاوز الصبي ايفو الثانية من عمره . فلجأت أمه التي ترملت في ريعان الصبا ، في الحادية والعشرين ، الى أهل لها بمدينة فيشجراد ، وهي مدينة صغيرة جميلة على شاطيء نهر درينـا . ففي هذه المدينة قضى ايفو الصغير طفولته ، واختلف الى المدرسة الابتدائية ، ثم أتم تعليمه الثانوي بمدينة سارايفو .

هذه المدن الثلاث من مدن البوسنة (ترافنك ، فيشجراد ، سارايفو) التي قضى فيها ايفو آندرتش شبابه وظل متعلقا بها طوال حياته ، هي الامكنة التي تدور فيهـا أحداث الروايات الثلاث التي كتبها في كهولته « وقائع مدينة ترافنك » ، « جسر على نهر درينا » ، « الآنسة » ، والتي ظهرت جميعا عام ١٩٤٥ ، غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية .

في مدينة سارايفو ، أثناء مرحلة التعليم الثانوي ، انما تعلم الفتى ايفو اللغة الالمانية التي فرضت سلطات الاحتلال تعلمها ، ففتح هذا له مجالا واسعا لقراءات كثيرة . ثم لم يكتف بالالمانية فتعلم الفرنسية بوسائله الخاصة ، فما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى كان يقرأ كتب الادب الفرنسي بسهولة ويسر ، فكشف له ذلك عن عالم جديد . وما اكثر ما كان يقطع الشوارع الضيقة من مدينة سارايفو ميمما شطر غابات الجبل ، وبين يديه كتاب لفكتور هوجو او غيره من كبار الادباء ، يقرؤه بصوت عال ولهجة يضحك الآن منها ، وحماسة ما يزال يتذكرها . ومنذ ذلك الحين عزم الفتى أمره على أن يشارك في التحرير الذي لا تكون حريته الروحية بغيره الا هروبا .

وعرف ثلاث جامعات : جامعة زغرب ، وجامعة كراكوفيا التي اكتشف فيها الادب البولوني ــ وهو يحب ان يشير الى تأثره بهذا الادب ــ وجامعة فيينا التي انتمى اليها في العشرين من عمره ودرس فيها اللغات السلافية والتاريخ خاصة . وهناك قرأ كركجارد الذي لم يكن ادبه رائجا في ذلك العصر ، فلما اعتقل غداة اعلان الحرب عام ١٩١٤ عضوا في الشبيبة الثورية كانت الاشياء الوحيدة التي أخفاها للاحتفاظ بها كتابين صغيرين من كتب كركجارد. وعرف ثلاثة سجون ، والزم بالاقامة الاجبارية غيرمرة، حول ترافنك وفي ترافنك نفسها. فلما أطلق سراحه عام ١٩١٧ ذهب الى زغرب فأنشأ مع عدد من الشبان الذين يعتنقون آراء واحدة مجلة اسموها

« الجنوب الادبي » . وفي سنة ١٩١٨ عيّن سكرتيرا للمجلس الوطني بزغرب ، الذي طالب باتحاد الكرواتيين والصربيين . وأتاح له انتهاء الحرب أن يستأنف دراسته في جامعة جراتس التي حصل منها على درجة الدكتوراه في الآداب ، وكان موضوع رسالته « الحياة الفكرية في البوسنة والهرسك في عهد السيطرة التركية » .

ودخل ايڤو آندرتش السلك الدبلوماسي ، فقضى سنتين في روما ، ومددا تتراوح بين سنة وسنتين في مدريد وبوخارست وجنيف وبرلين ، وكان في اثناء ذلك يتابع تأمله في الانسان والتاريخ . واطلع على الآداب الروسية والايطالية والاسبانية ، واوغل في معرفة الادب الفرنسي ، وشغف خاصة بالكتاب الفرنسيين الاخلاقيين .

لقد عانى ايڤو آندرتش الكتابة منذ مطلع شبابه ، فنظم الشعر اولا ، ثم كتب نثرا غنائيا ، وترجم بعض الآثار الادبية . واول كتاب له قد ولد في السجن ونشر عام ١٩١٨ بعنوان Ex Ponto ، وهو مجموعة من الشعر المنثور يشبه أن يكون يوميات شخصية من طراز رفيع ، وتغلب عليه روح الكآبة ويترقرق فيها شجى عميق . ونشر ثاني كتبه بعد ذلك بسنتين ، وعنوانه « قلق » وهو عنوان يدل على مزاج صاحبه الذي وصفه احد النقاد بأنه قوي العاطفة على حياء وخفر .

واثناء الحياة الدبلوماسية امحى الشاعر امام القصّاص فكان ايڤو آندرتش يكتب أقاصيص قصيرة متى تركت له اعباؤه شيئا من فراغ ؛ وظهرت له ثلاث مجموعات بعنوان « حكايات » في سني ١٩٢٤ و ١٩٣١ و ١٩٣٦ ، وقفها جميعا على شخصيات نموذجية من البوسنة القديمة .

وعلى شخصيات من البوسنة القديمة انما وقف ايڤو آندرتش أيضا رواياته الثلاث الكبرى « جسر على نهر درينا » ، « الآنسة » ، و « وقائع مدينة ترافنك » . ولقد كتب هذه الروايات في الفترة العصيبة التي مرت بها بلاده اثناء الاحتلال النازي . لقد رفض ايڤو آندرتش في تلك الفترة تولي اي منصب ، واعتصم بعزلة كاملة ، وانقطع لكتابة روائعه هذه مشاركةً حقيقية في النضال البطولي الذي خاضه شعبه خلال اربع سنين للتحرر من الاحتلال النازي والتمهيد لاقامة المجتمع اليوغوسلافي الواحد ، وبناء النظام الاشتراكي الانساني .

ان اكثر مؤلفات آندرتش تدور موضوعاتها على البوسنة ، تروي

تاريخها منذ الفتح التركي حتى عصرنا هذا ، وتصف مدنها وقراها ومناظرها وسكانها ــ من أتراك وسلافيين مسلمين وصربيين ارثوذكسيين وكرواتيين كاثوليكيين ورهبان فرنسيسكانيين ويهود وضباط نمسويين وعصابات ، الخ ــ وتصور تقاليدها وأساطيرها وحروبها وأمانيها وما يضطرم فيها من ضروب الكره العنيف والاهواء الجامحة .

ان كتاب « جسر على نهر درينا » تدور احداثه حول الجسر الحجري الشهير الذي اقيم على نهر درينا بمدينة فيشجراد وكان الفرض من اقامته أن يربط بين البوسنة والصرب ، وهما يومئذ اقليمان من أقاليم الامبراطورية العثمانية . ان هذا الجسر هو الشخصية الرئيسية في هذه القصة التي تحكي تاريخ تلك البلاد من القرن السادس عشر حتىعام ١٩١٤ ان هذا الجسر الذي يصفه ايڤو آندرتش بأنه « لا مثيل لجماله » والذي يدهش المرءَ وجودُ في تلك المدينة الصغيرة النائية ، هو المحور الذي يربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض ، ويوحد بينها ، فالفصول المختلفة التي يتألف منها الكتاب هي أقاصيص تتصل جميعا بجسر درينا .

لقد بني هذا الجسر سنة ١٥٧١ بأمر الوزير الاكبر محمد باشا سوكولوفتش الذي ولد في قرية صغيرة من قرى البوسنة قرب فيشيجراد .

ان المؤلف يصف لنا في الفصل الثاني من كتابه كيف انتزع صبي البوسنة هذا من أبويه مع من انتزعوا من اطفال البلاد باسم ضريبة الدم واخذ الى استامبول حيث دخل في دين الاسلام ، وأصبح ضابطا تركيا ، فوزيرا متألقا صاحب حول وطول . ان المرء لا يملك أن يحبس دموعه حين يرى مشهد الامهات المروعات وهن يشيعن ابناءهن الذين انتزعهم جنود الاتراك من أحضانهن ومضوا بهم الى بعيد .

وفي الفصلين الثالث والرابع يحدثنا المؤلف عن تاريخ بناء الجسر ، ويصف لنا الوان العذاب التي فرضت على المسخرين من سكان المدينة في بناء الجسر وما عانوه من عسف عابد آغا الذي عهد اليه الوزير بالاشراف على تنفيذ البناء ، وهو رجل رهيب يخفي وراء قسوته سوء الامانة . ويصف لنا المؤلف أعمال التخريب التي قام بها راديزلاف ، وكيف اكتشف أمره ، فقبض عليه ، ورفع على الخازوق . ان في وصف التعذيب لواقعية قاسية تجري في الابدان قشعريرة رهيبة .

وتتوالى حوادث الكتاب عبر القرون متنوعة أشد التنوع ، لكنها

مرتبطة دائما بجسر درينا : كوارث الطوفان ، أحداث العصيان ، الاوبئة ، احتلال الجيوش النمسوية المجرية للبوسنة سنة ١٨٧٨ وما أحدثه هذا الاحتـلال بالمدينة من آثار (التبدلات الاقتصادية المختلفة ومد الخط الحديدي الذي انتزع من الجسر جزءا من قيمته) ، الحركات الاجتماعية ، الحروب البلقانية ، ظهور الاجيال الثورية الجديدة ، ثم مقتل الارشيدوق فرانتس فرديناند سنة ١٩١٤ ، ونشوب الحرب بين الصرب والنمسا والمجر ، ونسف الجسر .

هذا كله تاريخ . لكن التاريخ يمتزج في الكتاب بدرامات عاطفية ، ومآس عائلية ، وأحـداث شخصية ، فكأن الوقائع التاريخية ليست الا ذريعة يتخذها المؤلف ليصور من خلالها النفس الانسانية فيأعمقأعماقها ، حتى لقد يخيل اليك وأنت تنساق معه في قصصه الفردية أو العائلية التي ينظم عقدها جسر درينا انكازاءمبدعات خيالية لا تمت الىالواقعالتاريخي بسبب . والحق أن التفريق في هذه القصص بين ما هو واقع وبين ما هو من صنع الخيال ليس بالامر السهل ، ولكن التاريخ هنـا يمازج الخيال ممازجة قوية ، فوراء كل قصة من الاقاصيص حادث واقعي أو اسطورة تناقلها الناس عن حادث واقعي ، فالكتاب من هذه الناحية يضم كنزا غنيا من الوثائق التاريخية . ولكن صفته الاولى ، على كل حال ، هي أنه أثر أدبي لا رواية تاريخية . وهو حتى في جانبه التـاريخي تاريخ لنفوس الافراد في مواجهة أحداث التاريخ أكثر مما هو رواية لهذه الاحداث . فالاحداث لا قيمة لها البتة هنا الا من حيث انهـا ظروف خارجية تتفتح فيها نفوس أفراد من البشر عن خلائقها وسجاياها وعيوبها وأهوائها وآلامها وأفراحها . نحن في هذا الكتاب نقرأ قصة فتاة تنتحر بالقاء نفسها في النهر على جسر درينا لأنها أكرهت على زواج لا تريده ويجرح كبرياءها . ونقرأ قصة فتى يلتقط على الجسر قطعة من نقد ذهبي فيمضي الى حيث يقامر بها فيدمن على اللعب وينحل ... ونقـرأ قصة آغا محافظ على التقاليد متعصب للدين يموت قهرا من تغير العادات وتحكم الكفرة ... ونقرأ قصة جندي غر تغفله فتاة عن خفر الجسر بفتنتها واغرائها لتهرّب رجلا من قطاع الطرق ، فيؤثر الموت علىشعوره بعار الخديعة وعار الاخلال بالواجب ... ونقر أقصة فتى مثقف طموح مغرور شديد الاحتفال بنفسه قليل الاهتمام بغير ما تمليه عليه نرجسيته ، فهو لا يتورع عن التغرير بشابة اخلصت له الحب ، لانه لا يحب الا نفسه ، الخ . الخ ...

وما أعمق نفاذ ايفو آندرتش الى النفس الانسانية ، وما أقوى براعته في رسم الوجوه النفسية !

ان الشخصيات التي يصورها لا تنسى . لا أقول انها نماذج انسانية خالدة ، فالادب لا شأن له بالنماذج ، وانما أقول انها أفراد يبلغ المؤلف من الدقة والعمق والصدق والنفاذ في تصويرهم أنك تراهم بعين الرأس وعين الفكر معا ، ثم يظلون يصاحبون خيالك الى الابد ، لا تنقص منهم سمة ، ولا يخبو فيهم لون .

والكتاب ، بعد ، يتنفس أنساماً حزينة أسيانة ، ويترقرق فيه تعبير عن موقف من الوجود والحياة قد لا يكون هو موقف التشاؤم التقليدي، لكنه على كل حال موقف من لا يستطيع الا ان يحس بأن في الحياةوالوجود « شراً في ذاته » ، شراً لا يعلل ولا يفهم ولا يبرر . ولعل حياة الجسر نفسه ، وهو الشخصية الرئيسة في هذا الكتاب ، أن تكون رمزاً الى هذه النظرة الآسيانه . ان المؤلف يضحك ويُضحك ، لكنك تسمع في قرقعة ضحكه نفسه آهات توجع .

أهذا الكتاب رواية ؟ سمه ان شئت كذلك . لكنك لن تغفل عن أنه لون من الأدب خاص ، فيه من القصة والشعر والفلسفة والتاريخ أجمل ما يمكن أن يغتذي به أثر أدبي جديد أصيل .

وما يقال عن « جسر على نهر درينا » يصدق على « وقائع مدينة ترافنك »(١) . الأسى خاصة . أي واحد من الاشخاص الذين يصورهم ايڤو آندرتش في هذا الكتاب لا يشقى في حياته ؟ أي واحد تخلو لياليه من الأرق والهموم ؟ حتى دي فوسيه الذي يكاد يكون عقلاً فحسب والذي تؤهله طبيعته وتهيئه مواهبه لان لا يشعر بتمزق ولا يعاني قلقاً ، لا يخلو من هذا كله في حقيقة الامر . دع سائر شخصيات الكتاب ، من وزير يُنفى ، الى رسول يُقتل غيلةً ، الى أبرياء يُجلدون ويشنقون ، الى أحدب

---

(١) حين جعل ايڤو آندرتش عنوان كتابه « وقائع مدينة ترافنك » فقد سمى الامور بأسمائها . ان الوزراء والقناصل شخصيات تاريخية . ولقد سلخ آندرتش أشهراً برمتها في قراءة التقارير التي أرسلها قنصل فرنسا دافيد ــ الذي جعل اسمه في الكتاب دافيل ــ وذلك في وزارة الخارجية الفرنسية بباريز بين الحربين العالميتين ، وفي قراءة التقارير التي أرسلها قنصل النمسا ميترر ــ الذي جعل اسمه في الكتاب فون ميترر ــ الى وزارة الخارجية النمسوية بفيينا .

يصعد من البؤس بالجهاد المرير ليسقط بعد ذلك فيما هو أدهى من البؤس والجوع الذي كان فيه ، ليسقط في هوة الجنون ، الى فتى في ريّق الشباب يخونه أخوه ويسرقه ويخطف فتاة أحلامه فيهوي الى الشراب والادمان.. الى قنصل يرميه القدر بزوجة «مجنونة» تفسد عليه حياته، وتلطخ كرامته .. ان جميع شخصيات الكتاب شقية، الا امرأة واحدة هي زوج القنصل التي تنعم بطبع حلو ومزاج سعيد فطرةً . ولكن لئن احتملت زوج القنصل جميع الظروف القاسية التي تحيط بالحياة في البوسنة ، ولئن أحالتها الى اسباب سعادة وهناءة ، وأشاعت من حولها جوا جميلا ، هل أعفاها القدر من ضربة تقصم الظهر ؟ ألم يمت طفلها بين عشية وضحاها وهي لا تملك له نفعاً ولا تستطيع أن تدرأ عنه غائلة المرض ؟ ان منظر الحياة أمام عيني ايڤو آندرتش هو منظر درامة حافلة بالشقاء من أولها الى آخرها . والتاريخ نفسه مأساة كبيرة . أناس يصعدون ثم يهبطون ، وشعوب تقتتل في غير طائل ، وشعب واحد ينقسم على نفسه ويختصم وتتعادى طوائفه ويبطش بعضها ببعض ويسيء بعضها الى بعض في غير داع الى ذلك كله .

هذا هو منظر التاريخ امام عيني ايڤو آندرتش . ولكن رؤية الواقع على حقيقته هي بداية النهوض الى تغييره . ان في ادب ايڤو آندرتش نداءً واهابة : نداء الى الحب ، واهابة الى السلام . تلك كانت رسالة آندرتش ، وما تزال .

دمشق ، تموز ١٩٦٤ **سامي الدروبي**

وقائع مدينة تراقيا

مقدمة

في آخر سوق ترافنك ينزوي مقهى لوتفا على جانب نبع شوتسا ، البارد المصطخب . ما من أحد من قدماء سكان المدينة يعرف قطعا صاحب هذا المقهى الاول ، ما من أحد يعرف لوتفا هذا ، الذي يرقد في احدى مقابر ترافنك المبعثرة ، منذ قرابة قرن . غير أن جميع الناس ما يزالون يذهبون الى مقهى لوتفا ، يحتسون قدحا من القهوة . فبذلك بقي اسم هذا الرجل ، بينما طوى النسيان أسماء كثير من السلاطين والوزراء والبكوات .

ان شجرة هرمة من أشجار الزيزفون تقوم في حديقة هذا المقهى ، عند قاعدة الرابية ، على ركن من الارض مرتفع بعض الارتفاع ، تظلله بفيئها . فهنالك ، بين الصخور والاعشاب ، قد غُرس عدد من المقاعد ، وهي مقاعد واطئة غليظة ، لكنها من كثرة ما جلس عليها الجالسون ، قد تدورت وانصقلت ، حتى أصبحت تبدو جزءا من الشجرة والارض والصخر ، فمن قعد عليها عز عليه أن يقوم عنها من ارتياحه اليها . وقد رسخ في تقاليد المدينة أن يجتمع في هذا الركن ، أثناء الفصل الصاحي الذي يمتد من مطلع أيار الى مغرب تشرين الاول ، عند العصر ، بكوات ترافنك ومن يقبل البكوات صحبتَهم من وجوه القوم . ولا يجرؤ أحد عدا هؤلاء أن يجلس في ذلك الركن ، حتى ان اسمه ، وهو « الصوفا » ، قد اصبح له بعد بضعة اجيال معنى سياسي واجتماعي ،

فالامور التي تقال « على الصوفا » وُتبحث وُيبتُ فيها ، أشبه بالقرارات التي تصدر عن زعماء ديوان الوزير .

هؤلاء عشرة من البكوات قد جلسوا « على الصوفا » حتى في هذا اليوم ، وهو آخر يوم جمعة في شهر تشرين الاول من عام ١٨٠٦ ، رغم أن الجو مكفهر ، ورغم أن الريح التي تجلب المطر في هذا الفصل تهب . انهم مستقرون في مقاعدهم يتحدثون بصوت خافت ، ويتابع أكثرُهم لعبَ الغيوم مع الشمس شاردَ اللب ، ويتنحنج قلقَ البال .

الامر خطير . ان أحد البكوات ، وهو سليمان آيفاز الذي ذهب الى لفنو لبعض شؤونه ، قد أخبره رجل من مدينة سبليت بنبأ من الانباء ، فهو الآن يقص على البكوات ما سمع ، فيرى هؤلاء ان النبأ غير واضح كثيرا ، فيسألونه ويستعيدونه الكلام .

قال سليمان شارحا :

« اليكم ما حدث : سألني هذا الرجل أ أنتم مستعدون لأن تستقبلوا في ترافنك ضيوفاً مرموقين ؟ فأجبته قائلا : والله ان لدينا ما يشغلنا عن التفكير في الضيوف. فقال : يجب ان تتهيؤا لهذا الامر شئتم أم أبيتم . لقد استأذن بونابرت الباب العالي بالقسطنطينية في ارسال قنصل الى ترافنك ينشيء قنصلية لفرنسا . وقد اذن الباب العالي بذلك ، فتوقعوا ان تروا القنصل . فحسبت الرجل مازحاً فقلت لقد عشنا مئات السنين دون قناصل ، وما يزال في وسعنا أن نعيش دون قناصل . ما حاجتنا الى قناصل في ترافنك ؟ لكنه قال : عشتم في الماضي كما عشتم ، اما الآن فسيكون عليكم ان تعيشوا مع قنصل . بذلك يقضي هذا الزمان . ولسوف يجد القنصل ما يعمله ، يستقر الى جانب الوزير آمراً ناهياً ،

ويراقب سلوك البكوات والاغوات كما يراقب حياة الرعية(١) ، وينقل ذلك كله الى بونابرت . فقلت لهـذا المسيحي ان ذلك لم يحدث يوماً ، ولن يحدث ، فما من أحد دسَّ أنفه في شؤوننا حتى الآن ، ولن يفعل بونابرت ذلك اكثر مما فعله غيره ! فقال : انتبهوا الى ما تعملون . لسوف تضطرون الى استقبال القنصل اضطرارا ، لأن ما يطلبه بونابرت لا يرفضه أحد ، حتى ولا حكومة استامبول ! ثم ان النمسا متى رات أنكم قبلتم قنصل فرنسا أرادت أن يكون لها قنصل أيضا . وستفعل روسيا مثل هذا بعد ذلك . قلت : الا انك لتـذهب بعيدا ... ووقفته عن الكلام ، لكنه ظل يبتسم ، ثم قبض على شاربه وقال : احلق هذا اذا لم تجر الامور كما ذكرت ، تماماً أو تقريباً ... » .

وختم آيفاز قصته بقوله :

ـ ذلكم ما سمعته أيها الافاضل ، ومنذ تلك اللحظة لم يبارح هـذا الامر راسي .

ان شائعة من هذا القبيل لخليقة أن تقلق البكوات في الظروف التي هم فيها ، بينما الجيش الفرنسي يحتل دلماسيا منذ سنة ، وبينما الصرب لا تكف عن التمرد والثورة . انهم قلقون قبل هـذه الاشاعة فكيف بهم بعدها ؟ وظلت وجوههم ساكنة ، وظلوا ينشقون أنفاس الدخان هادئين ، لكنهم قد اضطربوا في قرارة نفوسهم ، ولو لم يظهر ذلك عليهم . انهم يتحدثون في بطء ، واحدا بعد آخر ، دون أن يقطعوا في أمر من الامور ، يحاولون أن يحزروا ما عسى أن تكون دلالة هذا كله ، وما عسى أن يكون في النبأ من كذب وصدق ، ويحاولون أن يعرفوا الاجراءات التي ينبغي

---

(١) الاسم الذي كان يطلقه الاتراك على الشعب الخاضع لسلطانهم .

لهم اتخاذها لادراك حقيقة الامر وربما لوقفه في بدايته .

فبعضهم يرى أن في هذه الانباء مغالاة ، بل انها كاذبة يطلقها من له مصلحة في اقلاقهم وتخويفهم ، وبعضهم يقول في كثير من المرارة ان أزمنة جديدة قد وافت ، لا بالنسبة الى البوسنة وحدها بل بالنسبة الى استانبول والى العالم كله أيضا ، فما ينبغي أن يدهشنا شيء بعد الآن ، وانما ينبغي أن نتوقع كل شيء ؛ وبعضهم يعزّي نفسه قائلا ان الامر أمرُ ترافنك ، أمرُ بلدهم ترافنك ، لا أمـرُ أية قرية أو أية مدينة ، وما يقع لغيرهم لا يجب أن يقع لهم ولا يمكن أن يقع لهم . والخلاصة ان كلا منهم كان يقول شيئا ما ، ولو لاظهار وجوده ، لكنهم كانوا جميعا ينتظرون ما سيقوله عميد الحفل .

هو حمدي بك تسكرجتش ، شيخ عملاق ما يزال قوي الجسم ، وان اصبحت حركاته بطيئة . لقد اشترك في عدد من الحروب ، وجُرح كثيرا وأُسر غيرَ مرة . وله من ابنائه الاحد عشرة ومن بناته الثماني ذرية لا يحصى عددها . ان وجهه القاسي الوسيم مخددٌ بغضون عميقة ، محتفظٌ ببقع زرق خلفها فيه انفجار بارود . وهو يظل مسبلا جفنيه الثقيلين اللذين يشبه لونهما الرصاص .

وها هو ذا يقطع الفروض والمخاوف والظنون بصوت تروعك فتوته ، قائلا في بطء ولكن في وضوح شديد :

ــ دعونا من هذا كله ، دعونا . . . فما ينبغي أن نندب الحاج قبل أن يموت ، كما يقول المثل . فيم تقلق الناس في غير داع الى القلق . صحيح ان علينا أن ننصت الى كل شيء ، وأن نعي كل شيء ، ولكن يجب أن لا نأخذ كل شيء مأخذ الجد رأساً . من ذا الذي يعرف شيئاً عن هؤلاء

القناصل ؟ انهم اما ان يجيئوا واما ان لا يجيئوا . فان جاؤوا ظل نهر لاشفا يجري كما يجري الآن لا ينقلب عاليه سافله . نحن هنا في بلدنا ، واي غريب يجيء فلن يكون في بلده ، ولن يطول مكثه . ما أكثر من جاءوا الى هذا البلد يريدون ان يستقروا فيه ، ثم راينا ظهورهم جميعا ! فكذلك سيكون شأن القناصل ... هذا ان جاءوا ! ولكننا لم نرهم بعد ... وما طلبه ذلك الرجل من استامبول ليس امراً مقضياً ... وما من احد يحقق دائماً ما يريد !

قال حمدي بك هذه الكلمات الاخيرة في شيء من الحنق ، ثم توقف عن الحديث ، وزفر زفرة من الدخان في جو من الصمت المطبق . وأردف يقول بعد ذلك :

ـ وهب الامر حدث ... فانما المهم أن نرى كيف يدوم والى متى يدوم ... من ذا الذي تظل شمعته مشتعلة حتى الصباح ؟ لا أحد ، حتى ولا ... ولا ...

هنا غصّ حمدي بك وسعل ، من شدة غضبه الذي كبحه الى ذلك الحين : انه لم يستطع أن يعزم أمره على ذكر اسم بونابرت الذي كان في جميع الاذهان وعلى جميع الشفاه .

ولم يقل احد بعد ذلك شيئا ، وانقطع الحديث . واختفت الشمس وراء السحب ، وهبت ريح باردة قوية ، واهتزت أوراق أشجار الصفصاف على حافة النهر ، فنسمع حفيفها الذي يشبه أن يكون صليلا . ان هذه النسمة الباردة التي تهب على وادي ترافنك تؤذن عند جميع الناس بنهاية الاجتماعات والاحاديث « على الصوفا » . ونهض البكوات واحداً اثر واحد ، يعودون الى بيوتهم بعد تحية صامتة .

الفصل الأول

نحن في أول عام ١٨٠٧ ؛ ان مـدينة ترافنك ترى أمورا غريبـة لا عهد لها بها من قبل .

ما من أحد من سكان ترافنك قد خطر بباله يوما أن مدينته خلقت لحياة عادية وأحـداث بسيطة ، ما من أحـد خطر بباله هـذا ، حتى ولا أهون رجل من أولئك الرجال الجفاة الذين يعيشون عند قاعدة جبل فيلينتسا . وهذا الشعور الغـالب الذي يشعر به سكان المدينة جميعا ، وهو أنهم يختلفون عن سائر العالم وأنهم خُصوا من دون باقي الانسانية برسالة أفضل وأسمى ، قد انفذته في كل فرد منهم الرياحُ الباردة التي تهب من جبل فلاشتتش والمياه الصقعة التي تجري في نهر شوتسا ، وكذلك حقول القمح التي تتمـوج في رفق تحت الشمس . تلك عقيدة لا تبارحهم لحظة من اللحظات لا في الحلم ، ولا في أيام الشقاء ، حتى ولا على فراش الموت .

هي عقيـدة الاتراك من سكان المدينة أولا ، ولكن جميـع أفراد الديانات الثلاث ، المنتشرين على سلسلة الروابي الوعرة أو المتراصة في أطراف المدينة ، يشعرون هـذا الشعور نفسه ، كل على طريقته ووفقا لظروفه . والمدينة نفسها فذة شامخة بموقعها واستعدادها .

ليست ترافنك كلهـا في واقع الامر الا مسكنا واحدا ضيقا عميقا شكلته الاجيال المتعاقبة خلال قرون . انهـا مضيق محصن استقر فيه الناس الى الابد ، يتلاءمون معه ويلائمونه معهم .

ان الجبل ينحدر في جهتي المدينة قائما ، فما يدع في الوادي الذي يلتقي فيه جنباه الا ما يتسع للنهر وللطريق الذي يحفّي النهر . فكأن المدينة كتـاب مفتوح رسمت على صفحتيه حـدائق وشوارع صغيرة وبيوت ومقابر ومساجد .

لم يخطر ببال أحد يوما أن يحسب عدد ساعات النهار التي حرمت الطبيعةُ هذه المدينةَ منها ، لكن الامر الذي لا شك فيه هو أن الشمس تشرق على المدينة بعد شروقها على عدد لا حصر له من مدن البوسنة أو قراها ، وتغرب عنها قبل غروبها عن تلك المدن والقرى . ذلك أمر لا يماري فيه سكانها ، لكنهم يؤكدون أن الشمس لا تتوهج في مكان توهجَها فوق ترافنك .

وفي الوادي الضيق الذي يجـري في قرارته نهر لاشفا وتقطع شفيريه جداول وسدود وينابيع ، في هذا الوادي الرطب الذي تسفعه الرياح ، لا يجد المـرء طريقا يستحق أن يسمى طريقا ، لا ولا فسحة مستوية من الارض يمكن أن تطأها الاقدام في أمان . كل ما في الوادي وعر متفاوت متداخل : فالممرات والحواجز والردوب والحدائق الصغيرة والمقابر والمعابد والابواب تصل الارض بعضها ببعض تارة ، وتفصل بعضها عن بعض تارة أخرى .

وهناك على الماء ، على الماء العجيب ، القـلـّب الجبار ، انما يولد أهل ترافنك ويموتون ، وهنـاك يترعرعون ، ضعـافا صُفرا على مقاومة وعزيمة ، وهناك يعيشون منتصبين مزهوّين ، عقلاء معتدلين ، وقـناقُ الوزير على مرأى من أبصارهم . هناك يعملون ويجمعون حبوبهـم أو يبقون عاطلين فقراء . انهم جميعا يقظون متحفظون ، قلما يضحكون قهقهةً ، لكنهم يعرفون كيف يسخرون.يتكلمون قليلا هامسين . ومتى جاء أجلهم دفنوا في المقابر الموحلة ، كل على حسب دينه وطقوسه .

والاجيال الجديدة التي تحل محل الاجيال القديمة تشبهها جميعا .

ان الاجيال لا تتوارث صفات الجسم والروح فحسب ، بل تتوارث الارض والايمان ؛ وهي لا تتوارث ذلك الاحساس الفطري بالحدود التي يجب أن لا تقطع ، لا ولا تتوارث طرق المدينة المتداخلة وأبوابها وممراتها فحسب ، وانما تتوارث أيضا طريقة فكرية خاصة في معرفة العالم ومعرفة البشر .

ان أطفال ترافنك يجيئون الى العالم وهم يحملون هذا الزاد ، ويحملون زهوهم خاصة ، وهو زهو لا يشبه في شيء ذلك الرضى الساذج الذي يحسه من يغتنون من الفلاحين وصغار القرويين ، المعتزين بأنفسهم ، المتمادحين المتفاخرين ، وانما هو زهو يثوي في قرارة النفس ويقوم على وراثة قاسية ، ويعتمد على ما يعاهدون عليه أنفسهم وأسرهم ومدينتهم من رأي في أشخاصهم وفي مدينتهم ، وهو رأي عال لا نظير له .

ولكن لكل شعور حدودا وتخوما ، حتى شعور المرء بعظمته . فلئن كانت مدينة ترافنك مركز الوزارة ، ولئن كان سكانها ينعمون بغير قليل من الرعاية ويتصفون بكثير من التعقل والاعتدال ، ولئن كانوا قادرين على أن لا يخشوا حديثا بينهم وبين ممثل السلطة ، فانهم يتعبون أحيانا من هذا الزهو ويتمنون حياة هادئة خالية من الهموم في مدينة بسيطة ليست بذات مجد ، مدينة لا يختصم فيها الاباطرة ولا تتنازع عليها الدول الكبرى ، مدينة لا يتعرضون فيها لترجع الاحداث التي تهز العالم ، ولا لمرور شخصيات خطيرة الشأن أو ذائعة الصيت .

وكان الزمان لا يسمح لأحد أن يتنبأ بوقوع أحداث سارة . انه زمان لا يمكن أن يقع فيه خير .. لذلك كان أهل ترافنك الذين يتصفون بالحكمة والزهد معا ، يرجون أن لا يقع شيء البتة . كانوا يريدون أن يعيشوا بدون تغيرات وبدون مفاجآت ما أمكن ذلك .

أي خير يرجى حين يحتدم الاباطرة ، وتنزف دماء الشعوب ، وتشب الحرائق في البلاد ؟ أوزير جديد ؟ انه لا يمكن الا أن يكون شرا من سلفه • وستكون حاشيته مجهولة ، كثيرة العدد ، ذات مطالب لا يعرف المرء ما عسى تكون • « ان خير وزير هو ذلك الذي توقف في بريبوي ، ثم قفل راجعا الى استامبول ، لم تطأ قدماه أرض البوسنـــة » • أيأتي أجنبي من الاجانب ؟ أيأتي وافد مرموق ؟ ان المرء لا يعرف من عساه يكون • سوف يبـــذل بعض المال ، وسوف يوزع فـــي المدينة بعض الهدايا • ولكن سرعان ما يصل بعده رجال الشرطة ، فاذا الاستجوابات واذا التحريات : « من هو ؟ أين نام ؟ مع من تكلم ؟ » ، فما يخرج المرء من هذه البلبلة الا ويكون قد دفع عشرة أضعاف ما ربح • أيأتي جاسوس من الجواسيس ؟ عميل من عملاء دولة كبرى مجهولـــة مشبوهة المقاصد ؟ ان المرء لا يعرفه ولا يعرف ماذا في جعبته ، لا يعرف من يريد أن يسخره أداةً بيده ؟ ـ لا خير يرجى اذن ••• الا هـــذا القليل من الخبز ، وهذا القليل من الايام التي سيعيشها المرء طاعمـــا خبزه ناعما بحياة هادئة في هذه المدينة التي هي أعظم مدن الارض طراً • أما فيما عدا ذلك ، فالله نسأل أن يحمينا من الجـــاه العريض والوزراء الكبار والاحداث الضخمة !

كذلك كان يفكر أعيـــان مدينة ترافنك ابان تلك السنين الاولى من القرن التاسع عشر ، وذلك ما كانوا يتمنونه في قرارة نفوسهم • غير أن الطريق بين التمني والتفكير وبين التعبير الملحوظ أو الملفوظ عنهما ، طريق طويل متعرج وعر •

وقد وقعت أحداث وتحققت تبدلات منذ نهايـــة القرن المـــاضي ، أحداث وتبدلات من كل نوع وفي كل صوب ، تصادمت وأعصرت رياحها على أوروبا وعلى الامبراطورية التركية الكبرى ، ثم ألمت بهذا الوادي الضيق سيلاً يحمل ما جرف •

منذ انسحب الاتراك من المجر أصبحت علاقاتهم بالمسيحيين تزداد سوءاً ، وأصبح الوضع العام يتفاقم يوما بعد يوم . ان الاسياد والآغوات والجنود من رجال الامبراطورية التركية العظمى قد اضطروا الى الرحيل عن السهول المجرية الغنية ، والتقهقر الى مناطق ضيقة فقيرة ، فهم الآن منتفخون حقداً على كل ما يمت الى المسيحيين بصلة ، والمساكن الجديدة التي أووا اليها قد ازداد فيها عدد الافواه التي يقع عبء اطعامها على عدد من أذرع العاملين لم يزدد . ومن جهة أخرى كانت تلك الحروب نفسها التي قامت في القرن الثامن عشر فأجلت الاتراك عن البلاد المسيحية وردتهم الى البوسنة ، توقظ آمالا كباراً في نفوس المسيحيين ، وتفتح أمام أبصارهم آفاقاً لم تكن في الحسبان .

كان كل من الحزبين ـ اذا صح أن نتحدث هنا عن أحزاب ـ يناضل على طريقته بوسائل هي وليدة اللحظة والظروف . فأما الاتراك فبالقوة والقهر ، وأما المسيحيون فبالصبر والمكر ، وبالتآمر اذا مست الحاجة ، أو قل على الاقل انهم كانوا على استعداد لاستعمال وسيلة التآمر هذه . كان الاتراك يناضلون دفاعا عن حقهم في الحياة ، في الحياة التي يحبون أن يحيوها ، وكان المسيحيون يناضلون في سبيل الحصول على هذا الحق نفسه . أصبح المسيحيون لا يتحملون الاتراك كما كانوا يتحملونهم ، وأصبح الاتراك لا يطيقون أن يروا المسيحيين يرفعون رؤوسهم بدلا من أن يخفضوها كما كانوا يخفضونها من قبل . كانت المصالح المتعارضة والمذاهب المتعصبة والميول والآمال ، تتلفف كبةً متوترة تزيدها الحروب الطويلة بين تركيا وبين البندقية والنمسا وروسيا تشرجا وتشابكا . وكانت المعيشة في البوسنة تزداد من ذلك قسوةً يوما بعد يوم ، فالنزاعات تكثر ، والحياة تقل طمأنينتها ويربو تعقدها .

وفي مطالع القرن التاسع عشر قامت بلاد البوسنة بعصيانها على الاتراك • فكان ذلك ايذانا بنصر جديد • ان الكبة البوسنية تزداد الآن تشابكا •

فهذه الثورة الصربية قد فاقمت الصعوبات في بلاد البوسنة التي ما يزال يحتلها الاتراك ، وخاصة في مدينة ترافنك ، وجعلت الاذى الذي يلحق هذه البلاد أفدح • على أن هذه الثورة كانت تهم الوزير والسلطان ومدن البوسنة أكثر كثيرا مما تهم اتراك ترافنك • ان هؤلاء لم يشعروا يوما نحو حرب من الحروب بأن لها من خطورة الشأن ما يجعلها أهلا لأن يجازفوا في سبيلها بأموالهم وأرواحهم • فكانوا يتحدثون عن « عصيان قره جورج » وهم يصطنعون الاحتقار ، لكنهم كانوا في الوقت نفسه لا يقولون الا كلمات استخفاف وازدراء في حق الجيش الذي يرسله الوزير لمحاربة أهل الصرب ، والذي كانت السلطات الحائرة المفككة ترجعه فوضى الى أطراف ترافنك •

أما حروب نابوليون فلم تكن في أول الامر الا مدار أحاديث تتناولها على أنها أحداث بعيدة يتكلم فيها الناس ولكن لا يمكن أن يكون لها أثر في الحياة التي يحيونها • حتى اذا وصل الجيش الى دلماسيا قرَّب ذلك الرجلَ بونابرت من البوسنة ومن ترافنك قربا لم يكن في الحسبان • وفي ذلك الوقت نفسه هبط مدينة ترافنك خزرف محمد باشا الوزير الجديد الذي يفيض احتراما لنابوليون واهتماما بكل ما هو فرنسي • فقال أهل ترافنك : « هذا غلو ، هذا لا يليق بموظف كبير من موظفي الامبراطورية العثمانية » • ان أتراك المدينة يشعرون الآن بكثير من القلق والاضطراب • لن يحميهم من نابوليون هذا أن يسفهوه وأن يسفهوا انتصاراته ببضع جمل مصنوعة أو بمط الشفتين ازدراءً • ان الاحداث تصدر عنه الى أرجاء العالم كله صدورَ الامواج عن صخرة سقطت في الماء ، وتدرك كالوباء أو الحريق من يفر

منها ومن يبقى في مكانه ساكنا. ان هذا الفاتح المجهول الذي لا يُرى ، يبث الانفعال والقلق في ترافنك ، كما يبثهما في كثير من مدن العالم الاخرى . وسيظل هذا الاسم الصلب الرنان ، اسم بونابرت ، يملأ أسماع الوادي سنين طويلة ، وسيظل سكان ترافنك يلوكون أحرفه المعقدة شاءوا أم أبوا . سيظل هذا الاسم مدويا في آذانهم ، ساطعا أمام أبصارهم زمنا طويلا ...

ذلك أن زمان القناصل قد جاء .

. . .

يدرك المرء أن جميع سكان ترافنك بغير استثناء يحرصون على أن يظهروا بمظهر من لا يبالي الامر ولا يحفل به . غير ان الاشاعات التي تروج عن وصول القنصل الفرنسي تارة ، وعن وصول القنصل الروسي أو النمسوي تارة أخرى ، أو عن وصول القناصل الثلاثة معاً تارة ثالثة ، كانت تبث الاضطراب في نفوس الناس. صحيح أن قلة قليلة منهم كانت تعرف قيمة الاشاعات التي أخذت تروج منذ الخريف ، وتعرف القناصل الذين سيجيئون والعمل الذي سيقومون به . ولكن أية كلمة جديدة كانت كافية لأن توقظ الافتراضات في الاذهان ، وأن تطلق الالسنة بالكلام ، وأن تبعث الرغبات والمخاوف التي يكتمها الناس ولا يفصحون عنها .

فأما الاتراك من سكان البلاد ، الذين سبق أن أشرنا الى ما في نفوسهم من هم وقلق ، فقد كانوا يعلقون على الحادث المنتظر مستنكرين. انهم لا يثقون كثيرا بشيء يفد من الخارج ، ولا يحبون الجدة أيةً كانت ، لذلك ظلوا في قرارة نفوسهم يأملون أن يكون الامر أمرَ اشاعات كاذبة لا أساس لها من صحة : فقد لا يجيء القناصل ، وهبهم جاءوا فالرياح الهوج التي جاءت بهم قد تردهم الى حيث كانوا .

وأما المسيحيون ، كاثوليكيين كانوا أم أرثوذكسيين ، فانهم متفقون على الابتهاج ، يتناقلون الاشاعات مستبشرين ، لانها تعدهم بتبدل ، وكل تبدل فهو في رأيهم الى تحسن • على أن لهم آراء مختلفة ، وربما متعــارضة •

فالكاثوليكيون ، وهم الاكثرية ، يحلمون أن يجيء قنصل نمسوي قوي يحمل اليهم من امبراطور فيينا العظيم المعونة والحماية • والاقلية الارثوذكسية التي تُطارَد منذ العصيان الصربي ، لا تتوقع شيئا كثيرا من قنصل فرنسا ولا من قنصل النمسا ، وان كانت ترى أن وصولهما ايذان بضعف السلطة التركية ، وباقتراب عهود أفضل ، مضيفةً الــى ذلك قولها : « لن يحدث شيء طبعاً ما لم يصل قنصل روسي » •

وكان اليهود لا يستطيعون تجاه هــذه الانباء أن يحافظوا علــى هدوئهم الاسطوري الذي اكتسبوه خلال العصور • كانت نفوسهم تشتعل حماسةً متى تصوروا أن قنصل الامبراطور العظيم قد يجيء • لأن هذا الامبراطور كان في نظرهم « رحيماً كأب » •

ان هذه الاشاعات التي تنطلق عن وصول القناصل كانت تنبجس على حين فجأة وتتضخم تضخما هائلا ثم ما تلبث أن تختفي بغتة لتعاود الظهور بعد بضعة أسابيع في صورة جديدة وقد ازدادت قوة •

وفي منتصف فصل الشتاء الذي كان في تلك السنة رفيقا غــير قاس ، أدرك الناس أن وصول الدبلوماسيين الاجانب أصبح أمراً محققاً لا شك فيه • ان يهوديا من مدينة سبليت يقال له بادرو قد أخذ يبحث بالتعاون مع تاجر من ترافنك اسمه آتيجاس عن بيت يمكن أن يصلح مقراً لقنصل فرنسا ، وطاف لهذا الغرض ببيوت كثيرة • زار القايمقام وشاهد العمارات التي تملكها ادارة المباني ، واستقر أخيرا على مبنى يشبه أن يكون مهجورا ، مبنى ينزل فيه التجار الوافدون من دوبروفنك

ويسمى لذلك « خان دوبروفنك » ، وهو يقع فوق الكتّاب ، وتحيط به حديقة منحدرة . فما ان تم استئجاره حتى شرع العمال في ترميمه واصلاحه ، فاذا بالمنزل الذي كان قبل ذلك يتثاءب على العالم بجميع نوافذه المفتوحة ، يعود الآن الى الحياة ويصبح محط أنظار الصبية والمتسكعين .

ثم انصبت الاحاديث كلها بعد ذلك (لا تدري كيف ؟) على اللافتة التي ستحمل اسم القنصلية ، وعلى العلم الذي سيرفرف فوق بابها ، وتلك أمور لم يسبق لاحد أن رآها من قبل . كان الاتراك لا ينطقون بهاتين الكلمتين (اللافتة والعلم) الخطيرتين الثقيلتين الا نادرا ، ولا ينطقون بهما الا مقطبين عابسين . ولا كذلك المسيحيون ، فقد كانوا يتمتمون بهما كثيرا في غير قليل من الخبث والمكر .

كان الاتراك أعقل وأصلف من أن يظهروا انفعالهم على ملأ من الناس ، ولكنهم كانوا يعوّضون عن ذلك في خلوتهم : ان الباب الذي كان يحمي حدود الامبراطورية ينهار ، ولم تعد البوسنة بلاداً يمشي عليها العثمانيون وحدهم ، وسيرفع المسيحيون رءوسهم أكثر مما كانوا يستطيعون رفعها من قبل . ان هذه الفكرة ترهق الاتراك منذ الآن . لم يبق الا أن يجيء قناصل الكفار وجواسيسهم يشيرون في كل خطوة الى سلطة ملوكهم وقوة دينهم !... سيزول الحكم الصالح اذن شيئا بعد شيء ، سينحسر عن البوسنة التركية عهد « الطمأنينة » الذي أخذ يتضعضع منذ زمن . لقد أرادت مشيئة الله « أن تمتد حدود الاتراك حتى نهر سافي ، وأن يكون الاجانب على الضفة الاخرى » ، فما الذي تغير ؟ « ما عسى يقع لنا ؟ من عسى يجيء أيضا ؟ » كذلك كان شيوخ الترك يتساءلون في مرارة .

وكان كل ما يقوله النصارى عن افتتاح القنصليات الاوروبية

يسوّغ قلق الاتراك • كان النصارى يتهامسون قائلين : « سيخفق العلم ! » ، وكانت أعينهم تسطع أثناء ذلك حماسةً كأن الاعلام أعلامهم هم • أي علم ؟ ما عسى يحدث حين يُرفع ؟ ما من أحد يعرف ذلك ، غير أن المسيحيين كان يكفيهم أن يتصوروا أن العلم التركي الاخضر قد ترفرف الى جانبه أعلام" ذات ألوان أخرى حتى تفيض نفوسهم بمشاعر لا يمكن أن يحسَّها غيرهم • ما أكثر الفقراء الذين أصبحوا ، متى سمعوا هاتين الكلمتين : « سيرفرف العلم » ، يشعرون بمزيد من النور في بيوتهم ، ومن الامتلاء في بطونهم الخاوية ، ومن الدفء تحت ملابسهم الرقيقة ! ازاء هاتين الكلمتين البسيطتين اللتين لا تحملان معنى محددا ، ما أكثر القلوب التي خفقت ، وما أكثر الاعين التي سطعت لها رؤى ألوان زاهية وصلبان مذهبة ، وما أكثر الآذان التي صدح فيها خفق رايات الاباطرة والملوك المسيحيين مظفَّرا عاصفا كالاعصار ! ان من يحتفظ بارادة الكفاح ، وارادة البقاء في الحياة بالكفاح ، قد تكفيه كلمتان طعاما •

وكان تجار البازار ينتظرون من هذا الحدث خيرا • ان الاشخاص الجدد المجهولين الذين سيصلون قد يكونون أغنياء ، وذلك يفتح لتجار لسوق آمالا في الربح • لا بد لهؤلاء الاشخاص أن يشتروا وأن ينفقوا • لقد ضعفت التجارة منذ زمن ، وخاصة منذ العصيان الصربي • فالفلاحون يصادَرون من حين الى حين ليكلفوا بنقل المؤن والقيام ببعض الاعمال من غير أجر ، فأصبحوا لبعدهم عن المدينة لا يبيعون شيئا ولا يشترون الا ما هم في أمس الحاجة اليه • وما تشتريه الدولة لا تدفع الا بعض ثمنه بين الفينة والفينة • وسلافونيا قد أُغلقت منذ وصول الفرنسيين • وأصبحت دلماسيا سوقا غير مأمونة ولا مطردة • ان بازار ترافنك يأمل أن يحمل اليه وصول القناصل تبدلا وتحسنا في البيع والشراء •

وحدث أخيرا ما تحدث الناس فيه أشهرا • فوصل قنصل فرنسا ، أولَ من وصل •

حدث ذلك في أواخر شهر شباط ، في آخر يوم من رمضان • ان سكان المدينة الواطئة قد رأوا دخول القنصل الى ترافنك قبل الافطار بساعة ، حين غربت شمس الشتاء الباردة عن سماء المدينة •

كان أصحاب الدكاكين قد أخذوا يُدخلون بضائعهم ويغلقون أبوابهم حين ظهر صبية الغجر راكضين مسرعين يؤذنون بقدوم الموكب • انه ركب صغير ، يسير في مقدمته مندوبا الوزير ، وهما رجلان من عيون رجال البلاط قد هبطا حتى نهر لاتشفا لاستقبال الفرنسي ، وعلى الجانبين وفي الخلف يسير حرس المحافظ ليفنو الذين رافقوا القنصل في رحلته كلها ولاحت فيهم آثار التعب والعرق والهزال فوق خيولهم المهملة المشعثة ، وفي الوسط يسير مسيو جان دافيل ، قنصل فرنسا العام ، وهو رجل فارع القامة ، زاهي اللون ، أزرق العينين ، أشهب الشاربين ، يمتطي حصانا عجوزا أرقش ، والى جانبه رفيق من رفاق المصادفة ، هو مسيو بوكفيل الذي كان ذاهبا الى جانينا للحاق بأخيه ، قنصل فرنسا هناك • ووراءهما كان يسير بادرو ، يهوديُّ سبليت ، ورجلان قويان من سنج مستخدمان لدى الفرنسيين ، وكان هؤلاء الثلاثة متدثرين حتى الأعين بمعاطف سوداء وعباءات من عباءات الفلاحين وقد حشوا أحذيتهم قشاً •

الركب صغير كما ترون ، وقد حرمه الشتاء من كل أبهة : فالبرد يفرض ملابس ثقيلة ، وتنفساً قصيراً ، وسيراً سريعاً • ان الموكب لم يهز صبية الغجر كثيرا ، وبدا عالم ترافنك ساكنا لا يبالي • فالاتراك يتظاهرون بأنهم لم يروا شيئا ، والمسيحيون لا يجسرون أن ينظروا ، وحتى الذين استطاعوا منهم أن يرقبوا المشهد كله مختبئين، خيَّبظنَّهم

هذا الدخول التافه المخذول يدخله قنصل بونابرت • أما كان يليق بقنصل عظيم ، بموظف كبير ، أن يرتدي ملابس زاهية لامعة ، وأن يعلق على صدره النياشين والاوشحة ، وأن يمتطي جيادا رائعة أو أن يركب عربة فخمة ؟

الفصل الثاني

الدار الكبيرة التي ستستقر فيها قنصلية فرنسا لن تكون مهيأة قبل خمسة عشر يوما . لذلك أرسل القنصل حاشيته الى أحد الفنادق ومضى يسكن مع بوكفيل في منزل جوزيف باروخ ، أغنى يهود ترافنك وأخطرهم شأنا . ان جوزيف باروخ قد وضع تحت تصرف القنصل الفرنسي الطابقَ الارضي من منزله .

ففي هذه الدار الجميلة على صغرها ، انما استيقظ القنصل في صباح أول يوم من أيام عيد الفطر . كان يحتل غرفة كبيرة على ناصية المبنى ، لها نافذتان تطلان على النهر ، ونافذتان أخريان مزدانتان « بالمشربيات » تطلان على الحديقة الخاوية المتجلدة التي لا تذوب عنها حبيبات الندى المتجمدة طوال النهار . ان في الطابق الاعلى جلبة قوية ما تنفك تدوي ، فأولاد باروخ يركضون ويصرخون ، وأمهم تحاول أن تسكتهم بالتهديد والوعيد والشتم واللعن .

وفي المدينة تدوى أصوات مدافع وطلقات بندقيات يطلقها الصبيان ، والموسيقى الغجرية تشق الآذان : طبلان يدقان على وتيرة لا تتغير ، ووراء ذلك ، في الظل ، تنفث شابة" ألحانا غريبة ، فطورا تعلو أصواتها ، وطورا تنخفض انخفاضا لا ينتظر . هي فترة من الفترات النادرة أثناء السنة ، تخرج فيها ترافنك عن هدوئها المألوف .

ان من الاصول المتبعة أن لا يخرج القنصل من بيته الا بعد أن يقوم بزيارته الرسمية للوزير . لذلك لبث دافيل ثلاثة ايام ينظر الى

ذلك النهر نفسه والى تلك الحديقة المتجلدة نفسها ، ويسمع تلك الاصوات نفسها التي تدوي في البيت والمدينة ، ويشم تلك الرائحة نفسها ، رائحة مطبخ يهودي فيه شيء من اسبانيا وشيء من الشرق ، وهي مزيج ثقيل من روائح الزيت والسكر المحروق والتوابل والبصل • وهو يتحدث مع مواطنه بوكفيل ، ويتلقى أخبارا ويصدر أوامر بشأن الاحتفال بزيارته الاولى للوزير التي حدّد يوم الجمعة موعدا لها ، أي غداة اليوم الاخير من أيام عيد الفطر • وقد أهدى اليه قصر الوزير شمعتين كبيرتين وزبيبا ولوزا •

كان الوسيطَ بين القنصل والقناق رجلٌ يقال له سيزار دافنا ، وهو طبيب الوزير وترجمانه • ان سيزاري دافناتو ، الذي يرجع الى أصل بياموتني ، ولكنه ولد في سافواي ، وحصل على الجنسية الفرنسية ، قد درس الطب في مدينة مونبلييه مسمّياً نفسه سيزار دافنا• وعلى نحو لا يُفسر ولم يفسَّر ، وصل من مونبلييه الى القسطنطينية ، حيث أصبح طبيبا مساعدا لرئيس البحرية التركية الاكبر ، كوشوك حسين ، ومنذ ذلك الحين سماه الاتراك « دافنا »•حتى اذا أصبح محمد باشا وزيرا لمصر أخذ دافنا من كوشوك حسين ، واصطحبه ، ثم ردّه معه الى ترافنك طبيبا وترجمانا ورجلا يستطيع أن يعمل كل شيء في كل ظرف • انه رجل فارع القامة طويل الساقين أسود الشعر مضفوره، له وجه عريض حائل اللون محلوق الذقن يحركه فم شهواني وعينان متقدتان ، وما تزال فيه ثقوب قليلة لكنها عميقة خلّفها فيه مرض الجدري • وهو يعنى بهندامه على الزي الفرنسي القديم ، ويدأب على عمله في كثير من الاخلاص ، فسرعان ما أصبح مفيدا لمواطنه القنصل •

كل شيء جديد على القنصل ، فيومه ينقضي بين ألف أمر غريب ،

ويشقه بين الفينة والفينة شهاب من الافكار يركض من الحاضر الى الماضي ، ويحاول أن يرسم المستقبل •

والليالي ثقيلة بطيئة لا تنتهي • ان الفرنسي لا يطيق أن يرقد واطىء الرأس على فراش لا يكاد يعلو عن مستوى الارض ، فراش من صوف توقظه رائحته كما توقظه رطوبة الالحفة المتكدسة • وأطباق الطعام الشرقية التي يصعب أكلها ويصعب هضمها أكثر من أكلها ، كانت تحرق جوفه حرقا ، فهو ينهض ليشرب ، فاذا الماء البارد يؤلم صقيعه حلقه ومعدته •

كان في النهار ، أثناء حديثه مع بوكفيل أو دافنا ، واثقا من نفسه : ان اسمه ، ولقبه ، ومنزلته ، والمهمات التي ُوسِّدت اليه في هذه المقاطعة التركية (التي أرسل اليها كما كان يمكن أن يرسل الى أي ركن من العالم) كل ذلك واضح بيِّن جلي • أما في الليل ، فهو لا يشعر بأنه دافيل الحاضر فحسب ، بل دافيل الماضي أيضا ، بل ودافيل الذي كان ينبغي أن يكونه • ان هذا الرجل الراقد في ظلمة ليالي شباط رجل معقد ، غريب عن نفسه ، بل هو يجهل نفسه جهلا تاما في بعض لاحيان ، حتى اذا طلع الفجر وصدحت موسيقى البيرم وانطلقت جلبة الاطفال ، استيقظ من نومه ، وظل زمنا لا يثوب الى نفسه ، ولا يعرف أين هو ، وانما هو يترجح بين الحلم والواقع • فأما الحلم فيتناول الحياة التي عاشها حتى الآن ، وأما الواقع فيشبه حلما من تلك الاحلام التي يرى فيها النائم أنه قذف على حين فجأة الى بلاد عجيبة بعيدة ، وأصبح في وضع لم يكن في الحسبان • لذلك كان يشق عليه أن يهجر الحلم الذي يريه صورا مألوفة ليعود الى هذا الواقع الغريب ، واقع قنصل في هذه المدينة البعيدة من الامبراطورية التركية ، مدينة ترافنك •

• • •

تلك الانطباعات الاولى كانت تمتزج بها هموم مهمته الحالية ، وذكريات حياته الماضية الفياضة المضطربة التي تتراءى له الآن فوضى في نور يبدل معالمها .

ان جان باتيست اتيين دافيل أقرب الى الاربعين منه الى الثلاثين : رجل أشقر فارع الجسم ، لا تقل نظرته استقامة عن قامته . لقد ترك مدينته التي ولد بها ، في السابعة عشرة من عمره ، ومضى الى باريز ينشد الثروة والمجد ، فعلَ كثير غيره . فما هي الا بضع محاولات حتى التقطته الثورة وأدخلته في اعصارها . فهجر الوظائف المتواضعة ، واقتحم الحركة الثورية ، وأصبح صحفيا ، فنشر قصائد شعرية ، ونشر عددا من مقالات النقد الادبي ، لكنه لم يلبث أن صب اهتمامه على جلسات المجالس النيابية ، فكان يبث في المقالات التي يكتبها عنها كل ما يستعر في شبابه من حماسة . طاحونة الثورة تدق كل شيء ، والامور تتبدل وتختفي لا تخلف أثرا ، والاشياء والنظم والبشر تُطرد من طرف من الافق الى طرف آخر ، فتنتقل من الولادة الى الشهرة أو من العار الى الموت .

في تلك الازمنة المضطربة ، وفي تلك الظروف التي سنعود اليها بعد ، أصبح دافيل متطوعا في الجيش ضد اسبانيا بعد أن كان صحفيا، ثم ترك الجندية وعُيِّن موظفا في وزارة « العلاقات الخارجية » الجديدة ، فكلف بمهمات في ألمانيا ، ثم في ايطاليا لدى الجمهورية السيزالبينية ، ولدى حكومة مالطة . وعاد الى باريز مرة أخرى محررا أدبيا في جريدة « لو مونيتور » . ثم أُرسل آخر الامر قنصلا عاما عليه أن ينشيء قنصلية ترافنك ، وأن يقيم علاقات تجارية بين فرنسا وتركيا ، وأن يساعد سلطات الاحتلال الفرنسية في دالماسيا ، وأن يرقب حركات الرعايا المسيحيين في الصرب والبوسنة .

تلكم هي ، في بضعة أسطر خلاصة حياة الرجل الذي ينزل الآن ضيفا على أسرة باروخ • ولكن صاحبنا ، بعد ثلاثة أيام من انحباسه في هذه المواضع التي لم تكن في الحسبان ، قد بلغ من شدة الشعور بالغربة أنه أصبح يبذل جهدا كبيرا من أجل أن يتذكر من هو ، وماذا كان ، ومن أين أتى ، وكيف جاء الى هذا المكان ، ولماذا يجب عليه أن يظل طوال النهار ذاهبا آيبا على هذه السجادة البوسنية الحمراء •

ما ظل الانسان في بيئته المألوفة وظروفه العادية ، فان الاعمال التي تقلَّب عليها تمثل حياته في نظره كما تمثلها في نظر الناس • حتى اذا انعزل لمرض أو لعمل مرهق أو لحادث جرف كل شيء ، شحبت هذه المظاهر وحالت ألوانها وجفت ، وانقشعت انقشاع قناع من ورق يابس يرميه عن وجهه ، فاذا هو يرى تحت تلك المظاهر حياةً أخرى ما رآها أحد غيره ، هي قصة روحه وجسمه الصادقة ، قصة لم تسجل في مكان ولا يمكن نقلها الى أحد ، قصة حياة لا صلة لها بضروب النجاح والاخفاق التي أصابها في العالم ، ولكنها الحياة الوحيدة التي لها شأن ، الحياة الوحيدة الواقعية ، الحياة الوحيدة التي لها وزن •

ولقد انعزل دافيل حين صار الى هذه الغربة الموحشة • فكان اذا ران السكون في الليل المظلم الذي لا يطلع له صبح ، فألقى نظرةً الى وراء ، بدت له حياته سلسلة طويلة ، لا يعرفها غيره ، من المساعي وضروب النضال البطولي ، وألوان السعادة والنجاح والقطيعة واليأس والشرور والتضحيات الباطلة والمساومات العقيمة • انه ، في هذه الظلمات وهذا الصمت من هذه المدينة التي ما كاد يستشفها ، والتي تنتظره فيها صعوبات جمة ، وهموم كثيرة من غير شك ، يحس أنه لا شيء في هذا العالم يمكن أن يُصالَح أو أن يُرسَّخ • لقد سبق له في ظروف كثيرة أن قام بجهد كبير وأظهر شجاعة خارقة ، ولكن من ذا الذي يستطيع في هذه الظلمات أن يتصور مآل جهد يبذله ؟

وما عسى أن يصنع المـــرء ، حتى لا ينحدر الى هوة اليـــأس ، الا أن يخادع نفسه ، ويكدس فوق المشاريع القـــديمة مشاريع جديدة لن ينجـــزها أكثر من غيرها ، وأن يبحث في محاولات جـــديدة عن قوة جديدة وحظ أفضل . بذلك يسرق المرء نفسه ، ويصبح مدينا ما تنفك تتراكم ديونه ، ديونه على نفسه وعلى الآخرين ، مدينا ما يفتأ ييأس من الوجود مزيدا من اليأس .

تلك كانت الخواطر والذكريات التي تغزو شعور دافيل . ولكنها لم تلبث أن حلّت محلّها شيئاً فشيئاً ، هموم الزيارة الرسمية التي عليه أن يقوم بها ، أعني زيارة الوزير .

انتهت تلك الايام الثلاثة الطويلة مع لياليها الثلاث الطويلة . وفي ذلك الصباح ، قال دافيل لنفسه ، يلهمه الحدس الذي يوافي أولئـــك الذين تألموا ، قال لنفسه : « ربما كانت هذه الايام الماضية أهدأ وأحسن الايام التي يخبئها لي القدر في هذا الوادي الضيق » .

. . .

في ذلك الصباح ، كانت تُسمع تحت النوافذ أصوات حوافر الخيل، وأصوات صهيلها ، في ساعة مبكرة . استقبل القنصل رئيس المماليك الذي يرافقه دافنا ، استقبله في أبهة متصلب الجسم . وتم كل شيء على نحو ما كان يُنتظر أن يتم . كان المـــماليك الاثنا عشر هنـــاك ، المماليك الذي جاء بهم محمد باشا من مصر ليكونوا حرسا له ، وكانت جميع الانظار متجهة الى أشرطتهم المنسوجة من ناعم الحرير والذهب ، المعقودة عقـــدا فنيا جميلا ، والى أسيافهم المقوسة المتدلية على جنبات الخيول في كثير من العنفوان ، والى ملابسهم الفضفاضة الحمراء بلون القرمز .

ان الخيول المخصصة لدافيل وحاشيته مزدانة بحلية الاحتفال من رأسها الى الذنب ، والقيادة محكمة ، والنظام كامل •

جهد دافيل أن لا يظهر عليه شيء من التكلف وهو يمتطي صهوة جواده الهادىء ، الطاعن في السن قليلا ، الكبير الردفين ، وكان قد ارتدى لباسه الرسمي الواسع ، فالمعطف الازرق ينفتح عن الصدر انفتاحا عريضا ، فيسفر عن تطريزات الفضة وأزرار الذهب وأوسمة الشرف • وكانت قامته المديدة وهيئته الجميلة تضفيان عليه مهابة تؤثر فيمن يراه •

وجرى كل شيء على خير حال حتى الشارع الرئيسي فكان القنصل الى تلك اللحظة راضيا • فلما بلغ الموكب أولى البيوت التركية ، أخذت تتصاعد همهمات : فتاة صغيرة تشق أول باب ، فتبصق على أرض الشارع ، وتدمدم بعبارة من عبارات الرقى والسحر • والابواب والحواجز تقرقع بعضها وراء بعض ، تُفتح ثم تُغلق ، أو ترفع ثم تخفض ، بعد أن تطل منها في خلال لحظة سريعة وجوهٌ متشنجة من الغيظ والحنق والكره والتعصب • والنساء تبصق ، والاطفال يصيحون بشتائم ترافقها حركات تهديد ، أو ترافقها اشارات بذيئة لا لَبْس فيها ، يلطمون أردافهم تارة ، ويحركون أيديهم حركة من يذبح عنقا بسكين تارة أخرى •

واذ كان الشارع ضيقا ، وكانت الشرفات البارزة من الجهتين تزيده ضيقا ، فقد مر الموكب بين صفين من الشتائم وصيحات التهديد والوعيد • وقد اراد القنصل ، منذ أن أدرك الموقف ، أن يغذّ خطى حصانه ، ولكن دافنا دنا بدابته منه ، ودمدم يقول له بصوت منفعل ، دون أن تفضح حركاتُه أو اماراتُ وجهه عواطفه :

ـ أبتهل الى سيادتك أن تظل سائرا في هدوء ورفق ، وأن لا تعبأ

بشيء البتة • هذا شعب متوحش ، هؤلاء أناس يكرهون كل ما هـو أجنبي • والخير أن لا تلاحظ فظاظتهم • فكذلك يفعل الوزير • أضرع اليك أن تتابع المسير •

جهد دافيل أن يخفي دهشته الحانقة ومضى يتابع طريقه • والحق أن أحدا من حرس الوزير لم يحفل بالشارع وأهله ، ولكن دافيل شعر بالدم يغلي في رأسه • كانت أفكاره تتصادم في رأسه : هل عليه ، وهو ممثل نابوليون العظيم ، أن يحتمل هذا الاستقبال ، أم عليه أن يستدير على عقبيه وأن يعود أدراجه مُحدِثا أزمة ؟ ولم يستطع أن يعزم أمره على شيء ، لانه يخشى أن يسيء الى سمعة فرنسا ، وأن يخلق بنفاد صبره نزاعا من شأنه أن يفسد علاقاته بالوزير وبالاتراك منذ أول يوم • واذ عجز عن أن يقرر شيئا ، شعر بمذلة وفاضت نفسه حنقا وغيظا • وبدا له ذلك المشرقي دافنا رجلا خسيسا لانه ما يزال يهمس وراء ظهره بغير توقف :

ــ أرجو من سيادتك أن تتابع المسير لا تلوي على شيء • هذه عادات أهل البوسنة المتوحشة • الى الامام ، في هدوء ••

شعر دافيل بالعرق يسيل على وجهه رغم البرد • وأصبحت دمدمة دافنا تثير فيه الاشمئزاز ، وهو يحس احساسا قويا بأن هذا الشرقي قد نفذ اليه وسيطر عليه •

وأخذت نساء البيوت الاخيرة تبصق على الفرسان ، فتوقف القنصل مرة أخرى ، ولكن دافنا ألح عليه فتابع المسير تقوده خطى الموكب الهادئـة • ووصل الموكب الـى السوق • ان الاتراك واقفون أمـام الدكاكين الواطئة ، تجارا وزبائن ، يدخنون أو يثرثرون •

يحس المرء هنا بأنه انتقل من غرفة اشتد حرها من فرط التدفئة الى غرفة أقرب الى الطراوة : فلا نظرات وحشية ، ولا حركات متحدية ،

ولا بصقات • الشارع هنا محفوف بوجوه قاسية هادئة • ما مِن أحـد من أصحاب الدكاكين أو المشترين رضي أن يشرّف هذا الموكب الفخم النادر بنظرة واحـدة • ان نظراتهم القليلة كـانت تتجه الى رفوف المخازن • هل يستطيع أحد غير الشرقيين أن يكره هذا الكره ، وأن يعبر عن كرهه بهذا الاحتقار الصامت الذي يجرح مثلما يجرح الغضب ؟ وكان دافنا قد صمت ، وجعل حصانه على مسافة من حصان القنصل هي المسافة الواجبة •

ودار الموكب يمنةً آخر الامر ، نحو جدران القناق الطويلة العالية• ان القناق مبنى كبير جميل منسجم تشقه صفوف من النوافذ المستورة • ان منظر هذا المبنى يروّح عن النفس •

لبث دافيل زمنا طويلا يتذكر هذا الكابوس الذي ظل يتجدد سنين طويلة ، ذلك أن دافيل كان كلما ذهب الى استقبال من الاستقبـالات ــ وكان هذا أمرا شائعا في تلك الازمنة المضطربة ــ يمر بالمدينـة والسوق ، متصلبا على صهوة جواده ، لا ينظر يمنة ولا يسرة ، ولا يرفع بصره كثيرا ولا يخفضه كثيرا ، ولا يظهر اهتماما ولا ابتساما ولا غضبا ، وانما يمضي رصينا هادئا ، محتفظا بتلك النظرة المتكلفة التي نراها على لوحات المعـارك في أعين القادة الكبار ، تلك النظرة التي تخترق المعركة وتمضي باحثة في بعيد ، في مكان بين الطريق والافق ، عن نجدة مؤمَّلة أو مهيَّأة • ظل الاطفال الاتراك يبصقون من أفواههم الصغيرة زمنا طويلا ، مقلّدين سابقيهم ، وظل البـائعون يتظاهرون بأنهم يبحثون عن شيء من الاشياء فيديرون للقنصل ظهورهم• كان على القنصل أن يمضي في هدوء وجلال ، وأن يخفي المضض الذي يوقظه في نفسه كره" كهذا الكره ، وأن يخفي معه خوفه من حادث يمكن في كل لحظة أن يقع ، كما يخفي اشمئزازه من هذه المهنة وهذه الحياة • وبعد ذلك ، حتى حين ألف هذا العالم كله ، وحين عرف كثيرا

من الناس واقترب منهم وتودد اليهم ، ظلت ذكرى ذلك الموكب الاول لا تبارح خياله ، خطاً أسود مشتعلا يستعصي على النسيان •

اجتاز الموكب الجسر الخشبي محدثا ضجة صماء ، ثم وصل الى الباب الكبير ، فاذا بمصراعيه ينفرجان دفعة واحدة بعد قرقعة ناشئة عن ازاحة المزاليج •

رفعت الستارة عن ذلك المسرح الذي ظل دافيل ، طوال ثماني سنين ، يمثل فيه دورا واحدا ، عقيما وشاقا •

انفتح الباب الكبير • ان هذا الباب سيظل يبدو لدافيل بوزا ضخما ملوثا ، ملوثا بكل ما كان يعيش في القناق ويكبر ويتعذب ، بكل ما كان يُنفق في القناق أو يتبدد • لقد كان دافيل يعرف أن المدينة وضواحيها التي فُرض عليها أن تطعم الوزير وذويه ، كانت تقدم في كل يوم قرابة سبعمائة أقة من مختلف الاطعمة ، وأن هذا كله كان في كل يوم يُقتسم أو يؤكل أو يُسرق •

لقد كان يعيش في القناق الى جانب الوزير وأقربائه أحد عشر موظفا من كبار الموظفين ، واثنان وعشرون حارسا ، وعدد يساوي هذا العدد من المتعطلين ، والطفيليين الاتراك ، والعمال أو المستخدمين المسيحيين ، يُضاف الى ذلك كله عدد لا نهاية له من الخيول والابقار والكلاب والقطط والطيور والقرود • ان رائحة الدهن والسمن تفوح من المكان كله ، فتُمرِض من كان لا يألفها ، رائحة كريهة كانت ترافق القنصل الى بيته بعد كل استقبال طوال النهار ، وتثير فيه الغثيان كلما تذكرها • بدا له القناق متشبعا بهذه الرائحة كتشبع الكنائس برائحة البخور التي تنفذ في الملابس والجدران بل وتنفذ في أجسام الناس •

انفتح الباب أمام القنصل لاول مرة ، ونزل المماليك عن جيادهم ،

ودخل دافيل مع حاشية صغيرة الى الفناء الاول • انه فناء ضيق معتم ، لان ظل البيت يغشاه كله • وبعد الفناء الاول يأتي الفناء الثاني ، وهو مكشوف في وسطه بئر وعشب ، وفي أركانه أزهار ، وفي آخره حاجز مغلق يخفي الحديقة الخاصة بالوزير •

ان الاستقبال السيء الذي لقيه دافيل في المدنية منذ هنيهة ، يجعله أقوى شعوراً بالحفاوة الجميلة التي تلقاه بهاهذه الفئة القليلة من علية القوم ورجال البلاط الذين يغلون من حوله ويركضون بين يديه في تعجل ونشاط لا يعرفهما البروتوكول الغربي •

واذ كان سليمان باشا سكوبلاك ، مساعدُ الوزير ، غائبا ، فان السكرتير هو الذي تقدم يسلّم على القنصل أول المسلّمين ، ثم تبعه رجال السلاحدار والجوخدار والخزندار ، أي كبار الموظفين جميعاً • وأخذت جمهرة الاطفال والشخصيات التي تتبع رجال البلاط بدون وظيفة معينة ، أخذت تشق طريقها الى الصف الاول بضربات من الكوعين ، فبعضهم يخفض الرأس ويقول كلمات ترحيب لا تُفهم ، وبعضهم يباعد الذراعين متجهاً نحو « قاعة المجلس » • ودافنا الطويل يمضي الى كل جهة من الجهات مسرعا لا يراعي أحداً ، فيؤنب أولئك الذين يعرقلون المرور تأنيبا عنيفا ، ويصدر الأوامر ، ويرفع صوته صائحا • فكان دافيل يسير متحيرا ، ولكن على هدوء ومهابة ، مقودَ الخطى نحو القاعة ، كأولئك القديسين التي يصورهم مصورو الكنيسة الرومانية صاعدين الى السماء يحملهم سرب من صغار الملائكة • كذلك كان هذا الحشد يحمل القنصل حملاً الى الدرجات العريضة القليلة التي تصعد من الفناء الى « الديوان » •

ان « الديوان » ، أي قاعة المجلس التي تقع في الطابق الارضي ، قاعة عريضة مظلمة ، تصطف على جدرانها أرائك مغطاة بأغطية حمراء ،

ويفرش أرضَها سجـاد ، وفي ركن من أركانهـا قرب النافذة ترتفع فُرُش عالية مخصصة للوزير وضيفه • وعلى الحائط تتدلى أوسمة السلطان المنقوشة بالذهب فوق قـاع أخضر ، ووراء اللوحة سيف ومسدسان ومعطف أحمر هي عطايا السلطان سليم الثـالث لصفيّه الأثير عنده محمد باشا خزرف • ان هنالك قاعة أخرى تقع في الطابق الاول فوق هذا الديوان ، وهي دون الديوان أثاثا ورياشا ، لكنها أملأ بالنور منه ، وفيها يعقد الوزير مجلسه صيفا •

ان جدارين من جدران هاتين القاعتين تشغلهما نوافذ من زجاج تطل من جهة على الحديقة وعلى الأسيجة المائلة نحو الوادي ، وتطل من جهة ثانية على نهر لاشفا وعلى السوق وراء الجسر • هذه هي النوافذ الزجاجية الشهيرة التي طالما تحدث عنها الناس وتغنوا بهـا ، والتي لا يملك أحد مثلها في البوسنة كلها • لقد استقدمها محمد باشا من النمسا مع صانع مكلفٍ بتركيبها •

كان ضيف الوزير اذا هو جلس على فرش القاعة العليا يستطيع أن يرى من خلال النوافذ شرفة القناق أولاً ، وأن يرى بعد ذلك تحت السقف ، حزماً طويلة من قش ، منبسطة على لوح من خشب السنديان، هي عش لأطيـار السنونو التي تُسمع زقزقتهـا ويُرى ذهـابهـا • انها لمتعة أن يجلس المرء في هذا المكان قرب النور ، مطلا على الخضرة وعلى الشجيرات المزهرة ، تهب عليه أنسام عليلة ، ويسمع خرير الماء وتغريد الطيور • ما أكثر ما اُتخذ من قرارات خطيرة في ذلك المكان ، ولكن هذه القرارات تبدو في القاعة العليا أكثر خفةً وضياءً وانسانية منها في قاعة الطابق الأرضي •

هاتان القاعتان من القناق هما الحجرتان الوحيدتان اللتان سيدخلهما دافيـل طوال اقامته في ترافنك ، همـا المسرحان الوحيـدان اللذان

ستدور عليهما مشاهد همه ولذته ، ونجاحه واخفاقه • هنالك في هاتين القاعتين سيعرف الاتراك ، وهنالك سيدرك حدود قدرته ، وهنالك سيتعلم كيف يفهم العالم فهماً أصدق ، وكيف يعرف الناس والعلاقات التي تجمع بينهم وتفرق بينهم معرفة أكمل •

واذ كان الوقت شتاء ، فقد تم الاستقبال الاول في ديوان الطابق الارضي ، الذي تدل رائحته على أنه ُفتح ودُفيء أولَ مرة في هذا الشتاء لهذه المناسبة •

ما كاد القنصل يضع قدمه على الدرجات حتى انفتحت الابواب في الجهة الاخرى ، فطلع الوزير بلباسه الفخم ، يتبعه رجال حاشيته العظام، وقد خفضوا رءوسهم وعقدوا أذرعتهم على صدورهم في مذلة •

كان هذا تنازلاً كبيراً عن البروتوكول التقليدي ، استطاع دافيل أن يحظى به عن طريق دافنا بعد ثلاثة أيام من المفاوضات • كان دافيل يحرص أشد الحرص على أن يزيّن تقريره الاول الى وزير الخارجية بذكر هذا التنازل •

لقد أراد الأتراك أن يستقبل الوزيرُ القنصلَ كما يستقبل جميع الزوار ، أي دون أن ينهض عن فرشه ؛ وأراد القنصل أن يحييه الوزير وأن يستقبله واقفاً ، ومن أجل أن يحظى بذلك ذكرَ ما لفرنسا من قوة ، وما لامبراطوره من مجد حربي ، فذكر الأتراك في مقابل ذلك ، تقاليدَهم وعظمة امبراطوريتهم • واتّفق أخيرا على أن يدخل الوزير والقنصل الى القاعة في لحظة واحدة ، وأن يلتقيا في وسطها ، وأن يقود الوزير القنصلَ من هناك الى المكان المرتفع درجتين ، حيث الفراشان العاليان ، فيجلسا معاً في آن واحد •

وكذلك كان • سار الوزير (وهو يعرج على قدمه اليمنى ، ويسميه الشعب لذلك توبال باشا) سار خفيف الحركة سريعَ الخطى ، كما

يفعل العرجُ في كثير من الأحيان ، فتقدم نحو القنصل وعرض عليه في كثير من المودة أن يجلس ، وجلس دافنا بينهما على درجة أدنى ، منطوياً على نفسه ، عاقداً ذراعيه فوق ركبتيه ، خافضاً بصره ، مصغراً حجمه ، غيرَ محتفظٍ من أنفاسه ومن فكره الا بالقدر اللازم لنقل الكلام والأفكار من أحد هذين الرجلين العظيمين الى الرجل الآخر • واختفى سائر الجمهور دون ضجة ، ولم يبق الا الخدمُ وقد اصطفوا على أبعاد قصيرة ينقلون الى القنصل والوزير الصواني التي تحمل مايقضي البروتوكول بتقديمه •

قدّمت الغلايين أولا ، ثم القهوة فالشراب • وجاء خادم يحبو على ركبتيه ، ويحمل وعاءً مسطحاً عليه عطر قوي ، فعرضه تحت ذقن الوزير وشاربي القنصل على نحو ما تُعرض مبخرة • ثم جيء بالغلايين والقهوة مرة ثانية ، بسرعة أيضاً ، وفي كثير من الخفة والرشاقة ، دون لفت انتباه أحد ، واستمر ذلك طوال الساعة التي استغرقها الحديث •

كان الوزير امرءاً متوقد الذهن ، دمث الطبع ، منفتح النفس اذا قيس بالشرقيين • وقد سبق أن سمع عنه دافيل ذلك • وعلى أنه لا يجهل قيمة اصطناع وضع من الأوضاع ، فقد أمتعته هذه اللفتات الجميلة التي تختلف كل الاختلاف عما شهده أثناء اجتيازه المدينة ، والتي تبعث في نفسه فرحا كبيرا • وصفا وجهه من الاحتقان بالدم ، وراح يتذوق عبق الغلايين ونكهة القهوة ، وهدأت نفسه قليلا قليلا ، رغم أنه لم ينس تلك الانفعالات القريبة التي اعتملت فيه منذ قليل • وتعرض الوزير لهذا الموضوع من تلقاء نفسه ، فأشار الى توحش هذه البلاد ، والى فظاظة شعبها المتخلف ، قائلا ان الطبيعة هنا فجة ، وان الناس لا يطاقون ، وماذا ننتظر من نساء وأطفال لم يهب الله لهم عقلاً ، في منطقة يتصف رجالها أنفسهم بالعنف والغلظة ؟ ثم ان ما يفعله أو يقوله هذا الشعب لا قيمة

له ولا شأن ، وليس له على كل حال أي أثر في الامور التي يعالجها أناس مثقفون جادون.« الكلب ينبح والقافلة تسير » ، بهذا ختم الوزير كلامه ، وأغلب الظن أنه أنبيء بما حدث ، فأراد أن يلطف الجو ويسوّي الامور .

ثم انتقل فوراً ، بعد ذكر هذه التفاصيل المزعجة ، الى الكلام على انتصارات نابوليون وعلى ما تتميز به من عظمة فريدة ، وأشار الى أن التعاون الوثيق الواعي بين الامبراطورية الفرنسية والتركية يمكن أن يكون على جانب عظيم من علو القيمة وخطورة الشأن . وأحسّ القنصل أن هذه اعتذارات غير مباشرة يقدمها الوزير عن الاستقبال الحانق الذي لقيه ، فكانت تطفف خطورة الحادث في عيني القنصل ، فصفت نفسه ، ونظر الى الوزير في انتباه ، متذكرا ما قاله دافنا عن هذه الشخصية .

ان خزرف باشا ، الملقب توبال باشا ، هو من أصل جيورجي ، اقتيد الى القسطنطينية عبداً منذ نعومة أظفاره ، وعُرف في خدمة حسين باشا رجلاً خفيف الظل ، بارع الحديث وفياً لأوليائه . حتى اذا بلغ الواحدة والثلاثين من عمره عُيِّن وزيراً لمصر ، غير أن هذه الحكومة قد ساء مصيرها ، وكان من شأن الثورة الكبرى التي قام بها المماليك أن اضطرت محمد باشا الى ترك البلاد . ومع ذلك لم تسقط حظوته لدى السلطان سقوطاً تاما ، فما هي الا فترة قصيرة قضاها في سالونيك حتى عُيِّن وزيراً للبوسنة . كانت العقوبة اذن طفيفة ، وزاد محمد باشا في تطفيفها متظاهراً بأنه يجهل كل الجهل أنها عقوبة . وقد جاء من مصر بثلاثين رجلا من المماليك الأوفياء . وكان يحلو له أن يقوموا بتمارينهم في حقول ترافنك ، فان هؤلاء الرجال الذين يرتدون أجمل الأزياء ، ويأكلون أطيب الطعام ، يثيرون استطلاع الناس ويُعلون سلطة الباشا : ان أتراك البوسنة يضمرون لهم اعجاباً خفياً وان كرهوهم . ومما كان

يثير اعجاب الأهالي مزيداً من الاثارة أيضا ، تلك الحظيرة التي يملكها الوزير : ما رأى الناس في البوسنة قبل ذلك جيادا تضارعها عـددا وروعـة •

كان الوزير شابا ، وكان مظهره أصغر سنا من عمره ؛ ان انتصاب قامته واشراق ابتسامته يجعلانه يبدو أفتى وأطول • وكان يخفي عرجه بقصة ملابسه ، وبسرعة حـركاته التي يحسبها في براعة محكمة ، فاذا اضطر أن يظل واقفا اصطنع وضعا يخبيء آفته ، واذا كان عليـه أن يتحرك انطلق في الحركة انطلاقا قويا مفاجئا ، فكان ذلك يضفي عليه مظهر النضارة والفتوة • لم يكن فيه شيء من ذلك السكون الجـامد الذي يتصف به الاتراك ، والذي طالما سمع عنه دافيل • وكانت ألوان ملابسه وقصّاتها بسيطة ، لكن من يراها يشعر ان الرجل قد أحسن انتقاءها • وكان الى ذلك واحدا من أولئك الناس الذين يخلعون على زيّهم وحليهم وجاهة •

أما وجهه ، الملوّن كوجوه البحارة ، المحفوف بلحية سوداء وشعر فاحم قصير ، فقد كانت تسطع فيه عينان سوداوان متوجهتان ، وهو في العادة منطلق الاسارير ضاحك القسمات •

ان محمد باشا واحـد من أولئك الرجـال الحاذقين الذين يخفون مواقفهم الحقيقية وراء ابتسامة دائمة ، ويخفون أفكارهم أو قل يخفون فقدان الافكار عندهم وراء تدفق لسانهـم بكلام حي نشيط • ان كل ما يقوله يُشعر السامعَ بأنه ليس الا ايذانا بما يمكن توقعه منه أيضا ، ومهما يكن هذا السامع على علم سابق بطبع الرجل ، فانه لا يستطيع أن يمتنع عن الشعور بأنه أمام انسان معتدل لكنه كريم ، انسان مستعد لا لبذل الوعود فحسب ، بل لتحقيق هذه الوعود متى استطاع وحيث استطاع • ولكن ما من نفاذ في البصيرة يقـدر أن يدرك قيمة هـذه

الوعود على وجه الدقة ، ولا أن يحدّدها تحديدا صحيحا •

وتبارى القنصلُ والوزيرُ في سوق الحديث الى الموضوعات التي يعرف كل منهما أنها أثيرة عند صاحبه • فالوزير يمجد عظمة نابوليون ويشيد بانتصاراته • والقنصل ــ وقد حدثه دافنا عن أذواق صاحبه ــ يعود بالحديث الى مشكلات البحرية وحرب الاساطيل • ذلك ان الوزير كان كلفا بالبحر شغوفا بحياة البحر ، ولئن كان الجرح الناشيء عن اخفاقه بمصر ما يزال نازفا ، فان الامر الذي كان يؤلمه في أعماق نفسه أكثر من أي شيء آخر هو أنه مُبعد عن البحر مسجون في هذه المقاطعة الجبلية الباردة • وكان يراوده هذا الحلم : أن يصبح في يوم من الايام خلفا لرئيسه العظيم حسين باشا ، وأن يكمل ، وهو على رأس سلاح البحرية ، مشاريعَه الخاصة ببناء البوارج الحربية التركية ••

وافترق القنصلُ والوزيرُ بعد ساعة ونصف ساعة من الحديث ، افترقا افتراق صديقين قديمين ، وقد اقتنع كل منهما بأنه سيجني من الآخر أشياء كثيرة ، ورضي كل منهما عن الآخر كرضاه عن نفسه •

وأحدث الانصراف من العجلة ومن الضجة أكثر مما أحدث الوصول• وجيء للقنصل بمعاطف جميلة من فراء السنور والجوخ ، كما جيء لحاشيته بمعاطف من فراء الثعلب • وأخذ رجل يبتهل بأدعية تستمطر الرحمة والبركة على الضيف ، وراح سائر الحاضرين يرددون الدعاء بصوت واحد • وشيَّع كبارُ رجال القصر القنصلَ الى وسط الفناء الداخلي ، الى المصطبة التي سيمتطي القنصل جواده من فوقها ، وكانوا يسيرون باسطين أذرعهم كأنما هم يحملونه • ركب دافيل حصانه ، فخلعوا عليه فوق ملابسه معطف الفراء الذي أهداه اليه الوزير • وكان المماليك ينتظرون في الخارج ، فسار الموكب عائدا في الطريق الذي سار فيه آتيا • فكان دافيل ، رغم تلففه بالمعطف ، يشعر بقشعريرة

تسري في جسمه اذ يتصور الاستقبال الـذي ينتظره بين الـدكاكين والابواب والنوافذ زاخراً بمشاعر الكره مليئا بأنواع التهديد والوعيد • ولكن سبق أن قلنـا ان أيامه الاولى في ترافنك ستظل تبعث في نفسه الدهشة : صحيح ان البائعين ظلوا جامدين قساة أثناء عودته ، ولكنه لم يسمع أي شتيمة تنطلق من البيوت • ولقد أحس احساسا واضحا أن عيونا كثيرة كارهة كانت ترقبه من وراء النوافذ ، ولكن ما من كلمة قيلت ! وشعر شعورا غامضا بأن معطف الوزير هو الـذي ربما كان يحميه ، فاذا هو يزداد تلففا به على غير ارادة منه • وانتصب على دابته ، ووصل رافعَ الرأس أمام الفناء المسيَّج من منزل باروخ •

• • •

حتى اذا صار وحيدا في غرفته المدفأة ، جلس على الاريكة الخشبية وحلّ أزرار ردائه الرسمية ، وزفر زفرة طويلة • كان يحس أنه محطم ، كأنه رمى نفسه على هذه الاريكة من عل • انه لمَّا يستطع بعدُ أن يتبين ما جرى له تبينا واضحا • لقد تحرر أخيرا ، لكنه لا يعرف ماذا يصنع بحـريته • وخطر له أن يرقد ليستريح ، لكن بصره وقع على المعطف الذي أهدي اليه ، فتذكر فجأة ، على ألم ، التقاريرَ التي يجب أن يرسلها الى وزير العلاقات الخارجية ، والى سفير فرنسا بالقسطنطينية • ان عليه أن يعيد مرة أخرى كل ما وقع له ، وأن يعرضه عرضا لا يبعده عن الواقع ولكن لا يسيء الى مهابته • ان هذا الواجب يبدو له الآن جبلا رهيبا عليه أن يقطعه •

وغطّى عينيه بيده اليمنى ، وتنفس تنفسا عميقا عدة مرات ، ثـم دمدم أخـيرا يقول : « يا رب ، يا رب ! » وظل غاطسا في أريكته • فتلك كانت راحته ، وذلك كان نومه •

الفصل الثالث

أسوأ صعوبات المهمة تعرض لها دافيل في مطالع عهده ، ذلك شأن أبطال الحكايات الشرقية ينتصب أمامهم كل ما يمكن أن يبث الهلع في نفوسهم وأن يحملهم على هجر الطريق التي اختاروها • ان كل ما صادفه دافيل في البوسنة ، وكل ما لقيه فيها سواء من وزارة العلاقات الخارجية أو من سفارة فرنسا بالقسطنطينية أو من القائد الحربي في مدينة سبليت ، قد جاء مكذبا لكل ما قيل له في باريز قبل سفره •

بعد أن أقام دافيل بضعة أسابيع في منزل باروخ مضى يستقر في دار القنصلية • لقد أثّث من هذه الدار حجرتين أو ثلاثا ، كما استطاع أن يفعل وكما عرف أن يفعل • ثم عاش في هذا المنزل الواسع الخاوي وحيدا مع عدد من الخدم •

لقد بقيت زوجته في سبليت عند أسرة فرنسية ، لأنها انتظرت ولادة ولدها الثالث ولم يرض زوجها أن ينقلها وهي على تلك الحال الى مدينة تركية مجهولة ، ثم لم تبل من متاعب الوضع الا في بطء وتعثر ، حتى لقد اضطرت أن تؤجل سفرها عدة مرات •

ولقد عاش دافيل حتى ذلك الحين حياة عائلية جدا ، لم يفترق عن امرأته في يوم من الايام ، لذلك كان وضعه الحالي يؤلمه ايلاما خاصا ، فالوحدة وفوضى البيت تضافان الى قلقه على امرأته وأولاده • وكان بوكفيل قد ترك ترافنك بعد بضعة أيام ، وتابع رحلته الى الشرق •

ناهيك عن هموم المهمة الملقاة على عاتقه • ان دافيل يحس منذ الآن بأنه منسي متروك لنفسه • ان وسائل العمل والكفاح التي وعد بها قبل سفره الى البوسنة ، أو التي طلبها بعد ذلك ، كان بعضها لايفي بالحاجة ، وبعضها الآخر لم يوهب له • كان عليه ، وقد تُرك بغير موظفين يساعدونه ، أن يتولى بنفسه كتابة جميع أعمال القنصلية وأن ينسخها وأن يهيئها • أضف الى ذلك جهله بلغة البلاد ، فماذا يصنع الا أن يستخدم دافنا ترجمانا للقنصلية ؟

وكان الوزير سخيا كريما فتنازل له عن طبيبه ، وسُرَّ دافنا بالدخول في خدمة فرنسا • صحيح أن دافيل قد استخدمه وهو يشعر بكثير من الحذر ، بل وبشيء من الاشمئزاز لا بد له من اخفائه ، ولكنه كان يدرك فائدة هذا الرجل الذي لا غنى عن الاستعانة به • واستطاع دافنا أن يجد رجلين موثوقين أحدهما من ألبانيا والثاني من الهرسك ، فاتخذهما حارسين للقنصلية ، وتولى هو أمور الخدم ، وأصبح ينوب عن القنصل في كثير من الامور الصغيرة المزعجة • واستطاع القنصل خلال العمل اليومي الذي يقومان به معا أن يعرفه مزيدا من المعرفة •

ان دافنا ، وقد عاش في الشرق منذ ريعان شبابه ، قد اكتسب عددا من المزايا والعادات المشرقية • المشرقي رجل لا تقيده الاوهام والوساوس ، له وجه متغير عليه أن يتلاءم مع الظروف ، وأن يمثل دور المجاملة كما يمثل دور الشجاعة ، وأن يمثل دور المذلة كما يمثل دور الحماسة : فكل شيء عنده انما هو أداة من أدوات الكفاح في سبيل الحياة ، والحياة في المشرق أصعب منها في أي مكان آخر ، وأعقد منها في أي مكان آخر • فاذا خاض أجنبي هذا الكفاح فقد شخصيته الاصلية • انه ، ولو مكث في المشرق قرنا بكامله ، لن يعرف الا ما يساعده أو ما يعوقه في هذه المعركة التي يخوضها ، فهو يستمد من

الاتراك ما في طباعهم من جوانب رديئة ، ولكنه لا يكتسب ميزة واحدة من مزاياهم الحميدة ، ولا عادة واحدة من عاداتهم الحسنة .

وكذلك دافنا . انه في ابان شبابه الماجن لم يكتسب من اتصاله بالعثمانيين أية خصلة حسنة . والرجال الذين ينتمون الى هذا النوع ، تصبح شخصيتهم قاتمة مرة ثقيلة على أنفسهم وعلى غيرهم ، متى انتهت حياة الحواس عن التلظي . ان دافنا ذليل أحقرَ الذل ، ضعيف أكبرَ الضعف ازاء من يملكون القوة أو السلطة أو الغنى ، ولكنه متكبر متغطرس قاس لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا ازاء كل من هو ضعيف أو فقير أو ناقص .

هناك أمر واحد كان يرفعه وينقذه . ان له ابنا شابا ، ذكيا جميلا ، فكان همه الاكبر أن يعنى بصحة هذا الفتى وتربيته ، وقد فعل في سبيل ذلك كل شيء ، وكان مستعدا لان يفعل في سبيل ذلك كل شيء . فكانت عاطفة الابوة تخلصه من عيوبه شيئا بعد شيء ، وتجعله أدنى الى الخير وأقرب الى الانسانية ، فكلما كبر الابن صارت حياة الاب أنقى واصفى ، وكلما خدم أحد الناس ، أو امتنع في اللحظة المناسبة عن اقتراف شر من الشرور قال لنفسه قول من يؤمن بالخرافات: «لسوف يُردّ هذا الى الصغير » . وكما يحدث في كثير من الاحيان ، كان هذا الاب الفاسد لا يتمنى شيئا مثل ما يتمنى لابنه أن يعيش حياة شريفة مستقيمة ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان لا يعز عليه أن يبذل أية تضحية من التضحيات .

هكذا أحيط هذا الصبي الذي لا أمّ له بكل ألوان الرعاية والعناية التي يمكن أن يحاط بها ابن من الابناء . فكان يشتد ساعده واثقا بأبيه ، كشجرة فتية مشدودة الى ركيزة متينة صلبة . وكان جميلا كأبيه ، لكن قسماته ألطف وأكثر انسانية . انه سليم الجسم والنفس جميعا .

وكان دافنا يتمنى ، خفيةً ولكن بعنف ، أن يُفلت ابنه من الحياة التي يعيشها هو ، حياة العبودية الذليلة . كان يريد لابنه أولا أن يتم دراسته في فرنسا ، وأن يدخل بعد ذلك في خدمة فرنسا . ومن أجل هذا خاصة انما كان يبذل كثيرا من النشاط والحماسة في عمله بالقنصلية ، وكان يظهر كثيرا من التعلق والارتباط بالقنصل . ويمكن الاعتقاد على هذا الاساس بأن اخلاصه كان صادقا ، وسيكون ثابتا .

. . .

ان حياة القنصل الجديد لا تجري من غير هموم ومتاعب . الاموال لا تصله من فرنسا الا في فوضى وبطء ، ناقصةً نقصاء كبيرا بسبب فرق اسعار النقد . هذا فيما يتعلق بالاعتمادات التي سبق أن رصدت ، أما الاموال الجديدة التي طلبها فقد كانوا يرفضون اعتمادها في كثير من الاحيان ، وتُرسِل اليه « المحاسبة » بدلا منها تعللات غريبة لا تُفهم ، كما ترسل اليه بلاغات سخيفة يمكن أن تبدو لدبلوماسي مهجور في عزلته نوعا من السخرية الدامية . من ذلك أنه صدر اليه أمر صارم بأن تقتصر علاقاته على القناصل الاجانب وحدهم ، وأن لا يحضر الحفلات التي يقيمها الوزراء والسفراء الا بعد حصوله على اذن خاص من سفيره أو وزيره . ومن ذلك أيضا بلاغ ينظم الاحتفال بعيد نابليون في اليوم الخامس عشر من شهر آب فيقول : « ان نفقات الزينة ونفقات الاوركسترا في الحفلة الراقصة التي ستقام بهذه المناسبة يجب أن يتحملها القنصل العام نفسه » .

حين قرأ دافيل هذه الاوامر ابتسم ابتسامة مرة ، وطافت في خياله صور الموسيقيين الثلاثة في ترافنك ، وهم ثلاثة من الغجر يرتدون أسمالا بالية ، اثنان منهم يقرعان طبولا كبيرة ، والثالث ينفخ في الناي ،

فاذا جاء عيد الفطر أو عيد الاضحى ، ثقّبوا بموسيقاهم آذان الاوروبيين الذين حُكم عليهم أن يعيشوا في هذه البلاد . وتذكر في الوقت نفسه كيف احتفل أول مرة بعيد الامبراطور ، أو قل كيف بذل جهوداً شقية من أجل تنظيم احتفال بهذا العيد .

عبثا حاول ، بواسطة دافنا ، أن يظفر بزيارة بعض كبار الاتراك له في ذلك اليوم . حتى ذلك العدد القليل من شخصيات القناق الذين وعدوه بالمجيء لم يجيئوا . ورجال الدين المسيحيون رفضوا تلبية الدعوة رفضا لبقا لكنه قاطع . والاسقف باهوميجي لم يرفض الدعوة ولا قبلها ، لكنه لم يجيء . ولم يأت الا اليهود ، وكان عددهم أربعة عشر شخصا ، حتى أنهم اصطحبوا نساءهم على خلاف ما جرت به العادات والتقاليد .

ولم تكن مدام دافيل قد وصلت الى البوسنة . فكان دافيل يمثل وحده دور رب البيت ، مرتديا ملابس الاحتفالات ، ومعه دافنا والحارسان . قدّم للمدعوين وجبة خفيفة من الطعام ، مع نوع من الخمر الفوار جيء به من سبليت . وألقى بضع كلمات في تمجيد امبراطوره ، أضاف اليها شيئا من الاشادة بمدينة ترافنك قائلا انها مدينة عظيمة . لقد قدّر أن اثنين من هؤلاء اليهود على الاقل يتجسسان للوزير ، وأنهما سينقلان اليه خطابه ، وأن الناس جميعا في المدينة سيتحدثون عما قاله القنصل . وكانت اليهوديات أثناء الخطاب جالسات على الديوان ، عاقدات أذرعهن على بطونهن ، يملن برؤوسهن تارة نحو الكتف اليسرى وتارة نحو الكتف اليمنى . أما الرجال من اليهود فكانوا ينظرون الى أمام ، وكأنهم يقولون : « صحيح ، الامر كذلك حقا ، ولكننا لم نقل شيئا نحن ! » .

وكانت الخمرة تنعشهم ، وقد أرادوا جميعا أن يقولوا للقنصل

شيئا ، لكن دافنا الذي لا يحب اليهود ، كان يترجم أقوالهم على مضض ، فلم يستطع أن يلبي رغباتهم جميعا • وأخذوا يتكلمون بالاسبانية ، فاذا بألسنة النساء تنطلق من عقالها • وحاول دافيل من جهته أن يعيد الى ذاكرته نحواً من مائة كلمة كان قد تعلمها أثناء اقامته في اسبانيا جنديا • ثم أخذ الشباب يغنون • ومن سوء الحظ أن أحدا منهم لا يعرف أغاني فرنسية ، وأن أحدا منهم لم يشأ أن يغني أغاني تركية • وأخيرا أخذت مازالتا ، زوجة أخي بن صهيون ، تصدح بأغنية اسبانية ، لاهثةً بعض اللهاث من الانفعال ومن السمنة المبكرة أيضا ، وهذي حماتها ، وهي امرأة نشيطة ودود ، تبلغ من المرح أنها تصفق بيديها ، وتهز جذعها ، مصلحةً منديل رأسها على ايقاع الموسيقى ، لأن نشوة الخمرة لا تنفك تميل بالغطاء الى أمام •

ذلك كل ما كان يمكن ايجاده في ترافنك للاحتفال بعيد أكبر امبراطور في العالم • فرحة ساذجة لعدد قليل من الناس البسطاء ! وتأثر القنصل من ذلك وحزن في آن معاً •

لقد آثر من الناحية الرسمية أن لا يذكر ذلك • وهو في تقريره الذي بعث به الى وزارة العلاقات الخارجية عن الاحتفال بعيد الامبراطور في مدينة ترافنك ، قد تحدث خَجِلاً بعبارات غامضة عن احتفال « يناسب ظروف البلاد وعاداتها الخاصة ! » • لكنه حين قرأ البلاغ الذي يشير الى الحفلات الراقصة والاركسترات والزينات شعر برغبة غامضة في أن يضحك وأن يبكي معاً •

ومن أكبر همومه أن ضباطا وجنودا كانوا يأتون من دالماسيا في طريقهم الى القسطنطينية مارين بالبوسنة • ان هناك اتفاقا معقودا بين الحكومة التركية وسفير فرنسا يوجب أن يتولى معلمون من الضباط الفرنسيين تدريبَ القطعات التركية • وقد بدأ هذا التعاون حين هاجم

الانجليز مضيق الدردنيل وهددوا القسطنطينية : فعندئذ هب سفير فرنسا ، سيباستياني ، وعدد صغير من الضباط الفرنسيين المَوجودين هنالك الى مساعدة السلطان سليم في الدفاع عن عاصمته • وبعثوا يطلبون من باريز عددا آخر من الضباط ، فأصدرت باريز أمرها الى الجنرال مارمون ، القائد في ايليريا ، بأن يرسل هؤلاء الضباط الى استامبول ، مجموعاتٍ صغيرة ، عن طريق البوسنة • وكلّف دافيل بأن يؤمن مرورهم وأن يهيء لهم مرافقين وخيولا •

لقد أدرك القنصل جدوى اتفاق يُبرم مع الباب العالي !•••
كانت اجازات المرور اللازمة للضباط لا تصل في حينها ، وكان على الضباط الفرنسيين أن ينتظروها في ترافنك • فكان القنصل يستحث الوزير ، وكان الوزير يستحث القسطنطينية ، وكان ذلك كله يستغرق وقتا طويلا ، حتى اذا وصلت اجازات المرور آخر الامر ، ظهرت صعوبات جديدة تقطع سفر الضباط ، وتجعلهم يضيعون وقتهم في قرية ما من قرى البوسنة •

وكان وجود القطعات الفرنسية في دالماسيا يثير في نفوس أتراك البوسنة حذرا يخالطه كره • لقد أشاع العملاء النمسويون بين الناس أن الجنرال مارمون ينشيء على طول الشاطيء طريقا ستكون قاعدة لاحتلال البوسنة ، فكان ظهور الضباط الفرنسيين في البوسنة يأتي مصدِّقا لهذه الاشاعة • وهكذا فان هؤلاء الضباط الذين استقدموا حلفاءَ بدعوة من الحكومة التركية كانوا يستقبلون بالشتائم منذ وصولهم الى ليفنو ، وكانوا يثيرون أمورا هي أسوأ من الشتائم عند كل خطوة يخطونها •

كان دافيل ، في بعض الاحيان ، يستقبل في آن واحد بضع عشرات من الضباط أو الجنود الذين لا يستطيعون أن يتقدموا في البلاد ولا

يجرؤون أن يعودوا • وعبثا كان الوزير يطلب الى البكوات من وجوه البلاد أن لا يعاملوا بهذه المعاملة أصدقاءَ يصلون تلبية لرغبة البـاب العالي • وعبثا كان الوزير يهدد ويتوعد • لقد كانت الامور تسوّى بالكلام ، فالبكوات يعدون الوزير ، والوزير يعد القنصل ، والقنصل يعـد الضباط بأن العـداوة التي يظهرها لهم الاهالي سوف تنقطع ، حتى اذا تقدموا في الغـداة استقبلوا في أول قرية استقبالا يبلغ من السوء أنهم يعودون أدراجهم الى ترافنك وقد امتلأت نفوسهم مرارة وحنقـا •

وعبثا كان دافيل يرسل التقـارير تلو التقـارير موضحا المواقف الحقيقية التي يقفها الاتراك سكان البلاد ، مبينا عجز الوزير عن لجمهم وعن فرض أي شيء عليهم • لقد ظلت القسطنطينية تطلب ضبـاطا ، وظلت باريز تصدر أوامرها بارسال هؤلاء الضباط ، وظلت سبليت تنفذ هذه الاوامر ، وظل الضباط يظهرون في ترافنك ويتلبثون فيهـا مستائين بانتظار أوامر جديدة • كان كل شيء يسير مقلوبا ، وكان كـل شيء يقع على كاهل القنصل •

وعبثا كذلك كانت السلطات الفرنسية في دالماسيا تذيع نداءات ودية موجهة الى السكان الاتراك ، نداءات مكتوبة بلغـة أدبية وأسلوب منتقى • لقد كان جميع الناس تقريبا يرفضون أن يقرأوا هذه النصوص، والذين يقبلون أن يقرأوها لا يفهمون منها كبير شيء • لا حيـلة لأحد في دفع هذا الشك الـذي يراود نفوس السكان فطرة ، فيجعلهم يرفضون أن يقرأوا وأن يسمعوا وأن يروا ، ويأبون أن يصغوا الا الى صوت غريزتهم العميقة التي تهيب بهم أن يكرهوا وأن يدفعوا هؤلاء الاجانب الذين يقتربون من حـدود وطنهم ويحاولون أن ينفذوا الى بـلادهم •

وتوقفت الاوامر التي كانت ترسل الى تركيا ضباطا معلمين ، توقفت على حين فجأة في شهر أيار من ذلك العام • لقد شبت في تركيا ثورة خلعت سليم الثالث عن العرش • ان هذا السلطان المتمدن الراغب في الاصلاح قد سجنه في السراي خصوم متعصبون ، وأحلوا محله السلطان مصطفى • وبذلك أصيب النفوذ الفرنسي بضعف شديد • ولكن لئن لم تصدر بعد ذلك الحين أوامر جديدة ، فان الاوامر التي سبق اصدارها ظلت تنفذ تنفيذا آليا ، فظل يصل الى ترافنك ، على حين بغتة ، خلال مدة طويلة ، ضابطان أو ثلاثة ضباط لم يبق لانتقالهم أي مسوغ •

وكان لهذه الاحداث السيئة فضل واحد على الاقل ، هو أنها حررت القنصل من عبء ثقيل كل الثقل ، ولكنها سرعان ما هددته بكارثة كبيرة • ان دافيل لم يجد قبل الآن سندا الا في شخص محمد باشا • صحيح أنه أدرك أن سلطة الوزير على بكوات البوسنة محدودة، وأن تأثيره فيهم ضئيل ، فان عددا كبيرا من وعوده لم يتحقق قط ، وان عددا كبيرا من أوامره لم ينفذ أبدا • ولكن لا يمكن أن يشك أحد في صدق نيته • لقد أراد أن يكون صديقاً للفرنسيين ، وأراد أن يبرهن على هذه الصداقة ، سواء أكان مرد ذلك فيه الى ميل طبيعي أم الى حساب • أضف الى هذا أن ما يمتاز به محمد باشا من طبع لين وتفاؤل دائم وسهولة باسمة في مواجهة المشكلات وحل الصعوبات ، كان لدافيل سندا معنويا أمده بقدرة جديدة على احتمال متاعب حياته الجديدة كبيرها وصغيرها •

فاذا بثورة ايار تضعضع موقف محمد باشا • ان سقوط السلطان سليم قد حرم محمد باشا من دعم القسطنطينية ، بالاضافة الى أن الاهالي في البوسنة كانوا يكرهونه لانه صديق للفرنسيين ونصير للاصلاحات • ولئن أراد أن لا يفقد أمام الاهالي ابتسامته العريضة

ولا أن يفقد ذلك التفاؤل الذي ليس له من جذور الا في نفسه ، فان هذا لم ينطل على أحد ، وأصبح أتراك ترافنك الذين كانوا جميعا من أعداء محمد باشا ومن أعداء الاصلاحات ، لا ينفكون يرددون قولهم : « ضاع محمد باشا » • ان صمتا قلقا يسيطر الآن على القناق : فكل رجل من رجال القناق يحاول ، دون أن يظهر عليه ذلك كثيرا ، أن يتهيأ للتبدل الذي قد يقع في كل لحظة ، ملتزما الصمت مشغولا بهمومه الخاصة • وكان الوزير في أثناء أحاديثه مع دافيل يحاول أن يخفي تحت ستار من الاقوال اللطيفة عجزه عن مساعدة أي انسان في أي أمر ، ويبدو ذاهلا غائبا عن نفسه •

وكانت تصل الى ترافنك بُرد خاصة ، وكان الوزير يبعث الى القسطنطينية من جهته برسائل سرية ، وبهدايا لمن بقي له من أصدقاء • وكان دافنا ، المطلع دائما ، يؤكد أن الوزير لا يسعى الى المحافظة على مركزه في عهد السلطان الجديد ، وانما هو يسعى في حقيقة الامر الى المحافظة على رأسه •

واذ كان دافيل يعرف ما يعنيه سفر محمد باشا بالنسبة اليه وبالنسبة الى مهمته ، فقد بعث منذ بداية الازمة الى الجنرال مارمون والى سفير فرنسا بتقارير مستعجلة ، طالبا اليهما أن يستعملا لدى الباب العالي كل ما لهما من سلطة لابقاء محمد باشا في البوسنة رغم التبدلات السياسية الاخيرة ، قائلا انه يطلب اليهما ذلك لان الروس والنمسويين يفعلون مثله لاصدقائهم ولان الناس في هذه البلاد انما يقيسون ما لدولة مسيحية من قوة وخطورة بهذا المقياس •

ولكن أتراك البوسنة كانوا مبتهجين • كان المشايخ يقولون أمام الدكاكين : « ذهب السلطان الكافر أخيرا ، وآن أوان التطهير من كل تلك النجاسة التي علقت في هذه السنين الاخيرة بالايمان التركي

الصادق النقي • وسيذهب الوزير الاعرج ، وسيأخذ معه صديقه القنصل مثلما أتى به » • وأخذ الناس يتناقلون هذه الاقوال ، وأخذوا يزدادون يوما بعد يوم جسارة • وراح بعضهم يغيظ خدم القنصلية ، ويرمي دافنا بالامازيح ويطرح عليه أسئلة تشتمل على شيء من الشتم : « هل يستعد القنصل للسفر ، والا فماذا ينتظر ؟ » •

فكان الترجمان ، وقد أصبح أشد سمرة وأكثر طولا من أي وقت مضى ، ينظر اليهم شزرا من على ظهر فرسه البلقاء ، ويجيبهم بوقاحة مقصودة محسوبة قائلا « انهم يهرفون » بما لا يعرفون ، وان الذين يقولون هذه الاقوال أناس أغبياء أفسدت خمرة البوسنة أدمغتهم • فالسلطان الجديد والقنصل الفرنسي صديقان جدا • والقسطنطينية قد كتبت تقول ان القنصل ضيف الحكومة ، وان البوسنة كلها ستحرق عن بكرة أبيها حتى مع الاطفال الذين هم في المهد اذا مُسَّ القنصل بشيء » • ولكنه لا ينفك يقول للقنصل : « انه قد آن له أن يعمل في حزم ومن غير تردد ، فان هذا الاسلوب هو السبيل الوحيد الى اخافة هؤلاء المتوحشين الذين يهجمون على من يتقهقر » •

وذلك ما كان يفعله الوزير على طريقته الخاصة • ففي كل صباح كانت تخرج زمرة من مماليكه الى البرية تقوم بتمارينها في جهة جبل توربت • فكان الاهالي ينظرون في كره ولكن على وجل ، الى هؤلاء الفرسان الاشداء الذين يحملون أسلحة ثقيلة ناصعة ، ويرتدون أجمل الملابس ويتزينون بأبهى الحلى كأنهم يسيرون في موكب عرس • وكان الوزير نفسه يمضي أحيانا الى الحقول يرقب تمريناتهم ويوجه طلقاتهم كأنه انسان خال من الهم لا يفكر في الرحيل ولا يفكر في الموت وانما هو يستعد لخوض معركة من المعارك •

هكذا كان الاتراك والوزير ينتظرون قرارات السلطان الجديد ،

ويرقبون الانباء الواردة من القسطنطينية عن النزاع الـذي مـا يزال قائما فيهـا •

• • •

في منتصف الصيف وصل موفد خاص من السلطان هو أحد كبار رجال البلاط • وقد هيأ له محمد باشا استقبالا فخما جدا ، حتى أن فصيلا كاملا من المماليك قد خرج للقائه مع جميـع كبار الموظفين • وانطلقت المدافع في القلعة تدوي احتفاء بالقادم • ووقف محمد باشـا نفسه أمام القناق ينتظر وصول مندوب السلطان •

واستنتجت المـدينة من ذلك أن الوزير استطاع أن يظفر بعطف السلطان ، وأنه باق في ترافنك • ولكن الاتراك ظلوا يؤكـدون أن مندوب السلطان سيعود الى القسطنطينية حاملا كيسا فيه رأس الوزير • وظهر أن المدينة كانت على حق ، فقد جاء موفد السلطان يحمل فرمانا بتثبيت محمد باشا في منصبه ، وهدية من السلطان هي سيف ثمـين جـدا ، وأمراً بأن يعمل الوزير على أن يعد للربيع جيشا قويا لمحـاربة الصرب •

غير أن الشعور السعيد الذي أحدثته هذه الانباء ما لبث أن تعكر على نحو غريب لم يكن في الحسبان •

غداة وصول المندوب ، وكان ذلك في يوم جمعة ، ذهب دافيل يجتمع بالوزير اجتماعا كان قد تحدد موعده منذ زمن طويل ولم يطلب الوزير الغـاءه ، فاستقبل الوزيرُ دافيل بحضور منـدوب السلطان ، وقدم المندوبَ الى دافيل على أنه صـديق قديم ، وأنه رسول آلاء السلطان ونعمه ، وأراه السيف الذي تفضل السلطان باهدائه اليه •

وأكد مندوب السلطان للقنصل أنه ، كمحمد باشا ، من المعجبين بنابوليون أصدق الاعجاب • ان المندوب انسان يشبه أن يكون شيطانا ، ولعله هجين ، له شعر فاحم السواد ، وفي جلده الضارب الى الصفرة انعكاسات دكناء ، وشفتاه وأظافره زرقاء قاتمة ، وبياض عينيه عكر كأن به وساخة •

تكلم كثيرا ، وفي حماسة ، عن حبه للفرنسيين وكرهه للروس • وكانت شفتاه المشدودتان اللتان توشكان أن تكونا سوداوين ، تخرجان من طرفيهما أثناء الحديث زبدا أبيض • وقد تمنى دافيل لو يتوقف صاحبنا عن الكلام فيسترد أنفاسه ، ويمسح فمه ، ولكنه ظل يتكلم كمن تدفعه الى الكلام حمى مستعرة ، تكلم عن معاركه التي خاضها ضد الروس ، وفي نفسه للروس كره شديد ما يزال نضرا ، وتكلم عن عمل حربي حققه قرب أوتشاكون وجُرح أثناءه • وفجأة نضا كمه الضيق عن ذراعه اليسرى في بطء وحذر ، كاشفا تحت المرفق عن ندبة خلفها السيف الروسي فيه ، وكانت ذراعه السوداء الناحلة الناتئة العضلات ترتعش ارتعاشا قويا •

وكان محمد باشا يشارك مبتهجا في هذه الاحاديث الصريحة الودية التي يتبادلها صديقاه ، ويضحك أكثر مما اعتاد أن يضحك ، فعلَ امريء لا يستطيع أن يخفي ما يشعر به من سعادة تغمره بها نعم السلطان •

وطال الاجتماع أكثر كثيرا مما جرت به العادة • فلما عاد دافيل الى بيته سأل دافنا هذا السؤال :

ــ ما رأيك في رسول السلطان هذا ؟

وكان من عادة دافنا في مثل هذه الحالة أن يفرغ ما في جعبته من معلومات عن الرجل الذي يُسأل عنه ، ولكنه كان في هذه المرة موجزا ، فلم يزد على أن قال :

ـ رجل مريض جدا يا سيدي القنصل العام •

ـ انه ضيف غريب على كل حال •

ـ مريض جدا جدا •

كذلك همس دافنا وهو ينظر أمامــه ، كمن لا يحب أن يستمر في الحديث •

وفي الغداة طلب دافنا مقابلة القنصل فورا ، قبل الساعة التي ألف أن يقابله فيها • فاستقبله دافيل في القاعة التي كان فيها يتنــاول الطعام الافطــار •

كان ذلك في يوم الاحد ، في صباح من أصباح الصيف التي تنسي طراوتها وروعتها أيام الخريف والشتاء الباردة الدكناء • ان أمواهاً خفية لا تُرى ، أمواهاً حاضرة في كل مكان ، كانت تملأ الهــواء طراوة وخريرا وأضواء • وكان دافيل قد نام ليلته هادئا بعد أن سمــع الانباء المرضية ، وهو الآن يدفع عنه بقايا الطعام ويمسح فمه ، كمــا يفعل رجل معافى أكل على جوع •

وظهر دافنا الاصفر الاسمر ، يكز شفتيه وفكيه ، ثم يعلن الحادث مع ذلك بصوت قوي : مات رسول السلطان في الليل •

فوثب دافيل عن مقعده ، دافعا مائدته الصغيرة • وأخذ يهيل الاسئلة على دافنا ، فيجيبه دافنا بعبارات قصيرة غامضة • قال دافنا ان رسول السلطان ، الذي يشعر منذ مدة بتوعك صحته ، شعر بعد الظهر « بآلام شديدة » ، فاستحم بماء ساخن جدا ، ورقد على فراشه ، فما هي الا لحظات حتى لفظ أنفاسه الاخيرة ، حيث « لم يكن أحد يتوقع ذلك » و « قبل أن يمكن اسعافه » • وسيدفن اليوم في الصباح • وسينقل دافنا الى القنصل كل ما يستطيع أن يعرفه عن موت الرجل وعمــا سيحدثه موته من أثر •

ولم يستطع القنصل أن يستخرج من دافنا أي شيء آخر • لكنه سأله عن الجنازة ، وهل عليه أن يعمل شيئا ما ، هل عليه مثلا أن يقدم تعازيه ، الخ ••• فاجابه دافنا بأن ليس عليه أن يعمل شيئا ، والا كان يخالف العادات المألوفة ، فمن الخير في هذه البلاد أن يتجاهل القنصل موت الرجل ، هذا الى أن كل ما يتصل بموته يتم الآن مختصرا بلا كلام كثير ، وبغير احتفالات •

ومضى دافنا ، وبقي القنصل وحيدا ، يشعر بأن يومه قد تعكر • ان هذا الرجل المنفرّ الذي كان يحدثه بالامس ثم مات بهذه السرعة ، يحاصر الآن ذهنه • وفكر القنصل أيضا في صديقه الوزير ، وفي الاضطراب الذي لا بد أن يحمله اليه موت هذا الرجل الخطير الشأن في بيته • ثم خطرت أمام عينيه صورة دافنا أغبرَ الوجه عديم الاحساس صامتا ، وتراءت له تحيته القاتمة الباردة حين دخل وحين خرج •

اتبع دافيل نصيحة ترجمانه ، فلم يقل شيئا ولم يفعل شيئا • لكنه لم ينقطع عن التفكير في هذا الموت ، وفي القناق • ولم يعد اليه دافنا الا ظهرَ الغداة ، فأفضى اليه هامسا في أذنيه عند احدى النوافذ بالحقيقة السافرة المذهلة •

وهي أن مندوب السلطان قد جاء يحمل في حقيقة الامر حكما باعدام الوزير ، أما فرمان التثبيت والسيف المهدى فلم يكونا الا وسيلة لطمأنة الضحية ومن يحيط بها • وكان على الرسول ، قبل أن يغادر ترافنك بيوم واحد ، أي بعد أن تضعف يقظة مضيفه ، أن يبرز القرار الآخر ، وهو فرمان القتل ، الذي يقضي باعدام جميع من تعاونوا مع السلطان السابق تعاونا مباشرا أو غير مباشر ، وكان عليه أن يبادر فورا باصدار أمره الى أحد ضباط حاشيته بقطع رأس محمد ، قبل أن يستطيع أحد من ذويه أن يهب الى نجدته •

ومن حسن حظ محمد أنه امرؤ خبير بحيل السراي ، وأنه فكر في احتمال من هذا النوع • فكان ، وهو يغمر موفد السلطان بالامجاد ويستقبل نبأ نعم السلطان في حماسة ، يعمل على رشوة حاشيته ، ثم ضرب ضربته •

أرى مندوبَ السلطان المدينة ، وقدم اليه قنصل فرنسا ، وأقام له وليمة فاخرة في السهل المجاور على طريق التربة • حتى اذا عادوا الى القناق بعد تناول أطعمة ثقيلة ، وبعد أن شرب المندوب من « ماء البوسنة البارد » ، انتابت موفدَ السلطان حمى شديدة • فأمر له الوزير بحمام ، وفيما كان مستلقيا على المقعد الحجري يتعرق ، أخذ رجال محمد باشا يفكون خياطة البطانة من معطفه الفرائي فكا محكما • ذلك أن الواشي الذي رشاه محمد باشا قد ذكر أن هناك وثيقة لا بد أنها مخبأة هناك • وعثروا على الفرمان فعلا ، وسلموه للوزير • وفي أثناء ذلك غادر المريض الحمام متعبا من البخار الساخن ، شاعرا بظمأ شديد لم يستطع أن يطفئه أي شراب ، فظل يشرب ويشرب ، وظلت حالته تتفاقم وتتفاقم ، حتى اذا جاء الغسق ، تهاوى وأخذ يئن وهو يشعر بأن في فمه وأحشائه نارا تتلظى •

فلما فقد القدرة على الكلام والحركة ، لما أصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة ولا أن يقوم بحركة ، هرعوا يجيئون له بطبيب وشيخ • أما الاطباء فقد فات أوان الانتفاع بوصولهم ، وأما المشايخ فقد جاءوا في حينهم • كان رسول السلطان مزرق الوجه ، متصلبا كسمكة ميتة ، راقدا على فرش ضيقة في وسط الغرفة • وكان حاجباه ما يزالان يرتعشان • انه يحاول في بعض الاحيان أن ينهض ، ويجيل في القاعة نظرات مذعورة ، وأغلب الظن أنه كان يبحث عن فروته أو عن أحد رجاله • ان النظرة المروعة التي ينظرها هذا الرجل الذي قُتل في اللحظة التي كان يهم فيها هو أن يقتل غيره غدرا ، هي كل ما بقي

فيـه من حيـاة ، وكل ما يستطيع أن يعبر عنـه من أمـور أصبح لا يستطيع أن يقولها ولا أن يفعلها • وكـان خـدم الوزير يتسللون حواليه ، دون أن يتخاطبوا بغير الاشارات والهمسات ، باذلين لـه كل ما يستطيعون من عناية ورعاية • ولم يلاحظ أحد اللحظـة التي قضى فيها نحبه •

وتصرف الوزير تصرف رجل لا يعرف العزاء الى قلبه سبيلا • ان هذه الوفاة التي لم تكن في حسبان أحد تعكّر عليه كل ما أسبغته عليه الانباء والامجاد من سعادة • ان شاربيه الكثيفين يغطيان الآن أسنانه البيضاء اللامعة • وتغير وجهه كله ، وفارقته ابتسامته المألوفة • وانه يكلم جميع من حوله ، ولكن في ايجاز ، بصوت هدّه الالم • واستدعى على الفور محافظ ترافنك ، راسم بك ، وهـو رجل ينتمي الى أسرة كبيرة بالمدينـة ، وقد دبت فيـه الشيخوخة قبـل الاوان ، استدعاه يسأله العون ، مع علمه بأن الرجل عاجز حتى عن العنايةبشئونه الخاصة• قال له شاكيا :

ـ ذلك أجله • لقد كتب عليه أن يقوم بهذه الرحلة ، وأن يموت تحت بصري • أنى للانسان أن يفلت من الموت ! ولكنني كنت أوثر أن يموت أخي على أن يموت هذا الصديق العزيز •

قال ذلك ، وقد ظهر عليه أنه أصبح لا يطيق كبح ألمه •

قال المحافظ معزيا :

ـ ماذا تريد يا باشا ؟ أنت تعلم قول القائل : نحن جميعا موتى في هذه الحياة الدنيا ، وانما ندفن واحدا بعد آخر ، كلٌ في حينه •

وختم دافنا تقريره بقوله :

ـ والفرمان الذي كان يقضي بقطع رأس محمد باشا ودفنه خِيطَ

مرة أخرى في بطانة المعطف • وسيدفن رسول السلطان اليوم ، في المقبرة الكبرى • والحاشية كلها تسافر الى القسطنطينية في هـذا اليوم نفسه بعد أن كوفئت مكافأة طائلة •

ظل دافيل مذهولا وقد عقدت لسانه الدهشة • ان هذا الامر كله يبدو له حكاية لا تُصدق • ان العمل الذي قام به الوزير ليس اجراميا ورهيبا فحسب ، وانما هو أيضا مناف للمنطق محفوف بالاخطار • وراح القنصل يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو متشنج من فرط الانفعـال ، محدّق الى دافنا كأنما هو يسأل نفسه : « هل يقول هذه الاشيـاء جادا ؟ أهو واع ؟ ولكن كيف ؟ كيف يمكن هذا ؟ كيف يستطيعون ؟ كيف يجرؤون ؟ ثم ان الامر سينكشف ، وفيم يفيد الوزير ذلك على كل حال ؟

قال دافنا في هدوء :

ـ يفيده • يجب أن نعتقد أنه يفيده • ان الامر ليس خطأ الى الحد الذي يتراءى للمرء من النظرة الاولى •

توقف القنصل عن سيره ، وأتم الترجمان شروحه ، فقال : لقد اتقى الوزير موتا مباشرا ، اتقاه في كثير من البراعة : مكر بخصومه ، وقتل موفدَ السلطان قبل أن يقتله موفدُ السلطان • قد يرتاب الناس في الامر ، وقد يتهامسون ، ولكن لن يستطيع أحد أن يقول شيئا ، ولن يستطيع أحد أن يثبت شيئا • لقد جاء مندوب السلطان يحمل للوزير على ملأ من الناس أنباء سارة وأمجادا فذة : فلا بد أن يكون الوزيرُ آخرَ من يتمنى موته • وأما الذين عهدوا الى المتوفى بمهمة الغدر تلـك ، فلن يستطيعوا أن يفعلوا بالوزير شيئا ، أو على الاقـل لن يستطيعوا ذلك فورا ، لانهم اذا حاولوا أن يصنعوا بالوزير شيئا كانوا يعترفون بأنهم نووا أن يغدروا به ، وكانوا يعترفون أيضا ، وذلـك

أسوأ ، بأنهم أخفقوا فيما أقدموا عليه . ثم ان هذا الرجل الذي مات مسموما ، وهو هجين سيء السمعة مكروه ، كان يخدع جميع الناس ويكذب كما يتنفس أو كما يتكلم ، فلن يدهش موته أحدا ، ولن يحضّ على أي انتقام . وحاشيته التي نالت مكافأتها ستدبّر الامور . ثم ان الفوضى ضاربة أطنابها في القسطنطينية ، وهذا هو الشيء الاساسي . ان محمد باشا قد أرسل « ما يجب » الى أصدقائه ، قبل وصول المندوب بزمن قصير ، وسيتاح لهؤلاء ما يحتاجون اليه من وقت لانجاز مهمتهم ، لارجاع الوزير الى حظوة السلطان ، لتثبيته في منصبه الحالي اذا أمكن ذلك .

كان دافيل ما يزال يصغي وقد تجمد الدم في عروقه ، ويردد ، دون أن يستطيع الانكار : « مع ذلك ... مع ذلك ... » .

ولم يشعر دافنا بضرورة الاستمرار في محاولة اقناعه . لكنه أضاف بأن المدينة هادئة ، وبأن هذا الموت المفاجيء قد أثار تعليقات كثيرة ، لكنه لم يثر انفعالا خاصا .

وحين خرج دافنا وخلا دافيل الى نفسه ، شعر بكل فظاعة الامر الذي سمعه . أخذ اضطرابه يزداد من ساعة الى ساعة . أصبح لا يطيق أن يبقى لحظة في مكان واحد . وفقد شهوة الطعام . وودّ عدة مرات لو يستدعي دافنا منتحلا أي عذر من الاعذار ، لا لشيء الا أن يتأكد من أن القصة التي رواها له في الصباح صادقة . وأخذ من جهة أخرى يفكر في التقرير الذي يجب عليه أن يكتبه ، ذلك أنه لا بد من كتابة تقرير دائما . فمضى الى مكتبه ، وكتب ما يلي : « في قصر الوزير ، وقع مساء أمس ... » لا ، هذا سخيف !. « ان الاحداث التي وقعت في هذه الايام الاخيرة تدل مرة أخرى على أن محمد باشا سيستطيع بالاساليب والوسائل المتبعة في هذه البلاد أن يحافظ على

منصبه رغم تبدل الظروف • وفي وسعنا اذن أن نعتمد على هذا الوزير المخلص لنا » • لا ••• لا •• هذا أيضا سخيف !

وأدرك أخيرا أن خير شيء هو أن يصف الاحداث كما وقعت وكما يراها جميع الناس : وهي أن موفدا من السلطان وصل الى ترافنك من القسطنطينية يحمل قرارا بتثبيت الوزير في منصبه كما يحمل سيفا هو هدية السلطان الى الوزير ، اشارة الى عطف السلطان والى قرب نشوب حرب ضد الصرب • ثم يذكر أن هذا الامر بشير خير بالنسبة الى المهمة التي أخذت فرنسا على عاتقها أن تحققها في هذه المناطق • وبعد ذلك يشير عرضا الى أن موفد السلطان قد مات في ترافنك فجأة أثناء قيامه بمهمته •

ومن كثرة ما قلب دافيل وجوه الرأي في كتابة هذا التقرير وفي اعادة كتابته بخياله ، هدأت نفسه شيئا فشيئا ، ذلك أنه منذ بدأ يفكر في النص الذي ينتظر منه أخذت الجريمة التي ارتكبت في الليلة البارحة على مرأى منه تقريباً ، أخذت تبدو له أقل فظاعة وأقل اثارة للاشمئزاز • وعبثاً حاول أن يسترد الذهول والانفعال اللذين شعر بهما في الصباح • وجلس الى مكتبه فدبّج تقريرا عرض فيه الاحداث كما تبدو من خارج • حتى اذا بيض مسودته ، أحس بمزيد من الهدوء أيضاً ، ولما تصوّر أن هذا التقرير يقوم على أسرار كبيرة ثقيلة أحسن اخفاءها ، شعر بنوع من الرضى عن نفسه •

وعلى هذا الحال رأى هبوط غسق الصيف الذي يفوح سلاما ويشع ضياء ويغلب الظلال الكثيفة التي على الروابي • كان القنصل واقفا أمام النافذة وقد ازدادت نفسه سكونا وطمأنينة • ودخل أحدٌ وراءه وهو يحمل فتيلة مشتعلة يشعل بلهبها الشموع التي على المنضدة • فاذا بفكرة تجتاز دماغه في تلك اللحظة :

« من ذا الذي أمكنه أن يهيء السمَّ ، وأن يحدد قوته ، وأن يحسب تأثيره ، بقدرٍ من العلم كافٍ لأن تجري الامور كلها بسرعة ، وأن تصل كل مرحلة من المراحل في الساعة المقدرة لها ، لا تتقدم ولا تتأخر . من ذا الذي يمكنه أن يفعل هذا غير دافنا ؟ هذه هي مهنته . لقد كان منذ زمن قصير يعمل في خدمة الوزير ، ولعله ما يزال يعمل في خدمته » .

فما ان خطر هذا الخاطر بباله حتى بارحه ذلك الهدوء الظاهري الذي كان قد غشيه وحتى شعر بانشداه شديد عنيف ملك عليه جوانب نفسه كما ملكها عليه في الصباح : أجريمة تُرتكب هنا ، على مقربة منه ، وليس موضوعها بعيدا عن عمله الرسمي ، أي ليس بعيداً عنه هو ، وربما كان ترجمانه شريكاً فيها ، مأجوراً عليها ! وشعر بنار تتلظى في جوفه : من ذا الذي يستطيع اذن أن يأمن على حياته ؟ من ذا الذي يستطيع أن يتقي الجريمة ؟ ما نفع حياة كهذه الحياة ! وفي وسط هذه الأسئلة التي طرحها القنصل على نفسه ، ظل متسمراً في مكانه ، بين الشموع المشتعلة وأواخر أشعة النهار التي تشحب على جنبات الروابي .

وكان المساء يدنو ، وكانت تدنو معه ليلة من تلك الليالي الليلاء الأليمة التي عرفها دافيل منذ وفد الى ترافنك ، تلك الليالي التي تجعل المرء عاجزاً عن النوم وعن التفكير السليم جميعا . كان حتى حين يراود جفنيه شيء من وسن تتراءى له مرةً أخرى تلك الابتسامة العريضة المضيئة ، ابتسامة محمد باشا ، وتلك اليد النحيلة المعروقة ، يد رسول السلطان مع جرحها الملتئم ، وكذلك دافنا القاتم الغامض وهو يقول بصوت رقيق : « رجل مريض ، مريض جداً . » .صور وتهاويل مبعثرة منعزلة ، لا صلة تربط بعضها ببعض ، ولا صلة تربطها بيقين ما ، صور وتهاويل يحاول دافيل أن يتحرر منها في المنام ، متمنياً أن لا تكون الجريمة قد وقعت ، شاعرا مع ذلك أنها وقعت . ليالٍ تأتي

في بعض الاحيان بحل سر من الأسرار ، لكنها ما تلبث أن تحبس الحلّ تحت ما يشبه أن يكون بابا ثقيلا من حديد •

وانقضت الأيام تلو الأيام • دافنا يجيء على عادته لا يُلاحَظ فيه أي تغير • وموت مندوب السلطان لا يثير عند الأتراك أية حركة : ان مصير الرجل لا يعنيهم كثيراً • انهم لا يرون الا شيئاً واحداً هو أن الوزير المكروه ما يزال في ترافنك ، وأنه فوق ذلك يتلقى مكافآت •

وهكذا فان الثورة التي قامت في شهر أيار بالقسطنطينية لم تبدل من الامور شيئاً • لذلك كانوا لا يزيدون على أن يكزوا أسنانهم ويخفضوا أبصارهم ملتزمين الصمت وقد زالت عن أعينهم غشاوة الأوهام • لقد كان واضحاً عندهم أن السلطان الجديد واقع تحت تأثير الكفرة والحاشية الفاسدة التي تؤجل النصر ، ولكنهم ما يزالون على يقين من أن الدين الحق هو الظافر آخر الامر • فما عليهم الا أن ينتظروا ••• وما من أحد يجيد الانتظار كما يجيده أتراك البوسنة ، هؤلاء الرجال الذين يملكون ايمانا راسخا ، ويتصفون بكبرياء صلبة كالصخر ، هؤلاء الرجال الذين يمكن أن يكونوا كالسيل عنفاً ، وكالارض صبرا وجلداً•

ومرةً أخرى شعر دافيل بذلك الذهول نفسه الذي شعر به أول يوم ، واستبد به ذلك القلق الأليم نفسه الذي استبد به أول يوم • كان هذا في أول اجتماع له بالوزير بعد موت رسول السلطان ، وقد تمّ هذا الاجتماع بعد انقضاء اثنى عشر يوما على موت رسول السلطان • كان الوزير مبتسما على عادته لم يتغير ، وتحدث عن الاعدادات التي يقوم بها لمحاربة الصرب ، وأيّد خطط دافيل في التعاون الفرنسي التركي على طول الحدود الدلماسية البوسنية •

وقد بذل دافيل جهداً كبيراً في سبيل أن يظهر بمظهر طبيعي ، وفي

النهاية عبر للوزير عن تعزياته الصادقة بوفاة الرجل الكبير والصديق العزيز •

فأطفأ الوزير ابتسامته قبل أن يتم دافنا ترجمة عبارة التعزية : غطى شاربه الأسود أسنانه البيضاء الناصعة ، واتسع وجهه ذو العينين اللوزيتين والذقن المسنونة حتى صار كالمربع ، وتجمد بينما كان الترجمان يكمل ترجمة كلام القنصل • ثم عادت الابتسامة الى حالها حين تبدل موضوع الحديث •

ان جميع الناس قد نسوا الحادث وأصبحوا لا يعبأون به ولا يكترثون له ، وكان من شأن هذا أن ادخل الهدوء والطمأنينة الى قلب دافيل • ان الحياة تستمر ولا شيء يتحرك ، فقال دافيل لنفسه :« قد ينقضي الأمر على هذا النحو » • وأصبح لا يتحدث عن الجريمة حتى مع دافنا • الوقت مملوء بالعمل • والقنصل يبتعد عن ذهوله وغضبه شيئاً بعد شيء ، ويستسلم لمجرى الحياة اليومية • صحيح أنه لن يستطيع بعد الآن أن ينظر الى محمد باشا الا ويرى فيه ، على حد تعبير دافنا ، الرجلَ الذي كان أسرع من خصومه وأبرع ، فاستطاع أن يبطش بهم قبل أن يبطشوا به ، ولكنه يستطيع أن يعمل وأن يكلمه في كل أمر من الأمور عدا الجريمة •

• • •

في تلك الأيام عاد سليمان باشا ، مساعدُ الوزير ، من شواطيء نهر درينا • « لقد حُطِّم كل عصيان صربي » ، ذلك ما كانوا يقولونه في القناق • ولكن سليمان باشا نفسه كان في هذا الأمر أكثر تحفظاً وأبعد عن القطع برأي جازم مطلق •

ان مساعد الوزير هذا رجل يرجع أصله الى البوسنة ، وينتمي الى

أسرة من أسر البكوات . انه يملك أراضي شاسعة في سكوبليه من البوسنة وفي بلاد كوبرس ، كما يملك عشرات من البيوت في بوجونيا. وهو على تقدمه في السن ، ما يزال منتصب القامة ، بارز العضلات ، نحيل الجسم ، له عينان ترشقان نظرات متقدة . ولقد شهد حروبا كثيرة ، وجمع ثروة ضخمة ، واستطاع أن يحصل على لقب الباشا دون أن يعمد الى كثير من التملق والتزلف ولا الى كثير من الرشوة . انه صارم في السلم ، قاسٍ في الحرب ، شره الى امتلاك الاراضي ، لا يبالي شيئاً في سبيل الحصول عليها ، ولكنه لا يقبل الرشوة ، بريء من العيوب المعهودة في العثمانيين .

والناس لا يستلطفون كثيرا هذا الباشا الذي يشبه أن يكون فلاحا ، لا يستلطفون كثيرا هذا الرجل القاسي النظرات الذي يعد « خيرَ من رمى في البوسنة كلها » . وهو أمام الاجانب بطيء حذر ماكر عنيد ، كسائر الاتراك ، بالاضافة الى لغة خشنة قاطعة . ثم ان أكثر أيامه تنقضي في حملات على الصرب أو أسفار الى أراضيه ، ووجوده في ترافنك الآن يدل على أن المعارك مع الصرب في هذا العام قد انتهت .

والحق أن الاحداث الحربية قد أصبحت أقل خطورة وأندر وقوعا . ان الخريف يقترب ، ففي مطالعه الزواج والقطاف والتجارة الرابحة ، وبعد ذلك الامطارُ والسعال والهموم . الجبال أصبح السير فيها عسيراً ، والناس قلت أعمالهم وقلّ تنقلهم ، وكل منهم يحاول أن ينظم شتاءه حيث هو ، ويبحث كيف يقضيه .

وتراءى لدافيل أن العجلة الكبرى ، عجلة الامبراطورية الفرنسية ، قد أصبحت هي أيضا تدور في بطء ورفق . فبعد أن انتهى مؤتمر ارفورت ، التفت نابوليون الى اسبانيا : فالزوبعة تمر في غرب ترافنك ،

والبُرُد أصبحت قليلة ، وكذلك الاوامر الآتية من سبليت • والوزير يبدو أنه باقٍ في منصبه ، وهذا ما كان يحرص عليه القنصلُ أكثر من حرصه على أي شيء آخر ، حتى لقد عادت تشرق في وجهه ابتسامة هادئة رضية : لقد نفعت المساعي التي قام بها أصدقاؤه في القسطنطينية • وقنصل النمسا الذي أُعلن أنه آتٍ ، لم يصل بعد • وقد أبلغت باريز قنصلَها أنه سيصل اليه قبل العام المقبل معاون" من السلك يعرف اللغة التركية • ودافنا برهن خلال فترة عصيبة على استقامته وأمانته ، وعلى أنه أهل للثقة •

وفرحة كبرى كانت تنتظر دافيل : ان مدام دافيل وصلت الى ترافنك قبل نهاية الخريف ، مع أولادها الثلاثة : بيير وهو في الرابعة من عمره ، وجول فرانسوا وهو في الثانية ، وجان بول الذي ولد في سبليت منذ بضعة أشهر •

مدام دافيل امرأة نحيلة شقراء : وجه صغير نضر اللون دقيق القسمات ، عينان زرقاوان تلتمعان التماع المعدن ، شعر غير غزير مرفوع بلا تكلف على أي زي • ان وجه مدام دافيل لا يخطف البصر رأسا ، حتى لقد يظنها المرء في أول الامر ضعيفة الشخصية قليلة التميز • ولكن هذا المظهر البسيط يخفي وراءه شخصية امرأة ذكية واعية مستقيمة لها ارادة قوية وهمة لا تعرف التعب ، انها واحدة من أولئك النساء اللواتي يوصفن عندنا بأنهن « لا يعوزهن شيء » • ان حياتها لم تكن الا تفانيا طويلا صابرا عنيفا في سبيل بيتها وفي سبيل ذويها • وماعرفت أفكارها ولا عواطفها شيئا غير هذه الخدمة الدائبة • ان يديها الدقيقتين الحمراوين قليلا ، اللتين قد تُظنان ضعيفتين ، تعملان وكأنهما من فولاذ • وهي من أسرة بورجوازية عريقة شتتتها الثورة ، وقد عاشت في كنف عمّها أسقف أفرانش • وكانت صادقة التقوى ، ولكن تقواها تقوى انسانية لا تعصب فيها ولا اسراف في التعبد •

وبوصولها بدأت دار القنصلية عهدا جديدا بعد أن كانت مهملة بعض الاهمال • ان مدام دافيل تعمل من الصباح الى المساء ، لا تتكلم الا قليلا ، ولا تتشكى أبدا ، ولا تطلب من أحد نصيحة ولا معونة • نظفت البيت ، ورتبته ، وبدلته بما يتفق وحاجات الاسرة : سدّت نوافذ وأبوابا ، وفتحت نوافذ وأبوابا أخرى ، وفرشت سجادا تركيا وستائر بوسنية ، فأصبح وقع الاقدام لا يدوّي مزعجا • وأعادت بناء المطبخ • ان البيت تسوده الآن الحياة الفرنسية المتزنة ، المعتدلة ، الغنية بألوان المتع •

وما جاء الربيع التالي حتى تبدّل ما حول القنصلية أيضا ، فهاتان حديقتان تخطّان على أرض مستوية أمام البيت ، وتذكّر ممراتهما ومربعاتهما بحدائق فرنسا • وفي الخلف أقيم قن للدجاج ، وأنشئت ملحقات أخرى •

وقد اضطرت مدام دافيل في سبيل اتمام هذا العمل وفقــا لخططها وتحت اشرافها ، الى تذليل عقبات كثيرة • وأخطر هذه العقبات شأنا عقبة الخدم ، وهي عقبة ان كانت عامة تقاسي منها ربات البيوت فــي العالم بأسره ، فلقد كانت هنا معقدة تعقدا خاصا : ان أحدا من الناس لا يريد أن يعمل في القنصلية • لا مجال طبعا للتفكير في خدم أتراك • والفتيات الكاثوليكيات ، رغم أنهن ألفن الخدمة في بيوت الاســر التركية ، لا يجرؤن أن يذهبن الى بيت القنصل : ان القسس يهددوهن باللعنة ان فعلن • واستطاعت نساء التجار اليهود ، في كثير من العناء ، أن تقنع بضعَ نساء من الغجر بالعمل فــي القنصلية الجديدة لقاءَ أجر باهظ •

ولم يبدل الكهنةُ الكاثوليك موقفهم ولا سمحوا للفتيات اللواتي يتبعن أبرشيتهن بالعمل في القنصلية وخدمة سكانها ، الا بعد أن

استطاعت مدام دافيل بزياراتها وعطاياها أن تبرهن للكنيسة على أنها مسيحية طيبة ، رغم أنها امرأة « قنصل يعقوبي » • ثم انها من جهة أخرى عملت كل ما تستطيع عمله من أجل أن تعقد أحسن الصلات بقسٍّ دولاتس وآباء جوتشا جورا ورعاياهم •• وكان دافيل يأمل بفضل هذه المرأة المؤمنة الذكية أن يتغلب على الصعوبات ، وعلى الجهل والحذر اللذين اصطدم بهما أولَ الامر ، وأن يضمن لنفسه قبل وصول قنصل النمسا الى ترافنك شيئا من النفوذ لدى الاهالي الكاثوليك •

وخلاصة القول أن كل شيء كان أقرب الى الهدوء وأدنى الى المتعة في أوائل الخريف ، سواء ما كان يتصل بشئون البيت وما كان يتعلق بأعمال القنصلية • وكان دافيل يستقر في ذهنه شيئا بعد شيء شعورٌ غامض لكنه ثابت بأن الامور ستجري على حال أحسن ، أو أنها في أقل تقدير ستكون أسهل احتمالا وأيسر •

ان سماءً خريفية شاحبة تسطع الآن فوق مدينة ترافنك التي تبدو شوارعها المغسولة رائقة صافية • والادغال والغابات تحول ألوانها وترق وتشف • ونهر لاشفا الدقيق الضيق يصفِر في مجراه المستقيم ، وتتلاحق مياهه سريعة رائقة كأنها خيط من معدن • والطرق الجافة الصلبة تتناثر عليها تناثرَ النجوم في السماء ثمارٌ مداسةٌ سقطت من عرباتها ، وعلى الاسيجة والاوتاد من حفاف الطرق تعلق شيء من الهشيم الذي تنقله العجلات •

ان دافيل يقوم بنزهات طويلة على حصانه كل يوم ، مارا بكوبيلو على الطريق المستوى الذي تطرزه أشجار كبيرة من أشجار الدردار • ومن هناك كانت تلوح مدينة ترافنك كلها : البيوت ذات الاسقف السوداء والادخنة الزرقاء ، والمساجد ، والمقابر البيضاء المبعثرة • وكانت

البيوت والحدائق والشوارع تبدو له مجتمعة كلها في لحمة واحدة ، لحمة تزداد دنوا منه يوما بعد يوم ، ويزداد هو فهما لها شيئا بعد شيء . ويحس دافيل بأنسام من السلام والهدوء تهب في الافق ، ويحس أنه يتنشقها كما يتنشق هواء الخريف ، فاذا هو يشعر بحاجة الى أن يلتفت ، وأن يعبر عن هذا للخادم الذي يسير وراءه ، ولو بابتسامة .

ولكن ذلك لم يكن في واقع الامر الا هدنة قصيرة .

الفصل الرابع

لم ينقطع دافيل ، خلال الاشهر الاولى التي قضاها في ترافنك ، عن التشكي الى حكومته ، شأنهُ في ذلك شأن كل قنصل يستحق هذا الاسم ويعيش في ظروف كهذه الظروف : تشكّى مما يتصف به الاتراك من سوء المزاج بل من بغض وكره ، وتشكى من أن السلطات بطيئة ولا يمكن الاطمئنان اليها ، وتشكى من أن الرواتب لا تكفي ، ومن أن سقوف البيوت تترشح منها المياه ، ومن أن المناخ سيء يؤذي صحة الاولاد ، وتشكى من أن رؤساءه في القسطنطينية وفي سبليت لا يقدرون الامور حق قدرها ، تشكى من كل شيء : ان كل شيء يجري مقلوبا معكوسا .

ومن الامور التي طالب بها دافيل الوزارة أن تبعث اليه بمعاون يمكن الاعتماد عليه ، معاونٍ ينتمي الى السلك ويعرف اللغة التركية . ذلك أن دافنا لم يكن يرضيه . ان القنصل لا يستطيع أن يثق به ثقة كاملة . لم تستطع حماسة دافنا في العمل الدائب أن تمحو شك القنصل في أمره . هذا الى أنه لا يجيد اللغة التركية الا كلاما ، أما أن يتولى كتابة المراسلات الرسمية فأمر يعجز عنه . وقد وظّف دافيل في القنصلية شخصا يقال له رافا آتيجاس ، ليساعده في المكتب وليكفل استمرار اتصاله بالاهالي ، وهو شاب يهودي من ترافنك أبى أن يعمل مع عمه في تجارة الجلود المدبوغة ، وآثر أن يكون « ترجمانا في اللغة الايليرية » . ولكن الشاب اليهودي لا يمكن الاطمئنان اليه

أيضا • لذلك كان دافيل يضرع الى رؤسائه في كل تقرير من تقاريره ، أن يبعثوا اليه بموظف •

وأخيرا ، في اللحظة التي فقد فيها دافيل كل أمل ، وأخذ يألف دافنا ويوليه مزيدا من الثقة ، وصل اليه موظف شاب من موظفي السلك السياسي •

ان آميديه شوميت دي فوسيه ينتمي الى أحدث جيل في السلك السياسي الفرنسي • انه أحد الشبان الأول الذين استطاعوا بعد الخروج من سنوات الثورة ، التي كانت مليئة بالكوارث ، أن ينهوا دراستهم انهاء طبيعيا ، وأن يتهيئوا تهيؤاً خاصا للعمل في الشرق • وهو ابن أسرة من رجال المصارف ، أسرة متينة راسخة ، لم تنتزع منها الثورة ولا انتزع منها حكم المديرين شيئا ، وقد كان في دراسته طفلا نابغة ، يمتاز بذاكرة قوية ، وفهم سريع ، وتفوق سهل في جميع الميادين ، وكان يثير بذلك اعجاب أساتذته ورفاقه • وهو فارع القامة ، قوي البنية ، نضر اللون ، له عينان واسعتان سمراوان ، تعبران عن حب الاستطلاع ، وفيهما شيء من قلق •

لم يلبث دافيل أن أصدر فيه حكمه : فتى من فتيان هذه الازمنة الحديثة ، شاب باريزي جريء ، طلق الحديث والاشارة ، قليل المبالاة لكنه غير ذاهل عن الواقع ، واثق من نفسه واثق من معرفته ، أي مهيأ كل التهيؤ لان يقدر قوته وعلمه فوق قدرهما •

فبعد أن أسلم القنصل البريد ، وقص عليه ما لا بد من قصه من أمر رحلته ، أعلن في غير تحرج أنه يرتعد من البرد وأنه متعب ، وازدرد طعاما كثيرا في لذة ظاهرة ، ثم أعرب عن رغبته في أن ينام ، دون أن يصطنع لذلك كثيرا من المعاذير ، ونام الليل كله والصباح كله ، ثم استيقظ نضر الهمة رخي الجسم ، لا يخفي رضاه أكثر مما أخفى بالامس تعبه ونعاسه •

وفي هذا العالم الصغير ، عالم قنصلية فرنسا ، سرعان ما برز حزمه وظهرت لهجته المنطلقة : انه يعرف كيف يطلب بلا تردد ، ويعرف كيف يحصل على ما يريد بغير اكثار من الكلام ومن تقديم المعاذير . واتضح من الايام الاولى ومنذ الاحاديث الاولى التي دارت بينه وبين القنصل ، أنه ليس بين القنصل ومعاونه تجاوب صميم ، وأنه لن يكون بينهما تجاوب صميم ، حتى ولا كثير من نقاط الالتقاء والاتصال . انهما ينظران الى الامور نظرتين مختلفتين اختلافا كبيرا .

وكان دافيل يجتاز تلك المرحلة من العمر التي يمكن أن يصبح فيها كل شيء أزمةً نفسية وعذابا روحيا . لذلك كان لا بد لوصول الشاب دي فوسيه الى ترافنك من أن يحدث له صعوبات جديدة ، بدلاً من أن يسرّي عنه . ان وصول الفتى يطرح عليه مشكلات جديدة لا يستطيع أن يحلّها ولا أن يرجئها ، انه يخلق من حوله فراغا أكبر وعزلة أشد . ولا كذلك الشاب الوافد ، فما من مشكلة وما من صعوبة الا ولها عنده حل .

ان الرجلين يختلفان أحدهما عن الآخر كل الاختلاف . ان دافيل يشرف على الاربعين من عمره ، أما دي فوسيه فهو في مطلع الرابعة والعشرين . وهذا الفرق في السن ، الذي قد لا يكون له كبير شأن في ظروف أخرى ، خطير في هذه الازمنة العاصفة التي تحفر فيها النوازل السياسية والاضطرابات الاجتماعية هوةً بين الاجيال ، حتى لتجعلها أشبه بعوالم مختلفة .

لقد كان القنصل شابا في ظل « النظام القديم » ، وقد عاش « الثورة » مغامرة شخصية ، والتقى أخيرا ببونابرت وتعلق به في اخلاص شديد وايمان لا حدّ له ، وان يكن هذا الاخلاص وهذا الايمان لا يمحوان من نفسه بعض الشكوك محوا تاما .

لقد كان في الثانية عشرة من عمره حين اصطف مع أبناء الاسر البورجوازية الآخرين على حافتي الطريق ، استقبالا للملك لويس السادس عشر أثناء مروره بمدينته • ذلك حادث لا يمكن أن ينساه هذا الطفل الذي كان يسمع أهله يرددون أنهم يعيشون من « نعم الملك وآلائه » ، وها هوذا يرى الملك يمر أمامه بنفسه ، الملك الذي يجسد الخير كله والعظمة كلها ، ويجسّد كل ما يمكن أن ينتظره المرء من الحياة • يا له من غذاء لخيال الطفل ! كانت تترجع في الجو أصوات أبواق لا تُرى ، وكانت طلقات المدافع تدوّي ، وكانت جميع الاجراس تدق في آن واحد • وكان الشعب من فرط حماسته يريد أن يقلب جميع الحواجز ليصل الى الامير • ورأى الطفلُ من خلال دموعه دموعا في جميع المآقي ، وغصّ حلقه حتى أوجعه • وتأثر الملك نفسه ، فأمر أن تبطيء عربته سيرها ، ورفع قبعته الكبيرة بحركة واسعة ، مجيبا على هتاف الناس « عاش الملك » ، بهتاف منه واضح النبرة : « عاش شعبي » • هذا كل ما رآه الطفل وسمعه ، كمن يحلم بالجنة ، الى أن جاء أحد المتطلعين وراءه فأغطس قبعته الجديدة الطويلة بعض الطول ، فحجبت عينيه ، حتى اذا استطاع أن ينزع القبعة عن عينيه كان الموكب قد اختفى ، فليس حوله الا الوجوه المحمّرة والاعين المتقدة من الجمهور الذي يزحمه ويدفعه •

وبعد عشر سنين ، حين صار دافيل محررا جديدا في جرائد باريزية ، استمع ، وفي عينيه تلك الدموع نفسها ، وفي حلقه ذلك الاختناق نفسه ، استمع الى ميرابو يخطب مرعِدا في مهاجمة « النظام القديم » ومساوئه • كانت حماسته يومئذ لا تختلف عن حماسته يوم استقبل الملك ، ولكن موضوع الحماسة قد تغير • ولقد تغير دافيل نفسه ، فهو يومئذ ملقى في عالم مختلف كل الاختلاف ، جرفته اليه الثورة الفتية العارمة مع ألوف من أمثاله • لقد تنضّر العالم وانبثتفيه فتوة

جديدة ، ففي كل مكان تنفتح آفاق وتطل آمال وتتفتق ممكنات لم تكن في الحسبان • أصبح كل شيء واضحا على الفهم سهلا بسيطا • الجهود كلها تسير الى هدفٍ رفيع ، وكل خطوة وكل فكرة تفيض الآن عظمةً ومهابة لا عهد للانسان بها من قبل • لا وجود اليوم لـ« كرم ملكي » ينصب على عدد محدود من البشر ، فانما العدالة الالهية تتدفق اليوم على الانسانية بأسرها • وكان دافيل نشوان بهذه السعادة الغامضة كسائر الناس ، كسائر الناس الضعاف الذين تسكرهم ألفاظ تحررهم من وخز الضمير ومن الشعور بالمسئولية ، فتتيح لهم أن يرضوا حاجاتهم وغرائزهم على حطام آخرين •

ولم يكن دافيل الا واحدا من صحفيين كثيرين تعتمد عليهم الجمعية التأسيسية ، لكنه كان مقتنعا بأن لمقالاته شأنا كبيرا عاما ، وهي مقالات كان يعلّق فيها على خطب كبار الخطباء ، ويصف فيها الحماسة الوطنية التي تحرك الاعمال الثورية • وكان الحرفان اللذان يذيل بهما مقالاته يبدوان له صخرتين كبيرتين لا يمكن أن يغيِّرهما وأن يزحزحها شيء • كان يخيل اليه أنه لا يحرر أنباء برلمانية وانما هو يصوغ بيديه اللتين تحركها قوةٌ لا تغالب ، روحَ الانسانية بأسرها ، كما تُصاغُ عجينة لينة •

وانقضت السنون سريعة ، ولم يلبث دافيل أن رأى ظهر المجن من هذه الثورة التي فتنته في أول الامر • انه ما يزال يتذكر بداية صحوه من أوهامه • كان ذلك في ذات صباح أيقظته فيه صيحات الجمهور ، فنهض عن فراشه ، وفتح نافذة غرفته ، فاذا هو يرى أمامه رأسا مقطوعا ، داميا شاحبا ، يهتز فوق طرف حربة يحملها أحد الثوار • فما ان رأى هذا المشهد حتى أحس في معدته التعيسة الخاوية منذ الليلة البارحة ، بشيء موجع فظيع ، كأنه سائل بارد مرٌ ، يخرج منها وينتشر في صدره ، ثم يمتد الى جسمه كله • ومنذ تلك اللحظة لم

ينقطع ذلك الشراب الفظيع عن التنبع فيه • لقد استمر بعد ذلك يمشي ، ويكتب ، ويصيح مع الجمهور ، ويعيش ، غير أن قلقا شديدا ظل يحيا في نفسه ، قلقا كان يخفيه عن جميع الناس ، ولا يريد أن يعترف به حتى لنفسه • وحين أزفت الساعة التي كان يجب أن تفصل في حياة الملك ومصير المملكة ، حين كان على دافيل أن يختار بين الثورة التي جرفته و « الكرم الملكي » الذي رضع منه ، وجد نفسه متجها الى الكرم دفعةً واحدة •

ان الهجوم الاول الذي قام به الجمهور على القصر الملكي في التويلري قد هزَّ النفوس المعتدلة ، وحض على القيام بعمل ، فاذا بعريضة تعبر عن عطف على الملك تتجول بين الناس • وقد خاف دافيل من التوقيع على العريضة ، ولكنه لكرهه العنفَ والفوضى ، استطاع أن ينتصر على شعوره بالخوف ، فوضع توقيعه الى جانب تواقيع عشرين ألفا من سكان باريز • وأحس في تلك اللحظة أن اسمه الموجود بين تلك الاسماء التي كان أكثرها أعظم جاها وأوسع صيتا ، لم يضع ، وانما هو يُسجَّل بأحرف من نار في سماء المساء من باريز • وأدرك عندئذ كيف أن الفكر الانساني يمكن أن يتردد وأن ينقسم على نفسه ، كيف أن الانسان يمكن أن يسمو ثم يسقط في نظر نفسه ، كيف أن فورةً عابرة يمكن أن تكون مبهمة وأن تخالطها عواطف شتى ما ظلت قائمة ، وكيف أن هذه الاندفاعة تكلف ثمنا باهظا ويمكن أن تولِّد ندامة مرة •

وبعد شهر بدأ البحثُ عن الاشخاص المشبوهين واعتقالهم ، بدأت مطاردة المشبوهين ، وفي طليعتهم العشرون ألفا الذين وقَّعوا العريضة • فمن أجل أن يتفادى دافيل السجن ، ومن أجل أن يحلَّ الصراع الذي قام في نفسه تطوع في الجيش ، فأصبح جنديا في جبال البيرنه على حدود اسبانيا ، بعد أن كان صحفيا •

والحرب ان كانت قاسية مفزعة ، فان لها مزايا علاجية : لقد أدرك دافيل في الحرب قيمة الجهد الجسمي ومداه ، وتعلم تقدير الخطر واقتحامه ، وتعود الطاعة والامر ، وذاق العذاب في جميع صوره ، لكنه شعر أيضا بجمال الصداقة بين الرفاق ، واكتسب احساس التقيد بالنظام •

وبعد ثلاث سنوات ، بعد أن قوته الحياة العسكرية وهدأته ، وضع قدمه مرةً أخرى على أرض وطيدة • ان مصادفة من المصادفات قادته الى وزارة العلاقات الخارجية التي كانت ادارةً مضطربة كل الاضطراب ، من الوزير الى الاجير ، ولم يكن أحد فيها دبلوماسيا محترفا • فحين ظهر تاليران في هذه الوزارة كان رجالها يتمرنون على فن قد ضاع منذ نهاية النظام القديم ، فلما جاء تاليران تدفقت في كل شيء حياة جديدة ، واندفع كل شيء اندفاعا جديدا • وكان الوزير قد قرأ في الماضي مقالات دافيل في جريدة « المونيتور » فتبناه وحماه.•

ولكن دافيل ، ككثير من النفوس الضعيفة المترددة ، كان منذ ذلك الحين ، في تأملاته الداخلية ، متعلقا بنقطة واضحة ثابتة : بونابارت ، الجنرال الشاب ، المنتصرُ على ايطاليا ، أملُ كل من يبحث بين « النظام القديم » و « الهجرة » من جهة وبين « الثورة » و « الارهاب » من جهة أخرى ، عن طريق وسط •

فلما كلّف تاليران بأن يجد سكرتيرا للجمهورية السيزالبينية الجديدة عيَّن دافيل لهذا المنصب ، وكان على دافيل ، قبل أن يلتحق بميلانو ، أن يقابل الجنرال الذي كان يريد أن يحمِّله تعليمات للسفير تروفيه • واذ كان دافيل على علاقة طيبة بلوسيان بونابرت فقد استطاع بتوصية منه أن يحظى بمقابلة الجنرال في منزله الشخصي بعد العشاء •

أسره الجنرال بوجهه الناحل الشاحب الذي يشبه وجوه الشهداء ، وبعينيه الساطعتين ونظرته الهادئة • حتى اذا سمع البطل يتكلم ، جعله ذلك الحديث الواضح المعقول الذي يتميز مع ذلك بالعظمة ، وتلك العبارات الحارة التي تطل على المستقبل فتكشف فيه مناظر ليست في الحسبان ، وتلك الكلمات التي توحي بأمورٍ تستحق أن يحيا لها الانسان وأن يموت من أجلها ، جعله ذلك كله يحس بزوال جميع ما كان يشعر به من تردد وجميع ما كان يراوده من مخاوف • وكما كان يحدث له في الماضي ، رأى العالم يتبدل أمام بصره ، وأدرك أن جميع الجهود ممكنة ، وأن جميع الاهداف ستتحقق • ان لقاء هذا الرجل الخارق يشفي كما تشفي المعجزات • ان روح من يحدثه نابوليون تتخلص فجأة من شكوكها المريرة واندفاعاتها العقيمة ومن كل ما تجمع فيها من رواسب خلال السنين السابقة • ان هذا « الرجل » يهدي الى الطريق المأمونة البعيدة عن التطرفين كليهما ، الى الطريق التي كان دافيل ، وكان كثير من غيره ، يبحثون عنها منذ زمان طويل في حماسة محمومة عقيمة معاً •

ولما بارح سكرتير الجمهورية السيزالبينية شارع شانترين ، بعد منتصف الليل ، شعر بدموع تترقرق في عينيه ، وأحس بحلقه ينعقد ، كما أحس بمثل ذلك يوم شهد مرور لويس السادس عشر ، ويوم سمع خطاب ميرابو • كان دمه يخفق في صدغيه على ايقاع العالم الذي يحس نبضاته تدق في مكان عالٍ صوب النجوم • أحس بأنه سكران ، وأحس بأن له جناحين •

وانقضت سنون • وصعد الجنرال النحيل الى سمت الكون متجاوزا الفضاء كشمس لا تأفل ، وتغيرت وظيفة دافيل وتغير مركزه ، وظل يحلم بمشاريع أدبية وسياسية ، وظل كسائر الناس يدور في هذه الشمس • ولكن دافيل كان ضعيفا ، والحماسة لا تلازم الضعاف مدة

طويلة متى تغيرت الظروف التي ولدت فيها ، فما هي الا فتـرة حتى شعر صاحبنا ذات يوم أنه بعيد عن الايمان الذي اعتنقه • أما متى وقع له هذا الفتور ، فهو لا يعلم ذلك على وجه الدقة ، لكنه يحس بـه احساسا ما ينفك يتضح ، وكان هذا الحزن الجديد أقوى من سائر ألوان الحزن التي شعر بها من قبل •

لقد أطاحت الثورة بالنظام القديم كاعصار • وتراءى له نابوليون هبةً من الله ، منقذا لما يمكن أن يكون في كلا النظامين من خير ، طريقا وسطا قد تسير فيه الحياة سيرا رضيا عاقلا • ولكن ها هو ذا يشعر الآن بأن هذا الطريق يمكن أن يكون هو أيضا بلا مخرج ، وأن يكون سرابا كغيره من الطرق الاخرى الكثيرة ، وأن الحياة الانسانية قـد تنقضي على هذه الرغبة الدائمة في هجر الدرب المتعرج المألوف الى البحث عن الطريق الصحيح •

ولكن هذا البحث لم يعد الآن سهلا ، بعد الصعود الكثير الـذي أعقبه هبوط كثير • لقد تعب دافيل من الازمات التي عاناها ، وأصبح يتوق الى الراحة • ومن أسف أن الحياة الفرنسية كانت تسير مـن حوله بسرعة ما تنفك تزداد الى مصائرَ ما تنفك تشتد اضطرابا ، وكان اضطراب هذه الحياة يغزو شعوبا ما ينفك يكثر عددها ، تدخل هذا الرقص المحموم واحدا بعد آخر • لقد انقضت على صلح أميـانس ست سنين ، كثيرا ما تقلب دافيل خلالها بين الامل والشك ، بين النور والظلمة • فبعد كل انتصار يحققه بونابرت ــ أو نابوليون ــ كـان يبدو أن الطريق الوسط قد انفتح ،وأن الاستقرار أصبح قاب قوسين ، فما هي الا بضعة شهور حتى يلوح الطريق مسدودا من جديد ، وحتى يكون على السائرين أن يستأنفوا المسير من أوله • لذلك استولى الخوف على الناس ، وأصبحتَ ترى بين القطيع الذي يسير أناسا أخذوا ينظرون الى وراء • ان دافيل ، في خلال الاشهر القليلة التي

قضاها بباريز قبل تعيينه قنصلا بمدينة ترافنك ، قد استطاع أن يرى في عيون أصدقائه ، كما يرى في مرآة ، ذلك الخوف نفسه الـذي كان يحسه ويكتمه .

وقبل ذلك بسنتين ، بعد الانتصار في معركة يينا ، تغنى دافيل بهذا الحادث في قصيدة نظمها ، وربما كان الدافع الوحيد الذي حمله على نظم تلك القصيدة أنه أراد بهذا المديح الذي كاله لنابوليون في غـير اعتدال ، أن يطرد من نفسه الشكوك والمخاوف التي أخذت تستيقظ فيها . وكان يهم أن ينشر قصيدته ، حين التقى بصديق من أصدقائه القدامى أبناء بلده ، وهو ضابط كبير ملحق بوزارة البحرية ، فسألـه هذا الضابط أثناء احتسائهما قدحا من الكونياك :

ـ هل تعرف هذا الذي تمجّده ؟ هل تعلم أن الامبراطور مجنون ؟ هل تعلم أنه لا يعيش الا من دم انتصارات لا تؤدي الى شيء ؟ هل تعلم أننا جميعا نسير الى كارثة لا نعرف اسمها ولا مداها ، لكنهـا كارثة محققة تنتظرنا في ختام جميع انتصاراتنا ؟ لا تعلم ذلك ؟ لهـذا استطعت أن تنظم قصيدة تتغنى فيها بمعركة يينا !

كان الصديق في ذلك المساء قد أسرف في الشراب . ولكن لئن لم ينس دافيل تباعد حدقتيه ، فانه لم ينس نظرته البعيدة ، ولئن لم ينس أنفاسه المخمورة ، فانه لم ينس لهجته الصادقة . ثم ان أناسا لم يسكروا كانوا من حوله يعبرون عن هذا الرأي نفسه بألفاظ أخرى ، أو يعبرون عنه بنظراتهم المهمومة في أقل تقدير .

لكن دافيل لم يمتنع عن نشر قصيدته ، رغم أنه لا يؤمن بقيمتهـا ولا باستمرار انتصارات الامبراطور ، ان الشك الذي بدأ يساور نفوس الناس ، كان ينمو في نفسه هو عذابا شخصيا . وعلى هذه الحـال الاليمة المعقدة انما جاء الى ترافنك . وما رآه وما فعله في أول الامر

كان لا يمكن أن يشجعه بل ولا يمكن أن يهدئه • وجاءت أولى احتكاكاته بمساعده الشاب ففاقمت اضطرابه •

كان دافيل ينظر الى حياة دي فوسيه ، ويصغي اليه وهو يتحدث عن كل شيء ، فيقول بينه وبين نفسه : « لان يموت المرء من الشيخوخة فليس ذلك بالامر الرهيب • ولكننا لا نموت من الشيخوخة ، وانما نموت لان كائنات جديدة شابة مختلفة عنا كل الاختلاف تنبت وراءنا • فلا شيء يجرنا الى الموت جرا ، وانما نحن نُدفع اليه من الظهر » • ترى من أين تجيئه هذه الافكار التي لا تتفق أبدا وتفكيره المعهود ؟ لقد كان القنصل يستغرب انبثاق هذه الافكار في ذهنه ، فيدفعها عنه بكل ما يطيق من سرعة ، وينسبها الى « السم الشرقي » الذي لا بد أن يتسرب الى الدماغ عاجلا أو آجلا •

ان هذا الشاب ، وهو الفرنسي الوحيد الذي عرفه في هذه الصحراء النفسية ، ومساعدُه الوحيد ، كان يبلغ من الاختلاف عنه أن دافيل يحس أنه يعيش مع أجنبي ، بل مع شخص يشبه أن يكون عدوا • والامر الذي كان يضايق دافيل أكثر من أي شيء آخر هو موقف دي فوسيه من القضايا التي كان دافيل يراها « أمورا أساسية »، بل يرى فيها وجوده كله ، أعني : الملكية والثورة ونابوليون • لقد كان موقف دي فوسيه من هذه القضايا أنه ليس له منها موقف البتة • ان هذه المعاني السياسية الثلاثة كانت عند دافيل وعند أبناء جيله تتشابك في عقدة تشدها العاطفة ، وفي هذه العقدة كانت الصراعات القوية والحماسات العنيفة والمغامرات اللامعة تختلط بأنواعٍ من التردد وضروب من الخيانات النفسية وألوان خفية من ترنح الضمير • وفي هذا كله لم يكن ثمة حل واضح ، ولم يكن ثمة أمل في هدوء نهائي • كان أبناء هذا الجيل قد قاسوا عذاب هذا الصراع منذ

طفولتهم ، ولعلهم سيظلون يقاسون منه حتى الممات ، ولكن هذا العذاب التي أصبح حياتهم ، كان عزيزا عليهم كحياتهم .

أما دي فوسيه وأبناء جيله جميعا ، فقد كان يبدو لدافيل أن هذه المشكلات السياسية لا تسبب لهم أي عذاب ، ولا تطرح عليهم أي لغز ، ولا تحملهم على أي تفكير . كانت هذه المسائل أمورا لا تستحق بذلَ كلام ولا جهدَ فكر . الملكية ؟ حكاية خرافية . الثورة ؟ ذكرى غامضة من ذكريات الطفولة . والامبراطورية هي الحياة ، الحياة والمهنة ، المسرح المطل على آفاق لا حدود لها من الامل والعمل على طريق المجد .

ان النظام الذي يعيش دي فوسيه في ظله ، أعني الامبراطورية ، كان عند دي فوسيه هو الواقع الوحيد الذي يملأ الافق كله روحا ومادة . أما عند دافيل فكان هذا النظام أمرا عارضا ، نظاما طارئا رأى دافيل نشأته الصعبة ، ولم يبارح خياله في لحظة من اللحظات أنه عارض . كان دافيل يتذكر الماضي ، ويفكر فيما عسى أن يكون المستقبل . وهذا العالم من الافكار الذي كان لابناء زمانه وطنا روحيا، لم يكن له وجود عند شبان الجيل الجديد . ان شبان هذا الجيل الذي ولد من الدم ، وانفصل عن الماضي ، وتهيأ لكل شيء ، وقسا كأنما هو قد وضع في النار ، ان شبان هذا الجيل لا يعترفون بالوجود لغير الحياة التي « على الانسان أن يحياها » ، لغير عالم الوقائع ، لغير عالم الاشياء المحسوسة النابضة ، لغير النجاح والاخفاق اللذين يمكن قياسهما . ولم يكن هذا العالم في نظر دافيل الا حقلا مقفرا من صقيع ، لعله أسوأ وأنكى من ذلك الاضطراب الثوري الدامي .

لعل القنصل كان يغالي ويعمِّم بتأثير البيئة الاجنبية والظروف الصعبة التي يعيش فيها . ولقد تذكر هو نفسه ذلك مرارا ، لانه كان بطبيعته لا يحب اتخاذ مواقف قاطعة ، ولا يجب أن يعتقد بأن هذه

المواقف ثابتة لا تحول • ومن سوء حظه أنه كان يرى الى جانبه دائما ذلك الفتى الذي يلمح في نظرته البرودة والجزم والشهوانية ، ذلك الفتى المسيطر على نفسه الذي يرد الاشياء المحيطة به الى حقيقتها • صحيح أن له مواهب ، بل صحيح أنه لا يخلو من سلامة القلب ، لكنه واحد من أبناء ذلك الجيل الجديد ، من أبناء ذلك الجيل الذي يشبه أفراده أن يكونوا « حيوانات كاسرة » على حد تعبير أتراب دافيل• « ابن الثورة ، مواطن حر ، انسان جديد » ، كذلك كان دافيل يقول لنفسه حين يخلو الى نفسه بعد حديث يقوم بينه وبين دي فوسيه ، ثم يتساءل : « ترى هل تلد الثورات شياطين » ، وكثيرا ما كان يجيب على هذا السؤال بقوله : « نعم ان الثورات تقوم على أساس النبل الاخلاقي والصفاء الروحي ، لكنها تلد شياطين » ، حتى اذا جاءت الليلة التالية كانت تحاصره أفكار سود توشك أن ترهقه من أمره عسرا ، بدلا من أن يملك زمامها ويسيطر عليها •

وبينما كان دافيل يصارع هذه الافكار والعواطف التي أيقظها في نفسه وصولُ الموظف الشاب ، كان دي فوسيه لا يزيد على أن يسجل في مذكراته اليومية التي يدوّنها من أجل أصدقائه بباريز : « رأيت القنصل كما كنت أتخيّله » • لقد رآه كما كان يراه من خلال التقارير التي كانت تصل الى الوزارة من ترافنك ، وخاصةً من خلال ما ذكره له زميل أكبر منه سنا يقال له كيرين • لقد كان كيرين هذا مشهورا بمعرفته التامة بالموظفين ، حتى لقد كان يستطيع ببضع كلمات أن يرسم « الصورة الجسمية والنفسية » لكل موظف من موظفي العلاقات الخارجية • كان رجلا ذكي الفؤاد فكه الروح ، لكنه عاجز عن القيام بأي عمل منتج ، قد نذر نفسه لهذا العمل العقيم الذي هو مزيج من العلم والنميمة ، حتى صار رسمُ هذه الصور عنده هوىً طاغيا مستبدا ، وأصبح يستطيع ، اذا شاء ، أن يتلو هذه الصور

الكلامية كلمةً كلمة كأنه يقرأ نصا مطبوعا . لقد وصف كيرين صاحبَنا دافيل لزميله دي فوسيه كما يلي :

« جان دافيل رجل ولد مستقيم الطبع معافى النفس متوسط المزاج . كانت أصوله وطبيعته وتربيته تهيئه لان يعيش حياة هادئة بسيطة ليس فيها صعود كبير ولا هبوط شديد ولا تبدل عنيف . هو نبتة" خلقت لمناخ معتدل . مؤهَّب بفطرته لان يتحمس لفكرة من الافكار أو لشخصية من الشخصيات ، يميل الى الشعر ، بل ويملك مواهب شعرية ، ولكن ذلك كله لايتعدى حدود الوسط المعتدل . واذا كانت الأزمان الهادئة والظروف السهلة تجعل الأشخاص المتوسطين أكثر توسطا أيضا ، فان الأزمان العاصفة تجعلهم أناسا معقدين ، فكذلك أصبح صاحبنا دافيل الذي وجد دائما في قلب أحداث كبرى : ان هذه الاحداث لم تبدل طبيعته لكنها ساعدت على نشوء صفات جديدة فيه تناقض الملكات التي فطر عليها . فهو لأنه لا يستطيع أن يخلو من الوسواس وأن يتخلى عن الضمير وأن يكون قاسياً أو ماكراً أصبح في سبيل الدفاع عن نفسه وفي سبيل الحفاظ على بقائه مغلقاً خوّافا حذراً الى درجة الايمان بالخرافات . لقد كان في الاصل معافى شريفا نشيطا مرحا فأصبح سريع التأذي كثير التردد شديد البطء عظيم الحذر ميالا الى الكآبة . وهذا التعقد الذي أصاب طبعه أنشأ في شخصيته انقساما غريبا . ويمكن أن نقول بايجاز ان الاحداث التاريخية الكبرى جعلته واحدا من ضحاياها لأنه لم يكن قادرا على أن يقاومها كما فعلت ذلك قلة من الناس تملك قوة نادرة ، ولا كان قادرا على مجاراتها كما فعلت ذلك جمهرة من الناس المتوسطين . ولكنه كثير الشكوى ، وسيظل طوال حياته يشكو من حوادث الحياة ومن الحياة نفسها . ومهما يكن من أمر فهو حالة شائعة في أيامنا هذه » .

ان الاختلاف العميق بين القنصل ومستشاره ظهر منذ بدايات

حياتهما المشتركة • لقد طاف دي فوسيه بالمدينة رغم أن الفصل خريف ــ خريف رطب بارد ــ وتعرف الى كثير من الناس • لقد عرّفه دافيل بالوزير وبالشخصيات الكبرى في القناق ، أما سائر من عدا هؤلاء فقد عرفهم الشاب بنفسه •

تعرف الى كاهن دولاتس ، الأخ ايفو جانكوفتش الذي كان وزنه مائة وأربع أقات ، لكنه متوقد الذهن قوي العارضة • وقابل جيروموناك باهومييه ، وهو راهب أرثوذكسي شاحب متحفظ كان في تلك الأيام يقدّس في هيكل رئيس الملائكة ميخائيل • ودخل بيوت اليهود ، وزار دير جوتشاجورا فتعلم من الرهبان أمورا كثيرة عن البلاد وأهلها • وتهيأ لأن يدرس بعد ذوبان الثلج آثار المدن القديمة والمقابر • وما انقضت على وصوله أسابيع ثلاثة حتى أعلن للقنصل أنه يريد أن يؤلف كتابا عن البوسنة •

ان دافيل الذي تربى التربية الكلاسيكية في ظل النظام القديم قد ظل ، رغم مشاركته في الأحداث الثورية ، ملتزما الحدود التي تفرضها هذه التربية على الفكر وعلى الكلام • لذلك كان ينظر نظرة الحذر والشك الى أعمال هذا الفتى الذي يسعفه ذكاء حاد وتساعده ذاكرة مدهشة ، ويتدفق تفكيره تدفقاً قوياً وينطلق لسانه في فوضى جريئة • لقد كان الفتى لا يستطيع أن يكبح جماح نشاطه •

وكان دى فوسيه قد درس اللغة التركية بباريز ثلاث سنوات ، فكان يخاطب الناس بلغتهم رأساً في غير تردد • وكتب القنصل الى باريز يقول عنه : « صحيح أنه يعرف اللغة التركية ، ولكن هذه اللغة التركية التي يعرفها هي تلك التي يتعلمها الطلاب في ثانوية لوي لوجران ، لا تلك التي يتكلمها أتراك البوسنة » • والحق أن الفتى كان لا ينجح دائماً في الكلام ، لكنه يجذب اليه الناس بابتسامته العريضة وعينيه الصافيتين ، وكان الرهبان الذين يتحاشون الحديث مع دافيل يرتاحون الى الحديث

مع دي فوسيه ، وكذلك باهومييه المتجهم القاتم العابس • الا بكوات ترافنك ، فقد ظل دي فوسيه لا يستطيع مقاربتهم •

غير أن البازار لم يستطع أن يستمر على قلة الاكتراث « بالقنصل الشاب » • كان دي فوسيه لا يدع يوما من أيام السوق الا ويطوف بالبازار طوافا كاملا : يُعنى بالاسعار ، وينظر في الاشـياء مسجلا أسماءها ، والناس يتحلقون حول هذا الغريب الذي يرتدي « الزيّ الفرنسي » ليروه وهو يجرّب منخلا أو ينعم النظر في مثقب أو مقص • كان « القنصل الشاب » ينظر ملياً الى الفلاحين حين يشتري أحدهم منجلا فيأخذ يجسه بسبابة يده اليسرى المتصلبة ، ويضرب الحديد مرات على العتبة الحجرية مصغيا الى رنينه ، وينظر الى حرفه من أوله الى آخره مغمضا عينيه كأنما هـو يسدّد • وكان « القنصل الشاب » يقترب بعد ذلك من الفلاحات العجائز يسألهن عن أسعار الصوف الذي يعرضنه أمامهن على كيس من وبر الماعز ما تزال تفوح منـه رائحة الاسطبل : فكانت الفلاحة في أول الأمر تشك في الغريب ظانةً أن السيد يمزح ، ثم ما تلبث بعد الالحاح أن تذكر السعر وهي تقسم أن صوفها سيصبح بعـد الغسيل « ليناً كالأنفاس » • وكان يحب أن يعرف أسماء الحبوب ، وأن يروز حجمها ويمتحن صلابتها • وكان يحب أن يعرف أنواع الاخشاب التي صُنعت منها مقابض مختلف الفئوس والمجارف والمعـاول وسائر الادوات ، وأن يعرف طريقـة صنع هذه المقابض •

• • •

كذلك عرف « القنصل الشاب » أهمّ شخصيات البازار : عرف ابراهيم آغا ، القبّاني الرسمي ؛ وحمزة ، طبّال المدينة ومناديها ؛

و « المجنون شفابه[1] » ألهية السوق •

ان ابراهيم آغا شيخ ابيض اللحية ، نحيل الجسم ، طويل القامة ، مقوّس الظهر ، قاسي المظهر ، مهيب الطلعة ، كان في الماضي رجلا غنيا رخّصت له الحكومة أن يكون رقيباً على الموازين والمكاييل ، فباشرافه كان أولاده ومساعدوه يزنون كل ما ُيباع في السوق • ثم أصبح الآن فقيراً فقدَ مساعديه وأولاده ، اذ انتقل امتياز الموازين والمكاييل الى اليهود الذين أصبحوا يتقاضون رسومها ، وأصبح هو خادماً لهم • ولكن السوق لم يشعر بهذا التغير ، فجميع الفلاحين وجميع الذين يشترون ويبيعون ، لا يعترفون بغير ابراهيم آغا وزّاناً ، ويعتقدون بأنه سيظل صاحب امتياز الموازين والمكاييل مدى الحياة • كان اذا أخذ يزن قام من حوله صمت مهيب ، فهو يقطع أنفاسه حين يريد أن يضبط الوزن : انه مقطب الجبين متجمع النفس ، يميل الى أمام ويرتد الى وراء مع ترجح قب الميزان على بطء مغمضاً احدى عينيه ؛ وهو ينقل الوزن والبضاعة من كفة الى كفة ، حتى اذا توقف الميزان على القياس الدقيق ، أبعد يده ورفع رأسه دون أن يحول نظرَه عن الميزان ، وصاح يعلن عدد الأقات بقوة وقسوة :

ـــ احدى وستون الا عشرين درهما •

ولا يقبل هذا جدالا• فحول ابراهيم آغا وحده ، في هذه الجلبة التي تسود السوق ، انما يخيّم النظام والهدوء واحترام العمل الدقيق والوزن الصحيح • فاذا حاول قروي يساوره شيء من الشك أن يقترب من القبان ليراقب الوزن من وراء ظهر ابراهيم ، وضع ابراهيم يده على الوزن ، ووقف العمل ، ودفع الرجل ناهراً اياه بقوله :

---

(١) اسمٌ ُيشتم به الألمان في بلاد البلقان .

ـ ابعد ، ما اقترابك وسعالك في الميزان ! الميزان ايمان ، ورب نفخة تفسده . فاذا لم يكن الـوزن صحيحاً حرقتُ أنا في جهنم ، لا أنت . ابعد .

كذلك كان ابراهيم آغا يقضي عمره في السهر على الميزان ، يحيا منه ومعه وله . فكان مثـالا حيـاً على ما يمكن أن يستمده امرؤ من رسالة يعيش لها كائنة ما كانت .

وابراهيم آغا هذا الـذي كان يعرف كيف يوقى نفسه من أيسر خطيئة حين يكون قرب ميزانه ، رآه دى فوسيه يضرب فلاحاً مسيحياً في وسط الساحة على مرأى من الناس . كان هذا الفلاح قد أنزل الى السوق نحواً من عشر مقابض من مقابض الفئوس ، فأسندها الى جدارٍ مهدَّم يحيط بمقبرة تركية مهجورة وأطلال مسجد مخرَّب ، فلما رآه ابراهيم آغا الذي يراقب السوق كله ، مضى اليه ، فرمى بضاعته الى الأرض ، وأخذ يكيل الشتم والتهديد للرجل الذي أخذ يلمُّ أشياءه مذعوراً :

ـ هل جدار الجامع ملك لك حتى تسند اليه مقابضك ياخنزير ؟ مادقَّ الناقوسُ بعدُ هنا ، هل سمعت ؟ والبوق المسيحي لا ينفخ أيضاً ، ياخنزير !

واستمر الناس يسألون ويساومون لا يحفلون بالمشاجرة . أمـا الفلاح فقد حمل مقابضه ، وغاب في الجمهور .

وسجَّل دى فوسيه حين عاد : « للسلطة هنا وجهان ، وأعمـال الأتراك تبدو لنا غير منطقية وغير مفهومة فتدهشنا وتجعلنـا في تردد دائم . » .

أما الطبَّال حمزة فهو انسان يختلف عن ابراهيم آغا كل الاختلاف ، وتختلف حياته عن حياة ابراهيم آغا كل الاختلاف أيضا .

كان حمزة في الماضي فتى وسيما ذا صوت جميل ، لكنه وقد ألف الشراب والكسل منذ ميعة صباه ، قد أصبح الآن من أشد الناس ادماناً على السكر . وقد اشتهر ببراعته ونكتته ، وما يزال الناس يرددون أجوبته الذكية اللاذعة . من ذلك أنه سئل يوما لماذا اختار مهنة الطبّال ، فأجاب بقوله : « لأنه ليس هناك مهنة أسهل منها » . ومن ذلك أن سليمان باشا سكوبلاك قاد جيشه في قتال الجبل الابيض قبل بضع سنين ، وأحرق منطقة دروبيناك ، فأمر حمزة يومئذٍ أن يذيع نبأ الانتصار التركي العظيم ، وأن ينادي أن تسعين رأسا من رءوس سكان الجبل الأبيض قد قطعت . وكان هناك رجل ُطلعة يقترب دائما منه ليفهم ما يقوله ، فسأله بصوت عالٍ : « وما عدد الرجال الذين قتلوا منا ؟ » ، فأجابه حمزة فجأة : « ذلك يذيعه طبال سيتينييه[1] » ، واستمر يعلن ما عهد اليه باعلانه .

وقد أفسد حمزةُ صوتَه من فرط ما شرب وغنى وصاح . وأصبحت صيحاته لا تهز البازار ، بل أصبحت من بكمها وبحتها لا يفهم الأنباءَ التي تذيعها الا من هم قريبون منه . ومع ذلك لم يخطر ببال أحد أن يحل محل حمزة شاب " أقوى صوتا ، وكأن حمزة لم يدرك هو نفسه أن صوته قد ساء . فهو ما يزال يسير في الطرق معلناً ما يكلف باعلانه وما يستطيع اعلانه ، قائما أثناء ذلك بنفس الحركات التي كانت تصحب صوته القوي في الماضي ، والأطفال يرافقونه في سيره ضاحكين من حركاته التي أصبحت منذ زمن طويل لا تناسب صوته ، متطلعين الى رقبته التي تنتفخ انتفاخ قربة . ولا شك أن مرافقتهم له نافعة : فلقد كانوا يسمعون الأنباء وحدهم ، وفي وسعهم أن يذيعوها في المدينة .

---

(١) منطقة بالجبل الأسود .

وأصبح حمزة صديقاً لصاحبنا دي فوسيه • كان القنصل الشاب يشتري من حين الى حين ، اكرامـاً له ، سجادة من السجادات التي ينادي عليها وينال من ثمنها بعض الربح •

وأما « شفابو المجنون » فكان معروفاً بمدينة ترافنك منذ سنين : رجل معتوه لا يدري أحد من أين وفد الى المـدينة ، ولعله جاء من الطرف الثاني لنهر سافي • والأتـراك لا يسيئون الى المجانين • كان شفابو يعيش في السوق : يطعمه المحسنون وينام على المناضد • وكانت له قوة كقوة هرقل ، فكان هذا يتيح للاتراك أن يتسلوا به تسلية فظة حين يحتسي شيئا من العرق : يسقونه كأساً أو كأسين ثم يناولونه عصا ، فيأخذ المجنون يستوقف المسيحيين من المـارة ، ويزعم أنه يسيِّرهم بخطى عسكرية •

ــ الى الوراء ، دُرْ ، يساراً ، سِرْ [1] •

فكان الفلاحون يهربون ، لعلمهم بأن المجنون يعمل بتحريض من الأتراك ، بينما يأخذ التجار والبكوات العاطلون يضحكون •

وفي ذات مرة كان دي فوسيه عائدا الى القنصلية مع حارسه بعـد طوافه بالسوق ، فلما وصل الى مدخل الساحة المفضية الى البازار ، انتصب المجنون أمامه ، ماداً رأسه الضخم ، طارقاً بعينيه الخضراوين الخبيثتين ، ثم هرع يتناول قضيباً حديدياً من أحد الدكاكين ، ويعود الى الفرنسي رأساً :

ــ الى الوراء دُرْ ! الى الأمام سِرْ •

ووقف التجار على عتبات حوانيتهم يمدون أعناقهم ، وقد أسعدهم أن يتصوروا أن يروا القنصل الشاب يتراقص أمام شفابو المجنون •

---

(١) بالألمانية في الأصل •

ولكن الأمور جرت على غير ماتخيلوا : فما كاد الحارس يتحرك مسرعاً حتى كان دى فوسيه يخفض رأسه تحت القضيب ، ويقبض على يد المجنون بحركة سريعة ، ثم ينحني الى وراء فيضطرُ المجنونَ الى أن يدور حوله كدمية ، وأن يدع القضيب يسقط من يده ، حتى اذا وصل الحارس حاملا بندقية بيده ، كانت قد تمت السيطرة على المجنون ، وُجعلت يده اليمنى مثنيةً وراء ظهره ؛ فأسلمه دي فوسيه لحارسه ، وتناول القضيب من الأرض ، وردّه الى الدكان الذي جيء به منه •
فكان المجنون ، وقد تشنج وجهه ، ينظر تارة الى يده الموجَعة وتارة الى الشاب الذي رفع اصبعه وأخذ يهدده كما يهدّد الأطفال ، قائلاً له بلهجة كلهجة معلم المدرسة :

ـ أنت سيء ! يجب أن لا تكون سيئاً !

ثم نادى حارسه ، ومضى يتابع سيره في هدوء على دهشةٍ من أصحاب الدكاكين •

لام دافيل مساعدَه لوماً عنيفاً ، وأوضح له مرة أخرى أنه كان على حق حين نصحه بأن لا يذهب الى المدينة سيراً على الأقدام : فليس يمكن أن يعرف المرء ما قد يلفقه هذا الشعب السيء القاسي العاطل • ولكن دافنا الذي كان لا يحب الفتى مع ذلك ، ولا يستحسن أوضاعه المستخفة ، اضطر الى الاعتراف بأن ترافنك تتحدث عن « القنصل الشاب » معجبة •

ومضى « القنصل الشاب » يتابع زياراته رغم المطر والوحل ، يقابل الناس بغير تردد ، ويتجه اليهم بالكلام • فبذلك عرفَ أشياء كثيرة لم يكن دافيل الجامد الجاد يراها أو يعلم بها •

ذلك أنه لكرهه كلّ ما هو تركي أو بوسني كان يشمئز من كل ما يصل اليه من هذه الجهة ، وكان لا يرى داعياً الى هذه الجولات

التي يقوم بها دي فوسيه ، ولا يرى فيها مصلحةً ، ولا يرى في المعلومات التي يجمعها صاحبُه أية فائدة . كان تفاؤل هـذا الشاب ُيحنقه ، وكذلك كانت تحنقه رغبة هذا الشاب في أن ينفذ الى العالم الصغير الذي يعيشون فيه ، الى مافيه ، الى معتقداته ، الى تقاليده وعاداته ، بغية أن يكتشف في هذا العالم تعليلا لمساويء أهل هذه البلاد أو أن يكتشف الجوانب الخيِّرة من طباعهم ، هذه الجوانب التي أخفتها أو شوهتها الظروفُ السيئة التي عاشوا فيها مضطرين . كان دافيل يقول لنفسه : « هذا عمل عقيم . هذا انحراف عن جادة الصواب » . وكانت المناقشات التي تقوم بين القنصل ومستشاره حول هذه الأمور تنتهي الى مشاجرات ، أو تنطفيء في صمت حانق .

كان دي فوسيه يعود من جولاته في أمسيات الخريف الباردة وقد ابتل بالمطر واحمر وجهه وارتعدت فرائصه من البرد ، لكنه ممتليء بانطباعات جديدة تواق الى الكلام عنها . غير أنه لا يجد في استقباله الا دافيل مندهشاً ،الا دافيل ُيجيل في ذهنه أفكاراً جهمة منذ ساعات طويلة وهو يذرع الصالة التي يغمرها النور والدفء ، جيئة وذهابا .

ويلتهم الفتى عشاءه بلذة ، ويقص على القنصل زيارته لمدينة دوتسه التي تقع على مقربة من ترافنك والتي يسكنها عدد كبير من الكاثوليكيين، ويتحدث عن العناء الذي لقيه في قطع الطريق القصيرة التي تفصلها عن ترافنك ، فيجيبه القنصل وهو يتناول طعامه ببطء وبغير شهوة :

ــ لا أظن أن في أوربا بلداً ساءت طرق مواصلاته كهذا البلد . ان شعب البوسنة ، خلافا لسائر شعوب العالم ، يكره الطرق كرهاً عجيباً ، مع أن الطرق تجلب التقدم والازدهار والرخاء . والطرق في هذا البلد لا تصمد ، فكأنها تتهدم من تلقاء نفسها . والشعب لا يحب أن يرى طرقا لدى جيرانه أيضا : ان الطريق الذي أنشأه الجنرال مارمون

في دالماسيا يسيء الينا عنـــد الأتراك وعنـــد حاكم البوسنة أكـــثر كثيرا مما قد يتخيل ضباطنا المتباهون المستقرون بمدينة سبليت • ولكن من يستطيع أن يشرح ذلك لقيادتنا العامة في سبليت ؟ انهم فخورون جميعا بتسهيل المواصلات بين البوسنة ودالماسيا ! ولا يرون أن الاتراك يستقبلون هذا الامر بكثير من الشك والحذر •

أجاب دي فوسيه :

ـ مع ذلك لا داعي الى العجب • وما ظلت البوسنة تُحكم كمـا تُحكم الآن ، يجب أن لا تتصور انشاء طرقات فيهـا • ان المسيحيين والمسلمين على السواء ، يعارضون انشاء أي طـريق ، كائناً ما كان ، لأسباب مختلفة • وقد أدركتُ هذا الامر في هذا اليوم نفسه حين تحدثت مع صديقي الأب ايفو ، كاهن دوتسه الضخم • فقد شكوت اليه أن الطريق المؤدي من ترافنك الى دوتسه وعر وعورة شديدة وأن المياه قد خرّبته ، وأظهرتُ له دهشتي من أن السكان لم يحاولوا شيئا لاصلاح الطريق ولو بعض الاصلاح رغم أنهـم مضطرون الى قطعه كل يوم • فما كان من الأخ ايفو الا أن نظر اليّ نظرة ساخرة كنظرته الى رجل طائش أحمق، ثم طرف بعينيه في خبث وقال لي بصوت خافت :

« أيها السيد ، كلما كان الطريق رديئا قلّ عدد الزوّار من الاتراك • اننا نتمنى أن يكون بيننا وبينهم جبل لا يمكن اجتيازه • في وسعنا ، نحن ، أن نسلك أي طريق عند الحاجة ، وأن نتحمل العناء بالغاً ما بلغ • وقد ألفنا طرقنا الرديئة وألفنا جميع المشقات ، بل اننا نعيش من هذه المشقات • لا تنقلْ لأحد شيئا مما أقوله لك • ولكن اعلم أننا لن نحتاج الى طرق أفضل من هذه الطرق ما ظل الاتراك حـاكمين ، واعلم أيضا ـ وليكن هـذا سراً بيننا ـ أنه حين يُصلح الاتراك الطرقات يتولى رجالُنا حرثها وتخريبها متى بدأ هطول الامطار • فهذا يبعد عنا زيارةَ

من لا نرغب في أن يزورنا » • وفتح الاب عينه من جـديد ، مفتخراً بمكره ، ورجاني مرة أخرى أن لا أتحدث في هذا الامر الى أحد • ذلك هو السبب في سوء الطرق ، غير أن هنـاك سبباً آخر يعود الى الاتراك أنفسهم : • ان كل اتصال بالخارج هو عندهم طريق مفتوح يدخل منه النفوذ الاجنبي ، ويمكن أن يفسح المجال للتأثير في الشعوب التي أخضعها الاتراك لحكمهم ، فهو اذن خطر على سيطرة الاتراك • ولاحظْ عدا ذلك ، يا سيدي ، أننا نحن الفرنسيين قد ابتلعنا نصف أوروبا ، فما ينبغي أن يُدهشنا أن نرى البلدان التي لم نحتلها بعدُ تنظر في شك وحذر الى الطرق التي تنشئها جيوشنا على حدودها •

قال دافيل مقاطعاً :

ـ أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، ولكن أوروبا في حاجة الى طرق ، ولا نستطيع أن نقيم وزناً في هذا الامر لرأي شعوب متأخرة كالاتراك والبوسنيين !

ـ الشعوب التي ترى أن من الواجب انشاء الطرق ، تنشئها ، وهذا دليل على أنها في حاجة اليها • ولكنني أشرح لك السبب الذي يجعل أهل هذه البلاد لا يريدون طرقاً : انهم يرون أنها غير مفيدة ، بل يرون ان مضارها أكثر من منافعها •

كان ميل الفتى الى تعليل كل شيء يزعج القنصل ازعاجا خاصا • قال :

ـ يستحيل الدفاع عن هـذا الموقف ، ويستحيل تسويغه بحجج معقولة • ان الحالة التي يبقى عليها هؤلاء الناس ناشئة عن « طبيعتهم الخبيثة » ، صادرةٌ عن « سوءٍ فطروا عليه » كمـا يقول الوزير • هذا سبب كل شيء •

ـ طيب • ولكن اذا صح هـذا فكيف تعلل هذه الطبيعة الخبيثة

نفسها ؟ ما مصدر هذه الطبيعة الخبيثة ؟

ـ ما مصدرها ؟ ما مصدرها ؟ قلت لك انها فطرية ، وسيتاح لك أن تتحقق من ذلك بنفسك .

ـ ولكن بانتظار أن أتحقق من ذلك ، اسمح لي أن أحتفظ بهذا الرأي ، وهو أن سوءَ وحسنَ شعب من الشعوب انما هما ثمرة الشروط التي يعيش فيها هذا الشعب وينمو . ليست طبيعتنا الخيِّرة هي التي تدفعنا الى شق الطرقات ، وانما تدفعنا الى ذلك الضرورةُ والحاجة والرغبة في توسيع علاقاتنا ونفوذنا توسيعا يمكن أن يعود علينا بالنفع ، وهذا بعينه ما يعده كثير من الناس « خبثاً » فينا . هكذا تدفعنا طبيعتنا الشريرة الى شق الطرق ، وتدفعهم طبيعتهم الشريرة الى كره هذه الطرق والى تخريبها ان استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ـ أنت تذهب بعيدا يا صديقي الشاب .

ـ بل الحياة هي التي تمضي بعيدا ، وتبلغ من البعد في مضيِّها اننا نعجز عن اللحاق بها . لقد حاولت أن أعلل بعض الوقائع فحسب ، لأنني لا أستطيع أن أفهم كل شيء .

قال دافيل بلهجة فيها شيء من الاستعلاء والملل :

ـ ليس في وسع المرء أن يفهم كل شيء ولا أن يعلل كل شيء .

ـ طبعا ليس في وسع المرء ذلك ، ولكن عليه أن يحاول .

لقد ارتاح دي فوسيه من نزهته الباردة على صهوة الجواد ، وأدفأه الطعام والخمر ، فها هو ذا يستمر على التفكير جهاراً بحرية هي حرية الفنيان حين يتكلمون :

ـ أنظر مثلاً كيف يمكن تفسير ما سأقصه عليك . ان هذا الكاهن

نفسه ، كاهن دوتسه ، وهو رجل رصين فكه عاقل لا يغفل عن الوقائع ، كان في يوم الاحد الماضي يلقي موعظة بالكنيسة • فهل تعلم ماذا قال ؟ لقد ذكر لي حارسنا الكاثوليكي شيئا عن الموعظة التي ألقاها هـذا الكاهن :

لقد حـدث المستمعين عن أحـد رهبان دير فينيترا ، وهو راهب قضى نحبه في الايام الاخيرة ، وكان في حياته ورعاً تقياً ، فقال انه ان لم يكن الآن في عداد القديسين فهو على صلة مباشرة بهم في أقل تقدير ، وانه يعلم علم اليقين بأن أحد الملائكة يجيء الى ذلك الراهب في كل ليلة حاملاً اليه رسالة من أحـد القديسين ، بل ومن السيدة العذراء نفسهـا •

ــ أتجهل الى أي حد يمكن أن يفرط هؤلاء الناس في التدين ؟

ــ لنا أن نسمي ذلك افراطاً في التدين ، ولكن هذه التسمية لاتعلل شيئا •

وكان دافيل ، وهو رجـل متحرر ، على ذكاء وقصدٍ واعتدال ، لا يطيق أيسر مناقشة حول المسائل الدينية ، فقال في شيء من التبرم والانزعاج :

ــ بل يعلل كل شيء • والا فلماذا لا يقول الكهنة في بلادنا سخافات كهذه السخافات ؟

ــ لأننـا لا نعيش في نفس الظروف يا سيدي • واني لأتساءل ما الذي كان يمكن أن يقولوه في مواعظهم لو عشنا كما يعيش مسيحيو هذه البلاد منذ ثلاثمائة عام • أعتقد ان معجزات الارض والسماء جميعا ما كان لها أن تكفينا أسلحةً في نضالنا ضدّ الاحتلال التركي • صدقني اذا قلت لك انني حين أرى هؤلاء الناس وحين أسمع كلامهم أنتهي من ذلك الى الاقتناع بأننا مخطئون خطأً كبيراً في احتلال أوروبا بلدا بعد

بلد ، وفي حرصنا على ان نحمل آراءنا في الامور وطرائقنا في الحياة الى كل مكان ، مهما تكن هذه الآراء وهذه الطرائق صائبة ومعقولة • لقد أصبحت أرى ان هذا الجهد لا يمكن أن يستمر ، بل انه ليس من العقل في شيء • انه لمن السخف أن نحاول محوَ الاخطاء والترهات حين لا نملك القدرة على محو الاسباب التي ولدتها ، وحين لا يكون ذلك في الامكان •

قاطعه القنصل قائلا :

ــ هذا أمر يمضي بنا بعيدا ، ولكن لا تخف ، ان هــذه المسألة تشغل بال اناس غيرنا •

قال ذلك ثم نهض وقرع الجرس قرعاً قوياً يأمر برفع المائدة •

كان الشاب ينتقد النظام الامبراطوري في بعض الاحيان ، يدفعه الى ذلك اخلاص وتحرر فكري أصبح لا يشعر بهما من فرط ما هما طبيعيان فيه ، ولكن القنصل كان يحسده عليهمــا في قرارة نفسه • فكلما اتفق للشاب أن ينقد النظام الامبراطوري في مناسبة من المناسبات انقبضت أسارير القنصل ، وزايله هدوءه ، ونفد صبره • كان لا يطيق سماع هذه الانتقادات ، لأنه وهو المتردد ، كان يخفي شكوكاً لا يستطيع الافضاء بهــا ، فكان يخيَّل اليه حين يسوق دي فوسيه انتقاداته أنه يُعرِّي الجرح الاليم بتهور طائش ، ويضع اصبعه على النقطة الموجعة التي لا يريد أن يخفيها فحسب ، بل يود كذلك أن ينساها لو استطاع الى نسيانها سبيلا •

وكان الادب موضوعا آخر لا يستطيع القنصل أن يتحدث فيه مع مساعده ، وخاصةً أدبه هو •

يجب أن نذكر أن دافيل كان حسَّاساً جداً في هذه النقطة • ذلك انه منذ وعى نفسه كــان يحلم بالأدب ويشترك في تحرير جــريدة

« الراصد » ، ويلازم الجمعيات والمنتديات التي يتحدث فيها الناس عن الادب • ولئن هجر ذلك كله منذ أن دخل وزارة العلاقات الخارجية وخاصةً منذ أن عُيِّن قائماً بالاعمال في مالطه وفيّ نابولي ، فانه تابع أعماله الشخصية في ميدان الادب •

والقصائد التي كان ينشرها في الجـرائد من حين الى حين ، أو ينسخها بخط جميل ويرسلها الى شخصيات كبرى أو الى رؤسائه أو الى أصدقائه ، لم تكن أجود ولا أردأ من القصائد التي كانت تظهر في ذلك الزمان آلافاً • كان يعلن أنه « تلميذ أمين للشـاعر العظيم بوالو » ، ويدافع بمقالات لا يخطر ببال أحد أن يعارضها ، عن الشعر ضدَّ جموح الخيال ونزوات الشطارة وفوضى الفكر • كان يقول : لا شك في ان الالهـام ضروري ، ولكن يجب أن يوجهه العقل • فينبغي أن تكون السيادة لسلامة الحس وروح الاعتدال في خلق كل أثر أدبي • كان يدافع عن النظام والاعتدال ، كأن النظام والاعتدال يهددهما الشعراء والشعر دائماً ، فمن الواجب الدفاع عنهما بكل الوسائل ، وكان يقرر مبادئه هذه على صورة لا بد أن يستنتج منهـا القاريء أن القواعد يجب أن تكون لها غلبة مطلقة على العبقرية • ومن بين شعراء عصره كان مثله الاعلى جاك دوليل ، شاعر « الحدائق » ومترجم فرجيل ؛ ومن أجل أن يدافع عن قصائد دوليل التي لم يكن يهاجمها أحد نشر في « الراصد » عددا من المقالات لم يلتفت اليها أحد •

ومنذ عدد من السنين شرع دافيل ينشيء هو نفسه قصيدة ملحمية كبيرة مقسَّمةً الى أربعة وعشرين نشيداً ، موضوعُها حياة الاسكندر الكبير • لكنه لم يلبث أن أحالهـا شيئا فشيئا الى نوع من اليوميات الفكرية • فتجربته عن العالم ، وآراؤه في نابوليون أو الحـرب أو السياسة ، ورغباته واستياءاته ، كل هـذه الامور نقلها الى الازمان السحيقة والظروف الغامضة التي كان يعيش فيها بطله ، وعرضها على

هواه في حلة من أشعار موزونة تزينها قوافٍ قوية • وقد بلغ من شدة اتحاده بقصيدته أنه أضاف الى اسم ابنه الثاني جول فرانسوا اسمَ آمنتاس جد الاسكندر ، وانه أدخل في هذه القصيدة عن الاسكندر من عرف وما عرف في ترافنك من ناس وأشياء •

صوَّر البوسنة تحت اسم توريد ، واصفاً اياها بأنها بلد فقير ، مناخه قاس وسكانه جفاة متوحشون • وتحت أسماء حاشية الاسكندر أو خصومه صوَّر محمد باشا وأغوات ترافنك والبوسنيين • صوَّر جميع أولئك الذين كان يتعاون معهم أو يقتتل • وفي الصراع الذي خاضه بطله ضد آسيا البعيدة ، عبَّر عن اشمئزازه هو من الشرق ومن الروح الشرقية • فاذا طاف ببصره من فوق حصانه على سطوح ترافنك ومآذنها لم يلبث أن يستمد من هذا المنظر الذي أعجب به أوصافاً يدخلها في تصويره لمدينة سيحتلها الاسكندر • واذا جلس على أريكة الوزير ولاحظ رجال مجلسه ولاحظ الخدم الصموتين المرنين جمع من ذلك في خياله أوصافاً لجلسة من جلسات مجلس الشيوخ بمدينة صور التي جعلها مقر الاسكندر في النشيد الثالث من قصيدته •

لقد ظل دافيل ، وشأنه في ذلك شأن سائر الكتاب الذين لم يؤتوا موهبةً ولا خلقوا للأدب ، يحتفظ بهذا الوهم الراسخ الذي لا سبيل الى اقتلاعه ، وهو أن الانسان انما يدفعه الى الشعر مؤثر خارجي ، وأن الخلق الشعري انما هو سبيل الى العزاء في زحمة الآلام التي تزخر بها الحياة • كان ابان شبابه يتساءل في كثير من الاحيان أهو شاعر أم لا ، وهل لشعره شيء من معنى ، وهل له حظ من البقاء • أما الآن ، بعد أن قضى هذه السنين كلها وأنفق هذه الجهود كلها ، دون أن ينجح ودون أن يخفق ، فبرهن له ذلك كله برهانا قاطعا على انه لم يؤت أية موهبة ، فانه كفَّ عن طرح ذلك السؤال الذي يحاصر أذهان الشباب الجريء الصادق الظامىء الى معرفة نفسه • انه في أيام شبابه ، وحين

كان هناك من يشجع محاولاته ، لم يكتب الا قليلا • أما الآن وقد تقدم في السن وأصبح لا يعده أحد شاعراً ، فانه يعمل في جد واطراد • ان العادة والمواظبة قد حلتا عنده محل اندفاع الصبا وحاجة التعبير • ان المثابرة فضيلة كثيرا ما تسيطر حين لا تُستحسن سيطرتها ، أو تظهر حين لا تبقى اليها حاجة • فيمكن اذن أن تكون عزاءً للكتاب الذين لم يؤتوا موهبة ، وأن تكون نقيض الفن •

وهكذا فان الظروف الشاذة التي ألقي اليها دافيل ، والوحدة والضجر اللذين عاشهما خلال سنين ، قد دفعته في طريق لا آخر له ، وقادته الى ارتكاب هذه الخطيئة الساذجة التي يسميها شعراً • الواقع انه قد سار في غير الطريق التي خلق لها منذ نظم أول بيت ، ولم يتصل بالشعر حقَّ الاتصال في يوم من الايام • كان لا يحس شعر الشعراء حتى حين يعبر هؤلاء الشعراء تعبيراً مباشراً ، فكيف يخلق شعرا ! كان الشر يثير في نفسه مرارة أو ألماً شديدا ، وكان الخير يملأ نفسه حماسة ، لكن هذه المشاعر ، القوية رغم أنها قصيرة في بعض الاحيان ، تلهمه أشعاراً يعوزها الشعر • على أن الذوق السائد في عصره كان هو الذي يبقيه في ذلك الطريق والحق يقال •

كذلك كانت تنقضي السنون وصاحبنا دافيل يستمر ، باقتناع ما ينفك يرسخ ، في تحويل الفضائل الواقعية الى عيوب متوسطة ، وفي أن يطلب من الشعر ما لا يستطيع الشعر يوما أن يمنحه اياه حين يكون صادقا ، أعني رضى أخلاقيا ممتعا ، ولهوا فكريا سهلا ، وتزجية للوقت وسلوى •

• • •

هكذا لم يكن الشاب دي فوسيه عند رئيسه المستمعَ المنشود ولا الناقد المفيد ، بل ولا شريكا في حديث أدبي • كان بينهما في هذا

الميدان هوة سحيقة ينظر القنصل الى مداها فتمتليء نفسه أسى وشجناً •

وكان ذكاء الوافد الجديد ، هذا الذكاء الذي تغذيه معارف واسعة كثيرة : يتجلى سرعةً في الحكم وبراعة في استخلاص النتـائج • ان المعـرفة والحدس يتعاونان فيه تعاوناً يشبه أن يكون سحريا • وكان القنصل لا يستطيع الا أن يرى ذلك ، رغم اختلاف مزاجيهما ، ورغم ما يحمله للفتى من كره • كان يبدو له أن هذا الشاب الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره قد قرأ مكتبات برمتها ، وأنه في الوقت نفسه لا يبالي ذلك ولا يعبأ به • كان يستطيع ، فيما يشبه اللعب ، أن يتحدث عن تاريخ مصر مثلما يستطيع أن يتحدث عن العلاقات بين مستعمرات أمريكا الجنوبية وبين البلاد التي تستعمرها ، ويستطيع أن يتحدث عن اللغات الشرقية وعن أنواع الصراع العنصري والديني في أي بلد من بلدان العالم وعن أهداف نظام نابوليون الذي يريد السيطرة على القارة كلهـا وعن حظه من النجـاح ، مثلما يستطيع أن يتحدث عن وسائل المواصلات وأسعارها • وممـا لم يكن في الحسبان انه كان يستشهد أحيانا بعبارات مستمدة من الادب الكلاسيكي ، وتكون هذه العبارات في بعض الاحوال من غير العبارات الشائعة المعروفة ، يربط بينها وبين مسألة من المسائل دائما في حذقٍ يسلّط على المسألة ضوءاً جديداً •

كان دافيل يرى في هـذا كله تصنعا وفورانا من فوران الشباب أكثر مما يرى فيه قيمة حقيقية ، ولكنه كان يصغي دائما الى كلام الشاب لا بنوع من الاعجاب المنزعج فحسب ، بل بشعور أليم بالضعف والعجز يحاول عبثا أن يطرده من نفسه •

وكان دي فوسيه أعمى وأصمّ عن كل ما كان دافيل يحرص عليه أشد الحرص ، ويقدره أعظم التقدير ، عن كل ما كان يعـده دافيل ، بعد الواجبات المفروضة على المواطن ، أجدرَ الاشياء بالاحترام • لقد

كان دي فوسيه يعلن بصراحة انه لا يحب الاشعار وان الادب الفرنسي في هذا العصر يبدو له سخيفا ، خاليا من الصدق ، شاحبا كابيا ، زائدا لا لزوم له . ولـكنه كان لا يحرم نفسه من حق الكلام والمناقشة في هـذه الامور التي يعلن هو نفسه انه لا يستطيع أن يحسها ولا أن يحبها ، وكان يتكلم ويناقش بلا تحرج ، من غير ايثار ولا كره ، ولكن من غير احترام أيضا ، وبدون تفكير كثير . من ذلك مثلا انه حين تحدث عن دوليل ، معبود القنصل ، قال انه ليس الا رجل صالونات ، وليس الا كاتبا بالاجرة ، يتقاضى ستة فرنكات عن كل فقرة ، وان مدام دوليل تحبسه في الغرفة وتقفل عليه الباب الى أن يفرغ من نظم العدد الذي تكون قد فرضته عليه من أبيات الشعر . كان هذا الكلام الخالي من الاحترام يحنق دافيل تارة ، ويحزنه تارة أخرى ، ويشعره على كل حال بمزيد من العزلة يوما بعد يوم .

ومع ذلك كان يتفق لدافيل أن تعصف به الحـاجة الى التعبير عن نفسه ، فاذا هو ينسى كل شيء ويشرع في حديث صميمي حي عن أفكاره ومشاريعه الادبية . وهذا ضعف" له في مثل هذه الظروف ما يفسره . ففي ذات مساء عرض على صاحبه خطة قصيدته « الاسكندر الكبير » ، كما عرض عليه المعاني الاخلاقية التي هي أسس الاحـداث في قصائد الملاحم . ولكن الفتى ، رغم انه كان مرتاحا كل الارتياح في ذلك اليوم، لم يتلبث لحظة على النظر في هـذه الافكار وهذه الآراء التي كانت الغذاء الفكري للقنصل ، بل أخذ يضحك ، وطفق يتلو أبياتا للشاعر بوالو :

في الذعر والضوضاء والحروب
ماذا تراه نشد الاسكندر ؟
قد كان فيه خصمه ولم يطق أن يقهره
فكان يخشى نفسه ففر من حقيقته !

وقال الفتى معتذراً انه قرأ هذه الابيات في الماضي وحفظها مصادفة ، وان اسم الاسكندر هو الذي ذكّره بها الآن •

جُرح دافيل وشعر بعزلته شعوراً أقوى من شعوره بها في أي وقت مضى • ان أمامه ، على مسافة شبر واحد منه ، نموذجَ الجيل الجديد ، الجيل المضطرب اضطرابا شيطانيا ، الجيل الذي تملأ رأسَه أفكار" هدّامة ، الجيل السريع الى عقد مقارنات كافرة ، الجيل الذي لا يحب الشعر ويعرف مع ذلك قيمة الاشعار ، ويعرف كيف يستغلها في تحقير كل شيء بالسخرية • ولم يُظهر القنصلُ استياءَه العميق ، ولكنه أوقف الحوار وعاد الى بيته • ولبث في سريره مدة طويلة لا يعرف جفناه الى النوم سبيلا • وحتى أثناء نومه ظل يشعر بالمرارة من ذلك الجواب الذي انطلق من صاحبه عفوَ الخاطر ، ومكث عدة أيام لا يستطيع أن يفتح ولا أن يلمس المخطوطة التي كانت تستريح في قميص من الورق المقوى مربوط بخيط أخضر • كان يتراءى له ان قصيدته قد دُنست في غير قليل من الغلظة والفظاظة •

ولكن دي فوسيه لم يشعر أي شعور بأنه ربما جرح القنصل ، حتى لقد حمد لنفسه انه تذكر هذه الابيات ــ والشعر من أندر الاشياء التي تعيها ذاكرته العجيبة ــ ولم يحس أن من الممكن أن يكون بينها وبين قصيدة دافيل من صلة غير صلة اللفظ ، وأن تؤثر في العلاقات التي بينه وبينه •

لقد اعترف الناس في جميع الازمان بأن الجيلين المتعاقبين يجهل أحدهما الآخر ولا يطيق أحدهما الآخر • وهذا صراع ينشأ ويغتذي ، كسائر أنواع الصراع ، من سوء التفاهم •

من ذلك ان ما كان يعكر صفو القنصل خاصةً اعتقادُه بأن محدثه الشاب ، بعد أن جرح كرامة ذلك الجرح الموجع ، قد نام نوما عميقا

معافى طبيعيا كسائر أقواله وأفعاله طوال النهــار • والحق انه كان في وسعه أن يجنب نفسه هــذا الحقد • فلقد أخطأ ظنه في دي فوسيه • فلأن يضحك المرءُ مرِحاً ولأن يذهب ويجيء حرّاً طليقا من أول النهار الى آخره ، فليس يَعني ذلك انه سعيد رضي البال ولا انه ينام نوما هادئا•الواقع ان الفتى لم يكن ، كما يظن رئيسه ، مجردَ « عينة قوية » تمثل الجيل الجديد ، مجردَ ولدٍ سعيد من أولاد الامبراطورية السعيدة ، نضج نضجا سريعا واختزن معارف كثيرة • ان كلا من هذين الفرنسيين كان في تلك الليلة يعاني آلامه على طريقته الخاصة دون أن يفهم آلام الآخــر •

لقد كان دي فوسيه يعاني هو أيضا نصيبه من العذاب في هــذه البيئة الاجنبية وهذه الظروف الغريبةالتي يعيش فيها • ولئن كان مسلحاً للكفاح أكثر من دافيل ، لقد كان يتألم مثل دافيل من الوحــدة ومن « الهدوء البوسني » • كان يشعر بأن هذا البلد الذي يعيش فيه وهذه الحيــاة التي يحياها يضنيانه ويثقــلان على كاهله ليقوســا ظهره أو ليحطماه ، ليهبطا به الى مستوى ما حوله • ليس أمرا سهلا ولا بسيطا أن تكون في الرابعة والعشرين من عمرك ثم يلقى بك من باريز الى ترافنك ، وأفــكارك ومشاريعك أعلى كثيرا من كل ما يحيط بــك • ليس أمرا يسيرا أن تسير بخطى بطيئة صابرة بينما تضطرم فيك قوى مكبوحة وتتمرد فيك مطالب الشباب على كل انتظار •

لقد شعر بهذا منــذ وصل الى سبليت • وأصبح يحس منذ ذلك الحين ان دائرة خفية تضيق من حوله في كل لحظة • حالة شاقة أليمة يصبح فيها كل جهد أصعب من سابقه ، ويصبح فيهــا المرء أعجز عن القيام بهذا الجهد يوما بعد يوم ، وتصبح فيها كل خطوة أقسى ، ويصبح فيهــا اتخاذ كل قرار أبطأ وتنفيذ كل قرار أكثر ترددا وتعثرا • وفوق ذلك كله يخيم هذا الجو الشامل من سوء الظن والشك والشقاء ،

الذي يهدد جميع الناس ويولد جميع أنواع القلق •

ان قائد موقع سبليت ، حين وضع تحت تصرف الدبلوماسي الشاب عربةً رديئة تقله الى سيني ، ووضع تحت تصرفه خيولا لنقل أمتعته وأربعةَ رجال يرافقونه ، كان يبدو عليه الهم والقلق ، وكـان كثيرَ التذمر شديد التململ ، حتى كاد يسيء استقبال دي فوسيه ويسيء معاملته • ولكن دي فوسيه ، رغم أنه في مقتبل العمر ، كان يعرف الانزعاج الذي حملته الحروب الطويلة الى العالم : ان الناس يسيرون منذ سنين سيرَ من يحمل على كاهله عبئا ثقيلا ، فلكل واحد منهم آلامه ، وما من أحد في مكانه ، وكلٌ يحاول أن يتخلص من جزء من حمله بالقائه على آخر ، أو يتخفف منه بقذف شتيمة من الشتـائم أو اطلاق كلمة حادة • هكذا كان شقاء العالم يجري من مكان الى مكان ، يدفعه هذا الى ذاك ، ويدفعه ذاك الى هذا ، فيصير شائعا بين النـاس جميعا ، فاذا لم يخفف شيوعه مـن ثقله ، فهو يجعل الناس أقـدر على احتماله •

وقد ارتكب دي فوسيه غلطة صغيرة لم يلبث أن أدرك أنها غلطة : سألَ هل نوابضُ العربة متينة وهل مقعدها مريح ، فما كان من آمر الموقع الا أن رمقه بنظرة ثابتة ملتمعة كأنها نظرة سكران ، وقال :

ــ هذا خير ما يوجد في هذا البلد اللعين • واعلم بعد هذا أن من يُعيَّن لوظيفة في تركيا يجب أن يكون دبره من فولاذ !

فأجابه دي فوسيه دون تردد ، وهو يحدق اليه مبتسما :

ــ لم يُذكر لي هذا في التعليمات التي تلقيتها بباريز •

فلما رأى الضابطُ أن صاحبنا لا يفر من المشاجرة اعتبر هـذا الحديث المرَّ العذبَ في آن واحد نوعا من السلوى ، وقال :

ـ وتعليماتنا نحن ، يا سيدي ، لا تذكر هذا . انما هو يُعرف بعد ذلك في حينه ....

قال ذلك ومكر يتظاهر بالكتابة .

بعد هذه الزفة الخشنة بعض الخشونة ، مضى الشاب في الطريق العفراء على درب الجبل الحجير الوعر المقفر الذي يرتفع فوق سبليت مبتعدا عن البحر . وما لبث أن خلّف وراءه أواخر البيوت اللطيفة ، وأواخر النباتات الجميلة ، ودخل في تلك البوسنة التي كانت أولَ امتحان له على مدخل الحياة . وأوغل في هذه البلاد المتوحشة العارية ينظر على طول الطريق الى الاكواخ المنحنية ، وينظر في الحقول الى راعيات غارقات بين الحجارة والعوسج قد أمسكن بالمغازل ولا تُرى لهن قطعان . فكان يتساءل : « أهناك ما هو أسوأ من هذا ؟ » ، شأنه شأن المريض الذي يتساءل في كل لحظة أثناء جراحة تُجرى له هل الألم الذي يتحمله سيتجاوزه ويتعداه ألم آخر . وذلكم قلق له ما يسوّغه لدى شاب في مقتبل العمر . على أن صاحبنا كان مستعدا لكل شيء ، كان مستعدا لتحمل كل شيء .

وبعد أربع ساعات توقف في الممر الحجري الواقع فوق كليس ، ونظر الى الصحراء التي تمتد أمامه ، والى المنحدرات الوعرة التي تتناثر عليها خصل نادرة من خضرة ضاربة الى سواد . ولفّه صمت ، صمت عالم جديد . وبسبب هذا الصمت لا بسبب ريح باردة كانت تهب وحدها في الفج ، وجد نفسه يشد معطفه ، ويتشبث بمكانه مزيدا من التشبث ، ثم يدخل في هذا العالم الجديد المجهول بعزم وتصميم . هي البوسنة ، وان المرء ليحس في الهواء بشيء يشبه ان يكون لذابا ، عذابا كالصقيع ، أخرس ، لا يُفهم ولا يفسر .

وقطع الركب الصغير مدينة سيني ثم مدينة ليفنو ، حتى اذا وصل

الى سهل كوبرس هبّ عليه اعصار ثلجي ، فلم يستطيع الدليل التركي الذي انتظرهم على الحدود أن يوصلهم الى أول محطة الا في كثير من العناء ، فلما وصلوا كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ ، وكانوا متجلدين من شدة البرد ، فتهالكوا على الموقد حيث كان يستدفيء قبلهم عدد من الاشخاص •

كان دي فوسيه متعبا جائعا مرتعد الفرائض من شدة البرد ، ومع ذلك ظل منتصب القامة هاديء المظهر ، يريد أن يكون صامدا أمام هؤلاء الاجانب • ومسح وجهه بشيء من الماء ، وأخذ يقوم بحركاته الرياضية المألوفة ، فقال الذين كانوا يراقبونه بطرف العين : هذه طقوس دينه • فلما جلس كلمه واحد منهم باللغة الايطالية : انه راهب من رهبان دير جوتشا ، اسمه الاخ جيوليانو باشالتش ، كان مسافرا لشأن من شئون ديره • أما الآخرون فكانوا من سائقي عربات نقل البضائع •

ردّ دي فوسيه على كلام الراهب باحثا عن الالفاظ • فما ان سمع الراهب هذه الكلمات : باريس ، القنصل الامبراطوري ، حتى قطّب حاجبيه الكثيفين اللذين كان وجهه الصغير يضحك تحتهما كما لو كان تحت قناع ، وصمت •

وظلا لحظة يراقب أحدهما الآخر متأهبا لا ينطق • ان الراهب شاب في ريعان الصبا ، يبدو في معطفه الاسود الذي يغطي رداءً أزرق قاتما وحزاما من الجلد وأسلحة ، أنه على جانب من القوة • فمنذ رآه الدبلوماسي الفتى أخذ يلاحظه مرتابا ويشك في أمره بعض الشك• وكان الراهب أيضا يراقب الفتى الغريب المتورد اللون ، الطويل القامة ، الهاديء المظهر ، الجميل الشكل : ان البلد التي يأتي منها والحكومة التي يعمل في خدمتها يوحيان الى الراهب بشك كالشك الذي خامر قلب الفتى ، ولم يدر في خلد الراهب أن يخفي هذا الشعور •

أراد دي فوسيه أن يقطع الصمت فسأل الراهب أليس عمله صعبا شاقا • فأجابه الراهب بقوله :

ـ انك لترى أننا نحاول هنا ، في ظروف صعبة ، أن ندعم الكنيسة المقدسة ، أما أنتم في فرنسا فتعيشون في حرية كاملة ثم تضطهدون الكنيسة وتحاولون تهديمها • يالها من خسارة ياسيدي ، ويالها من خطيئـــة ! •

كان دي فوسيه قد عرف من محادثاته في سبليت أن الكهنة وسائر الكاثوليكيين في المنطقة يعادون القوات الفرنسية المحتلة ويتهمونهــا بالمروق واليعقوبية • ومع ذلك أدهشته لهجـــة هذا الراهب وتساءل ماذا يجب أن يفعل في هذه المناسبة موظف" من موظفي الامبراطورية الفرنسية • وحدّق الى عيني الراهب الحادتين ، ثم مال عليه قليلا وقال :

ـ لعلك ، يا محترم ، غير مطلع اطلاعا كافيا على شئون بلادي •

ـ ربما • لكنّ ما ُيروى لنا وما نقرؤه يدل على أن أذى كثيرا قد ُألحق وما يزال يُلحَق بالكنيسة ورجالها وأتباعها • وهذا أمر لم يجلب خيراً لاحدٍ في يوم من الايام !

كان الراهب يحاول أن يتخير ألفاظه ، فكانت كلماته المعتدلة لاتتفق مع تعبير وجهه الذي كاد يكون متوحشا •

وجاء الخدم يحملون الراكي ، والتستسفارا (١) ،والجبنة البوسنية المغلية بالخمر وهي ما تزال تفور ، فانقطع الحوار • فلما تناقل الراهبُ والفرنسي الطبقَ والزجاجة ، كان كل منهما ينظر الى الآخر بين الفينة والفينة وهو يستدفيء فرِحا ، شأن من استبد به الجوع وجمّده البرد • وأحسّ الفتى الفرنسي بالحرارة تصعد في جسمه ، وأخذ النعــاس

---

(١) نوع من الحساء .

يداعب جفنيه • وكانت الريح تصفر في المدخنة العالية ، وعلى السقف تسقط أسناخ الثلج كحبات رمل • أحسّ دي فوسيه بشيء من الدوار • وقال لنفسه « بدأ عملي • هذه هي الصعوبات والصراعات التي قرأنا عنها في تقارير القناصل بالمشرق » • وجهد أن يرى نفسه رؤية واضحة وهو ضائع في مكان بالبوسنة بين الثلوج ، مضطر الى مناقشةٍ بلغة أجنبية مع هذا الكاهن الغريب •

واطبقت حواجبه ، وثقل تفكيره ، كما يقع مثلُ ذلك في تلك الاحلام المضطربة المشوشة التي يقاسي فيها المرء محنا ظالمة قاسية • ولم يبق في رأسه الا فكرة واحدة واضحة : يجب أن لا يطأطيء رأسه وأن لا يخفض بصره ، يجب أن لا يدع القول الفصل لخصمه • لقد ارتبك بعض الارتباك ، لكنه اعتز بانه على هذه الصورة التي لم تكن في الحسبان ، في هذا الاجتماع الغريب ، قد دشّن رسالته وجرّب فنه في اقناع الخصم مستعينا بالقليل الذي تعلمه من اللغة الايطالية في المدرسة • انه منذ خطواته الاولى يروز المسئوليات التي وزعها العالم على عاتق الافراد ومدها لهم شباكا •

وسخنت يداه المتجلدتان • كان الدخان يقرص أجفانه ويحمله على السعال • النعاس يعذبه ، وهو يغالب النعاس كما يغالبه خفير سهران ، ولكنه لا يدع نظرة الراهب ، بل يحدق اليها تحديقه الى مرمى يسدد اليه • كان من خلال النعاس الذي يغشّي بصره وسمعه ، ينظر الى خصمه دائما وما ينفك يسمع عباراته المقطعة واستشهاداته اللاتينية كأنها آتية من بعيد • قال لنفسه : « ان هذا الراهب قد جمّع ، من فراغه ، مئونة من الطاقة والنصوص » • « ما يمسكه يسوع المسيح بيديه لايستطيع انتزاعه أحد »[1] • كذلك كان يقول الراهب • ما من أحد

---

(١) باللاتينية في الأصل •

يحارب الكنيسة ثم يفوز بنصر دائم • وكـان الفتى يجيبه بالفرنسية والايطالية مخلوطتين : ان نابوليون يريد السلام الديني ، وانه حاول أن يردّ الى الكنيسة المكانة التي تستحقها ، مصلحا أخطاء الثورة مصححا ما عمدت اليه الثورة من ضروب الشدة والفتك •

وفي أثناء ذلك ، بتأثير الطعام والشراب والدفء ، كان كل شيء يلين ، وكان كل شيء يهدأ ، وأصبحت نظرة الراهب أقل قسوة ، وأصبحت نظرة الدبلوماسي مشرقة باسمة • ورأى دي فوسيه في ذلك علامة هدنة ، ودليلا على أن المشكلات الابدية يمكن أن تنتظر قليلا ، وعلى أن هذه المشكلات قد لا تُحل في محطة من محطات الطريق بتركيا ، أثناء لقاء طارىء بين موظف من موظفي السلك القنصلي و « راهب ايليري »[1] • فمـن الممكن أن يعتصم المرء بشيء مـن الكتمان ، وأن يتنازل بعض التنازل دون أن يسيء ذلك الى شرف الوظيفة • وأرضته هذه الخاطرة ثم هدهدته ، فاستسلم أخيرا للتعب ، وغرق في نوم عميق •

• • •

وحين أوقظ ، لم يستطع أن يثوب الى الواقع الا بعد بضع لحظات•

كانت النار قد انطفأت • وكان أكثر المسافرين قد خرجوا ، فهم الآن يتصايحون حول خيولهم ومتاعهم • ونهض الشاب ، فشعر بصلابة وتكسر في جسمه ، وأخذ يستعد • جسّ حزامه الذي يخفي فيـه ماله ، ونادى حاشيته بصوت أميل الـى الخشونة والقوة • كـان يعذّبه احتمال أن ينسى شيئا ، فلم يهدأ باله الا بعد أن وجد كـل

---

(١) ان الفرنسيين هم الذين انشأوا ايليريا في ذلك العصر من جزء من كرواتيا وجزء من سلوفانيا (المترجم) .

شيء في مكانه ، ووجد الرجال مهيئين والخيول مسرجة • وخرج الراهب من الحظيرة وهو يمتطي صهوة جواد أسود • إن ثوبه وانتصابه على ظهر الجواد يجعلانه أشبه بفارس من الصرب أو بحيدوق من الثائرين • وابتسم الرجلان أحدهما للآخر كما يبتسم صديق لصديق قديم ، كأن كل شيء مما كانا يريدان حله قد حُلّ • وسأل دي فوسيه صاحبه في غير كلفة ولا تحرج أتراهما يسلكان طريقا واحدة • فاراد الراهب أن يذكر أنه سيسلك طريقا مختصرة ، لكن لسانه لم يسعفه باللفظة ، فاكتفى بأن أشار بيده الى الغابة والى ممر في الجبل ، فلم يفهم الفرنسي حق الفهم ، لكنه حرّك قبعته جوابا على التحية وهو يقول :

ــ وداعا أيها المحترم !

انقضت عاصفة الثلج كمزحة ثقيلة عابرة • ولم يبق هنالك الا مزَق نحيلة من الثلج على جنبات المنحدرات • الارض رخوة كما تكون في الربيع ، والافق عميق مغسول ، والجبال زرقاء • وفي السماء الشاحبة تمتد سحابتان أو ثلاث سحابات بيض ، تصعد وراءها الشمس فيغرق نورها المنظر كله ، حتى ليخال المرء أنه في منطقة من بلاد الشمال • وتذكر الفتى التقارير التي أرسلها القنصل الى الوزارة وفيها يشبه الاتراك والبوسنيين بالمتوحشين السكيتيين والهيبربوريين ، وهو تشبيه سُرّت به الوزارة سرورا عظيما •

كذلك كان دخول دي فوسيه الى البوسنة ، وقد حافظت البوسنة على وعودها وتابعت استقبالها ، فكانت ما تنفك تلفه بجوها القاسي البارد ، وتحيطه ببؤسها وشقائها ، وتغرقه خاصة في هذا الصمت وهذا السأم يصارعهما الفتى في تلك الليالي التي لا يوافيه فيها النوم ، ولا تسعفه فيها نجدة أخرى •

• • •

ولكننا سنعود الى الكلام على البوسنة • لقد وقع الآن حدث" سيغيّر حياة قنصلية فرنسا : وصل الى ترافنك العدو المرتقب ، قنصل النمسا العام •

الفصل الخامس

لقد ظن الناس في ترافنك أولَ الامر أن قنصل النمسا سيصل بعد قنصل فرنسا رأسا ، ولكن الشهور انقضت ، والسنة انتهت ، ولما يصل النمسوي بعد • وبدأ الناس ينسون الامر ، ثم اذا بشائعة تروج في آخر الصيف ، تصحبها ضحكات وتهامسات وغمزات ، تقول انّ قنصل النمسا واصل • وانقضت مرة أخرى أسابيعُ دون أن يظهر للمبعوث النمسوي أثر • وأخيرا وصل القنصل في أواخر الخريف •

في مدينة سبليت ، قبل أن تطأ قدماه أرض البوسنة ، انما كان دافيل قد سمع بأن النمسا تعتزم فتح قنصلية لها في ترافنك • وقد ظل هذا الخطر ماثلا أمامه سنةً برمتها • لكن وطأته قد خفت كثيرا بعد انتظار دام هذه الاشهر الطويلة كلها ، وأصبح دافيل لا يحفل بالامر ولا يهتم له كما كان يحفل به ويهتم له من قبل ، بل ان الضعف الانساني ، بمنطقه العجيب ، قد جعلَ وجود دولة أجنبية في المدينة يتملق غرور صاحبنا لانه يضفي على هذه المدينة الضائعة شأنا ، فاذا هو يكبر في نظر نفسه ويحسُّ بقوة جديدة وقدرة جديدة على الصراع والقتال •

وكان دافنا قد مد شباكه منذ منتصف الصيف ، فجمع معلومات وأطلق شائعات عن النيات السيئة التي تضمرها النمسا ، يريد من ذلك خاصةً أن يعرف مشاعر الجمهور تجاه الحدث الجديد •

أما الكاثوليك فقد سُرُّوا ، وأما الفرنسيسكان فقد أظهروا

استعدادهم لوضع أنفسهم في خدمة القنصل الجديد باخلاص ومودة ، بقدر ما سبق أن أظهروا لقنصل فرنسا من حذر وشك وفتور • وأما الارثوذكس ، فقد تحاشوا كل حديث في الامر ، واكتفوا بأن قالوا سرا : « لاقنصلَ حين لا يكون ثمة قنصل روسي » •

ولئن صمت الموظفون الاتراك في القناق ، بوقار يغذيه كسل واحتقار ، لانشغال كل منهم بهمومه وانصرافه الى حبائله ، فان السكان الاتراك قد قلقوا للامر أكثر مما قلقوا يوم وصل قنصلُ فرنسا • صحيح أن بونابرت قوة يجب أن يُحسب حسابها ولكن هذه القوة بعيدة ، متغيرة ، تشبه أن تكون شبحا • أما النمسا فهي خطر واقعي ، قريب ، معروف حق المعرفة • ان ما ينعم به جنسهم من غريزة لا تخطيء ، غريزة أمسكت بزمام البلاد وحكمتها بمجرد اقرار النظام ، كان يجعلهم يشعرون بأيسر خطرٍ يمكن أن يهدد هذا النظام وأن يهدد معه سيطرتهم • كانوا يعلمون حق العلم أن كل أجنبي يجيء الى البوسنة انما يساعد في شق الطريق الذي يؤدي من بلاده الى بلادهم ، وأن القنصل ، بما يملك من وسائل ، يمكن أن يفتح هذا الطريقَ واسعا ، وهو طريق لا يمكن أن يجنوا منه أي خير ، وربما جاءتهم منه أنواع الشرور جميعا • وكانوايشعرون بمرارة عظيمةمنالقسطنطينية ومن العثمانيين الذين يسمحون بأمر كهذا ، وكان قلقهم أكبر من القلق الذي يرضون أن يكشفوا عنه لدافنا • كانوا لا يجيبون على أسئلته الملحة بأي كلام دقيق ، وكانوا يخفون الكره الذي يوقظه في نفوسهم هذا الغزو الاجنبي ، ولكنهم كانوا يعلنون احتقارهم : فحين سأل دافنا أحد التجار أيٌّ قنصل من التقنصلين يفضّل ، أجابه في هدوء مصطنع بأنهما في نظره سيان : « كلب وأخوه ، كما يُقال في بلادنا » • واضطر دافنا أن يكتفي بهذا الجواب • لقد كان يهمه أن يعرف عاطفة

الشعب ، لكنه لا يدري كيف يشرح هذه العاطفة للقنصل دون أن يغضبه •

ومع ذلك جهد الفرنسيون أن يعرقلوا عمل خصومهم ، وأن يجعلوا اقامتهم شاقة • حاول دافيل أن يقنع الوزير بأن وجود القنصل الجديد خطر على تركيا ، وبأنه « يحسن أن لا يُمنحَ الموافقة الرسمية وأن لا يُعطى اذناً بالاقامة » • لكن محاولته لم تفلح • كان الوزير يستمع اليه وهو ينظر الى أمام ولا يدع لأفكاره أن تظهر • كان يعلم أن الموافقة الرسمية قد مُنحت ، ولكنه كان يهتم خاصةً بالموازنة بين الارباح والخسائر التي قد يجلبها له صراع يقوم بين الرجلين •

واستطاع دافنا بفضل صداقات قديمة وبفضل شيء من الرشوة ، أن يؤخر وصول موافقة الباب العالي الى قنصل النسما العام ، فلما وصل القنصل العام الى برود ، وهي مدينة على الحدود ، كانت تنتظره هذه المفاجأة المزعجة ، وهي أن قرار السلطان لمّا يصل بعدُ الى القائد النمسوي في المدينة • واضطر فونْ ميترر أن يمكث في برود شهرا كاملا يرسل الرسائل تلو الرسائل الى فيينا والى ترافنك • وقيل له أخيرا ان الوثائق المنتظرة قد أُرسلت الى نائل بك ، قائد درفنتا ،وان نائل بك هو الذي سيسلمها اليه • فلم يلبث فون ميترر أن غادر برود بصحبة ترجمانه نيقولا روتا ، وخادميه ، حتى اذا وصل الى درفنتا كانت تنتظره مفاجأة جديدة ، اذ قال له القائد انه لم يتلق شيئا ، وان فندق المدينة قد شب فيه حريق منذ أمدٍ قصير ، وان في وسع القنصل أن يحلّ مع حاشيته في قلعة درفنتا ، وهي في الواقع سجن رطب •

فغضب القنصل أشدّ الغضب وخرج عن طوره ، رغم خبرته الطويلة في أمور الصراع مع السلطات التركية • وكلمه القائد ، وهو بوسني قاسي الطبع طويل اللسان ، بلهجة تشبه أن تكون وقحة • قال له :

ـ انتظر أيها السيد . اذا صدق ما تقوله من أن أوراقك قد أُرسلت ، فهي واصلة لا شك . ليس في الامر خطأ . ما يرسله الباب العالي يصل حتما . ما عليك الا أن تنتظر ! ولست تزعجني هنا قط .

وكان يقول هذا الكلام وهو جالس على فراش قد خبئت تحته في قطعة من القماش موافقةُ السلطان على تعيين السيد فون ميترر قنصلا عاما امبراطوريا وملكيا بمدينة ترافنك .

وظل القنصل يبعث الرسائل تلو الرسائل قلقا مضطربا ، ضارعا الى فيينا أن تتدخل لدى القسطنطينية ، فما تدعه في وضع يسيء الى سمعة بلاده ، ولا تعرقل منذ الآن العمل الذي يجب أن يقوم به في ترافنك ، وكان يختم رسائله بهذه العبارة : « حرر بقلعة درفنتا ، على الارض ، في زنزانة » . وكان يتكبد نفقات باهظة ليرسل الرسل الى الوزير طالبا اليه أن يسمح له بدخول ترافنك قبل وصول الموافقة الرسمية ، أو أن يبعث اليه بهذه الموافقة الرسمية : فكان نائل بك يوقف الرسل في الطريق وينتزع منهم الرسائل ، ثم يضعها تحت الفراش مع أخواتها من الوثائق .

بقي الكولونيل فون ميترر خمسة عشر يوما في درفنتا . وهناك زاره يهودي من ترافنك جاء يعرض عليه أن يتجسس له على قنصل فرنسا . وكان الكولونيل يعرف هذا النوع من الناس . كان حذرا شكاكا ، فأعرض عن هذا العرض المشبوه ، ولكنه اتخذ الرجل ساعيا فأعطاه رسالةً موجهةً الى الوزير . وتناول اليهودي المال ، ثم حمل الرسالة الى دافنا ، فنقده هذا أجرَه وصرفه . بهذا استطاع دافيل أن يرى الوضع الحرج المضحك الذي يتخبط فيه زميله النمسوي ، وسرّته قراءة طلباته وشكاواه العقيمة كلها . ثم غلّف الرسالة من جديد ، وأرسلها الى الوزير . فدهش الوزير ، وأمر باجراء تحقيق في الامر : لقد أُرسلت الاوراق الى نائل بك منذ خمسة عشر يوما : بحث موظف الارشيف في

اضباراته التي يعلوها الغبار عن الاوراق فلم يجدها • وبرهن ساعي الوزير على أنه سلّم القائد جميع رزمه • اذن لقد كان كل شيء سليما • ولكن قنصل النمسا ظل في درفنتا ينتظر أوراقه بغير طائل •

والحق أنه لم يكن في الامر سرّ ، فان دافيل لم يرش اليهودي وحده ، وانما رشا القائد أيضا ، وذلك بواسطة دافنا • ورضي القائد أن يظل قاعدا على الاوراق خمسة عشر يوما ، وأن يجيب الكولونيل في كل يوم بأن شيئا لم يصل : وكان يتقاضى من أجل ذلك قطعة ذهبية واحدة عن كل يوم • ولم يكن في وسع أحد أن يفعل به شيئا • انه منذ مدة طويلة لا يجيب على الشكاوى ولا على الرسائل التي لا تعجبه ، ويرفض أن يذهب الى ترافنك •

وسُوّي كل شيء في آخر الامر • تلقى الكولونيل من الوزير رسالةً تقول ان البحث عن الاوراق قائم ، وان في وسع القنصل بانتظار العثور عليها أن يجيء الى ترافنك بدونها ، وفي الغداة قدّم القائد الاوراق الى الوزير معتذرا عن ضياعها خلال هذه المدة •

لم يكن هذا الحادث خاصا بقنصل النمسا ، بل كان يقع لجميع الاجانب تقريبا حين يجيئون الى تركيا لعمل من الاعمال • لقد كان الاتراك يظفرون باتعاب الغريب الوافد ، على قصد منهم أو بعامل الصدفة ، حتى اذا واجه المهمة التي أتى من أجلها واجهها بعزيمة واهنة وثقة بنفسه ضعيفة •

وفي مقابل ذلك استطاع فون ميترر ، أثناء اقامته بمدينة برود ، أن يفضّ ، سرا ، البريد الذي كان يصل الى قنصل فرنسا عن طريق لوبليانا (١) •

• • •

---

(١) عاصمة سلوفانيا ، قرب الحدود النمسوية .

كان دخول القنصل الامبراطوري والملكي الى مدينة ترافنك يشبه بعض الشبه دخول دافيل ، ولكن فون ميترر لم يضطر الى النزول ضيفا على يهود : لقد تحركت الطائفة الكاثوليكية يومئذ كالخلية ، وجاءت صفوة أسر التجار تعرض عليه بيوتها • وتقول المعلومات التي جمعها دافنا ان استقبال الوزير له كان أقصر مدة وأكثر فتورا • ولكن استقبال الاتراك لم يكن أحسن ولا أسوأ : « كلب وأخوه » • لقد استقبل القنصل الجديد بما استقبل به قنصل فرنسا : شتائم وتهديدات وبصقات من النساء والاطفال ، وقلة اكتراث وعدم مبالاة من الكبار •

وقد زار في أول الامر الموظفَيْن التركييْن الرئيسيَيْن ، وزار القاصد الرسولي الذي صدف أن كان مارا بدير جوتشا جورا • أما زيارته لزميله الفرنسي فلم تتم الا بعد ذلك • وكان جواسيس دافنا يتبعونه خطوة خطوة ، وينقلون الى رئيسهم كل ما يصل الى علمهم من أخبار ، ثم يلفقون ما لا يستطيعون أن يعرفوه • وهكذا عُلم أنه يحاول أن يكتّل خصوم فرنسا ، ولكنه يفعل ذلك بحذق ومهارة ، ورفق ولين ، دون أن تصدر عنه كلمة معادية نابية • كل ما هنالك أنه كان في الاوساط الكاثوليكية يعيب على زميله أنه يمثل حكومةً منبثقة عن الثورة ، مجردة في الواقع من كل ايمان ديني • أما في الاوساط التركية فكان يشير الى أن القنصل الفرنسي مكلف بتهيئة دخول الجيوش الفرنسية الى البوسنة ، وبأنه يحمل الى هذه البلاد الجميلة المسالمة ، الجيوشَ والحرب وكلَّ ما ينجم عن ذلك من شرور •• ويا لهذا من مصير مظلم !•••

وقام بزيارة دافيل في الظهر تماما ، تحت شمس خريفية لم تكن تدفيء القاعة الواسعة التي استقبل فيها بالطابق الارضي من القنصلية • جلس الدبلوماسيان أحدهما أمام الآخر ، وحاول كل منهما أن يتجنب

كل تصنع • وأن يقول لصاحبه ما قد هيأه لهذا اللقاء من كلام منذ مدة طويلة • ما لبث دافيل أن تحدث عن ذكريات له بروما مدح فيها امبراطوره الذي أنهى الثورة من حسن الحظ ، ورد الى فرنسا النظام الاجتماعي ، ورد الى الدين كرامته • وبما يشبه المصادفة وجد على طاولته قرار انشاء النبالة الامبراطورية ، فحدث زائره عن تفاصيل كثيرة بصدده • وأشار فون ميترر ، بعبارات منتقاة ، الى السياسة الحكيمة التي يتبعها بلاط فيينا الذي لا يرجو شيئا غير السلم في ظل تعاون سلمي ، لكنه يحرص مع ذلك على أن يكون له جيش قوي يفرضه عليه أنه دولة كبرى في شرق أوروبا • كان الرجلان منتفخين بعلو منصبيهما ، ولكنهما في الوقت نفسه مكبّان على الحديث في جد كجد تلاميذ المدارس ، لا يشعران بما تشتمل عليه هذه اللهجة المتعالية التي يصطنعانها وما يشتمل عليه هذا الوضع المتفخم الذي يتخذانه لمناقشة مصالح أوروبا أثناء هذا اللقاء المتواضع ، من سخف يبعث على الضحك ! ولكن لم ينقطع أحد منهما في أثناء ذلك عن ملاحظة صاحبه •

أما دافيل فقد رأى صاحبه فون ميترر أكبر سنا مما تخيله : ان لباسه العسكري الاخضر القاتم ، وشعره المصفف على الزي القديم ، وشاربيه المفتولين على وجهه الضارب الى الصفرة ، كل هذه الامور الطاعنة في القدم لاحت له خارجةً من ماض ميت • وأما فون ميترر فقد رأى صاحبه دافيل رجلا مسرف الشباب قليل الجد : ان شعره الاشقر المرسل فوق جبينه ، العالي بلا بياض ولا جدائل ، وشاربيه الاحمرين المتهدلين ، وطريقته في الحديث ، كل ذلك يُشعر باهمالٍ ثوري يمازجه غير قليل من النزوة والهوى •

ولا يدري أحد متى كان يمكن أن يفرغا من الكلام على الاهداف الكبرى التي يرمي اليها بلاطاهما ، لو أن ركضا سريعا تصحبه صرخات حادة لم يقطع عليهما الحديث •

ذلك أن عددا من الاطفال المسيحيين واليهود قد تجمعوا في الشارع رغم الاوامر الصارمة ، وتسلقوا الحيطان يريدون أن يروا القنصل ولباسه العسكري الجميل • وكما يجب توقع ذلك ، لم يستطع الاطفال أن يظلوا هادئين ، فهذا يهودي صغير يُدفع فيسقط الى الفناء حيث كان يسير رجال دافيل ورجال فون ميترر • وهربت العصابة هروب سرب من العصافير ، وظل الصغير يُعول اعوال من ُيسلخ جلده، بينما أخذ اخوته في الخارج يتواثبون أمام الباب المغلق صائحين • ياله من انتقال رائع الى موضوع الاولاد والاسرة : انتقل القنصلان الى هذا الموضوع انتقال الجنود الى مثله حين يقطع القائد تدريبا متعبا بقوله : « استرح » •

عبثا كان يتذكر هذا أو ذاك منهما مهمته وواجبه من حين الى حين فيصطنع لذلك وضعاً رسميا وهيئة متعاظمة : ان مصيريهما والصعوبات الواحدة التي يقاسيان منها ، كانت تغلب كل شيء آخر ، وكان سيل المرارة التي توقظها في نفسيهما هذه الحياة غير اللائقة بهما التي قضي عليهما أن يعيشاها ، كان سيل المرارة هذا يجرف كل شيء • لم ينفع دافيلَ أن يذكر الاستقبال الرائع الذي استقبل به في البلاط منذ أول أيامه ، لا ولا نفع فون ميترر أن يشيد بعاطفة الحب القوية التي أظهرها له كاثوليك البوسنة : لقد كان صوتهما ووُجهما يعبران عن التفاهم المتبادل والحزن المكتوم عند رجلين يتألمان ، وكان الشعور باللياقة والواجب هو الذي يمنعهما من التعانق كما يفعل عاقلان في ساعة الشدة • وانتهت زيارتهما الاولى بكلام عن أمراض الاولاد وصعوبات التموين ، وعن مزعجات الحياة بترافنك على وجه الاجمال •

ولكن حين جلس الرجلان بعد ذلك الى مكتبيهما في يوم واحد وساعة واحدة ، وكتبا تقريريهما الرسميين على أوراقهما الكبيرة ، جاءت قصة لقائهما في هذين التقريرين مختلفةً عن الواقع كل الاختلاف : انها

هنا قصة مبارزة بين عملاقين يقتتلان بقوة الذكاء ونفاذ البصيرة وسعة الحيلة والدأب والصبر ، وفيها يخلع كل منهما على صاحبه الاوصاف التي من شأنها أن تعلي رأيه في نفسه وفي الانتصار الذي أحرزه . لقد جاء التقريران متشابهين ، ولكن تقرير الفرنسي طرح النمسوي أرضا فمس كتفاه الارض ، على حين أن تقرير النمسوي جعل الفرنسي في نهاية اللقاء أخرس لا ينطق حائرا لا يجيب ، بفضل الجدل الذكي الرصين الذي يليق بالقنصل العام الامبراطوري والملكي . ويجب أن نضيف الى ذلك أن كلاً من الرجلين حرص على أن يذكر أن خصمه قد تهاوى أمامه متعبا يائسا بسبب الظروف الصعبة الشاقة التي تحيط في هذا البلد المتوحش برجل أوروبي متمدن ، دون أن يشير طبعا الى مايحسه هو من ارهاق وعسر .

كذلك كان كل من الرجلين في ذلك اليوم عزاءً لصاحبه ومتعة : لقدتحدثا حديث رجلين يتبادلان بث الشكوى على قدر مايمكن ذلك في أول لقاء . ومع ذلك صوَّر كل منهما محدِّثه بألوان ليست على جانب كبير من الجمال ، ليسمو في نظره جمالُ صورته هو بنفس المقدار . هكذا أرضى كل منهما غروره وانسانيته معاً ، وهما شعوران لا ينفيهما تناقضهما . ولهذا شأنه الكبير في هذه الحياة غير الطبيعية التي يعيشها القنصلان ، وهي حياة تندر فيها المسرات ، واقعيةً كانت أو خيالية ، ويندر فيها أكثر من ذلك أيضا أولئك الذين يستطيعون أن يحققوها في وقت واحد .

عاش الرجلان منذ ذلك الحين مع أسرتيهما ومعاونيهما على منحدرين اثنين من منحدرات مدينة ترافنك يقابل أحدهما الآخر . لقد أُرسلا الى هذا المكان ليكونا خصمين ، أرسلا ليعمل كل منهما في خدمة مصالح بلده وتدمير مصالح البلاد المعادية ، فكانا يقومان بمهمتيهما مستعملين خيرَ ما يملكانه من علم وثقافة ومزاج وطاقة . كانا في كثير

من الاحيان يتحاربان بقسوة ، مستسلمين لغريزة القتال وغريزة البقاء وحدهما ، كما يتحارب جيشان ٌأنزلا الى حلبة ضيقة مظلمة • كان كل نجاح يحققه أحدهما اخفاقا يُمنى به الآخر • وكانت التقارير التي تُرسل الى فيينا وباريس تكتم الضربات المتلقاة وتضخم الاضرار التي وقعت في الخصم وتصوّر هذا الخصم بألوان قاتمة • هكذا كان هذان العائلان القلقان ، هذان المواطنان الكهلان ، يبدوان مرعبين متعطشين الى الافتراس كأسدين مسعورين • كانت مصاعب وضعيهما تفقدهما كليهما روح القصد والاعتدال وتفقدهما الاحساس بالوقائع في كثير من الاحيان •

ومن نافل القول أن نقصّ تفاصيل هذه الزوابع العاصفة في كأس ، تفاصيلَ هذه الصراعات وهذه المكائد المضحكة في بعض الاحيان، المحزنة في أكثر الاحيان ، العقيمة في جميع الاحيان تقريبا • ان القاريء سيجد بعض أصدائها في هذه القصة • لقد كان كل من القنصلين يريد أن يكون له على الوزير وعلى صفوة رجال الوزير تأثير أكبر من تأثير صاحبه ، ومن أجل ذلك كان كل منهما يذم صاحبه ويغتابه كنساء أخذ منهن الغضب والحنق كل مأخذ ، ويقدم الهدايا لرؤساء مخافر الحدود ، ويدفعهم الى نهب اراضي الجار ، ويأسر البُرُد ، ويرشو الخدم ، ولعله يتمنى لو يدس لصاحبه السم •

كانت حركاتهما التي توجهها المواقف الكبرى التي يقفها رئيساهما البعيدان اللذان لا تقع عليهما عين ولا يفهمهما عقل في كثير من الاحيان ، تجعل كلاً منهما عدوا للآخر • وكانا ينفقان ، في النهار وفي الليل ، كل ما يملكان من طاقة ليخلق أحدهما العقبات لصاحبه ، وليجعل حياته مستحيلة • ومع ذلك فلو كان هناك رجلان يجب أن يتفاهما وأن يكون كل منهما نجي صاحبه ، بل أن يتعاونا ، لكانا هما ذينك الرجلين •

ذلك أن أهداف أعمالهما الرسمية كانت وحدها متعارضة ، أما كل ما عدا ذلك من شئون حياتهما فقد كان واحدا أو متشابها • ففي ظروف واحدة ، وبوسائل واحدة ، وبنجاح يحققه تارة هذا وتارة ذاك ، كان القنصلان يخوضان معركة واحدة : ان كلاً منهما يخوض معركة ضد صاحبه ، وضد السلطات الريّابة البطيئة ، وضد هؤلاء السكان الذين يتصفون بعناد وخبث لا يتصورهما عقل • وكان لهما كليهما هموم عائلية واحدة ، وكانا يقاسيان كلاهما متاعب واحدة من حكومتين بخيلتين مهملتين ، وكانا يدخلان صراعا واحدا مع سلطات الحدود التي ترتكب الاخطاء تلو الاخطاء بلا انقطاع • وكان عليهما كليهما ، وذلك أهم ما في الامر ، أن يعيشا في هذه المدينة الصغيرة الشرقية التائهة في جبال متوحشة ، لا يصيبان متعة ، ولا يلقيان صاحبا، ولا يتوفر لهما شيء من رفاه • كان عليهما أن يعيشا مع أناس جفاة غلاظ ، أن يقاوما العداوة ، والكذب ، والقذارة ، والامراض ، وسائر المنغّصات ، أي كل ما يسمم الرجل الغربي في أول الامر ، ثم يجعله شديد الاهتياج الى حد المرض ، قاسيا على نفسه وعلى غيره ، ثم يدفنه آخر الامر ، قبل أن يموت ، في نوع أصم من قلة الاكتراث وفقد المبالاة •

لذلك ما ان أتاحت لهما علاقات بلديهما أن يتصلا ، حتى رأيناهما يلتقيان خَجِلين ، ويتنفسان الصعداء كمن يخرج من حلم ، يجس كل منهما نفسه ليعرف هل يستطيع أن يفصح عن عواطفه بحرية ، ثم يقبل على صاحبه يواسيه ويعزيه ، ويراسله في مودة وصداقة ، حتى ليبادله الهدايا ، كرجلين يشعران بأن ألما واحدا كان يربط بينهما حين كان يسيء كل منهما الى الآخر •

لكن الهدنة ما تلبث أن تنتهي ، فالعلاقات بين نابوليون وبلاط النمسا تتوتر ، فاذا بالقنصلين يباعدان الزيارات ويقللان الملاطفات •

حتى اذا شبت الحرب عاد المتنازلان يصطرعان ، وأخذا يكرران، كالدمى في أطراف الاسلاك ، حركات العظيمين اللذين يخوضان معركة مجهولة الهدف تملأ ضخامتها وقوتها بالشك والذعر قلب الرجلين «المنفيين» ، كما كانا يلقبان نفسيهما في رسائلهما، وتنقطع الزيارات بينهما، كما تنقطع بين أسرتيهما ، ويعودان الى الاصطراع بجميع وسائل الاصطراع . ومع ذلك يبقى هنالك خيط خفي يربط أحدهما بالآخر . ففي الليالي المظلمة كان هنالك ، في كل قنصلية من القنصليتين ، نافذة او نافذتان تظلان مضاءتين في مدينة ترافنك الغارقة في السواد ، ووراءهما يعكف كل من الدبلوماسيين على المعلومات التي أتى بها عملاؤه ، أو ينكب على كتابة تقاريره . وكثيراً ماكان دافيل أو فون ميترر ينهض أثناء ذلك عن عمله ، ويدنو من النافذة ، ينظر الى الضفة الاخرى من نهر لاشفا الى الضياء المنعزل الذي يقول له ان خصمه يدبر له في هذه الساعة مكيدة من المكائد .

المدينة عندئذ مختفية . ولا شيء الا الفراغ والصمت والليل تمتد بين نوافذهما اللامعة كأعين متبارزين . كان كل قنصل يفكر في الآخر أول الأمر بتعاطف تدفعه اليه غريزته . ثم ما يلبث أن يثوب الى رشده ، فيعود الى عمله ، ويستأنف في ضوء الشموع الذائبة كتابة تقريره يمتهن فيه خصمه بذلك الكبر الرسمي الذي يصطنعه الموظفون في معاملة العالم بأسره حين يتحدثون الى وزيرهم في واحد من تلك « التقارير » التي يعلمون حق العلم أن المرسلة اليه لن يقرأها .

الفصل السادس

شبح الحرب يخيّم على ترافنك ، كما يخيّم على أوروبا كلها • وكأن هذا الوادي ، عدا ذلك ، لم يخلق ليستقبل الا أناساً ُنذروا لمصير صعب : ان حياة فون ميترر ، كحياة زميله دافيل ، كانت منسوجة من مصاعب • ولكن مهمته في البوسنة لم تكن أيسر تلك المصاعب •

كان فون ميترر المتقشف أسمر اللون ، وكان شارباه المفتولان خطاً عريضاً في وجه أصفر • كل شيء عليه واضح صارم : لكأن الرجل وزيّه العسكري قد خرجا من مخزن عسكري امبراطوري ُسئل أن يجهّز على الفور كولونيلا متوسط القامة عيناه الشهباوان المدروّتان المحمرّتا الجفنين كانتا وحدهما تنمان عن ذكاء وطيب متخفيين • انهما عينا رجل يعاني من مرض في الكبد : عينان اتعتبهما الحراسة على الحدود المهددة من اراضي الامبراطورية ، كما اتعبتهما عبودية أعمال القنصلية ، عينان قد ألفتا منظر الشقاء، وعرفتاحدودالحرية وحدود الانسانية •

ولد فون ميترر بمدينة أوسّك [١] قبل خمسين عاما ، حيث كان أبوه يعيش في الثكنة ضابطا من ضباط سلاح الفرسان بسلافونيا • وقد تخرج من « مدرسة الفتيان » فما ان عيّن ملازما حتى ُأرسل ضابطَ استخبارات الى مدينة زيمون على حدود الصرب : فقضى هنالك نحواً من عشرين سنة شاقة في الحرب بين تركيا والعصيان الصربي •

---

(١) مدينة يوغوسلافية في شمال البوسنة .

ولم يكن على فون ميترر أن يغذي ويراقب شبكة من الجواسيس وأن يجمع المعلومات ويرسلها فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يقوم ببعض الأعمال بنفسه ، فكم مرة قطع الحدود متخفياً في زي راهب أو فلاح ، ليحصي القوات التركية ، وليعيّن أو يرسم المواقع التركية أو المراكز الهامة ، وليسبر رأي السكان . ولقد نجح في قيامه بهذا العمل الخطر الذي أهرمه قبل الأوان ، وكوفيء على نجاحه ، غير أن النجاح قد أعقبته الكارثة .

فبعد عدة سنوات من قيامه بهذه الأعباء سُرّ رؤساؤه به كثيراً ، فاستدعي من فيينا ، وعُيّن رائداً ، وأعطى جائزة مقدارها مائة دوكا ، مع شهادة بالرضى عنه والثناء عليه . تلك بداية طيبة بالنسبة الى ضابط شاب كان من حقه أن يداعبه الأمل في الخروج من الطريق المشقوقة التي يتبع فيها خطى أسلافه . لقد تجاوز الثلاثين من عمره ، وأصبح في أعقاب هذا الجهد الطويل الذي بذله يطمح الى حياة هادئة ممتعة في بيئة اجتماعية أعلى مقاما وأرفع منزلة .

وتجسّد له هذا الحلم في فتاة نمسوية أبوها ضابط من ضباط القضاء العسكري ، بولوني الأصل ، وأمها بارونة مجرية لا ثراء لها : ولم يتردد أهل آن ماري ، الفتاة الحالمة المزاج الخفيفة الحركات ، في تزويجها من الضابط فون ميترر ، حتى لقد أسرعوا قليلا في قبوله زوجاً لها ، رغم أنه ليس على شيء من علو الجاه ، وانما تشفع له الأعمال التي قام بها على الحدود فأصبح معروفاً بها .

لكنه ، واحسرتاه ، لم يتخلص من منزلة الخضوع التي كان يأمل أن يتخلص منها . هل كان في وسع القدر ، من أجل شده الى هذه المنزلة شداً أبدياً ، أن يعمد الى ما هو أجدى في ذلك من ربط هذه المرأة الى عنقه ؟ انها بدلاً من أن تفتح له السبيل الى حياة أرفع وأمتع ،

قد أوصدت من دونه الابواب اذ حرمته من راحة النفس وطمأنينة البال الى الأبد ، وهما خير ما تنعم به حياة راضية متواضعة . ان هذا الضابط الذي كان يعرف كيف يتسقط الأخبار ويجمع المعلومات سرعان ما اكتشف ما ليس في وسع أحد أن يعرفه ولا أن يتنبأ به : امرأة مضطربة . فهذه المرأة التي كانت « مزيجاً بولونياً مجرياً فييناويا غير موفق » ــ فكذلك أسماها حاكم زيمون ــ قد أوتيت جموحاً في الخيال ، وحاجة الى الحماسة جارفة مرضية . لقد كانت السيدة فون ميترر تتحمس للطبيعة تارة ، وللموسيقى تارة أخرى ، وللبر بالأدب تارة ثالثة ، وللتصوير القديم بعد ذالك ، وللأفكار الجديدة المتطرفة فوق هذا وهذا ، كما تتحمس لنابوليون أيضا : أي كانت تتحمس لكل ما يبعدها عن بيئتها وينأى بها عن حياتها العائلية ، ولكل ما يمكن أن يسيء الى حياة زوجها . ذلك أن آن ماري كانت تشعر بحاجة قاهرة الى بث الحماسة في حياتها ، وهي حاجة قادت خطاها الى غراميات كثيرة عابرة : ان مزاجها بارد ، ولكن رأسها حار ، فهي ترتمي من حين الى حين على رأس رجل من الرجال ، رجل أصغر سناً منها على وجه العموم ، ترجو أن تجد لديه فكراً قوياً وقلبا شجاعاً وعواطف صافية ، وتأمل أن يكون هو الفارس الذي صورته لها أحلامها ، وهو النفس القريبة من نفسها . ولكن هذه الحتمية نفسها كانت تجعل رجل أحلامها فتى في عنفوان الشباب ، لا رادع له من ضمير ولا وازع له من أخلاق ، فتى يشتهيها لحظةً كما يشتهي أية امرأة يمكن أن يراها قليلة المناعة . حتى اذا انقضت سكرة اللحظات الأولى ، انفتحت الهوة التي تفصل بين أغراض الفتى ، وهي أغراض واضحة معينة ، وبين النشوة الروحية الخالصة التي كانت تطمع فيها المرأة ، فاذا بالسيدة فون ميترر تهوي الى قاع الألم واليأس ، ثم اذا بحبها ينقلب كرهاً واشمئزازاً ، اشمئزازاً من المعبود الذي سقط عن عرشه ، واشمئزازاً من نفسها

ومن الحياة • ثم ما تلبث أن تشفى مما ألم بها ، فاذا هي تهب باحثة عن أشياء جديدة تصب عليها انفعالاتها فما تعدم أن تجد هذه الأشياء ، الى أن تسنح فرصة جديدة تستأنف فيها القصة الاولى من أولها الى آخرها •

كم من مرة حاول فون ميترر أن يبين لامرأته خطأها وأن يحميها من نفسها ؟ عبثاً !••• لقد ظل « طفله المريض » يلاحق الحب الصافي مع تقدمه في السن ، وينتكس مرة بعد مرة بنوبات كنوبات الصرع • وحفظ الكولونيل على ظهر القلب التعاقبَ المألوف الذي تجري عليه ضلالات امرأته ، منذ ظهور الأعراض الأولى الى اللحظة التي تصاب فيها بالخيبة فتهرع اليه باكية وترتمي على عنقه ناحبةً ، وهي تقول : « ان جميع الناس يشتهونها ولا أحد يحبها ! » ••

كيف يمكن أن يدوم زواج كهذا ؟ كيف يستطيع رجل عاقل أن يتحمل مثل هذا السلوك ؟ ان الغفران سر من الأسرار العجيبة التي تفصل شخصين أو تربط بينهما الى الأبد !

لقد عادت آن ماري الى أهلها منذ السنة الأولى من زواجها ، تؤكد لهم اشمئزازها الكامل من الحب الجسدي ، وترفض أي حق لزوجها عليها • واستطاع زوجها أن يقنعها وأن يردّها اليه • وُولدت لهما طفلة • هدنة قصيرة • فما انقضت سنتان الا وعاد كل شيء الى ماكان عليه • وكان فون ميترر غارقاً في المصاعب خافض الرأس : الأربعون من العمر ، فرقة الحرس ، مصلحة الاستخبارات ، وظل مقتنعا بأن عليه أن يستمر في الحياة مع هذا التنين المستعر الذي كان يكافئه على تضحيته الكاملة بمزيد من أسباب الاضطراب وأنواع الاستياء •

كانت المجنونة الجميلة المبذرة تعمل ما تعمله دون أن تدري ما ذا تريد ، شأنها في ذلك شأن سائر المجنونات اللواتي من

نوعها . كانت تنطلق في « حماساتها » مسرعة ، ثم ما تلبث أن ترتد عنها وقد تبددت أوهامها ، فما يدري زوجها أي الأمرين أشق على نفسه احتمالاً ، أفورات جنونها أم فترات خيبتها ، ولكنه كان يتحمل هذه وتلك على كل حال ، بهدوءٍ ثابت كهدوء الشهداء . والواقع أنه كان يحب حباً لا حدود له هذه المرأة التي رماه بها القدر عقاباً لا يستحقه ، وكان يحبها أيضاً كما يحب الأب طفلا مريضاً له . كان كل ما يصدر عنها عزيزاً عنده ، وكان كل ما فيها وكل ما يتصل بها يبدو له نبلاً رفيعاً جديراً بالاعجاب خليقاً بالتضحية . كانت قذائعها تعذبه وتذله أمام الناس ، ولكنه كان يرتعد خوفاً متى تصوَّر أن هذه الساحرة قد تهجره في يوم من الايام ، أو قد تؤذي نفسها ، فتختفي من البيت أو تختفي من العالم .

ويتقدم عمله في أثناء ذلك ، وتكبر ابنته الصغيرة النحيلة الرصينة الصموت ، وتظل آن ماري تضرب في الحياة ، تسألها مالا تستطيع أن تمنحها اياه . انها تنتقل من الحماسة الى المرارة في كل أمر الأمور ، معذبةً نفسها معذبة غيرها . والسُعرُ الجامح الذي يقيم في نفسها يتبدل اتجاهه في كل سنة وتتغير صورته ، ولكنه لا يهمد ولا يسكن .

فلما عُيِّن فون ميترر قنصلاً عاماً بمدينة ترافنك على غير توقع ، كانت زوجته تجتاز فترة من أعمق فترات الخيبة التي تعانيها . فأخذت تبكي وتحتج ، قائلة انها لن تترك مدينةً تكاد تكون هي نفسها شرقية وتشعر فيها بسأم وضجر ، لتمضي تدفن نفسها في « مقبرة تركية » حقيقية ، وانها لن تأخذ طفلتها الى « آسيا » . وهدَّأ الكولونيل بالها ، وحاول أن يبيِّن لها أن هذا الانتقال مرحلة هامة في حياته ، وانهما اذا تحمَّلا بعض الملل فسيستطيعان بفضل وفرة الموارد أن يضمنا

مستقبل ابنتهما • واقترح عليها أخيراً أن تبقى مع ابنتها بفيينا ، فارتضت هذا الحل ، لكنها لم تلبث أن غيَّرت رأيها وقررت تحمل التضحية • لقد رفضت السماء اذن أن تهب للكولونيل ، ولو خلال بضعة أشهر ، ذلك الفردوس الأرضي : الحياةَ بغير زوجة •

• • •

منذ وقع فون ميترر على منزل فأعده أحسن اعداد ، وصلت زوجته وابنته •

ان آن ماري ما تزال تبدو شابة ، وما تزال جميلة رغم أنها أصبحت على شيء من البدانة • وكل ما فيها ــ نصاعة لونها ، بريق عينيها الخضراوين تارة الذهبيتين الداكنتين تارة أخرى ، الشهباوين كمياه نهر لاشفا تارة ثالثة ، وكذلك شعرها وتسريحته ، ومشيتها المستكبرة ولهجتها الصارمة ــ كل ذلك أشعر أهل مدينة ترافنك بتلك القوة وتلك المهابة اللتين كان خيالهم يتوقعهما في القناصل الأجانب •

أما آجاتي التي كانت في السادسة عشرة من عمرها ، فلم تكن تشبهها في شيء • كانت ناضجة قبل سنّها ، حسَّاسة ولكن على صمت ، ملزوزة الشفتين ثابتة النظرة كأبيها ، تتبع آن ماري كانتقاد حيٍ أبكم ، لأنها اذا كانت لا تفصح عن أي شعور ، وتبدو غير مبالية بشيء مما يحيط بها ، فانها تحس دائماً بالحيرة والاستياء والخوف من تقلبات مزاج أمها ، ومن كل ما كان يجري بين أبويها من أمور تحزرها : فكانت لا تحب الا أباها ، ولكنه حب عاجز سلبي •

انها واحدة من تلك البنيَّات النحيلات الرقيقات العظام اللواتي يتم لهن نمو مبكر ، ويصبحن مصغَّرات نساء ، ويدهشنَ دائماً من يراهن ، تارة بما يلوح فيهن من معاني الطفولة ، وتارة بما يبدو عليهن

من اكتمال النمو . وكانت ، على خلاف أمها ، لا تهوى الموسيقى ، وتحب أن تخلد الى العزلة والقراءة .

ما ان وصلت السيدة فون ميترر حتى اندفعت اندفاعاً شديداً في تنظيم القنصلية والحديقة . لقد وصل الأثاث من فيينا وجاء العمال من سلافونسكي برود . وما هي الا فترة قصيرة حتى تغيرت مواضع الأشياء ، وقُلبت ، وتبدلت . وقيل في قنصلية فرنسا ، التي كانت تصدر عنها شائعات سيئة بحق « أهل الضفة الأخرى من نهر لاشفا » ، ان السيدة فون ميترر تهيء معرضاً جديداً . ولكن المرأة الفييناوية المضطربة التي تعنى باللغة الفرنسية والفكر الفرنسي لم تلبث أن كالت للسيدة دافيل الصاع صاعين ، فقالت فيما قالت انأثاث القنصليةالفرنسية هو من طراز « لويس السحاحير » ، اذ كان هذا الأثاث يشتمل حقاً على عددٍ من السحاحير أحسنت مدام دافيل تغطيتها . ووضعت فون ميترر حاجزاً عالياً يفصل حديقة القنصلية عن الفناء الموحل الذي ينتمي الى المنزل المجاور ، ووزعت الحجرات في دار حافظادتش القديمة توزيعا جديداً متفقاً وآراءها ، وهي آراء لم يستطع أحد أن يرى معناها ولا هدفها ، لكنها مطابقة أو يجب أن تكون مطابقة لما في ذهنها من تصورات عن الفخامة والنبالة والكمال .

عند هذا النوع من النساء تتعاقب السنون حاملةً نزوات جديدة . ففي تلك الفترة كانت آن ماري مصابة بنوبة نظافة مفرطة توشك أن تصبح مرضاً يعذبها ويعذب من حولها . فلا شيء في نظرها نضير نضارة كافية ، ولا أحد في نظرها نظيف نظافة كافية . انها تقاتل الفوضى والوساخة بكل ما أوتيت من قوة ، ويتفق لها في بعض اللحظات أن تبث الذعر والارهاب في البيت كله ، فهي تبدل الخدم ، وتركض ، وتصخب ، وتدمر قواها في معركة لا هوادة فيها ضدّ الوحل والغبار والحشرات والعادات الغريبة المتأصلة في أهل هذه البلاد التي كتب

عليها أن تعيش فيها • ثم تعقب ذلك أيام من اليأس تفقد فيها ثقتها بثمرة كفاحها ، فتعتصم بغرفتها مكتّفةً يديها ، محطمةً من الفوضى ، ومن قذارة الشرق ، هذه القذارة التي تنبع من كل مكان : تخرج من الأرض وتنزل من السماء وتدخل من الأبواب والنوافذ والشقوق ، وتتسلل الهوينى لتغشى البيت كله وتغطي الناس والبهائم والأشياء • حتى لقد بدا لها أن ثيابها هي ، منذ وصولها الى هذه المغارة ، قد تعفنت وصدئت واكتست شيئاً بعد شيء طبقة من الدرن لا يزيلها أي غسل •

وكانت تعود من جولاتها القصيرة بمدينة ترافنك وقد ازدادت شجىً وتقززاً ، فانها ما تكاد تخطو حتى ترى كلاباً عرجاً أو جرباً ، حزينة النظرة أو وجلتها ، لذلك أصبحت تمتطي فرساً وتخرج الى ظاهر المدينة ، محاولةً ألا تنظر من على صهوة فرسها الى الأشياء القريبة • ولكنها لا تظفر بذلك •

وفي يوم من الأيام خرجت في نزهة من نزهاتها الى الطريق الكبيرة المفضية الى الوادي ، يرافقها حرس • فلما بلغت آخر المدينة ، كان هنالك شحاذ معتوه يرتدي أسمالاً بالية ويسير عاري القدمين ، رأى موكب هؤلاء السادة ، فأراد أن يفسح لهم ، فصعد على الممر الموازي للطريق ، وهو ممر عالٍ جعل قدميه على مستوى رأس آن ماري • فوقع بصر آن ماري لحظةً سريعة على هاتين القدمين الضخمتين القذرتين ، السائرتين على تراب تسحقانه سحقاً ، هاتين القدمين اللتين هما قدما عامل شاخ قبل الأوان وأصبح عاجزاً عن العمل • انها لم تكد تراهما ، هاتين القدمين الكبيرتين المربعتين المتعفنتين المشوهتين اللتين أفسدهما طول المشي وشوهتهما قسوة العمل ، المتشققتين كقشرة شجر الصنوبر ، الصفراوين السوداوين المتحفرتين ، اللتين لا تكادان تقويان على الانجرار ، وتنجرحان في خراقة وهما تقومان بما يشبه آخر خطوة

تخطوانها • ولكن هذه الرؤية الخاطفة التي دامت لحظـة ظلت ماثلة أمام عيني آن ماري لا تبارحهما • فكانت آن ماري تقول لنفسها : « قد تشرق مئات الشموس ، وقد تحل مئات الرباع ، ثم لا تستطيع أن تصنع لهاتين القدمين شيئاً ! لا دواء ولا علاج ولا طعام يمكن أن يشفيهما أو أن يبدلهما ! مهما ينبت في الأرض من نبات ومهما يزهر عليهـا من أزهار ، فلن تزداد هاتان القدمان الا صفرة وتشوهاً وشناعة• » • وبقيت هذه الرؤية المرضية تحاصرها ، فكلما تصورت أن « هـذا موجود » شلّها هذا التصور عن كل عمل وكل تفكير •

تلك كانت عذابات آن ماري ، وهي عذابات يفاقمها اقتناعها الأليم بأن أحداً من الناس لا يشاطرها اشمئزازها ، ولا يشاركها رغبتهـا في الكمال والنظافة • تضاف الى ذلك حاجتها الدائمة الى الحديث عـن هذا كله ، والى الشكوى لكل انسان ولجميع الناس من قذارة المدينة واهمال الخدم ، رغم أن أحداً لا يستطيع أن يفهمها بله أن يساعدها •

وكان قسّ دولاتس ، الأخ ايفو جانكوفتش ، السمين الغليظ ، قد أصغى مرةً في أدب الى حديثها عن آلامها وشكواهـا من عذابها ، فواساها كما يواسى الأطفال بذكر أي شيء يخطر بالبال ، قائلا ان « على الانسان أن يذعن لكل ما يقع له ، » و «ان الله هو الذي خلق الطين والوساخة على كل حال •••» • وان الحكمة القديمة تقول : الطَهـَرَةُ لايرون الا طهراً [1] أي « من كان قلبه نظيفاً رأى كل ما حوله نظيفاً • » كذلك ترجم لها القس تلك الحكمة القديمة ، بسذاجة يملك سرّها سمان الناس وعتقاء الرهبان •

كان الحنق يستبد بالسيدة فون ميترر ، فتسجن نفسها في بيتهـا

---

(١) باللاتينية في الاصل •

أياماً بكاملها ، متحاشية أن تتصل بالناس ، بل متحاشية أن تلقي على المدينة نظرة واحدة • وهي في غرفتها تلبس قفازيها ، وتظل قاعدة على كرسي تأمر بتغيير قميصه الأبيض من حين الى حين ، ولا تسمح لاحدٍ أن يقترب منها حين يتكلم أو أن يميل بوجهه عليها • ومع ذلك يظلّ يلازمها الشعور بأنها تغوص في الوحل أو التراب أو الوباء ، حتى اذا أصبح هذا الشعور لا يطاق ــ وكثيرا ما يحــدث ذلك ــ نهضت وركضت الى زوجها فقطعت عمله وأخذت تقرّعه أشد التقريع على أنه أتى بهم الى ترافنك ، وتسأله من خلال الدموع أن يغــادر هــذه البلاد القذرة التعيسة فوراً •

وتتكرر هذه المشاهد الى أن تزيل العادة الاستجابات المرضية ، أو الى أن يحل محل هذا الهوس هوس آخر •

• • •

الشخصية الرئيسية في قنصلية النمسا بعد القنصل هي شخصيــة نيقولاس روتا ، الترجمان الذي يقوم بأعمال كثيرة • لقد عمل قبل ذلك في زيمون تحت امرة فون ميترر الذي جاء به الآن الى ترافنك •

هو رجل قصير أحدب ، لكن حدبته ليست واضحة كثيراً ، ولعل ذلك راجع الى ضخامة صدره وارتفاع ذراعيه اللذين يغطس بينهما رأسه الكبير المرتد الى وراء المكسوّ بشعر أشيب أجعد • فم عريض وعينان حادتان • ساقان قصيرتان نحيلتان • وهو يحتذي تارة جزمتين عاليتين صغيرتين لهما حافتان مقلوبتان ، وتارة جــوربين من حــرير وحذائين واطئين لهما ازرار ضخمة مذهبة •

وعلى خلاف فون ميترر ، الرقيق الحاشية ، الذي يحسن استقبال الناس ويرين على وجهه شيء من الحزن ، كان معاونه الرئيسي متكبراً

حانقاً ، سواء على الأتراك وعلى المسيحيين ، لا فرق بين صمته وكلامه ازعاجاً . كان على قصره وحدبه يستطيع أن ينظر من علٍ الى محدثه الذي يعلو عليه نصفَ طوله . وكانت عيناه السوداوان اللتان لهما جفنان ثقيلان هابطان تعبران عندئذ عن ضجر واحتقار مهين ، فهو يعد محدثه بعيداً عنه كل البعد ، وهو يعده أخفضَ منه منزلة وأدنى شأناً . حتى اذا ُقدّم الى أناس يحتلون مراتب عالية فأخذ يترجم أحاديثهم ، رأيت نظراته تنخفض ، ثم اذا هي تعبر عن الاستهتار أحياناً ، وعن الاحترام أحياناً أخرى ، واذا هي تصبح غامضة فما تعبر عن معنى أحياناً ثالثة : انه يميز تمييزاً واضحاً بين الشخصيات الهامة حقاً والشخصيات التي تبدو هامةً وما هي كذلك .

كان روتا يتكلم عدة لغات ــ كان ُيقال في ترافنك انه يتكلم عشر لغات ــ ولكن الفن الذي يجيده أكثر من أي فن آخر لم يكن فنَّ الكلام بل فن اسكات المتكلمين . فهو يرد رأسه الى وراء ويتفرس في خصمه من خلال جفنيه الملزوزين كأنما هو ينظر الى بعيد ، ثم ينطلق قائلاً في خشونة وفظاظة : « ثم ؟ ثم ماذا ؟ ماذا ؟ » ، فاذا بأجرأ الناس يضطرب حين يسمع هذه الكلمات التي ليس لها معنى والتي ينطق بها صاحبنا على طريقته الخاصة ، ثم اذا بالحجج أو الأدلة أو الأسئلة تجمد على الشفاه أو تسقط صرعى .

والشخص الوحيد الذي كان يراه روتا نداً له وجديراً به هو دافنا . فمنذ أن استطاع هذا الرجل الذي يخدم قنصل فرنسا أن يتواطأ مع قائد درفنتا فيضطر فون ميترر وترجمانه الى البقاء في تلك المدينة كالمتشردين أصبح في نظر روتا خصماً ذا شأن يجب أن ُيحسب حسابه. وكان دافنا من جهته لا يغض من قيمة زميله الذي عرف عنه أموراً من تجار بلغراد . لذلك كانت لقاءاتهما الأولى طريفة : فهما يهجران اللهجة التي يخاطبان بها الآخرين ، ويصطنعان وضعاً ليناً بل لطيفاً يقصدان

منه الى اظهار اللامبالاة الكاملة ، على حين أنـه يخفي وراءه أشد انتباه ، ويعبر عن خشية لا يريد صاحبها أن يعترف بها البتة • وانهما يتشامَّان كما يتشامُّ حيوانان من الحيوانات الكاسرة ، ويرصد كـل منهما زميله كما يرصد اللصوص بعضهم بعضاً ، فهو يعرف خصمه ، ويعرف قيمة هذا الخصم ، ولكنه ما يزال يجهل المكيدة التي يدبرها له•

وكانت هذه الأحاديث التي تبدأ بالفرنسية ، وتدور في أول الأمر بلهجة مهذبة وألفاظ دبلوماسية ، تنتهي أحيـاناً بتلك اللغـة العامية الشوهاء التي يتكلمها أهل البندقية والتي نسمعها في كل مكان على شواطيء البحر الأبيض المتوسط • فالترجمانان يحسران القناعين اللذين كانا يظهرانهما بمظهر الرجال المهذبين ، وينسيان وقارهما النبيل نسياناً تاماً ، ويأخذان يصطرعان على طريقة أهل المشرق بكلام جريء وألفاظ بذيئة تصحبها تكشيرات في الوجه وحركات باليدين :

ـ بركات الله عليك أيها القس المحترم ! بركات الله على الخادم المطيع للكنيسة أمِّنا المقدسة !

كذلك كان يقول دافنا لصاحبه روتا صديق القس ، وهو ينحني أمامه مستهزئاً • فيجيبه روتا بهدوء كأنه يتلو درساً أجاد حفظه :

ـ وعليك بركات جميع شياطين جهنم اليعاقبة •

فيقول دافنا :

ـ انك لتحسن لحس هياكل هؤلاء القسس ، نعم انك لتحسن لحس هياكلهم !

ـ لو شاءوا للحستَ أنت مالا يُلحس • لكنهم لا يشاءون • انهم لا يريدون منكم شيئا معشرَ الفرنسيين • ولكن قل لي : هل صحيح ما سمعته من أنكم أنشأتم في أحد أجنحة القنصلية الامبراطوريـة كنيسة يهودية ؟

ــ لا والله ! وفيم نبني كنيسة يهودية ؟ أليس من الأمتع لنا أن نذهب الى كنيسة دولاتس ، تتأمل هنالك صاحب السعادة القنصل الامبراطوري الملكي ومعه ترجمانه المحترم الذي يخدم في قداس الأب ايفو ؟

ــ ولم لا ؟ في وسعي أن أقيم القداس أيضاً .

ــ أعرف ، أعرف أنك تستطيع كل شيء ، الا أن تطيل قامتك !

فيجيبه الأحدب دون أن تطرف عيناه :

ــ هذا صحيح . لا أستطيع أن أطيل قامتي ، ولكن صدقني اذا قلت لك انني لا آسف على ذلك متى رأيتك طويلا هذا الطول كله ، ومتى فكرت في مدى ازدياد طولك عند موتك ! ما أكبر التابوت الذي ستحتاج اليه جثة كجثتك .

ــ اذا أسعفني الحظ برؤيتك ميتاً فلن أضن بمال ولا جهد من أجل أن أجد لك صندوقاً صغيراً (يقول دافنا ذلك وهو لايكاد يباعد يديه اشارةً الى حجم الصندوق) .

ــ لا ، لا ، لست أرغب في أن أموت . ولماذا أموت ولست طبيبي ؟

ــ ولكن من ذا يعالجك ؟ الكوليرا !

ــ نعم يادافنا ، أعلم أن الكوليرا زميلتك . ولكن الفرق بينك وبين الكوليرا أن الكوليرا تقتل بغير أجر . على أنني أعترف بأنك أبرع من الكوليرا قتلاً : فلقد ينجو المرء من مرض الكوليرا ، ثم هو لاينجو منك !

وينفجر الرجلان في ضحك متحدٍ ماكر .

كانت هذه الأحاديث تدور بينهما على انفراد دائماً ، لا يسمعها

ثالث ، وكانت لهما هدنةً وتمريناً معاً ؛ وهي تنتهي الى كلام رقيق بلغة فرنسية مهذبة • وكان سكان ترافنك ، حين يرون الرجلين وقد أخذ كل منهما يودع الآخر خافضاً قبعته حتى الأرض ، يستخرجون جميع أنواع النتائج من هذا الحديث الطويل الودي الذي دار بين موظفَيْ دولتين مسيحيتين كبيرتين •

وكان روتا يلتزم دائما في معاملة سكان ترافنك الحذر والجهامة والدقة والايجاز والشدة •

ولد روتا بمدينة تريستا ، وهو الولد الثاني عشر لحذاء فقير مات من فرط الادمان على الكحول ، هو جيوڤاني سكارپاروتا[1] • وقد جاء الى العالم زهيدا دميما أحدب بلغ من الضعف أن أهله أوقدوا له الشمعة مرارا خلال الاشهر الاولى من حياته[2] ، حتى لقد غسلوه مرة وأعدوه للدفن • ولكن حين أخذ هذا الاحدب الصغير الشاحب يذهب الى المدرسة ، لوحظ أنه أذكى سائر اخوته ، وان في الامكان أن يُجعل منه رجل غيرُ جده وغير أبيه • وبينما أصبح الصبية الآخرون ، الاقوياء الطوال ، بحّارة أو صُناعاً ، أو راحوا يتعاطون مهنة من تلك المهن التي ليس لها اسم والتي يجني منها بعض الناس ما يقيم أودهم ، دخل روتا مستخدما في مكاتب شركة من الشركات البحرية ؛ وهناك أتيح لهذا الصبي ، الضعيف الصموت ، الشاحب الوجه ، الواسع العينين ، الشهواني الفم ، أن يرى ، لاول مرة ، وهو يوزع الرسائل ويبري الاقلام ، « سادة » يسكنون بيوتا فسيحة نظيفة ، وأن يشهد لاول مرة أناسا لائقين يعيشون حياة لائقة ، يتكلمون بهدوء ، ويتعاملون بأدب ، ولا يتحدثون أبدا عن الطعام أو الكساء أو غير ذلك من

---

(١) ومعناها « الحذاء المثقوب » (المترجم) .

(٢) اشارة الى عادة ايطالية تقضي بايقاد شمعة قرب المحتضَر .

الحاجات اليومية ، لانها ليست بمشكلات مطروحة ، وانما تتطلع جهودهم وأفكارهم من فوق ذلك الى أهداف أبعد وأسمى • ولم يكن الصبي ليستطيع أن يرى تلك الحياة الا استشفافا أثناء الساعات التي يقضيها في المكتب ، لكنه عرف منها ما يكفيه للمقارنة بينها وبين ما بلاه في بيت أهله من تراب وضيق ، وما قاساه مع أهله وجيرانهم من مشاجرات وحقارات وتفاهات ، عرف ما يكفيه لهذه المقارنة ، وللتألم منها الى أبعد حدود التألم • واذ عرف أن هذه الحياة موجودة ، أصبح لا يطيق الوضاعة والبؤس اللذين ُولدَ في أحضانهما واللذين يبدو له أنه سيقضي فيهما حياته كلها •

وفي ذات ليلة ، عند الفجر ، بعد أن عذبته هذه الخواطر مدة طويلة نهض عن الخِرَق التي كان ينام عليها وكانت تملؤه اشمئزازا لا يطاق ، فركع على ركبتيه باكيا وحلف — لا يدري لمن حلف ولا بماذا حلف — ليخرجن من هذا المستنقع الذي يخوض فيه أهله أو يموت • وكان ينام الى جانبه اخوته الذين لا ُيحصى عددهم ، الاجراء المجلودون والعاطلون عن العمل ، وقد لطختهم الوساخة جميعا ، وغطاهم السواد ، وارتدوا أسمالا بالية • فلم يشعر نحو أحد منهم بعاطفة أخوية أو عائلية ، ولا رأى فيهم الا عبيدا يبعثون في نفسه التقزز وعليه أن يبتعد عنهم الى الابد مهما كلف الامر •

ومنذ ذلك اليوم اتجه روتا الى حياة أعلى وعيشة أفضل • عمل في اخلاص وتفان وطاعة ، فكان يحزر رغبات سادته ، وينظر ويصغي ويتعلم ، محاولا أن يجد أبواب تلك الحياة السهلة المرهفة ، وأن يتعلم فتحها ، تدفعه الى ذلك رغبته العميقة في الدخول الى هذه الحياة ، ويدفعه اليه كرهه واشمئزازه من حياته في كنف اسرته •

ولاحظ رؤساؤه هذا النشاط وهذا الجد ، فأصبح الفتى يقوم

بأعمال السكرتير شيئا بعد شيء ، حتى لقد عُهد اليه بمهمات على البواخر ولدى السلطات ، فكان فيها حصيفا كتوما لا يتعب . وكان تعلم اللغات الاجنبية سهلا عليه ، وكان ذا خط جميل . فالتفتت أنظار رؤسائه اليه ، فزادوا مرتباته ، وسهّلوا له دراسة اللغة الالمانية . وكان هنالك لاجيء فرنسي من أنصار الملكية فتعلم منه روتا اللغة الفرنسية ، بل ان ذلك العجوز الذي كان شبه مشلول وكان مضطرا الى اعطاء بعض الدروس طلبا لرزقٍ يكفل له البقاء ، كان من أبناء المجتمع الراقي بباريز ، فلم يعلم الفتى سكارباروتا اللغة الفرنسية فحسب بل علمه كذلك التاريخ والجغرافية وسائر ما كان يسميه « معرفة العالم » .

حتى اذا تزود سكارباروتا بهذه المئونة قرر في ذات صباح ، بهدوء ، أن يهجر بيت أهله وحيّهم الفقير ، فاستأجر عند احدى الارامل غرفة مؤثثة متواضعة لكنها نظيفة ، وكان هذا في رأيه هو الخطوة الاولى نحو العالم الافضل الذي يريد أن يغزوه .

وشيئا فشيئا أصبح شخصا لا ُيستغنى عنه في مكاتب الشركة التي تستخدمه . كان يفيد الشركة خاصة عند وصول البواخر ، وفي العلاقات بالاجانب ، فهو منذ الآن يتكلم خمس لغات بطلاقة ، ويعرف تفاصيل الامور في الادارة الامبراطورية ، ويعرف أسماء كبار الموظفين ، ويتعلم كل ما قد تمس الحاجة اليه في كل لحظة مما يتقاعس غيره عن تعلمه . وظل كتوما رغم كل شيء ، لا مطالب له ولا حاجات شخصية ، مستعدا لتقديم خدماته في كل لحظة دون أن يزعج أحدا .

ولاحظه الكومندان كالير ، حاكم المنطقة : ان الاحدب قدم اليه بعض الخدمات اذ أخبره عن الاجانب الذين يسافرون على بواخر الشركة . فلما عيّن كالير آمرا لمدينة زيمون استدعى سكارباروتا بعد بضعة أشهر ، وعينه ترجمانا ومخبرا . وكان هذا الاستدعاء ، عند ابن

الحذاء ، بشارةً من الحظ ، وابتعادا عن البؤس الموروث عن الاجداد •

أخذ الفتى يعمل في جد ونشاط ، فسرعان ما لوحظت حماسته ولوحظ ذكاؤه • وكان قد أكمل أسلحته بتعلم الاسبانية واليونانية • وصار يذهب الى بلغراد في مهمات سرية يجمع الاخبار من الاجانب أثناء الحجر الصحي الذي يخضعون له • وفي زيمون انما أراد ابن الحذاء التريستي أن يمحو عنه كل أثر من آثار أصله ، فشطر اسم آبائه الفاضح ، فسمى نفسه روتا فحسب ، حتى لقد أخذ خلال فترة من الوقت يوقع « دي روتا » • وفي زيمون أيضا انما أراد أن يتزوج •

فاختار فتاة مشرقية هي ابنة مصدِّر من القسطنطينية جاء الى زيمون في زيارة لبعض الاقارب : كان الاب دلماسي الاصل ولد بالقسطنطينية ، وكانت الام يونانية • والفتاة جميلة ممتلئة عذبة ، ولها مهر ، فرأى روتا فيما تملكه الفتاة من مال علامة على دخوله الى العالم الذي كان يحب أن يرقى اليه ، ونهاية لصعوده الشاق المرير • لكنه سرعان ما أدرك أن خاتمة المطاف التي حلم بها ليست خاتمة المطاف ، وأن الحياة طريق لا آخر له ، أشبه بمرايا عابثة ينعكس خيال بعضها في بعض ، فتمتد الى اللانهاية آفاقا ما تنفك تبعد وتهرب •

لقد ظهرت أمراته ضعيفة كسولة مبـذرة ممراضاً صعبةُ المراس متعبة من كل ناحية • فلولا أن روتا قد قطع صلته بطفولته فلربما كان تذكر المثل الذي كثيرا ما ذُكر له : من أراد البلية تزوج مشرقية (١) • ولكنه كان قد نسي كل ما يمت الى تريستا بصلة •

ثم ان الحياة التي كان يعيشها لم تكن بالحياة المريحة • ليس العمل الذي يقوم به في زيمون سهلاً منظماً كالعمل الذي كان يقوم به في تريستا • انه يُكلَّف الآن بمهمات دقيقة ، خطرة

---

(١) باللاتينية في الاصل .

أحيانا ، ترهق أعصابه ، ولا تشغل أيامه فحسب ، بل تحرمه نوم الليل في كثير من الاحيان • ان هؤلاء البشر الذين يتعامل معهم ، هؤلاء البشر المتنوعين الذين يملئون هذا المفترق الكبير-وينتقلون من زيمون الى بلغراد ومن بلغراد الى زيمون ، صاعدين على الدانوب أو هابطين ، أناس معقدون تصعب العلاقات بهم ولا يمكن الركون اليهم • ان عمله نزاعات ليست في الحسبان وخصومات وانتقامات ماكرة • واضطر روتا من أجل بقائه ، أن يستعمل أساليب تناسب هذه البيئة وأن يصطنع شيئا فشيئا تلك اللهجة الجافة التي يتكلمها الحرس والتراجمة في المشرق ، والتي تخفي وراءها فراغ النفس والخوف من الآخرين وفقدان كل ايمان بل وكل وازع أخلاقي •

وتأثرت حياته الزوجية من هذا كله • حتى اذا فقد الزوجان بنتاً ثانية في الاشهر الاولى من حياتهما ، تجهم مزاجهما ، وسرعان ما ساد بينهما كره متبادل ، فاذا المناقشات الطويلة التي لا تنتهي تصير الى مشاجرات عاصفة فيها من القبح والقسوة ما لم ير مثله في المشاجرات التي كانت تهب في منزل أسرة سكاربا روتا والتي ما يزال الاحدب يتذكرها أوضح تذكر • وأخيرا رجعت المرأة الى القسطنطينية بغير ضجة ولكن بغير أسف أيضا ، رجعت الى القسطنطينية وفي رأيهما كليهما أنه ما كان ينبغي لها أن تغادرها •

واكتشف روتا عندئذ الحقيقة كاملة : اكتشف أن انتقاله من العالم الذي ولد فيه الى العالم الذي لم يكن يراه وطالما تمناه ليس يكفيه يمين يحلفه أحدب صغير يندب في الليل حظه ويشكو فقره ، لا ولا يكفيه أن يعمل وأن يخدم في عناء وعناد طوال عشرين عاما • واكتشف ما هو أنكى من ذلك أيضا ، اكتشف أن هذا العالم المتمنى ليس ، كما خيِّل اليه ، وجوداً بيِّن الحدود واضح التخوم ثابت المعالم يمكن أن يبلغه المرء مرة واحدة الى الابد ، وأن ذلك العالم القديم المليء بالبؤس

والصغار ، الذي كان يريد أن يهجره مهما يكلف الامر ، لا يستطيع أن يتخلص منه بسهولة كتخلصه من اخوته أو من أسماله ، فهو يلازمه ملازمة دائمة وان لم تكن منظورة ، يلازمه في كل ما يطرأ على حياته من تبدل ، وفي كل ما تحققه حياته من نجاح • وهاهوذا يشعر ، وهو لمّا يزل شاباً في الثلاثين من عمره ، بأنه مكدود مخدوع ، فالجهد الذي بذله فوقَ طاقة البشر لم يغنه شيئا ؛ وهاهوذا يفكر في حظه فيشعر بأنه وحيد خائب الآمال •

ويريد روتا أن يهرب من أفكاره ومن نفسه فيندفع اندفاعا كاملا الى العمل ، الى هذه الدوّامة المظلمة القاسية ، المؤلفة من مهمات سرية يقوم بها وحدود يجتازها وأيام وليالٍ يقضيها في منازل الحجر الصحي ، الى هذه الدوامة التي يصبح فيها المرء فظاً غليظ القلب متحجر العاطفة ، ويشيخ قبل الاوان • أصبح صاحبنا طمّاعاً شرهاً حسوداً سريع التأذي شديد الاهتياج متطيرا بل وجلا • وكان غروره يبدو للآخرين مفرطاً ، أما هو فكان لا يعتز بما وصل اليه فحسب ، بل كان يعتز خاصة بالثمن الذي يدفعه من أجل الوصول الى ما وصل اليه •

وهذا الغرور نفسه لم يدم له : ان السنين تحرمنا حتى من المتع التي تهيئها لنا عيوبنا • وهذا هو روتا ، بعد أن فقد ايمانه بالمصير الذي سعى اليه ، يهجر الوسائل التي كان يأمل أن يصل بها اليه ، وها هوذا يدع للامور أن تجري على سجيتها ، لا يطمع في أكثر من أن يعيش حياة فيها شيء من اليسر وفيها شيء من الاستقرار ، حياة خالية من المرض مبرأة من العمل المضني بعيدة عن فرط التعقيد • وألف العالم التركي مثلما ألفه زميله دافنا ، ألف ذلك الشك الدائم وذلك الصراع المستمر ضد الاتراك وغير الاتراك والاجانب •

وكان شعره يشيب ، وكان حاجباه مقطبين دائما • انه جمّ الوساوس

والهواجس ، أناني ، صاحب نزوات صغيرة كثيرة ، منتفخ تفيهقاً ، يعاني أمراضاً وهمية ، يخشى سوء الحظ ، يفرّ من النُذُر التي تدعو الى التشاؤم ، يكره الدين وكل ما يتصل بالدين من قريب أو بعيد • وظل وحدانياً ، لا يتذكر امرأته الا في اشمئزاز وتقزز ، ويرتعد انزعاجا كلما خطر بباله أولئك الفقراء العراة القذرون الذين تركهم في ترييستا ، ويتمنى أن لا يسمع اسم اسرته بعد ذلك أبدا • وأصبحت اللذة الوحيدة التي يستمتع بها هي أن يدّخر ، وأصبح مولعا بالادخار أشد الولع ، يحسّ أنه يُصلح بالادخار كل ما لحق به من أذى ، ويرى أن المال هو الوسيلة الوحيدة لحماية المرء ورفع قدره وانقاذه •

كان قبل ذلك يحب الطعام والشراب ، ولكنه أصبح شيئا فشيئا يخشى الانفاق ، ويخشى أيضا ما يسببه الشراب من اطلاق اللسان في أحاديث طائشة ، وهو يخاف من الشراب على صحته كذلك • وكان في شبابه يعنى بهندامه أحسن العناية ، ويحب أن يبهر الانظار ببياض أكمامه وجمال ياقاته المخرّمة وكثرة مناديله المزركشة ولمعان أحذيته ، ولكنه أهمل الآن هذا كله ، فالبخل يطغى عنده على كل شيء •

على أن ثروته التي يتعب في جمعها ويحرص على حفظها أصبحت تجعله لا يفكر الا في الفقر • لقد قيل عنه ، حين كان أنيقا وشابا ، انه يملك مائة قميص وقميص ، وان عنده ثلاثين زوجا من الاحذية • والحق أن صناديقه ما تزال ملأى بالملابس ، وأنه يختزن ذهبا كثيرا • ولكن ما نفع هذا كله ؟ انه لم يكن لينسى في لحظة من اللحظات أن هـذه القمصان مآلها الى الاهتراء شيئا فشيئا لا محالة ، وأن الاحذية ستلقى هذا المصير نفسه ، وأن الذهب ليس له من مخبأ مضمون قط • ما نفع تلك السنين العشرين التي قضاها في عمل مضنٍ ككلب ، ما نفع هذه الانواع من الحرمان التي فرضها على نفسه ، ما دامت المناصب والملابس

لا تغير الحظ ، لا تغير هذا « الحظ المأبون » على حد تعبير روتا حين يحدث نفسه في الليل ساخطا حانقا •

ما نفع هذا كله ؟ ان كل شيء يتمزق وينكسر ويهتريء ؛ والفقر المخجل يعود الى الظهور من خلال ثقوب الملابس — التي يراها روتا وحده ولكنه يراها رؤية واضحة — الفقرُ المخجل الذي ظن روتا أنه ألقاه بعيدا عنه الى الابد ، في تريستا • هو الهم القديم نفسه ، همُّ العثور على دريهمات تقيم الأود : ان عناء البخل يشبه عناء الفقر • ما نفع هذا كله ؟ ها هو ذا روتا يعود الى نقطة البداية بعد جهود كبيرة وتسلق مرير لا طائل تحته • وها هي ذي تلك العامية الخشنة نفسها تنفذ الى أفكاره بطريق آخر : ان عليه من أجل المحافظة على ما جمع من مال أن يستعمل تلك الوسائل الفظيعة نفسها التي يمليها الفقر • ماذا ينفعه أن يملك مالا وأن يكون شخصا ذا بال ما دام لا يستطيع أن يتحرر من خوف الفقر ولا من صغار المشاعر ولا من بذاءة الكلام ولا من خشية المستقبل ؟ ماذا ينفعه ذلك كله ما دام الخوف من الفقر يلازمه ملازمة ظل مستتر ، وما دامت الحياة الافضل ، الحياة الهادئة ، ما تنفك تبتعد عنه مزيدا من الابتعاد •

كان كل جهد اذن عبثا لا طائل تحته •• وتظل ذكريات الاصل الحزينة ماثلة في الذهن كريهة مقيتة • ولا يزيد هذا صاحبَنا الا شموخ أنف • انه يمشي في الارض مرحا ، ويستعلي على الناس مزيدا من الاستعلاء ، وينظر اليهم في احتقار • ويزداد بخله ، ويزداد اهتمامه الدقيق بنظام مكتبه هوساً غريباً • وهو الآن في معاملة من يتعلقون به ويخضعون له أشد قسوة وأقل رحمة منه في أي وقت مضى •

• • •

موظفان صغيران كانا الى جانب روتا • أما الاول فهو فرانتس فاجنر، وهو ابن رجل ألماني هاجر الى سلافونسكي برود : شاب قصير أشقر ، جم النشاط ، حسن الخط ، صاحب همة في خدمة الناس • انــه امام رئيسه يذوب خضوعا ومذلة ، ولكنه يخفي في قرارة نفسه غيرَ قليل من خبث الموظف ، خبثٍ ناعم أصم ، قاسٍ أيضا ، قاتل أحيانا • لقد كان يعرف كيف يخفي هذا الخبث ليصبه في يوم من الايام شرا مستطيرا على مرءوس شقي • ولعل هذا كان في طبعه منذ كان في المدرسة • وهو الآن ، بانتظار أن يضرب ضربته ، يتمرن على عدوه الطبيعي : روتا•

وأما الثاني فهو بطرس ماركوفاتس : رجل من ضباط الصف ، قوي البنية ، متورد الوجه ، له شارب طويل ، وسيم الى ذلك• وهو متحفظ ، مهذب ، شديد الاحتفال بشخصه ، مشغول باعجابه بنفسه عن التفكير في كل ما عدا ذلك •

أولئك كانوا موظفي قنصلية النمسا بمدينة ترافنك •

الفصل السابع

ما نحن الآن في الخريف ، فقد انقضى الخريف ، ولا نحن في الشتاء ، فما جاء الشتاء بعد . نحن في أوان ليس بالخريف ولا هو بالشتاء ، لكنه أسوأ من الخريف والشتاء على السواء ، نحن في هذا الاوان منذ أيام وأسابيع ، والايام تبدو أطول من أسابيع والاسابيع تبدو أطول من أشهر . والسماء مفتحة الينابيع ، فاما مطر يصنع وحلا ، واما ثلج يذوب مطرا أو يهطل وحلا كثيفا أيضا . الشمس تشرق في الصباح شاحبة عاجزة ، تصبغ الأفق بحمرة صفراء ، وراء السحب التي تطلع من الشرق ، وترسل ضياء أصفر عند المغيب قبل أن يذوب النهار الاشهب ليلا أسود . والرطوبة تنبع من الارض كما تنبع من السماء ، في الليل وفي النهار ، تمتص المدينة كلها ، وتنفذ الى كل شيء ، وتفسد بقوتها التي لا تُرى ، ألوانَ الاشياء وأشكالها ، كما تفسد أمزجةَ الحيوانات والبشر جميعا . والريح التي تهب على السهل مرتين في اليوم تطرد الرطوبة القديمة ، ولكنها تحمل سحبا جديدة مع ما تحمل من رذاذ الثلج ورائحة الغابات المبتلة ، فما يعدو الامر أن تحل رطوبة الغابات الباردة محل رطوبة المدينة المتجمعة . وعلى شفيري الوادي تتدفق الينابيع ، وتصير الجداول أنهارا تغني وتجري وتجرف وتدخل المدينة دخول فلاحين عمي سُكارى ، وتتضخم السيول ، ويتحول نهر لاشفا ، في وسط مدينة ترافنك ، مضطربا متعاظما ، وتتدحرج أمواهه هازجة هادرة .

لا شيء يمكن أن يحمي الانسان من هذا التصخاب ، ولا من هذه

المياه ، ولا من هذا القرّ الذي تنشره فيتسلل الى الحجرات وينفذ في الاسرّة . الصخر يرشح عرقا متجلدا ، والخشب يصبح زلقاً سريع الانكسار . ولا تستطيع الكائنات الحية أن تحمي نفسها الا بحرارة أجسادها ، وكل شيء ينكفيء على نفسه ليقاوم الرطوبة بجهدَ الطاقة . الدابة تتشبث بالدابة ، والحبة تصمت في الارض ، والشجرة الغارقة في الماء والرطوبة تجمّع حياتها في نسغها وجذورها القاعية في الدفء .

وأهل البوسنة الذين أصلبتهم العادة الطويلة يأكلون ويتدفئون على ما تمليه غريزتهم وتجربتهم ، كلٌ بحسب ما ملك من وسائل ، وما ألف من عادات ، وما أحاط به من ظروف . فأما الاغنياء فلا يخرجون الا لضرورة قصوى ، ويقضون الايام والليالي في حجرات داكنة جاعلين أصابعهم فوق مدافيء صغيرة من آجر . انهم ينتظرون ، وصبرهم أطول من أطول زوبعة ومن أطول فصل رديء . ما من أحد منهم يخشى أن يفوقه أحد من أمثاله رفاها ، لانهم يعيشون جميعا حياة واحدة تجري على نسق واحد وطريقة واحدة ، فما هم في حاجة اليه قد أقفلوا عليه أقبيتهم أو عنابرهم أو سقائفهم ، فهم يعرفون شتاءهم وقد استعدوا له .

ولا كذلك الفقراء الذين لا يملكون مئونة ، فان هذا الطقس يخرجهم من بيوتهم طردا . وحتى الذين لا يطلبون في الصيف شيئا من أحد ، مضطرون الى الخروج في هذا الفصل يبحثون عن عمل أو يقترضون أو يشحذون ليعودوا الى أهلهم بشيء . ها هم أولاء قد أسدلوا على رءوسهم أكياسا عتيقة ، وارتدوا أسمالا بالية ، ولفوا أرجلهم بجلود وبخرق من قشر أو قماش ، وخفضوا رءوسهم ، وراحوا يسيرون لصقَ الجدران وقد توترت عضلاتهم واقشعرت جلودهم ، أو تحت الشرفات والافاريز يلجئون اليها من الامطار ، ويتحاشون غدران المياه ويقفزون فوق الجداول من حجر الى حجر ، وهم ينفضون أرجلهم وراءهم كما تفعل الهررة ، وينفخون على أصابعهم أو يضعون أيديهم

تحت آباطهم ، ويرتجفون لكنهم يدندنون . ان صورة الطعام أو الدفء اللذين يجب أن يحصلوا عليهما ، تهب لهم القدرة على احتمال كل شيء.

كذلك يقضي سكان ترافنك هذا الفصل القاسي الذي ألفوه منذ نعومة أظفارهم .

أما الاجانب الذين ألقى بهم الحظ في هذا الوادي الضيق ، في هذا الوادي الضيق الذي « تهب عليه في هذا الوقت من السنة رياح مبللة كتيارات الهواء الباردة التي تجري في دهليز سجن » ، فهم أناس لم يألفوا ذلك ولا تدربوا عليه أو تمرسوا به .

. . .

أما القناق الذي يزخر عادة بالصخب والمرح كثكنة فرسان، فقددخل اليه الضجر ودخلت اليه الرطوبة دخول مرض من الامراض . ان مماليك الوزير يقضون أول شتاء لهم في البوسنة . فاذا نظرت اليهم رأيتهم صفر الوجوه ، مرتعدين ، مشعثين ، ورأيت عيونهم حزينة كعيون حيوانات من المناطق الحارة نُقلت الى منطقة قطبية : ان عددا كبيرا منهم يظل مضطجعا طوال النهار شادا غطاءه حتى الرأس ، يسعل ويتحسر على حرّ وطنه البعيد . حتى الحيوانات التي أتى بها الوزير ، من قطط الأنجورا والببغاوات والقرود ، تقبع في الزوايا والاركان ساكنة صامتة تنتظر الشمس ، بدلا من أن تسرّي عن صاحبها بصراخها وحركاتها .

والدفتردار وسائر الموظفين لا يتركون غرفهم الا اذا وقع في الخارج طوفان . ان غرفهم مدفأة بمدافيء كبيرة من الخزف لها على الدهليز الخارجي فوهات منها يُسقِط الخدمُ الحطب فيشتعل متضرماً ويكفل الدفء طوال الليل ، حتى اذا طلع الصباح كان ما بقي منه من جمر يكفي لاضرام النار من جديد ، فما تبرد الغرف في وقت من الاوقات . ألا ما

أمتع سماع تلك الاصوات في النهار ، أصوات المدفأة حين تُفتح ، والحطب حين يُدس حطبة حطبة !

ولكن السأم يتسلل الى البيوت حتى قبل هبوط الليل . ويحاول سكان القناق أن يطردوه فيبتكرون الالعاب ويتزاورون ويتحدثون . والوزير نفسه يفقد مرحه المألوف وانطلاقه ، فيهبط الى الدور الارضي عدة مرات في اليوم ، الى القاعة القاتمة ذات الجدران السميكة والنوافذ الصغيرة ، وهي القاعة الوحيدة التي تُستعمل في هذا الفصل ، لان القاعة العليا التي تفضلها نورا واشراقا تصعب تدفئتها ، ويستدعي المسنين والمقربين من معاونيه تزجية للوقت ، ويأخذ يثرثر معهم حتى لا يستيقظ فيه حنينه الى مصر ، وحتى لا تستيقظ فيه مخاوفه من المستقبل وحسرته على البحر الذي يقض مضاجعه في لياليه القلقة . وهو يردد عشر مرات في اليوم قوله : « بلاد جميلة يا صاحبي ! بلاد رائعة ! تُرى أيَّ اثمٍ جنينا ، أنا وأنت ، عند الله ؟ أي دين علينا للقدر ؟ » .

فيجيبه كل واحد منهم متبرما شاتما البوسنة ومناخها . يقول الدفتردار : « بلد كلاب » ، ويقول جونوز بك ، حارس الاسلحة ، وهو من سكان المدينة التي منها الوزير ، يقول باكيا : « بلد يبكي منه دب » ، ويقول ابراهيم خجا ، صديق الوزير ، يقول وهو يخدِّد وجهه الأصفر بغضون طويلة كأنه يستعد للموت فعلا : « الآن أدرك أننا أرسلنا الى هنا لنموت » .

وتستمر معزوفة الشكاوى تدفع السأم الذي يخيم على الجميع . ولكن أصوات خرير المياه ووقعِ الامطار أقوى من أصوات الكلام ، والجالسون يتصورون البحر الذي يصطخب في الخارج ويحاصر القناق منذ أيام وأيام ، محاولا أن يجد سبيلا الى داخله من أي شق .

ويصل سليمان باشا سكوبلاك ، الوزير المساعد ، فيكون وصوله

سلوى • ان هذا البوسني البسيط الخشن يقطع المدينة على حصانه عدة مرات في اليوم ، لا يبالي البرد ولا المطر • وصمت سكان القناق ، ونظروا اليه نظرتهم الى رجل غريب الاطوار :

كان الوزير يعتدل في كلامه حين يحدث مساعده ، ومع ذلك لم يستطع أن يمتنع عن طرح هذا السؤال عليه وهو يضحك :

ــ قل لي ياصاحبي ، هل هذه المصائب تنزل بهذه المدينة كثيراً ؟

فشخص اليه سليمان باشا وقال له جاداً برطانته التركية :

ــ ما من مصيبة والحمد لله ياباشا • هو الشتاء يبدأ ، ويبدأ كما يجب أن يبدأ : أحسن السنين سنة" ماطر" أولها صاحٍ آخرُهــا • سوف ترى ••• حين يهطل الثلج حقاً ، وحين يهب عليه البرد الشديد الجاف ، وحين تسطع الشمس ، وحين يطقطق الثلج تحت الاقــدام بينما هو يتلألأ في الأبصار ! منظر جميل ، منظر رائــع ! تلك مشيئة الله ياباشا والخير فيما يشاء الله !

فكان الوزير يرتجف من مجرد تصور هذه المعجزات الجديدة التي يبشره بها مساعده في حماسة وهو يدفيء قماطي ساقيه الرطبين على المدفأة ، ويفرك يديه الجافتين المحمرتين •

فيقول له التركي مازحاً :

ــ ولكن ، ياصاحبي العزيز ، تجاوز الأمر حدَّه ، ليته يتوقف قليلا اذا أمكن •

ــ لا لا ! لم يتجاوز حده • هذه نعمة من الله ، نعمة • اذا لم يكن الشتاء شتاءً فليس بشتاء •

ويحافظ مساعد الباشا على جده ووقاره • ان هؤلاء العثمــانيين لا يستطيعون أن يفهموه ولا أن ينفذوا الى مشاعره • وها هو ذا يبقى

جالساً هادئاً صلباً بين هؤلاء الأجانب الساخرين المصقّعين الذين ينظرون اليه نظرة يمتزج فيها الاستغراب بالخشية ، كأنه يصرّف الطقس ويحكم الفصول •

ونهض أخيراً ، وتلفع بمعطفه الأحمر ، ثم ركب حصانه ، ليعود الى منزله البعيد تحت وابل الجليد على طريق الوحل • وما ان أغلقوا وراءه الباب حتى استأنفوا التنــدر وأخذوا يكيلون للبوسنة وأهلهــا كل ما يخطر ببالهم من قذف ، فذلك يسرّى عنهم قليلا •

• • •

أصبحت الحياة في القنصلية الفرنسيةأكثر هدوءاً وانزواءً • انمدام دافيل تجرب أولَ شتاء لها في هــذه المدينة ، وتنتهز هــذه الفرصة فتسجل كل ما ينبغي لها أن تفعله في المستقبل ، وتجد لكل شيء علاجاً ودواء • ها هي ذي تلفع كتفيها بشال من الكشمير الأشهب ، وتمضي تطوف في أرجاء المنزل التركي الواسع أطرافَ النهار ، خفيفةً نشيطة لا تتعب ، تنظّم العمل وتكلم الخدم ـ الذين ليسوا على جانب كبير من الحذق ، ولا هي تعرف لغتهم ـ ولكنها تفرض ارادتها أخيراً ، وتحصل على ماتريده تقريباً • والمنــزل حين يمتحنه جو كهذا الجــو يكشف عن عيوبه : فالسقف تتسرب منه مياه الأمطار ، والبلاط يتخرب هنا وهناك ، والنوافذ يصعب احكام اغــلاقها ، والدهــان يتقشر ، والمدافيء تدخّن • ولكن مدام دافيل تظفر بترقيع كل شيء وترتيب كل شيء وتنظيم كل شيء • ان يديها الجافتين ، الحمراوين في كثير من الأحيان ، تزرقّان من البرد ، ولكن ذلك لا يقفها لحظة عن مكافحة التلف والفوضى •

وفي الطابق الأرضي ، في مكتب رطب بعض الرطوبة لكنه مدفأ

تدفئة" جيدة ، يجلس دافيل ومساعده الشاب ، يتحدثان عن الحرب الاسبانية ، وعن السلطات الفرنسية بدلماسيا ، وعن انقطاع البريد أحيانا وتأخر وصوله أحياناً أخرى ، وعن الوزارة التي لا تلبي المطالب ، ويتحدثان أكثر من ذلك عن الطقس والبوسنة والبوسنيين ، بانتظار أن يؤتى بالشموع للنهوض الى المائدة • وفجأة ، على غير توقع ، ينتقل الحديث الى مسائل عامة ويصبح مناقشة •

كان ذلك في وقت ليس بالنهار ولا بالليل ، بل هو بين بين ، فلا النور أشعل بعد ، ولا القراءة ممكنة بغير نور • كان دي فوسيه قد رجع من النزهة منذ قليل ، فما يزال وجهه أحمر مبللاً من الريح والمطر ، وما يزال شعره ملتصقاً مبعثراً • انه حتى أثناء الطقس الرديء لا يفوّت فرصة الخروج الى أطراف المدينة مرة واحدة على الأقل في كل يوم • وكان دافيل لا يخفي استياءه من هذه النزهات التي يراها مضرة بصحة مساعده ومسيئة" الى سمعة القنصلية : ان هذا الفتى يُحنقه سواء بهذا النشاط الذي يبلغ حد جنون الحركة أو بما يضطرم في نفسه من حب الاستطلاع واتقاد الفكر • ولكن دي فوسيه الذي لا يحسُّ ملامات القنصل والذي هو غريب كل الغرابة عن أفكاره ، يتحدث في حماسة عن اكتشافاته أثناء جولاته في المدينة وأطرافها •

ردّ دافيل قائلا :

— ليس في ترافنك وما حولها على مسافة عشرين فَرسخاً الا وحل يقيم عليه أُناس أشقياء من نوعين: مضطهِدين ومضطهَدين • وعلينانحن التعساء أن نعيش مع هؤلاء وأولئك ، وا أسفاه !

لم يقتنع دى فوسيه • حتى لقد حاول أن يبرهن على أن هذه البلاد ، مهما تكن مقفرة معزولة عن العالم ، ليست « وحلاً » ، وانما هي بلاد متنوعة شائقة بل معبِّرة ان صح القول • صحيح أن الشعب

المنقسم الى عدة ديانات كثير الخرافات أولاً ، ويحكم أسوأ حكم في العالم ثانياً . فهو متخلف وهو بائس . ولكنه في الوقت نفسه ينعم بغنى في الفكر وأصالة في الطبع وطرافة في العادات ؛ وهو يستحق على كل حال أن ننكب على دراسة أسباب شقائه وتخلفه . وليس ينهض دليلاً على شيء من الأشياء أن لا يرتاح السادة دافيل وفون ميترر ودي فوسيه الى الحياة في هذا البلد ، فما كان لعواطف قنصل دولة أجنبية أن تتخذ أساساً لتقرير قيمة هذا البلد وتعيين خطورة شأنه .

وأضاف يقول :

ــ واني لأرى أنه قلّ في الأرض ركن كهذا الركن يظهر أن الحياة باقية مستمرة . فما عليك الا أن تحفر الأرض ذراعين حتى تجد قبوراً وأنواعاً شتى من بقايا الأعصر الخالية . ان كل حقل هنا مقبرة من عدة طبقات . فالأجيال تفنى والعصور تولد ، وتقوم القبور شهوداً على الحياة .

ــ هيه ! هيه !

ان القنصل يدفع عن نفسه أفكار الفتى كما يدفع ذبابة لا ترى ، ولا يتوصل الى أن يعتاد هذه الأفكار وأن يألفها .

ويردف الفتى قائلاً :

ــ لا القبور وحدها بل كل شيء ، كل شيء يشهد على الحياة . في هذا اليوم نفسه ، بينما كنت أصعد كاليبونار ، نظرت الى كتلة من التراب دحرجها المطر على الطريق ، فاذا أنا أرى على عمق ستة أشبار بقايا طرقات عدة ، بعضها فوق بعض ، تمتد على هذا الوادي نفسه : فأعمقها بلاطات ضخمة هي بقايا الطرق الرومانية ، وفوق هذه بثلاثة أشبار حجارة الطريق الذي يرجع عهده الى القرون الوسطى ، وفوق ذلك حصى الدرب الذي صنعه الأتراك والذي نمشي عليه اليوم .

كذلك تراءى لي في هذا المقطع الذي انكشف عرضاً تاريخُ ألفي سنة من حياة البشر ، وثلاثة عصور يدفن أحدها الآخر . أرأيت ؟

ـ رأيت ... ولكن اذا أخذنا ننظر الى الأمور من هذه الزاوية...

كذلك قال دافيل وهو لا يصغي الى مساعـده بقدر ما ينظر الى عينيه السمراوين اللتين تسطعان بألقٍ بارد ، كأنه يحاول أن يفهم ما عسى أن تكون عينان تريان العالم على هذه الصورة .

ويأخذ الفتى يتحدثعن المستعمرات الرومانيةعلى طريق زابيليه(١): لقد عثر قبيل فصل الأمطار على أشياء مدفونة في التراب . وكان ذلك في حقل رجل اسمه قره خوجتش ، شيخ متجهم لم يسمح له بمتابعة التنقيب ، وظل مدة طويلة يتابع دي فوسيه وحارسه بنظرات حانقـة وهما عائدان الى ترافنك .

وقد قصّ عليه الحارس أثناء الطريق قصة أسرة هذا المالك الحـاد الطبع المعتكر المزاج ، قال : قبـل قرنين من الزمـان ، ابان الحروب الكبرى ، بارح أناس من أسرة قره خوجتش أراضيهم في البوسنة ومضوا يقيمون بسلافونيا قرب بوزيجا على أراض واسعة ورثوها . ولكن الأتراك اضطـُروا بعد مائة وعشرين عاماً الى الجلاء عن سلافونيا، فاضطر أفراد أسرة قره خوجتش أيضا الى ترك أملاكهم الرائعة والعودة الى الأرض الصغيرة الفقيرة التي يملكونها في زابيليه . وما يزالون يحتفظون من ذكريات أرضهم وكرامتهم اللتين ضاعتا في آن واحد ، بقِـدْرٍ من نحاس جاءوا به معهم حين عادوا الى البوسنة مذلّين حانقين بقيادة شيخ أفراد أسرة قره خوجا . وقد ترك لهم الشيخ ، مع القِـدر ، آخر أمر من أوامره : وهو أن عليهم أن يشاركوا في كل حرب تُشن

---

(١) هي آثار مساكن رومانية على الطريق المؤدية الى هذه القريـة قرب تراڤنك .

على الألمان المناجيس ، وأن يبذلوا قصارى جهدهم لاسترداد أملاكهم بسلافونيا ، حتى اذا وقعت المصيبة وشاء الله أن يقطع الألمان نهر ساف ، كان عليهم أن يدافعوا عن حقولهم الفقيرة في زابيليه ما استطاعوا الى الدفاع عنها سبيلا ، فان استحال ذلك وجب عليهم أن يظلوا يهربون ثم يهربون ، عبرَ الامبراطورية التركية ، الى أقاصي حدودها ، حتى يصلوا الى الصين اذا اقتضى الأمر •

روى الحارس ذلك وأشار الى مقبرة صغيرة عليها حجران أبيضان عاليان وقال : هنا قبر أبي وجدّ العجوز الذي طردنا منذ هنيهة ثم وقف عند السياج وأخذ يجمجم حانقاً بينما كانت عيناه تقدحان شرراً •

وشخص دى فوسيه ببصره الى النافذة التي كان يصعد اليها الضباب في الغسق ، وقال :

ــ لست أدري ماذا شاقني في الأمر أكثر من غيره ، ألآثار القديمة أم هذا الشيخ الذي يتبع وصية جده ، فما يأذن لأحد أن يمس حقله باصبعه • أرأيت ؟

ــ رأيت ، رأيت •

كذلك ردد دافيل عى غير وعي ، وكان غائباً عن نفسه ، قد أذهلته كثرة مايراه هذا الفتى •

الرجلان كلاهما يسيران الآن في الغرفة • وهذان هما يتوقفان أمام النافذة • لقد أخذ الليل بالهبوط • ومع ذلك لم توقد المصابيح في أي مكان بعد • وليس ُيرى ثمة الا شعاع صغير ، في قرارة الوادي ، قربَ الماء ، يتراقص على ضريح عبد الله باشا • لقد طالما تحدث الدبلوماسيان عن هذا « الضوء الأبدي » الذي أصبح بمثابة صوة لا تتغير ولا يجهلها أحد • •

ان عبد الله باشا ــ وقد استطلع دى فوسيه قصته أيضاً ــ رجل من البوسنة نال حظاً كبيراً من الشهرة والغنى منذ كان في ريعان شبابه ، ثم عُيّن وزيراً لترافنك بعد أسفار ورحلات كثيرة ، ثم مات في هذه المدينة فجأة وهو في زهرة العمر ، مات مسموماً فيما يقول بعضهم ، تاركاً في أذهان الناس ذكرى رجلٍ دمث الخلق لين الطبع عادل ، حتى لقد قيل عنه في كتاب قديم « ان الفقراء ماعرفوا في عهده ما هــو الشر » • لقد وقف الرجل ثروته على مسجد من المساجد ، بعــد أن احتفظ من المال بما يحتاج اليه بناء هذا القبر بجيّد الحجارة ، وما يحتاج اليه ايقاد شمعة على الضريح لا ينقطع احتراقها في ليل ولا نهار • « أضاء الله مثواه » ، تلك هي العبارة التي كتبهــا فقهاء المسجد على الغطاء الأخضر الذي فُرش على القبر • وقد استطاع دى فوسيه أن يعرف المكان الذي حُفظت فيه الوصية ، ثم أراد أن يراها ، ولكنهم لم يأذنوا له بذلك يوماً •

تباطأ الحديث • الظلام يخيّم • وهذه آهات تتعالى من أعماق الصمت : رجل يغني أثناء سيره ، ويتوقف عن الغنــاء أحيانــاً ثم يستأنفه ، ثم يبتعد غناؤه بابتعاده •

وها هو ذا دافيل يقرع الجرس نافذ الصبر ، ويأمر باشعال النور ، قائلاً في تبرم :

ــ ما هذه الموسيقى يارب ! ما هذه الموسيقى !

ان الأغاني البوسنية تثير أعصابه •

ان موسى هو الذي مرّ في هذا المساء كما يمر في كل مساء ، موسى الملقب بالمغني ، الذي يسكن بيتاً من تلك البيوت الضائعة في البساتين المنحدرة وراء القنصلية • وقد عرف دى فوسيه ، الذي كان يحب أن يعرف كل شيء ، قصة هذا السكّير الذي يمر في هذا الطريق نفسه

كل يوم ، مترنحاً ، مردداً بصوته الأبح ذلك اللحن القديم الذي يقطعه هنا وهناك .

كان يعيش منذ مدة بمدينة ترافنك رجل" يقال له كرديالي ، وضيع الأصل ، لكنه اغتنى من تجارة السلاح . والسلاح بضاعة نافقة يدفع الناس أثمانها باهظة في هذه البلاد ، والراغب فيها لا يبالي أن يضحي في سبيلها بأي مال ، شريطة أن يحصل عليها حيث أراد ومتى أراد . وكان لكرديالي هذا ابنان : أما الأكبر فكان يعمل معه ، وأما الأصغر فقد أرسله أبوه الى سارايبفو للدراسة . وفي ذات صباح وُجد العجوز في فراشه ميتاً وكان قد أوى اليه سليماً معافى . وقطع موسى دراسته وعاد ادراجه الى ترافنك . ووجدت التركة هزيلة جداً ، وراجت حول ذلك شائعات : لم يستطع الناس أن يصدقوا أعينهم وحاروا في أمر أختفاء المال . ونُصح موسى كثيراً برفع شكوى على أخيه ، خاصةً وأن أخاه هذا ، وهو رجل فارع القامة وسيم الوجه بارد الطبع ، قد ظلمه حتى في اقتسام باقي الارث . غير أن شيئاً أنكى من هذا قد وقع لموسى . فبينما كان يَتم اقتسام الارث ، وبينما كان موسى حائراً متردداً يتنازعه ما فُطر عليه من اهمال وما يُسدى اليه من نصح ، وقع الأخوان في غرام فتاة واحدة ، وخطباها كلاهما في وقت واحد ، ففاز بها الأخ الأكبر . فاذا بموسى يترك مدينة ترافنك فوراً . وانقطع الكلام عن موت الأب واقتسام الأملاك ، ولم يُعن الابر الأكبر بعد ذلك الا بزيادة ثروته . وبعد سنتين عاد موسى . لكن موسى اليومَ غير موسى أمسِ : هو اليوم موسى شاحب اللون نحيل الجسم ذو شارب ، له ما للسكيرين جميعاً من نظرة ثقيلة حيرى . ومنذ ذلك الحين عاش موسى على نصيبه من الأرض الموروثة عن أبيه ــ وكان يمكن أن تكون شيئاً ذا بال لولا أنه أهملها ــ ، وشيئاً فشيئاً استحال ذلك الفتى الجميل من فتيان الأسر الكريمة ، ذلك الفتى الجميل الذي كان له

صوت رنّان ، الى هذا المسخ التعيس الهزيل الصامت المتبلّه الذي يجري وراءه الصبيان • ولئن كان يجني من أغانيه شيئاً ، لقد كان ينفق على الشراب كل ما يجنيه ؛ فاذا صوته الشهير الذي ظل سليماً خلال مدة طويلة ، ينطفيء شيئاً بعد شيء ، كما تضمحل صحته ، وكما تذوب البقية الباقية من ثروته •

جاء خادم يحمل الشمعدانات الى الغرفة ، فتراقصت الظلال في أول الأمر ثم جمدت • غطى الليل النوافذ ، وانطفأ صوت المغني السكران ، وانقطعت الكلاب عن العواء • خيّم الصمت • سكت القنصل وسكت مساعده ، فكل منها يتابع خواطره ، ويتمنى في قرارة نفسه لو كان له مخاطَب غير هذا المخاطَب •

وقطع دى فوسيه الصمت ليتكلم عن موسى وأمثاله • فقاطعه دافيل قائلا ان جاره السكّير العربيد هذا ليس استثناءً ، وانما هو نموذج هذا الشعب الذي يتصف بالادمان على الخمرة وبالكسل وبالفظاظة جملةً• ولم يكن رأي الشاب هذا الرأي فقال ان المرء يجد أشباه موسى في جميع البيئات الشعبية ، وان من الخير أن يوجدوا • والناس ينظرون هنا الى هؤلاء المتردّين نظرة اشفاق وألم ، بل انهم ينظرون اليهم نظرةً فيها شيء من ذلك الاحترام الديني الذي كان الاغريق يشعرون به نحو المكان الذي تسقط فيه صاعقة زيئوس ، ولكن هؤلاء المتردّين لا يمثلون سكان البوسنة ، بل ان سكان البوسنة يعدونهم أناساً ضالّين ضائعين • وان وجود هؤلاء المعزولين المتروكين لأهوائهم الشائنة ، وانهيارهم السريع ، يشهدان في مجتمع يقوم على سلطة الأب ، بقوة الروابط ومتانة القوانين التي تحكم المجتمع والدين والأسرة ، وبصرامة هذه القوانين صرامةً لا هوادة فيها • وهذا يصدق على الأتراك صدقه على سائر الطوائف الدينية : كل فرد من الأفراد مرتبط بالجماعة ، والجماعة مرتبطة بالفرد ، والبيت والشارع يراقب البيت والشارع يراقب الشارع،

وكل واحد مسئول عن الجميع والجميع مسئولون عن كل واحد ، والانسان متصل أوثق الاتصال لا بمصير أهله وذويه فحسب ، بل كذلك بمصير جيرانه وأهل ملته وسكان وطنه • ومن هنا قوة هذا المجتمع وكذلك العبودية التي تسوده : فحياة الفرد لا قيام لها بدون هذا البناء ، ومن يخرج على النظام وينفرد بالاتجاه ويتبع هواه فقد انتحر ، ولا بد أن يخسر نفسه عاجلا أو آجلاً • وكذلك كان قانون شعوب « العهد القديم » ، وقانون العالم القديم • لقد كتب ماركوس أوريليوس يقول : « من لم يلتزم نظام الجماعة كان هالكاً » • ولقد شهد ذلك موسى المسكين : ان القانون الذي خرج عليه موسى ، والمجتمع الذي جرحه موسى ، ينتقمان من الجاني •

في هذه المرة كان دافيل يلاحظ الفتى أكثر مما يصغي اليه : « أتراه قرر أن يشرح وأن يسوّغ ، في هذا المساء ، جميعَ مافي هذه البلاد من آفات خطيرة وعيوب شنيعة ؟ لعله وصل من كتابه عن البوسنه الى هذه النقطة ذاتها ، فهو في حاجة الى أن يتحدث في هذا الموضوع اليّ أو الى أي انسان ! وربما كان ذلك من وحي اللحظة الحاضرة أيضا • ومهما يكن من أمر فان الصبا هو الماثل الآن أمام عيني : خفة وطيش ، وثقة بالنفس وصلابة في الاقتناع ، وقوة في عرض الآراء : هذا هو الصبا • »

قال دافيل لصاحبه بصوت عالٍ يختم الحديث :

ــ آمل ياصديقي العزيز أن نقرأ هذا كله في كتابك • أما الآن فلننظر ماذا حلّ بالعشاء !

حتى اذا صاروا الى المائدة دار الحديث على الأعمال وحوادث اليوم، وشاركت فيه مدام دافيل بملاحظات قصيرة ايجابية • وقارنوا بين المطبخ الفرنسي والمطبخ التركي ، واشتكوا من افتقاد التوابل والخضار

والخمور الفرنسية • فلما انقضت بضع دقائق على الساعة الثامنة تثاءبت مدام دافيل في تخفٍ واحتشام ، فكان هذا ايذاناً برفع المائدة ، واشارة الى اللحظة التي تنسحب فيها الى غرفة الأولاد • وبعد ساعة ونصف افترق القنصل والمستشار أيضاً • لقد انتهى النهار • وبدأت حياة الليل في مدينة ترافنك •

• • •

جلس القنصل الى مكتبه وأمامه ملحمته عن « الاسكندر الكبير »• انه يعمل في نظم هذه الملحمة منذ سنين ، عملاً بطيئاً متقطعاً • ولكنه يفكر فيها كل يوم ، مراراً في بعض الأحيان ، استجابةً لنداء احساس من الأحاسيس • سبق أن قلت انه جعل من هذه القصيدة عالما يأوي اليه ، عالماً أفضل من عالم الواقع وأيسر احتمالاً ، عالماً يستطيع أن يسيطر عليه بغير صعوبة ولا مقاومة ، يجد فيه حلاً لكل مافي نفسه وفيما حوله من معضلات لا تُحل ولا يمكن أن تحل ، ويجد فيه سلوى عن كل ما يعاني من مضايقات ، ويستمد منه جزاءً حسناً لا تهبه له الحياة ولا تستطيع أن تهبه له • فكذلك كان دافيل يفر الى هذا « العالم الورقي » مراتٍ في اليوم ، متوكئاً على فكرةٍ في القصيدة توكّؤ الأعرج على عصاه • وكان يتفق له في مرات أخرى ، حين تصل الى مسامعه أنباء عن الحرب ، أو حين يرى مشهداً من المشاهد ، أو حين يكون مكباً على عمله ، أن ينقل هذه الأمور بخياله الى ملحمته ، فاذا بهذه الأحداث حين ترتد ألفي سنةٍ الى وراء تفقد ما فيها من شدة ، ويصبح احتمالها أيسر • ذلك وهم ما في ذلك ريب، ولكن قصيدةً مصقولة الأبيات مرتبة الألفاظ محكمة القوافي وهمٌ أقل غموضاً من الأوهام التي يفرش كثير من الناس عليها حياتهم كلها •

لقد وضع المخطوطة الكبيرة ذات الغلاف الأخضر ، وضعها أمامه بحركة آلية هذا المساء أيضاً . انه منذ وصل الى البوسنة وشُغل بمناقشاته مع الأتراك ، قد تعبت قريحته ، فالصور لا توافيه على ما يحب ، والأبيات لا تتقد الا في عناء ، والقوافي لا تكتمل . لذلك كان في كثير من الأحيان لا يفض غلاف المخطوطة ، وتظل المخطوطة قابعةً تحت « المفكّرات » التي يسجل عليها أعماله اليومية .

وتذكّره هذه الوريقات بما فعله أو قاله أثناء النهار ، فاذا هو في الساعة التي ينبغي أن تكون ساعة راحة ، تتجدد همومه . انه يتذكر الرسائل التي بعث بها في ذلك اليوم الى سبليت والى القسطنطينية والى باريز ، فيرى ما فيها من نقص ومن خطأ ؛ وانه يتذكر الأحاديث التي أجراها ، لا الأحاديث الجادة التي تناولت شئوناً تتصل بالعمل فحسب ، بل كذلك الأحاديث التي لا تعدو أن تكون تبادل كلام ، لا طائل تحته ، ويتخيل محدّثه ويتخيل نفسه أثناء تلك الأحاديث ، فيدرك وجوه النقص والعيب فيما قال ، وخطورة الأمور التي كان ينبغي أن يقولها ولم يقلها . ان العبارات الموزونة القوية التي كان يجب عليه أن ينطق بها بدلاً من الكلام الضعيف الكابي الذي جرى به لسانه ، تخطر الآن بباله ، فيدمدم بها قائلاً لنفسه : فات الأوان .

والشاعر اذا كان في مثل هذه الأحوال النفسية ، لا تطول قصائده، وأكثر من ذلك أن الخواطر المكدِّرة تحرمه من النوم ، أو تحمل اليه الكوابيس .

وفي ذلك المساء سمع القنصلُ مرة أخرى ماقاله دي فوسيه . ما هذا الخطاب الذي ألقاه دي فوسيه ! طريق ذات طبقات ثلاث ترجع عهودها الى قرون خلت ! آثار رومانية ! قره خوجا ، موسى ، الأسرة،

نظام المجتمع في البوسنة ! لا شيء من هذا كله كان يمكن أن يصمد للنقد والتجريح ، ومع ذلك لم يردّ القنصل على هــذا الهراء كله الا بقوله « أرى ٠٠٠٠ أرى ٠٠٠ » كأنــه مفتون عن نفسه غائب عن شعوره ٠ وتساءل القنصل وقد خلا الآن الى نفسه : « ولكن ما الذي رأيتُه حقاً ! » ٠ وأحسّ أنه سخيف مضحك ، وغضب من نفسه لأنــه أولى هذه الأقوال انتباهاً لا تستحقه ٠ما هذا الحديث « الخطير » ومن هو ذلك الشخص الذي أجراه معه ؟ انه لم يجر هذا الحديث مــع الوزير ولا مع فون ميترر ، وانما أجراه مع غرٍ لا قيمة له ، في أمورٍ لا طائل تحتها ! ولم يستطــع دافيل أن يطرد هواجسه ولا أن يقف مجراها ، حتى اذا ظن في لحظة من اللحظات أنه ظفر بذلك نهض عن المنضدة فجأة ، ثم وقف في وسط الغرفة وأخذ يكلم نفسه باسطاً ذراعه : « كان ينبغي له أن يرد فوراً على هذه السخافات ـ فذلك اسمها ـ وكان ينبغي فوراً أن يقف هذا الفتى عند حــدّه ٠ حتى في الأمور اليسيرة الهينة ، يجب على المرء أن يقول رأيه كاملاً بحرية تامة ، أن يقذف به الى الآخرين حتى يعودوا اليه ويفكروا فيه ، فيعانوا في ذات أنفسهم صراعاً وتمزقاً ٠ ليس ينبغي للمرء أن يحتفظ بهواجسه ، يجب عليه أن يقاومها مقاومة العلق الذي يمص الدم ٠ ذلك ما كان ينبغي له أن يفعله ثم لم يفعله ، ولا هو قادر على أن يفعله غداً ولا بعد غدٍ ولا في يوم من الأيام ! لا في أحاديثه مع هذا الفتى ولا في أحاديثه مع أشخاص لهم وزنهم : انه لن يرى الأشياء رؤية واضحة الا في مساء كهذا المساء ، بعد العشاء ، قبل النوم ، حين يكون الأوان قد فات ، وحين تنضخم الكلمــات التي قيلت في النهــار ثم تحاصــر الــذهن لاتبارحه ٠ » ٠

كذلك فكر دافيل ، وكذلك قال وهو يعود الى منضدته الصغيرة قرب النافذة ذات الستائر المسدلة ٠ ولكن أفكاره تطارده ، فما يستطيع

لها طرداً : « حتى هذا الغناء الشنيع ، يجده صاحبنا شائقا • انه قادر على أن يدافع عن هذا أيضاً ! » •

وهزّته رغبة عنيفة مرضية في أن يتكلم وأن يناقش ، فتناول ورقه من الأوراق المخصصة لملحمة « الاسكندر الكبير » ، فخط عليها الأسطر التالية دفعة واحدة :

« سمعت هذا الشعب يغني : ان في غنائه عين الوحشية وعين الحنق اللذين تتميز بهما أفعاله ويتميز بهما تفكيره • منذ مائة عام سمع فرنسي من الفرنسيين غناء أهل البوسنة فدوّن في مذكرات رحلته أن غناءهم يشبه نباح الكلاب • أتراهم صاروا أسوأ من ذلك ؟ اني أرى أن نباح الكلاب أقل فظاظة وشناعة من غناء هؤلاء الناس حين يعصف بهم الحنق أو يستبد بهم السكر • لقد رأيتهم أثناء الغناء وقد استعرت أعينهم وصرّت أسنانهم وأخذوا يضربون الجدران بقبضات أيديهم اما لانهم أسرفوا في الشراب واما لأن حاجة نبعت من أعماق نفوسهم فدفعت بهم الى العواء أو الانتحاب أو تحطيم شيء من الأشياء • وانتهيت من ذلك الى أن غناءهم لا يمت بأي صلة الى الموسيقى أو الغناء كما نسمعهما لدى شعوب أخرى ، وهو لا يعدو أن يكون افراغاً لأهوائهم الخبيثة وشهواتهم الدنيئة التي لا تسمح لهم طبيعتهم بتركها على سجيتها رغم ما هم فيه من استرخاء واستهتار • ولقد تحدثت في هذا الى قنصل النمسا • فرأيت أن الكولونيل فون ميترر ، رغم صلابته العسكرية ، قد أحسّ هو أيضاً بفظاعة هذا الانتحاب وهذا الزعاق الذي يُسمع في نواحي الشوارع وفي الحدائق ليلاً ، كما يُسمع في المقاهي نهاراً • حتى لقد قال لي : « هو صرخة من الماضي السحيق » [1] • ولكنني أحسب

(١) بالالمانية في الاصل •

أن زميلي المحترم قد أخطأ فقدّر البيئة البوسنية فوق قدرها كما يفعل كثير من الناس • في رأيي أن هؤلاء البشر ليسوا الا جنساً متوحشاً فقد حتى سذاجته • »•

امتلأت الورقة الصغيرة حتى كادت لا تتسع في أسفلها للجملة الاخيرة • وتخفف القنصل من همه قليلا لان الالفاظ والتشابيه قد وافته في يسر ، وأصبح أقل تهيبا للمهمة الثقيلة التي تنتظره • انه لايشعر الآن بسوء الهضم المزعج الذي يرافق أرقه • فظل جالسا الى منضدته يفكر في النص الذي أمامه ولا يتحرك • وفيما هو كذلك قرعت مدام دافيل الباب •

لقد استعدت للنوم ، فوجهها يبدو تحت الوشاح الابيض أصغر حجما وأقوى اتقادا • لقد رسمت اشارة الصليب على الاطفال النائمين منذ هنيهة ، ثم بعد أن أحكمت وضع الغطاء عليهم ركعت فتلت الدعاء القديم الذي يُتلى في المساء ، سائلة الربّ أن يهب لها راحة كافية حتى تستطيع في الغد أن تنهض من نومها نشيطة الهمة سليمة الجسم ، « كنهوضها من قبرها يوم الحساب » • ومدت رأسها من شق الباب وهي تحمل بيدها الشمعدان ، فقالت :

ــ يكفيك هذا الليلة يا جان • آن لك أن تنام •

فابتسم لها دافيل ، وأشار بيده يشجعها على أن تأوي الى سريرها لترتاح • وبقي في حجرته وحيدا يحدّق في صحيفة الورق التي أمامه الى أن أصبحت عيناه تريان التماع شرارات ، وأصبحت الاسطر تتداخل أمام بصره وتتشابك وتضطرب وتبهم • كذلك يفعل الليل بالعالم بعد أن كان في النهار واضحا مفهوما •

عندئذ نهض فاقترب من النافذة وأزاح ستارتها الثقيلة ليرى ، من خلال الظلام الكثيف ، ألا يزال ثمة أضواء تسطع في القناق أو في قنصلية النمسا ، لان القناق وقنصلية النمسا هما ، مع حجرته ، كل

ما يبقى من معالم الحياة بمدينة ترافنك في الليل • ولكنه لم ير في المكان الذي كان ينبغي أن يراهما فيه الا صورته وصورة مكتبه قد عكسهما الضباب غامضتين •

لو نظر أحد الناس من خلال هذا الظلام الرطب الى قنصلية فرنسا فرأى النور ما يزال يضيئها ، لما استطاع أ نيتخيل الاشباح التي يحاربها خلال السهرة الطويلة هذا الدبلوماسي الجاد الرصين الذي لا يضيّع أثناء النهار لحظة واحدة في غير الامور الواقعية النافعة ، وفي غير العمل•

• • •

على أن القنصل لم يكن الساهرَ الوحيد في هذه الدار الكبيرة • ففي الطابق الاول ، فوقه تماما ، كان هنالك ثلاث نوافذ ذات ستائر بوسنية ، ما تزال مضاءة : انها نوافذ الحجرة التي كان فيها دي فوسيه جالسا أمام أوراقه • لا شك في أن الفتى كان يؤثر أن تكون ليلته أحفل بالمتعة ، لكنه على الاقل لم يكن يجتر الاحاديث التي دارت أثناء النهار• ان المجادلة التي قامت بينه وبين القنصل قد نُسيت بعد خمس دقائق • وليس التعب هو الذي يكدّره ، لا ولا هو همّ الغد أو هياج الاعصاب• لكن القلق ممسك بخناقه ، وشهوات الشباب ترهقة من أمره عسرا •

ففي ظلام الحجرة الواسعة تتراءى له صور نساء ، نساءٍ هن أكثر من ذكريات ، نساءٍ حقيقيات • ان بياضَ بشرتهن وتألق ابتسامتهن يصلان اليه من خلال الظلمة الحالكة كصرخة تشق الصمت • وفي الوقت نفسه تعود اليه مشاريع الشباب الكبرى ، المشاريع التي أتى بها من باريز والتي ستنتزعه في المستقبل من ترافنك ، من هذه المدينة التي غاص فيها موقتاً ، لينتقل الى سفارة من السفارات ، أو الى باريس الصالونات ، وهما ما يشتهي •

هكذا كان خياله في كل مساء يعبث بحواسه وطموحه ليتركه أخيراً

الى هدوء البوسنة الخانق • ان هـذا الصمت يهـدّه ويأتي على قوة أعصابه • هو في النهـار يستطيع أن يغلب هـذا السكون ، أن يملأه بالعمل أو الحديث أو التجول ، أما في الليـل فما أصعب انتصاره على الخدر الناشيء عن هذا الهدوء الذي يغشى كل شيء ، ويحيل الاحياء أشباهَ أموات •

ان هـذا الدبلوماسي الشاب ، منذ رأيناه بعد ترك سبليت يلتفت الى وراء من على جبل كليس مودّعا البحر البعيد والاراضي المزروعة ، قد عانى الخدر البوسني ، وما انفك يقاومه منذ ذلك الحين • انه يجده في كل مكان : المنـازل تطل على الأفنية هربا من ضجيج الشـارع ؛ والرجال والنساء ، الملتفون بملابسهم ، ان كانت نظراتهم بليغة ، فان أفواههم موصدة ، حتى اذا قرروا أن يتكلموا كان الصمت في كلماتهم أكثر من الكلام ؛ ان الصوت والمعنى في حديثهم يكشف في كل جملة عن الصمت الـذي يتسلل بين الكلمات ، ويتسلل في كـل كلمة بين الاحرف ، كماءٍ يتسرب في بناء متشقق • وأحرف المدّ التي ليس لهـا لون معيّن ولا حـد واضح تجعل من كلام الاطفال ضرباً من ترخيم يتلاشى ويضمحل • والغناء الذي يصّاعد أحيـاناً من طريق أو بستان ليس الا آهةً تنبثق من العدم فجأة ثم في العدم تغور ، فاللحن يرتفع ويهبط مستغنياً عن تلك التنويعات التي تتميز بها الموسيقى الاوروبية بدءاً وخاتمة ، بل التي هي قوام الموسيقى فيأسماع الأوروبيين • وحتى الجانب الضئيل من الحياة ، الذي لا يمكن اخفاؤه ولا السكوت عنه ، والذي يظهر الى النور ـ كشيء من ترف ، كومضة من جمال تخاطب الحواس ـ ما يلبث أن يعتصم بالظـلام والصمت ، كشبح فاجأته في الشارع عينُ أحد المارة فأسرع يلوذ بأول باب مفتوح واضعاً اصبعه على فمه • كل شيء يهرب من الضوضاء والنور ، كأنه يخشى النطق بكلمة ، ويتقي أن ينادى باسمه •

ان منظر هؤلاء الرجال أو النسوة ، المتدثرين بملابسهم في تزمت ، الخرسَ البكم ، النادرة حركاتهم ، كان يحث الفتى على استكناه حياتهم الواقعية التي بلغت من الانضغاط أنها لا تظهر الىالخارج الا انفجاراتٍ نادرة قصـيرة مفاجئة لكنها عنيفة ؛ تُرى ما ميولهم ، ما معتقداتهم ، ما ضروب الكره والحب التي تملأ نفوسهم ؟ كيف تنقضي حياتهم من الولادة الى الممـات ؟ ولكن أفكاره تظل تعز على التركيز والتثبيت ، وتتبخر في هـذا الجو من الصمت المطبق . ويُذعر صاحبنا ، ويحس بفكره ودمه يجمدان .

الليـالي ثقيلة . صحيح ان طلقة نار تفرقع في بعض الاحيـان ، وصحيح ان كلباً ينبح على عابر سبيل أو على حلم من أحلامه بين الفينة والفينة . ولكن هـذه الاصوات لا تزيد على أن تعمّق الصمت الذي يطبق عليه اطباقه على ماء عميق . ثم ان هـذا الهدوء المطلق يحرمك من النوم حتماً ، مثلما تجعلك القرقعة المفاجئة متأهباً للدفاع عن نفسك. وفي كل ليلة كان الفتى ، القـابع في حجرته على شُعل الشموع التي تذوب بسرعة ، يتخيل « الصمت » محدِّثاً اياه بكلام كهـذا الكلام : « لن تبقى رشيقاً هذه الرشاقة زمناً طويلا . قريبا لن تقوى على النظر الى أمام ، ولن تسطع ابتسامتك ، ولن ينطلق فكرك حـرا ولن يتدفق كلامُك مدويا صريحا . لن تستطيع أن تظل هنا ما أنت : سوف أحني ظهرك وأخفض بصرك . سوف يرتد دمك الى قلبك.لأجعلنك نبتةً مرةً تهب عليها ريح صحراء محصبة . مرآتك الفرنسية سوف تنكرك ولا تعرفك ، كما لن تعرفك نظرات أمِّك . » .

والصمت لا يقول له هذا الكلام فظا خشنا ، لكن الكلام ينفذ اليه في رفق لا يستطيع له دفعا .

انه ليشعر منذ الآن بهذا التأثير البطيء الذي يُذلّه كمـا تُذلُّ

زوجةُ الاب ابنَ زوجها . انه يحس منذ الآن بأن هذا الصمت موت يترك للكائنات مظهر الحياة ، لكنه يجردهم من كل قدرة على أن يحيوا حقا ، كما تفعل القوقعة .

على ان الدبلوماسي الفتى ما كان له أن يستسلم بغير مقاومة أو أن يموت بغير دفاع . فلا عِرقه ولا سنه ولا تربيته تأذن بهذا . انَ شبابه وعافيته يحاربان فيه ما يحيط به من خـدر وخمول . واذا خارت قواه وخار عقله في الليل أحيانا ، فان الصباح ليرد اليه شدة البأس : الشمس والماء يعيدانه الى الحياة ، وحب الاطلاع والعمل يشدان أزره .

لقـد استطاع الفتى في ذلك المساء أن يشحذ ذهنه فيحرّر أفكاره من ثقل الصمت والضجر وأن يصبهـا على أشياء مرئية ملموسة ، على الواقع اليومي ، فرتّب وأكمل تدوين ملاحظات النهار . ان كتابه عن البوسنة ، وهو كتاب يستند الى الملاحظة الواقعية الدقيقة وحـدها ، ما ينفك يكبر على مهل . كل شيء فيه تدعمه براهين ، وتعبر عنه أرقام ، وتوضّحه أمثلة . الصفحات تتراكم بعضها فوق بعض بينة واضحة ، بلا حرصٍ على بلاغة أو تنميق لأسلوب أو ايراد لأفكار عامة . ان هذه الصفحات التي لا تزيد على أن تكون تسجيلا بسيطا باردا لأمور واقعية تحمي دي فوسيه من الانحلال في هذا الصمت الشرقي المخادع ، في هذا الضباب الذي يلفع جميع الاشياء ، ويهب لها معنى مزدوجا ثم يهب لها معنى متعددا ، ثم يجردها من كل معنى ، فيترك المرءَ أعمى أخرس ، منفصلا عن العالم ، مدفونا وهو حي .

ولكنه بعد أن فرغ من النسخ والترتيب وجد نفسه مرة أخرى أمام صمت الموت . وها نحن أولاء نراه في هذه الساعة من الليل جالسا هو أيضا الى مكتبه ، وقد وضع يديه على أوراقه ، وشرد ذهنه مع خواطره ، بينما أخـذت عيناه من فرط التحديق في الاضابير ترى فيهـا التماع

شرارات ، وبينما أخذت أحرف خطه ترتجف وتتحرك .

ترا ... فنك ، ترا ... فنك . وجعل يردد هذه الكلمة بصوت خافت ، كما يردد المرءُ اسمَ شر عجيب ، أو كما يردد تعويذة مخافة أن ينساها ، فكلما أوغل في ترديد كلمة ترافنك ازدادت غرابة وقعها في أذنيه فأصبح اللفظ عبارة من عبارات السحر ، لا تسمية عادية لبلد في الريف . لم تبق ترافنك هي ترافنك ، وانما غدت باريس أو القدس ، غدت مركز العالم ، مركز الحياة .

ان الانسان يحلم أثناء شبابه بالمدن الكبرى وساحات القتال الشهيرة ، أما معاركه الحاسمة ، معاركه التي تحدد شخصيته وتعين مصيره ، فانه يخوضها حيث رماه الحظ ، حيث ألقته المقادير ، في مكان لا يعلمه الا الله ، مكان ضيق غامض ، لا اسم له ولا جمال ، والقتال فيه لا شاهدَ عليه ولا حكم .

ودنا الفتى ، هو أيضا ، من النافذة ، فأزاح ستارتها ، ونظر الى الليل الكثيف لا يدري عمَّ يبحث .

. . .

كان ذلك الليل المنسوج من ثلج ومطر لا يدع للعين أن تبصر أي شعاع في قنصلية النمسا . ومع ذلك كان ثمة شعل تسطع فيها فتضيء أشخاصا آخرين غارقين بين أوراقهم وفي أفكارهم .

ها هو ذا فون ميترر جالس الى مكتبه في حجرته المزعجة الطويلة التي لا يدخلها هواء ولا تدخلها شمس ولا تطل الا على بستان في المنحدر . انه جالس هذه الجلسة منذ ساعات وقد تغطى مكتبه بمخططات وكتب عسكرية . لقد انطفأت مدفأته منذ زمن ، كما انطفأ الغليون الكبير الذي وضعه على منضدته ؛ فدفء الغرفة يتبدد ويحل محله

البرد ، ولكن القنصل يسدل على كتفيه معطفه العسكري ، ويستمر يسوّد صفحة بعد صفحة من صفحات ورقه الاصفر دون أن يعرف التعب اليه سبيلا ، فاذا أتم صفحة دفّأ يديه على شعلة شمعة ، ثم صقل الصفحة الجديدة براحة كفه ، واستأنف الكتابة بخطه العريض المنتظم الذي يكتب بمثله جميعُ ضباط الجيش الامبراطوري الملكي .

في ذلك المساء ، على مائدة العشاء ، استأنفت مدام فون ميترر تمثيل الفصل الذي طالما مثلته مرارا ، فأخذت تتوسل الى زوجها أن يكتب الى فيينا طالبا سحبه من هذه البلاد المتوحشة ، وعززت ذلك بسيول من الدموع وضروب من التهديد . حاول الكولونيل أن يبرهن لها ، كما يفعل كلّ مساء ، على أن هذا الطلب ليس سهلا بسيطا الى الدرجة التي تتخيلها ، وان الفرار من المصاعب يعني انتهاء عمله ... على نحو لا يشرّف . ولكن آن ماري لا تريد أن تسمع أية حجة ، فهي تكيل لزوجها المسكين ألوان التقريع ، وتهدده بانتزاع « طفلتها » هاربة من ترافنك ومن البوسنة ومنه أيضا . ولم يسع القنصلَ أخيرا الا أن يعدها بكتابة طلب الاستدعاء في هذا المساء نفسه ، تهدئة لها ، كما سبق أن وعدها بذلك مرات كثيرة . ولكنه ، كالمرات السابقة الكثيرة ، لم يف بوعده ، لأنه لا يستطيع أن يقدم على أمر كهذا الامر ، فما لبث أن ترك زوجه وبنته في قاعة الطعام ، ومضى الى حجرة مكتبه بعد أن أشعل غليونه ، لا ليكتب الطلب المنتظر ، بل ليتابع العمل الذي يهمه ويملأ سهراته .

هي الليلة العاشرة من الليالي التي وقفها فون ميترر على كتابة التقرير الكبير الذي يزمع ارساله الى سلطات فيينا ، وهو وصف لضواحي ترافنك من وجهة النظر العسكرية . لقد عرض في المقدمة كامل خطته ، وذلك عمل ضخم ، ولكن فون ميترر انما شرع فيه « ليتخلص بعض التخلص من سأم السهرات الطويلة في ترافنك » .

ووصل من كتابة التقرير الى تحديد الوضع الرابع عشر الذي يمكن أن يتخذه جيش يريد أن يقطع وادي نهر لاشفا متجها الى ترافنك في حالة اصرارها على المقاومة •

الليل يمضي وفون ميترر يكتب بلا توقف : وصف قلعة ترافنك بأدق تفاصيلها ، ذاكرا أصولها ، ورأيَ الخبراء فيها ؛ وسمك جدرانها ، ومئونتها من الذخيرة ، وحظها من امكان امدادها بالطعام والماء • القلم يصرّ ، والشموع تطقطق ، والاسطر تمتد كتابةً منتظمة تتضمن أرقاما ومعلومات ، والصحائف يتكدس بعضها فوق بعض حتى لتصير كتابا •

ان فون ميترر يعيش ، في مكانه هذا المفضَّل ، أجملَ أيام حياته • وانه ليشعر ، أمام أوراقه هـذه التي يحسن ملأها والتي تنيرها أضواء الشموع ، وفي هذا الجو الذي يكتنفه الصمت ، بأنه هو أيضا في قلعة منيعة ، وبأنه هنا في منجى من سوء التفاهم ولبْس المعاني ، وبأنه ازاء واجب واضح المعالم بيِّن الحدود • ان كل شيء يربطه بالجيش الامبراطوري الملكي ، من خطه وأسلوبه الى أفكاره التي يعبر عنها ، كل شيء يشده الى هذا الجيش ، الى هذه المؤسسة الدائمة الباقية ، المتينة الراسخة ، التي يستطيع أن يتكيء عليها مطمئنا ، وأن يُغرق فيها ما يستبد به من هموم وما يساوره من ضروب التردد • هو يعرف ههنا أنه ليس وحيـدا ، ففوقه طبقات من الرؤساء ، ووراءه صنوف من المرؤوسين • هو ههنا محمول مدعوم مشدود الازر • كل شيء في هذا الجسم الذي تسري فيه وتشد بعضه الى بعض قواعدُ ثابتة من تقاليد وعادات ، كل شيء في هذا الجسم مقدَّر وطيد مكين ، ثابت على مدى من الزمن لا يُعرف له آخر •

من ذا الذي ينعم ، في هذا الليل وهذا المكان اللذين لا يهرب منهما المرء الى غير أمانيه ، من ذا الذي ينعم ههنا بسعادة أكمل من السعادة

التي ينعم بها فون ميترر ، ومن ذا الذي يملك ههنا قدرة على النسيان أكمل من القدرة التي يملكها فون ميترر ؟ سطرا بعد سطر ، وصفحة بعد صفحة ، يسير فون ميترر قدُماً في كتابة تقريره الذي سيذيّله بتوقيع سريع على عادة كبار القادة ، ويضعه في غلاف جديد ثم لا يراه أحد يوما ولا يقرأه أحد ، وانما يمضي ينام تحت غبار الاضابير ، ما بقي العالم وما بقي في العالم أضابير وقراطيس . هو يكتب ، والليل يمضي، ومعطفه الثقيل يظل دافئا ، وفكره مشدود الى هذا العمل الذي تنقضي فيه الساعات زاخرة بشعور القيام بالواجب ، مفعمة بالاحساس الجميل بتعب لذيذ يغزو صاحبه هو والنعاس في آن واحد ؛ يكتب من غير كلال ولا ملال . وتتراءى له بين أسطره المرصوصة أسطر أخرى . تتراءى له صفوف وصفوف من الجنود ، يتتابعون الى غير نهاية في زيهم العسكري الزاهي ؛ ويمضي في الكتابة على شعور بالعظمة والهدوء كأن الجيش النمسوي كله يشخص اليه ببصره ، وكأن قائده الاعلى يتابعه بنظراته ، فاذا توقف عن الكتابة لم يغره أن يعيد قراءة ما كتب ، وانما هو يغرق في تأمل عميق ينسيه ليل ترافنك وينسيه أهله ونفسه .

ولكن هذا الغفو الهادىء الهنيء لا بد أن ينقطع . ها هي ذي خطوات صغيرة قاسية تطرق أرض الدهليز الطويل ، وها هي ذي أبواب تُفتح فجأة ، وهاهي ذي مدام فون ميترر تظهر في حجرة المكتب. ويضطرب صاحبنا فون ميترر من العاصفة التي تهب فياضة بسيل الالفاظ الحانقة المتلاحقة تصبها آن ماري عند عتبة الباب ، ومن الضوضاء التي تحدثها بنعليها وهي تضرب بهما الارض . لقد أخذ فون ميترر ينهض منذ سمع وقع خطواتها في الدهليز ، حتى اذا صارت قرب منضدته كان قد وقف وقفة التهيؤ . تبدد الجو السعيد . ففقد عمله كل قيمته وكل معناه ، والتقرير أصبح كومة من ورق لا طائل تحتها ، والجيش الامبراطوري تبخر سحابة دكناء . وعاد فون ميترر يشعر بأوجاع

الكبد وخزا في جنبه بعد أن نسيها •

آن ماري منتصبة أمامه ترشقه بنظرات مسعورة مضطربة كاضطراب وجهها كله ، الحاجبين والشفتين والذقن • والاحمـرار يصبغ وجهها ويحرق حلقها • وثوبها المصنوع من صوف أبيض ، المشدود على خصرها بزنار تركي أحمر ، ينشق عن صدرها • وعلى كتفيها شال خفيف من كشمير ناصع ، عقد بقرط من الجمست والذهب • وعصبة الحرير التي تعصب شعرها تتخللها دبابيس تناثرت على رأسها في فوضى حلوة •

ـ جوزيف ، أرجوك ، أناشدك الله !

هذه هي البداية دائما ••• تمهيدا للانفجار المسعور ، لرقص النعلين في حنق ، للكلام الهاجر بلا ترابط ولا منطق ، للاقوال التي لا تستند الى أسـاس ، للدموع بغير سبب ، للخصام يبدأ ولا ينتهي • ويظل الكولونيل واقفا ، ساكنا لا يتحرك ، صامتا لا ينطق ، كمن ضبط في اثم : ذلك انه يعلم حق العلم أن اية حركة أو أية كلمة يمكن أن تولد انفجارا ، أو أن تفاقم الانفجار •

ـ جوزيف ، أرجوك ، أناشدك الله !

كذلك رددت منتحبة •

وما هي الا حركة ضعيفة للتهدئة همّ بها الكولونيل ، فاذا بالصاعقة تنصب عليه ، وعلى أوراقه ، وعلى الاثاث ، من خلال الهواء البارد الذي أفسد الغليون المنطفيء رائحته • الكمّان العريضان يتطايران ، فيهزان شعل الشموع ، ويكشفان حتى الكتفين عن الذراعين البيضاوين اللذين يسطعان في الظل • الشال الخفيف يكشف عن النحر • وعلى الجبين تضطرب خصـل الشعر الهاربة من تحت العصبة ، تضطرب كأن تيار كهرباء قد سرى فيها •

سيل من الكلام يخرج من بين شفتيها ، فتارة يكون حـادا وتارة يخنقه الشهيق . والكولونيل لا يكلف نفسه عناء سماع هذا الكلام ، فما أكثر ما سمع قبل الآن هذه الآلاف من الالفاظ التي لا يمكن أن يصدها أحد ، والتي تنساها آن ماري هي نفسها الى أن يحين موعد النوبة التالية . انه ينتظر اللحظة التي تتعب فيهـا مؤذنة بالاوبة الى الهدوء ونهاية الفصل .

أما الآن فهي في أوج النوبة .

صرخت تقول :

ـ اعلم انك في هـذا المساء أيضا لم تكتب طلب النقل رغم أنني سألتك أن تفعل ذلك للمرة الخامسة عشرة حين كنا على المائدة . لذلك جئت الآن أراك ، جئت أرى الانسان الشيطان الذي يفوق أي مجرم من المجرمين برودةَ دم ، ويفوق الاتراك قساوةَ قلب ، فاذا أنت جالس جلسة هادئة ، قرب غليونك العفن ، تكتب ترهاتك التي لن يقرأها أحد ـ وهذا أحسن ـ لا لشيء غير ارضاء طمعك الارعن ! ما أنت الا رجل عاجز ... رجل لا يعرف كيف يحمي ولا كيف يصون أسرته وامرأته وطفلته ... بينا تفنى وتهلك وتموت و ...

ثم انفجر باقي كلامها شهقات بحاء ، بينما كانت القبضتان الصغيرتان تجدان من القوة المدهشة ما يكفي لضرب المنضدة وبعثرة الاوراق .

همَّ الكولونيل أن يضع يده على كتفها في رفق ، ولكن الحين لم يحن بعد ، فالسحابة لم تتبدد . قالت له :

ـ دعني يا سجّان ! يا وحشا لا روح له ولا ضمـير ! دعنـي ! دعنـي !

وانطلقت موجة جديدة من الكلمات ، ثم تدفق سيل جديد من دموع

سخية ، ثم أخذ الصوت يرتجف • ان الهـدوء يعود شيئا بعد شيء • وسمحت لزوجهـا أن يمسك كتفيها وأن يقودها الى المقعد فتهالكت عليه وهي تتنهد في عنف :

ــ أرجوك يا جوزيف ، أناشدك الله •••

هذه نهاية النوبة • انها تستطيع الآن أن تصغي الى شروح زوجها دون أن تجادله فيهـا • ووعدها الكولونيل ، وهو يلاعب شعرها ، أن يكتب الطلب فورا بلا تردد ، وأن يجعل لهجته قوية حازمة ، وأن ينسخه غدا ويرسله توا • وقال لها كلمات رقيقة ، وجدّد لهـا وعوده • فانما المهم أن لا تعاودها النوبة • ولكنها الآن حـزن وضعف وتعب ووهن وخدر ، لا أكثر • وانقادت له فمضى بهـا الى غرفتها ، وأرقدها على سريرها ، وجفف دموعها الاخيرة ، وألقى عليها غطاءها ، وراح يلاطفها بألفاظ حلوة •

ورجع فون ميترر الى مكتبه فأعاد الشعلة الى مكانها على المنضدة• وشعر بقشعريرة تسري في جسمه ، وأحس بألم شديد في جنبه الايمن تحت الاضلاع • ان أقسى لحظة عنده هي لحظة الهدنة هذه ، حين تهدأ امرأته أخيرا فيخلو الى نفسه ويفكر في أمره ، فيدرك على حزن ومرارة أنه لا يستطيع الاستمرار في الحياة على هذه الصورة • وألقى معطفه الثقيل على كتفيه من جديد ، بعد أن أصبح باردا كأنه معطف شخص آخر • وجلس الى مكتبه ، فتناول ورقة ، وكتب في هذه المرة الطلب الذي تريده امرأته •

عاد يكتب في ضوء الشموع التي تستطيل فتائلها وينسى أن يقصها • فذكر أحوال عمله ، وأكد أنه ما يزال مستعدا لأن يقف نفسه كلها على القيام بواجبه ، ولكنه يضرع أن يُنقل الى مكان آخر ، وأدلى بالحجج التي يسوّغ بهـا طلبه ، مبرهنا على أن الحياة والعمل بمدينة ترافنك

لا يستطيعها في الاحوال الحاضرة الا موظف عازب لا أسرة له • مرة أخرى أخذت الاحرف والكلمات تصطف متلاحقة متتابعة ، لكنها الآن باردة كحلقات سلسلة • لم يبق شيء مما كان يهز صاحبنا الدبلوماسي منذ هنيهة ، لا الشعور بقوته ، ولا الاحساس بأنه جزء من جسم قوي متين حي • انه يكتب ، ولكنه يحس أن ضعفه قد حطّمه • ويمينا انه ليشعر بالعار من خضوعه لهذا الضغط الذي لا يُقاوم ، ولكن ما من أحد يعرف قوة هذا الضغط مثلما يعرفه •

تمت كتابة الطلب ، وقرر الكولونيل أن يرسله في الغد • وها هو ذا يقرؤه كمن يقرأ حكما باعدامه ، ثم يشرد ذهنه تاركا هذا النص المتباكي عائدا الى الماضي • فيرى نفسه ملازما شاحب الوجه أسمر اللون ، مليئا بالخبرة منذ ذلك الحين ، جالسا أمام حلاق الفيلق الذي يقصّ ضفيرته الجميلة ويحلق شعر رأسه حتى الجلد ، ليحيله فتىً من الصرب ، ثم يرى نفسه مطوّفا في أرجاء المدن التركية أو السلافية ، نازلا بالاديرة ، قاطعا البراري ، متحملا المشقات ، متعرضا للمخاطر ، ثم عائدا الى زيمون ، حيث يستقبله رفاقه بالتحايا الفرحة كما يستقبله رؤساؤه بالتهاني الحارّة • ويرى تلك الليلة الظلماء الماطرة التي عبر فيها نهر الساف خفيةً على مركب صغير مع اثنين من الجنود ، ثم مضى حتى وصل الى مدخل كاليمجوان [1] ليستلم من أحد جواسيسه انطباعا على الشمع لجميع مفاتيح سور بلجراد ، ثم يرى اللحظة التي ألقى فيها بالصرّة الثمينة الى قائده وهو يرتعش من شدة التعب ووطأة الحمى ، سعيدا مع ذلك فخورا • ويرى نفسه في العربة التي تعيده الى فيينا حاملا الرسالة التي يشيد فيها قائده بمزاياه ، ويصفه بأنه ضابط شاب واعٍ جسور سعيد بعمله • ويرى نفسه •••

---

(١) حديقة بلجراد في القلعة الرومانية القديمة فوق ملتقى السافا والدانوب .

،

وفجأة يهب الكولونيل واقفا مذعورا : لقد سمع ضجة في الدهليز ، أتراها وقعَ أقدام امرأته العصبية ؟ لا ، لقد أخطأ الظن . ولكن الذكريات تبددت فورا ، وأمام نظرته التعبة ، كانت ترقد أسطرُ التقرير الذي عمل في كتابته مختلطةً ميتة . أين فرّ الضابط الشاب الساعي الى فيينا ؟ أين حرية الشباب ؟ أين جرأته ؟

ووثب فوق ميترر كمن ينشد السلامة ، فهرع الى النافذة ، وأزاح الستائر الخضر قليلا ، فلم ير الا ستارة من صقيع تمتد على مسافة اصبعين منه ، هي ستارة الليل المليء بالضباب . وظل واقفا وقفة من حُكم بالاعدام ، لا يجرؤ أن يعود الى الاسطر السود من الرسالة المشئومة .

لم يكن يتنبأ ولا كان في وسعه أن يتنبأ بعدد الليالي وعدد فصول الخريف وفصول الشتاء التي سيقضيها في هذا المكان نفسه ، بين جدار الليل ومنضدة الكتابة ، على انتظار وصول الجواب بتلبية طلبه ونجاح مسعاه . ان الرسالة التي تتضمن طلب النقل ، والتقريرَ الذي يصف استحكامات ترافنك ، سيصلان الى « مصلحة المخابرات والادارة القنصلية » بفيينا في آن واحد ، ثم يسلك كل منهما طريقه ، فأما التقرير فيذهب الى « الارشيف » ، وأما الطلب فيحوّل الى الجهة المختصة .

والجهة المختصة هي أحد الكتاب أولا ، ثم رئيس الدائرة بعد ذلك ، وهو رجل أشيب الشعر معتكر المزاج . سوف يقرأ الرئيس هذا الطلب في صباح يوم من أيام الشتاء ، في حجرة مدفأة تطل على منظر كنيسة جميلة ، فاذا هو يبتسم ساخرا ، ويضع خطا تحت العبارة التي يطلب فيها فون ميترر أن يحل محله « شخص عازب » [1] ، ثم يكتب في

---

(١) بالألمانية في الاصل .

حاشية الطلب هذه الجملة : « على هذا الموظف أن يصبر » .

و « رئيس الدائرة »[1] امرؤ عازب يعيش حياة هادئة منظمة ، يحب الفن ، ويهوى الموسيقى ، وينعم بمتع فيينا ، فأنىّ له أن يتخيل ، من على برجه ، المصاعبَ التي يعانيها القنصل ، وأنى له أن يتصور ماعسى أن تكون مدينة ترافنك وماعسى أن تكون آن ماري ، أنى له أن يتخيل حاجات الآخرين ومتاعبهم !

(١) بالالمانية في الاصل .

الفصل الثامن

كان عام ١٨٠٨ مليئا بالبشائر ، أو هذا ما كانت تؤكده لدافيل نبوءات شتى • ولكن ما من نبوءة من هذه النبوءات الخداعة تحققت •

فما ان أطلت مطالع العام حتى تلقى القنصل أقسى ضربة تلقاها طوال مدة عمله العقيم في البوسنة ، وهي ضربة لم تكن في ظنه أو حسبانه يوما من الايام ، فما من شيء كان يتيح له أن يتنبأ بالخبر الذي نقله اليه دافنا ، وهو أن محمد باشا وزير ترافنك قد نُقل من منصبه • والنبأ لم يصل رسميا بعد ، لكن الوزير أخذ يُعد سفر أمتعته وحاشيته منذ الآن •

قال دافنا في تعليل ذلك ان الوزير يؤثر أن لا ينتظر بمدينة ترافنك وصولَ الامر الاداري بنقله ، وانما يغادر المدينة متعللا بعذر مناسب ، ثم لا يعود اليها ، ذلك أنه يعلم حق العلم ماذا يحدث في مدينة تركية يومَ يعرف الناس نبأ نقل موظف كبير • انه يتصور حاملَ القرار الرسمي منذ الآن ، وهو ساعٍ فظ غليظ يتقاضى أجرا سخيا ، ويحب مثل هذه الانباء لانه يعيش منها • ويتصور منذ الآن شماتة أهل السوق وفرحة سكان المدينة • انه يرى الساعي وهو يدخل بحصانه المدينة عدوا على حين فجأة ، ويأخذ يقرع سوطه ويعلن اسم الوزير القديم واسم الوزير الجديد بأعلى صوته :

— معزول محمد باشا معزول ! الوزير سليمان باشا الوزير ! (١)

---

(١) بالعربية في الاصل .

والجمهور يتجمع حوله ، وينظر اليه معجبا به مستطلعا أخباره • ثم تغلي عواطفه ويفرح ويتحمس ويغضب ، فهو في أكثر الاحيان يشتم الموظف الراحل ويمجد الموظف القادم •

هكذا يُرمى اسم الباشا المعزول لجموع الرعاع ، كما تُرمى جثة للكلاب الجائعة ، فتستطيع أن تحقّره وتلطخه بلا خوف ، وتستطيع أن تزهو بنفسها وتظهر بسالتها بغير ثمن • الناس الصغار الذين كانوا قبل ذلك لا يجرؤون أن يرفعوا رءوسهم حين يمر الوزير بهم في المدينة ، الناس الهينون الذين كان الوزير لا يشعر بوجودهم أصلاً ولا أساء اليهم يوماً ، يمثلون عندئذ دور المنتصرين الظافرين ، وينبحون عليه • هذا طالب فاشل أو تاجر مفلس يجأر قائلا ان الوزير قد انتهى أمره ، كأنه هو الذي اسقطه في معركة شبت بينه وبينه : « لان أشهد هذه الساعة خير عندي من أن أملك نصف البوسنة » • ان محمد باشا يعرف هذه الحقيقة : يعرف أن الصغار في كل مكان وزمان يدوسون بأرجلهم صرعى الحرب الذين أسقطهم الكبار ، فمن الطبيعي أن يحاول تفادي هذه المواقف •

ما ان علم دافيل بالنبأ حتى طلب مقابلة الوزير • فاعترف له الوزير سرا بأنه سيغادر ترافنك فعلا ، بحجة الاشراف على الاستعدادات القائمة من أجل الهجوم الذي سيُشن في الربيع ضد الصربيين ، وبأنه لن يعود • لقد أبلغه اصدقاؤه بالقسطنطينية أن الفوضى ضاربة أطنابها هناك ، وأن الفئات والشخصيات التي صرعت السلطان سليم في الشهر الماضي تتصارع الآن خفية ، لكنها مُجمعة على أن تحارب وتضطهد جميع أولئك الذين كانوا منذ شهر يناصرون اصلاحات الملك المخلوع ومشاريعه • لذلك فان الشكايات التي رفعها بكوات البوسنة ضده ، واتهمته بأنه صديق فرنسا ورجل السلطان سليم ، سرعان ما لقيت آذانا صاغية • فهو يعرف أنه سيسقط ، لكنه يأمل من أصدقائه أن يجنبوه

النفي وأن يسعوا الى تعيينه لولاية أخرى بعيدة عن القسطنطينية • وكيف كان الامر فقد قرر أن يغادر ترافنك في صمت ، وأن لا ينتظر وصول القرار المشئوم ، حتى لا يتيح لخصومه البوسنيين أن يشتموا به وأن ينتقموا منه • وربما عرف أثناء الطريق ، في سينيستا أو بريبوليه [1] ، نبأ تعيينه للوظيفة الجديدة •

أسرّ محمد باشا الى دافيل بهذا كله على الطريقة الشرقية ، بلهجة متنوعة النبرات رجراجة الحدود ، لهجة لا تستبعد الشك أو احتمال التغيير أو امكان المفاجأة حتى في الكلام على أمور مقررة حاسمة • وكانت الابتسامة لا تفارق وجه الوزير أثناء ذلك ، بل كانت الشفتان بين اللحية السوداء الانيقة والشاربين الفاحمين المفتولين تكشفان من حين الى حين عن صف من الاسنان البيضاء المرصوصة يضيء بريقها قسمات وجهه •

والحق أن الوزير لم يكن يشتهي أن يبتسم • لا ولا القنصل •

كان دافيل ينظر الى الوزير ، ويصغي الى الترجمان ، فيهز رأسه أدباً ، دون أن يظهر عواطفه • ان أقوال الوزير تصعقه صعقاً ، والاوجاع التي يحسها تشنجا أليما في أحشائه كلما ذهب الى الوزير أو تحدث مع الاتراك تشقه الآن نصفين ، وتعقل لسانه وتشل فكره • ان رحيل الوزير يبدو له مصيبةً تنزل بشخصه واخفاقا تمنى به حكومته ، في آن واحد • وكان ، وهو يسمع الوزير متحدثا من سفره بهدوء مصنوع ، يحسّ أنه مضلّل مخدوع لا يفهمه أحد ولا يتجاوب معه أحد في هذه البلاد الصقعة بين هؤلاء الناس الماكرين الخبثاء الذين لا يمكن النفاذ الى سرائرهم ، فما يعرف أحد يوما تفكيرهم أو شعورهم ، هؤلاء الناس الذين قد يعني السفر في حديثهم

(١) مدينتان من مدن الهرسك .

بقاءً وقد يعني البقاء في كلامهم سفراً ، هؤلاء الناس الذين ليست ابتسامتهم ابتسامة ، ولا نعَمهم نعما ، ولا لاؤهم لاءً على وجه الدقة والتحديد .

واستطاع مع ذلك أن يركّب بضع عبارات فقال للوزير انه يأسف لسفره أشد الاسف ، وانه يرجو أن تجري أموره على ما يحب . وأكد له صداقته التي لا تتزعزع ، كما أكد له أن حكومته تكنُّ له أجمل العاطفة . ثم غادر القناق وهو يشعر بأن المستقبل كله أصبح ظلمات فوقها ظلمات . وفيما هو في تلك الحالة النفسية الحزينة رجعت الى ذهنه على حين فجأة ذكرى كابيدباشا التي لم يستطع أن ينساها قبل ذلك الا في كثير من العناء : ان ميتة ذلك الانسان الشقي ، التي لم تهزَّ ضمير أحد في أول الامر ، أخذت تهزه لحظةَ ظهر أنها لم تكن ذات جدوى .

بعد ذلك بقليل هرّب الوزير أمتعته الهامة على مهل ، ثم غادر ترافنك مع مماليكه ، فأصبح في منجى من همسات الفرح والشماتة والانتقام التي تسعى بين الاتراك .

ولم يعرف أحد غير دافيل موعده سفره ، حتى لقد رافقه مشيّعا ، وكان بين الرجلين وداع حار . ففي يوم مشمس من أيام كانون الثاني ، امتطى دافيل صهوة حصانه ومضى مع ترجمانه دافنا يدرك محمد باشا على مسافة فرسخ من مدينة ترافنك . وأمام مقهى منعزل ، تحت كوخ من القش ينيخه ثقل الثلج ، تبادل الوزير والقنصل آخر تحية .

قال التركي وهو يفرك يديه المتجلدتين ويحاول أن يحتفظ بتبسمه ، قال بصوت دافيء يشبه الصدق كما تشبه قطرةٌ من الماء قطرةً أخرى ، صوت يقنع المخاطَب ويهدئه مهما يكن شكاكا رِيابا :

ــ بلّغ الجنرال مارمون تحيتي ، وقل له ولسائر من يجب أن تقول

لهم ذلك انني سابقى ــ حيث رماني الحظ ــ صديقَ بلادكم والمعجب الصادق بنابوليون العظيم •

فأجابه القنصل في تأثر صادق :

ــ لن يفوتني أن أبلّغ ذلك ، لن يفوتني •

ــ أما أنت يا صديقي العزيز فأتمنى لك الصحة والسعادة والنجاح• ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أكون قريبا منك ابان المصاعب التي ستلقاها دائما في هذا العالم البوسني المتوحش الجاهل • ولكنني أوصيت بك سليمان باشا الذي سيخلفني موقتا • وفي وسعك أن تعتمد عليه • انه رجل بسيط جافٍ كسائر أهل البوسنة ، لكنه شريف يمكن الركون اليه • وأعود فأقول لك انني لا آسف للسفر الا بسببك ، ولكن لا بد من السفر : لو شئتُ أن أكون ضاربَ أعناق ، لاحتفظت بمنصبي ولاخضعت هؤلاء البكوات المغرورين الخاوية رءوسهم اخضاعا نهائيا • لكنني لست كذلك ، ولا أحب أن أكون كذلك ، ومن أجل هذا أرحل•

كان دافنا يترجم ترجمة سريعة آلية كمن يتلو شيئا حفظه على ظهر القلب ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة ضاربة الى خضرة ، وغاص في معطفه الاسود المتدلي حتى الارض • وكان دافيل يعلم حق العلم أن ما يقوله الوزير لا يمكن أن يكون صحيحا كل الصحة • ومع ذلك كانت كل كلمة من كلمات الوزير تهز مشاعره • ان كل فراق يولّد في نفوسنا وهماً مزدوجاً : فالشخص الذي نفارقه ، ربما الى الابد (كما هي الحال الآن) يبدو لنا عند الفراق أعظم قيمة وأكبر قدرا وأجدر باهتمامنا • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فاننا نكون ، نحن أنفسنا ، عند الفراق، أقدرَ على الشعور بصداقة أغنى وأقلّ أنانية من الصداقة التي يمكن أن نمنحها في الواقع •

ثم امتطى الوزير جواده الضخم وهو يخفي عرجه بحركات سريعة

جافة ، وتبعته حاشيته الكبيرة . حتى اذا أصبح الركب على مسافة ربع فرسخ من دافيل ، توقف عن المسير ، ثم انفصل عنـه أحد فرسانه ، وانطلق كالسهم يلحق بقنصل فرنسا الذي توقف عن المسير أيضا . قال الفارس وهو يكبح حصانه :

ـ مولاي السعيد خزرف محمد باشا يقدم خالص تحيته ، مرة أخرى ، الى القنصل المحترم ممثل الامبراطور الفرنسي العظيم ، ويرجو له أصدق الرجاء أن يحالفه التوفيق في جميع خطواته .

دُهش دافيل لهذه البادرة التي لم يتوقعها ، بل شعر بشيء من الارتباك ، لكنه لم يلبث أن رفع قبعته في تحية رسمية عريضة ، فعاد الفارس يلحق بحاشية الوزير سريعا كما جاء . ان العلاقات بالشرقيين تطالع المرء دائما بأمثال هذه المفاجآت اللطيفة ، فيتأثر بها ولو لم يجهل أنها أقرب الى أن تكون عادةً من العادات الكثيرة التي تزخر بها التقاليد القديمة في هذه البلاد منها الى أن تكون عناية خاصة أو التفاتة شخصية .

ونظر دافيل الى موكب الوزير وهو يبتعد : الى المماليك المقمَّطين أشبهَ بنساء ، والى حوافر خيولهم تضرب الثلج فتثيره غبارا يصّاعد تحت شمس الشتاء كاعصار . ويصغر الركب عند الافق شيئا بعد شيء ، بينما سحابة الثلج ما تنفك في صعود الى أن يغيب وراءها الفرسان .

عاد دافيل . الطريق المتجلدة ، وسطوح البيوت التركية القليلة ، وأسيجتها ، تختلط جميعا بالحقول التي يغطيها الثلج . والاشجار المقلّمة لا تُرى أغصانها السوداء المتشابكة الا رسوما على هذا البياض الشامل الذي غشى كل شيء . والظلال تستحيل ألوانها ، فمن أحمر وأصفر ، الى أزرق وأشهب . والسماء تظلم . فالاصيل المشمس يصير الى غسق شتاء . والخيول تمشي بخطى قصيرة جافة ، وتنفض حوافرها

التي يتشبث بها الثلج بلورا . وأحس دافيل أنه عائد من جنازة .

انه يفكر في الوزير الذي شيعه منذ برهة قصيرة تفكيرَه في شخص فقده منذ زمن طويل ولن يراه أبد الدهر . وعاودته ألف ذكرى وذكرى ، عاودته تفاصيل ما دار بينهما من أحاديث ، وعاودته صورة ابتسامة الباشا ، صورة ذلك الوميض الذي يظل يضيء وجهه ولايبارحه الا في النوم .

. . .

حين استعرض دافيل الكلمات التي ظل محمد باشا حتى آخر لحظة يقولها تعبيرا عما يكنُّ له من تقدير ، وما يحمل لفرنسا وللفرنسيين من حب ، اعتقد بصدقها ، فهناك في رأيه من الاسباب ما يحمل محمد باشا على الشعور بهذه العاطفة ، بغض النظر عن آداب المجاملة التي تقتضيها المهنة : ان من حق الاجانب أن يحبوا فرنسا ، وأن يحبوا الحياة الفرنسية والافكار الفرنسية . ذلك ما قاله دافيل لنفسه .

« فمن هذه الاسباب أولا قانونُ الاضداد الذي يحبب اليهم الافكار الفرنسية والحياة الفرنسية ، لانهم محرومون من هذه الامور كلها ويشعرون مع ذلك بحاجة قوية اليها . وهم يحبون فرنسا أيضا ، ومن حقهم أن يفعلوا ، لأن فرنسا صورة الجمال الشامل والحياة المنسجمة المعقولة التي لا يمكن أن يزيل حسنَها أيُّ أفول الى الابد ، فاذا ألمت بها سحابة من ظلام لم تلبث السحابة أن تنقشع فاذا هي تعود الى السطوع أمام أنظار العالم قوةً لا تتحطم وفرحاً خالدا لا يبلى . وحتى الذين يعرفونها معرفة سطحية أو لا يعرفونها البتة يحبونها أيضا . انها محبوبة لاسباب متعارضة أشد التعارض ، والناس ما ينفكون ينشدون فيها أكثر مما ينعمون به وغيرَ ما ينعمون به . بل ان دافيل نفسه لينسى

أن فرنسا بلاده وأنه يعرفها منذ عرف الحياة وأنه بلا خيرها وشرّها متعاقبين ، فاذا هو يشخص الآن اليها ببصره وطناً بعيدا للجمال والانسجام والكمال يحلم به المرء في غير انقطاع ولا توقف حين يعيش في أحضان التوحش الفظ . ما بقيت أوروبا فلن تزول فرنسا ، اللهم الا أن تسلك أوروبا طريق الكمال فتصبح هي فرنسا . ولكن البشر أشد اختلافا بعضهم عن بعض ، وأعظم غرابة بعضهم عن بعض ، من أن يتحقق ذلك » .

وذكّره هذا التعارض القوي بين البشر والحضارات بحادثة صغيرة . لقد قال له الوزير في يوم الايام أثناء حديثه عن الحياة في فرنسا — والوزير رجل متوقد ُطلَعةَ — انه سمع كلاما عن المسرح الفرنسي ، وانه اذا لم يسعفه الحظ بمشاهدة المسرح ، فلا أقل من أن يصغي الى تلاوة شيء مما ُيمثل على المسرح .

فافتتن دافيل بهذا الاقتراح ، فلما جاء الغد وصل الى القناق متأبطا الجزء الثاني من راسين ، ليقرأ للوزير بضعَ مشاهد من مسرحية « باجاريت » . حتى اذا انتهى الخدم من تقديم النراجيل والقهوة ، انسحبوا من القاعة ، فاستعد دافنا للترجمة ، وأخذ القنصل في أول الامر يشرح ما هو المسرح وما هي معداته المادية وما هو معنى التمثيل ، فلما انتهى من ذلك على قدر ما استطاع ، أخذ يقرأ المشهد الذي يعهد فيه باجازيت بعمورة الى روكسان ، فاذا بالوزير يقطب حاجبيه قليلا مع استمراره على الاستماع الى القراءة العاطفية التي يتولاها دافيل ، والى الترجمة الرتيبة التي يضطلع بها دافنا . ولكن ما ان بدأت المناقشة بين السلطان والوزير الاكبر حتى نفد صبر محمد باشا ، فاذا هو يقطع حبل القراءة ، ضاحكا ملء صدره ، محركا يده ، قائلا بلهجة قاسية ساخرة في آن واحد :

ـ ولكن هذا الرجل لا يعرف ماذا يقول • فمنذ أن ُوجد العالم لم يدخل وزير الى « الحريم » ولا تحدث مع النساء • ذلك لا يمكن أن يحدث •

وأخذ يضحك ضحكا سافرا قويا ، دون أن يكتم صاحبه أن هذه القراءة قد خيبت ظنه وأنه لا يفهم قيمة هذا العبث • وكان يردد ذلك بلهجة فيها ما يشبه الوقاحة ، وفيها كل ما ُيتوقع من رجل ينتمي الى حضارة أخرى من نبرة القطع والجزم والثقة • وعبثا حاول دافيل ، ـ وقد امتعض من المفاجأة ـ أن يشرح له معنى هذهالتراجيديا ، وجمال هذا الشعر ، فقد استمر الوزير يحرك يده في غير رحمة ، قائلا :

ـ نحن أيضا عندنا من هؤلاء الدراويش الذين ينشدون أشعارا طنانة ، ولكن لئن كنا نلقي اليهم ببعض الصدقات فليس يخطر ببالنا أبدا أن نعدهم أناسا لهم شأن • لا لا ••• انني لا أفهم •••

ظل دافيل زمنا طويلا يحتفظ من هذا الحادث بذكرى أمرٍ يجرح الكرامة واخفاق يجب كتمانه • أما اليوم فهو ينظر اليه نظرته الى موقف من تلك المواقف التراجيكوميدية (المضحكة المحزنة) التي يمر بها الانسان في أيام الطفولة ، فيأسى لها عندئذ أسىً شديدا فيه غلو ومبالغة • بل انه ليتساءل الآن لماذا توافيه عند سفر محمد باشا ذكريات حوادث تافهة هذه التفاهة ، حتى كأنها من مستوى الشئون الهامة التي عالجها معه • انه أثناء عودته هذه على الطريق المتجلد ، ينظر الى الماضي فيراه مفهوما كله مسوّغا كله • فما مرّ من حوادث سوء التفاهم كان أمرا طبيعيا ، وما وقع من اخفاق كان شيئا لا يمكن تفاديه • ولكن رحيل الوزير يثير في نفسه ألما لا تقاس به آلامه السابقة • انه يحس بكل ثقل هذه الخسارة ، ويخشى أن تكون فاتحة اخفاقات جديدة •

ووصل القنصل الى ترافنك قبل هبوط الليل ، غارقا في هذه الافكار التي كانت تحمل اليه بعض العزاء •

• • •

هل كان سفر محمد باشا ايذانا بالتمرد ؟ ما من أحد في ترافنك يراوده الآن شك في أن الوزير قد استطاع بالمكر والخيانة أن ينجيّ نفسه من غضب المدينة • وفاقم هذا الغضبَ أن قنصل فرنسا قد رافقه مودّعا • وأصبح في وسع المرء أن يرى كيف يمكن أن تكون ثورة يقوم بها الاتراك في مدينة من مدن البوسنة •

لقد لبثت المدينة خلال سنين تعمل وتصمت وتضجر وتجر حياتها جرا : تبيع وتحسب وتقارن السنين بالسنين ، ولكنها تهتم بكل مايحدث، وتستطلع ، وتتسقط الاخبار والاشاعات وتتهامس بها من حانوت الى حانوت ، دون أن تغلبَ فكرة" بعينها ودون أن يغلب رأي شخصي •

غير أن شعور المدينة يتبلور شيئا فشيئا على مهل • فهو في أول الامر اتجاه عام غامض بعض الغموض ، لا يتجلى الا في حركات قصيرة وفي حقد لا تعرف على من ينصب • ويتطور هذا الاتجاه العام درجةً درجة ، فيصبح رأيا لا يخفيه الناس ، ثم يستحيل آخر الامر اقتناعا حاسما لا حاجة الى اعلانه أقوالا ، وانما هو يعبر عن نفسه بأعمال فحسب •

ولقد رسخ هذا الاقتناع في نفوس الناس بالمدينة ، فهي ماتنفك تتهامس ، وما تنفك تتحفز تحفزَ النحل الذي ينتظر ساعة الانطلاق من خلاياه •

أنى لك أن ترى منطقا في هذه الثورات العمياء المسعورة التي

تهب على السوق ثم لا تنتهي الى نتيجة ؟ ان لها منطقا مع ذلك ، وان لها أسلوبا أيضا ، أسلوبا ليس في وسعك أن تدركه ، لكنه قائم على الغريزة ، مستند الى تقاليد العرق . كل ما تستطيعه أنت هو أن ترى هذه الثورات وهي تشتعل ثم تندفع ثم تنطفيء .

ففي ذات صباح ، في صباحٍ يطلع كما تطلع أصباح كثيرة ، ينقطع الصمتُ الذي خيَّم سنين طويلة ، على حين فجأة ، فاذا المدينة تسمعُ قرقعةَ مصاريع الحوانيت ودويَّ الابواب والمزاليج . انالتجار يتركون الاماكن التي ظلوا يجلسون عليها ، خلال سنين ، جلسةً هادئة وقد ثنوا أرجلهم وظهروا بستراتهم وصدراتهم المخططة نظيفين مرتبين . وحسبُ الناس هذه الحركة المعتادة وهذه الضجة القوية حتى تمرق الشائعة في المدينة والضواحي مروق السهم :

ـ السوق يغلق .

فالنساء والاطفال ينزلون الى الاقبية . والتجار يعودون الى بيوتهم متأهبين للدفاع عن أسرهم ، مستعدين للموت أمام أبواب منازلهم . ومن المقاهي الصغيرة المنتشرة في وسط المدينة ، ومن الاحياء البعيدة عن وسط المدينة ، يخرج ويتزاحم أولئك الناس الذين لا يمكن أن تحمل اليهم الثورات والتغيرات خسارة من الخسارات ، ولا يمكن الا أن يجدوا فيها ربحا من الارباح . في أيام الاضطراب والثورة ، هنا وفي كل مكان ، بعضُ الناس يقودون ويوجهون ، وبعضهم ينفذون . فهذا واحد من الذين يقودون ، ينبجس من أحد الاركان ، ثم هذان اثنان آخران ، وهم في العادة أناس عجيبون ، لهم صوت كصوت الرعد ، ساخطون ، عنيفون ، لكن مظهرهم حيادي ، لا يلاحظهم أحد قبل ذلك . حتى اذا انتهت الثورة عادوا يدفنون أنفسهم في الفقر الغفل بالحي الوعر الذي نزلوا منه ، اللهم الا أن يبقوا في سجن من السجون ....

ويدوم هذا يوما أو يومين ، وقد يدوم أكثر من ذلك في بعض الاحيان ، قد يدوم خمسة أيام ، ولكن لا بد أن يصل الى انفجار ، لا بد للشعب أن يكسر وأن يحطّم ، لا بد أن يشتعل حريق ، لا بد أن يسيل دم • ثم يهدأ الدوي وتنطفيء الثورة • فالحوانيت تفتح أبوابها واحدا بعد واحد ، والجماهير تنسحب ، والتجار يعودون الى أعمالهم والى حياتهم المعتادة مضطربين منهكين شاحبين •

ذلكم هو الايقاع المألوف للثورات البوسنية •

وذلكم ما حدث هذه المرة أيضا • ان ترافنك التجارية ، وسوقها وكل المنطقة الخاضعة للبكوات ، قد ظلت خلال عدد من السنين ترقب ، في قلق ، المحاولات التي يحاولها سليم الثالث لاقامة الامبراطورية العثمانية على أسس جديدة تتفق وما للحياة الاوربية العصرية من مطالب وحاجات • ولم تخف ترافنك في يوم من الايام مخاوفها من خطط السلطان سليم ، ولا كرهها لهذه الخطط ، بل لقد أظهرت هذه هذه المخاوف وهذا الكره سواء في عرائض أرسلت الى القسطنطينية رأسا أو في اتصالاتها بالوزير ممثل السلطان لديها • لقد كان في رأي ترافنك أن الاصلاحات لا يمكن الا أن تخدم الاجانب ، وأن تساعدهم في ضرب الامبراطورية وتحطيمها من الداخل ؛ ولا يمكن أن تكون نهايتها ، بالنسبة الى العالم الاسلامي وبالنسبة الى كل واحد من سكان المدينة والمنطقة تبعا لذلك ، الا خراب البلاد وفساد الاسرة والحياة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة •

فما ان علم الناس بسفر الوزير ، زاعما أنه ذاهب الى درينا لتفقد المواقع ، حتى اعتكر الهواء في المدينة ، وأصبحت النظرات والهمسات تتراكض هنا وهناك ، وساد جو عام • ثم خيّم ذلك الصمت المريب الذي يسبق انفجارات الغضب الشعبي • فالثورة على الابواب تنتظر ساعتها •

وكانت الاشارة التي أطلقتها حادثة تافهة لا قيمة لها .

كان للترجمان سيزار دافنا خادم اسمه محمد بركو[1] ، وهو هرسكي عريض الكتفين فارع القامة ، كان السكان الاتراك الذين يكرهون جميع مستخدمي القنصليات ، يحملون له بغضاء شديدة . ففي ذلك الشتاء تزوج محمد بامرأة تركية شابة جميلة جاءت من بلجراد الى ترافنك لزيارة أهلها . وكانت هذه المرأة متزوجة قبل ذلك برجل يقال له بكري مصطفى ، صاحب مقهى صغير في دورتشوك[2] . وقد شهد أربعة شهود بأن بكري قد مات من فرط شربة الخمر ، فأصبح يحق لامرأته أن تتزوج : فكذلك زوّجها القاضي بمحمد . ولكن بكري الذي زعموا أنه مات لم يلبث أن ظهر فجأة ، لحظةَ ترك الوزير ترافنك على وجه التقريب . وقد وصل سكرانا ، فأرسلوه الى القاضي ، فقصَّ على القاضي قصته ، وقال انه اذا كان سكرانا فلأنه قضى أحد عشر يوما في الطريق من بلجراد الى ترافنك معرضا للبرد والعواصف ، فكان ملاذه الوحيد أن يشرب شيئا من الراكي ، فشرب وأسرف . وتساءل كيف أمكن أن يحسبوه ميتا . ثم أضاف انه لا يطلب الا شيئا واحدا ، هو أن ترد اليه امرأته التي تزوجها رجل آخر حراما .

وتدخل السوق في الامر . شعر جميع الذين يبحثون عن شجار أن هذه فرصة رائعة ، فهم يستطيعون الآن أن يكيدوا لمحمد هذا الذي يكرهونه أشد الكره ، وأن يكيدوا لصاحبه دافنا ، وأن ينالوا عن طريقهما من القناصل والقنصليات ، وأظهروا جميعا أن من حقهم أن يساعدوا مسلما شريفا في حماية حقه من الاجانب وأعوانهم .

ولقد وصل بكري مصطفى بأسمال بالية وخرق ممزقة ، يستدفيء

---

(١) ذو الشارب .

(٢) حيّ ببلجراد على الضفة اليمنى من الدانوب .

بالراكيا وحدها ، ويأكل بصلا نيئا • فاذا هو يجد نفسه في ذات صباح يرتدي ملابس دافئة ، ويأكل جيد الطعام ، ويُدعى كثيرا الى الشراب ، ويعنى به السوق كله • حتى لقد أهدى اليه أحدهم معطفا من فراء له ياقة من جلد ثعلب ، فكان بكري يلبسه مختالا مزهوا • وها هو ذا يتجول في المدينة بملابسه هذه ، مترجّع الفواق ، طارف العينين ، متنقلا من حانوت الى حانوت يطالب بحقه ، والناس يتخذونه راية تحملها عواطف الشعب وارادة الجماهير • ولئن كان لا يصحو من سكر ، انه في غير حاجة الى تولي الدفاع عن قضيته • لقد تولى السوق ذلك •

فلما رفض القاضي أن يصدّق مزاعم هذا السكّير فيرد اليه المرأة ، ثارت ثائرة السوق ، وأصبحت الثورة تملك عذرا تتذرع به • فانفجرت الفتنة رغم أن الشتاء لا يناسب الثورة التي تحب الدفء والشمس •

لا يستطيع أجنبي أن يتخيل نوع هذه الفورات الجماعية التي تعصف من حين الى حين بسكان هذه الضواحي الصغيرة التائهة في أعالي الجبال ، وما من أحد يستطيع أن يتخيل المدى الذي يمكن أن تبلغه • ان دافنا نفسه ، الذي يعرف الشرق ولكنه لا يعرف البوسنة ، قد أصابته الدهشة وقلق أشد القلق • وحبس دافيل نفسه وأهله في القنصلية ، وتوقع أسوأ النتائج •

قبل الظهر بساعة ، أغلقت الحوانيت ، بايعاز خفي سري • فالمصاريع تقرقع والابواب والمزاليج تدوّي في ضجة شبيهة بضجة تلك العواصف الضيقة التي تدحرج الحمم على شفيري الوادي المنحدرين وتهدد بابادة المدينة •

ثم تبع ذلك صمت اخترقته في أول الامر طلقات نار ونداءات وحشية• وما هي الا برهة حتى أخذت تتشكل جماعات صغيرة من صبية وشبان ، وأخذت ترتفع همهمة بسيطة أعقبتها صرخات قوية بعض القوة ، حتى

اذا أصبح الجمع مائتي شخص أو ثلاثمائة ، اتجه الجمهور الى قنصلية فرنسا ، مترددا في أول الامر ، سريع الخطى بعد ذلك ، ملوحاً بالايدي ، مشرعاً العصيّ ، مندداً بالقاضي الذي زوّج هذه المرأة لمحمد المعروف بأنه نصير اصلاحات السلطان سليم ، وعميل الوزير •

وانبرى رجل طويل الشاربين يصيح بكل ما أوتي من قوة : « بسبب هؤلاء الناس انما أصبح المسلمون الحقيقيون لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم ، وأصبح أبناؤهم جياعا » • وأخذ يكيل الشتائم البذيئة لمحمد هذا الذي يخدم الكفار ويأكل لحم الخنزير • « يجب اعتقاله حالا وتكبيل قدميه بالاغلال ، كما يجب تكبيل قدمي هذا القاضي الذي يخطف من الاتراك الحقيقيين نساءهم ويزوجها لآخرين في سبيل المال ، هذا القاضي ليس بقاض وانما هو خائن ، بل هو أسوأ من قس ! » • وهذا رجل أصفر اللون ، وهو خياط متواضع خوّاف من سكان المدينة المواطئة ، لم يسمعه أحد ينطق بكلمة من الكلمات في يوم من الايام حتى ولا أهل بيته ، هذا هو يصغي الى الخطيب ذي الشاربين مغمضا عينيه رافعا رأسه ، فاذا هو يزأر ، على حين فجأة ، بصوت أبح ، ولهجة وحشية ، وقوة غير متوقعة ، كأنما هو يريد أن ينتقم لصمته الطويل ، فيقول : « ليسقط القاضي ، يسقط ! » •

وكان من شأن هذه الصيحة أن شجعت الجمهور ، فازدادت الشتائم تنصب على القاضي والوزير والقنصلية ، ومحمد بركو خاصة • وتردد الشبان ، فهم يتهامسون ويتساءلون ، ثم لم يلبثوا أن طفقوا يركضون وقد مالت رؤوسهم الى خلف ، كأنما هم يريدون أن ينشدوا ، وصاحوا صيحة واحدة متفقا عليها منذ زمن طويل ، وراحوا يرقبون صداها في الجمهور من دمدمته ، وقد احمرت وجوههم خشية ، فكانت حمياهم وحماستهم ما تنفكان في ازدياد ، يهيج بعضهم بعضا ، ويستسلمون جميعا لذلك الاحساس المسكر بأن في وسع كل واحد أن يصيح بفضل

الثورة ما شاء له هواه أن يصيح ، وأن يفعل ما يريد تخفيفا لآلامه •

وكان سليمان باشا مساعد الوزير يعرف حق المعرفة ما تعنيه ثورة في ترافنك ، ولا ينسى أنه مسؤول عن القنصلية ، ففعل أعقل ما يمكن فعله في مثل هذا الظرف : أمر بالقبض على محمد ، صبي القنصلية ، وسجنه في القلعة •

تكوم الجمهور أمام القنصلية مترددا ، وقد تفاقم هياجه ، خاصة وأن المبنى محاط بفناء واسع وحدائق كبيرة ، فلا يمكن الوصول أليه ، ولو قذفاً بالحجارة • وفجأة صرخ أحدهم قائلا ان الجنود قد اقتادوا محمدا ومضوا به من خلف • فاذا بالجمهور يسرع راكضا نحو القناق ، ولكن حين وصل الناس من ركضهم الى جسر القلعة ، كان محمد قد دخل القناق وأوصد عليه الباب الحديدي الكبير • فعاد معظم المتظاهرين الى المدينة وهم ينشدون ، وبقي الآخرون أمام الخنادق ينظرون الى نوافذ برج المدخل ، لا يعرف أحد ماذا ينتظرون ، ولكنهم يزأرون ، ويطالبون بتوقيع أقسى أنواع التعذيب في الرجل المقبوض عليه •

وعادت المدينة التي أقفرت بما يشبه الاعصار ، عادت تضج بضوضاء الجمهور العاطل الذي لم يرضه اعتقال محمد الا شبه ارضاء • ولكن ها هي ذي الضوضاء تنقطع فجأة ، ويأخذ الناس ينظر بعضهم في بعض وينادي بعضهم بعضا • ان هذا الجمهور الثائر قد بلغ الآن من التعب والسأم المرحلة التي يمكن أن يقبل فيها أي اندفاع ، والتي يمكن أن يجنح فيها الى القسوة أو الى الاسترخاء على حد سواء • والتفتت الانظار أخيرا الى شارع صغير وعر ينحدر من القنصلية الى السوق •

من ذلك الشارع كان دافنا يشق طريقه بين صفوف الناس التي لاتبلغ هنالك ما تبلغه هنا من تراص ، راكبا حصانه الضخم الابقع ، متعاظما مسلحا • تسمر الناس في أماكنهم من الدهشة وهم ينظرون الى الفارس

الذي يصعد الشارع في هدوء كهدوء من يتبعه فيلق من الحرس • كان يكفي أن يصيح واحد من الناس حتى تنطلق الصيحات من كل جهة ، الصيحات والحجارة ، فاذا بالجمهور الهائج يبتلع الرجل والحصان كسيل عارم • ولكن الناس جميعا أخـذوا ينظرون الى حيث يمضي الترجمان الشجاع ، منتظرين أن يتحرك واحد ، أو أن يصيح واحد • فلما لم يفعل أحد شيئا ظل الجمهور في حالة انتظار ، بغير ارادة مشتركة وبغير هدف •

على أن دافنا هو الذي رفع صوته قويا جدا ، متدفقا أشد التدفق ، كما لا يُحسن ذلك الا مشرقي ، وأخذ يميل يمينا ويميل شمالا ، كما يمكن أن يفعل ذلك قائد قطيع من السائمة ، وقد اصفر اصفرار الموت ، وطفق يصيح بفم فاغر من الاذن الى الاذن :

ــ حذار حذار أن تمسوا القنصلية الامبراطورية الفرنسية (قال ذلك وهوينظر الىأقربالأعين)• كيف تثورون على أصدق أصدقائكم ؟ أنصح لكم بذلك أحمق عصف راكي البوسنة بعقله ؟ أتجهلون اذن أن السلطان والامبراطور الفرنسي صديقان حميمان ، وان استامبول تأمر كل واحد أن يحب وأن يحترم قنصلية فرنسا لان فرنسا دولة صديقة ؟

وصاح أحد الناس يريد أن يعترض ، ولكن الجمهور لم يتبعه • فاستفاد دافنا من ذلك فالتفت الى جهة ذلك الصوت الوحيد وخاطب صاحبه مخاطبة من يشعر بأن الناس يؤيدونه هو ، مخاطبة من يتكلم باسم الناس جميعا :

ــ ماذا ؟ أتريد أن تعكر وأن تهدم ما اتفق عليه الامبراطوران ؟ ألا فاعرفوا من يدفع الناس المسالمين الى الشقاء • ذلك أن السلطان لن يغفر هذا الامر أبدا ، فاذا وقع لقنصلية فرنسا مكروه فلسوف تحرق البوسنة كلها ، ولن يوقَّى من ذلك حتى الاطفال في المهود •

وسُمعت أصوات صماء هنا وهناك من جديد ، غير أن الجمهور فسح للفارس الذي كان يظهر بمظهر من لا يدور في خلده ولا يخطر بباله أن شيئا يمكن أن يقع له • وقطع السوق كله وهو يصيح غاضبا أنه ذاهب الى سليمان باشا توا ، ليسأله من الآمر الناهي هنا ؛ وليندمنّ كثير من الناس بعدئذ على أنهم اتبعوا المجانين وعصوا الرؤساء •

قال ذلك وتوارى في القلعة على الجهة الاخرى من الجسر • فما لبث الاخدود الذي رسمه اختراقه صفوف المتجمهرين أن سُدّ ثانية ، وشعر الناس أنهم غُلبوا وأنهم قُهروا ، ولو الى حين • وتساءل الصائحون كيف أذنوا لهذا الكافر أن يمر فيهم بهذه الحرية وهذا التحدي ، ولماذا لم يسحقوه كما تُسحق بقة ؟ ولكن اللحظة المواتية قد انقضت ، وفات الاوان • وهذه المحاولة الاولى المخفقة تركت الهرْج هائجا بلا قائد • فلا بد من الاستئناف !

واهتبل دافنا هذه البلبلة ، واستفاد من جبن الجمهور ، فعاد من القناق الى القنصلية ببطء وشجاعة كما جاء • لكنه في هذه المرة لم يصرخ ، وانما كان يرشق الناس بنظرات شرسة ، ويهددهم ويتوعدهم بهزّ رأسه ، كمن رتب في القناق كل شيء وأصبح يعرف ما ينتظر المشاغبين •

والواقع أن دافنا حين اصطنع مع سليمان باشا لهجة قاسية متكبرة لم يحقق أي نجاح • فان الوزير المساعد لم يؤخذ ، فلا هو جزع من تهديداته ولا هو خاف من ثورة ترافنك • وكما دفع ذات مرة أمام الوزير عن شتاء ترافنك مؤكدا أنه هبة من الله وضرورة من الضرورات وليس شقاء ، كذلك طفف من شأن الفتنة • قال لدافنا :

ـــ ما هذا كله بشيء ذي بال • ثار الشعب ؟ ذلك يقع من حين الى حين : يصرخ الشعب ويصخب ثم الى الهدوء يعود • والصخب لا يؤذي •

ولن يجرؤ أحد أن يمس القنصلية بسوء • أما قصـة محمد ، صبي القنصلية ، فهي أمر يتعلق بالشرع ، فاذا ثبت أنه أذنب عوقب وكان عليه أن يرد المرأة الى زوجها ، واذا ثبت أنه بريء لم يقع له شيء • وكل ما عدا ذلك يبقى كما كان ويجري في مكانه على نظام !•

كذلك تكلم سليمان باشا ، بصوت بطيء ولكنة واضحة ولغة تركية رديئة تتخللها كلمات قروية لا تُفهم • ولم يشأ أن يناقش دافنا رغم جميع الجهود التي بذلها دافنا من أجل أن يفرض نفسه • ولم يسعه أخيراً الا أن صرفه كما يُصرف الخدم الاتراك ، قائلا له :

ــ الامر كما ذكرت ، فاحفظ ما قلته لك ، وانقله الى القنصل المحترم نقلا دقيقا !

ولكن الثورة لم تتوقف ، فلا أجدى تحدي دافنا ، ولا نفع تفاؤل سليمان باشا •

ففي ذلك المساء نفسه هبط الى السوق من جميع الاحياء جمهور أكبر عددا وأشد اضطرابا ، وسط صرخات قوية يطلقها الشبان • وفي أثناء الليل ظل أناس مشبوهون يحومون حول القنصلية ، فكانت الكلاب تنبح والخدم يتربصون • حتى اذا طلع الصباح في الغداة عثروا على قنب وقطران ، قد أعدّا لاحراق القنصلية طبعا •

وكان دافنا قد طلب الدخول الى القلعة وزيارة السجين ، بتلك الجرأة نفسها • فلما دخل عليه ألفاه موثقا في زنزانة مظلمة كانوا يسمونها البئر وكانت موقوفة في الاصل على المحكومين بالاعدام • كان الصبي أقرب الى الموت منه الى الحياة ، لا يعرف سبب اعتقاله ، وكان موظف القناق الذي عهد به اليه قد أمر بجلده مائة جلدة على راحة قدميه • ولم يستطع دافنا أن يطلق سراحه ، ولكنه برطل السجان حتى يخفف عنه •

الى هنا لم يكن شقاء دافيل عظيما • غير أن ضابطين فرنسيين هبطا

الى ترافنك في ذلك اليوم نفسه في طريقهما من سبليت الى القسطنطينية. والحق أن تنقلات الضباط هذه فقدت جدواها منذ زمن طويل، بل أصبحت ضارة . وما أكثر ما كتب دافيل الى السلطات يرجوها أن لا ترسل بعد الآن ضباطا ، أو أن لا تجعلهم يمرون بالبوسنة على الاقل ، ولكن كان يتفق أن يسير ضابطان أو ثلاثة ضباط تنفيذا لأوامر سابقة .

اضطر الضابطان الى الانحباس في القنصلية كسائر موظفيها . غير أن هذين الرجلين العسكريين اللذين يعوزهما شيء من الدراية واللباقة ويتصفان بالكبر ونفاد الصبر قد حاولا في اليوم الاول أن يخرجا وأن يتجولا في ظاهر المدينة .

فما أن توغلا في شوارع المدينة حتى رأيا كرات من الثلج تتطاير وراءهما . فالصبية يعدون خلف حصانيهما ويقذفانهما . ومن كل جهة من الجهات يخرج أطفال صغار محمرة خدودهم قاسية نظراتهم ، يصيحون :

ـ هذا هو الصليب ! اضرب ! اضرب !

ـ اضرب الكفار !

ـ خذ جزاءك يا صليب !

وهم يركضون الى العين يغطسون فيها كراتهم ليزيدوا ثقلها . وارتبك الضابطان ، فلا هما يستطيعان أن يدفعا حصانيهما للتخلص من الورطة ، ولا هما يملكان أن يقاتلا أطفالا صغارا ، ولا هما يطيقان أن يحتملا شيطنات هؤلاء الصبيان . فلم يسعهما الا أن يعودا الى القنصلية حانقين مضطربين .

وبينما كان الجمهور ما يزال يعول في السوق ، كان كومندان من سلاح الهندسة يخلو الى نفسه في احدى قاعات القنصلية ، ويكتب الى رئيسه بمدينة سبليت ما يلي : « ومن حسن الحظ على كل حال أن الثلج

كان يهطل ، ولولا ذلك لقتلنا هؤلاء المتوحشون بالحجارة والوحل • كانت نفسي تغلي غضباً وحنقاً وشعوراً بالعار والخجل ، حتى اذا أصبحت لا أطيق احتمال هذا الوضع المضحك انقضضت على هؤلاء الصبية بعصا في يدي ، فتفرقوا ولكنهم لم يلبثوا أن تجمعوا مرة أخرى وأخذوا يطاردوننا بصياح ما ينفك يشتد • ولم نستطع أن ندرك المدينة الا بعد عناء كبير • وقال ترجمان القنصلية انه يسعده أن عصاي لم تنل أحدا ، والا لكان يمكن أن نموت من ضربات يكيلها لنا الكبار الذين حرضوا الاطفال وليسوا خيرا منهم » •

وقد شرح دافيل الموقف للضابطين • ولكنه كان في قرارة نفسه يشعر بمذلة عميقة من وقوف الضابطين على عجزه وعلى وضعه القلق •

فتحت الحوانيت أبوابها في اليوم الثالث : التجار يصلون الى السوق واحدا بعد واحد ، فيرفعون الابواب والمصاريع ، ويجلسون في أماكنهم ، ويستأنفون عملهم • ان في وجوههم جميعا جدا أكبر وقسوة أشد ، وهم جميعا مضطربون مصفرّون كأنهم خارجون من سكر •

هـذه امارة العودة الى الهدوء • فالصبية والعاطلون يتجولون في المدينة نافخين على أصابعهم المتجلدة • حتى اذا اتفق أن صاح أحد صيحة لم تلق صيحته صدى • ولم يخرج من القنصلية أحد بعد ، الا دافنا والخدم الذين يُرسلون في تدارك حاجات لا غنى عنها ولا بد منها ، فيستقبلون بأنواع من التهديد وكرات من الثلج بل وببعض طلقات نار • على ان الفتنة شارفت نهايتها الطبيعية • لقد أظهروا لقنصل فرنسا شعورهم نحوه ورأيهم في اقامته بترافنك • وقد عوقب خادم دافنا ، فأخذت منه زوجته ، ولكنها لم ترد الى بكري ، وانما أرسلت الى أهلها • أما بكري نفسه فأصبح السوق لا يحفل به ، فما من أحد ينظر الآن اليه • لقد صحا الناس من سكرتهم فأصبحوا يتساءلون عن

هذا السكير المتشرد : من هو وماذا يعمل هنا. لا يأذن له أحد بالاقتراب من حانوته والاستدفاء قرب كانونه . وظل بضعة أيام يتنقل من مكان الى مكان ، ويضطر من أجل شراء شيء من الراكي الى بيع الملابس التي وهبت له في ابان السورة الاولى ، قطعة بعد قطعة . ثم غاب عن ترافنك الى الابد .

كذلك انتهت ثورة ترافنك ، ولكن المصاعب التي يلاقيها القنصل لم تقلَّ ، حتى لقد أصبحت أكبر وأكثر ، فهو يصطدم بالعقبات تلو العقبات في كل خطوة يخطوها .

وقد أُطلق سراح محمد بركو بعد أن طحنه الضرب طحنا وحطّم فقدُ امرأته أعصابَه . واستجابة لاحتجاجات دافيل العنيفة أمر سليمان باشا أحد موظفيه بالذهاب الى القنصلية من أجل أن يعتذر للفرنسيين عن اعتقال الصبي وهتافات الجمهور وهجمات الناس . ولكن هذا الموظف ، وهو عجوز متكبر عنيد ، أعلن أنه يؤثر أن يترك الوظيفة بل أن تُقطع عنقه على أن يذهب الى قنصل يطلب صفحه وغفرانه . ووقف الامر عند هذا الحد .

ورُوِّع خدم القنصلية من حكاية محمد بركو . انهم لا يلقون في الشارع الا نظرات مثقلةً بالكره والحقد. والتجار يرفضون أن يلبوهم. ان الخفير الالباني الذي يرافق القنصل ، واسمه حسين ، وهو رجل مزهو بنفسه معجب بمركزه ، يمضي الآن الى المدينة شاحب الوجه من فرط الغضب ، ويقف على أبواب الحوانيت يريد شراء بعض الاشياء ، فاذا بالبائع التركي ، أياً كانت البضاعة التي يسأل عنها حسين ، يجيب من على مقعده ، بلهجة حانقة ووجه مكفهر ، بأنه لا يوجد عنده منها ، وكثيرا ما يكون الشيء المطلوب معلقا في متناول اليد ، فاذا أشار الخفير الى ذلك أجابه البائع بهدوء ان هذا الشيء قد بيع ، أو أجاب بحدة :

« اذا قلتُ لا يوجد فمعنى ذلك أنه لا يوجد ! لا يوجد من أجلك أنت ! » .

وكانت القنصلية تتدارك حاجاتها الضرورية خفية من عند الكاثوليك أو اليهود .

وأخذ دافيل يشعر بازدياد حقد الناس عليه وعلى القصلية ، وتصور كيف ستطرده هذه البغضاء من ترافنك . فكانت الكراهية تؤرق جفنه وتشل ارادته وتعطل كل قرار في مهده . وأصبح الخدم يشعرون بأنهم عاجزون لا حيلة لهم في حماية أنفسهم من هذا الكره الذي يقابلهم به جميع الناس . ولولا حياء فطروا عليه ، ولولا وفاء يحسون به لما صدّهم شيء عن ترك عملهم هذا الذي يثير بغض الناس لهم وحقدهم عليهم .

أما دافنا فقد ظل صامدا لا يساوره خوف ولا يقلع عن وقاحة . فالكره الذي يتزايد في ترافنك لا يخيفه بل لا يؤثر فيه . وظل متشبثا بمبادئه أشد التشبث ، وهي أن يسترضي عددا من الناس لهم شأنهم دون أن يلوي على شيء ، وأن لا يظهر لمن عداهم الا القوة والاحتقار . ذلك ان الاتراك لا يهابون الا من لا يخاف ، ولا يحترمون الا من هو أقوى منهم . وهذا نوع من الحياة يناسب مفاهيمه وعاداته .

الفصل التاسع

تعب دافيل من الجهود التي فرضتها عليه أحداث الاشهر الاخيرة ، وساءه أن الجنرال مارمومت المقيم بمدينة سبليت والسفير الفرنسي في القسطنطينية لم يفهماه ولا أيّداه ، وضاق صدره بالحذر والكره اللذين يظهرهما له أتراك ترافنــك كما يظهرونهمــا تجاه كل ما يصــدر عن الفرنسيين ، فكان وهو على هــذه الحال يزداد يوما بعد يوم شعورا بالخسارة التي مني بهــا من فقد محمد باشا . كان حين يخلو الى نفسه تثور أعصابه ويأخذ ينظر الى الامور نظرة جــديدة من زاوية خاصة . ان كل شيء يبدو له الآن خطيرا لا سبيل الى اصلاحه ويكاد يكون فاجعة من الفواجع . وأصبح لا يرى في ابتعاد الوزير ، « صديق الفرنسيين » كارثةً شخصية فحسب ، بل دليــلا على ضعف النفوذ الفــرنسي في القسطنطينية وعلى اخفاق سياسة حكومته .

وأصبح في كل يوم جديد ، يزداد أسفا على أنه لم يرفض هــذا المنصب الذي لا شك في أنه يبلغ من فرط مشقته أن أحــدا لم يرده . وهو يندم خاصة على انه جاء بأسرته الى هذا المكان . وأصبح واضحا عنــده أنه خُدع ، وانه سيخلف في ترافنك سمعتهِ وصحة أهله معا . انه يشعر في كل لحظة من اللحظات بأنه مضطهد وعاجز ، ولا أمل له في أن يحمل اليه المستقبل شيئا من عزاء أو شيئا من خير .

وكل ما استطاع أن يعرفه عن الوزير الجديد زاده اضطرابا وخوفا. صحيح ان ابراهيم باشا كان رجل السلطان سليم الثالث ، حتى لقــد كان خلال فترة من الوقت وزيره الاكبر ، غير انه لم يكن نصيرا متحمسا

من أنصار الاصلاحات المنشودة ، لا ولا كان صديق الفرنسيين • ثم ان خضوعه الكامل المطلق للسلطان سليم كان أمرا معروفا ، حتى لقد قيل انه صار عند سقوط سليم أقرب الى الموت منه الى الحياة • وانما أرسلته حكومة السلطان مصطفى الى سالونيك أولا ثم الى البوسنة بعد ذلك لتخفيه كما تُخفى جثة من الجثث • الناس يقولون انه رجل طيب المحتد ضعيف الكفاءة ، مستاء أشد الاستياء من تعيينه لهذا المنصب الذي لا يُحسد عليه ، فأي خير ينتظر من مثل هذا الوزير ، بل ماذا يمكن أن يأمل منه دافيل في حين ان محمد باشا ، الرجل الحاذق الطموح ، لم يستطع أن يفعل شيئا ؟ لذلك كان دافيل ينتظر الوالي الجديد على وجل ، ويعده صعوبة جديدة تضاف الى سلسلة الصعوبات التي تحملها اليه مهمته في البوسنة •

ووصل ابراهيم في أول آذار تتبعه جمهَرة من الموظفين وقافلة من الامتعة • فما ان استقر به المقام ونال شيئا من الراحة حتى استقبل القناصل استقبالا فخما •

وكان دافيل أول من استُقبل •

وقد رُشق أثناء اجتياز موكبه المدينة ببضع شتائم وبضع تهديدات ـ كما وقع له في المرة الاولى ـ وذلك ما تنبأ به لمساعده ، غير ان كل شيء كان في هذه المرة أكثر اعتدالا وأكثر هدوءا • ثم انه شعر بشيء من الاغتباط الشامت حين رأى أن زميله النمسوي الذي استقبل في الغداة لم يعامله الشعب التركي بأحسن مما عامله هو •

وجرى الاحتفال بالاستقبال في القناق على نحو ما جرى في المرة الاولى مع الوزير السابق ، غير ان الهدايا كانت في هذه المرة أغنى ، وكان الطعام أوفر • فأما الملحق الشاب فقد أهديت اليه جبة من جلد السمور الابيض ، وأما دافيل فقد خلع عليه معطف من ثمين الفراء •

ولكن الامر الذي اهتم له الفرنسي وعنى به هو أن الوزير قد أجلسه اليه وقتا أطول من الوقت الذي وقفه على النمسوي بنصف ساعة .

وقد دُهش دافيل أشد الدهشة من الوزير شخصا وسلوكا ، حتى لقد شعر ان القدر أراد أن يسخر منه ويستهزيء به حين رماه بين يدي رجل هو نقيض محمد باشا الذي كان امرءاً لين العريكة دمث الطبع وكان العمل معه سهلا كل السهولة ان لم يكن مثمرا في جميع الاحوال. ثم ان القناصل سرعان ما يعتقدون في عزلتهم أنهم لا يعانون من اهمال حكومتهم واضطهاد خصومهم فحسب ، وانما هم يعانون أيضا من تآمر الخطر عليهم في وحشية بالغة . فها هو ذا دافيل يجد نفسه ، بعد فقد صاحبه الجيورجي ، الشاب المتوقد الممتع ، ازاءَ رجل عثماني قاسٍ بارد جامد يخيف الناس وينفّرهم . لقد كانت محادثات دافيل مع محمد باشا تدع له شيئا من الفرح وتوقظ رغبته في العمل وتحضه على مواصلة المفاوضات ، وان لم تحقق دائما ما تعد به . اما مع ابراهيم باشا فان كل حديث يخلف وراءه أثرا من حزن وامتعاض ، ويأسا هادئا لا نهاية له.

ابراهيم باشا ... انه حُطام متجول ... حطام بغير جمال ولا روعة ... حطام فظيع . لو استطاع الموتى أن يسيروا لأيقظوا في نفوس الاحياء من الدهشة والخوف أكثر مما يوقظ منظر ابراهيم باشا ، ولكنهم لا يثيرون في نفوسهم مثل الذي يثيره من ذلك الذعر الذي يجمد الدم ويسمِّر النظرة ويقطع الكلام ويشل الاعضاء ..

وجه عريض أصفر ، تقطعه غضون قليلة لكنها عميقة ، وتطيله لحية قليلة الشعر حائلة اللون ، كعشب ميت يرقد مغبراً في صدوع المنحدرات. وهذا الوجه الحزين يتناقض تناقضا قويا مع العمامة التي كانت غاطسة على رأسه حتى الحاجبين فوق الاذنين ، وهي عمامة بيضاء ، لها انعكاسات تضرب الى حمرة ، مصنوعة من شاش ناعم ، وملفوفة لفا فنيا ، ومزينة

من الامام بشعار مطرز بخيوط من الذهب وحرير أخضر • لا شيء يتنافى مع هذا الرأس كهذه العمامة : لكأن يدا غريبة غطستها على رأسه في دامس الظلام كيف اتفق • لكأنها موضوعة على جمجمة ميت لا تبارحها الى ان تفسد مع الجثة •

وكل ما عدا ذلك في هذا الانسان ، من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، كان كتلة واحدة يصعب عليك أن تميز فيها اليدين والرجلين والقامة • أي جسم يعيش في هذه الكومة من الملابس والجوخ والجلد والفضة واللفائف ؟ ليس في وسع المرء أن يحزر ذلك : ان هذا الجسم قد يكون نحيلا ضعيفا وقد يكون ضخما قويا • وأغرب ما في هذه الكتلة من الملابس والزينات ، أنها في اللحظات النادرة التي تنتقل فيها ، تنتعش بحركات غير متوقعة ، حركات سريعة عصبية ، حركات رجل ما يزال شابا ، على حين ان الوجه الطويل المنطفىء الهرم يظل ساكنا لا يعبر عن شيء • لكأن هذا الوجه الذي يشبه وجوه الموتى ، وهذه الكومة من الاردية ، تحركهما آلة مختبئة في داخل •

هذه المجموعة من الاشياء كانت تضفي على الوزير الجديد صورة شبح ، وتثير في محدثه شعورا هو مزيج من الخوف والاشمئزاز والعطف جميعا ، لكنه شعور مزعج على كل حال •

مع مرور الزمن وكثرة الاتصال سيألف دافيل صاحبه ابراهيم باشا ، بل سيصبح صديقا له ، وسيكتشف وراء هذا المظهر العجيب انسانا لا يخلو من قلب وعقل ، انسانا طعنه الشقاء طعنة حاسمة كاملة ، ولكنه ما يزال قادرا على الشعور بالعواطف الطيبة التي يمكن أن يقبلها رجل من مثل مولده وطبقته • أما عند هذا الاتصال الاول وهذا الانطباع الاول ، فقد تخوف القنصل أشد التخوف من تعامله المقبل مع هذا الوزير الجديد ، مع هذه « الفزاعة » التي ليست فزاعة تخيف العصافير

الماعطة المنتشرة في براري البوسنة ، بل هي فزاعة معقدة من شأنها أن تخيف عصافير خارقة في مناطق خيالية •

في عجلة اللقاء الاول لم يستطع دافيل الا أن يلمح وجوها غريبة جديدة • أما دافنا الذي أصبح لا يملك ما كان يملكه قبل ذلك من حرية الوصول الى القناق لأنه حُبس على العمل بالقنصلية ، فقد استطاع رغم هذا ، بعد فترة من الوقت ، أن يشق لنفسه طرقا جديدة وأن ينشيء علاقات جديدة أتاحت له أن يعرف بعض الاشياء عن الوزير ومعاونيه الرئيسيين والصلات التي بينهم والطريقة الواجب اتباعها لدفع عجلة الامور الى أمام •

وحاول دافيل من جهته ، بما أوتي من اجتهاد فطري وحب للاطلاع وفراغ ، وكذلك بما يشعر به من ميل غير ارادي الى تقليد السفراء الملكيين الذين كان يحلو له أن يقرأ تقاريرهم ، حاول أن ينفذ الى صميم الوزير وأن يعرف ، كما توصي بذلك قواعد الدبلوماسية القديمة ، « مزاج المولى المعتمد لديه وميوله وأهواءه » بغية أن ينال شيئا من النفوذ وأن يحقق رغباته وأهدافه • وكان دافنا ، الذي يؤسفه أن يرى نفسه يعيش في الصحراء البوسنية بدلا من أن يكون ملحقا بسفارة أو وزيرٍ في القسطنطينية ، وذلك ما كان يمكن أن يناسب كفاءاته ورأيه الرفيع في نفسه ، كان دافنا هذا مؤهلا للحصول على معلومات من هذا النوع ولنقل هذه المعلومات • كان يعرف بجرأة مشرقي ووعي طبيب ووضوح بيبموتني ، كيف يتسقط الأخبار وكيف يعرضها عرضا جافا دقيقا بتفاصيل مفيدة للقنصلية دائما ، مضحكة أحيانا ، لكنها داعية الى الاشمئزاز والالم في غالب الاحيان •

ولئن لم يكن بين الوزيرين أي شبه ، فلقد كانت حاشية كل منهما تختلف عن الاخرى اختلافا كاملا•أما حاشية محمد باشا فهي من شباب

يتعاطون المهنة العسكرية ويمتازون جميعا بأنهم فرسان أفذاذ ورماة ممتازون • وليس بينهم واحد خارق تميزه مزاياه أو عيوبه الجسمية أو النفسية عن الآخرين • انهم جميعا شبان متوقدون ، معتدلو القامة مخلصون لمولاهم أشد الاخلاص متشابهون فيما بينهم كتشابه المماليك الاثنين والثلاثين الذين كانت وجوههم لا تعبر عن شيء وكانت قاماتهم متساوية •

وأما حاشية ابراهيم باشا فهي أكثر عددا وهي مؤلفة من أناس يختلف بعضهم عن بعض اختلافا كبيرا•حتى ان دافنا نفسه ، دافنا الذي لا يخفى عليه شيء من العالم التركي ، كان يتساءل في بعض الاحيان مذهولا : ترى من أين جمع الوزير هذه الحاشية العجيبة ، ولماذا يجرها من مكان الى مكان في العالم ، وكيف استطاع الاحتفاظ بها ؟

كان ابراهيم باشا ، على خلاف أكثر الوزراء ، رجلا معروف الاصل نبيل المحتد لم يصل الى منصبه عرضا • لقد كان أبوه وجدّه من سراة القوم وكبار الموظفين ، تجمعت حولهما على مرّ الايام جمهرة كبيرة من العبيد ، والخلاّن ، والموالي ، والخدم ، والاقرباء الذين لا يعرف درجة قرابتهم الا الله ، والطفيليين ، وأصحاب المنافع من جميع الانواع • وقد استخدم ابراهيم ، أثناء حياته وخاصة حين كان الوزير الاكبر للسلطان سليم ، أشخاصا من أنواع شتى ، لأغراض مختلفة ، فأصبح هؤلاء الاشخاص لا يفارقونه حتى بعد زوال الحاجة التي دعت الى استخدامهم، فهم لاصقون بالوزير لصوق القواقع بجدران مركب من المراكب ، مرتبطون بمصيره أعني بكيسه ومطبخه • وبين هؤلاء الناس شيوخ مهدّمون لا يظهرون قط ، ولا بد من خدمتهم في حجراتهم الصغيرة المبعثرة في القناق • ولا شك في انهم قد قدموا للوزير خدمة من الخدمات الكبرى في سالف الزمن ، خدمة قد نسيها الباشا منذ وقت طويل وأصبحوا هم أنفسهم لا يكادون يذكرونها • وفي الحاشية أيضا

شبان يفيضون صحة وعافية ، ليس لهم وظيفة معينة ولا عمل محدّد ، بعضهم ولدوا في منزل ابراهيم وكان آباؤهم خدماً ، فنشأوا في هذا المنزل وترعرعوا ، ثم قضوا فيه حياتهم لغير ما سبب . وهناك وصوليون وقحون ، وهناك دراويش هم شحاذون عاديون .

لذلك لم يبالغ دافنا حين عرّف قناق الوزير الجديد ، وهو يقدم تقريره للقنصل مبتسما ابتسامته المثيرة ، بأنه « متحف مخلوقات عجيبة » .

هؤلاء الناس جميعا كان الوزير يجرهم وراءه ، ويصبر عليهم صبر من يؤمن بالخرافات ، ويتحمل مع عيوبهم أنواع الكره والنزاع فيما بينهم .

حتى الذين يشغلون مراكز هامة ويتولون تصريف الامور حقا ، كان يندر فيهم البسطاء العاديون . كان جميعهم تقريبا يتصف بغرابة واضحة وشذوذ ملحوظ .

. . .

لاشك فيأنالدفتر دار طاهر بك ، سكرتير الوزير ومستشاره الاول والرجل الموثوق لديه ، يأتي في المحل الاول خطورة شأن وقوة تأثير . هو رجل ممراض غريب المظهر ، لكنه كريم ذكي . والناس يختلفون في تقديره ، الا ان جميع من حول الباشا ومن في المدينة والقنصليتين مجمعون على ان طاهر بك هو دماغ القناق ، وانه للوزير « ساعده الايمن وقلمه » .

وكما يقع لكل موظف عثماني كبير ، فان شهرة طاهر بك قد سبقته الى ترافنك ، وتضخمت وتبدلت أثناء الطريق . فكان الحسّاد منرجال الدين ، وما أكثرهم ، يعضون على شفاههم غيظا حين يتحدثون عنه ،

ثم لا يعزّيهم الا أن يذكروا انه انسان على كل حال ، وان العصمة لله وحده • ولم يكن طاهر بك قد قطع نصف الطـريق الى ترافنك حين استطاعوا أن يخلعوا عليه لقبا • فان أناسا أتوا القسطنطينية قد رووا عنه انه اشتهر بالذكاء والعلم مذ كان تلميذا في المدرسة وانه سمي لذلك باسم « بونار » أي بئر العلم • فسرعان ما خلعوا عليه في ترافنك لقب بير افندي • كذلك هم آغوات ترافنك الذين ينتمون الى أسر عريقة ، وخاصة أولئك الذين يعرفون القراءة والكتابة فيُعدُّون لذلك متعلمين، انهم يجدون نعتا سيئا أو مهينا لكل ما يجهلون أو ما لا يطيقون • وبذلك يحسون أنهم يشاركون في الامور الهامة التي ليس هناك ما يدعو الى تدخلهم فيها •

ولكن حين جاء طاهر بك الى ترافنك لم يعش هذا اللقب الساخر بين الناس وارتد الى الذين تعجلوا الامور يوم خلعوه عليه ، فلا مجال للاهانة ولا مجـال للسخر في حضرة الدفتردار الجديد • وما هي الا أسـابيع حتى كان الشعب يطلق عليه اسـم « الافندي » ، ويلفظ الكلمة البسيطة بنبرة خاصة واحترام عظيم • لقد كانت المدينة تضم في ذلك الوقت عددا كبيرا من الافندية : كتابا ومتعلمين وأنصاف متعلمين وحفظة قرآن ومشايخ ومـدرّسين ، ولكن سرعان ما أصبح هنالك « أفندي » واحد !

وينبغي أن نذكر ان أسرة طاهر بك أسرة عريقة في الثقافة ومعرفة اللغات وفن الكتابة • فلقد ألف جـده معجما ، وكان أبوه السكرتير الاول للباب العالي ثم ختم حياته شيخا للاسلام ، وكان يمكن أن يخلفه ابنه في هذا المنصب لولا ثورة البلاط التي أحاطت بسليم الثالث ونقلت ابراهيم باشا وزيره الاكبر الى سالونيك ثم الى ترافنك •

وطاهر بك يختم الآن السنة الخامسة والثـلاثين من عمره ، ولكنه

يبدو أسنّ من ذلك كثيرا • فمن فتى ناضج قبل الاوان ، أصبح بغير مراحل انتقال تقريبا رجلا عجوزا ، ثقيلا ممراضا • وكان مع ذلك يعيش ويعمل • ان ما قاساه الى جانب ابراهيم باشا حين كان وزيرا أول ، وما اكتنفه من ظروف صعبة شاقة بينما المرض يغزو جسمه الذي كان قبل ذلك قويا منسجما ، قد جعل منه رجلا مريضا جدا ، ولكن تتوهج فيه رغبة الحيـاة ، وتتدفق فيه قوة روحية عجيبة لا تخفى على من يراه •

فلو عرف كيف يعيش حياة معتدلة ، ولو أهمل أعماله بعض الاهمال، اذن لكان يمكن أن يستطيع طبيبه في القسطنطينية شفاءه في أول الامر • ولكن المرض استقر فيه ، وألف طاهر بك أن يتألم وأن يصاحبه المرض • ان في جنبه الايسر جرحا ينتكيء ويلتئم عدة مرات في السنة • لذلك تراه منحنيا دائما ، بطيئا في مشيته دائما ، توافيه في الشتاء وفي الصيف على السواء فترات يتفاقم فيها الالم والارق ، فيضطر الى زيادة المقادير التي يتجرعها من الكحول أو من العقاقير المنوّمة •

وأصبح طاهر بك يعالج جروحه بنفسه منذ اضطر أن يترك طبيبه • هكذا كان طاهر يعرف كيف يتألم في ظلام وهـدوء ، دون أن يشكو أمره يوما ، ودون أن يزعج أحـدا من الناس •

على ان مكان الطبيب في حاشية ابراهيم باشا لم يكن خاليا ، وانما كان يحتله أشرف افندي ، وهو رجل ذكي ، لكن الشيخوخة قد دبت اليه ، فنسي ما كان يعرفه في الماضي • ولست أقصد فن الطب ، فان صلاته بالطب لم تكن وثيقة في يوم من الايام • كل ما هنالك انه كان في شبابه شبه صيدلي ، وقد توفر أثناء نصف عمـره الذي قضاه في الجيش ، على معالجة المرضى ، في الحرب وفي الثكنة جميعا ، بالايحاء والمودة والمروءة أكثر من المقدرة والادوية ، ثم سحبه ابراهيم باشا من الجيش ، وراح ينقله معه حيثما يذهب ، رفيقا لا طبيبا • ولقد كان في

الماضي صيادا مولعا بالصيد ــ صيد البط البري خاصة ــ وهو لذلك يعاني اليوم أوجاع الروماتيزم ، فحيثما وجـد شمسا عرّض لأشعتها ساقيه الملفوفتين دائما بحذاءين لهما قماطان عاليان من الجوخ • وهو رجل متوقد الذهن فكه الروح ، سرعان ما يلاحظه الرائي ، والنـاس جميعـا يحبونه ويحترمونه •

ولكن طاهر بك الذي كان يجب أن يكلم أشرف أفندي وأن يمازحه ، كان لا يخطر بباله طبعا أن يسند اليه أمر علاجه • كان يرتب أضمدته وقطنه ومراهمه ولزقاته في صندوق خاص هو علبـة صغيرة من ثمين الخشب ، مرهفة الصنع ، يزيدهـا الاستعمال انصقالا في كل يوم • لقد حفظ جده في هذا الصندوق أسراره ، وحفظ فيه أبوه ماله ، وهو يحفظ فيه اليوم أدويته •

كان اذا وافته نوبة من نوبات الالم ، أمـر بغلي المـاء ، ثم بدأ يغسل الجرح غسلا طويلا يجري على قواعـد خاصة تشبه أن تكون طقوسا ، ثم داواه وضمّده • كأن يحبس نفسه في غرفة ، ويأخذ يعالج جرحه بانتباه شديد دقيق ، وهو يكز فكيه في تشنج ويقطب حاجبيه • وكان ذلك يدوم في بعض الاحيان ساعات طوالا •

تلك هي اللحظات القـاسية في حياة السكرتير ، ولكن الصعوبات والمرارات كانت تظل مخبأة • فمتى عالج جرحه وشدّ حزامه وارتدى ثيابه ، بدا هادئا قويا ، يختلف عن شخصيته الخـافية • ان في وجهه الساكن البارد عينين ساطعتين لهما نظرة لا تقاوم ، وان شفتيه الدقيقتين ترتعشان ولا تكاد تراهما العين • ولا شيء عندئذ يمكن أن يرهبه أو أن يصعب عليه • ما من انسان بخطر وما من صعوبة يعزّ تذليلها • كان هذا المريض الابدي ، هو بين الاصحاء أقواهم جسما ، وبين الاقوياء أكثرهم استقامة •

وما يمتاز به هذا الرجل من حياة وقوة حقا انما يظهر في نظرته • لقد كان في وسع عينيه أن تتبدلا تبدلا غريبا • فهما تارة واسعتان ساطعتان كأعين أولئك الذين تسمو بهم قوة الفكر على عامة الناس ؛ وتارة هما من ذهب مضيء ، صغيرتان حادتان ، كأعين تلك الوحوش الكاسرة ، المتقدة الباردة ، التي لا تبالي شيئا ولا تعرف الرحمة ، نموس أو سمامير ؛ وتارة هما عينان ضاحكتان حالمتان كعيني صبي عنيد لكنه جواد كريم ، فهما منطلقتان جميلتان كالصبا نفسه • وكان الرجل لا يحيا الا بعينيه ، أما صوته فأبحّ ، وأما حركاته فقليلة وبطيئة•

وكان طاهر بك ، بين سائر معاوني الوزير ، أكثرهم تأثيرا وأقواهم نفوذا • فهو يُستشار في كل ظرف من الظروف تقريبا ، ونصحه مسموع دائما • كان يُعهد اليه بالامور الدقيقة الشائكة التي كان مساعد الوزير نفسه يجهل وجودها ، فكان يهتدي الى حلها بسرعة ، ويعرض الحل بكلمات قليلة وفي عينيه ذلك السطوع الذهبي ، ثم لا يعود اليها أبدا • كان يبذل علمه وذكاءه بغير أثرة ، كرجل عنده كثير وليس في حاجة الى شيء • وكان خبيرا في الشريعة الاسلامية والمسائل العسكرية والامور المالية على حد سواء ، وكان يتكلم العربية واليونانية ، ويكتب بأسلوب رائق جدا وينظم أشعارا أعجب بها السلطان سليم •

وكان طاهر بك بين عثمانيي القناق واحدا ممن لا يشتكون أبدا من منفاهم بالبوسنة ومن توحش هذه البلاد أو خشونة أهلها • انه في قرارة نفسه يتحسر على فراق القسطنطينية التي ألفها أكثر من أي شخص آخر، ويأسى لحرمانه من الترف ومن ملذات الحياة ، لكنه يعرف كيف يداوي حسراته ويخفيها ، كما يداوي جروحه ، وحيدا بعيدا عن أعين الناس •

• • •

وعلى نقيض طاهر بك كان خصمه أمين الخـزانة ، وهو رجـل لا سبيل معه الى صلح ، ولكنه عاجز لا يملك من الامر شيئا . ان اسمه باقي ، ولكن أهل القناق يسمونه قاقي .

هو مسخ روحا وجسما . آلة حاسبة ، انسان يكرهه جميع الناس ، ولا يطلب هو شيئا غير ذلك . ولقـد أصبح الوزير لا يستغني عنه ، بتأثير العادة لا بداعي الحاجة . كان الوزير لايحب أن يراه علىحقيقته ، ويطيق أن يكون هذا الانسان الشاذ الحانق معه ويتحمل أن يحتفظ به كما يحتفظ امرؤ بتميمة من التمائم يعتقد انهـا تقيه من أحقاد الناس ومكاره الحياة ، القريب منها والبعيد ، لأنها تأخذ هذه الاحقاد وهذه المكاره لنفسها . كان للوزير « حية داجنة » على حد تعبير طاهر بك .

ليس لبـاقي زوجة ولا أصدقاء ، فهو مكتف من الحيـاة بتولي حسابات الوزير منذ سنين ، على طريقته الخاصة ، بدقة تامة ، وجـد بالغ ، يوفر كل قرش بشـراسة مرضية معهودة في كل بخيل ، فيحمي هذا القرش من جميع الناس ، ويحميه من الوزير نفسه ! وكانت حياته التي لا تـفرحهـا أية سعادة شخصية ، ولا تداخلهـا لذة من اللذات ، موقوفة كلها على الاهتمام الاناني بشخصه ، وعلى كفاح مستمر ضدّ أي انفاق يتم في أي مكان من أجـل أي انسان . ان به شـرا قاسيا لا حدود له ، وهو لا يرجو من هـذا الشر نفعا ، ولا يسأل الحياة الا هذا الشر نفسه .

هو رجل سمين قصير أحلت . جلده الاصفر الناعم الشفاف لا يبدو ممتلئا بعضلات وعظام ، بل بسائل لا لون له أو بهواء.وخداه المنتفختان تتدليان تدلّي كيسين ، تسبح فوقهما عينان متحركتان ، زرقتهما كزرقة أعين أطفال صغار ، لكنهما محاذرتان مهمومتان دائما ، لاتضحكان أبدا. ورداؤه وقميصه منفتحان انفتـاحا واسعا على عنقه المنفوخ المطـوّق

بغضون ثلاثة ، كعنق امرأة سمينة مصابة بفقر الـدم • انه على وجـه الاجمال أشبه بقربة متشمصة يكفي أن تخزها بدبوس حتى تنفشً في صفير طويل • وكان هذا الجسم كله يرتعش من نفثه هو نفسه ، ويهاب أي اتصال بأي شيء عداه •

وكان باقي لا يطيق أي مزاح ، ولا يحب أي تسلية • وكان لا يتكلم الا قليلا ، ولا يقول الا كلاما أعدّه ، وهو الكلام اللازم بلا زيادة • ولكن كان يفرحه أن يصغي الى ما يقوله غيره ، وأن يتأمل شخصه وما يعدّه ملكا له خاصا به ، فلو أوتي عمـرين اثنين لمـا كانا كافيين لهذا التأمل • وكان لا يأكل الا قليلا ولا يشرب الا ماء ، لأنه ليس له أسنان تمضغ ولا معدة تضم • وتوفير لقمة من الطعام أشهى عنده من التهامها ؛ ولكن لا بد أن يقتات ، فهو لذلك يهيىء كل فتاته ، ويقلـّبها ثم يقلـّبها ، وينظر اليها في حب لأنها ستصبح جـزءا من جسمه • وهو يشعر ببرد دائم ، أين كان ومتى كان ، في أي فصل من فصول العام ، ولكن جلده الحساس وجسمه الرخو لا يأذنان له أن يرتدي القـدر الواجب من الملابس • ورب درزة أو غبنة توجعه ، حتى لقد تخنقه هـذه الملامسة وتثير عطفه على نفسه الى حد الاشفاق • لذلك ظل طوال حياته يبحث عن أقمشة خفيفة دافئة يتخذ ملابسه منها ، وينتعل أحذية خاصة بسيطة مريحة لا يحفل بالعادات ولا يكترث للناس • وكان من أحلامه المفضّلة حلم يغرقه دفئا : هو أن لا يكون له الا غرفة واحدة ، صغيرة خالية من الاثاث ، مدفأة من كل مكان بنار خفية لا تـرى ، نار متساوية متصلة ، على أن تكون الغرفة نيـّرة نظيفة ممتلئة بهواء يتجدد ، هيكلا مشيدا له ، قبرا دافئا يستطيع منه أن يزاول تأثيره القـوي المتصل في العـالم ، متلذذا بنفسه مؤذيا غيره •

ذلك ان باقي لم يكن بخيلا فظـا وأنانيا شاذا فحسب ، ولكنه استطاع أيضا بالوشاية والغيبة والنميمة أن يفسد حياة كثير من الناس ،

وأن يقطع عددا كبيرا من الاعناق ، خاصة في العهد الجميل من حياته ، أيامَ كان ابراهيم باشا وزيرا أول ، فكان باقي على صلة بالشخصيات الكبيرة وكان من الامور في القلب . كان يقال أيامئذ : « لن يأكل امرؤ قلب باقي طبقه ! » وحتى بعد أن طُرد الى ترافنك ، وأصبح بغير علاقات وبغير نفوذ ، ودب اليه الهرم ، وصار مضحكا أكثر مما هو خطر ، لم ينقطع عن الكتابة الى شخصيات كثيرة بالقسطنطينية يروي بحكم العادة كل ما يصل الى علمه من أمور ، ويفتري على كل من يستطيع الافتراء عليه ، ويتهم كل من يستطيع اتهامه . وكان قادرا على أن يقضي الليل كله في القيام بهذه الاعباء ، مكبا على ورقه ، فرحا خلال هذه الساعات فرحَ غيره بصحبة سعيدة لطيفة ، وذلك من تلقاء نفسه وبدافع من طبعه ، لا يرجو نفعا ، ولا يشعر بحياء ، ولا يعذبه ضمير ، ولا يحس بخوف ، وانما يدفعه الى ذلك كله خلق فطر عليه .

ان جميع من يعيشون في القناق يكرهون هذا الخازن ، والخازن يكرههم جميعا كما يكره العالم بأسره . وهو يسلخ النهار كله مكبا على النقود ، متمتما بعدّها كما يُتمتم بدعاء، يحسبها ثم يعيد الحساب، ويصنفها بقصاصات ورق سرقه من موظفين آخرين . وكان يتجسس على جميع الناس ، ويضرب الخدم ويطردهم ، ويزعج الوزير بتقاريره التي يكتبها عن كبار الموظفين ، وبتوسلاته اليه أن يمنعهم من الاتلاف والتبذير . انه يحارب الانفاق والتضييع ، واللذة والفرح ، ويحارب كل نشاط تقريبا ، لأن كل انسان مرحٍ غير مبال ، هو في نظره رجل مضياع عاطل خطر ، انه يحارب الحياة نفسها بترهات حقيرة ؛ انه يدفع أجرا لجواسيس يخبرونه عن الحجرات التي يستمر فيها النور مدة طويلة ، ويزن ما يأكله كل واحد وما يشربه كل واحد ان صح التعبير ، حتى ليعد البصلات في البستان متى نبتت من الارض .

والحق ان هذه التدابير وهذه الجهود كانت تكلف نفقات تفوق

الخسارات التي يريد باقي منعها • حتى لقــد قال طاهر بك مازحا ان حماسة باقي تؤذي الوزير أكثر مما تؤذيه نقائص الموظفين وعيوبهم • ولكن الخازن لا يحفل بهذا ، وهو ما ينفك يهبط الى القبو أو يصعد الى العنبر ، يحصي كل شيء ، ويسجل كل شيء ، ويراقب كل شيء ، ويفوته في حقيقة الامــر كل شيء • انه يقاتل أن تجري الحيــاة على طبيعتها قتال المستميت ، ولو استطاع لأطفأ الحياة من العــالم بأسره (كما كان يخنق الشموع الزائدة باصبعيه المبتلتين ، الابهام والسبابة) ، ليبقى وحيدا الى جانب هــذه الشعلة المطفأة ، متلذذا بموت كل شيء وبقائه هو بعده ، سعيدا بأنه ظافر وشاهد على ظفره في آن واحد •

وكان يكره الاغنياء الذين يملكون ثراء كبيرا وينفقون ويبذرون ، ولكنه يكره الفقراء كرها لا حدود له ، ويمقت أشد المقت هذا التنين الذي له ألف فم لا ترتوي من ظمأ • كان حسبُ من يريد اخراجه عن طوره من أهل القناق ، أن يدنو منه فيقول له بوجه حزين ونبرة أسيانة ان فلانا من الناس يستحق المعونة « لأنه فقير » • فاذا بباقي يثب من مكانه بسرعة كسرعة الآلة ، ويصيح بصوته الصغير وقد طاش صوابه وجُنّ جنونه :

ــ فقير ؟ وما فائدة الفقير ؟ وما لك وللفقير ؟ دع الطوفان يأخذه ! أ أنا رب الفقراء حتى أجعلهم أغنياء ؟ ان ربهم لا يغنيهم ، فقد ملّهم وسئمهم •

ثم يقول وهو يحني رأسه ويبدل صوته مقلدا مخاطبه :

ــ لانه فقير ! وماذا أن يكون فقيرا ؟ ماذا ؟ أصار الفقر في هــذه الايام شرفا ؟ أصار لقبا يمنح صاحبه حقوقا ؟ « فقير » ! لكأن الفقير « حاج » أو « باشا » !

ثم يرفع صوته مُحنِقا ، ويقرب وجهه من وجه مخاطبه ويقول :

ـ لماذا يأكل اذا كان فقيرا ؟ ما من أحد يأكل كما يأكل الفقراء ••• لماذا لا يقتصد ؟

وكان ينصرف ذهنه الى ميزة أهل البوسنة : انهم بسطاء أعِفّة ، والفقراء فيهم صابرون ،لا يستجدون شيئا ، ولا يداهمون عابر السبيل كما يفعل فقراء سالونيك والقسطنطينية • لكنه لا يحب سكان ترافنك ، لانهم مولعون بالحليّ ، كلفون بالثياب الباذخة ، فلرجالهم أحزمة كبيرة وسراويل مغطاة بشرائط الحرير ، ونساؤهم يرتدين ملاءات من ثقيل الجوخ ويضعن على وجوههن خمارا مطرزا بخيوط من ذهب حقيقي • كان هذا يسيئه • وكان لا يستطيع أن يفهم كيف يملك هؤلاء الناس مالا ، وكيف يشترون أشياء باهظة الثمن من هذا النوع ، وكيف يبدلونها من حين الى حين لانها سريعة البلى : كان يصاب بدوار من فرط ما يوغل في حساب هذه النفقات • فاذا أراد أحد أن يدافع عن أهل ترافنك ، وحاول أن يبرهن على أن النظافة وحسن الهندام يسران النظر ، وثب عليه باقي قائلا :

ـ لا اعتراض على النظافة • ولكن من أين يأتون بثمن هذه الملابس ؟ أنا أسألك من أين يأتي المال في هذا البلد الريفي ؟

وكلما أوغل المخاطب في تبرير بذخ سكان ترافنك على سبيل التفكه والتندر ، ازداد صاحبنا الخازن حنقا وغيظا ، فاذا عيناه الزرقاوان المضحكتان تمتلئان هماً وغماً ، وتصطبغان على حين فجأة بلون كلون البنفسج ، وتصيران الى دكنة كدكنة العاصفة ، وتسطعان بمعنى الخبث والشر • وكدرويش خرج عن طوره ، يتقدم بما يطيق من سرعة ، على ساقيه القصيرتين ، الغارقين في الشحم حتى لا تكادان تبينان ، ويأخذ يحرك يديه ههنا وههنا ، حتى اذا صار في وسط الغرفة باعد ساقيه ومدّ ذراعيه وفرّق أصابعه القصيرة ، وقال بصوت حانق ولهجة ما تنفك تعلو وتزداد مرارة :

ـ من أين يأتي المال ؟ المال من أين يأتي ؟

وعندئذ يتوارى الممازح الذي ما جاء الا ليحنق الخازن ويثير غيظه ، فيتركه وحيدا في وسط الحجرة ، وقد بلغ منه الغضب ذروته ، ولم يتلق جوابا على أسئلته ، وغرق بلا أمل ولا عون في هذا الخضم الهائج من النفقات التي لا مسوّغ لها ومن الحسابات الهائلة في عالم شقي مسعور .

. . .

ان الرجل الذي يعرف الخازن باقي كما لا يعرفه غيره ، ويجيد قصّ حكاياته ، انما هو أشرف افندي ، الطبيب المريض . فمن أشرف افندي انما كان دافنا يستقي أخباره عنه .

كان أشرف افندي يجلس في الشمس مادا ساقيه الملفوفتين بأقمطة الصوف ، واضعا على الركبتين ذراعيه الطويلتين النحيلتين اللتين تخددهما أوردة وندبات ، ويأخذ يتكلم بصوته العميق الأبحّ ، صوت الصياد ، فيقول :

ـ نعم ، هو الآن مضحك ، وما من خنزير يحرص على أن يحتك به ، ولكن كان ينبغي أن تعرفه قبل ذلك . وحتى في هذا الحين يجب أن لا تستهين به . تقول انه أصفر ، وان يديه ترتعشان . هذا صحيح . ولكنك تخطيء اذا قدّرت على هذا الاساس أنه لن يعيش طويلا ، وأنه لن يكون مؤذيا وخطرا لكل من يحيا حوله ما استطاع الى ذلك سبيلا . صحيح أنه أصفر كسفرجل ناضج ، ولكنه لم يكن غير ذلك في يوم من الايام . لقد ولد أصفر . هذه خمسون سنةً ظل خلالها هذا المخلوق يدب على الارض ويسعل ويعطس ويئن وينفث من كل صوب كقربة مثقوبة . انه مريض ، وهو يوسخ كل شيء حوله منذ

وسَّخ لاول مرة فراش القش الذي ولدته عليه أمه حتى يومنا هـذا • لقد سلخ نصف حياته في فترات امساك طويلة ، وسلخ نصفها الآخر في فترات مغص شديد يجعله يجري في أفنية البيوت حاملا دلواً ، دع عنك وجع الاضراس الذي لا يفارقه ، ونوبات الارق ، وطفرات الثبور ، وحالات النزف وما الى ذلك ، غير أن هذا كله لم يمنعه يوما من التدحرج الى كل مكان كبرميل ، ومن ايذاء كل شيء وكل انسان بسرعة أفعى وقوة ثور • وأني لأعترض أيضا على عدّه بخيلا ، فهذا اهانة للبخلاء • ان البخيل يحب المال ، ويحب بخله ، ويضحي في سبيلهما بأشياء كثيرة، أما هذا فلا يحب شيئا ولا يحب أحدا غير نفسه ، وهو يكره كل من على هذه الارض من أحياء وأموات على السواء • لا ، ما هو ببخيل ! وانما هو صدأ خبيث يأكل كل ما يمس •

وكان أشرف افندي يختم كلامه ، وهو يبتسم تبسمـا خفيفـا ، بقولـه :

ــ ها ••• نعم ••• اني لأعرفه كما لا يعرفه أحد • لكنه لم يستطع أن ينال مني في يوم من الايام • ذلك أنني صياد كما تعلم ، رجل حر طليق ، وقد ظللت طوالي حياتي أعرف كيف أركل أمثاله من السائمة !••

• • •

استطاع دافنا أن يعرف عدا هذه الشخصيات الكبيرة ، عددا آخر من الموظفين ، وأن يطلع القنصل على أخبارهم •

من هؤلاء موظف الأرشيف ابراهيم ، وهو رجل نحيل يقال انـه أمين لا يرتشي ، ويتصف بأنه صموت منزوٍ يقتصر على العناية بأولاده الكثيرين ، وبمراسلات الوزير وأضابيره • وقد انقضت حياته في صراع مع الكتاب الذين لا خبرة لهم ولا ضمير ، ومع السعاة والشيَّالين

ومع هذه الاكداس من أوراق الوزير التي لا يصل يوما الى ترتيبها • وهو يقضي سحابة نهاره في غرفة مظلمة ، مليئة بصناديق تتكدس على رفوف وفق نظام لا يعرفه أحد غيره • حتى اذا طلبت اليه نسخة من وثيقة ما اضطرب في كل مرة اضطرابه لشيء لم يكن في الحسبان قط ، شيء جديد كل الجدة ، فوثب الى وسط الغرفة ، ووقف هنالك واضعا يديه على صدغيه ، وأخذت عيناه السوداوان تشوصان وتنظران الى رفين في آن واحد ، على حد تعبير أشرف افندي ، ثم طفق يردد بغير توقف عنوان الوثيقة المطلوبة ، ببطء في أول الامر ، وبمزيد من السرعة بعد ذلك مع تناقص في المدّ والوضوح ، الى أن تصير ألفاظه في آخر الامر دندنة تخرج من أنفه • وفجأة تنقطع الدمدمة التي لا تفهم، ويهرع موظف الارشيف الى أحد الرفوف باسطا ذراعيه ، ويكون النص المطلوب عادةً في ذلك المكان ، ولكن اذا اتفق أن لم يجده عاد ابراهيم الى وسط الغرفة واستأنف تفكره ودندنته الى أن يثب وثبةً أخرى نحو رف آخر • ويستمر ذلك حتى يعثر على الورقة التي يبحث عنها •

• • •

وكان آمرَ حرسِ الوزير رجلٌ يقال له بهجت ، وهو امرؤ يتمتع بصحة قوية لا يعرف المرض سبيلا اليه ، ضخم الجسم ، أحمر الوجه ، شجاع خفيف مرح ، لكنه مدمن على القمار ادمانا لا برء منه ، كسول يحب الراحة ويكره العمل ؛ وجنوده الاربعة والعشرون ، من المشاة والفرسان الذين يتألف منهم هذا الحرس المبرقش ، لا يكلفونه عناءً كبيراً ولا يحملونه هماً كثيرا • فلقد رتبوا أمورهم على نحو يعفي رئيسهم من الاهتمام بهم ويعفيهم من الاهتمام برئيسهم ، لاعبين آكلين شاربين نائمين • والعقبة الكبرى التي كانت تعترض آمر الحرس هي

حملُ الخازنْ باقي على دفع الرصيد الشهري أو على صرف نفقة اضافية • فكانت تقوم بين الرجلين عندئذ مشاهد لا يصدقها العقل • كان باقي ، بتفاهاته وسخافاته ومراوغاته ، يحنق بهجت الطيب في آخر الامر ، ويخرجه عن طوره ، فاذا هو يستل مديته ويهدد الخازن بتقطيعه اربآ اربآ • ولكن باقي ، رغم صغره وجبنه ، قادر على مواجهة مدية بهجت حمايةً لخزنته ، فها هو ذا ، وقد أعماه كرهه واشمئزازه من هذا المتلاف ، يحلف أنه لن يموت قبل أن يرى رأس بهجت معلقا على وتر مغروس في وسط المنحدر فوق المقبرة ، حيث تنشر الرءوس المقطوعة، رءوس اللصوص قطاع الطرق •

وتسوّى الأمور أخيرا ، فيأخذ آمر الحرس ماله ، ويخرج من غرفة الخازن ضاحكا مقهقها ، ويبقى باقي على صندوقه وحيدا يداري الفراغ الذي حدث فيه مداراة جرح جديد ، ويتهيأ للذهاب الى الوزير يشتكي اليه للمرة المائة من هذا الوغد ، من هذا اللص الذي يستنزف خزنته ويفسد عليه حياته منذ سنين • وكان يتمنى على الله صادقا من أعماق قلبه قلب الخازن ، أن يمدّ في عمره ، الى أن تسود العدالة ويسود النظام ، فيرى كيف يستطيع أن يضحك هذا الرأس الاجوف الوقح ، رأس بهجت ، حين يعلق على وتد •

• • •

وكان سليمان باشا سكوبلاك يتولى وظائف مساعد الوزير ، كما كان في عهد محمد باشا • وكان سليمان باشا لا يقيم في ترافنك الا نادرا ، فاذا كان فيها كان أميل الى قنصل النمسا • ومع ذلك فهو ، بين هذا الخليط المبهم من أهل القناق ، الرجل الوحيد الذي يمكن الاطمئنان الى أنه لا يعد الا وفي نيته أن ينفذ وعده ، اذا استطاع الى ذلك سبيلا •

الفصل العاشر

بمدينة ترافنك ، مدينة الوزير ، ولّد عهد القناصل حركةً مـا ، بل ولّد اضطرابا ما • ومن الاتصال بهذا الاضطراب كثيرا أو قليلا ، أثرى بعض الناس وهوى بعض آخر ، فمنهم من يحمل ذكريات جميلة ، ومنهم من يحمل ذكريات أليمة •

ولكن لماذا كتب على سالكو مالوخجا المسكين ، صبي الحلاّق ، ابن الارملة البائسة ، أن يضربه خدم البكوات ضربا مبرّحا ؟ لمـاذا ترتبط آلامه بعهد القناصل ، وهـو الذي لم يتصل يومـا بموظفي الامبراطورين ، ولا بالبكوات ، ولا بالرؤساء ، بل ولا بمشايخ المسلمين أو تجار المدينة ؟

ذلك أثر من آثار قوة من تلك القوى الحيوية التي تسري فينـا وتسري من حولنا ، فترفعنا الى فوق ، وتدفعنا الى أمام ، وتقفنـا عن المسير ، وتقذف بنا الى الهاوية • ان هذه القوة التي نوجز القول فنطلق عليها اسم الحب قد حدت بصبي الحلاق سالكو أن يتسلل الى أراضي أسرة حافظادتش وأن يمزق جسمه بأشواك أسيجتها ، بغية أن يتسلق الاشجار فيرى بعينه الفتاة آجاتي ، بنت قنصل النمسا •

وكسائر الصادقين من العاشقين ، لم يكن سالكو يتحدث عن حبه ، ولا كان يفصح عنه ، ولكنه اكتشف سبيلا الى اروائه بعض الارواء على الاقل • ففي ساعة الفراغ التي ينعم بها وقتَ الغداء ، كان يتسلل الى حظائر الخان القديم ، ثم يمضي من خلال الفجوة التي تُرفع منها

الأوساخ الى سياج يختبيء فيه ، فيرى من هنالك حديقة القنصل ويرى ابنة القنصل التي يجذبه اليها شيء أقوى وأكبر من كل قوة في جسمه الواهن ، جسم الصبي •

كان بمتد بين هذا السياج وحديقة القنصل بستان بكوات أسرة حافظادتش ، وهو بستان ضيق مهجور غرست فيه آشجار الخوخ ، ولكن الناظر يستطيع من فوقه أن يرى حديقة القنصل المصفّفة على الطراز الاوروبي • ان الطرق في هذه الحديقة مفتوحة ، والجثوات ممهّدة • وفي وسطها تمتد ممرات على شكل منحنيات أو نجوم • وعند نهاية الاحواض غرست أوتاد عليها كرات من زجاج زرقاء وحمراء • وهذه الرقعة كلها مسقية جدا ، ولكنها في الوقت نفسه مشمسة ، فالازهار والثمار تنبت فيها سريعة عالية •

هنالك انما كان الحلاق سالكو يرى ابنة ميترر ؛ ولقد سبق أن رآها مارة في عربتها مع أبيها : لكن ذلك لم يحدث الا مرات قليلة وبسرعة خاطفة ، فكان لا يدري الى ماذا ينظر : ألى الزي العسكري الجميل الذي يرتديه القنصل ، أم الى العربة الخضراء اللامعة التي يركبانها ، أم الى « الآنسة » التي كانت تشتدُّ على ساقيها غطاءً رماديا عليه تاج أحمر وطرر مطرّزة • أما الآن فها هو ذا يستطيع أن ينظر من قرب الى هذه الفتاة التي لم يستطع قبل ذلك يوما أن يلاحظ لون عينيها ، ها هو ذا يستطيع أن ينظر اليها متنزهة متجولة ، دون أن يخطر ببالها أن أحداً يمكن أن يراها في هذه الحديقة ، أمام شرفة الطابق الارضي الذي كان في الصيف الماضي موصدا بنوافذ الزجاج •

كان سالكو يشخص اليها من خلال السياج ، مختبئاً عن الانظار ، جاثيا على الارض ، فاغرا فاه ، حابسا أنفاسه • وكانت الفتاة ، وهي مقتنعة بأنها وحيدة تماما ، تدور حول الادغال ، وتنعم النظر في قشرة

الاشجار ، وتثبت من طرف الى طرف في الشعاب ، ثم تقف فتنظر تارة الى السماء وتارة الى يديها ، كتلك الحيوانات الصغيرة التي تتوقف عن ألعابها فجأة لا تدري ماذا تصنع بأجسامها ؛ حتى اذا نالت حظهـا من الوقوف ، استأنفت سيرها في الحديقة من طرف الى طرف ، محركـةً ذراعيها ، صافقةً يديها أمام صدرها أو خلف ظهرها • وكانت قامتها تنعكس بثوبها الناصع على كرات الزجاج الملونة انعكاسا عجيبا بين السماء والخضرة •

كان سالكو يغفل غفلة تامةً عن العالم والمكان والزمان الـذي هو فيه ، ويغفل عن أبعاد جسمه ، ولا يشعر الا حين يهم بالانصراف أن ساقيه المثنيتين قد تخدرتا وأن يديـه وأظافره المليئة بالتراب والقشور تؤلمه • حتى اذا عاد بعد ذلك الى الحانوت ، وأخذوا يضربونه لتأخره ، أحس بقلبه يضطرب من شدة الانفعال ، ولكنه في الغداة ينتظر انتهاءَ غدائه الفقير بفارغ صبر ، ليتغلغل من خلال الاسطبلات الى سيـاج منزل حافظا دتش ، وهو يرتعش مخافة أن يُقبض عليـه ، ويرتعش كذلك فرحا بما ينتظره من سعادة •

وفي أصيل أحد الايام ، والجو رائق صاف لطيف بعد مطر صباحي جميل ، لم تكن الفتاة في الحديقة • ان شعاب الحديقة ما تزال مخضلة ، والمطر الغزير قد مهَّد الممرات ، وكرات الزجاج المغسولة تسطع في الشمس وتتراقص عليها احدى الغمامات البيضاء القليلة في مرح • فلما لم ير سالكو الفتاة ، تأجج شوقه ونفد صبره ، فصعد السيـاج فـي أول الامر ، ثم تسلق شجرة قديمة من أشجار الخوخ كانت قريبـة من السياج وسط فسحة غزاها نبات الخمان • وأخذ ينظر من خلال أوراق الشجر الكثيفة •

كانت النوافذ في الشـرفة مفتوحةً على مصـراعيها • والشمس

والسماء تسطعان في الزجاج ، وعلى قدر سطوعهما كانت ظلمة الحجرة . ورأى سالكو السجادة الحمراء الممدودة على الارض ، ورأى اللوحات الغامضة المعلقة على الجدران . وكانت بنت القنصل جالسة على كرسي صغير واطيء . ان على ركبتيها كتابا كبيرا ترفع عنه بصرها في كثير من الاحيان ، ثم تسرّح طرفها على الشرفة من خلال النوافذ . ان هذه الجلسة الجديدة التي لم يرها سالكو قبل الآن ، قد زادت أعصابه اهتياجا وتوفزا . ان عليه أن يحدّق مزيدا من الحديق لان القاعة مظلمة والفتاة بعيدة . وهو يخشى أن تزل قدمه ، ويخاف أن ينكسر الغصن . وكان يذوب حنانا وهو يراها ساكنةً على هذا الوضع ، ويرى وجهها يزيده الظل طولا وشحوبا . وقال لنفسه : لا بد أن يحدث شيء آخر أيضا ، لا بد أن يحدث شيء أشد اهاجةً وأعمق اثارة ، لا بد أن يحدث شيء خارق كما كانهذا النهار الممطر خارقاً. ولكن ما عسى أن يحدث ؟

وها هي ذي تضع يديها على الكتاب ، فاذا بأنفاس سالكو تنقطع ، واذا بأفكاره تقف . نعم ، لسوف يحدث شيء . حقا سيحدث شيء : تنهض الفتاة المترددة في رفق ، وتقبض يديها ثم تبسطهما مع بقاء أطراف أصابعها مضمومة . انها تنظر في أظافرها . لسوف يحدث شيء ... ثم تفصل أصابعها بعضها عن بعض ، كأنها تقطع شيئا رقيقا ناعما لا يُرى ، وتنظر الى تحت ، وتبعد ذراعيها قليلا عن جسمها ، ثم تطفق ترقص في وسط السجادة الحمراء .

رأسها مائل كأنها تنصت الى حديث ، وعيناها مطرقتان تنظر الى طرفي حذاءيها ، وعلى وجهها الساجي الملهم يتعاقب الظل والنور من هذا النهار الماطر . لقد وقع ما توقعه سالكو ، فأصبح سالكو لا يعرف من هو ولا أين هو . انه ينتقل منالجذع الكبير الى الاغصان الصغيرة ، متطاولا بجسمه الى أعلى ليرى من فوق السياج ، ويزداد تطاولا كلما قذفت الفتاة ساقها قليلا الى أمام . ان كل شيء في سالكو يرتعش ،

انه لا يكاد يطيق هذا الحنان الذي يسري في جسمه • والفتاة ماضية في رقصها لا تتوقف • حتى اذا عادت الى خطوة بعينها من خطوات الرقص مرة ثانية أو ثالثة أحس سالكو أنه يرى مرة أخرى شيئا عزيزا غالياً يعرفه منذ زمان بعيد •

وانكسرت الشجرة فجأة : انشق الغصن وتحطم تحته • فأحس أنه يسقط من خلال الاوراق ، وأن الاغصان تجلده وتمزقه ، وأن ضربات تقع على ظهره وعلى رأسه • ونكس من فوق السياج ثم هوى على الارض فوق كومة من دفوف مخضرّة أكلتها الديدان التي تغطي القناة • وانهارت الالواح من ثقله ، وغار في الوحل حتى الركبتين •

فلما رفع سالكو وجهه الملطخ المخدّش ، وفتح عينيه ، رأى أمامه خادما من مطابخ حافظادتش ، وهي عجوز صفراء اللون رثّة الوجه كأمه • قالت له :

ـ هل أُصبت بأذى يا بني المسكين ؟ أي شقاء دفع بك الى هذه الاقنية ؟

ونظر سالكو الى جميع الجهات عسى أن يلمح شعاعا من أشعة ذلك الجمال الذي كان يضيئه منذ هنيهة • وكان يصغي الى العجوز لا يفهم ما تقول ، ويشخص محملقا الى الخدم الذين أخذوا يهرعون حاملين هراواتهم ، دون أن يثوب اليه وعيه ، ودون أن يفهم ما حدث له ومايريد به هؤلاء الناس •

أما الفتاة النحيلة الحزينة المنزوية فقد مضت تطوف وترقص ، جاهلةً بما وقع بسببها في الحديقة المجاورة ، كما جهلت منذ برهة أن هناك أحدا ينظر اليها •

وبعد أن ضُرب الصبي في حديقة حافظا دتش ، وبعد أن تلقى صفعاتٍ في دكان الحلاق لتأخره ، حُرم في المساء من العشاء ، فكذلك

كانت تعاقبه أمه ، التي شاخت قبل الاوان ، والتي هدها الفقر هــذا وجعلها قاسية حانقة • ومنذ ذلك اليوم أصبح الصبي لا يتسلل الـى حدائق الآخرين ، ولا يتسلق الأسيجة والاشجار لينظر الى من لم يخلق له • وظل في الدكان أبلغ حزنا وأشد صفرة منه في أي وقت مضى ، يحلم بالفتاة الصغيرة العجيبة الجميلة على هواه : انها ترقص الآن أمامه على ما تشاء رغبته ، وهو يستطيع الآن أن يتخيلها لا يخشى سقوطا ، ولا يخاف أن يمسكوه وأن ينهالوا عليه ضربا •

على أن للاحلام ثمنها أيضا • فحين كان الصبي يمسك طاسةالصابون بيديه الزرقاوين النحيلتين الى جانب الحلاق الذي يحلق رأس أحـد الافندية ، كان مولاه يلاحظ شرود نظرته في بعض الاحيان ، فيُفهمه بحركة مألوفة من يده وعينيه أن عليه أن ينظر الى الموسى وأن يتعـلم استعمالها ، لا أن يسرح ولا أن يرحل ببصره بعيدا خارج باب الدكان • فكان الفتى يفيء الى نفسه ، فيأخذ ينظر الى الحلاق خائفا ، ويثبت نظره على الموسى طائعا ذليلا • ولكن نظرته ما تلبث بعد دقيقة واحدة أن تبتعد مرة أخرى عن المنشفة الزرقاء التي تغطي جمجمة الافنـدي عقب حلاقتها بالموسى ، فهو يرى حديقة الجنات ، ويرى فيها الفتاة تخطر بخطاها الخفيفة كأنها روح بلا جسم • ويلاحظ الحلاق غياب مساعـده من جديد ، فاذا بصفعةٍ تهوي من يده اليسرى على الصبي • وينبغي للصبي عندئذ أن يستعمل كل ما يملك من حذق حتى لا تسقط الطاسة، وأن يتحمل الصدمة هادئا ، فان فعل وقفت الامور عند هذا الحد ، والا انهمرت عليه الصفعات كوابل المطر •

تلك القوة التي تحدثنا عنها كانت تظهر دون أن يتوقعها أحـد ودون أن يوجسها أحد ، كما كان الماء ينبجس من باطن الارض • انها تندفع وتسيطر على أكبر عددٍ من أفراد الجنسين • فاذا هي ، على حين

بغتة ، تظهر في أماكن لا محل لها فيها ، ولا سبيل لها الى البقاء فيها من فرط ما تلقى من مقاومة .

ان السيدة فون ميترر قد أخذت تزور الكنائس والمعابدالكاثوليكية في أطراف ترافنك منذ وصولها الى هذه المدينة ، حاملةً اليها الهدايا، ولم يكن هذا برغبة منها بل بطلب من الكولونيل زوجها: كان الكولونيل يريد أن يقوّي تأثيره في رجال الدين وأفراد الشعب .

كان يستحضر من فيينا أواني من الخزف المزيف ، وشمعدانات كبيرة مُذهَبة الفروع ، وهي أشياء بخسة الثمن ولا ذوق فيها لكنها نادرة في هذه المناطق . وكان يستحضر من زغرب أقمشةً من البروكار المطرّز (من صنع الراهبات الكرواتيات) تهديها السيدة فون ميترر الى دير جوتشا جورا والى قسس الكنائس الفقيرة في القرى المحيطة بمدينة ترافنك .

فكانت آن ماري ، حتى في هذه المهمة النافعة التي ترضي الله ، لا تعرف كيف تحافظ على القصد والاعتدال . ان طبيعتها المتقلبة تغلبها دائما ، فاذا كل ما تشرع فيه من أمر يخفق أو يجيء على نقيض ما أرادت له أن يكون . لقد ايقظت حماستها حذرا وشكاً في نفوس الافراد ، وأثارت خوفا وخشية في نفوس سكان دولاتس الذين عرفوا بالارتياب والوجل ، وأثارت شيئا من هذا في نفوس الرهبان أيضا . كانت في توزيع هداياها تتبع هواها ونزوتها ، فاذا هي تظهر في الكنائس على حين فجأة ، فتضع الاشياء في الهيكل على ما يريد لها ذوقها ، وتأخذ تصدر أوامرها بتهوية الكنيسة وتنظيف الابنية وتبييضها بالكلس . وكان الرهبان يتطيّرون من كل ما هو جديد على وجه الاجمال ، ويكرهون أن يتدخل أحد في أمورهم ، مهما تكن نواياه حسنة ، فكانوا يرقبون هذا كله منزعجين متضايقين ، ويتبادلون النظرات ويتفاهمون على تنظيم المقاومة .

أما راهب قرية أوروواشيبيه ، وهي أقرب قرية الى مدينة ترافنك ، فقد وقعت حماسة السيدة فون ميترر عليه وقوعَ نازلة من النوازل حقاً . كان هذا الراهب الذي يقوم على سدانة الكنيسة ، واسمه ميجات باكوفتش ، وحيدا في الكنيسة أيامئذ ، بسبب غياب كاهنها المسمى الأخ ميجات أيضا ، والملقب كولار . ان ميجات باكوفتش فتى ممراض حسير البصر مهيأ للاحلام ، لا يحتمل الضجر والسأم ولا يحتمل الحياة القروية القاسية الا في كثير من العناء ، وقد قبل في الرهبنة حديثا فما شعر بعدُ بالوقوف على قدميه وقوفا ثابتا قويا .

هجمت عليه آن ماري بكل ما في نفسها من لهيب الحماية والرعاية ، حادبةً عليه ذلك الحدب الذي فيه شيء من أمومة وفيه شيء من حب ، ذلك الحدب الذي سرعان ما يضع في الحرج أكثر الرجال خبرةً وأكثرهم هدوءا . كانت تصل الى قرية أوراشيبيه على الحصان ، مرتين أو ثلاث مرات في بعض الاحيان ، فتنزل عن صهوة جوادها مع حاشيتها قربَ الكنيسة ، وتنادي الراهب ، وتأخذ تصدر اليه تعليماتها بشأن ترتيب الكنيسة والبيت ، وتتدخل في شئون منزله ، وتوزيع وقته ونظام صلواته . فكان الراهب الفتى ينظر اليها حلما من الاحلام أجملَ وأروع من أن يسعد به دون أن يتألم .

ان التخريمة البيضاء الضيقة التي تطوق عنقها والتي يسطع بياضها الى جانب سواد رداء الفرسان الذي ترتديه ، تتلألأ كأنها منسوجة من خيوط الفضة ، وتبهر الاعين التي لا تجرؤ أن تحدِّق في هذا الوجه الأنثوي . كان الراهب يرتعش أمامها كأن به حمَّى ، وكان يسرُّ السيدة فون ميترر أن ترى يدي الراهب النحيلتين ترتعشان وهو ينظر الى وجهها . وكان هو يموت أثناء ذلك من شعوره بالخجل والعار .

فاذا قفلت راجعةً على حصانها الى ترافنك ، وهبطت الرابية ، ظل

الراهب جالسا على المقعد أمام دار الابرشية مغموم النفس • ان كل شيء يبدو له عندئذ صعبا شاقا قاسيا مؤلما : القرية والكنيسة والعمل • ولا كذلك حين يرى رهط الفرسان الصغير يصعد من ترافنك • فان كل شيء يبدو له عندئذ زاهيا مضيئا مفرحا • ثم يعود الارتعاش نفسه ، وتعود تلك الرغبة الغامضة المبهمة في التحرر من هذا الجمال الذي يحاصره ويصعقه ، في التحرر منه الى الابد بأقصى سرعة ممكنة •

ومن حسن الحظ أن الأخ ميجات كولار لم يلبث أن عاد الى أبرشيته ، فاعترف له الفتى بالامر اعترافا صادقا شريفا جريئا • واستطاع الراهب كولار ، وهو رجل قوي في نحو الخمسين من عمره ، عريض الوجه ، أقعى الانف ، مائل العينين ، واسع التجربة ، يقظ الانتباه سليم البنية ، فكه الروح ، مرح النفس ، لكنه مثقف وخطيب مجيد ، استطاع أن يفهم حالة الراهب الفتى بسهولة •

فأرجعه الى الدير فورا • حتى اذا وصلت السيدة فون ميترر مع حاشيتها في ذات صباح ، لم يكن في استقبالها الراهب الفتى الذي كانت تسكب الاضطراب في نفسه ، بل كان في استقبالها الأخ كولار مبتسما هادئا • فلما أخذت تزجي اليه نصائحها بشأن ترتيب الكنيسة أجابها ، وهو قاعد على جذع شجرة ، يقول من خلال نفثات دخان التبغ الكثيفة :

ــ يدهشني يا سيدتي أن تشوهي قدميك على هذه الطرق القروية في حين أن الله أتاح لك أن تظلي قاعدة في بيتك ، ناعمة بالدلال والترف والرخاء • انك لا تستطيعين ، رعاك الله ، أن تنظمي كنائسنا ومعابدنا ، ولو أردت أن تنفقي خزينة الامبراطورية كلها • هكذا نحن وهكذا معابدنا • أما اذا كان لديك هدايا تريدين أن تهديها الى كنائسنا القروية ، فأرسليها مع أحد • ذلك أجدى ، وجزاك الله خيرا •

جُرحت السيدة فون ميترر من هذا الكلام الخشن ، ومع ذلك عادت تتحدث عن الكنيسة وعن المسيحيين ، ولكن الأخ كولار كان يحوّل جميع ملاحظاتها الى مزاح • حتى اذا غلى غضبها غليانا شديدا ، فركبت جوادها الاكحل ، رفع الكاهن قلنسوته كاشفا عن شعره المشعّث، وانحنى قليلا في تذلل مصطنع ساخر ، وقال :

ـ ما أجمل حصانك يا سيدتي ! ان أسقفنا هو الذي يجب أن يركبه •

ولم تعد آن ماري بعد ذلك الى كنيسة أوراشيبيه أبدا •

وفي ذلك الحين نفسه كان كاهن دولاتس يحدث السيد فون ميترر في هذا الامر نفسه • ولما كان القسس يحترمون القنصل ويقدرونه ويعدونه صديقا وحاميا ولا يريدون أن يجرحوا شعوره ، فقد عهدوا الى الأخ ايفو البدين الماكر الحاذق بأن يقول له ان حماسة السيدة فون ميترر لا تسرُّهم كثيرا ، شريطة أن يقول له ذلك بطريقة لا تؤذي احساس السيد فون ميترر ولا تؤذي احساس السيدة فون ميترر • وقد قام الأخ ايفو ـ الذي كان يلقبه الاتراك بالمزوّر لمكره ـ قام بهذه المهمة على أحسن وجه • فقال له أولا انهم مضطرون ، خوفا من الاتراك، أن ينتبهوا أشد الانتباه لا الى المواضع التي تطؤها أقدامهم فحسب ، بل كذلك الى الاشخاص الذين يعاشرونهم ويختلفون اليهم • فأما الهدايا فأهلا بها وسهلا ، والرهبان ما ينفكون يدعون للسيدة فون ميترر ولمن يرسلها • ولكن النتيجة التي انتهى اليها الحديث دون افصاح صريح هي أن الأفضل أن لاتتولى السيدة فون ميترر توزيع الهدايا بنفسها ، وأن لا تتدخل في أمر استعمالها وتقسيمها •

ولكن السيدة فون ميترر كانت قد سئمت من الكنيسة قبل هذا • لقد خيّب الشعب والقسس ظنها • وها هي ذي تبلغ من غيظها أنها تنفجر

في ذات صباح انفجارا عنيفا ، فتصب غضبها على رأس القنصل ، وتقذفه بكلمات مزعجة بل بشتائم ، قائلة في صياح ان قنصل فرنسا على حق حين يعاشر اليهود ، لان اليهود أرفع تهذيبا وأكثر أدبا من هؤلاء الكاثوليكيين الاتراك . ثم قربت وجهها من وجه زوجها وسألته أهو قنصل عام أم قندلفت ! وحلفت أخيرا أنها لن تطأ بعد اليوم لا الكنيسة ولا دار دولاتس .

هكذا نجا راهب أوراشيه من امرٍ كان للسيدة فون ميترر لهوا وعبثا وكان له ألما شديدا وعذابا ممضا . وهكذا انتهت مرحلة التقى من حياة السيدة فون ميترر بمدينة ترافنك .

. . .

وتلك القوة التي رأينا أثرين من آثارها لم تُفلت منها قنصلية فرنسا على الضفة الاخرى من نهر لاشفا : ان هذه القوة لا تحفل براية ولا تبالي نسبا .

بينما كانت السيدة دافيل تُعنى بأولادها في قبو نزل دوبروفنك ، وبينما كان القنصل يحطّم نفسه في كتابة تقاريره الضافية وانجاز مشاريعه الادبية ، كان « القنصل الشاب » يصارع الضجر ويقاوم الرغبات التي يخلقها ثم لا يجد الى ارضائها سبيلا . لقد كان يساعد دافيل في العمل ، ويقوم بجولات على الحصان في طول البلاد وعرضها، ويدرس لغة الشعب وعاداته ، ويعمل في اعداد كتابه عن البوسنة . ولكن هذا كله لا يذهب بالقوى التي تتدفق في الفتى ولا يستنفد وقته ، بل يبقى له بعد ذلك من القوة ومن الفراغ ما يكفي للسأم وللغوايات الطبيعية في سنّه .

هكذا لاحظ « القنصل الشاب » فتاةً من دوتسه اسمها جلكا .

سبق أن رأينا أن السيدة دافيل قد انفقت وقتا طويلا وجهدا صابرا دائبا للحظوة بثقة الرهبان ، ومودة سكان دولاتس . كان أفقر الناس في أول الامر يرفضون أن يعمل أولادهم في قنصلية فرنسا . ولكنهم عرفوا السيدة دافيل بعد ذلك ، وعرفوا ما تعلمته منها الفتيات الاوائل اللواتي عملن عندها ، فأصبحوا الآن يتنافسون على العمل في بيتها . وهكذا أصبح عدد من الفتيات يقوم في قنصلية فرنسا بأعمال البيت وبالاعمال اليدوية التي يتعلمنها من السيدة دافيل في آن واحد .

ان عددهن في الصيف ثلاث أو أربع ، يطرّزن مع السيدة دافيل أو ينسجن بالابرة . انهن يجلسن على الديوان الكبير تحت النافذة ، ويطفقن يعملن وهن يغنين بصوت خافت خافضات الرأس . فكان دي فوسيه يراهن عابرا حين يذهب الى دافيل . فكنّ اذا مر يخفضن رءوسهن مزيدا من الخفض ، ويضطرب غناؤهن وتتكسر أصواتهن . وكان الفتى الذي يقطع الدهليز الكبير بخطوات واسعة يرمقهن ينظره ، حتى لقد يرميهن بكلمة صغيرة من قبيل التحية دون أن يجرؤن على ردّها . وكان الرد صعبا على كل حال ، ذلك أنه يقول في كل يوم كلمة جديدة هي الكلمة التي تعلمها في ذلك اليوم ، فكانت الكلمة تربكهن مثلما تربكهن سرعة حركاته وجسارة صوته .

بحكم المنطق الذي يحكم هذا النوع من العلاقات لاحظ دي فوسيه، من كثرة ما مرّ ، وجهَ الفتاة التي كانت تخفض رأسها أمامه أكثر من غيرها . ان اسمها جلكا . وهي ابنة تاجر صغير له في دوتسه دار صغيرة متواضعة مليئة بالأولاد . ان خصلةً كبيرة من شعر أشهب تتدلى على عينيها . وان شيئاً لا يمكن تعريفه ، مضافاً الى جمالها والى أناقتها ، كان يميّزها عن سائر الطرّازات . وسرعان ما استجلى الفتى رقبتها الكستناوية وعنقها الجميل الأبيض بين سائر رقبات الفتيات المطرقات . حتى اذا كان في ذات يوم ُيطيل النظر قليلاً الى هذا

العنق المطأطيء ، رفعت الفتاة رأسها فجأة كأن نظرتــه كانت تحرق جلدها فارادت أن تتحاشاها ، فاذا هو يرى وجهاً فتياً عريضاً ، لــه عينان كستنائيتان ساطعتان هادئتان وأنف قوي وفم كبير قليلا لكنه جميل كامل لا تكاد تنطبق شفتاه المتساويتان كل التساوي • لاحظ الفتى وجهها دهشاً ، ورأى أطراف شفتيها ترتعش ارتعاشها عند حبس دمعة ، بينما العينان الكستنائيتان تبتسمان ابتسامة لا تقــدران على اخفائها • فابتسم الفتى، ورمى اليها كلمةً من كلمات «معجمه الايليري»، كلمةً كيفما اتفق ، لأن جميع الكلمات في مثل هذه السن وفي مثل هذه الظروف صالحة مناسبة ولها شأنها ووزنها • ومن أجل أن تخفي الفتاة عينيها الضاحكتين وفمها الذي يشبه أن يكون باكياً ، خفضت رأسها من جديد ، مظهرةً عنقها الأبيض من خلال شعرها الكستنائي •

تكررت اللعبة بين الشابين في الأيام التالية عدة مرات ، لا تريد الا أن تتكرر والا أن تطول • ما أصعب مقاومة الرغبة التي تشب نارها بين فتاة في ريعان الصبا وشاب متوقدٍ يعيش وحيداً ! ان الكلمات التافهة والنظرات الطويلة والابتسامات العابرة تنعقد صغيرةً قوية من تلقاء ذاتها ، وتشد الشابين أحدهما الى الآخر •

أصبح يتفق لدي فوسيه أن يحلم بها نائماً ؛ ثم هو يحلم بها في الصباح يقظاً • فمتى رأى صورتها في خياله مضى يبحث عنها الى أن يلقاها ما استطاع الى لقائها سبيلاً يريد أن يملأ بها بصره • واذ كان كل شيء في هذا الفصل من السنة ينبت ويزهر ، كان يتراءى له أنها تنتمي ، كلها تقريباً ، الى عالم النبات • « نعم انها تنتمي الى عالم النبات » كذلك كان يردد بينه وبين نفسه ، كما يترنم المرء ببعض الكلمات دون ان يعرف لمــاذا ودون أن يهتم بمعناها الدقيق • ان جلكا الخجول الضاحكة القرمزية اللون تنعطف برأسها في كل لحظة انعطافة الزهرة على تويجها • ان كيانها كله مرتبط في ذهن دي فوسيه

بصورة زهرة أو ثمرة ، مع شيء أعمق من ذلك لم يكن دي فوسيه يحدده تحديداً دقيقاً ، شيء هو شعور الأزهار والثمار وروحها ، لو كان للأزهار والثمار شعور وروح ٠

الربيـــع يشارف على نهايتـــه ، والفتيات تعودْنَ أن يعملن في الحديقة التي تخضوضر والتي سيطرّزن فيها طوال الصيف ٠

لو أتيح لك أن تتحدث عن ترافنك مـــع سائحين عرف أحدهما المدينة في الشتاء وعرفها الآخر في الصيف ، حصلت منهما على رأيين متناقضين كل التناقض ٠ فأما الأول فيقول لك انه عاش في الجحيم ، وأما الثاني فيقول لك انه رأى الجنة ٠

ان هذه المناطق ، رغم وضعها الجغرافي الصعب ورغـم مناخها الشحيح ، تعرف أسابيع رائعة أخّاذة ، تعوّضك عن تقلبات المناخ وأنوائه التي تقاسي منها في سائر العام ٠ وهذا الفصل الجميل يقـع بين أول حزيران وآخر آب ، ويشمل شهر تموز كلّه في العادة ٠

حين يذوب الثلج في أخاديد الوديان ؛ وحين تنقطع رشات مطر الربيع ؛ وحين تهدأ الرياح التي تـــكون باردة ثـم فاترة ثم عنيفة أو عاصفة ثم خفيفة عليلة ؛ وحين تتسلق السحب سلسلة الجبال المحيطة بالمدينة وتمضي الى ذراها بغير رجعة ؛ وحين يدفع النهارُ الليلَ بكل ما أوتي من قوة ودفء وضياء ؛ وحين تتغطى المراعي في منحـــدرات الروابي المطلة على ترافنك ببساط أصفر ؛ وحين تنحني أشجار الأجاص من ثقل ثمارها ، يبدأ الصيف ٠٠٠

أصبح دي فوسيه يقلل عدد جولاته في ضواحي المدينة ، ويقضي ساعات طويلة في حديقة القنصلية المنحدرة ، يقطع ممراتها ويدور حول أدغالها التي يعرفها ، كما لو لم يرَها من قبل قط ٠ وكانت جلكا تصل قبل صاحباتها وترتب أمورها بحيث تنصرف بعدهن ٠ وكثيراً ما تترك

الحديقة التي يعمل فيها البنات وتدخل الى القنصلية لتأتي بالخيطان أو بالماء أو بالطعام ، فتلتقي بالفتى في الممرات الضيقة التي كستها الخضرة. انها ما تزال تميل بوجهها الأبيض المدوَّر حين يبتسم لها ويلقي اليها بكلماته الايليرية القليلة التي ينطقها ممدودةَ الأواخر براءٍ متدحرجة طويلة عذبة .

وفي ذات يوم بعد الظهر طالت خلوتهما قليلاً في أحد الممرات التي تغطيها خضرة كثيفة ويتنسم ظلها الدفء . كانت الفتاة ترتدي تنورة عريضة ناصعة الزرقة ، و « بوليرو » أزرقَ قاتماً مقفلاً بزر ، وقميصاً ذا ثنيات مشدوداً عند العنق بدبوس من فضة . ان ذراعيها اللتين يسترهما القميص حتى المرفقين نضيرتان طريتان عبلتان تتراءى أقنيتهما تحت جلدهما الشفاف . أمسك الفتى بذراعي الفتاة ، فسرعان ما اندفع دمهما مخلّفاً تحت أصابعه أثراً أبيض .

وانفرجت الشفتان المنسجمتان المليئتان الورديتان انفراجاً رقيقاً عن ابتسامة متضرعة توشك أن تنتهي بـكاءً ، ولكن الفتاة لم تلبث أن خفضت رأسها ومالت اليه خرساءَ طيّعةً كالعشب أو كفروع الأشجار. قال الفتى لنفسه مرة أخرى : « انها نبتة . » . ولكن الشيء الـذي مال على الفتى كان بشراً ، كان امرأة فاضت عواطفها الى درجة الألم ، امرأةً ما تزال نفسها تناضل وتقاوم رغم ارتضائها السقوط . ان ذراعيها مسترخيتان في عجز وتهالك ، وان عينيها مغمضتان نصف اغماض ، وهي واقفة لصقَ الفتى بل مشدودة اليه ، تكاد تموت شوقاً الى المباهج التي يعد بها الحب ، وتكاد تموت من الخوف الذي يلاحقها كظلها . من رآها على حالها تلك من الانثناء والانكسار والتحطم ، فقد رأى الخضوع الكامل والعجز والهزيمة والذعر ، ولكنه رأى كذلك عظمةً لا يتوقعها وروعةً لم تخطر له ببال .

وأحس الفتى بحرارة دمائه تجرفه جرفاً ، وشعر بحاجة الى السعادة والانتصار لا يستطيع شيء أن يكبحها • ان آفاقاً لا نهاية لها تشتعل في نفسه ثم تنطفيء • نعم ان الأمر كذلـك حقاً • لقد أحس دائماً وأكد دائماً أن هذه البلاد الفقيرة المهجورة هي في واقع الأمر بلاد غنية رائعة • وهذه احدى روائعها الخبيئة تنكشف له اليوم • وراح يعيد اكتشاف الروابي المنحدرة الخضراء المزهرة • وانتشر في الجو عبق مجهول مسكر بدا له أنه ظل مختبئاً في هذه السهول • ان غنى خفياً ينبجس وينبع من هذه المقاطعة التي يوهم مظهرها بأنها فقيرة قاتمة : ان هدوءها الدائم يخفي وراءه نفحة الحب هذه السريعة المتقطعة التي تعبر عن أواخر جهود المقاومة وتفصح عن لذة الاستسلام • لم يكن مظهرها الأخرس القاسي الا قناعاً يتدفق وراءه دم فوّار يسطع الآن ألقه الأحمر •

ان شجرة عتيقة مَتشعبة من أشجار الأجاص ، شجرة يوشك أن يكون جذعها يابساً يبوسة كاملة ، وليس عليها الا بضع أدران ، تميل على النهر ميلاً يجعلها أشبه بسدة أو أريكة •

استند الفتى والفتاة اليها في أول الأمر ، ثم تشابكا وتهاويا عليها كتهاويهما على مضجع مهيأ • لم تظهر الفتاة أية مقاومة ، وظلت لا تتكلم ولا تتحرك • ولكن حين انزلقت عليها ذراعا الفتى ، وشدتا جسدها عند النقطة التي تقع منه بين التنورة والبوليرو فما يغطيه القميص ، انسلت جلكا انسلالَ فرع الكرمة الذي يُفلت من يدي القطّاف • لم يرَ الفتى ولا أحس كيف تخلصت من ثقل جسمه ، وكيف أصبحا مرةً أخرى في الممر : انها جاثية عند قدميه ضامةً ذراعيها رافعة رأسها كمن يصلي ويبتهل • لقد شحب لونها شحوباً شديداً على حين فجأة ، وامتلأت عيناها بدموع غزيرة لا تسيل • وها هي ذي تصالب ذراعيها الممدودتين ، وتنطق بكلمات يجهل الفتى معناها لكنها في

هذه اللحظة أوضح عنده من لغته الأم : انها تضرع اليه أن يرأف بها ، أن يصونها ، أن لا يلوث شرفها ، لأنها عاجزة هي عن حماية نفسها مما وقع لها ، فما وقع لها أقوى منها ، ما وقع لها أمر كالموت لا يغالبَ ، لكنه أشد هولاً من الموت . انها تبتهل اليه أن يحلف بأمه وبكل عزيز له في هذا العالم أن لا يصنع بها شيئاً ، وما تنفك تردد بصوت ُبحً من الهوى :

ــ لا تصنع بي شيئاً ، لا تصنع بي شيئاً !

أحس الفتى بدمه ينبض في عروق عنقه ، وبذل جهداً فوق طاقة البشر من أجل أن يثوب الى رشده وأن يفهم هذا التبدل السريع الذي حدث ولم يكن في حسبانه . انه مشدوه يتساءل ماذا وقع وما الذي انتزع من تحته هذه المرأة التي كانت منذ هنيهة غائبة عن نفسها مغشياً عليها ، وما الذي يبقيهما كليهما في هذا الموقف المضحك : هو على هذه الحال من الانفعال والانتصاب كامبراطور وثني ، وهي على هذا الوضع من الركوع عند قدميه وتصالب الذراعين وشخوص البصر المبلل الى وجهه كقديسة في لوحة تمثل شهيداً . ودّ لو ينهضها ويجذبها اليه ويجلسها على جذع شجرة الأجاص : لكنه لم يجد في نفسه قوة ولا اندفاعاً . لقد تبدل كل شيء تبدلاً لا سبيل الى تفسيره وتعليله .

ولئن لم يعرف كيف حدث التبدل انه ليراه واضحاً كل الوضوح : ان هذه الفتاة الضعيفة الرَخصة كقصبة قد بارحت خفيةً « عالم النبات » الذي كان عالمها حتى ذلك الحين ، بارحته الى عالم آخر تحميه ارادة أقوى وليس في وسعه أن يصل اليه . وشعر بأنه ُخدع ورُذِّل، وأحس من خيبة ظنه بألم شديد .

استولى عليه شعورٌ بالعار ، ثم عصف به غضب عنيف من نفسه ومنها ومن العالم بأسره . ومال فأنهضها محاذراً وهــو يتمتم بضع

كلمات . فلم تُظهر أية مقاومة ، بل كانت تطيع وتذعن لكل حركة من حركات ذراعه كما كانت تذعن منذ هنيهة ، وتستمر على الابتهال اليه بالنظرة والصوت أن يرحمها وأن لا يصنع بها شيئاً . لكنه أصبح لا يفكر أبداً في ضمّها بين ذراعيه .

وساعدها في ترتيب ثنيات تنورتها مكفهر الوجه حاملاً نفسه على التلطف حملاً ، وساعدها في عقد دبوس الفضة تحت عنقها وكان قد أفلت . وسرعان ما اختفت الفتاة فجأة ، مهرولةً بغير سبب ، هاربةً الى القنصلية .

عاش الفتى بعد ذلك عدة أيام في قلق عميق ، لا يبارحه الاضطراب والشعور بالعار ، ولا يتخلص من هذا الغضب العاجز . وكان يتساءل بغير انقطاع ما الذي وقع بينه وبين الفتاة ؟ أو كيف وقع ما وقع ؟ ثم يدفع عن نفسه هذا التساؤل في عناد ، ويحاول أن لا يذكر هذا اللقاء السريع في ذلك الممر الضائع بالحديقة . ومع ذلك كان يردد وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ نعم أنت حقاً عالم نفسي لا يخطيء ، وأنت حقاً عاشق كامل كل الكمال ، أدركت أنها تنتمي الى عالم النبات ، وأنها تمثل روح هذه البلاد ، وأنك أمام كنز ثمين عليك أن تكتشفه ، وتواضعتَ فارتضيت أن تميل على هذا الكنز . ثم تبدل فجأةً كل شيء ، فاذا هي راكعة أمامك كركوع اسحاق الذي كان أبوه ابراهيم يريد أن يذبحه فأنقذه أحد الملائكة من الموت في آخر لحظة . نعم كانت راكعة كركوع اسحق ، وكنتَ أنت تمثل دور ابراهيم ! تهانيَّ ! لقد أصبحت تمثّل لوحات حيةً مستلهمة من التوراة لهدف أخلاقي زاخر بالتقى والورع ! تهانيَّ !

ولم تهدّئه وتصرفه عن هذه الأفكار الا النزهات الطويلة على

الروابي الكثيرة الآجام والغابات حول ترافنك . عذّبته رغبته التي لم يُتح لها الارتواء وعذّبه غروره الطعين بضعة أيام أخرى ثم انتهى كل شيء ، ونسي كل شيء . انه ما يزال يلاحظ الطرّازات حين يمر ، ويلاحظ بينهن جلكا خافضةً الرأس ، لكنه صار لا يتوقف ، بل صار لا يشعر بالخجل والعار . انه يلقي اليهن بالكلمات القليلة التي يكون تعلمها في ذلك اليوم ، يلقيها بمرح طبيعي لا كلفة فيه ، كما كان يفعل قبل ذلك ، ثم يبتعد سريعا وهو يبتسم .

على أنه فتح كتابه عن البوسنة في ذات مساء ، فتحه على الصفحة التي يتحدث فيها عن النموذج البوسني وعن مزايا هذا العرق ، فأضاف الفقرة التالية :

« ان النساء ، وهن فارعات القامة ممشوقات القد ، يلفتن الانتباه بدقة قسماتهن وانسجام ملامحهن وجمال أجسامهن وبياض بشرتهن بياضاً يبهر البصر حقاً » .

الفصل الحادي عشر

في بلاد البوسنة هذه ينتهي كل شيء نهاية تدعو الى الدهشة . ما من شيء لا يمكن في كل لحظة أن يصير الى غير ما كان ، أو الى غير ما ظُنّ فيه .

لقد تعود دافيل شيئا فشيئا على فقد محمد خزرف باشا ، ذلك الرجل الذي كان يمتاز بتدفق الحيوية وانفتاح النفس ، والذي كان القنصل يلقى لديه البشاشة والمودة ، ويجني منه مساعدة من المساعدات ان لم يجن تفاهما عميقا . وتعود أيضا على صلاته الاجبارية بابراهيم باشا ، هذا الرجل الجاف البارد ، الذي يشعر بالشقاء دائما ويقسو على نفسه وعلى غيره ، ويصعب الحصول منه على كلمة طيبة أو عاطفة انسانية كما يصعب الحصول على ذلك من صخرة صمّاء . ذلك على الاقل ما أحسّه دافيل من صلاته الاولى بالوزير ، وما أيدته أقوال دافنا . ولكن دافيل لم يلبث أن أدرك مرة أخرى بهذه المناسبة أن دافنا لا يعرف الرجال رغم صرامة أحكامه الواقعية . صحيح أنه في الامور البسيطة والعلاقات المطردة اليومية يصدر أحكاما نافذة صادقة ، صحيحة دقيقة بغير رحمة . لكن هذا الترجمان متى واجه مسائل معقدة مرهفة قاده كسله الفكري وتخليه عن الاخلاق الى استخراج نتائج فيها كثير من التعجل والايجاز المخل . وذلك ما حدث بصدد ابراهيم باشا . لقد لاحظ القنصل عند ثاني أو ثالث حديث له مع ابراهيم باشا أن الوزير ليس رجلا صعب المعاشرة الى الحد الذي يوهم به مظهره . ان له ، هو أيضا ، موضوعا يؤثر الحديث فيه ، ليس هو البحر ، كما كان البحر

الموضوع الاثير عند محمد باشا ، لا لا وهـو أي شيء من الاشياء الموجودة المحسوسة . ان نقطة البداية ونقطة النهاية في كل حديث يجريه ابراهيم باشا هي سقوط سليم الثالث وكارثته هو في اثر ذلك السقوط . انه ينظر بهذا المنظار الى جميع الامور وجميع الجهات . انه يرى من خلال هذا الحدث كل ما يجري حوله وكل ما يجري في العالم . وطبيعي أن يتراءى له كل شيء على هذا النحو مظلما ثقيلا موئسا . ولكن الامر الاساسي في نظر القنصل هو أن الوزير ليس « مشوَّه الجسم محنَّط الروح » ، وأن هناك كلمات وأشياء يمكن أن تهزَّه وأن تحرِّكه . واستطاع القنصل أن يلاحظ بعد فترة من الوقت أن هـذا الرجل العابس الوجه القاسي القسمات الذي يدل كل حديث جديد معه على فراغ كامل هو في كثير من الاحوال أكثر رصانة وأطيب نفسا من سابقه محمد باشا الذي يتصف بخفة الفكر وبريقه ، ولا يُرى الا مبتسما . وكانت طريقـة دافيل في حسن الاصغـاء الى الاحاديث التشاؤمية التي يجري بها لسان الوزير ، والتأملات العامة التي يعبِّر عنها ، توحي الى الوزير بالثقة وتشيع في نفسه متعة كبيرة . ان الوزير لم يتحدث في يوم من الايام حديثا طويلا هذا الطول ، مشتملا على بث الشكوى وتبادل النجوى هذا الاشتمال ، لا مع فون ميترر ولا مع أي شخص آخر ؛ تعوَّد القنصل من جهته على هذه الاحاديث التي يندفع أثناءها الرجلان كلاهما في تأمل ما في هذا العالم الناقص من شرور ، والتي كان القنصل يخرج منها بالفائدة القليلة التي جاء يزور الوزير من أجلها في حقيقة الامر .

كانت هذه الاحاديث تبدأ دائما بتمجيد انتصار من أواخر انتصارات نابوليون في ساحة القتال أو في السياسة الدولية ، ولكن الوزير سرعان ما ينتقل من المواضيع الفرحة الايجابية الى المواضيع الحزينة العامة ، فيتكلم مثلا على انجلترا وصمودها وعدم تورعها وطمعها وشراهتها وما

الى ذلك من أمور تكافحها عبقرية نابوليون في غير طائل • وليس هناك الا خطوة واحدة للانتقال من هذا الى أفكار عامة عن صعوبة قيادة الشعوب وحكم البشر ، عن الامور التي تسير منذ زمن مقلوبة معكوسة على غير ما تقضي به قوانين الاخلاق التي أصبحت عاجزة ، وعلى غير ما يرغب الاخيار من الناس • ومن ثم ينتقل الحديث الى مصير السلطان سليم الثالث وأعوانه • فكان دافيل يصغي باتنباه أخرس وتعاطف عميق بينما يمضي الوزير متحدثا في نوع من نشوة مرة •

ـ ان العالم لا يحرص على أن يكون سعيدا • ان الشعوب لاتريد حكومات عاقلة وملوكا كراما • أصبحت الطيبة في هذا العالم يتيمة • كان الله في عون امبراطوركم ! ولكنني رأيت بعيني رأسي ماوقع لمليكي السلطان سليم • لقد كان رجلا وهب له الله أجمل المزايا وأطيب الصفات جسما وعقلا ! كان يحترق احتراق الشمعة ويفنى في سبيل سعادة الامبراطورية ورخائها وازدهارها • كان رجلا ذكيا رفيقا عادلا لم يفكر يوما في الخيانة أو في الشر • كان لا يعرف شيئا عن أغوار الزيف والحقد والخيانة التي تختبيء في الانسان • لذلك لم يستطع أن يحمي نفسه ولا استطاع أحد أن يحميه • لقد أنفق قواه كلها في القيام بواجبات الملك ، وعاش حياة ناصعة لا تلوثها لطخة ولا عرف الناس مثلها منذ السلاطين الأول ، فلم يفعل شيئا لحماية نفسه من خيانة الخونة وغدر الاشرار • وهكذا استطاع نفر من اليمك بقيادة رجل شرير مسعور أن يخلعوه وأن يسجنوه ليمنعوه من تحقيق مشاريعه الخيِّرة المتبصِّرة ، وليضعوا على العرش رجلا غبي العقل تحيط به حاشية من السكيرين ومحترفي الخيانة • هكذا تسير الامور في هذا العالم • قليل من الناس يدركون ذلك ، وأقلُّ منهم من يريدون ويستطيعون أن يعترضوا سير الامور على هذا النحو •

وينتقل الحديث آخر الامر انتقالا طبيعيا الى البوسنة والى الظروف

التي تحيط بحياة الوزير وحياة القنصل • فما يجد ابراهيم باشا من الالفاظ القاسية والصور الكالحة ما يكفي لوصف البوسنة وأهلها • فكان دافيل يفهم كلامه ويصغي اليه بحزن صادق واقعي معا •

كان الوزير لا يستطيع أن يعزي نفسه عن أن سقوط سليم جاء في وقت كان هو فيه على رأس جيوش تتهيأ لطـرد الروس من فالاشيا ومولدافيا بانتصار محقق•ان سقوط سليم الثالث قد حرم الامبراطورية من سلطان هو خير السلاطين طراً وحرم ابراهيم باشا من النصر المؤزّر ليطرده ذليلا محطما الى هذه البلاد الشقية البعيدة •

ــ انك ترى بنفسك ، أيها الصديق العزيز الكريم ، أين نعيش ومع من نعيش • ألا ان قيادة قطيع من الجواميس أسهل من قيادة هؤلاء البكوات وهؤلاء الزعماء البوسنيين • انهم متوحشون محرومون من الحس السليم ، غلاظ جفاة ، وهم فوق ذلك سريعو التأذي شديدو الغرور عنيدون رغم فراغ رؤوسهم • وصدقني اذا قلت لك ان هؤلاء البوسنيين لا يعرفون ما هو الشرف ، وان أدمغتهم عاجزة عن فهم أي أمر • انهم قساة مخادعون مخاتلون متعصبون عنيدون • هذه هي الصفات التي يملكونها ، وهذه هي الصفات الوحيدة التي يستطيعون استعمالها • وبهذا الشعب يجب أن أخمد العصيان الصربي ! أرأيت كيف تجري الامور في امبراطوريتنا منذ سقط السلطان سليم وسُجن ! ولا يعلم الا الله الى أين نحن ماضون !

ويتوقف الوزير ويصمت • ان عينيه اللتين لا ينعشهما الا الحزن واليأس تلتمعان الآن في وجهه الساكن ببريق خفيف كبريق بلور قاتم •

ويقطع دافيل الصمت ويسأل هذا السؤال بلباقة وحنكة :

ــ اذا واتى الحظ فتغيرت الامور باستامبول وعدتم وزيرا أكبر •••

فيقول الوزير وهو يحرك يده حركة من يستبعد هذا الاحتمال لانه مهيأ في هذا الصباح لان لا يتخيل مع القنصل الا الطرق المسدودة الموئسة :

ـ حتى في هذه الحالة سوف أرسل قرارات لا تنفَّذ ... طبعا سأدافع عن البلاد ضد الروس والانجليز والصربيين وضد كل من يهاجمها : سأحاول انقاذ ما يمكن انقاذه ...

وفي نهاية الزيارة يعرض القنصل الموضوعَ الذي جاء من أجله ، وهو ترخيص بتصدير قمح الى دلماسيا ، أو تسوية نزاع على الحدود أو ما شاكل ذلك ، فيعطي الوزير موافقته آليا وهو غارق في تأملاته الحزينة .

وفي المرة التالية يطرح الوزير على البساط موضوعات أخرى ، ولكن بذلك الهدوء اليائس الحزين نفسه ، وبتلك المرارة نفسها . يتكلم على الوزير الاكبر الجديد الذي يكرهه ويحسده لانه كان موفَّقا أكثر منه في الحروب الماضية ، فهو لهذا السبب لا يرسل اليه أي توجيه ، ولا يزوِّده بأي خبر ، ولا يمده بأية وسيلة من الوسائل لقتال الصرب . فاذا كتب اليه لم يزد على أن يبلغه أنباء سلفه محمد باشا الذي كان هذا الوزير الاكبر نفسه قد نفاه الى مكان بعيد هو مدينة القصر بآسيا الصغرى .

كان ذلك كله يتراكم في نفس القنصل ، فيعود الى بيته حـزين النفس رغم حصوله على ما كان يرجو الحصول عليه ، بل يعود الى بيته مسموما ان صح التعبير ، فهو لا يستطيع أن يأكل ولا تراوده في نومه أثناء الليل الا أحلام كوارث ونفي ومصائب .

ومع ذلك كان دافيل سعيدا بالتقائه مع الوزير على هذا التشاؤم المرِّ الذي لا سبيل الى البرء منه ، كان سعيدا بأن يجد لدى الوزير هذا

الركن القصي يلتقيان فيه على المستوى الانساني في هذه البيئة التركية الجافية المغلقة الفهم الخالية من أي أثر من آثار هذه الروح الانسانية التي كان يمكن أن تسرّي كثيرا عن قنصل أجنبي شقي •

وكان يبدو له في بعض الاحيان أنه ليس في حاجة الا الى قليل من الوقت وقليل من الجهد حتى تنشأ بينهما صداقة حقة ، وحتى تترسخ بينهما علاقات انسانية حقة • ثم اذا بحادث من الحوادث يقع في تلك اللحظة نفسها فتبرز المسافة الطويلة بل الهوة السحيقة التي تفصل الرجلين ، ويرى القنصل صاحبه رؤية جديدة كل الجدة ، يراه بألوان أشد جهامة من الالوان التي وصفها دافنا • فغرق دافيل عندئذ في حيرة لا مخرج منها ، وفقد كل أمل في أن يجد بالبوسنة « شعاعا من انسانية » ولو لم يعش هذا الشعاع الا ما عاشت دمعة أو بسمة أو نظرة • ان مدرسة الشرق الرهيبة قائمة الى الابد والمفاجآت هنا لا نهاية لها ، ولا وجود هنا لرأي معتدل أو ثابت ، لان العلاقات بين أناس هذه البلاد لا تحكمها أية قيمة باقية •

من الذي يستطيع أن يتنبأ ، ولو تنبؤا تقريبيا ، بما يجب توقعه منهم ؟ في ذات يوم دعا الوزير القنصلين في آن واحد ، وذلك ما لم يحدث من قبل • جاء القنصلان والتقى موكباهما أمام باب القناق • ان القناق يبدو اليوم في أبهة وجلال • كبار الموظفين يتحركون ويتهامسون • الوزير لطيف ودود مهيب الطلعة • قُدّمت أولى أقداح القهوة وأولى الغلايين • دخل القايمقام والدفتردار وانتحيا جانبا جلسا فيه • أخذ القنصل يبلغ القنصلية كيف استطاع مساعده سليمان باشا في الاسبوع الماضي أن يعبر نهر درينا وأن يبيد أحسن قطعة عسكرية حربية درّبها وقادها ضباط روس • وعبّر عن أمله في أن تتخلص بلاد الصرب من الروس بعد هذا النصر ، ومعنى ذلك في أغلب الظن أن العصيان الصربي يشارف على نهايته •

قال الوزير ان هذا الانتصار خطير الشأن ، فقد اقتربت الساعة التي يعود فيها النظام والهدوء الى الصرب ، وقال انه يعلم أن القنصلين صديقيه وجاريه الكريمين لا بد أن يبتهجا معه ، وانه دعاهما اليوم ليشاركاه سعادته بهذه الانباء •

وصمت ابراهيم باشا • فاذا بعدد كبير من الموظفين يدخلون القاعة مسرعين كأنهم يركضون ، فيمدون حصيرة من قش على الفسحة الخالية من أرض القاعة ، ثم يأتون بعدد من السلال والاكياس المصنوعة من جلود الماعز والقرب المصنوعة من جلود الشياه ، وقد اسودت جميعها وكساها الدهن ، فيفتحونها بسرعة ويفرغونها على الفراش • وكان الخدم في أثناء ذلك يقدمون للقنصلين شراب الليمون وغلايين أخرى •

انسكبت على الفراش من الاكياس رزمُ آذان وأنوف بشرية ، كتلة لا توصف من لحم انساني تعيس متفسخ مسوَدٍ بالدم المتخثر • ان رائحة باردة فظيعة من ملح متبلٍ ودم فاسد تفوح في أرجاء القاعة • وهذه سلال أخرى وأكياس أخرى من جلد الماعز تخرج منها قبعات وأحزمة وجعاب من جعاب الذخيرة مزينة بنسر من معدن • وهذه حزم تخرج منها رايات ضيقة صفراء وحمراء مطرزة بخيوط ذهبية وفي وسطها صورة قديس • وسقطت على الارض مذبتان أو ثلاث مذبات سقوطا ثقيلا • وجيء أخيرا بحزمة مربوطة من الحراب •

هذه غنائم الانتصار على القطعات الصربية « التي قادها الروس ونظموها » •

وصاح واحد من آخر القاعة بدعاء ، فأمَّن الاتراك على دعائه بدمدمات لا تُفهم •

شعر دافيل الذي كان خياله يعجز عن أن يتصور حضور مشهد كهذا المشهد ، شعر بقلبه يصعد الى شفتيه ، وأحسَّ بشراب الليمون يرجع

الى منخريه . وقد نسي غليونه ، وهو لا يكف عن النظر الى فون ميترر كأنه يتوقع منه النجاة وينتظر منه تعليلا . وكان النمسوي نفسه شاحب الوجه منكسر النفس . ولكنه لتعوده أمثالَ هذه المفاجآت كان أول من استطاع أن ينطق بكلمة لتهنئة الوزير والجيش البوسني . واستطاع دافيل بحكم نشاطه وحرصه على أن لا يقصِّر عن منافسه أن يسيطر على خوفه واشمئزازه ، فقال هو أيضا بضع عبارات تشيد بالنصر العظيم ، وتمنى للجيوش الامبراطورية مزيدا من الانتصارات في المستقبل وتمنى للامبراطورية أن يرفرف عليها الامن والسلام . كانت نبرته متصلبة وكان يتراءى له أن كل كلمة ينطق بها آتية من لغة أجنبية . وتُرجم الكلام كله . وعاد الوزير يتكلم مرة أخرى . فشكر للقنصلين تمنياتهما وتهانئهما ، وأعرب عن سروره برؤيتهما الى جانبه في هذه اللحظة التي يرى فيها أمام عينيه المتأثرتين هذه الاسلحة التي خلّفها الموسكوفيون الحانثون الجبناء في ساحة المعركة .

وتجرأ دافيل أن ينظر الى الوزير : ان عينيه أكثر حركة وحياة ، وهما تسطعان عند الاطراف سطوعَ البلور . وصاح الصوت العميق مرة أخرى يقول بضع كلمات متعاظمة غير مفهومة ، وشقت القاعةَ دمدمة لا تكاد تُدرك : لقد انتهت المقابلة .

واذ لاحظ دافيل أن فون ميترر ينظر الى الاشياء المبسوطة على الحصيرة ، استجمع قواه فألقى نظرة على الغنائم المعروضة . ان اللحم والمعدن يبدوان ميتين موتا مضاعفا ، وكأنهما في رقودهما هنالك على الارض ، مهجورين حزينين ، قد أخرجا من القبور وعرضا في الشمس بعد دفنهما بقرون . ان مقدارا هائلا من الآذان المصلومة والانوف المقطوعة يثوى على الحصيرة ساكنا هادئا ، والى جانبه الملحُ المسودُّ بالدم المختلط بالقش . ومن ذلك كله تفوح رائحة قوية تثير الغثيان .

نقّل دافيل بصره بين الحصيرة وفون ميترر ، كأنه يأمل في قرارة لا شعوره أن يغيب عنه هذا المشهد ، كما يأمل المرءُ مثلَ ذلك في نومه أثناء كابوس • ولكن بصره كان يصطدم في كل مرة بهذه الاشياء التي لا يصدق العقل وجودها ولكنها موجودة لا تغيب ، جامدة لا ترحم •

قال دافيل لنفسه : « استيقظ ، استيقظ ، اطرد هذا الحلم الفظيع ، اخرج الى الشمس ، افرك عينيك ، تنشق الهواء النقي » • ولكن كيف يستيقظ ؟ ان هذا الهول الرهيب هو الواقع بعينه • هؤلاء هم ! هذه حياتهم ! ان خيارهم لا يفعلون غير هذا •

ومرة أخرى شعر دافيل بقلبـــه ينهض عن مكانه ، وشعر بعبنيه تظلمان • واستطاع مع ذلك أن يستأذن بالانصراف في تأدب ، وأن يئوب الى القنصلية في هدوء ، تتبعه حاشيته ، لكنه بدلا من الجلوس الى المائدة لتناول طعام الغداء ، رقد في فراشه فورا •

وفي الغداة التقى فون ميترر ودافيل دون أن يتساءلا أيهما مدين للآخر بزيارة ، ودون أن يهتما بالوقت الذي انقضى على آخر لقـاء بينهما • لقد طار كل منهما الى الآخر طيرانا ان صح التعبير ، وشدّ كل منهما على يد الآخر طويلا ، ونظر كل منهما الى عيني صاحبه محدّقا ، دون أن يقول كلمة واحدة ، كغريقين أنقذا من الغرق • كان فون ميترر على علم بحقيقة هذا الانتصار التركي المزعوم ، وبحقيقة هذا الغنائم • لقد ُأخذت الاسلحة من فرقة صربية ، ولكن الرايات والاشلاء البشرية هي قطاف مذبحة قام بها الجيش التركي الحانق العاطل ، في قرية قريبة من مدينة زفورنك ، أثناء احتفال ديني •

ليس فون ميترر بالرجل الذي يضيّع وقتـه في ابداء الملاحظات والاكثار من الكلام • ولكن دافيل الذي كانت ذكرى مقابلة الامس ُتمرضه ، أخذ يتساءل بغير توقف : ما نفع هذا الكذب ؟ ما سبب هذه

القسوة التي لا تجدي ، ما سبب هذه القسوة الصبيانية ؟ ما معنى هذه الضحكات وهذه الدموع ؟ ماذا يخفي هذا الصمت ؟ كيف يستطيع هذا الوزير الـذي له آراء رفيعة ومفاهيـم سامية ، كيف يستطيع هـذا الانسان الشريف سليمان باشا وهذا الرجل طاهر بك ، كيف يستطيع هؤلاء أن يدبروا أمورا كهذه الامور وأن يروا مشاهد لا تليق الا بأحقر الناس ؟ ما وجههم الحقيقي ؟ أين الحياة الواقعة وأين اللعب في هـذا كله ؟ متى يكذبون ومتى يصدقون ؟

وشعر دافيل ، عدا الآلام الجسمية ، بعذاب نفسي شديد من اقتناعه الساحق بأنه لن يستطيع الالتقاء مع هؤلاء الناس ومع أعمالهم على أي صعيـد •

• • •

كانت هذه اللقاءات أصعب وأشق حين يتعلق الامرُ بمصلحة فرنسا ، وحين يتعلق تبعا لذلك بكرامة دافيل ونشاطه •

لقد استطاع دافيل بواسطة عملائه أن تكون له صلات شخصية بقادة المواقع في المدن الواقعة على الحدود النمسوية • ان أصغر غارة يقوم بها بعض البوسنيين لنهب قرية نمسوية صغيرة ، بل ان أيسر شائعة تجري بها ألسنة الناس عن استعدادات حربية ، كانت تحمل النمسويين على ارسال قطعاتهم الى هذه المناطق وعلى ابقائها هناك • وهكذا كان دافيل الذي يحاول أن يضعف القوى النمسوية ما استطاع الى ذلك سبيلا ، يغذي استمرار التوتر على حدودها مع البوسنة •

وكان قائد مدينة نوفى ، أحمد بك تزيرتش ، خيرَ هؤلاء القادة • وكان دافيل يعرفه شخصيا • انـه شاب متكبر النفس فصيح اللسان شديد الاندفاع ، له جسم رائع ومظهر نبيل • وقد ورث اقطاعته عن

أبيه . وهو يحترق شوقا الى نيل الشهرة ، بالقتال على هذه الحدود التي طالما اجتازها أسلافه نهبا . وكان يعتز بعلاقاته بالفرنسيين في غير تحرج ولا حذر ، حتى لقد بعث الى القائد النمسوي على الجانب الآخر من الحدود بأكثر من رسالة وأكثر من تهديد « من أحمد بك تزيرتش وامبراطور فرنسا نابوليون » . وكان يكره الوزير ويحتقره ، على ما جرت به العادة ، ولا يزور ترافنك الا لماما ، ويرفض أن يتلقى من أحد أوامر وتعليمات .

واستطاع النمسويون بطريق غير مباشر ، بواسطة أناس يثقون بهم ويعتمدون عليهم ، أن يشوا بأحمد بك الى الحكومة التركية ، وأن يصوروه لها على أنه خائن عميل للفرنسيين . تلك وسيلة أسرع جدوى وأبخس ثمنا من مغالبة هذا الزعيم الشاب الفائر . ونجح المسعى . فوصل الى ترافنك أمر باعــدام أحمد بك ، ووصل في الوقت نفسه تأنيب للوزير على أنه تسامح في حق هذه الخيانة التي علمت بها الحكومة عن غير طريقه . لقد طُرحت المشكلة على هذه الصورة الواضحة : اما اعدامُ هذا القائد المسيء واما عزلُ وزير ترافنك .

ولم يكن استدراج أحمد بك الى ترافنك بالامر السهل. لذلك تولى النمسويون الامر . فخدعوا القائد قائلين له ان قنصل فرنسا يطلب اليه المجيء الى ترافنك ليتحدث معه . فلما وصل الى المدينة قُبض عليه وقُيِّد بالسلاسل وألقي في سجن القلعة .

أدرك دافيل عندئذ ما هو الارهاب التركي ، وماذا يمكن أن يكون الكذب والعنف مجتمعين ، وما هي القوى التي كتب عليه أن يصارعها في هذه المدينة اللعينة .

وفي غداة القبض على أحمد بك شُنق أحد الغجر عند طرف المقبرة ، ونادى المنادي ، عن عمد ، ان الرجل قد شُنق لانه « حيا قائد نوفى

أثناء نقله الى السجن » • وكان يعني هذا أن القائد محكوم عليه بالاعدام • فسرعان ما سيطر على جميع الناس رعب أعمى بارد كالصقيع ، هو ذلك الرعب الذي ينصب على ترافنك وعلى البوسنة كلها من حين الى حين ، فيجمّد خلال ساعات أو أيام كلّ حياة وكل تفكير ، فيتيح للقوة التي أشاعته أن تمضي في تنفيذ ما عزمت على تنفيذه بسرعة وبغير عواقب •

كان دافيل طوال حياته يكره الفاجعة ويتحاشاها • كان يصعب عليه أن يتخيل أن لا يكون لنزاع من النزاعات نهاية غير الفاجعة • ان طبعه يناقض هذا مناقضة كاملة • وها هو ذا يرى نفسه مُقحما في مأساة ليس لها من مخرج الا الموت ، ويرى نفسه بعد سنتين من مواجهة الصعوبات ومغالبة العقبات أشد اضطراباً وارتباكاً منه أي وقت مضى ، ويرى نفسه معذّبا معاكَساً أكثر مما كان كذلك في أية مرحلة سابقة ، حتى لكأنه مطوّق بصخور لا حيلة له فيها • الحق أن دافيل كان يشعر بأن له شأنا في قضية قائد نوفي أكثر مما كان له فيها من شأن في واقع الامر ، ولكن الشيء الذي كان يقض مضجعه حقا هو ما ذكره له دافنا من أن أحمد قد استُدرج الى ترافنك باسمه ، وأن هذا المسكين قد يظن أن قنصل فرنسا شريك في التآمر عليه •

وقرر دافيل ، بعد ليلة من أرق ، أن يطلب مقابلة الوزير ، بغية أن يتوسط للقائد دون أن يؤذيه ، أي أن يتوسط له بلباقة واعتدال • ولكن حديثه مع ابراهيم باشا كشف له عن وجه آخر للوزير • انه ليس ابراهيم باشا الذي كان يبادله الحديث منذ بضعة أيام عن أمراض العالم وعن ضرورة التفاهم بين جميع العقلاء والكرماء من الناس ، والذي كان يجري الحديث بينه وبينه كما يجري بين قريبين • ذلك أنه ما ان ذكر اسم القائد حتى أصبح الوزير بارد اللهجة مبتعدا ، نافذ الصبر مدهوشا ، يصغي الى « صديقه النبيل » اصغاءَ من يرى أنه لم يدرك

أن الاحاديث شيء والاعمال شيء آخر ، وأن على كل واحد أن يتحمل همومه وأن يحلها بنفسه على ما تتيحه له وسائله وما تأذن له به قدرته •

حاول دافيل أن يحافظ على همته وشدته واقناعه مستجمعا كل ما يملك من قوى ، لكنه شعر ، وكأنه في حلم ، بأن سيلا لا سبيل الى مقاومته يجرف القائد الباسم الشقي ، وذكر اسمَ نابوليون غير مرة ، وسأل الوزير ماذا يقول الناس حين يعلمون أن زعيما خطير الشأن قد حُكم عليه بالاعدام لمجرد أنه عُدَّ صديقا للفرنسيين ولان النمسويين اتهموه زوراً وكذبا • ولكن كل كلمة من كلمات دافيل كانت تذهب هباء أمام صمت الوزير • وقال الوزير أخيراً :

— أرى أن من الافضل أن نحتفظ به هنا ، بانتظار تبدد الشائعات التي تجري عنه ؛ ومع ذلك اذا رغبتَ أن أرجعه الى مدينته ، أن أردَّه الى ما ينتظره بمدينته ، فعلتُ • وعلى كل حال فان ما تقرره القسطنطينية هو الذي سينفذ •

كانت هذه الكلمات الغائمة تبدو غيرَ ذات صلة بمصير القائد ، وغير ذات صلة بما يعذِّب دافيل • ولكن هـذا كان كل ما أمكن استخراجه من الوزير •

ورأى القنصلُ أيضا سليمانَ باشا الذي عاد من الصرب منـذ برهة قصيرة ، ورأى كذلك طاهر بك • فما أشد ما كانت دهشته حين لاحظ فيهما ذلك الصمت نفسه وذلك الذهول نفسه • كانا ينظران اليه نظرتهم الى انسان ينفق قواه في قضية مبتوت فيها منذ زمن طويل ، قضية خاسرة حتما ، ولكنه انسان لا تحسن مقاطعته أثناء كلامه ، وانما يجب الاصغاء اليه حتى النهاية بانتباه وتأسف •

فلما عاد دافيل الى القنصلية سأل دافنا رأيه في الامر • فأجـاب الترجمان الذي ترجم الاحاديث الثلاثة ، أجاب بهدوء قائلا :

ــ واضح كلَّ الوضوح من تصريحات الوزير أن قضية أحمد بك منتهية ، وانه لا سبيل الى عمل شيء من أجله • اما النفي الى آسيا واما ما هو شر من ذلك •

صعد الدم الى وجه القنصل ، وقال :

ــ كيف ؟ لقد وعدني القنصل بارجاعه الى نوفي ، على الاقل •

فحدَّق الترجمان لحظة في وجه القنصل بعينيه المحترقتين ، ثم عاد يقول بلهجة جافة :

ــ كيف يرسله الى نوفي وهو يعلم انه يملك فيها ألف وسيلة للدفاع عن نفسه وللهرب ؟

أحسَّ القنصل أن في صوت ترجمانه وفي نظرته شيئا من تلك الدهشة المتململة التي أزعجته أشد الازعاج وجرحته أبلغ الجرح أثناء حديثه مع الوزير ومعاونَيْه •

وعرف القنصل أن امامه ليلة ليلاء جديدة ، ليلة لا سبيل فيها الى اغماض الجفنين ، ليلة تتتابع ساعاتها بطيئة بطيئة ، ويشعر أثناءها بمذلة العجز الكامل عن الدفاع عن قضيته • فتح النافذة كأنه يطلب النجدة والمعونة من خارج • وتنفس تنفسا عميقا ونظر في الظلام • هناك ، في مكان ما ، يقع قبر الغجري المسكين الذي شاء سوء طالعه أن يرى القائد على جسر القلعة وأن يقول له ، بخضوع ومذلة ، « مرحبا[1] » ، لأنه رغم أنه غجري ، صاحب قلب وشرف يمليان عليه أن يحيي الرجلَ الذي ساعده في ذات يوم • وفي قلب هذا الظلام نفسه كان يقبع القائد الشاب الذي ضاع الى الابد من غير محاكمة ومن غير سبب • لاح لدافيل أنه يرى في الظلام رؤية أوضح من رؤيته في ضوء

---

(١) بالعربية في الاصل .

النهار الخدّاع ، فهو الآن يدرك عجزه ادراكا جليـا ، ويدرك المصير المحتوم الذي ينتظر القائد الشاب ادراكا بيّنا •

لقد سبق له أن رأى في باريز ، أثناء الثورة ، وبعد حرب اسبانيا ، كثيرا من الموتى وكثيرا من المصائب ، ورأى كثيرا من الابرياء يُذبحون وكثيرا من أنواع سوء الظن التي تؤدي الى كوارث ؛ ولكنه لم يتفق له في حياته أن رأى رجلا شريفا يختفي بتأثير الاحـداث ، رؤيةً قريبة هذا القرب • في مجتمع كهذا المجتمع ، وسطَ ظروف مضطربة هـذا الاضطراب ، ظروف تصبح فيها المصادفات والاهواء والغرائز المنحطة هي القانون ، هذا انسان شقي تشير اليه مصادفة" من المصادفات باصبعها ، فاذا هو يسقط في قلب أحداث عاصفة على حين فجأة ، ثم يقع في مهب اعصار أو زوبعة من الغبار ، فيغرق لا يستطيع أحد أن يخف الى نجدته أو أن يعينه • كذلك كان حظ القـائد الشاب الجميل القوي الغني ، جرته الزوبعة بغتة وجرفته • انه لم يفعل شيئا غير ما فعله قادة آخرون طوال حياتهم منذ الابد • ان المصادفة وحدها هي التي ضفرت الاحداث وشدّت عقدتها حوله •

ومصادفةً كذلك انما استطاع القائد النمسوي أن يقنع رؤسـاء أحمد بك بابادته • ان المصادفة هي التي أرادت أن تكون السلطات في تلك الفترة بعينها حريصة على اقرار السـلام في تلك النقطـة من الحدود ، والمصادفة هي التي جعلت فيينا تلح في الطلب الى عميلهـا السرّي لدى الباب العالي أن تتم ازالة أحمد بك ، والمصادفة هي التي جعلت ذلك الموظف الكبير المستأجَر الذي يحرص على المال النمسوي أشد الحرص يظفر بالضغط على وزير ترافنك • ولعـل المصادفة أيضا هي التي جعلت ابراهيم باشا الجبان الخائف على حياته ، يترك هـذه القضية للقايمقام ، القاسي الذي لا يعرف الرحمة ولا يعني قتلُ انسان من الناس شيئا عنـده ، والذي كان في تلك اللحظة نفسها ، من قبيل

المصادفة أيضا ، في حاجة الى أن يضرب مثلا يبث الهلع في القلوب ، اظهارا لقوته وتخويفا للقادة الآخرين في مخافر الحدود .

كان كل واحد من هؤلاء الاشخاص يتصرف تصرفا مستقلا ، لحسابه الخاص ، دون أن يكون لتصرفه علاقة بشخص أحمد ، ولكنه اذ يتصرف تصرفه هذا يزيد شدّ العقدة حول عنق أحمد . ذلك كله كان مصادفة .

هكذا كان مصير ذلك الانسان التعيس الذي يحميه القنصل . لقد اكتشف دافيل ، وهو يتفرس في هذه الظلمة الرطبة ، ما لم يستطع أن يراه ابان النهار في ذلك الصمت المتململ وفي تلك النظرات المدهوشة التي لاحظها لدى أهل القناق .

وفي أثناء ذلك ، على الطرف الآخر من مدينة ترافنك ، على الضفة الاخرى من تلك الليلة الظلماء ، كان فون ميترر جالسا قرب ضوء هادىء ساج يكتب لرؤسائه تقريره عن أحمد تزيرتش . ان يحاول أن يبرز قيمة مساعيه في سقوط قائد نوفي ، لكنه يحرص على أن لا يبالغ ، حتى لا يجرح حاكم كرواتيا أو غيره من الشخصيات التي عملت لهذا الهدف نفسه . كتب فون ميترر يقول : « في هذه الساعة ، يقبع ذلك القائد الطامع المضطرب ، عدوّنا اللدود ، في ظلمات القلعة ، مكبلا بالسلاسل ، بتهمة خطيرة جدا . وأغلب الظن انه لن يخرج من هناك حيا ، فقد علمت ان الوزير قرر التخلص منه . على انني لن أقوم بأي مسعى صريح ، ولن أقوم بأي مسعى خاص ، ولكنكم تدركون طبعا انني لن أحاول منعهم من دقّ عنقه » .

وفي فجر الغداة قتل قائد نوفي أثناء نومه بطلقة بندقية ودُفن فورا في المقبرة القائمة بين نهر لاشفا والطريق الكبرى . وأشاعوا في

المدينة ان الرجل حاول الهرب بينما كانوا يريدون نقله الى نوفي ، وأن الخفير اضطر الى اطلاق الرصاص عليه •

كان دافيل يحترق من الحمى ويسقط اعيـاء وأرقا • لقد بدا له ، منذ أغمض عينيه ، أنه وحيد في هذا العالم ، انه مطوّق بحلقات مؤامرة جهنمية ، وانه ما يزال يقاتل وحيدا بآخر قواه ، رغم الضعف القاسي ، وسطَ ضباب شامل على طريق متزلجة •

وتذكر التقارير التي يجب عليه أن يرسلها الى ثلاث جهات ، باريز والقسطنطينية وسبليت ، فتحرك • ان عليه أن يتحدث عن مساعيه لدى الوزير حـديثه عن كفاح فاجع في سبيل سمعة فرنسا ، وأن ينسب اخفاقه الى سوء الظروف •

هدأ الالم الذي أثاره في نفسه موت قائد نوفي • حتى اذا أبلّ منه أخذ ينصح نفسه قائلا : « لقد جئتَ الى هذه البلاد في لحظة سيئة ، ولكن أوان التراجع قد فات • يجب أن تتذكر دائما انك لا تستطيع أن تزن أمور هـذا العالم بميزانك أنت ، ولا أن تستقبل أحداثه بالعاطفة والانفعال • والاّ لم تستطع أن تصمد ! » • وشدّ هذا القرار عزيمته ، فانكب على العمل •

ثم ان المرء في مثل هذه اللحظات كثيرا ما ينسيه همّ جـديد هما قديما ، وهذه أنباء جديدة ومهمات جديدة تصل الى القنصل • واذ رأى دافيل أن رؤساءه لا يهتمون بموت القائد مثلما اهتم هو به ، حاول أن يدفن هذا الاخفاق وأن يُخرس جميع الاسئلة الاليمة التي طرحها • ومع ذلك لم يسهل عليه أن ينسى وجه أحمـد ، ذلك الوجه المتورّد كوجه فتاة ، وأسنانه اللامعة ، وعينيه المتوهجتين السمراوين المعهودتين في رجال الجبال ، وابتسامته التي كانت ابتسامة رجل لا يهاب في العالم شيئا • لا ولا سهل عليه أن ينسى ذلك الصمت الـذي صمته الوزير

والذي أحس دافيل أمامه انه عاجز ذليل لا يملك أن يدافع عن حقه في قضية تتعلق ببلاده • ولكن تصور الصعوبات الجديدة التي لا بد أن يحملها اليه المستقبل كانت تملي عليه أن ينسى •

• • •

وعاد الوزير كما كان • انه يدعو دافيل ، ويعامله بمودة ولطف ، ويخدمه خدمات مختلفة ، ويستمر في التحدث اليه على ذلك النحو نفسه • ودافيل يحرص على هذه الصداقة الغريبة ويغذّيها • وشيئا فشيئا أصبح وقتهما ينقضي في كلام حميم ، فالوزير يسترسل في تأملاته التشاؤمية ، والقنصل يجني من ذلك في النهاية حل المشكلة التي تشغل باله والتي جاء من أجلها • وكان الوزير هو الذي يدعو دافيل اليه في بعض الايام بحجة من الحجج • وفي هذا تفوق دافيل على فون ميترر تفوقا كبيرا ، فان فون ميترر لا يُستقبل الا حين يطلب هو المقابلة ، وكانت أحاديث الوزير معه قصيرة مهذّبة ، لكنها فاترة رسمية تماما •

ورغم ان معاهدة السلم التي وقّعها نابوليون مع روسيا قد أحدثت في القسطنطينية استياء شديدا وسخطا قويا على فرنسا ، فان العلاقات بين الوزير والقنصل لم تتأثر من ذلك تأثرا دائما ، بل كان الانتقال سريعا والدهشة كاملة ، على ما تجري به الامور دائما مع الاتراك ؛ فلما أطلعت القسطنطينية وزيرها على الامر ، أظهر الوزير شيئا من الفتور والجفوة فجأة ، فأصبح لا يدعو اليه القنصل ، واذا طلب القنصل مقابلته جاء جوابه خشنا أو جافا • ولكن ذلك لم يدم طويلا وسرعان ما دارت العجلة في اتجاه معاكس ، كما يحدث دائما ، فاذا بالوزير يعود الى الملاطفة والملاينة دونما سبب ظاهر ، واذا الاحاديث الودية تُستأنف ، واذا تبادل التودد يرجع كما كان • حتى ان الملامات التي عبّر عنها الوزير

للقنصل لم تكن الا بداية لاسترساله في عرض آرائه الحزينة وشكاواه من أن العلاقات الانسانية لا تستقر على حال من القلق . فكان دافيل يرمي كل ذنب على عاتق انجلترا التي كان ابراهيم باشا يكرهها كما يكره الروس منذ أن شهد اختراق الاسطول الحربي البريطاني لمضيق البوسفور أيامَ كان وزيرا أكبر .

وتعود دافيل أخيرا على تقلبات المزاج هذه ، وعلى هذا المدّ وهذا الجزر في الحالات النفسية التي يتقلب بينها الوزير .

ولم تفلح محاولات فون ميترر في كسب الوزير بالهدايا واقصاء دافيل عن منزلته لديه . لقد استقدم من سلافونسكي برود عربة جميلة أهداها الى الوزير ، وهي أول عربة فاخرة تراها ترافنك ، فقبلها الوزير منه شاكرا أجزل الشكر ، وأصبح الناس يجيئون الى القناق ليمتعوا أبصارهم برؤية العربة الرائعة المطلية باللون الاسود . ولكن الوزير لم يلتفت الى العربة أي التفات ، وما أعمق الاهانة التي شعر بها فون ميترر ولم يذكرها في تقاريره ، حين رأى ان ابراهيم باشا لا يستعمل العربة أبدا في جولة من جولاته ، بل لا يركبها البتة . وظلت العربة قابعة في الفناء الاوسط من القناق ، هدية لامعة لكنها في غير محلها .

وفي أثناء ذلك استطاع دافيل ، على ضعف وسائله وقلة نفوذه لدى حكومته ، أن يحصل من باريز على منظار صغير واسطرلاب هدية للوزير . ولم يستطع القنصلُ حتى شرحَ استعمال المنظار . وبدا له ان بعض أجزائه لا بد أن تكون ناقصة أو معطّلة . ولكن الوزير قبل الهدية في كثير من الود واللطف . والحق ان جميع ما على الارض من أشياء لم يكن لها في نظره شأن ، فهو لا يقدّرها الا بنسبة تقديره للشخص الذي يهديها ، أو للغرض من اهدائها . ولم يكن المنظار الا حجة جديدة للاسترسال في تأملات عن النجوم ، وعن المصير الانساني

الذي يكشفه العارفون من النظر في أوضاعها ، وعن التبدلات التي تنبيء عنها ، والكوارث التي تنذر بها •

• • •

خلال السنة الاولى من وزارة ابراهيم وقعت ضربة جديدة أصابت القنصل وكادت تصعقه •

في ذلك الصيف سافر الوزير مع حاشية كبيرة الى نهر درينا أملا في أن يجبر حضوره القطعات البوسنية على البقاء أطول مدة ممكنة وأن يمنعها من التبكير في العودة الى مراكزها الشتوية في بلادها • ولعله كان سيظفر بذلك لولا انه تلقى في زفورنك نبأ الانقلاب الجديد الذي أدى الى موت السلطان سليم موتا فاجعا •

ففي أواخر شهر تموز ، جاء الساعي يحمل قصة هذه الفاجعة • واذ كان يجهل ان الوزير ذهب الى مسرح العمليات العسكرية ، فقد أتى أولا الى ترافنك ، فأرسل منها الى الوزير في زفورنك • وبعث دافيل مع هذا الساعي نفسه صندوقا من الليمون أرفقه ببضع كلمات رقيقة حزينة لا تشير أية اشارة صريحة الى الاحداث التي وقعت بالقسطنطينية ، ولكنها تعبّر عن مشاعر المودة والصداقة ، وتنبيء عن مشاركة قنصل فرنسا في حزن الوزير على مولاه • وعاد الساعي الى دافيل برسالة من ابراهيم يشكر له فيها هديته ، ويضيف الى الشكر انه ما من فرحة تفوق فرحة المرء بتلقي هدية من صديق مخلص ، ويدعو له في ختام الرسالة أن يسدد الله خطاه • وكان القنصل يعرف ماذا يمكن أن يكون لموت السلطان سليم على هذا النحو القاسي من وقع شديد الوطأة في نفس الوزير ، فلما قرأ هذه الرسالة التي لا تعبر عن غير المودة واللطف دُهش أشد الدهشة وأطرق يفكر ذاهلا عن نفسه • تلك مفاجأة أخرى من

المفاجآت الشرقية العجيبة ! ما من علاقة بين المشاعر التي يعانيها الرجل وبين العبارات التي تخطها يداه .

ولو قد اتيح للقنصل أن يرى الوزير عند استقبال النبأ من القسطنطينية لكانت دهشته أشد وأقوى . كانت خيام الوزير وحاشيته قائمة على سفح يقع تحت مقلع مهجور.ان المناخ طري لطيف ، فالانسام حتى في هذه الليالي الصيفية الخانقة تهب على السفح بليلة منعشة حاملة طراوةَ الماء وأشجارِ الصفصاف من خلال الوادي .

ما ان أُبلغ الوزير النبأ حتى أوى الى خيمته فورا ، ولم يأذن بالدخول عليه لأحد غير خلصائه الاوفياء . وأمر طاهر بك باعداد العدة للرجوع الى ترافنك ، رغم علمه بأن حالة الوزير لا تسمح له بالقيام برحلة شاقة .

سمع الوزير النبأ المشئوم بهدوء كامل ، ولم يزد على أن قال في رصانة ووقار دون أن يحفل بوجود رجاله :

« رحمة الله عليه » . ثم توجه الى خيمته بخطاه البطيئة التي تشبه أن تكون خطى شبح . ولكن ما ان أسدلت عليه الستارة الثقيلة حتى تهاوى على فرُشه ككتلة صماء ، ونضا عنه أرديته وأسلحته كمن يختنق . وعبثا حاول خادمه العجوز ، الابكم منذ الولادة ، أن يخلع عنه ملابسه وأن يغطيه . فقد كان الوزير يدفعه عنه كأن أية ملامسة تسبب له ألما لا يُطاق . ورفض بحركات متقطعة تناول كأس الشراب الذي قدمه اليه الخادم . وظل قابعا في مكانه كصخرة سقطت من علٍ ، مغمض العينين متشنج الشفتين . وانتشرت الصفراء في جسمه فأفسدت لون بشرته ، فأصبح أصفر ثم أخضر ثم صار بلون التراب . ولبث على هذه الحال عدة ساعات ، راقدا أخرس ساكنا . ولم يأخذ بالانين الا عند المساء ، فكان يئن في أول الامر أنينا رفيقا ، ثم أصبح أنينه قويا

طويلا لا تقطعه الا هنيهات قصيرة نادرة من الراحة ؛ فلو مرَّ أحد قربَ الخيمة لظن انه يسمع جحشا وُلد في الليلة البارحة وضاع فهو يبحث عن أمه • ولكن ما من أحد غير السكرتير والحاجب أُذن له أن يمرَّ قرب الوزير ، ولا أن يراه أو يسمعه من بعيد •

وظل على هذا الرقود نهارا آخـر وليلة أخرى ، يرفض كل معونة ولا يفتح عينيه ، ويخرج من حلقـه آهة حيـوانية طويلة رقيقـة : ِاي ي ي ه ِاي ي ي ه ِاي ي ي ه ! • • •

واستطاع طاهر بك بعد يومين أن يرده الى الواقع وأن يحمله على الكلام • فما ان آب الى وعيه حتى سيطر على نفسه فارتدى ملابسه وعاد كما كان•لكأنه بارتداء ثيابه يسترد وضعه المتخدر المعتاد ، ويسترد حركاته القديمة القليلة البطيئة كأن الكارثة لم تغيِّر فيه شيئا • وأراد أن يسافر فورا ، ولكن كان لا بد من قطع المسافة على مراحل •

فلما وصل الى ترافنك أرسل اليه دافيل صندوقا ثانيا من الليمون على سبيل الترحيب بوصوله ، ولكنه آثر أن يترك للوزير أن يقـرر موعدَ لقائهما المقبل ، فلم يطلب مقابلته ، رغم تحرقه شوقا الى رؤيته وسماع كلامه ، من أجل أن يبلغ السفارةَ تصريحات الرجل الذي كان مستشار السلطان سليم الثالث • وسرَّه كثيرا أن فعل ذلك ، خاصة بعد أن علم ان قنصل النمسا قد طلب المقابلة فورا فاستُقبل استقبالا فاترا جافا ، وامتنع الوزير عن الاجابة بكلمة واحدة على الاسئلة التي طرحتها أحـداث القسطنطينية • وما هي الا بضعة أيام حتى قطف دافيل ثمرة تريثـه •

دعاه الوزير في ليـلة الجمعة بحجة انه يريد أن يحدثه عن معاركه ضد « العصيان الصربي » • فاستقبله استقبالا لطيفا وأخذ يقصُّ عليه ما رآه في ميدان القتال • كان كل شيء فيما رواه الوزير يبدو صغيرا

لا قيمة له ولا خطر • فهو يتكلم باحتقار واحد يعبّر عنه صوته العميق الابح ، عن العصاة وعن الجيش البوسني الذي يقاتلهم على السواء •

ـ رأيت ما كان يجب أن أراه ، ثم لم يبق لوجودي في تلك الاركان النائية من ضرورة • ان الروس الذين ساعدوا الصربيين في قيادة العمليات قد غادروا الصرب • ولم يبق الا الصربيون الثائرون المضلّلون ، وهؤلاء لا يليق أن يقاتلهم وزير كبير • انهم أناس تعساء ، ما ينفكون في خصام وتنافس ، وسيفني بعضهم بعضا قبل أن يركعوا عند أقدامنا خاضعين • فما ينبغي أن نوسخ بهم أيدينا •

كان دافيل يحدّق دهشا الى هذا التمثال الذي يجسّد الالم ، ويكذب بهذا الهدوء كله وهذا الوقار كله • ان كل ما قاله الوزير كان نقيض الواقع ، ولكن الهدوء والوقار في أقواله كانا هما أيضا واقعا قويا مهيبا •

قال دافيل لنفسه بينما كان الترجمان يترجم الكلمات الاخيرة : « أرأيت ؟ لئن كان مجرى الاحداث لا يتوقف علينا الا قليلا جدا ، أو لا يتوقف علينا البتة ، فان طريقة عرض هذه الاحداث يتوقف علينا الى حد كبير • فالى هذه الطريقة في العرض يجب أن تتجه جهودنا ، وعليها يجب أن ينصب انتباهنا قبل كل شيء ! نعم ••• » •

وبعد هذه الاحاديث عن العصيان الصربي والجيش البوسني ، بعد هذه الاحاديث التي كانت زاخرة بالاحتقار والازدراء ، انتقل الكلام بسرعة الى موت سليم • لم يتبدل صوت الوزير ولا تغير وجهه • لقد كان كل شيء فيه مشبعا بحزن الموت ، فلا سبيل الى تغير درجاته زيادة أو نقصانا •

اتفق أن أصبح الوزير والقنصل ، خلال برهة قصيرة ، وحيدين في القاعة الكبرى من الطابق الاول ، فالخدم قد انصرفوا بعد أن قدّموا

الشراب • وبين الرجلين ، على درجة تحتهما ، كان دافنا جالسا على ركبتيه المطويتين ، مكتفا ذراعيه ، خافضا عينيه • وكان صوته ، حين يترجم ، هادئا ناعما يجري على وتيرة واحدة ، ويشبه أن يكون تمتمة •

سأل الوزيرُ القنصلَ أولا هل يعرف هو شيئا من أحداث القسطنطينية • فأجابه القنصل بأنه يجهل كل شيء ، وبأنه يحرص أشد الحرص على أن يعرف بعض الامور ، لأن جميع الفرنسيين متألمون أشد التألم لفقد هذا الصديق المخلص ، هذا الامبراطور الفذ ، السلطان سليم •

فأجابه الوزير سادرا :

ـ صدقت • ان سلطاننا ـ رحمه الله ـ الذي ينعم الآن بجميع خيرات الجنة ، قد أحب بلادكم وامبراطوركم حبا صادقا • ان جميع الرجال النبلاء العقلاء قد فقدوا بفقده صديقا عظيما •

كان الوزير يتكلم وكأن المتوفي موجود في الحجرة المجاورة ، كان يتكلم بصوت مختنق هاديء ، لا يتوقف الا على الوقائع والتفاصيل ويتحاشى الخوض في الامر الاساسي الذي هو أعوص الامور وأعسرها •

قال الوزير :

ـ لا يستطيع أن يقدر فداحة هذه الخسارة الا من عرفه • لقد كان رجلا واسع العلم كاملا من جميع النواحي • كان يحب صحبة الادباء • حتى لقد نظم هو نفسه الشعرَ ونشره باسم مستعار هو اسم « إلهامي » : ما كان أمتعه من شعر عند من يفهم الشعر • ما زلت أذكر النشيد الذي نظمه صبيحة توليه العرش • كان مطلع القصيدة : « خصني الله بعرش سليمان الكبير » • وكان يهوى الرياضيات وفن العمارة هوى صادقا • وقد ساهم شخصيا في اصلاح الادارة ونظام الضرائب • وكان يزور

المدارس بنفسه ويسأل التلاميذ ويوزع الجوائز • وكان يصعد الى المباني وفي يده مسطرته العاجية ، فيراقب العمل ، ويدقق في نوع المواد وفي أسعارها • كان يريد أن يرى كل شيء وأن يسمع كل شيء • كان يحب العمل • وكان صلب البنية قوي الجسم ، يمتاز بحذق نادر ، ولا يضارعه أحد في استعمال السيف أو الرمح • لقد رأيته بعينيّ يقطع رقاب ثلاثة خراف بضربة واحدة من سيفه • ومن المحقق أنه قُتل غيلة وكان بلا سلاح ، فلو كان السيف بيده لما خشي أحدا • آه كم كان مسرفا في النبل مسرفا في الثقة بالناس مسرفا في تصديقهم !

لم ينطق الوزير بكلمة واحدة عن موت السلطان ، لا تدري أكان ذلك عن ايمان بالخرافات أم عن خشية ؛ ولم يكن في أقواله شيء يشير الى ان حديثه عن رجل متوفى ، اللهم الا كونه يتكلم بصيغة الفعل الماضي • وكان يتحدث بسرعة كأنه غائب عن نفسه أو كأنه خنق في نفسه كل لغة أخرى •

وكان دافنا يترجم ببطء ، محاولا أن لا يشعر بوجوده أحد • ولكن الوزير التفت اليه ، عند الكلمات الاخيرة ، بحركة مفاجئة كأنه أدرك وجوده في تلك اللحظة عينها ، استدار نحوه على حين بغتة ، منتصبا كتمثال دفعته اليه يدان خفيتان ، شاخصا اليه بنظرة ميتة قطعت أنفاسَ دافنا وحملته على مزيد من الانحناء •

كذلك انتهت المقابلة في ذلك اليوم •

خرج القنصل وترجمانه من القناق خروجَهما من قبر • ان عرقا باردا يتصبب على جبين دافنا • ولم يفتح دافيل فمه الا بعد أن وصل البيت : ان هذه الحركات التي تشبه أن تكون حركات شبح ، هذه الحركات التي تشبه أن تكون حركات تمثال ، ستظل منطبعةً في ذاكرته مع أفظع الذكريات التي سيحملها من مدينة ترافنك •

وثّق موتُ السلطان علاقات الوزير البائس بقنصل فرنسا الـذي كان يُحسن الاكتفاء بنصيب طفيف ، لكنه ذكي ، في هذه الاحاديث التي تدور بين الرجلين • وما هي الا بضعة أيام حتى استدعي القنصل مرةً أخرى • ان خادما من خدم السلطان قد شهد مقتل السلطان فأرسل الى ابراهيم باشا بعض الانباء ، فحرص هذا على أن يتحدث الـى القنصل • لا شيء في مظهر الوزير يدل على ما حدث في نفسه خلال الايام الاخيرة • ومن لغته وحدها انما يحزر المرء أنه أخذ يحتمل فقدَ مولاه وأخذ يتعود على حزنه • انه يتحدث الآن عنه حديثه عن شيء مضى وانقضى •

في الاسبوعين التاليين رأى دافيل الوزير ثلاث مرات : مرتـين في القناق ومرةً ثالثة أثناء زيارة قاما بها لمصنع صب المدافع • وقـد حمل دافيل الى صاحبه في كل مرة من هذه المرات الثلاث عددا مـن الطلبات والمشكلات فكان يحصل على حل سريع مرضٍ لجميع الامور تقريبا • ولكن الوزير سرعان ما كان يعود الى الحديث عن فاجعتـه بالسلطان سليم ، كَلِفاً بهذا الحديث كلفا شديدا زاخرا بـالمرارة ، فيأخذ يحلل أسباب هذا الحادث ويذكر تفاصيله • ان به حاجة قويـة الى الكلام في هذا الامر ، حاجةً لا يستطيع مغالبتها ، وكان قنصل فرنسا في نظره هو الشخص الوحيد الذي يستحق أن يحـدث فـي هذا الموضوع • وكان دافيل يسأله في بعض الاحيان أسئلة قليلـة لبقة ، مظهرا له مشاركته في عاطفته ، فيشجعه على المضي في الكلام • فكذلك قص الوزير على دافيل المشهد الاخير من مأساة السلطـان سليم ، التي كانت مأساته هو أيضا ، قصّها عليه في جميع تفاصيلها البـارزة •

ان الحركة التي هبّت لتأييد السلطان سليم المخلوع قد أطلقهـا مصطفى برجقدار ، وهو واحد من خيرة ضباط الجيش ، ورجل شريف

لكنه قاسٍ غِرٍ" في فن السياسة • سار من فالاتيا نحو القسطنطينية مع رجاله الالبانيين من أجل قلب حكومة السلطان مصطفى السيئة ، وتحرير السلطان سليم واعادته الى العرش • فاستقبله النـاس خيرَ استقبال في كل مكان ، حتى اذا بلغ القسطنطينية استُقبـل فيهـا استقبالَ ظافرٍ ومحرر • ووصل الى السراي واستطاع أن يدخل فناءها الاول • ولكن البستانجي باشا ، وهو أحد كبار رجال البلاط ، أغلق في وجهه الباب الداخلي الكبير ، وهناك ارتكب برجقدار الباسل خطيئة مميتة • لقد أخذ يصيح طالبا اطلاق سراح السلطان سليم ، الرئيس الشرعي ، فورا • فلما رأى السلطان مصطفى ، وهو أمير طـائش لكنه مخاتل شرس ، أن برجقدار أصبح سيد الموقف ، أمر بقتـل السلطان حالا • ان عبدا هو الذي غدر بالسلطان التعيس • ففـي اللحظة التي دخل عليه فيها قزلار آغا مع أربعة مساعدين ، كان السلطان سليم يصلي صلاة العصر • فتوقف قزلار لحظة ، ثم هجم عليه وهـو ساجد • واندفع عدد من العبيد فأمسكوا ذراعيه وساقيه ، بينما راح عبيد آخرون يطردون خدمه شاهرين خناجرهم •

شعر القنصل بقشعريرة تسري في ظهره ، وأحس فيما يشبه الحلم أن أمامه رجلا مجنونا • والحق أن عقل الوزير في تلك اللحظة كـان أكثر اختلالا مما يدل على ذلك مظهره ، واضطرب دافنا وأصبح لايعرف كيف يترجم ، فهو يسقط بعض الاقوال ، ولا توافيه الالفاظ • قـال القنصل لنفسه : « انه مجنون ، مجنون ما في ذلـك ريب ، مجنون !» •

واستمر الوزير أثناء ذلك يقصُّ قصته بصوت مرنَّم ، كأنه لايتحدث الى الرجل الجالس قربه ، وانما هو يناجي نفسه • انه يذكر أيسـر التفاصيل بانتباه عظيم ودقة شديدة ، كأن لها شأنا خطيرا ، وكأنه يحاول أن يخادع القدر ، وأن ينقذ بالسحر مولاه الذي لم يبق سبيل" الـى انقاذه • ان حاجة قاهرة مبهمة كانت تحمله على أن يعلن بصوت عالٍ

واضح كل ما قد رواه له شاهد العيان ذاك ، كل ما قد حفظه على ظهر القلب • ان جنونا عابرا قد انتابه خلال أيام ، فأصيب بنوع من الحصار مركزه موت السلطان سليم ، وهو لن يتحرر من هذا الجنون ، ولو بعض التحرر ، الا اذا صوّر المأساة ، على نحو ما يراها ، لشخص أجنبي •

تخيل القنصل تتمة القصة ، تخيل نهاية الصراع الذي قام بين السلطان سليم وقتلته ، ولكنه كان مضطرا أن يصغي الى هذه التفاصيل التي يرويها له الوزير فيقشعر لها ظهره •

تابع الوزير يقول :

ـ استطاع سليم أثناء هذه المعاركة أن يفلت ، فاذا هو يوجه ضربة قوية الى قزلار آغا السمين البدين ، فيهوي قزلار على الارض • وأخذ سليم يدافع عن نفسه بالايدي والارجل وسط الغرفة ضدّ العبيد الذين يحاولون أن يقبضوا عليه • وكان أحدهم يمسك قوسا ويهم في كل لحظة أن يضع حبل القوس حول رقبته ليخنقه • ومن أسف أن سليم لم يكن معه سيفه ، والا لجرت الامور غير هذا المجرى (ردّد الوزير ذلك بلهجة حزينة) • ولكن سليم الذي كان يحمي نفسه من حبل القوس ، نسي قزلار آغا • فما كان من هذا الاسود السمين الا أن نهض على ركبتيه دون أن يلاحظه سليم ؛ وبحركة سريعة أمسك بسليم الذي كان واقفا ، وفلع احدى خصيتيه • فأعول السلطان من فرط الالم ، وسقط نصف سقوط حتى لامس وجهُه المبلل بالدم والعرق وجهَ قزلار آغا • وأصبح قِصرُ المسافة هذا لا يسمح له برفع ذراعه لضرب قزلار الذي تدحرج على السجادة دون أن يترك ضحيته • وانتهز العبد هذه الفرصة فأدخل الحبل حول عنق سليم وشد عقدته شدا قويا • وكان سليم يشعر بتراخي قواه بسبب الالم الذي يحسه في بطنه ، فغاب عن وعيه شيئا فشيئا ، واصفر

وجهه ، وجحظت عيناه ، واضطربت ذراعاه عدة مرات أخرى حول عنقه بحركة حزينة عاجزة ؛ ثم لم يلبث أن تكرش وانطوت ركبتاه وغار عنقه ، وهوى على الجدار متكوّما على نفسه ، دون أن ينتفض أو يختلج ، كأنه لم يعش قبل ذلك قط ، وكأنه لم يدافع عن نفسه . وُوضعت الجثة على بساط بمثابة نعش وحُملت الى السلطان مصطفى .

وكان برجقدار النافد الصبر ما يزال وراء الباب المغلق يعول ويضرب الباب :

ـ افتحوا يا أولاد الكلب ، اطلقوا سراح السلطان الحقيقي سليم ، والا سقطت رءوسكم كلها .

وكان رجال برجقدار الالبانيون يصيحون ويتهيأون لاقتحام الباب الثقيل . ففُتحت في تلك اللحظة احدى النوافذ الضيقة العميقة الموجودة على جانبي الباب في أعلى ، فكان مصراعها الصديء ينشق بطيئا ، وظهرت منها حصيرة مطوية ، ثم سقطت من الحصيرة جثة ليس عليها الا نصف لباس ، سقطت تتحطم على البلاطات الضيقة .

هرع مصطفى برجقدار الى الجثة أول من هرع . فرأى السلطان سليم أمامه يرقد ميتا مهبّج الوجه من الضرب . لقد جاء كل شيء بعد فوات الاوان . انتصر برجقدار ولكن انتصاره خلا من كل معنى . تغلب الشر والجنون على الخير والعقل . وبقيت الغلبة للفساد، واستمرت الفوضى في الحكم والدولة جميعا .

ختم الوزير حديثه ، وقد تخفف من ألمه ، كمن يستيقظ من حلم كان يتكلم أثناءه :

ـ على هذه الصورة ، أيها السيد ، هلك أعظم ملك من ملوك الامبراطورية العثمانية .

قال دافيل لنفسه حين عاد الى بيته بعد هذا الحديث : لا يستطيــع المرء أن يتنبأ بما سيدفعه ثمنا للمساعدات الصغيرة والتساهلات التي يحصل عليها من الوزير • وكان دافنا صامتا لا يتـكلم ولا يجد لشيء تعليــلا •

الفصل الثاني عشر

لم يأت عام ١٨٠٨ الا بأنواع من المصائب • ان بردا مبكّرا قارصا قد أعقب ، منذ مطالع شهر تشرين الثاني ، الفصلَ المألوف الرطب الذي « ليس خريفا ولا شتاء » • وعندئذ مرض الابن الصغير من أبناء دافيل مرضا مباغتا • ان ابنه الثاني الذي كان في الثالثة من عمره متين المزاج قوي البنية بالنسبة الى سنه • ولا كذلك أخوه الصغير الذي ُولد بمدينة سبليت أثناء الرحلة وظل ضعيفا نحيلا • اكتفت السيدة دافيل أولَ الامر بتجريبه الشاي مع عدد من الادوية المألوفة ، ولكن هذه المرأة الشجاعة لم تلبث أن فقدت شجاعتها وفقدت مع الشجاعة حضورَ الذهن وسرعة البديهة حين رأت الطفل يزداد ذبولاً •فاستُدعي الاطباء بل استُدعي أيضا من يسمون أنفسهم أطباء ومن يعدُّهم الناس أطباء •

هؤلاء الاطباء هم دافنا ، والراهب لوقا دافينتش من دير جوتشا جورا ، وموردو آتيجاس صيدلي ترافنك ، وجيوفاني كولونيا الطبيب المسمى بقنصلية النمسا • وقد اتخذ مجيء هذا الطبيب الاخير طابعا رسميا ، اذ قال عند وصوله : « أتيت بأمر السيد قنصل النمسا العام لأضع فني في خدمة السيد قنصل فرنسا العام » • ولم يلبث أن نشأ خلاف بينه وبين دافنا ، سواء من ناحية التشخيص ومن ناحية العلاج • أما آتيجاس فقد صمت ، وأما الراهب لوقا فقد طلب أن يعود الى الدير ليأتي ببعض الاعشاب •

والواقع أن هؤلاء الاطباء لم يسبق لهم أبدا أن عالجوا أطفالا

صغارا ، لذلك كانوا في حيرة شديدة . ان نطاق فنهم لا يشمل الحدين الأقصيين من الحياة . ان المصادفة وحدها في هذه البلاد النائية هي التي تتحكم في حياة الاطفال الصغار ، كما أن الطاعنين في السن لايستطيعون أن يأملوا الا أن تطول حياتهم بعض الطوال اذا لم ينطفئوا من تلقاء أنفسهم . ان كل شيء لدى هؤلاء وأولئك ، لدى الرضّع والشيوخ ، رهن بما يملكون من مناعة ومقاومة ، وكل شيء رهن بعناية ذويهم بهم ، وهناك بعد هذا وذاك قدر لا ينفع في دفعه دواء ولا طبيب . لذلك كان الاطفال الصغار أو الشيوخ المسنون الذين لم يبق لهم من القوة ما يكفل وقوفهم على أقدامهم ، لا يلقون من الاطباء أية عناية ولا أي اهتمام . فلولا أن الامر الآن أمرُ شخصيات رفيعة المنصب عالية الجاه لما أزعج أي طبيب نفسه من أجل الطفل الصغير . ان الزيارات التي يقوم بها الاطباء لا تستلهم المصلحة وانما تمليها واجبات الكياسة ، لا فرق في هذا بين الراهب لوقا وآتيجاس ، ولا بين دافنا وكولونيا ، هذين الاجنبيين اللذين أخذا بالعادات الشرقية والمفاهيم الشرقية . لذلك لم يكن علمُ أحدهما أبعدَ من علم الآخر .

وقرر دافيل ، حين فكر في الامر ، أن يتولى بنفسه نقل الطفل الى سنج ، حيث يوجد طبيب عسكري فرنسي شهير . وعارض أطباء ترافنك في هذا الامر ، وفاءً لآرائهم ، واعتبروا قرار دافيل تهورا واهانة في آن واحد . ولكن القنصل لم يتراجع عن قراره ، وها هو ذا يسافر في يوم شديد البرد ، خلال الطرقات المتجلدة ، مع حارسه وثلاثة خدم ، حاملا على ذراعيه ابنه الصغير بعد أن أحكم تلفيفه وأحسن تقميطه .

لقد بدأت هذه القافلة العجيبة مسيرها عند الفجر ، ولكن الطفل مات بين ذراعي أبيه قبل أن تصل الى جبل قره غولا . فقضى الركب

ليلته في أحد الخانات ، حتى اذا طلع صبح الغداة قفل راجعا الى ترافنك ، فوصل الى القنصلية عند الغسق •

كانت السيدة دافيل في تلك اللحظة تنيم ابنها الثاني ، وتدعو للذين سافروا • فلما سمعت كدن الخيول في الخارج ، وسمعت طرق الباب ، ارتجفت ، وتجمدت خوفا ، فلم تستطع أن تتحرك • وفي غرفتها انما استقبلت زوجها الذي لا يزال يحمل الطفل الميت على ذراعيه بحنان وانتباه مدثّرا ملفعا • وضع دافيل الجسم الصغير ، ونضا معطفه الاسود الذي يخرج منه البرد ، وضمّ بذراعيه زوجته التي كانت متجمدة طائشة اللب ما تزا لتتلو الكلمات الاخيرة من دعائها الذي كانت قد بدأت تلاوته ضارعةً الى الله أن يعيد اليها ابنها معافى •

كان القنصل بعد هذين اليومين من السفر على ظهر الحصان في جوٍ صقعٍ ، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه • وكانت ذراعاه ، بعد أن حمل الطفل المريض طوال تلك الساعات على وضع واحد تؤلمانه من تكسرهما ألما شديدا • ولكنه لا يعبأ بالالم ، ويعانق الجسم الصغير بحنان أخرسَ يضم الحب اللانهائي الذي يحمله لامرأته وابنهما • انه يغمض عينيه شاردَ العقل ، ويتراءى له أنه بسيطرته على ألمه ما يزال يمضي بالطفل بين ذراعيه • ولكن امرأة مشدودة اليه كانت تبكي ، كما تعرف أن تبكي نساء أوتين الشجاعة والحنان •

وكان دي فوسيه واقفا على مسافة ، يشعر أن وجوده في غير محله ، ويلاحظ بدهشة تخالطها حيرة ، عظمةَ هذا الالم لدى رجل يعده هو بسيطا أو متوسطا •

فلما جاء الغد دُفن الصغير جول فرنسوا آمنتاس دافيل بالمقبرة الكاثوليكية في يوم مشمس جاف البرد • وقد شهد الدفنَ قنصلُ النمسا والسيدة فون ميترر والآنسة فون ميترر ، ثم جاءوا الى القنصلية

يقدمون التعازي • ولم تضن السيدة فون ميترر بتقديم معونتها : تكلمت كثيرا ، وبحماسة ، عن الاولاد والامراض والموت • فكان دافيل وزوجته يصغيان الى محدثيهما وينظران اليهم بأعينهما الجافة ، كشخصين يرحّبان بكل ما ُيقال ، ولكن لا يمكن أن يساعدهما أحد ، ولا هما يطلبان مساعدة أحد على كل حال • وتطور الحديث الى حوار بين السيدة فون ميترر و دي فوسيه ، ثم صار الى كلام ينطلق به لسان آن ماري وحدها عن القدر •

كانت شاحبة الوجه رائعة • ان الاحزان والعواطف لحمتها ودمها • شعرها الكستنائي منتصب انتصاب الاسواط • عيناها الواسعتان تسطعان سطوعا غير معهود • من الصعب أن يحدق المرء في هاتين العينين دون أن تطرف عيناه • وجهها أبيض ممتليء ، عنقها لا أثر فيه لاي تغضن ، نحرها نحر فتاة ناضجة • ان جمالها الغريب الخطر يبرز مزيدا من البروز بين هذه الحلقة من الناس الحزانى المكفهرة وجوههم ، بين زوجها الشاحب المرهق وابنتها الصغيرة الصموت • تأمل دي فوسيه مدة طويلة ذراعيها النحيلتين ، البضتين رغم ذلك • ان التماعا كالتماع اللؤلؤ الاسود يظهر عند ثنيات الكوع منهما كلما حركتهما ، التماعا يشبه أن يكون التماع لهيب ضعيف لا يكاد يُرى • وظل شيء من هذا البريق ماثلا في عيني الفتى طوال النهار • فلما رأى آن ماري في الكنيسة عند الصلاة على روح الفقيد الصغير ، نظر الى ذراعيها قبل كل شيء ، ولكن الذراعين كانتا مغطاتين بقفاز أسود •

بعد هذه الايام المضطربة عاد كل شيء الى ما كان عليه في الماضي • الشتاء أغلق الابواب على أصحابها ، وحجز الناس في بيوتها المدفأة • ومرةً أخرى أصبحت القنصليتان لا تتصل احداهما بالاخرى أي اتصال • دي فوسيه نفسه صار يقصّر جولاته • وأصبحت أحاديثه مع دافيل أقرب الى المودة ، وصارت تتناول أمورا لا تُظهر اختلافاتهما في

الرأي • وكما يجري عادةً بعد كل دفن ، أصبحوا يتحاشون الـكلام على موت الطفل ، ولكنهم ماداموا لا يستطيعون طرد هذه الفكرة من أذهانهم ، يتكلمون على مرضه ، ثم على المرض والشفاء عـامةً ، وعلى أطباء البوسنة وطرائقهم خاصة •

• • •

ان المفاجآت التي تنتظر رجلا غريبا أُلقي في الشرق فجأةً وأُجبر على أن يعيش في الشرق ، كثيرة متنوعة ، ولكن الظروف الصحية في هذه المناطق هي ما يدهشه أكثر من أي شيء آخر • ان المرض موجود في الغرب بشتى أشكاله ومختلف نتائجه التعيسة ، ولكن المرض فـي الغرب شيء يكافحه الناس ويحاولون تلطيفه ويخفونه عـن أعـين الاصحاء • أما هنا فالامور كلها تجري كما لو لم يكن المرض استثناءً أو شذوذا • انه ينشأ وينمو الى جانب الصحة ، والناس يرونه ويشمونه ويسمعونه عند كل خطوة يخطونها • الفرد يعالج نفسه من المرض ، كما يأكل وكمـا يتألم ، كما يعيش • ان المرض شطر آخر من الحياة ، هو الشطر الثقيل لا أكثر من ذلك • ان المـرضى بالصرعة والزهري والجذام والهستريا والعته والحدب والعرج والصمم والبكم والعمى ، يتحركون كُثُرا في وضح النهار ، يمدون الايدي متوسلين تـارة ، أو يصمتون ماكرين تارةً أخرى ، ولكنهم يكادون يعتزون بآفـاتهم الرهيبة في جميـع الاحوال • ومن حسن الحظ أن النساء محجبات مدثّرات ، والا لكان المرضى الذين تلقاهم ضعفَ ذلك عددا •

هذا ما كان يخطر ببال دافيل ودي فوسيه كلما رأيا فلاحا هابطـا على طريق منحدر وعر يجر حصانا عليه امرأة مغطاة تهتز وتترجج أشبهَ بكيس مترع آلاما وأمراضا مجهولة •

ولكن الفقراء ليسوا المتألمين وحدهم • ان المرض في البوسنة هو قدر الفقراء وعقـاب الاغنياء • المرضى زهـرة واحـدة تتفتح على عود الغنى وعود الفقر جميعا • فلو نظرت الى سكان قصر الوزير عن كثب وعرفتهم معرفة أعمق ، لرأيت أنهم لايختلفون كثيرا عن عامة الناس الذين تلقاهم في الشارع أيامَ السوق • ولئن اختلفت طريقة الاصـابة بالمرض ، ان النظرة الى المرض لواحدة •

• • •

أثناء مرض الصبي الصغير ، أتيح لدى فوسيه أن يتعرف الى أطباء ترافنك الاربعة الذين تكلمنا عنهم : دافنا ، كولونيا ، موردو آتيجاس ، الراهب لوقا دافينتش •

ونحن نعرف دافنا الترجمان والموظف في قنصلية فرنسا • لقـد زاول الطب لدى محمد باشا أيضا ، ولكن ذلك لم يتفق الا نادرا ، ولم يكن لقب الطبيب الذي يلقب به ، وشأنه في ذلك شأن كثير من الاجانب، الا ستارا يخفي وراءه مهناً أخرى يملك لها من العلم والفن ما لا يملكه للطب : ولقد أسعده أن تُسنَد اليه هذه الوظائف الجديدة التي كـان مزودا لها بموهبة وارادة • لا شك أنه درس شيئا من الطب في مونبلييه أثناء شبابه ، ولكن كان يعوزه كل شيء حتى يستحق لقب الطبيب • انه لا يحب البشر ولا يثق بالطبيعة • وهو كسائر الغربيين الـذين اضطروا أن يعيشوا في الشرق بين الاتراك ، قد سرت اليه عـدوى تشاؤمهم وريبهم • ان الانسانية المريضة والانسانية المعافاة هما في نظره عالمان لا صلة بينهما ، والشفاء حالة عارضة عابرة ، لا تحولُ الانسانية المريضة الى انسانية معافاة ، لان هذا التحول لايمكن حدوثه • فالانسان يولد مريضا أو يصير مريضا : ذلك قدره في هذه الحياة الدنيا • كل ما هنـالك أن المبـائس الجديدة والآلام والنفقات التي تُبـدل في

العلاجات الطبية ترافق المريض • لذلك كان دافنا يؤثر أن تكون صلاته بأناس أصحاء لا بأناس معتلين • ان به اشمئزازا عميقا من كبار المرضى ، بل انه يستاء من المرض الذي يدوم زمنا طويلا استياءه من اهانة تلحق به ، لانه يرى أن على المرضى أن يعزموا أمرهم : فاما أن يمضوا يمنةً واما أن يمضوا يسرة ، اما أن يمضوا الى الموت واما أن يمضوا الى الصحة •

وكان اذا عالج سادته الاتراك لا يستعمل معارفه وأدويته بقدر ما يستعمل ارادته القوية وبراعته التي لا يخالطها ضمير ولا تتورع عن شيء • كان يتملق اصحاب الجاه من المرضى مشيدا بمتانة أجسامهم وقوة احتمالهم ، ويدغدغ غرورهم ويثير فيهم ارادة مغالبة المرض والانتصار عليه ، أو كان يطفف فداحة المرض • وذلك أمر سهل عليه ، خاصةً وأنه اعتاد أن يتملق الاصحاء بشتى الوسائل على نحو دائم وطريقة مطردة ، وسرعان ما أحس بأثر التملق وقوة التخويف وقيمة الكلمة الطيبة أو الكلمة القاسية التي تقال عمدا في الوقت المناسب • كان دافنا فظا لا ضمير له مع أكثر الناس ، ولكنه مع العظماء وأصحاب الحول والطول لطيف رقيق ، وهو في ذلك كله حاذق وقح في آن معاً•

هذا هو دافنا ، الطبيب •

ولا كذلك موردو آتيجاس ، اليهودي القصير الصموت الذي كان له في المدينة الواطئة حانوت يحضّر فيه وصفاته الطبية ويبيع العقاقير والنظارات وأدوات الكتابة وماءً خاصاً للنساء العاقرات وألوانا لصبغ الصوف ونصائح من كل نوع •

ان أسرة آجيناس هي أقدم أسرة يهودية بمدينة ترافنك • كان منزلها الاول يقع في خارج المدينة بين المساكن المتبعثرة في ذلك الركن الرطب الضيق الذي تجري فيه واحدة من تلك السواقي الكثيرة التي تصب في

نهر لاشفا ، وهو وادٍ مفروش بالحصى ، واطيء حتى داخلَ ترافنك ، لا يرى الشمس أبدا ، راشحٌ دائما ، تغزوه الاشجار والدوالي من كل صوب • هنالك ُولدت أجيال متعاقبة من أسرة آجيتاس • وهنالك ماتت أجيال • وقد استطاعوا بعدئذ أن يتركوا ذلك الركن المظلم المسيء الى الصحة ، وأن يستقروا بالمدينة ، ولكنهم احتفظوا بشيء من آثار مسكنهم القديم : انهم جميعا قصار ُصفر كأنهم نشأوا في كهف ، وهم جميعا صموتون متحفظون • وقد عاشوا عيشة وضيعةً جدا ، منزوية جدا ، رغم أنهم أصبحوا بمضي الزمن من كبار الملاّكين • وكان بين أفراد هذه الاسرة دائما ، واحدٌ يهتم بالادوية ويعمل في الطب •

بين جميع أطباء ترافنك (أو قل بين أولئك الذين ُيعَدُّون أطباء ويُطلق عليهم في القنصلية هذا اللقب) ،كان موردو آتيجاس الطبيب الذي لا تستطيع أن تتحدث عنه كثيرا • وما عساك تقول عن رجل لا يتكلم أبدا ، ولا يذهب الى مكان ، ولا يعاشر أحدا ، ولا يطلب شيئا من مخلوق ، ولا يحفل الا بعمله وبيته ؟ ان ترافنك وضواحيها تعرف موردو وتعرف حانوته الذي يبيع فيه الادوية ، وعلى هذا تقتصر معرفتها به •

رجل قصير القامة ، تجتاح وجهَه اللحيةُ والشاربان وشعرُ الوجنتين والحاجبان • يرتدي سترةً مخططة وسروالا أزرق منتفخا • ومما تتوارثه هذه الاسرة من أخبار أن أسلافها كانوا أطباء أو صيادلة منذ كانوا يعيشون في اسبانيا • وقد حافظ أفرادها على ممارسة هذا الفن حين هاجروا ولجئوا الى سالونيك ثم الى ترافنك • لقد مات جد موردو ، وكان اسمه اسحق ، بمدينة ترافنك ، مع أوائل من ماتوا من وباء الطاعون الكبير الذي انتشر في نحو منتصف القرن الماضي •فتولى ابنه ادارة المخزن ، ثم مات الابن منذ عشرين عاما ، فأورث المخزن ابنَه موردو • وما تزال الاسرة تحفظ الكتب والامالي التي وضعها كبار

الاطباء العرب والاسبان ، والتي حملتها الاسـرة حين هاجرت مـن الاندلس ، وكانت تتوارثها كنزا سريا ، جيلا عن جيل •

عشرون عاما أو يزيد انقضت الآن على موردو وهو جالس بحانوته في جميع الايام عـدا السبت ، طاويا سـاقيه تحته ، مقوسا ظهره ، خافضا رأسه ، أو عاكفا على تحضير مساحيقه وعقـاقيره وأشـربته • ان حانوته لا يزيد على أن يكون صندوقا من خشب ، ممتلئا من السقف الى الارض ، يبلغ من الانخفاض والضيق أن موردو يستطيع ، وهـو جالس ، أن يتناول بيده أي شيء فيه • ومورود يظل على هذه الجلسة وعلى هذه الملابس وعلى هذه الاستراحة صيفا شتاءً ، وكأنه كتلـة من صمت • وهو لا يحتسي قهوة ولا يدخّن ولا يشارك أي مشاركـة في الاحاديث والأمازيح التي يسترسل فيها التجار الآخرون •

الزبائن من المرضى أو أقرباء المرضى يدخلون فيجلسون على حـافة البسطة ويقولون ما يريدون قوله • وموردو يهمس برأيه من أطراف الشفتين اللتين تخفيهما اللحية والشاربان ، ثم يعطي الدواء ويتقـاضى المال • ما من سبيل الى عقد حديث معه : فهو لا ينطق الا بالقليل الذي لا بد منه • انه يصغي بانتباه ، وينظر الى المريض بعينين غائرتين فـي غابة من الشعر لا يُرى فيهما خيط أبيض بعد ، دون أن ينبس بكلمة ، حتى اذا أنهى المتكلم كلامه ، أجاب بعبارات واحدة تنتهي دائما بقوله : « الدواء من عندي والشفاء من عند الله » ، ايذانا بأن على المريض أن يتناول الدواء وأن يدفع الثمن •

ـ سأتناوله • لا أستطيع الا أن أتناوله • لسوف أتناول السـم اذا اقتضى الامر •

كذلك يتشكى المريض ، حريصا على التشكي وعلى الثرثرة كحرصه على الدواء •

ولكن موردو صـارم لا يرحم • فهو يلف الدواء بورق أزرق ، ويضعه أمام الزبون ، ثم يعود الى عمله من حيث تركه حين وفد الزبـون •

وفي يوم السوق يتجمهر أمام حانوت موردو جمع من الفـلاحين ، يدخلون واحدا بعد آخر ، يتمتمون معـه بينما ينتظر الآخرون فـي الشارع • هذا يطلب دواء ، وهذا يعرض أعشابا • انهم يتكلمون ببطء ، يناقشون في الثمن ، ويتجادلون ، ويذهبون ثم يرجعون • ولكن موردو ساكن في مكانه لا يتزحزح ، بارد صامت لا يكاد يتكلم •

والنساء العجائز اللواتي يأتين باحثات عن نظارات ، هن أكثر الزبائن صخبا ، وهن لا يفرغن من اختيار ما جئن لاجله الا بعد مدة طويلة • يقصصن أنهن ، منذ زمن غير بعيد ، كن قادرات على شكِّ الخيط في أدق ابرة ، ولكنهن منذ الشتاء الماضي ، على أثر زكام أو شيء مـن هذا القبيل ، أُصبن بنوع من الغشاوة في أبصارهن فأصبحن عاجزات حتى عن معرفة الخيط الذي به ينسجن • وفي أثناء ذلك يـلاحظ موردو المرأة التي تجاوزت الاربعين فضعف بصـرها بطبيعة الحال ، ويقيس في خياله عرض وجهها وضخامة أنفها ، ثم يخرج من علبةٍ من العلب نظارةً ذات اطار من حديد أسود ، فيضعها على أنف الفلاحة • فتنظر المرأة أول الامر في ظهري يديها ، ثم في راحة احديهما ، ثم تنظر أخيرا في كبة من الصوف يمدها اليها موردو سائلا :

ــ أترين أم لا ترين ؟ (متكلما من بين أسنانه كأنـه يريد أن يوفِّر صوته) •

فتقول الفلاحة مترددة :

ــ أرى • أرى • هذا صوف • ولكنْ كأنه بعيد ، كأنه فـي آخر السوق •

فيخرج موردو نظارة أخرى ويسألها :

ــ أهذه أفضل ؟

ــ نعم ولا . كأن أمام عيني ضبابا ، أو دخانا ، أو .....

فيخرج موردو النظارة الثالثة والاخيرة . لا بد أن تصلح هذه . لم يبق على الفلاحة الا أن تشتري أو تنصرف . لن يجرّب موردو نظارة أخرى ولن يفتح فمه ، ولو أعطيته ذهب الارض جميعا .

ويدخل مريض آخر ، يكاد يكون عظماً كله ، نحيل شاحب ، هو فلاح من قرية باكلاريفو الواقعة في أعلى الجبل . يسأله موردو بلكنته الاسبانية وبصوت لا يكاد يسمع ، عن موضع الالم :

ــ هنا ، شيء يحرقني ، يوجعني أشد الوجع .

كذلك يقول الفلاح وهو يشير باصبعه الى وسط الرئتين ويهمّ أن يكرر اشارته . ولكن موردو يقاطعه بلهجة خشنة قاطعة :

ــ لا ... ليس الالم هنا . هنا لا يمكن أن يكون ألم .

فيصرّ الفلاح ، لان موضع الالم هناك حقا ، ومع ذلك ينقل اصبعه قليلا الى جهة اليمين ، قائلا :

ــ الالم هنا مع ذلك . كيف أشرح لك ؟ هو هكذا : يبدأ هنا ثم يتحرك ، يتحرك ، لا مؤاخذة ...

ويذعن المريض قليلا ، ويذعن موردو قليلا أيضا ، فيتفقان على الموضع الذي يستمر فيه الالم زمنا أطول . وعندئذ يسأل موردو المريضَ بايجاز وفتور هل في بستانه حرمل ، فاذا أجاب المريض بأن في بستانه حرمل قال له : دُقّ الحرمل في طبق ، وأضف اليه شيئا من العسل ، وصُبّ عليه المسحوق الذي سأعطيك اياه ، ثم اجعل من ذلك كله ثلاث كبتولات تبلعها عند طلوع النهار .

ـ افعل ذلك مدة ثمانية أيام ، من الجمعة الى الجمعة • وسيزول ألمك • هات قرشين • انتهى •

فيحملق الفلاح ، ويحرك شفتيه ، محاولا أن يستوعب تعليمات موردو ، حتى لينسى الالم الذي جاء به الى هذا المكان ، ثم يمسك كيسه الذي يوجد فيه ماله ، ويأخذ يخرج منه المال متأوها مترددا ، ويعد ثم يعد ثم يعد ، ثم يدفع الثمن في آخر الامر بمشقة لا نهاية لها • وبينما يكون موردو متكوما أمام زبون جديد على هذه الجلسة نفسها ، دون حركة ، يكون الفلاح قد أخذ يصعد الى قرية القائمة في أعلى الجبل سائرا حذاء النهر •

انه يحس من جهةٍ بذلك الالم الذي لا يبارحه ، ويحمل في جيبه من جهة أخرى ذلك المسحوق الذي لفّه له موردو بورق أزرق • ولكن هناك ألمًا آخر ينتشر في كيانه كله ، هو خوفه من أن يكون قد انفق ماله في غير طائل ، وخوفه أيضا من أن يكون قد خُدع • انه يمشي قدما نحو الشمس الغاربة ، شارد اللب منكسر النفس ، فليس في الدنيا مخلوق أشد حزنا واضطرابا من فلاح مريض •

• • •

غير أن هناك زائرا كان موردو يكلمه مدة أطول ، ويحدثه حديثا أقرب الى المودة ، ولا يأسف على دقيقة يضيعها معه أو جملة يتفضل بها عليه • هذا الزائر هو الراهب لوقا دافنتش المعروف خاصةً بلقب « المطبِّب » • ان الراهب لوقا الذي كان على علاقات طيبة بوالد موردو ، أصبح منذ عشرين عاما صديق لوقا الذي لا يفارقه •

وهو منذ كان فتى في القرية ، يحاول أن يجيء كثيرا الى ترافنك ، فيمضي الى موردو حتى قبل أن يزور كاهن دولاتس ، وقد ألف السوقَ

منذ زمن طويل أن يراهما جالسين أحدهما أمام الآخر ، يتهامسان أو ينظران في العقاقير والادوية •

يرجع أصل الراهب لوقا الى قرية زينتسا ، ولكنه جاء الى دير جوتشا جورا طفلا ، بعد أن خطف الطاعون جميع أهله • وقد قضى حياته كلها تقريبا بين الادوية والكتب والتعاليم الطبية • ان على الجدران والرفوف في حجرته بالدير طائفة كبيرة من العقاقير والجذور والغصون قد عُلّقت أكياسا صغيرة أو حزما • وعلى حافة النافذة بوقال كبير من ماء رائق مليء بالعلق ، وبوقال آخر من الزيت تسبح فيه عقارب • والى جانب الديوان المغطى ببساط عتيق محرّق مبقّع مرقّع ، يوجد حُق من الاعشاب • وفي الاركان وعلى الارفف قطعٌ من خشب نادر تجاورها حجارة كبيرة وحجارة صغيرة مع جلود حيوانات وقرون • والحجرة مع ذلك نظيفة مهوّاة جميلة ، بل هي في كثير الاحيان عابقة بشذا العرعر أو الشاي الممزوج بالنعناع •

وعلى الجدار تتدلى ثلاث صور : هيبوقراط ، والقديس لويس الجونزاجي ، ومحارب مجهول على رأسه قبعة ذات حافة وريش • أما من أين جاءت هذه الصورة الاخيرة الى الاخ لوقا ، وماذا يصنع بها ، فليس يعرف أحد ذلك • ولقد فتش الاتراكُ الديرَ في ذات مرة فلم يجدوا فيه ما يثير الشبهة ، ولكن هذه اللوحة حيّرتهم • قالوا لهم انها صورة سلطان من السلاطين ، فتساءلوا هل يجوز وهل يمكن لسلطان أن يأذن بتصويره • ولكن لما كانت الصورة قديمة جدا ، وكان الاتراك يجهلون هذه الامور ، وقفت القضية عند هذا الحد ولم تتعداه • ان هذه اللوحات معلقة في هذا المكان نفسه منذ نصف قرن أو يزيد • وقد اصفرت ثم امحت ، خاصة وأن أصباغها لم تكن قوية • وهكذا كان القديس لويس يشبه هيبوقراط ، وكان هيبوقراط يشبه « السلطان » ، وكان « السلطان » المصوّر على ورق أسود بخس الثمن لا يشبه

شيئا ، وكان الاخ لوقا يستطيع وحده أن يرى سيفه وقبعته ، ونظرته الكاسرة التي هي نظرة محارب منذ خمسين عاما •

لقد أظهر الاخ لوقا ميلا الى مهنة الطب ، منذ أن كان صبيا في أول عهده بالرهبنة • واذ اكتشف الرؤساء هذه الموهبة عنده وكانوا يعلمون مدى الحاجة الى أطباء أكفياء من أجل الاديرة والسكان ، فقد أرسلوه الى « الى مدرسة الطب ببادو » • ولكن ادارة الدير تغيرت في السنة التالية ، فاذا الرؤساء الجُدد يرون أن هذا كله لا يليق بالاخ لوقا ، وأن النفقات التي تُبذل له من أجل اتمام دراسته باهظة جدا • فاستدعي الى البوسنة • وبعد سنتين عادت الادارة القديمة الى استلام زمام الدير ، فسافر الاخ لوقا مرة ثانية لاتمام دراسته في بادو • ولكن الادارة تبدلت مرةً أخرى وا أسفاه ، فأُلغيت جميع التدابير السابقة ، وأُعيد الاخ لوقا الى جوتشا جورا •

هكذا تزوّد الاخ لوقا بشيء من المعارف الطبية وبعدد من الكتب اقتناها لنفسه ، ثم استقر في حجرته بالدير واستمر يعكف على الدراسة كَلِفاً بها أشد الكلف ، ويجمع ذخيرة من الأدوية ، ويعالج من يسعون اليه من المرضى • ان هذه الرسالة لم تبرحه قط ، وان هذا الهوى المشبوب لم يفتر في نفسه يوماً •

وكل شيء في هذه الحجرة التي يتحرك فيها « المطبِّب » يتنفس جوّ النظام والسكينة والطمأنينة • ان الراهب لوقا حسير البصر ، فارع القامة ، نحيل الجسم ، بل انه لنحيل نحولاً أصبح مضرب الأمثال في المنطقة كلها • فكان الناس يقولون : «أمران يجهلهما الراسخون في العلم من المسلمين : على أي شيء ترتكز الأرض ، والى أي شيء تستند ملابس الراهب لوقا » • وكان ينتصب فوق هذا الجسم الطويل النحيل رأس جميل : جمجمة متسعة يتوجها شعر ابيض ، ووجه متوقد لعينيه

الزرقاوين نظرة حالمة غائبة بعض الشيء ، وبشرة متوردة تشف عن تفرعات أوعية الدم . ولقد ظل الأخ لوقا متوقداً سريعاً حتى الشيخوخة. انه لا يمشي مشياً بل « يمرق وامضاً كسيف يهوي » . كذلك كان يقول عنه أحد الرؤساء . صدق الرئيس الذي قال هذا الكلام : ان هذا الرجل الذي له نظرة باسمة وحركات حية موزونة لا يظل في لحظة من اللحظات ساكناً . ان أصابعه المتسعة الطويلة المعروقة ما تنفك تتداول وتُدير طوال النهار أشياء صغيرة : تنجر أو تلصق أو تربط أو تؤشر أو تصنف على الأرفف وفي الصناديق . لا شيء عند الأخ لوقا يُترك للمصادفة . ما من شيء يستخف به الأخ لوقا أو يعده غير ذي جدوى . كل شيء يصبح حياً بين يديه وفي عينيه الضاحكتين الحسيرتين ، كل شيء يأخذ مكانه بين الأدوية أو بين الأمتعة المفيدة أو الطريفة على الأقل .

ومن فرط ما كان الأخ لوقا ، في كل يوم طوالَ سنين ، يلاحظ المعادن والمخلوقات الحية وتبدلاتها وحركاتها ، اكتشف بوضوح ما ينفك يزداد أن ليس في هذا العالم كما نراه الا أمران : النمو والضمور ؛ وهما ظاهرتان مترابطتان ترابطاً لا انفكاك له ، أبديتان متحركتان في غير توقف . وما جميع الحوادث التي تجري أمام أبصارنا الا مراحل خاصة من مراحل هذا المد الدائم وهذا الجزر المستمر : ما هي الا مظاهر وفترات نقتطعها نحن على ما يريده لنا مزاجنا ، ونؤشر عليها ونطلق عليها أسماء ثابتة لنقول : العافية ، والمرض ، والموت . وذلك كله لا وجود له في حقيقة الامر ، فلا وجود الا للنمو والضمور ، خلال مختلف الحالات وشتى المظاهر . وقوام فن الطبيب أن يعرف وأن يدرك وأن يستخدم القوى المتجهة الى النمو (فعلَ البحار بالرياح) وأن يتحاشى وأن يتفادى القوى التي تخدم الضمور . فاذا استطاع الطبيب أن يظفر بالقوة السعيدة شفى وأبحر ، واذا أخفق في ذلك

هوى كل شيء الى غير عودة . ولكن ، في هذا الكتاب الكبير الذي لا يُرى ، في هذا الكتاب الذي يضمُّ حساب النمو والضمور ، تضيع القوى من صفحة الى صفحة .

تلكم هي صورة العالم في خيال هذا الراهب الطبيب .

ولا شك أن الصورة تصبح أكثر صعوبة وأعسر رؤية اذا أنت نظرت الى تفاصيلها . ان كل كائن حي ، وكل نبات ، وكل مرض ، وكل مرحلة من مراحل السنة ، وكل يوم ، وكل دقيقة ، تزيد أو تنقص ؛ وهذه الأمور كلها يتداخل بعضها في بعض ، ويرتبط بعضها ببعض بروابط كثيرة متشابكة معاً ؛ وهي كلها تعمل وتنضج وتسطع وتجري ، في الليل ، في النهار ، في أعماق الأرض ، على سطح الأرض ، في السماوات ، في الكواكب : ذلك كله خاضع لهذا القانون الثنائي ، قانون النمو والضمور ، الذي يصعب ادراكه وتتبُّعه .

أمام هذه الصورة التي تمثل العالم وتمثل الانسجام الكامل الذي يرين على العالم ، وهو انسجام يمكن استخدامه في بعض اللحظات ولكن لا تمكن السيطرة عليه ، كان الأخ لوقا يفنى حماسةً ما بارحته يوماً . ما الذي يستطيع أن يفعله رجلٌ تتكشف له هذه الحقائق كلها ، وهو قادر على أن يشارك بغير توقف في هذا العمل الكبير الذي تقوم به الطبيعة المحتومة ؟ انه لا يبقى له ، مع رحمة الله ، الا ان يعالج المرضى وأن يدرس الادوية . وماذا يعمل أولاً ؟

ماذا يأخذ من هذه الصورة التي تارةً تسطع أمام الأبصار متأججة قريبةً من العقل الانساني كل القرب وفي تناول الأيدي ، وتارةً تُظلم وتُعتصِر كالليل في غياهب ليلة حالكة السواد ؟ كيف يهتدي الى نفسه في هذا التناوب الأبدي بين النهار والليل ، في هذا السديم الظاهر من التأثيرات المتبادلة التي تتقاطع وتتشابك ، ومن القوى العمياء

والعناصر ؟ كيف يمسك ببعض الخيوط ــ ولو كانت أسمك الخيوط ــ التي تربط العلل بالمعلولات ، والأسباب بالنتائج ؟

ذلك هو الهمّ الاكبر الذي يرافق الراهب لوقا ، بالاضافة الى واجباته الدينية ، وذلك هو السبب الذي يجعل هذا الانسان ، النحيل كسلكٍ من حديد ، يبدو غائباً حالماً . وذلك هو السببُ الذي يجعله أيضاً يهرع الى أي عشبة من الأعشاب ، ويُسرع الى أي مريض من المرضى ، أنّى وجدهما ، وكيف كان مظهرهما ، وأياً كان اسمهما .

كان الأخ لوقا يؤمن ايماناً راسخاً قوياً بأن الطبيعة ، بين البشر والحيوانات ، فيها من قوى الشفاء مثلُ الذي فيها من الأمراض ، وأن هناك تقابلات أكيدة بين هذه وتلك . تلك مسائل حسابية كبرى لا نستطيع أن نعرف مداها ولا أن نرى نتيجتها ، ولكنها محلولة حلاً دقيقاً في مكانٍ ما ، هناك ، في اللانهاية ، ما في ذلك ريب . وهذه القوى العلاجية موجودة ، كما كان يقول أسلافنا ، في « الأعشاب والأقوال والحجارة » [1] . كان الراهب لوقا يعتقد في قرارة ضميره ، دون أن يجرؤ على الاعتراف بهذا الاعتقاد لنفسه ، أن كل خلل يصيب الجسم الانساني يمكن ازالته ، نظرياً على الأقل ، وأن لجميع الأمراض دواءً يوازيها ، ولكنه يكون في بعض الأحيان على مسافات كبيرة منها . فاذا استطاع الطبيب أن يقرّب بين المرض ودوائه ، ذهب المرض ، والا هدّم المرض الجسم الذي يغزوه . ما من خيبة وما من اخفاق كان يمكن أن يزعزع هذا الاعتقاد الخفي الراسخ في نفس الراهب لوقا ، وبهذه الثقة انما كان يواجه كل مريض وكل دواء . صحيح أنه كان يحتفظ بهذا الاعتقاد راسخاً لأنه ينسى ، بسرعة ودون ما رجعة ، ككثير غيره من الأطباء ، المرضى الذين لم يمكن شفاؤهم والموتى ، ولكنه يذكر

---

(1) باللاتينية في الاصل .

بعد خمسين عاما كل مريض من المرضى الذين استطاع أن يصل بهم الى الشفاء •

ذلكم هو الراهب لوقا « المطبّب » ، الصديق المتحمس للجزء المتألم من الانسانية ومن الطبيعة كلها ، ذلكم هو الراهب لوقا « المطبّب » الذي لم يكن له الا نوعان من الأعداء : الرهبان والفئران •

أما رهبان هذا الدير فقصتهم طويلة • ان أجياله التي تعاقبت دون أن تتشابه على أي نحو من الأنحاء كانت رغم ذلك مجمعةً على هذا الأمر : التنكر لفن الطب الذي يمارسه الراهب لوقا • ولقد يئس الأخ لوقا ، منذ العهد الذي أرسل فيه الى بادو ثم أعيد الى الدير ، من أن يجد بين الرهبان شيئاً من التفهم وشيئاً من المساعدة • وقديماً عبَّر الرئيس مارتان دمبتش عن الاتفاق الذي يسود بين الرهبان وبين الأخ لوقا بقوله :

ــ أرأيت الى الأخ لوقا ؟ انه مهما يشارك الرهبان الآخرين في الصلاة جوقةً واحدة ، لا يفكر أبداً مثلما يفكرون • فبينما يتلو الرهبان الآخرون أدعيتهم يكون هو متوجهاً الى الله بقوله : اللهم أنِرْ عقول هؤلاء الرهبان الخبيثين ، ولطّف قلوبهم ، عسى أن لا يضعوا لي العراقيل عند كل خطوة أخطوها في عملي المفيد • فاذا لم تستطع ذلك يا الهي ــ لأنني أعرف عناد الرهبان ولو أمام الله ــ فسلّحني يا ربي بالصبر حتى أستطيع ، دون حقد ودون قول هاجر ، أن أحتملهم وأن أساعدهم عند مرضهم بمعارفي الطبية التي يحتقرونها ويستنكرونها» • أما الرهبان فيقولون : « اللهم أنِرْ عقل أخينا لوقا ، واشفه من شغفه الفظيع الادوية والطب • اننا يا الهنا نحمدك على الامراض التي ترسلها الينا ــ اذ لا بد للمرء أن يموت من شيء ما ــ ولكن أنقذنا ياربنا من هذا الذي يريد أن يشفينا من أمراضنا • » •

لقد ظل دمبو يتندر على الأخ لوقا ويجعله مدار نكاته وأمازيحه سنين طويلة ، وهو رجل قوي البنية فكه الروح ساخر لكنه راهب طيب ورئيس فذ . ثم مات دمبو بين ذراعي لوقا ، كما مات بين ذراعيه كثيرون غير دمبو . ومع ذلك ، حتى في تلك اللحظة الحاسمة التي كان فيها دمبو يقطّب حاجبيه من شدة الألم ولا يتنفس الا في عناء كبير ، رآه الرهبان المجتمعون من حوله يبتسم ويقول لهم :

ــ يا اخوتي ان جميع الكتب مرتبة منظمة ، وكذلك المال والديون . لقد أطلعت الوكيل على ذلك . والآن باركوني واذكروني في صلواتكم . واعلموا أنني أقضي نحبي من أمرين : نفَسي وطبيبي .

هكذا ظل دمبو يمزح الى آخر لحظة من حياته .

لقد حدث ذلك منذ زمان طويل ، في عهد دمبو ، أيام كان لوقا شاباً ، وكان يعيش رهبان لم يبق اليوم منهم أحد . والآن تجاوز لوقا الواحدة والثمانين من عمره . لقد غفر للرهبان منذ زمن بعيد أنهم لم يبذلوا له مزيداً من المعونة لاتمام دراسته في بادو ، وأنهم لم يخصصوا له مقدار كافياً من المال لشراء الكتب واجراء التجارب . وانقطع الرهبان شيئاً فشيئاً عن التندر على طريقته في الحياة ، وكفوا عن التهكم على ولعه بالطب وعلى صداقته مع موردو آتيجاس . انه الآن يذهب كثيراً الى ترافنك ، ويجلس قرب موردو في حانوته ، ويبادله المعلومات والتجارب والعقاقير والجذور مقابل مقادير من الكبريت أو من حجارة اللازورد ، ذلك أن أحداً لا يباري الأخ لوقا في تجفيف أزهار الزيزفون وحفظ أوراق النباتات . نعم لقد اعتاد الرهبان منذ زمن طويل على هذه الصداقة بين « التوراة والانجيل » .

وهناك سبب آخر من أسباب نزاع لوقا مع اخوته الرهبان: لقد قلّت الآن زياراته ومعالجاته للمرضى الغرباء عن الدير . أما في الماضي

فقد كان ذلك مصدراً دائماً لمتاعب يقاسي منها الدير ، وسبباً هاماً من أسباب الاصطدام بين لوقا ورؤسائه • الحق أن لوقا لم يكن يذهب الى المرضى من تلقاء نفسه ، سواء أكانوا مسيحيين أم أتراكاً ، ولكن الأتراك كانوا يسعون اليه ، فيدعونه الى زيارة مريض من مرضاهم راجين متوسّلين ، أو يأمرونه بذلك أمراً ويكرهونه عليه اكراهاً في بعض الأحيان ، وربما أحاطوه بجنود ، فكانت هذه الزيارات ، تسبب للأخ لوقا وللدير كثيراً من المتاعب والخسائر والمكاره •

كان الأتراك يضرعون الى الأخ لوقا أن يعالج رجلاً أو امرأة ، ثم يشكون من أن حالة المريض قد تفاقمت بعد زيارة الطبيب فمات • واذا اتفق ان تحسنت صحة المريض بفضل معالجات الأخ لوقا ، فسعدت أسرة المريض بذلك وأهدت الى الأخ لوقا شيئاً ، وُجد بين الأتراك أناس" سيئو النية يتهمون الأخ لوقا بأنه اخترق حرمة البيوت التركية • صحيح أن شهوداً تشهد بأن الأخ لوقا قد دُعي الى دخول هذه البيوت ، وأنه دخلها لأمر طاهر شريف ، ولكن الدير يقاسي مكاره كثيرة ويعيش أياماً قلقة ويبذل نفقات كثيرة ، قبل أن يتم البرهان على ذلك وقبل أن تُلغى التهمة وتُسحب الشكوى • لذلك أصبح آباء الدير لا يسمحون للأخ لوقا بمعالجة الأتراك قبل أن يحصل هؤلاء من السلطات على اذنٍ يشير صراحة الى أنهم يدعون الأخ لوقا الى عيادة مريضهم بمحض اختيارهم ، ويشير صراحة الى أن السلطات التركية لا تعارض في هذا البتة • ومع ذلك لم يكن هذا الاجراء ليتفادى المتاعب دوماً •

على أن هناك أناساً طيبين كانوا يعترفون بجميل الأخ لوقا بعد نجاح معالجاته ، فيغمرونه ويغمرون الدير بالمديح والعطايا • ان واحداً من صغار بكوات القرية ، وهو رجل شجاع ذو نفوذ ، شفاه الأخ لوقا من جرح تحت ركبته ، كان اذا لقي الراهب قال له :

ــ كلما وضعت قدميَّ على الأرض في الصباح كنتَ أنت أول من اذكر اسمه بعد ذكر الله !

وظل هذا البك ، طوال حياته ، يدافع عن الدير والرهبان ، ويشهد لهم ويحميهم اذا احتاجوا الى ذلك •

وهناك تركي غني من قرية طوربه أنقذ الأخ لوقا زوجته ، فلم يذكر الرجل ذلك لأحد ــ لأن النساء لا يجوز ذكرهن ــ ولكنه أصبح يُرسل الى الدير ، في كل سنة ، قبيل عيد انتقال العذراء ، أقتين من العسل مع جلد خروف ، « للراهب الذي يداوي المرضى » •

ولكن الأخ لوقا عرف أيضاً حالات من العقوق الأسود والخبث الجهنمي • لقد ظل الدير زمناً طويلاً يتذكر قصة خطيبة مصطاي بك ميرالم • كانت الفتاة تعاني آلاماً مبرِّحة لا تهدأ في لحظة من اللحظات • فكانت تصرخ ليلاً نهاراً ، وتعض نفسها ، وتكز أسنانها ، وتأبى أن ترى أحداً ، وترفض أن تطعم شيئاً ، أو تظل أياماً برمتها راقدة ساكنةً خرساء • واتبع أهلها النصائح التي كانوا ينصحون بها ، واحدةً بعد واحدة ، فلم يجدهم ذلك كله ، ولا استطاع المشايخ ولا السحرة أن يفعلوا شيئاً • وكانت حالة الفتاة تسوء يوماً بعد يوم • وأخيراً استدعى العجوزُ ميرالم ، أبو الخطيب ، الراهبَ «المطبِّب» من الدير •

حين وصل الأخ لوقا كانت الفتاة في حالة وهن شديد منذ يومين ، فهي متجمعة على نفسها ، لا يستطيع أحد أن يخرجها من صمتها ، وتأبى حتى أن تلتفت • وفتحت الفتاة جفنيها قليلاً في لحظة من اللحظات ، فلمحت النعلين الضخمين اللذين ينتعلهما الراهب ، وأبصرت طرفاً من جبته ، ورأت الحبل الذي يشد به الرهبان أجسامهم • فرفعت نظراتها المتوحشة نحو الأخ لوقا ، الطويل هذا الطول كله ، النحيل

هذا النحول كله ، حتى التقت عيناها بعد قليل برأسه الأشيب ونظرته الزرقاء الباسمة ، فاذا هي تنفجر ضاحكة على حين فجأة ، ضحكاً غيرَ متوقع ، ضحكاً مجنوناً لا ينتهي • فحاول الأخ لوقا أن يهدئها باشاراته وأقواله ، ولكنه لم يظفر بطائل ، ولما انصرف من منزل ميرالم ظل يسمع هذا الضحك الرهيب يدوّي وراءه مدة طويلة •

وفي الغداة جاء عدد من الجنود فقادوا الأخ لوقا الى السجن بعد أن كبلوا قدميه بالأغلال • وأُبلغ رئيس الدير أن العجوز ميرالم قدّم شكوى يدعي فيها أن الأخ لوقا قد سحر الفتاة التي أصبحت منذ يومين لا تكف عن الضحك • عبثاً حاول الرئيس أن يبرهن على أن هذا خطأ ، وعلى أن مهمة الطبيب هي أن يشفي المريض من المرض ، وعلى أن السحر وما اليه ليس من الطب في شيء • وعبثاً أخذ الرئيس يوزع المال هنا وهناك • فقد كان الجواب دائماً هو أن قضية الراهب لوقا قضية خطيرة ، لأن الفتاة ذكرت أن الراهب جرّعها في الخفية « شيئاً أسود كثيفاً كمرهم عتيق » ، وأنه ضرب جبينها بالصليب مرتين ، فأصبحت منذ تلك اللحظة لا تستطيع وقف هذا الضحك الذي يعذبها بلا رحمة ولا هوادة •

وفيما كان يلوح أن الموقف صعب لا مخرج منه ، أفرج عن الراهب لوقا على حين فجأة • ذلك أن الفتاة عادت في اليوم الرابع الى حالة طبيعية • فنادت حماها وخطيبها وأعلنت لهما أنها ، أثناء نوبة هذيانها ، قد اتهمت الراهب زوراً وبهتاناً ، وأنه لم يجرّعها أي دواء ، وأنه لم يكن يحمل صليباً ، وأن كل ما فعله هو أنه مد يديه فوق رأسها وضرع الى الهه ، فخفف هذا عنها •

ووقفت القضية عند هذا الحد ، ولكن الرهبان ظلوا حانقين على لوقا زمناً طويلاً ، وقال الأخ ميجو كوكا تشفتش ، الذي كان في تلك

الفترة رئيسا للدير والذي قاسى من تلك الحادثة كثيراً ، قال للأخ لوقا في جمع حافل على مسمع من سائر الرهبان :

ــ اسمع أيها الأخ لوقا • اما أن تخلصنا من نسوتك المسلمات هاته ، واما أن انسحب أنا الى الغابة ، فتصبح أنت رئيس الدير مع بقائك طبيباً • أما أن تستمر الأمور على هذا النحو ، فلا •

حتى لقد قدم مفاتيح الدير وهو في هذه الفورة من الغضب •

على أن الهدوء والنسيان عادا بعد ذلك ، ولم يبق من الحادثة الا ما سجله الرئيس في دفتر النفقات والغرامات :

« في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الثاني وصل « المباشر » حاملاً أغلالاً ورسالة تقول ان الراهب لوقا دافنتش الطبيب (ألا لعنة الله على الساعة التي أصبح فيها طبيباً) قد جرّع كنة ميرالم حبوباً خطرة ••• »

« ••• دُفع للقاضي بعضه ، وللأمين بعضه الآخر ، النفقة الاجمالية : ١٤٨ قرشاً ••• » •

وبعد ذلك أيضاً سبب فن الأخ لوقا للدير متاعب جديدة ان نسيها الأخ لوقا فان دفاتر النفقات لا تنساها :

« لأن الأخ لوقا عالج أحد الاتراك انفقنا ٤٨ قرشاً ••• »

وفي ذلك الدفتر أيضاً انما سُجل رقم وتاريخ الأمر الذي صدر عن السلطات التركية بمنع « اعطاء أي رجل تركي أو أية امرأة تركية أي دواء من الأدوية ، وبمنع تلاوة دعاء من الأدعية فوق الرأس » ، في أي حال من الأحوال ، حتى في حال حصول الاطباء على اذن صريح من السلطات • ولكن القاريء في الدفتر ما يلبث أن يرى في صفحة جديدة تسجيلاً لغرامة جديدة :

« ... غرامة ٧٠ قرشاً ، لأن الأخ لوقا رفض مداواة أحد المرضى ... » .

وهكذا دواليك من سنة الى أخرى .

وقد فشا وباء الطاعون مرتين خلال العمر المديد الطويل الذي عاشه الراهب لوقا . فكانت حوانيت البازار تغلق ، وكانت بعض البيوت تخلو من سكانها الى الأبد ، وكانت أوثق الروابط بين الأقرباء تضعف، وكان كل اعتبار أخلاقي يزول . ولكن الراهب لوقا أظهر خلال هذين الوبائين كثيراً من النبل والجرأة ، سواء من حيث هو طبيب ومن حيث هو رجل من رجال الدين . كان ينزل الى الأحياء الموبوءة ، فيعالج جميع المرضى ، ويتولى اقامة الشعائر الدينية ، من اعتراف وتناول ، للمحتضَرين ، ويدفن الموتى ، ويساعد وينصح أولئك الذين يتجهون الى الشفاء . وقد جنى آباء الدير من ذلك احتراماً وتقديراً ، وترسخت سمعة الدير وقوي نفوذه لدى الأتراك .

غير أن من يعيش عمراً طويلاً يبقى بعد فناء كل شيء ، يبقى حتى بعد زوال مزاياه . الأمراض والمصائب تعقبها سنون طيبة هادئة . كل شيء يتغير وكل شيء يُنسى . كل شيء يزول وكل شيء يبهت . ولكن الأخ لوقا يظل وسط ضروب النجاح والاخفاق التي لا يُحصى عددها ، يظل وسط شتى الكوارث ومختلف الانتصارات ، يظل خلال صنوف المديح وفنون الاهانات ، يظل مساوياً لنفسه ، ثابتاً على حاله ، لا تتغير نظرته الغائبة ، ولا تتغير ابتسامته الناعمة ، ولا تختلف حركاته السريعة كالوميض ، ولا يتزعزع ايمانه بالعلاقات الخفية بين الأمراض وأدويتها . انه لا يعرف حياةً غير حياة العمل المكبّ على الأدوية . ولكل شيء مكانه ومسوّغه في هذه الحياة الدنيا : المرض الذي يصيب أحد الناس ، الغرامة التي يدفعها الدير ، الغضب الذي يفور

في نفس رئيس ، سوء الفهم الذي يقع فيه بعض البشر ، النميمة التي تتناول الأبرياء • ولقد كان يمكن أن يبارك السجن وأن يرحّب به لولا تلك الأغلال في القدمين ، ولولا أن الأدوية يمكن أن تفسد أثناء غيابه عنها ، ولولا أن العلقات قد تهلك ، ولولا أن الرهبان قد يفسدون ترتيب الاعشاب والاضابير • وهؤلاء الرهبان أنفسهم ، هؤلاء الرهبان الذين كانوا للاخ لوقا أعداء لدودين ، والذين كان يشكو منهم الاخ لوقا في بعض الاحيان ، ولو شكوى عابرة ، كان الاخ لوقا يعنى بمداواتهم في تفان كامل واخلاص شديد اذا مرضوا ، ويسدي اليهم النصائح ويهتم بهم ويقلق عليهم حين يكونون متمتعين بالصحة والعافية • اذا سعل أحدهم قليلا قام الاخ لوقا الى « منقله » فغلى الماء مع بعض الاعشاب في وعائه الصغير ، ثم حمل الشاي الساخن العطر الى حجرة المريض وأجبره أن يشربه • وكان هنالك رهبان حادّو المزاج ، رهبان أشبه بذئاب هرمة ، يطردونه شر طردة ، أو يسخرون منه ويهزأون بعلاجاته ، ولكن الاخ لوقا لم تضعف عزيمته يوما ولا وهنت ارادته • انه لا يحفل بالسخريات ولا يعبأ بالاهانات ، بل انه لا يسمعها • فهو يهيب بالرهبان المرضى أن يعالجوا أمراضهم ، أو يبتهل اليهم أن يفعلوا ، أو يسلك الى ذلك سبيل الاغراء ، من أجل أن يتناولوا الادوية التي كثيرا ما يتعب أشد التعب في تركيبها أو في الحصول عليها ولو بثمن باهظ •

كان هنالك راهب عجوز يشرب من الخمرة أكثر مما يأذن له به رؤساؤه ، وأكثر مما يفيد الجسم أو النفس • وكان هذا الراهب يشكو من ألم في كبده ، ولكنه لا يكف عن الشراب • وعبثا حاول الاخ لوقا الذي كان دفتره يضم وصفة عنوانها : « التقزيز من الشراب » ، عبثا حاول أن يعالج هذا الاب العجوز • كان جواب العجوز في كل يوم دمدمة من هذا النوع :

ـ دعني وشأني أيها الاخ لوقا • اهتم بأولئك الذين يرغبون في اهتمامك بهم • داوِ من لهم دواء •

فيجيبه الاخ لوقا :

ـ هيا يا صاحبي هيا • كن عاقلا • لكل داء دواء • الارض تخفي دواء لكل انسان •

ويظل الاخ لوقا الى جانب العجوز العنيد الذي لم يحب الكتب يوما ولا أحب الدراسة يوما ، حتى في زمان عافيته ، يظل الى جانبه يريه كتبه ويحاول في صبر وأناة أن يبين له أن في الارض كنوزا كثيرة ، وأن الارض رحيمة بالبشر •

ـ هل تعلم ماذا قال بلين عن الارض ؟ قال : الارض طيبة رحيمة غفور ، خادمة للبشر أبدَ الآبدين [1] • هل تعلم ما كتبه بلين عن الارض ؟ كتب : « تمنحنا الارض أعشابا مفيدة كثيرة ، ومن أجل البشر انما تنبت هذه الاعشاب بغير توقف [1] » • أرأيت ؟ ان بلين هو الذي يقول هذا الكلام • ومع ذلك ما تنفك تردد قولك : « لا دواء لي » • ألا ان لك دواءً ، وعلينا نحن أن نجد لك هذا الدواء •

فيقطب العجوز حاجبيه ضجرا متململا ، ويدفع بيده بلين وأدويته ، غير أن الاخ لوقا لا يغضب ولا يتوقف • حتى اذا رأى أخيرا أن لا سبيل الى شفاء المريض ، أتاه بقليل من الخمرة خفيةً ، مدعيا أنها دواء ، لان رئيس الدير كان قد منع الخمرة عن الراهب العجوز منعا تاما • انه بذلك يخفف عنه بعض ألمه على الاقل •

غير أن الاخ لوقا لم يكن يهتم بالدير وحده • كان يكتب بخط يده ، للناس المبعثرين في المقاطعات ، أوراقا صفرا يضم بعضها الى بعض

(١) باللاتينية في الاصل •

فيجعل منها دفاتر يتداولها هؤلاء الناس « كتبا طبية » ، وينسخونها ويوزعونها في القرى والابرشيات • ففي هذه الدفاتر تجد جميع الوصفات الشعبية مرتبة على تسلسل أحرف الهجاء ، وتجد معها نصائح صحية واعتقادات خرافية ووصايا منزلية مفيدة : كيف تنظف رداء من بقعة شمع ، كيف تصلح خمرا حامضا • والى جانب الوصفة تجد عرضا مستمدا من مراجع ايطالية ، « لطريقة استخراج المعادن في الهند وفي بلاد أخرى » أو تجد شرحا « لطريقة صنع الخمرة المسماة فرموت ، وهي خمرة توصف لتقوية الاحشاء » • ان الاخ لوقا يبسط في هذه الدفاتر كل ما جمعه من معارف ومعلومات خلال سنين طويلة ، من الحقائق التي أخذها عن كتاب « تركيب الادوية » ، الى الوصفات التي تعرفها القابلات ، الى الادوية التي علم بها من موردو • وكان بعض الناس ينسخون هذه الدفاتر بغير انتباه ، وكان بعضهم الآخر يبدل أو يسقط بعض الكلمات عن جهل أو عن غفلة ، حتى لقد يبدل أو يسقط عبارات بكاملها ؛ وكان بعضهم الثالث يسجل الى جانب الوصفات الطبية ملاحظات تستهزيء بالادوية وبالاخ لوقا • وكان الاخ لوقا يضحك من هذه الملاحظات حين يقع عليها ، ويعزي نفسه بأن في عمله من النفع للشعب وللرهبان أكثر مما في تنكر الرهبان له واستخفافهم به من ازعاج •

غير أن هناك شيئا أبسط من هذا كان يزعج الاخ لوقا في عمله ، ألا وهو الفئران • لقد كانت الفئران كثيرة حقا في هذا البناء الواسع العتيق : الدير • وكان الرهبان يؤكدون أن حجرة الاخ لوقا التي تشبه حانوت موردو هي التي تجذب الفئران بزيوتها ودهونها • أما الاخ لوقا فكان يعزو كثرة الفئران الى فوضى البناء ورطوبته ، فذلك هو ما يجذب هذه الفئران المجرمة التي تخرب أدويته ، والتي يكافحها دون أن يظفر بطائل • وأصبحت هذه المكافحة بمرور الزمن نوعا

من الهوس • فهو يتشكى منهـا ويتكلم عنهـا أكثر ممـا تستحق الخسارات التي تسببها في الواقع • كان يقفل على أشيائه بالمفتـاح أو يشنقها في العنبر ، تضليلا لهذه الاعداء التي لا تُرى • وكان يحلم باقتناء صندوق معدني كبير يستطيع أن يضع فيه جميع هذه الاشيـاء الهامة • ولكنه لم يجرؤ يوما أن يفاتح الرهبان أو الرئيس بهذا الحلم الذي يقتضي تحقيقه نفقة كبيرة • وكان يستحيل عليه مع ذلك أن يتعزى حين تلتهم الفئران شحم الارنب الذي يكون قد حضّره بعناية شديدة وغسله بالماء مرات كثيرة •

وكان في حجرته دائما مصيدتان ، احداهما كبيرة والثانية صغيرة ، يُعنى بمدّهما كلَّ مساء ، واضعا فيهما قطعةً لحم مدخّن أو عقب شمعة • فاذا صحا في الصباح ليمضي الى الصلاة ، كان يجد المصيدة فارغةً في أكثر الاحيان حتى من قطعة اللحم أو قطعة الشمع • واذا اتفق أن اصطيدت الفأرة مصادفةً ، أيقظته قرقعتها في الليل ، فقام ينظر الى الفأرة المروعة ويهددها باصبعه قائلا :

ــ ها !•• قبضت عليك يا خبيثة ! ما مجيئك هنا ؟

ثم وضع معطفه على كتفيه وحمل المصيدة في رفق وأناة وخرج الى السطح قرب السلم ، ففتح البـاب الصغير وقال يأمر الفأرة في لطف :

ــ اخرجي يا ماكرة ! هيّا اذهبي !

فتتدحرج الفأرة مذعورةً بضع درجات ، ثم تجري على بلاط الفناء وتمضي تختفي في كومة الخشب التي لا يخلو منها الفناء في فصل من فصول السنة •

وكان الرهبان الذين يعرفون طريقة الاخ لوقا في اصطياد الفئران يشاكسونه بقولهم انه « يصطاد فأرة بعينها منذ سنين » ، فكان الاخ

لوقا يدافع عن نفسه بقوة وحرارة محاولاً أن يبرهن لهم على أنه يصطاد عدة فأرات في كل عام ، صغيرة وكبيرة ووسطى •

فيقول راهب عجوز :

ـ ولكنني سمعت من يقول انك حين تدع للفأرة أن تهرب تقول لها وأنت تفتح باب المصيدة : « هيّا أركضي الى حجرة الرئيس » •

فيقول لوقا ضاحكا :

ـ هذا مكر ! هذا تلفيق !

ـ لست ألفق شيئا يا طبيب افندي ! ان أناسا يتجولون مثلك على السطح في الليل ، سمعوك تقول للفأرة هذا الكلام •

ـ دعك من هذا يا ماكر ، دعك من هذا !

ـ لو اصطدت أنا فأرة لأغرقتها في ماءٍ ساخن مع المصيدة فما تعود في الغداة •

كذلك يقول راهب أصغر سنا • فيثور الاخ لوقا ويهتف غاضبا :

ـ ماء ساخن ؟ أأنت مسيحي ؟

وتنقضي نصف ساعة في أمازيح وحديث • ثم يعود الاخ لوقا يقرّع الراهب الشاب قائلا :

ـ ماء ساخن ! هه ! ماء ساخن ! كيف تبيح لنفسك أن تضع مخلوقا من مخلوقات الله في ماء ساخن ؟

هكذا كان الاخ لوقا يكافح خصومه ، كبارا وصغارا : يعنى بهم ويطعمهم ويحميهم ! وكذلك انقضى عمره المديد السعيد •

• • •

الطبيب الرابع الذي جاء الى القنصلية أثناء مرض الصغير دافيل هو جيوفاني ماريا كولونيا ، الطبيب المسمى لقنصل النمسا العام •

الآن ألاحظ الخطأ الذي ارتكبته حين قلت ان موردو آجيتاس ، بين الاطباء الاربعة بمدينة ترافنك ، هو الطبيب الذي لا يعرف المرء عنه شيئا كثيرا • والحق أن هذا القول يصدق على كولونيا أيضا • ولئن كنا لا نعرف موردو كثيرا لان موردو لا يتكلم الا قليلا جدا ، فنحن لا نعرف كولونيا أكثر من ذلك ، رغم أنه يكثر من الكلام ، لان ما يقوله كولونيا ما ينفك يتبدل بغير انقطاع •

رجل لا يستطيع أن تحدد له عمرا ، ولا تستطيع أن تعرف له مولدا أو جنسية أو عرقا • واعتقاداته وآراؤه وتجربته مبهمة هذا الابهام نفسه • ولا شيء عليه ولا شيء فيه يأذن لك أن تعين شخصيته مزيدا من التعيين •

يقول انه وُلد بجزيرة سيفالونيا حيث كان أبوه طبيبا شهيرا • والواقع أن أباه بندقي وُلد في ايبير ، وأن أمه من دالماسيا • وقد قضى كولونيا طفولته عند جده باليونان ، وقضى شبابه في ايطاليا حيث درس الطب ، وانقضت حياته بعد ذلك بالمشرق في خدمة الاتراك والنمسويين •

رجل طويل قوي نحيل ، يسير منحنيا ، أو قل يسير منطويا عند جميع المفاصل ، بحيث يستطيع في كل لحظة أن ينقبض أو أن ينثني ، لينبسط بعد ذلك ويستطيل •

وفي أعلى هذا الجسم الطويل يرى المرء رأسا متسقا ، لا يكاد يكف عن حركة ، ولا يكاد يغطيه شعر ، تزينه خصل قليلة بلون القنب • وفي وجهه المحلوق تسطع عينان كستنائيتان سطوعا غريبا لا ينقطع ، تحت حاجبين أشهبين كثيفين • وفي فمه أسنان ضخمة مصفرّة تخرج

من بين الشفيين ، وتتلحلح اذا تكلم • وهو قادر على أن يتغير تغيرا كاملا وأن يتحول تحولا تاما في أثناء حديث واحد • ان مظهره الذي هو مظهر شيخ عاجز ، ينشق في بعض اللحظات عن هيئة رجل قوي رصين مكتمل الرجولة ، ثم عن هيئة شاب عصبي مضطرب نما نموا سريعا وأصبحت ملابسه قصيرة عليه ، لا يعرف ماذا يصنع بيديه وساقيه ، ولا يدري أين يوجه نظراته • ان لكولونيا وجها معبِّرا لا يكف عن الحركة ، وجها ينم عن الاضطراب المحموم في دماغه ، انه مكفهر الملامح سادر النظرة حزين تارة ، ثم اذا به ينقلب على حين فجأة الى حماسة صادقة أو نشوة ساذجة أو فرحة مضيئة صافية ، تتعاقب على قسماته المتسقة المتحركة واحدة بعد أخرى • ومن فمه تتدفق سيول من الاقوال وتهطل أمطار من الكلمات ، تكون في بعض اللحظات لينةً ثقيلة غاضبة جريئة ثم اذا هي تصبح لينة ناعمة ودودا زاخرة بالخيال • وذلك كله بالفرنسية والايطالية والتركية واليونانية الحديثة واللاتينية و « الايليرية » • ان كولونيا سريع الانتقال من لغة الى لغة كسرعة انتقال وجهه من هيئة الى هيئة ، انه يغيِّر لغته لحظة بعد لحظة ، ويخلط لغة بلغة ، ويدس في حديثه ألفاظا أو جملا برمتها من لغة أخرى غير التي يجري بها لسانه • والحق أنه كان لا يجيد الا الايطالية •

وأكثر من ذلك أنه كثيرا ما غيَّر اسمه وفقا لظروف معيشته أو مراحل حياته ، وفقا للوظيفة التي عمل فيها أو للمهمة التي عهد اليه بها ، علميةً كانت أم سياسية أم أدبية ، فهو يسمى نفسه : جيوفاني ماريو كولونيا ، أو جيان كولونيا ، أو جوانس كولونيس ايبيروتا ، أو بارتولو كافاليري دي ايبيرو أو دكتوري ايليريكو •••

ولكن الاشيع من ذلك والاعمق من ذلك في أمره ، تغييرُه مضمونَ ما يقوله بتغييره الاسمَ الذي يطلقه على نفسه • انه بحسب اقتناعاته

العميقة رجل عصري المفاهيم فيلسوف يملك فكرا حرا نقديا مبرءاً من الأحكام السابقة والأوهام الرائجة • ولكن هذا لم يمنعه من دراسة تاريخ الدين ، لا الدين المسيحي وحده ، بل الدين الاسلامي أيضاً ، ولم يمنعه من دراسة فرقٍ ومذاهبَ دينية شرقية أخرى • وكانت هذه الدراسة عنده نوعاً من الاتحاد بالديانة التي يدرسها ، فو يتحمس لها حماسة شديدة وان تكن موقتة ، ويجعل منها عقيدته الوحيدة بعد أن يستبعد كل ما عداها وبعد أن ينكر جميع اعتقاداته القديمة وحماساته السابقة ، لأن فكره ، الغريبَ في كل أمر ، القادرَ على وثبات عجيبة ، كان يتألف من عناصر تخضع خضوعاً سهلا لتأثير البيئة ، وتحمله دائماً على الارتباط والاتحاد بما يحيط به •

كان هذا الفيلسوف الريبي يمر بنوبات من التصوف ومن فرط التدين والتعبد • فكان في أثناء هذه النوبات يذهب الى دير جوتشا جورا ، فيرهق الرهبان بالصلوات الكثيرة التي يطلب منهم أن يقوموا بها ، ويقرّعهم على أنهم لا يملكون حماسةً كافية ، ولا يملكون معارف لاهوتية كافية • ورهبان جوتشا جورا أناس أتقياء لكنهم بسطاء ، فهم يشمئزون بغريزتهم ، كسائر رجال الدين بالبوسنة ، من المتطرفين في التعبد والتحمس ، من جميع أولئك الذين يلعقون البلاط حول الهيكل ••• فكان الرهبان الكبار يتأففون ويغضبون ، حتى أن واحداً منهم كتب يقول ان هذا الطبيب المجهول « الذي يزعم أنه خادم الايمان الكاثوليكي ويحضر الصلاة كل صباح ويظهر أنواع التقى والعبادة » يبدو لهم رجلا مشبوها ، وانه ثقيل على نفوسهم كريه في قلوبهم • ولكن علاقاتهم بالقنصلية واحترامهم للقنصل فون ميترر يمنعهم من التخلص من طبيبه الايليري دفعة واحدة •

على أن هذه الحماسة كانت لا تمنع كولونيا من الذهاب أيضا

الى الراهب الارثوذكسي باهومي ، والى بيوت السكان الارثوذكس ، بغيةَ أن يلاحظ عاداتهم الدينيـــة وأن يسمع الصـــلاة الارثوذكسية والتراتيل الارثوذكسية وأن يقارن بينها وبين تراتيل اليونان • ثم كان يزور عبد السلام افندي ، شيخ المسلمين بمدينة ترافنك ، ويجري معه أحاديث علمية عن تاريخ العقائد الاسلامية ، لأنه لا يعرف القرآن فحسب ، بل يعرف أيضاً جميع الاختلافات المذهبية والفلسفية بـين المسلمين ، من أبي حنيفة الى الغزالي • وكان في كل لحظة وبغير جهد ولا تحرج يذكر لهؤلاء الرجال من مشايخ الاسلام نصوصاً اسلامية كانوا يجهلونها في أكثر الأحيان •

وهذا التقلب نفسه كان يرين على طبــع كولونيا • انه يبدو في الوهلة الأولى سريع التأثر ، كثير المرونة ، شديد الاذعان ، الى درجة تبعث على احتقاره • فهو يجعل رأيه مطابقاً لرأي محدِّثه مطابقة تامة ، لا يقبل وجهة نظره فحسب ، بل يزيد عليها بما يعززها • وفي أحيان أخرى تراه يعلن آراء جريئة تخالف جميع الآراء ، يدافع عنها بشجاعة وحرارة ، حتى ليورط نفسه توريطاً كاملا لا يتبصر بالأضرار والأخطار التي تجلبها له •

عمل كولونيا ، أيام شبابه ، في الجيش النمسوي : ولعل هـــذا العمل هو العمل الوحيد الذي استمر فيه وثابر عليه • لقد أصبح في وقت من الآوقات طبيباً شخصياً لباشا جانينا ، ولكنه حتى في تلك الأثناء لم يقطع صلاته بقنصليات النمسا • ولئن ألحق بقنصلية النمسا في ترافنك ، فان ذلك لم يكن بفضل معارفه الطبية ، بل بفضل الحظوة التي نالها لدى الحكومة النمسوية ، وبفضل علاقاته القديمة بهـــذه الحكومة ، وبفضل معرفته باللغة البوسنية والبيئة البوسنية • والحق أنه لم يكن موظفاً من موظفي هذه القنصلية ، وكان يعيش وحـــده ، ولكنه قدم الى السلطات التركية على أنه طبيب ترعاه قنصلية النمسا •

لم يكن فون ميترر يحب النزوة ولا الفلسفة ، وكان يعرف لغة البلاد وظروفها الاجتماعية أكثر مما يعرفها كولونيا ، فكان لذلك منزعجاً من وجود هذا المعاون الذي فُرض عليه فرضاً . أما السيدة فون ميترر فكانت تكره هذا المشرقي بكل جوارحها وتقول منفعلة انها تؤثر أن تموت على أن تتناول دواء من يديه . وكانت تسميه « كرونوس » ، من فرط شبهه برمز « الزمان » ولكنه « كرونوس » بلا لحية في وجهه، ولا منجل ولا ساعة في يديه .

كذلك كان يعيش بمدينة ترافنك هذا الطبيبُ الذي لا مرضى له . انه يسكن خارجَ القنصلية في بيت خرب يستند ظهره الى صخور ظليلة . وليس له أسرة . ان خادماً ألبانياً يتولى شئون منزله الفقير الغريب أثاثاً وطعاماً وأعمالاً . أما هو فيقضي وقته يلاحق الناس الذين لايتعبهم حديثه ، ولا يهربون منه اذا دنا ، أو يبقى غارقاً في كتبه ودفاتره التي تبحث جميع المعارف الانسانية ، من الفلك والكيمياء الى فن الحرب والدبلوماسية .

ان هذا الرجل المقطوع الجذور المختل التوازن ، الذي يملك مع ذلك قلباً صافياً وفكراً طُلعة ، كان له هوى وحيد مفرط ، سامٍ مع ذلك خالٍ من كل مصلحة شخصية ، ألا وهو هوى النفاذ الى قرارة الفكر الانساني حيثما ظهر وأنى اتجه . ولقد وقف نفسه على هذا الهوى المفرط دون أن يستهدف أي غاية معينة . كان على قرب واحد وبعد واحد معاً من جميع اتجاهات الفكر الانساني ، فهو يجاريها جميعاً ، ويتحد بها جميعاً متى كان يدرسها . ان جميع الحركات وجميع الجهود الدينية والفلسفية التي قامت بها الانسانية تعنيه بدون استثناء ، وتعيش فيه ان صح التعبير ، وتتصادم وتتداخل في نفسه كتصادم وتداخل الأمواج على سطح البحر . وهذه الأسفار الروحية كانت هي العالم الذي يحيا فيه ، يستمد منه كل الهام ويغرف منه كل تجربة . ولكن

هذا يبعده عن العالم ويعزله عن الناس ، اذ يجعله في صراع دائم مع المنطق والحسّ السليم • ان خير ما في هــذا الرجل يظل خافيا عن الأعين ، في حين أن ما ُيرى من أمره وما ُيحزَر ، ينفرّ جميع الناس • ان رجلاً كهذا الرجل لا يستطيع أن يصل الى مكانة مرموقة ولا أن ينال سمعة حسنة ، ولو فيبيئة أقل غلظة وفظاظة • أما فيالبوسنة ، فلا يمكن الا أن يكون تعيساً ، مضحكاً ، مثيراً للشكوك ، مجنوناً ، لاجدوى منه البتة •

كان الرهبان يعدونه مهووساً ، وكان السكان ينظرون اليه نظرتهم الى جاسوس أو نظرتهم الى معتوه تعلم في المدرسة • كان سليمان باشا يقــول :

— ليس الأحمق من جهل القراءة ، بل الأحمق من ظن أن كل ماقرأه حــق •

وكان دى فوسيه الشخص الوحيد ، في مدينة ترافنك كلها ، الذي يجرؤ أن يجتمع به ويصبر على الحديث معه ، حتى لقد يطول حديثهما في بعض الاحيان ، ويجري كما يجري بين صديقين•لذلك كانوا يأخذون على كولونيا في قنصلية النمسا أنه يخدم الفرنسيين ، وهذا خطــأ طبعــاً •

ومن الصعب أن نحدد نظرة كولونيا الى لقبه والى مهنته من حيث هو طبيب • ولكننا نستطيع أن نقول ان هذا الأمر هو آخر ما يخطر ببــاله أو يقلق ذهنه • انه على ضوء الحقــائق الفلسفية والالهامات الدينية التي تتعاقب على نفسه بغير توقف ، لا يرى لحاجات الجسم الانساني وللآلام وللحياة نفسها أي شأن أو وزن ، ولا يرى لهــا أية دلالة عميقة • لم تكن آلام الجسم الانساني ولا تبدلاته الا ذريعة جديدة لتحرك هذا الفكر الذي حكم عليه أن يظل مضطرباً الى الأبد • ان كولونيا ضعيف التعلق بالحياة ، فأنى له أن يرى لدى انسان سوي

وشائجَ الدم وعلائم الصحة وما تُرسم لوجوده من عمر طويل أو قصير ؟ الحق أن كل شيء ، سواء في مجال الطب وفي أي مجال ، يبدأ وينتهي عند كولونيا بكلام ، بسيول من الكلام ، بأحاديث فيّاضة ومناقشات ، ثم بتبدلات كاملة سريعة في رأيه في المرض وأسبابه ووسائل علاجه . فكان عمله الرئيسي اذن هو أن يتشاجر الى غير نهاية مع سيزار دافنا الذي شعر نحوه بكرهٍ استحال الى عداوة .

كان كولونيا ، المتخرج من جامعة ميلانو ، يشايع المدرسة الطبية الايطالية ، على حين أن دافنا الذي يحتقر الأطباء الطليان ويكرههم يريد أن يبرهن على أن جامعة مونبيليه تفوق منذ عدة قرون مدرسة سالرن[1] التي دب اليها الهرم بل أصبحت رجعية . وكان كولونيا يستمد حكمته من المأثورت الكثيرة التي يضمها كتاب « طريقة سالرن الطبية [2] » وهو كتاب كان كولونيا يحافظ عليه ويخبئه في مكان حريز ، وينهل منه ما يوزعه على الناس ، في سخاء وكرم ، من قواعد الحمية الجسمية والروحية ؛ على حين أن دافنا كان يغترف علمه من عدد من الدفاتر والمخطوطات التي ترجع الى أساتذة مشهورين من أساتذة جامعة مونبلييه ، كما يغترفه من كتاب قديم عنوانه « الزنبق الطبي » . ومع ذلك فان جوهر الخصومة والتشاجر بين الطبيبين لا يرجع الى الكتب والى العلم ـ فكلاهما جاهل بالطب ـ وانما يرجع الى تلك الحاجة التي فطر عليها المشرقيون ، أعني الحاجة الى التشاجر والتخاصم ، كما يرجع الى التحاسد المعهود في الأطباء ، دع عنك جوّ الضجر الذي يخيِّم على ترافنك ، ودع عنك الغرور والتعصب .

ان نظرة كولونيا الى العافية والمرض ـ اذا صح أن تتكلم عن

---

(١) جامعة طبية شهيرة في القرون الوسطى .

(٢) عنوان الكتاب باللاتينية في الأصل .

نظرة واحدة ثابتة لديه ــ هي نظرة بسيطة غاية البساطة ، لا تحمل نفعاً ولا أمــلاً • كان يرى ، على غرار ما كان يرى أساتــذته ، أن الحياة « حالة فعّالة ما تنفك تقترب من الموت ، كما أن الموت انحلالٌ مرض طويل هو الحياة » • ولكن المرضى الذين يسمون بشراً يستطيعون أن يحيوا زمناً طويلا بتحمل مقــدار طفيف من العذاب والألم اذا هم اتبعوا نصائح الأطباء ونفذوا وصاياهم التي تدعو الى الاعتدال والقصد في كل أمر من الأمور • وليست الآلام الشديدة والأمراض الفزيولوجية الا ثمرة الاخلال بهذه القواعد • « ان الانسان في حاجة الى ثلاثة أطباء : روح مرحة ، وراحة معتدلة ، وحمية[1] • »

وعلى هدي هذه المفاهيم انما كان يعالج مرضاه فما تتحسن صحتهم ولا تزداد سوءاً ؛ انهم يموتون متى ابتعدوا كثيراً عن خط الحيــاة واقتربوا كثيراً من خط الموت ، أو يشفون اذا هم تغلبوا على آلامهم وعلى اضطراباتهم الفزيولوجية ، واتبعوا القواعد الصحية التي تأمر بها مدرسة سالرن • كان كولونيا يسهّل هذا الشفاء بواحدة من تلك النصائح اللاتينية التي تعد بالألوف ، تلك النصائح التي يسهل حفظها ويصعب اتباعها •

هذا هو كولونيا الطبيب « الايليري » آخر الأطباء الأربعة الذين يعيشون بمدينة ترافنك ، ويخوض كل منهم ، على طريقته الخاصة ، في هذا الوادي ، معركة شاقة ، يائسة في كثير من الأحيان ، ضدّ المرض والموت •

---

(١) باللاتينية في الأصل •

الفصل الثالث عشر

في مدينة ترافنك ´يصحب عيد الميلاد ، وهو عيد جميع المسيحيين ، بهموم وذكريات وخواطر كبيرة • وكان عيد الميلاد في تلك السنة ذريعةً للقنصليتين وأسرتيهما من أجل تجديد العلاقات •

ان قنصلية النمسا منتعشة انتعاشاً خاصاً : السيدة فون ميترر تعيش أسبوعاً من طيبة القلب وتقوى الدين والتفاني في سبيل الأسرة• انها تعدو هنا وهناك من أجل أن تشتري لذويها هدايا ومفاجآت ، وتحبس نفسها في احدى الحجرات تزين صنوبرة ، وتتلو صلوات الميلاد • وتذكرت ليالي هذا العيد في فيينا ، ففكرت في صلاة نصف الليل بكنيسة دولاتس • ولكن الراهب ايفو الذي أرسلت اليه أحد الموظفين لهذا الغرض ، قد بلغ من الخشونة والفظاظة في جوابه للموظف، أن هذا لم يجرؤ أن ينقل أقواله الى السيدة فون ميترر • واستطاع أن يقنعها أخيراً بأن اقامة احتفالات من هذا النوع في البوسنة أمر مستحيل • وكان هذا خيبة مريرةً لها • لكنها ظلت تقوم باستعداداتها في البيت •

وجاءت سهرة عيد الميلاد فخمة رائعةً • ففي البيت المضاء المدفأ اجتمعت الجالية النمسوية كلها حول الشجرة وأخذت آن ماري ، الشاحبة من فرط الانفعال ، توزع الهدايا ملفوفة بورق حرير ، مربوطةً بخيط ذهب ، مزدانةً بأغصان صغيرة من شجر الصنوبر •

وفي الغد ´دعي دافيل وزوجته ودى فوسيه الى قنصلية النمسا

لتناول طعام الغداء . وكان هناك الكاهن ايفو جانكوفتش والراهب جوليانو باشالتش وكيل دير جوتشا جورا ، نائبا عن رئيس الدير الذي كان مريضا . وهذا الراهب هو بعينه الراهب الحاد الطبع الضخم الجسم الذي التقى به دى فوسيه في محطة كوبرس عند وصوله الى البوسنة ، والتقى به بعد ذلك مرارا في دير جوتشا جورا ، وما زال يجري معه ذلك النقاش الذي بدءاه في تلك الظروف الخارقة .

ان قاعة الطعام الكبرى الدافئة تشيع فيها رائحة الحلوى ويعطرها شذا الصنوبر . وفي الخارج يرسل الثلج الصغير الدقيق الابيض وميضاً ساطعاً ، فينعكس ضياؤه على المائدة ويتكسر على أواني الفضة والبلور . القنصلان يرتديان زي الحفلات ، وآن ماري وابنتها تلبسان ثوبين من حرير مطرّز على آخر « موضة » : قامة طويلة وكمّان عريضان . أما السيدة دافيل فما تزال في ملابس الحداد التي تزيد منظرها نحولاً . والراهبان الطويلان البدينان ، اللذان يرتديان ثوب العيد ، يختفي كرسياهما تحتهما اختفاء كاملاً ويبدوان كومتين سمراوين .

الطعام وافر طيب . والشراب عرق بولوني وخمور مجرية . والحلوى من معجّنات فيينا . أطباق الطعام كلها ثقيلة متبّلة ، ولكن الخيال الجامح الذي تنصف به السيدة فون ميترر قد ألقى عليها ظله في أيسر الامور وأدق التفاصيل .

الكاهنان يلتهمان الطعام بشهوة قوية ، صامتين لايتكلمان ، ولكنهما يترددان أحيانا في تناول الأطعمة الفييناوية المجهولة ويحتاران في أمر هذه الملاعق الفضية الصغيرة التي تضيع في أيديهما الضخمة كلُعَب الاطفال . وآن ماري تخاطبهما كثيرا وتشجعهما على مزيد من الاكل . كمّاها يتطايران وعيناها تسطعان.وهي تهزّ رأسها حين يمسح الكاهنان شواربهما الفلاحية الطويلة ، والكاهنان ينظران بشيء من التحرج

الهادىء الى هذه المرأة المتوقدة البيضاء ، والى أطباقها التي يأكلانها أول مرة • لم يفت دي فوسيه أن يلاحظ الوقار الطبيعي في هـذين الانسانين البسيطين ، وأن يرى انتباههما وتحفظهما ، وأن يتأمل هـذا الصمود الهادئ الذي يبدو عليهما حين يرفضان تناول طعام لم يألفاه أو لا يحبانه • ان ما يراه فيهما من خراقة وتردد حين يمدان أيديهما الى بعض الاطباق ليس مضحكا بقدر ما هو جليل ومؤثر •

ودار الحديث بعدة لغات لامعا حيـا • وفي آخر الوجبة رفض الراهبان أن يأكلا شيئا من المعاقيد والفاكهة المستوردة ، فبهت هذا الامر آن ماري • ولكن كل شيء جرى بعد ذلك على خير وجه حين جيء بالقهوة والدخان ، فتقبلهما الراهبان بفرح لم يخفياه ، وعدّاهما مكافأةً على ما تحملاه الى ذلك الحين •

نهض الرجال يدخنون • ان دافيل ودي فوسيه لا يدخنان • أما فون ميترر والراهب جوليانو فهما ينشقان أنفاسا طويلة ، وأما الراهب ايفو فهو ينشق أنساما خفيفة ، ماسحا أثناء ذلك شاربيه وذقنه بمنديله الازرق •

هذه أول مرة يجمع فيها فون ميترر خصمه وأصدقاءه ، وهذه أول مرة يلتقي فيهـا القنصلان بحضور الرهبان • لكأن عيد الميلاد يحمل هدنة رائعة ، وكأن موت الصبي دافيل يطفف أو يرجيء العداوة والغيرة بين القنصلين • كان فون ميترر سعيدا بخلق فرصة تتيح لهذه العواطف النبيلة أن تظهر •

وكذلك كانت هذه المناسبة فرصةً مواتية لهؤلاء المجتمعين يبرزون فيها شخصياتهم و « سياساتهم » ، من خلال سلوكهم •

حاول فون ميترر أن يبرز لدافيل ، بأناقة واعتدال ، ما له من نفوذ عظيم لدى الرهبان • ان هذا النفوذ يظهر في وضعهم وفي أقوالهم على

السواء • واتخذ دافيل ، عن شعور بالواجب وعن صلف في آن واحد ، وضع رجل يمثل نابوليون العظيم • فكانهذا الوضع « الامبراطوري » يفسد شخصه كله افسادا مؤذيا ، ولا يعبّر عن طبيعته الحقة ، ويضفي عليه مظهر الصلابة والجمود •

والانسان الوحيد الذي كان سلوكه وكلامه خاليين من التصنع انما هو دي فوسيه ، ولكن دي فوسيه لم يتكلم كثيرا لأنه أصغر المجتمعين سنا •

أما الراهبان فانهما لم يتحدثا الا في شكوى من الاتراك والغرامات والنفي ، ولم يتكلما الا في مصير الرهبان وسير التاريخ والعالم ، وهما يشعران بتلك اللذة الغريبة التي يشعر بها أهل البوسنة حين يثيرون قضايا معقدة لا نهاية لها ولا مخرج منها •

وكان كل واحد من المتكلمين يقول ما يريد التعبير عنه ويردده مرة بعد مرة ، لا يصغي الا الى ما يهمه وما يخفيه الآخرون عنه • وطبيعي ان لا يجري الحديث في مثل هذا الجو حرا طليقا ، وأن لا يتخذ لهجة طبيعية ودية •

وكان فون ميترر ، وهو انسان يعرف كيف يستقبل الضيوف في بيته وكيف يكون لبقا ، لا يسمح بأن يتناول الحديث مواضيع حرجة شائكة أو خطرة صعبة ، ولكن الراهب جوليانو ودي فوسيه كانا مبتعدين ، فهما يتناقشان بشيء من الحدة •

ان الراهب البوسني والشاب الفرنسي يحفظ كل منهما لصاحبه ، بعد لقائهما الاول في كوبرس ، مودة وتقديرا زادتهما لقاءاتهما بعد ذلك في جوتشا جورا قورة وحرارة • كلاهما شاب معافى لا هموم له ، فكانا يندفعان في أحاديثهما بلذة عظيمة ، من غير فكرة مبيتة أو غرور شخصي ، بل كثيرا ما استرسلا في مناقشات صداقية •

انهما يتسامران الآن في حـديث عن البوسنة والبوسنيين ، وقد ابتعدا قليلا وراحا ينظران من خلال بخار الزجاج الى الاشجار العارية التي تغشاها حبيبات الثلج •

كان دي فوسيه يحاول أن يطلع على بعض الامور التـي تتصل بالسكان الكاثوليك وبنشاط الرهبـان • ثم يعبر بهدوء واخـلاص وصدق ، عن الانطباعات التي جمعها والتجارب التي عاناها الى ذلك الحين •

وسرعان ما أدرك الراهب أن القنصل الشاب لم يضيّع وقته سُدى في ترافنك ، وانه جمع معلومات كثيرة عن الشعب والبـلاد ، وعن السكان الكاثوليك ونشاط رجال الدين •

اتفق الشابان على الاعتراف بأن الحياة في البوسنة قاسية جدا ، وبأن الشعب كله على اختلاف أديانه بائس متخلف من جميع الوجوه • وكان الراهب يحاول أن يعلل هذا الوضع وأن يبرّره ، فيلقي تبعة ذلك كله على الاحتلال التركي ، ويؤكد ان الحال لن تتحسن ما لم تحل سلطة المسيحيين محل سلطة الاتراك • ولكن دي فوسيه لا يكتفي بهذا التعليق ، ويبحث عن أسباب هـذا التخلف لدى المسيحيين أنفسهم • قال :

ـ لقد خلق الحكم التركي لدى السكان المسيحيين حالة نفسية خاصة من نفاق وعناد وكسل عقلي وخوف من كل جديد وكل جهد وكل حركة• نشأ هذا الطبع أثناء صراع غير متكافيء وأثناء حالة دفاعية مستمرة خـلال قرون ولكن هذه الصفات المكتسبة أصبحت لدى الاجيـال الاخيرة صفات موروثة • لقـد نشأت هـذه الصفات من الاضطهاد ، ولكنها أصبحت الآن عقبة كأداء تحول دون التقدم • انها ميراث حزين من ماض ثقيل • هي آفات يجب استئصالها •

لم يخف دي فوسيه دهشته من أن جميع أهالي البوسنة ، لا الاتراك فحسب ، بل الذين ينتمون الى ديانات أخرى أيضا ، يقاومون أي تأثير ولو كان نافعا ، ويرفضون كل تجديد وكل تقدم ولو كان يمكن تحقيقه حالا وكان لا يتعلق الا بهم • وودّ دي فوسيه أن يشير الى الاضرار التي تنجم عن هذا الخدر الشرقي ، وعن هذا الهروب من الحياة • قال :

ـ كيف يمكن أن يحل السلام في هذه البلاد ، وكيف يمكن أن تتطور وأن تأخذ بالحد الادنى من أسباب الحضارة التي ينعم بها جيرانها ، ما دام الشعب منقسما هذا الانقسام الذي لا نرى له مثيلا في أي منطقة بأوروبا كلها ؟ ان اربعة أديان تعيش على هذه الرقعة الصغيرة الفقيرة من أرض جبلية • وكل طائفة دينية منطوية على نفسها منفصلة كل الانفصال عن الطوائف الثلاث الاخرى • انكم تعيشون جميعا تحت سماء واحدة على تراب واحد ، ولكن المركز الروحي الذي تتطلع اليه كل طائفة هو في مكان يقع على مسافات شاسعة من بلادكم ، في عالم أجنبي تماما • يقع في روما أو موسكو ، أو القسطنطينية ، أو مكة ، أو القدس ، أو في أي مكان آخر ، ولكنه لا يقع حتما في هذه الارض التي ولدتم عليها وستموتون فيها • ان كل طائفة منكم ترى أن الطوائف الاخرى تضر بها وتهدد مصلحتها وتعوق نموها وان كل تقدم تحققه هذه الطوائف الاخرى لا يمكن الا أن يسيء اليها • ثم ان كل طائفة قد جعلت التعصب فضيلة هي أسمى الفضائل ، وكل طائفة تنتظر الخلاص من تدخل أجنبي يناهض الطوائف الاخرى •

كان الراهب يصغي اليه مبتسما تبسّم من يعتقد أنه يملك الحقيقة ، وأنه ليس في حاجة اذن الى التثبت منها أو الى تعديلها • انه عازم عزما قويا على معارضة الفرنسي مهما يكلف الامر ، فقال ان هذا الشعب

لا يقوى على الوجود وعلى البقاء ، في الظروف التي تحيط به ، الا على هذه الصورة ، والا انفصل عن دينه وضعف وهلك •

فقال دي فوسيه معترضا : ان الشعب لا يتنازل عن دينه ومقدساته اذا هو ارتضى أن يحيا حياة أسلم وأعقل • وأضاف انه يعتقد ان رجال الدين هم الذين تقع على عاتقهم مهمة العمل في هذا الاتجاه •

فقال جوليانو بدلال فُطر عليه الذين يدافعون عن النظريات المحافظة :

ــ سهل عليك ، يا عزيزي ، أن تتكلم على الحاجة الى التقدم ، وعلى التأثيرات النافعة ، وعلى الخدر الشرقي • ولكن ثق ان اتباعي الذين يسمون بطرس وأنطون وجرجس كانوا سيسمون مويو وحوسو لو قد فتحنا أبوابنا لهذه « التأثيرات النافعة » •

ــ عفوك ••• ما ينبغي الوثوب الى الحدود القصوى دفعة واحدة ، ولا ينبغي العناد على الجمود بهذه الصورة •

ــ ماذا تريد ؟ نحن ، معشرَ البوسنيين ، أناس عنيدون ، عُرفنا بهذا واشتهرنا به •

كذلك أجاب الاخ جوليانو راضيا بهذا الجواب رضى واضحا •

قال دي فوسيه :

ــ ولكن لماذا تهتمون برأي الناس فيكم وبما يقوله الناس عنكم ، كما لو كان لهذا شأن خطير ؟ لا شأن ولا خطورة الا لما يجنيه الانسان من الحياة ، لما يصنعه لحياته ، لنفسه ، لبيئته ، لأعقابه !

ــ اننا نحافظ على « موقعنا » ، ولن يستطيع أحد أن يباهي بأنه أجبرنا على تغييره •

ـ ولكن ، يا أخ جوليانو ، ليس « الموقع » هو الأمر المهم ، بل الحياة ! يجب أن يكون « الموقع » في خدمة الحياة • وأين الحياة هنـا ؟

وهمّ الاخ جوليانو أن يستشهد بقول من الاقوال المأثورة على عادته ، ولكن صاحب البيت جاء فانقطع الحديث • نهض الراهب ايفو ماداً الى أفراد الحفل يده السمينة التي تشبه أن تكون مخدة صغيرة ، كما يمدّ أسقف كبير يده ، وقد انتعش لونه من الطعام والشراب • انه يتنفس بصعوبة ويلهث ، قائلا ان الجو بارد في الخارج ، وان الثلج يعصف ، وان الدير بعيد ، وان عليه أن ينصرف اذا اراد أن يصل الى الدير قبل هبوط الليل •

وافترق الشاب والراهب على أسف •

كان الشاب الفرنسي ، أثناء الغداء ، يلقي من حين الى حين نظرة على ذراعي السيدة فون ميترر البيضـاوين الجميلتين ، فاذا رأى البريق الفضي الذي تكشف عنه بعض حركاتها أغمض عينيه لحظة وهو يحس أن بينه وبينها صلة يجهلهـا الآخرون • وما تزال أذناه تسمعان رنين صوتها المتفاوت الحاد •

كانت لهجتها القاسية بعض القسوة في الفرنسية لا تبدو له عيبا من العيوب ، بل فتنة خاصة وسحرا أخاذا • وكان يحسّ ان اية لغة يتحدث بهـا هذا الصوت لا بد أن تظهر لكل انسان مألوفة حميمة كلغته الام •

وقد جرى الحديث ، قبـل الانصراف ، على الموسيقى ، وأرت آن ماري صاحبنا دي فوسيه غرفتها التي وقفتها على الموسيقى ، وهي حجرة صغيرة نيّرة ، ليس فيها الا أثاث قليل ، وبضع صور مثبتة في الجدران ، وآلة موسيقية مـذْهبة (هارب) موضوعة في وسطها •

وعبرت آن ماري عن أسفها على انها اضطرت أن تترك في فيينا آلتها الموسيقية الاخرى (كلافسان) ، وعلى أنها لم تستطع أن تحمل الى ترافنك الا الهارب ، أكبر عزاء لها في هذه الحياة • ثم مدت ذراعها العارية ومست بعض الاوتار بشيء من الاهمال ، فاذا بالنغمات التي انطلقت عندئذ على غير هدى تشعر الفتى بأنه يسمع موسيقى رائعة تهبط من السموات العلى ، تحطم حواجز هذه المدينة المغلقة ، وتعده في هذه الصحراء القاحلة بأيام سعيدة زاخرة باللذة •

كان واقفا على الجهة الاخرى من الهارب ، فقال لآن ماري ، في لطف ورفق ، انه يتمنى لو يسمع عزفها وصوتها • فأشارت آن ماري بحركة من وجهها الى حداد السيدة دافيل ، ولكنها وعدته أن تغني له في مرة قادمة •

ــ ولعلك تأذنين لي بالخروج معك في نزهة على الخيل ، متى صحا الجو • هل تخافين البرد ؟

فأجابته من الجهة الاخرى من الهارب :

ــ لماذا أخاف ؟

فبدا له صوتها الذي مرَّ من بين الاوتار ، موسيقى حافلة بالوعود •

ونظر الى عينيها العميقتين الشهباوين ، والى اللهب الذي يسطع فيهما ، فلاحت له فيهما وعود أخرى لا تعبر عن نفسها بكلام •

وفي أثناء ذلك ، في الغرفة المجاورة ، استطاع فون ميترر أن يقول لدافيل ، على نحو طبيعي ، بما يشبه الصدفة ، وكأنه يفضي اليه بسر ، ان العلاقات بين النمسا وتركيا تسوء يوما بعد يوم ، وان فينيا ترى نفسها مضطرة الى اتخاذ اجراءات هامة لا على الحدود فحسب ، بل في الداخل أيضا ، لأنها لا تستبعد قيام الاتراك بهجوم في أول الصيف القــادم •

وكان دافيل على علم بهذه الاستعدادات كسائر النـــاس ، وكان يرى انها موجهة الى فرنسا لا الى تركيا ، وان تركيا ليست هنا الا حجة وذريعة ، فزاده كلام فون ميترر اقتناعا بصواب رأيه • تظاهر بتصديق أقوال فون ميترر ، ولكنه أخذ في تلك اللحظة نفسها يتساءل : بعد كم يوم يسافر البريد ليطلع السلطات المختصة على الكلام الذي تعمد فون ميترر أن يقوله كمن يفشي سرا ، وهــذا برهان جــديد على النيات غير الودية التي تضمرها حكومة فيينا •

تواعد دي فوسيه وآن ماري على مسمع من الجميع ، عند الافتراق، على أن يقوما معا بنزهة على الخيل ، متى وافت أولى أيام الصحو ، ما دام البرد لا يصدها عن القيام بهذه النزهة •

وفي مساء ذلك اليوم من عيد الميلاد لم يسهر أهل قنصلية فرنسا بعد العشاء كثيرا ، بل أوى كل منهم الى غرفته على غير اتفاق •

ان السيدة دافيل حزينة أشد الحزن ، لم تكد تستطيع أن تحبس دموعها أثناء العشاء • كان خروجها اليومَ أول خروج لها بعد موت ابنها الصغير ، وقد نكأ هذا الاتصال الجديد بالناس جرحَها الذي كان قد بدأ يتندب صمتا • ان فقدها صغيرها يبدو لها الآن أمرا لا يُطاق ولا يُحتمل • لقد حلفت قبل ذلك ، في أفظع اللحظات ، لتغلبنّ دموعها ولتسيطرنّ على آلامها ، ولتقدمن ابنها قربانا لله ، ثم ها هي ذي دموعها تهطل الآن على خديها بغير توقف ، وها هي ذي تشعر بآلامها حــادة قوية كما كانت في أول يوم • انها تبكي بكاء مرا ، وتضرع الى الله أن يغفر لهـــا انها لم تف بوعدها ، وانها قدرت قواها فوق قدرها • ثم تركت لدموعها أن تهطل حرة طليقة ، وهي تنوء بألم يمزق أرحامهـــا كما لم يمزقها مخاض •

ودافيل جالس في مكتبه يحرر تقريرا عن حديثه مع قنصل النمسا ،

ويقول فيه انه يسعده أن تجيء الاحداث مصدِّقة لمـا تنبأ به وهو « في هذا الركن المنزوي من أركان السياسة العالمية يرصد الامور من على برج مراقبة » •

أما دي فوسيه فانه لم يشعل شمعة ، وأخـذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطى واسعة ، ويتلبث أحيانا على النافذة ينظر الى نور قنصلية النمسا على الضفة الاخرى من النهر • ان من المستحيل أن يرى المرء من هنا أي شيء أو أن يسمع أي شيء ، ولكن رأس الفتى يفيض أنغاما وبريقا • كان في هذا الظلام وهذا الصمت يتوقف بين الفينة والفينة ويغمض عينيه ، فاذا بآن ماري تتراءى له طيفا من أصوات ولمعان • ان ضوءا جميلا يخرج من كلماتها ، هو ذلك الضوء الذي يتوهج في قرارة عينيها ويقول له ، كما قالت له اليوم ، كلمات هادئة لا تبـالي شيئا : « لماذا أخاف ؟ » •

ان وراء الهـارب عالما بأسره • ونام أخـيرا على هدهدات قوية مسكرة ، على هدهدات حواسه المهتاجة •

الفصل الرابع عشر

وافت أيام الصحو المشمسة الجميلة التي يحلو للمرء فيها أن يركب الحصان رغم البرد ، وافت بحكم القانون القاهر الذي يسيطر على حوادث الطبيعة . وبحكم هذا القانون نفسه أيضا ، شهد الطريقُ المتجلد الفارسين الآتيين من القنصليتين يمران بكوبيلو وفاءً بالوعد .

لكأن هذا الطريق قد وُجد للنزهات على الاقدام أو على الحصان . طريق مستوٍ جاف يمتد مستقيما مسافةً كيلو متر ونصف بين المنحدرات الوعرة تحت جبلي قرهلوجيك وقاجاباشا ، ويطل على مجرى نهر لاشفا المحاذي له ، كما يشرف على المدينة المقابلة في الوادي . ان هذا الطريق يتسع في آخره ، ويصبح المسير فيه صعبا هناك ، قبل أن يتفرع الى عدة طرقٍ جبلية مشقوقة تصعد الى قريتي جانكوفتش وأوراشيه .

الشمس تطلع على ترافنك متأخرة . وها هو ذا دي فوسيه يصعد الطريق المشمس بصحبة حارسه ، بينما المدينة ما تزال غارقةً في الظل تحت غطاء من ضباب ودخان .

ان بخاراً يصّاعد من فم الفارسين ومن منخري الحصانين . والارض المتجلدة تقرقع تحت الحوافر . الشمس ما تزال في السحب ، لكن ضياءً أرجوانيا ينتشر على الوادي شيئا بعد شيء . ان دي فوسيه يسير بسرعة متفاوتة ، فتارةً يسير خطوا ويوهم أنه يتوقف في كل لحظة لينزل عن حصانه ، وتارة يسير عدوا يبلغ من السرعة أن

حصان الحارس لا يتبعه الا على مسافة بعيدة . فبذلك كان الفتى يخادع انتظار الدقيقة التي سيلمح فيها آن ماري مع حاشيتها على الطريق . ليس طولُ الانتظار ولا مرارة القلق عند من يستحثهم الشباب وتستحثهم الرغبة الا وجها لحلاوة الحب . كان الفتى ينتظر اذن على انفعال واهتياج ، ولكن على يقين داخلي من أن جميع مخاوفه ــ أهي مريضة ؟ هل مُنعت من الخروج ؟ هل وقع لها شيء في الطريق ــ لا تقوم على أساس ، لأن كل شيء في حب كهذا الحب مُواتٍ وممتع ، الا ختامه .

وفعلا ، في كل صباح ، متى تجاوزت الشمس عرف الجبل ، وأوشكت الشكوك والاسئلة أن تصبح أليمة ، طلعت آن ماري على دي فوسيه ، « بحكم القانون القاهر الذي يسيطر على حوادث الطبيعة » ، مرتديةً رداءها الاسود ، وهو تنورة أمازونية طويلة كأنها سرج للحصان . ويبطيء الفارسان المسير ، ويدنو أحدهما من الآخر دنوا طبيعيا لا كلفة فيه ، كما تصعد الشمس فوقهما صعودا طبيعيا فتزيد الضياء في الوادي . كان الفتى يستطيع ، وهو على مسافة مائة خطوة من آن ماري ، أن يميِّز قلنسوتها التي تشكل مع أمواج شعرها الكستنائي كلاً لا ينقسم ، وهو شعر لا يقع أحدٌ على مثله عند أية امرأة أخرى ، ويميِّز وجهها الذي أشحبه برد الصباح ، ويميِّز في هذا الوجه عينيه المتعبتين . « عيناك متعبتان » ، كذلك كان يقول لها كلما لقيها مضفياً على كلمة « المتعبتين » معنىً مشدّدا ، بينما تغض آن ماري بصرها فتكشف عن جفنين ساطعين يحف بهما ظل ضارب الى زرقة .

ويتلبث الفارسان لحظةً بلا حراك ، بعد تبادل التحيات ، ثم يفترقان، ليلتقيا بعد قليل بما يشبه المصادفة ، فيسيران متحاذيين ، ويتكلمان بسرعة تشبه أن تكون نهما وشراهة ، ثم ينفصلان ، ثم يلتقيان ويستأنفان

الحديث ، وهكذا دواليك . فكانت هذه الحيلة الصغيرة تتيح لهما أن يراعيا ظرفيهما ، وأن يلتزما قواعد الحشمة ، ولكنهما كانا ، في قرارة نفسيهما ، لا ينفصلان لحظة من اللحظات ، حتى اذا التقيا كانا يستأنفان الحديث حيث تركاه ، بلهفة لم تضعف ، ولذة لم تنقص . ان حاشيتيهما وجميع من قد يراقبونهما لا يرون فيهما الا فارسين يوليان حصانيهما وركوبهما كل انتباههما ، ولا يلتقيان الا عرضا ، ولا يدور حديثهما الا على حالة الطريق ونوع الطقس وسرعة الخيل . من ذا الذي يستطيع أن يحزر معنى هذه النسمة البيضاء ، التي تطير من هذا الفم تارة ، ومن ذاك تارةً أخرى ، كراية صغيرةٍ يلوِّح بها ، وتتوقف في بعض اللحظات ، لتنطلق بعد ذلك في الهواء الطري أخفَّ وأعلى ؟

ومتى تسللت الشمس الى الاركان النائية من الوادي الذي يتلون هواؤه بلون القرمز ، ومتى أخذ نهر لاشفا المتجلد نصف تجلد يطلق أبخرته حتى لكأن بالمدينة نيرانا لا ترى ، افترق الفتى والمرأة الشابة فجأة ، ولكن على تعاطف ومودة ، فعند الفراق انما يكشف العشاق عن أنفسهم خاصة ؛ ثم يهبط كل منهما على جهته من الطريق نحو المدينة المدفونة تحت الثلج والصقيع .

أول من أدرك أن شيئا يحدث بين الفتى دي فوسيه والسيدة الجميلة فون ميترر هو السيد فون ميترر نفسه . انه يعلم أن امرأته « طفل مريض » ، يعرف قفزات مزاجها ، يعرف ما كان يسميه فيها « ضلالات » ، يعرف كيف تبدأ هذه « الضلالات » وكيف تنتهي . لم يصعب عليه أن يدرك ما كان يحدث في نفسها وأن يتنبأ بمجرى مرضها : نشوة" فحماسة" للعلاقات الروحية ، فخيبة" ازاء الشهوة الحسية التي يظهرها الرجل ، فيأس" يعبر عن نفسه دائما بطريقة واحدة : « يشتهونني جميعا ولا يحبني أحد » ، ثم يأتي النسيان أخيرا ، الى أن تعرض مناسبات

جديدة للحماسة واليأس • ولم يكن فون ميترر في حاجة الى ذكاء عظيم وبصيرة نافذة من أجل أن يدرك نيات الفتى الذي ألقى من باريس الى ترافنك ، ووجد نفسه أمام مرأة جميلة هي المرأة المتمدنة الوحيدة في مساحة من الارض نصف قطرها مئات الكيلو مترات • ولكن « ضلالة » امرأته في هذه المرة لا تمس مركزه فحسب ، بل تتناول علاقاته بقنصلية فرنسا • وهذا ما أزعجه أشد الازعاج •

لقد حدد الكولونيل هذه العلاقات بالقنصلية العدوة وبموظفيها تحديدا ثابتا ، وكذلك حدد العلاقات التي يجب أن تكون لاسرته ولموظفيه بتلك القنصلية • وكان من حين الى حين يراجع رأيه في هذه الامور ، فينقح بعض النقاط ، ويعدلها ، كما تعدل ساعة من الساعات ، وفقا للتعليمات التي يتلقاها من الوزارة ، وعلى ضوء الموقف العام • وكان ذلك في نظره أمرا خطيرا محفوفا بالمصاعب ، لأن دقته العسكرية وضميره المهني أنمى فيه من أي شعور آخر • ومن الممكن اذن أن تبدل آن ماري بموقفها هذه العلاقات ، وأن تفسدها ، فتسيء الى المصلحة ، كما تسيء الى كرامة الكولونيل • ذلك اذن هم جديد ، ومنغص لم يعرفه الى الآن •

كان القنصل يعلم ، رغم أنه ليس الا عجلة صغيرة في آلة الامبراطورية النمسوية ، كان يعلم ، لانه قنصل عام بترافنك ، أن حكومته التي تزمع انشاء تحالف جديد ضد نابوليون ، تقوم باستعدادات عسكرية ، وتنوي اخفاء هذه الاستعدادات ما أمكن اخفاؤها متظاهرة بأنها استعدادات موجهة ضد تركيا • لقد تلقى تعليمات دقيقة تطلب اليه أن يطمئن السلطات التركية وأن يؤكد لها أن هذه الاستعدادات لا يمكن أن تكون موجهة ضد بلادها بحال من الاحوال • وتلقى في الوقت نفسه أوامر كثيرة صارمة توجب عليه أن يراقب حركات

عمـلاء القنصلية الفرنسية ، وأن يبلغ عن أيسر مايصل الى علمه من تفاصيل .

وليس بمستبعد اذن أن تصل العلاقات الى قطيعة جديدة ، الى تحالف جديد ، الى صراع جديد .

ولئن كان الكولونيل لا يقيم كبير وزن لجنون جديد تقع فيه امرأته ، ولئن كان لا يهمه كثيرا أن تخرج امرأته مع هذا الشاب في نزهات عاطفية في أوج الشتاء على مرأى من الخدم وسائر الناس ، اذ ليس عليه الا أن ينتظر اندفاع الفتى الى مراودة آن ماري حتى تتراجع آن ماري خائبة الآمال حزينة النفس ، فتنتهي هذه المغامرة ، لئن كان ذلك كذلك ، فا نالكولونيل يتمنى أن تحل هذه اللحظة بأقصى سرعة ممكنة .

ولاحظ دافيل ، من جهته ، هذه النزهات وهذه اللقاءات بين السيدة فون ميترر وبين معاونه الذي يتصف بالذكاء حقا ولكنه يتصف بالخفة والطيش أيضا ، والذي ما ينفك القنصل يحذر منه . لقد حدد هو أيضا السلوك الذي يجب أن يلتزمه ازاء قنصلية النمسا ، والذي يجب أن يلتزمه أعضاء القنصلية أيضا ، لذلك ساءته هذه اللقاءات وأزعجته . وأصبح يتمنى ، في هذا الامر كما في أمور أخرى كثيرة ، نفسَ ما يتمناه خصمه ، ولا يعرف هو أيضا كيف يمنع هذه المغامرة .

ان دافيل رجل عف منـذ شبابه . عفة ناشئة عن تربيته الصارمة كنشوئها عن قلة النزوة وفقدان الحدة . انه كسائر الرجال الذين يشبهونه يخاف من جميع العلاقات الجنسية المشوشة خوفا يوشك أن يكون خرافيا . ولقد حافظ على عفته وحشمته دائما حتى حين كان في الجيش بباريس . كان اذا دار الحديث بين رفاقه على النساء يصمت كأنه آثم . وهذا شأنه الآن . فلو كان الامر لا يتصل بامرأة

لسهل عليه أن يعلن رأيه للشاب دي فوسيه وأن يرده الى النظام •

أضف الى ذلك أن دافيل يخشى معاونه الشاب ، نعم يخشاه خشية • يخشى براعته القلقة التي تسيئه كثيرا ، يخشى معرفته الواسعة الضخمة المشتتة الفوضى ، يخشى خفته ، يخشى ما يتصف به ذهنه من حب الاطلاع ، يخشى قوة جسمه ، ويخشى خاصةً ميله الى أن لا يخاف شيئا • لذلك كان ، اذا أراد أن يبدي له ملاحظة من الملاحظات، ينتظر سنوح فرصة تتيح له ابداء هذه الملاحظة على نحو غير مباشر ، مع شيء من اللف والدوران •

انتهى شهر كانون الثاني ، وجاء شهر شباط بأيام رطبة ضبَّاء • واستطاع الوحل الكثيف والجليد ما لم يستطعه دافيل وفون ميترر ، فتوقفت نزهات دي فوسيه والسيدة دي فون ميترر • أصبح يستحيل ركوب الخيل • ان دي فوسيه يخرج الآن سيرا على الاقدام ملتفا بمعطف بني له ياقة من جلد الثعلب ، ومحتذيا جزمتين كبيرتين ، ويظل يمشي الى ان يستنفد التعب والبرد قواه • ولكن آن ماري لا تستطيع أن تباهي بعادات كهذه العادات تبريرا لخروجها في مثل هذا الجو • انها الآن أشبه بملاك سجين ، تقبع في بيتها حزينة ، رشيقة ، باسمة، تنظر الى العالم بعينيها الرائقتين « المتعبتين » ، وتمرُّ قربَ رفاق حياتها غائبةً كأنها تمرُّ قرب أطياف • وهي تجلس الى آلتها الموسيقية أكثرَ النهار ، تستنفد ما تعرفه من قطع موسيقية تكثر فيها الاغاني الالمانية والايطالية ، وتهيم في تقاسيم متنوعة واسترسالات لا نهاية لها • ان صوتها القوي الدافيء المترجح الذي تحس حين أن تسمعه أنه يوشك أن ينفجر دموعا وآهات ، يملأ غرفتها الصغيرة ، ويتسرب الى سائر أجزاء البيت • يصغي الكولونيل الى الغناء ، وهو في حجرة عمله ، فيسمع صوت آن ماري ينشد وهي تعزف :

في خلوتي ، ما زال قلبي خافقاً

في عزلتي ، ما انفك روحي راعشا

فعندما سمع هذا التعبير المشبوب عن عواطف جريئة هذه الجرأة كلها ، روّعه أن يلاحظ في نفسه انتشار كره عاجز لهذا العالم الذي لا يفهمه وعنه تصدر عذاباته ومنه يجيء ذله وعاره • فوضع القلم وسدّ أذنيه ، بينما كانت تهبط من الطابق الاول أصوات زوجته ونغمات الهارب • ان هذه الامور كلها تصدر من عالم ُرتّب على عكس ما يقدس • أحسّ أن هذه الموسيقى قد صحبته منذ الازل ولن تتركه الى الابد ، وأنها ستبقى بعد فنائه ضعيفة ذائبة ، كما ستبقى بعد فناء كل مايحيا : الجيش ، الامبراطورية ، النظام ، العدالة ، الواجبات ، الاعتبارات الاجتماعية ؛ وأنها ستظل تنتحب وتتساقط فوق هذا كله قطرة قطرة ، كخيط نحيل من الماء يتقاطر فوق أطلالٍ بغير توقف •

وعاد يتناول قلمه ، ويكب على تقريره هائجا ، ويسطر كلماته على ايقاع الموسيقى ، مرددا أن هذا كله يفوق طاقته ، الا أن عليه أن يحتمله رغم ذلك •

وكانت ابنتهما آجاتي تصغي أيضا • انها الآن في السطحة المضاءة المدفأة التي تتخذها السيدة فون ميترر مقاما لها في العادة ، وقد جلست على كرسي واطيء فوق السجادة الحمراء • ان على ركبتيها العدد الاخير من مجلة « آلهة الشعر » التي تحتوي قصائد ونثرا على صفحات جميلة ، ولكنها عبثا تحاول أن تقرأ • ان افتتاناً أليما يشدها شدا قويا الى صوت أمها الذي يجيء اليها من غرفة الموسيقى •

ان هذه المخلوقة النحيلة الذكية العينين الثابتة النظرة القليلة الكلام ، الشكاكة الريابة منذ نعومة أظفارها ، تحزر أمورا كثيرة لاتستطيع تعليلها

مع أنها طافحة بالعواقب • انها تلاحظ علاقات أبيها وأمها منذ سنين دون أن تقول كلمة واحدة • ان في أبويها وفي الخدم وفي العلاقات التي بينهم أشياء من تلك الاشياء التي لا تستطيع أن تفهمها لكنها تحس أنها حزينة بشعة • والشعور بالخجل والعار ما ينفك يضيق عليها الخناق ، وطبيعتها المتخفية تتيح لها أن تجد في كل ما حولها مزيدا من الاسباب التي تحملها على التألم والانطواء على ذاتها •

لقد كان لها في زيمون بضع صديقات من بنات الضباط ، وكانت حياتها هنالك تنقضي في أعمالها المدرسية ، وفي عبادتها المشبوبة لمعلماتها وللراهبات الصبايا وفي ألوف الهموم الصغيرة والافراح الصغيرة • أما الآن فانها وحيدة تماما ، متروكة لنفسها ولاضطرابات سنها ، بين أب تزخر نفسه طيبةً عاجزة وأم مجنونة لا تجد البنت الى فهمها سبيلا • كانت البنت تصغي الى غناء أمها وهي تخفي وجهها في صفحات مجلتها ، وتعاني عذاب حياءٍ يجهل نفسه وآلامَ خوفٍ غريب • وانها لتتظاهر بالضحك ، لكنها في واقع الامر تصغي مغمضةً الجفنين الى هذا الغناء الذي تعرفه منذ وعت نفسها ، وتكرهه وتخشاه وتعده أمرا خلق للكبار وحدهم ، أمرا رهيبا بل مرعبا يترجم بالاكاذيب أنقى المعاني وأجمل الكتب •

• • •

جاءت أوائل شهر آذار دافئة صاحية على غير المألوف ، كأنها أواخر نيسان ، فأتاح هذا للفارسين أن يستأنفا نزهاتهما ، ينتظران على الطريق الناعم ، ويعدوان على الغضار الرخو والعشب الجديد ، في هذه الطراوة الممتعة من الربيع الذي وافى قبل الاوان • وأخذ كل من القنصلين يتساءل كيف يمكن أن يضع حدا لهذه المغامرة دون مصادمات أو نزاعات •

وكانت الانباء تشير الى أن نشوب الحرب بين فيينا ونابوليون أصبحت أمرا لا مفر منه • فقال دافيل لزوجته :

ـ ان العلاقات بين البلدين تتجه في غير اتجاه العلاقات الوديـة التي تنعقد على مرأى من جميع الناس ، في حلبة ركوب الخيل ، فوق ترافنـك •

كان دافيل يبيح لنفسه في بيته هذا النوع من التندر الذي يداعب به الازواج زوجاتهن دونما حاجة الى خيال كثير • وكان هذا تمرينا له أيضا على الحديث الذي سيجريه مع الفتى دي فوسيه في يوم من الايـام •

ولكن توق آن ماري الى « فارس » يعبدها ، هذا الشيطان الذي كان يوسوس لآن ماري ويدفعها الى نشدان الرجال الشباب الاقوياء الاذكياء ، ولكنه يحملها في الوقت نفسه على نبذهم وصرفهم متـى ظهرت على الفارس الذي هو من لحم ودم رغبات وشهوات من رغبـات الرجال وشهواتهم ، هـذا الشيطان نفسه قد تولى تسهيل مهمة دافيل وفون ميترر ـ اذا صح أن في الامكان « تسهيل مهمة فون ميترر » • وقع ما كان لا بد أن يقع : حلت اللحظة التي تخيب فيها آمال آن ماري ويصيبها فيها ذعر شديد وحزن قوي ، فتنفر من الناس وتنزوي فـي غرفتها ، يلاحقها الاشمئزاز من نفسها ومن الآخرين وتحاصرها خواطر الانتحار والحاجة الى تعذيب زوجها أو تعذيب أي انسان •

ان نهاية آذار التي قلما تكون دافئة هذا الدفء قد عجلت سـير الحوادث وأدت الى الازمة •

في ذا تصباح مشمس ، سُمع صهيل الخيل على الطريق فوق الادغال العارية مرة جديدة • كان الفارسان آن ماري ودي فوسيه في سكر من طراوة هذا الصباح ومن جماله • انهما يسيران بحصانيهما

عدواً ، ثم يلتقيان على الطريق لاهثين ، فيتبادلان بضع كلمات محرقة وبضع جملٍ مقطعة لا معنى لها الا في نظرهما ، جملٍ تزيد التهاب دمهما الذي هزته قبل ذلك طراوة الصباح ومتعة النزهة . وتنطلق آن ماري تعدو بحصانها سريعةً قبل أن يتم دي فوسيه جملته ، وتترك الفتى مضطربا ، على كلمة لم يكملها ، ثم تعود اليه خطواً لاستئناف الحديث . وتعب الفارسان من هذا اللعب .

انهما يضعان أقدامهما على الارض في حذر ، يدنو كل منهما من الآخر ، ثم يتناءيان من جديد ، ككرتين تتجابذان ثم تتنابذان . والحاشيتان تظلان بعيدتين في خلف . ان خدم دي فوسيه وآن ماري، وكذلك حارسيهما ، يسيرون على خيولهما الصغيرة ببطء ، ولا يشاركون في لهو السيدين ، بل انهم لا يتدخلون فيه ، ولا يكترثون به ، وانما هم ينتظرون اللحظة التي يتعب فيها السيدان من اللعب ويقرران أن يقفلان راجعين .

وفي لحظة من اللحظات ، بينما كان كل من السيدين يعدو في الاتجاه الذي اختاره ، التقيا عند آخر الدرب ، في الموضع الذي ينعطف فيه الطريق ويمتليء حفرا وحصى . وهنالك تقع غابة صغيرة من أشجار الصنوبر ، تشكل في الايام المشمسة كتلةً سوداء كثيفة ، من تحتها أرض مغطاة بابر الصنوبر ، جافة ضاربة الى حمرة . وثب دي فوسيه عن حصانه واقترح على آن ماري أن تنزل أيضا ليريها هذه الغابة التي تذكر بايطاليا . ألقت كلمة ايطاليا غشاوة على عيني آن ماري . وسار الفارسان في الغابة ، وقد وضع كل منهما لجام فرسه في ذراعه ، وطفقا يدوسان بأقدامهما المتخدرة بساط ابر الصنوبر الذي يشبه لونه لون الصدأ ، وقطعا مسافةً في هذه الغابة التي كانت تزداد كثافة وانغلاقا عليهما كلما أمعنا في المسير . ان آن ماري التي تمسك باحدى يديها طرف تنورتها الامازونية تسير في مشقة وعناء .

وتوقفت في لحظة من اللحظات حائرة مترددة • كان الفتى يتكلم كلام من يحاول أن يحطم صمت الغابة وأن يطمئن رفيقته ويطمئن نفسه ، فكان يشبّه الغابة بمعبدٍ مثلا•ولكن ليس بين كلمة وأخرى من كلماته الا فراغ وصمت تملؤه أنفاسهما القصيرة الحـارة ، وخفقات قلبيهما السريعة • وألقى الفتى بلجامي الحصانين على غصن شجرة • فتوقف الحصانان مرتعشين قليلا • وجرَّ رفيقته بضع خطوات وهي مترددة ، الى أن بلغا موضعا تخفيهما فيه أغصان أشجار الصنوبر وجذوعهـا اخفاءً تامـا • ان المرأة تنزلق على الطبقة الكثيفة من ابر الصنوبر خائفةً خرقاء ، محاولة أن تدافع عن نفسها • ولكنها قبل أن تستطيع الافلات وقبل أن تستطيع أن تنطق بكلمة رأت وجه الفتى قريبا من وجهها كل القرب وكأنه قطعة من نار • ليس الامر الآن أمر معبد ، ولا أمر ايطاليا • ويدنو الفم الاحمر الكبير من فمها دون أن يقول كلمة واحدة • اصفرت آن ماري ، وفتحت عينيها فجأة كأنها تصحو مـن نوم ، وحاولت أن تدفعه عنها وأن تهرب ، ولكن يدا قوية جبـارة أمسكت بها من خصرها • صاحت صيحةَ من يُقتل غيلةً ولا يملـك أن يدافع عن نفسه : « لا ! لا ! لا ! لا ! ليس هـذا ! » • واصفرت عيناها • وتركت طرف ثوبها الذي كانت تمسك به في تشنج ، وأحست بقواها تبارحها •

اختفى كل شيء : العالم المعروف ، الاحاديث الجميلة ، النزهات ، القنصليتان ، القنصلان • ولم يبق ثمة الا رجل وامرأة مشدودان ، يتدحرجان على فراش من ابر الصنوبر يطقطق تحتهما • كان الرجل يشد صاحبته اليه وهي فيما يشبه الاغماء ، ويضمها بيدين خفيتين كأنهما مائة يد • واختلط لعابهما بدموع ــ لان المرأة كانت تبكي ــ واختلط أيضا بدم ــ لأن فم أحدهما نزف • وظل الفمان مع ذلك متشابكين ، وأصبحا فما واحدا لا فمين •

ولكن القبلة من الشاب الذي جُنَّ شهوة وحبا لم تدم دقيقة واحدة . لقد صحت آن ماري ، وانفتحت عيناها مزيدا من الانفتاح : لكأنهما تريان هاوية ، لكأنهما تريان شيئا رهيبا فظيعا . عاد اليها وعيها بقوة جبارة . فاذا هي في فورة غضبها تدفع عنها دي فوسيه الذي كان لا يزال في نشوة وسكر ، وتضرب صدره بكلتا قبضتيها ضربات قاسية ، وتصرخ بصوت يشبه صوت طفل مهتاج : « لا ! لا ! لا ! » .

تبدد الوهم الكبير . ولم يعرفا كيف وجدا نفسيهما واقفين ، كما لم يعرفا قبل ذلك كيف سقطا على الارض . ان آن ماري حانقة حنقا شديدا ، تبكي منتحبةً وهي تصلح زينتها . ودي فوسيه غاضب مضطرب ينزع عن ملابسه ابر الصنوبر الجافة التي علقت بها ، ويمد الى المرأة سوطه يساعدها على الخروج من المنخفض . والحصانان يهزان رأسيهما في هدوء .

وصلا الى الطريق ، وركبا حصانيهما قبل أن تلاحظ حاشيتاهما أنهما نزلا عنهما لحظة . وتراشقا نظرة أخيرة وهما يفترقان . كان الشاب أكثر احمرارا أيضا . وكانت الشمس تضطره أن يطرف عينيه . أما آن ماري فكانت حالها حالا أخرى . لقد هرب الدم من شفتيها ، وضاع فمها في وجه شاحب . وأصبحت عيناها غير عينيها : استيقظتا على حين فجأة وحفَّ بهما سواد ، وأصبحتا بألقهما الخفي أصعبَ سبراً مما كانتا منذ هنيهة . وجهها المتورم كله يعبِّر عن غضب فظيع ، عن تقزز لا حدود له من نفسها ومن كل ما حولها .

وكان دي فوسيه ، الذي لا يَسهل ان يفقد حضور ذهنه ولا ثقته بنفسه ، مشوشا حائرا مضطربا . لقد أدرك أن الامر ليس دلالا ولا خوفا من فضيحة ، كما عُرف ذلك عن نساء المجتمع الراقي ، لا ولا هو شعور بالخجل والعار . وأحسَّ أنه أضعف من هذه المخلوقة

المريضة التي تخلق لنفسها عالما خاصا بها على ما يمليه طبعها الغريب ومزاجها الشاذ • وبدا له أن كل شيء في نفسه وفيما حوله قد تغير شكله وتزحزح مكانه ، حتى أبعادُ جسمه •

هكذا افترق فارسا الشتاء فراقا لا لقاء بعده ، هكذا انفصل عاشقا كوبيلو العاطفيان •

• • •

رأى فون ميترر على الفور أن العلاقات بين زوجته وفارسها قد بلغت مرحلتها الحرجة • لسوف تهب العاصفة في المنزل • وفعلا ، ما انقضى على آن ماري يومان من عزلة مطلقة واضراب عن الطعام والكلام ، حتى عادت مشاهد اللوم والتقريع ، وحتى عادت التوسلات والضراعات « جوزيف ، أناشدك الله » التي يحاول القنصل أن يحتملها بصبر موجع أليم •

ولم يلبث دافيل أن لاحظ أيضا أن دي فوسيه أصبح لا يخرج مع السيدة ميترر في نزهات على الحصان ، فسرّه هذا كثيرا ، لانه أعفاه من مشقة تنبيه الفتى الى أن هذا الاتصال الودي بقنصلية النمسا يجب أن ينقطع • وكانت جميع التقارير تشير فعلا الى أن العلاقات بين فيينا ونابوليون قد توترت من جديد • وكان دافيل يدرك ذلك مذعورا وهو يسمع الاصطخاب الرهيب الذي يحدثه ذوبان الثلج حول المنزل •

وفي أثناء ذلك يجلس الفتى في غرفته يجتر سخطه على آن ماري وعلى نفسه • عبثا يحاول الاهتداء الى تعليل لموقف هذه المرأة • وكائنةً ما كانت التعليلات التي يتصورها ، فانها تخلف فيه شعورا بالخيبة وشعورا بالعار ، وتجرح كرامته وغروره ، وتدع له ألما محرقا كاويا من شهوةٍ ما ارتوت •

وتذكر ، بعد فوات الاوان ، النصيحةَ التي أسداها اليه عمه ، الباريسي العجوز ، في ذات مساء ، بينما كان يتعشى مع ممثلة ُعرفت بنزواتها الشاذة ، قال له عمه يومئذ : « لقد أصبحت شابا يا بني ، وأخذت تصدّع رأسك ! حسنا ! ولكنني أزجي اليك هذه النصيحة : ايّاك والنساء المجنونات ! » • وفكر دي فوسيه في ذلك العم ، الذي كان راجح العقل مثلما كان طيب القلب •

ان الاخفاق الذي ختم هذه القضية على نحو مضحك غبي ، قد أيقظ صاحبنا فجأة • ان دي فوسيه يشعر الآن باشمئزاز عميق من مغامرته هذه مع امرأة قنصل النمسا ، الناضجة الشاذة ، التي دفعه اليها أمران في آن واحد : عجزه عن السيطرة على نفسه وهذا الجو الكالح الجهم في ترافنك •

وأصبحت تعود الى ذاكرته تلك « اللوحة الحية » من الصيف الماضي : يلكا والحديقة اللتين كان قد نسيهما • أصبح يتفق له عدة مرات في الليل أن يثب عن منضدته أو عن فراشه ، وقد صعد الدم الى رأسه ، واضطربت نظرته ، وغزاه ما يغزو الشباب عادة من شعور قوي بالعار والحنق من أنفسهم ، فيقف في وسط الغرفة ، ويأخذ يلوم نفسه على أنه سلك سلوكا يبلغ هذا الحد من الغباء والحماقة ومن الحقارة والدناءة • ولكنه يظل يبحث في الوقت نفسه عن تعليل لما مني به من اخفاق • كان يقول بينه وبين نفسه :

« يالها من بلاد عجيبة ! يا له من جو غريب ! نساء ينظرن اليك في حنان ورقة كأزهار خارجة من العشب ، أو ينظرن اليك في هوىً جامح قوي من خلال أوتار الهارب ليذبن قلبك ، فاذا استجبت للنظرة الضارعة المتوسلة سقط بعضهن على الارض راكعا ، وأخذ يناشدك الله بصوتٍ محتضر ونظرات كنظرات الضحايا ، حتى تشمئز من كل

كل شيء ، وحتى تفقد الرغبة في الحياة وفي الحب ، وأخذ بعضهن الآخر يدافع عن نفسه منك كأنك لص من اللصوص ، وأخذ يلطمك لطمات كلطمات ملاكم انجليزي » .

هكذا كان القنصل الشاب يحاسب نفسه ، فوق دافيل وأسرتـه النائمة . وظل يكافح حزنه الى اللحظة التي استطاع فيها أن يسيطر عليه ، الى اللحظة التي سقط فيها الحزن في هاوية النسيان ، كسائر أحزان الشباب .

الفصل الخامس عشر

الانباء والتعليمات التي وصلت الى دافيل منذ بضعة ايام ، بعد تأخر طويل ، تدل بوضوح على أن آلة الحرب في الامبراطورية الفرنسية أخذت تتحرك من جديد ، ضد النمسا بالذات . أحس دافيل أنه مستهدَف ومهدد شخصيا . ان امتداد سيل الحمم الى هذه المناطق التي يوجد فيها ركن مسئولياته الصغير يبدو له عذابا شخصيا . أصبحت به حاجة" مرضية الى العمل ، تلاحقه حتى أثناء النوم ، كما يلاحقه الخوف من الوقوع في خطأ أو من اغفال شيء من الاشياء . ولذلك أصبح هدوء دي فوسيه يثير أعصابه أكثر مما أثارها في أي وقت مضى . كان دي فوسيه يرى من الطبيعي جدا أن يقوم الجيش الامبراطوري بحرب في مكانٍ ما ، ولكنه لا يرى في هذا أي سبب يدعوه الى تغيير خط سلوكه أو خط تفكيره . وكان دافيل يرتعد غضبا مكظوما كلما سمع النكات الدارجة على ألسن الشبيبة الباريسية، يرويها دي فوسيه في كل مناسبة حين يتحدث عن الحملة الجديدة دون أي احترام ودون أي حماسة ، ولكن دون أن يراوده أي شك أيضا في أن نهايتها نصر محقق . ان غيرة لا شعورية تستولي على دافيل ، الذي يؤسفه أمرٌ الاسف أنه لا يستطيع أن يبادل أحدا مايشعر به من مخاوف وآمال حول هذا الصراع وحول الموقف كله جملةً . ان مفاهيمه ونظرته الى الامور خاصة" بأبناء جيله . والعالم يبدو له مليئا بتلك الاخطار وتلك الاشراك وتلك الافكار السوداء المضطربة

التي تنشرها الحرب بين الشعوب ، وخاصةً بين الشعوب التي ضنيت أكثر من غيرها •

كان يحس في بعض اللحظات أن أنفاسه تنقطع من فرط اللهاث ، ويتراءى له أنه ، منذ سنين طويلة ، يسير مقوَّسَ الظهر من التعب في طابور مبهم بغير روح ، أصبح لا يتبع خطاه ، طابورٍ سيسحقه وسيدقه دقا اذا هو حاول أن يضع ركبةً على الارض ، اذا هو توقف عن المسير • فما ان يخلد الى نفسه ، حتى يتنهد بصوت خافت هاتفا : « يا رب ، يا رب » •

كلمات تنطلق منه بغير شعور ، لا صلة لها بما يجري حوله ، تخرج حارة مع أنفاسه وآهاته •

كيف لا يترنح المرء تعبا بعد هذه السنين كلها ؟ كيف لا يترك كل جهد ؟ كيف يرى رؤية واضحة وكيف يفهم شيئا من الاشياء ، والامور تجري على هذه السرعة الكبيرة وهذا الاضطراب الشامل ؟ كيف يظل يمشي خلال هذه المتاعب وهذه التشنجات وهذه الظنون نحو ضباب جديد وظلمات جديدة ؟

أمسِ علم بنصر أوسترلتس مصحوبا بآمال كثيرة في السلم والسعادة ، فما كان أشد انفعاله حين بلغه نبأ هذا النصر ! وفي هذا الصباح نظم أشعارا يتغنى فيها بمعركة يينا ! ومنذ لحظات قرأ البلاغات الخاصة بالانتصارات التي تحققت في اسبانيا ، بدخول مدريد ، بطرد القطعات الانجليزية الى خارج المملكة ! ان أصداء مغامرة قديمة تظل تترجع بينما تدوّي ضجة أحداث جديدة تختلط بها • تُرى هل اختُرقت قوانين الطبيعة ؟ أم تُرى سيتحطم كل شيء على صخرة ثباتها الذي لا يرحم ؟ ان دافيل يميل تارة الى الاخذ بالفرضية الاولى ، وتارة الى الاخذ بالفرضية الثانية ، لا يخرج الى رأي ولا ينتهي الى

نتيجة . ان ذهنه يتعثر . ان فكره يأبى أن يعمل . ويظل صاحبنا يمشي وهو على هذه الحالة من الاضطراب النفسي ، كما كان يسير ملايين البشر . انه يعمل ، ويتكلم ، ويحاول أن يوقّع خطاه على ايقاع الخطى من حوله ، وأن يقوم بنصيبه في هذا العمل المشترك ، دون أن يعبر لاحد عن تردداته الاليمة واضطرابات فكره ، ودون أن يأذن لها بالظهور .

كل شيء ُيستأنف حتى في أدق التفاصيل . مقالات جريدة « المونيتور » و « جريدة الامبراطورية » تشرح وتبرر ضرورة الحملة الجديدة التي تتنبأ لها بنصر محقق ، فاذا قرأها دافيل شعر بأن كل شيء واضح حقا . وهل يمكن أن لا يكون الامر كذلك ؟ ان الايام والاسابيع التي تنقضي في تأمل وانتظار وشك ستأتي فيما بعد : لماذا هذه الحرب ؟ الى متى يدوم هذا الاقتتال ، والى أين يقود العالمَ ونابوليون وفرنسا ، والى أين يقوده هو أيضا مع أهله وذويه ؟ ترى ألا يمكن أن يخون الحظ في هذه المرة ؟ واذا لم يوات الحظ ألا تكون الهزيمة نذير الانهيار الكامل والتحطم الحاسم ؟

ولكن النشرات قد لا تلبثأن تأتي معلنةً انتصاراتجديدة ، ذاكرةً أسماء المدن التي تم الاستيلاء عليها والبلاد التي تم تحطيمها وسحقها ، مؤذنةً آخر الامر بالنصر الكامل والسلم الشامل يفرضه الغالب ، أي بتوسعات جديدة ووعود جديدة عن سلام عام قد لا يتحقق قط .

ولسوف يحتفل دافيل عندئذ مع الآخرين ، وربما احتفل بالنصر احتفالا أقوى من احتفال الآخرين ، ولسوف يتكلم على هذا النصر كلامهعلى أمر طبيعي تماما ، أمرٍ شارك في اعداده هو أيضا . ولن يعرفأحد عندئذ ولن يلاحظ أحد عندئذ تردداته وشكوكه ، فسيبددها النصر كضباب ، وسيحاول هو نفسه أن ينساها . وسيستطيع ، ولو

الى حين قصير ، أن يخدع نفسه ، ثم تستأنف آلة الحرب في الامبراطورية سيرها ، فتقوم في نفسه هذه الامور نفسها التي قامت فيها من قبل . ان دافيل مهدّم مرهق بهذه التناقضات الاليمة ، وحياته التي يدل ظاهرها على أنه هادىء سعيد ، كانت في واقع الامر حياة لا تطاق ، ولا تنفق وطبيعته الحقيقة .

. . .

في ذلك الشتاء قام التكتل الخامس ضد نابوليون ، وأُعلن في في الربيع . فما كان من نابوليون الا أن رد على هذا الهجوم الغادر الذي قامت به فيينا بضربة صاعقة ، جاءت أسرع وأجرأ من ضربة الحرب الأخيرة أيضاً ، وأدرك الجهلة أنفسهم يومئذ لماذا أنشئت القنصليتان في البوسنة ، وما هو العمل الذي كانتا تقومان به .

لم يبق بين الفرنسيين والنمسويين بمدينة ترافنك أية صلة . أصبح الخدم لا يحيي بعضهم بعضاً ، والقنصلان يتحاشيان أن يلتقيا في الطريق . حتى ان السيدة دافيل ابتعدت عن السيدة فون ميترر وعن ابنتها في القداس الكبير الذي تقيمه كنيسة دولاتس يومَ الاحد . وضاعف القنصلان ما يبذلان من جهود لدى الوزير وحاشيته ، ولدى الرهبان ، ولدى رجال الدين الارثوذكس ، ولدى وجوه المدينة وأعيانها . فون ميترر يوزع اعلانات امبراطور النمسا ، ودافيل يوزع النشرات الفرنسية التي تتحدث عن النصر الاول في اكمول . وسُعاة البُرُد يتقاطعون أو يتلاحقون بين سبيلت وترافنك . ان الجنرال مارمون يريد أن ينضم الى نابوليون مع قطعات دلماسيا قبل المعركة الحاسمة مهما كلف الأمر . لذلك كان يطلب الى دافيل أن يمده بمعلومات عن المناطق التي سيجتازها ، ويصدر اليه أوامره تترى .

فكان هذا يضاعف عمل القنصل ، ويجعل هذا العمل أشد صعوبة وأكثر تعقداً واتعاباً . وكان فون ميترر يرصد جميع خطوات دافيل ، ويخلق ، بما له من خبرة عسكرية ومن دراية بشؤون المكائد على الحدود ، جميع أنواع العقبات والحواجز التي تحول دون تقدم الجنرال مارمون عبر ليكا[1] وكرواتيا . وكانت قدرة دافيل على العمل ، وبراعته ، وروح القتال عنده ، تزداد بازدياد عدد المهمات الملقاة على عاتقه وبازدياد خطورة هذه المهمات . وقد استطاع بواسطة دافنا أن يعرف وأن يجتذب اليه وان يربط به جميع أولئك الذين يعادون النمسا ، لمصلحةٍ لهم أو لطبيعةٍ فيهم ، ويريدون أن يقوموا بما يراد منهم في هذا السبيل . استقدم قادة مراكز الحدود ، ولا سيما قائد مركز نوفي ، وهو أخو أحمد بك تسيرتش المسكين الذي لم يستطع دافيل أن ينقذه من الموت، وقدم اليهم وسائل التسلل الى المنطقة النمسوية التي يريد أن تظل تحت وطأة تهديد دائم .

وكان فون ميترر ، من جهته ، يرسل الى دلماسيا التي يحتلها الفرنسيون ، بواسطة رهبان لفنو ، جرائد ونداءات ، لمساعدة السكان في مقاومة الفرنسيين ، وللابقاء على صلاته الوثيقة برجال الدين في شمال هذه المنطقة .

وكان عملاء القنصلين ، سواء أكانوا مأجورين أم متطوعين ، ينتشرون في جميع الارجاء ، ولم يلبث نشاطهم أن ظهر اضطرابات ونزاعات من جميع الانواع .

انقطع آباء جوتشا جورا عن لقاء أعضاء قنصلية فرنسا . وكانت الصلوات في الأديرة تضرع الى الله أن يمن بنصره على الأسلحة النمسوية التي تقاتل جيوش اليعاقبة وامبراطورهم الحانث .

---

(۱) منطقة من كرواتيا متاخمة للبوسنة .

وقام القنصلان بزيارات ، واستقبلوا زواراً ما كان لهم أن يستقبلوهم في الأحوال العادية ، ووزعوا هدايا ، وقدموا رشوات . عملا ليلاً نهاراً في غير هوادة ، لا يدخران جهداً ولا يباليان كيف تكون الوسيلة. وكانت ظروف الكولونيل في هذه المعركة أفضل من ظروف دافيل . صحيح أنه متعب ، وصحيح أنه مرهق بهموم الأسرة أو الصحة ، ولكن هذا النوع من النزال ليس جديداً عليه ، بل ان تربيته وماضيه يؤهلانه له أحسن تأهيل . سرعان ما كان العمل ينسيه شخصه وينسيه أسرته ، فهو يندفع في هذه الطريق المشقوقة ، ربما بدون فرح وبدون حماسة ، ولكن بدون تفكير وبدون مناقشة أيضا . ثم انه يعرف لغة البلاد ويعرف البلاد نفسها ، يعرف ناسها وظروفها ، فلا أسهل من أن يجد معاونين صادقين مخلصين في كل خطوة يخطوها . وهذا كله يعوز دافيل ، فان دافيل مضطر الى أن يعمل في ظروف أصعب ، ولكن توقد ذهنه ، وشعوره بالواجب ، وما فُطر عليه الغوليون من روح القتال ، كل ذلك كان يتيح له أن لايقصّر في هذا السباق . كان يعرف كيف يدفع ضربات الخصم ، وكيف يكيل له بدوره ضربات .

ومع ذلك ما كان للعلاقات بين القنصليتين أن تسوء الى هذا الحد ، لو كان الأمر أمر القنصلين وحدهما : لقد كان الخدم والعملاء والمرءوسون يصبون على النار زيتاً. كان هؤلاء لا يعرفون شيئاً من القصد والاعتدال في هذا الصراع أو فيما يروجونه من افتراءات . ان الحماسة وحب الظهور يطغيان عندهم على كل شيء ، ويعصفان بنفوسهم عصفاً شديداً . كان هؤلاء الخدم ، من أجل أن يظهروا ومن أجل أن يخفضوا شأن الخصوم ، يبلغون من التعادي أن الشعب الخاضع والأتراك يحتقرونهم جميعاً ويشمتون بهم جميعاً .

وكان دافيل وفون ميترر يدركان الأذى الذي يلحقه بسمعة المسيحيين والأوروبيين هذا الصراع الذي لا يردعه رادع أخلاقي ، ولا يراعي

حرمة من الحرمات • كانا يحسان أنـه لا يليق أن يقتتـل المثلون الوحيدون للحضارة ، أمام هؤلاء المتوحشين ، أمام هذا الشعب الذي يكره الفئتين كلتيهما ، ويحتقرهما كلتيهما دون أن يفهمهما ، والذي تتخذه الفئتان كلتاهما شاهدا وحكما • وكان دافيل ، لضعف مواقعه بالنسبة الى مواقع فون ميترر ، يشعر بهذا الأمر شعوراً أقوى من شعور صاحبه به ، لذلك قرر أن يلفت اليه نظر فون ميترر ، على صورة غير مباشرة ، بواسطة الدكتور كولونيا الذي كان يُعدُّ شخصية شبه رسمية ، وأن يقترح عليه أن يتولى كل منها كبح جماح هؤلاء المعاونين المفرطين في الاهتياج •

وقرر في سبيل ذلك أن يذهب دي فوسيه الى كولونيا يفاتحه في الأمر ، مادامت علاقة دافنا بالدكتور كولونيا سيئة دائماً •

وأراد في الوقت نفسه أن يؤثر في الرهبـان ، بواسطة زوجته ، المرأة المتدينة التقية ، أو بأية واسطة أخرى ، وأن يبرهن لهم على أنهم ، من حيث هم ممثلون للكنيسة ، يرتكبون خطأ فادحاً حين يتحيزون هذا التحيز لأحد الطرفين المتنازعين •

ومن أجل أن يبرهن للرهبان على أنهم يظلمون النظام الفرنسي اذا هم اتهموه بالزندقة والالحاد ، ومن أجل أن يمنّ عليهم ، خطر له أن يطلب منهم راهباً يقيم بالقنصلية وتدفع القنصلية أجره ، فبعث الى قسٍّ دولاتس رسالةً موجهة الى أسقف فوتنسا • فلمـا لم يتلق جواباً على هـذه الرسالة ، عهد الى السيدة دافيل أن تقنع الأخ ايفو بأن من المناسب ومن المفيد للرهبان أن يندبوا واحداً منهم لقنصلية فرنسا ، وأن يغيروا موقفهم من هذه القنصلية •

ذهبت السيدة دافيل الى الدير في يوم سبت بعد الظهر يصحبهـا الترجمان الايليري وأحد الخفر • وقد اختارت لهذا اللقاء يوماً من

أيام الأسبوع غير يوم الأحد ، لأن الناس يكثرون في دولاتس يوم الأحد ، ولأن الكاهن يكون في يوم الأحد مشغولاً جداً .

استقبلها الأخ ايفو هاشاً على عادته في استقبالها ، وقال لها انه تلقى في هذا الصباح نفسه جواب الأسقف على رسالة السيد القنصل وأنه كان على وشك أن يبعث اليه بهذا الجواب . وكان الجواب سلبياً . قال الأسقف في جوابه : ان الرهبان ، المضطهدين الفقراء ، لا يكاد يكفي عددهم ، في هذه الظروف الصعبة الحرجة ، لتولي الأعمال الدينية في جميع الأبرشيات . يضاف الى ذلك أن الأتراك لن يلبثوا أن يعدوا الراهب الذي يعمل في قنصلية فرنسا جاسوساً أو عميلاً ، ولهذا عواقبه الوخيمة بالنسبة الى جميع رجال الدين . لذلك يعتذر الأسقف عن عجزه عن تلبية طلب القنصل الفرنسي ، راجياً منه أن يفهم الأمر على حقيقته ، الخ الخ .

بهذه اللهجة اللبقة كتب الأسقف ، ولكن الأخ ايفو لم يكتم السيدة دافيل أنه ما كان ليوافق على أن يعمل أحد الرهبان في قنصلية نابوليون ، لو جاء جواب الأسقف بالقبول . وحاولت السيدة دافيل أن تغير رأيه برفق وأناة ، ولكن الأب ايفو لم يتزحزح من موقفه قيد شعرة . صحيح أنه يكنُ للسيدة دافيل تقديراً عظيماً وأنه يشعر نحوها بامتنان عميق (لقد كان ايمانها الصادق الذي لا مراء فيه يوحي الى الرهبان باحترام لا يشعرون بمثله نحو السيدة فون ميترر) ، ولكنه أرفق أقواله لها بحركات قاطعة من يده البيضاء الخشنة ، أرعشت السيدة دافيل على غير ارادة منها . كان واضحاً أنه تلقى تعليمات دقيقة جداً ، وأن موقف الرهبان بيِّن جلي ، وأن الأخ ايفو لا يحرص على أن يناقش أحداً ، ولا يحرص خاصةً على أن يناقش امرأة .

وبعد أن ردَّد على مسامع السيدة دافيل أنه على اتم الاستعداد

لتسهيل قيامها بواجباتها الدينية ، وأنه فيما عـدا ذلك ثابت على رأيه لا يغيّره ، ذهب الى الكنيسة حيث بدأت صلاة « السلام » منذ برهة. ولا يدري أحد ما هو السبب الذي جعل عدداً كبيراً من الرهبان يُدعون في ذلك اليوم نفسه ، فكان القداس فخماً رائعاً .

لو كان الأمر أمر السيدة دافيل وحدها ، لعادت السيدة دافيل الى بيتها فوراً ، ولكن واجبات اللباقة اضطرتها أن تحضر القداس ، حتى لا يُقال انها لم تجيء الا لتكلم الراهب ايفو . ان هذه المرأة الرصينة ، التي لا تتكلف الحساسية ولا تتصنع العاطفية ، تأثرت تأثراً شديداً ودُهشت دهشةً عظيمة من موقف الأخ ايفو . لقد آلمها هذا الحديث بقـدر ما كانت تربيتها وكان طبعهـا يبعدانها عن القضايا السياسية والشئون العامة .

ظلت السيدة دافيل واقفةً قرب عمـود من خشب ، تصغي الى الانشاد الأصم المتنافر ينطلق من حناجر الرهبان الراكعين على جانبي الهيكل الرئيسي . كان الأخ ايفو هو الذي يقوم بالقداس . وكـان يستطيع ، رغم ضخامته وثقله ، أن يركع على ركبة واحدة ركوعاً خفيفاً رشيقاً كلما وجب الركوع ، ثم ينهض على الفور . ولكن السيدة دافيل ما تزال تلوح أمام عينيها صورة يده الكبيرة البيضاء ذات الحركات الجافة ، وصورة نظرته المتقدة زهواً وعناداً التي كان يرشق بها ترجمانها. انها لم تر في حياتها نظرة كهذه النظرة ، انها لم تر مثل هذه النظرة حتى لدى رجل من غير رجال الدين ، فكيف لدى راهب !

الرهبان يطلقون أوراد العذراء بأصواتهم القروية ، فيبدأ واحد منهـم :

ــ يا قديسة مريم[1]

فتجيبه الجوقة :

ــ صلي لأجلنا

ــ ياعذراء العذارى

فتجيب أصوات الآخرين مجتمعةً :

ــ صلي لأجلنا

ويعدّد الصوت المترنم أسماء العذراء :

ــ يا ملكة الملوك

ــ أيتها الممجدة في نفوس القديسين

ــ أيتها المخلّصة

وترد الجوقة على كل دعاء : صلي لأجلنا

ودّت السيدة دافيل لو تتابع هذه التراتيل كما كانت تتابعها في الماضي في كنيسة مدينتها آرفانش . ولكنْ يستحيل عليها أن تنسى الحديث التي جرى بينها وبين الراهب ايفو منذ برهة ، وأن تقف مجرى خواطرها التي تختلط بالصلوات .

قالت السيدة دافيل لنفسها : « هكذا نصلي نحن أيضاً ، اننا جميعاً مسيحيون ، اننا ننتمي جميعاً الى دين واحد ، غير أن بين البشر هوات سحيقة . » . قالت السيدة دافيل هذا الكلام لنفسها ، وأمام عينيها صورة تلك النظرة الوحشية والحركات القاطعة التي رأتها في هذا الراهب ايفو نفسه ، الذي ينشد الآن هذه التراتيل .

ويستمر الترتيل :

---

(١) باللاتينية في الأصل ، وكذلك جميع الصلوات .

ـ يا أم السيد

ـ يا والدة الرب •

نعم ! ان الانسان يعلم أن بين البشر هوات سحيقة ، ولكنه لايدرك عمقها الرهيب الذي لا يكاد يمكن اجتيازه الا بعد أن يعانيها • أي صلوات يمكن أن تسد هذه الهوات ؟ وبلغت السيدة دافيل من الوهن والانهيار أنها أصبحت لا تدري أين تسمع صلوات • وأصبح فكرها المذعور من عجزه لا يجرؤ أن يتحرك • فضمت صوتها الضعيف الى الدمدمة المتشابهة التي تنطلق من أفواه الآباء موجةً بعد موجة :

ـ صلي لأجلنا

وفي آخر القداس بارك الأب ايفو السيدة دافيل بيده ، وهي في حالة تشبه أن تكون انسحاقاً •

حتى اذا خرجت مع حاشيتها من الكنيسة وجدت دي فوسيه على الباب يصحبه خادم • كان دي فوسيه يجتاز دوتسه ، واذ كان يعرف أن السيدة دافيل في القداس ، انتظرها على باب الكنيسة ليرافقها الى ترافنك • سُرَّت السيدة دافيل من رؤية وجهه الطلق ومن سماع لغتها الأم •

وعاد الركب الى المدينة على الدرب الواسعة الجافة • كانت الشمس تغيب ، غير أن توهجاً قوياً يضيء المقاطعة كلها • الدرب مفروش بغضار أحمر دافيء • وكأن الأوراق والبراعم التي تفتقت على القشرة السوداء في أشجار الأسيجة تولد من الضياء •

دي فوسيه يسير الى جانب السيدة دافيل وقد تلون وجهه من آثار نزهة على الحصان ، وأخذ يتحدث بلهجة حارة • وفي وراء يُسمع وقعُ خطوات الأقدام وحوافر الخيل التي تجر بالأزمَّة • ما تزال التراتيل

تترجع في أذني السيدة دافيل . الطريق تهبط . ورأى الركب سقوف مدينة ترافنك ، وأدخنةً زرقاء تتصاعد فوقها . هنالك الحياة الحقة ، هنالك الحياة بحاجاتها وواجباتها ، بعيدة عن كل التأملات ، وكل الشكوك ، وكل الصلوات .

. . .

في تلك الفترة اجتمع دي فوسيه بالدكتور كولونيا وتحدث معه . ذهب الفتى اليه في ذات مساء ، في نحو الساعة الثامنة ، يصحبه خفير وخادم يحمل الفانوس .

يسكن كولونيا منزلاً نائياً على رابية وعرة تختفي في الظلام الحالك والضباب الرطب . يسير دي فوسيه . انه يسمع خرير مياه نبع شوستا. لئن كان الظلام يخنق صوت الماء ويغيره ، ان الصمت ليبرزه .والطريق الرطبة المتزلجة تبدو ، في ضوء المصباح التركي الراعش ، أشبهَ بطريق مجهولة مشقوقة في غابة يقطعها المرء لأول مرة . وبدا له باب المنزل غريباً غير متوقع أيضاً . ان الدرج وزرفين الدهليز مضاءان . أما ماعدا ذلك فغارق الظلام . ليس يستطيع الناظر أن يميز شكل الباب ولا أبعاده . قرع الخفير الباب بالدقاقة قرعات رأى فيها دي فوسيه قسوة وتعدياً ، فترجع دويها في نفسه انزعاجاً يشبه أن يكون ألماً . ساءته هذه القسوة في قرع الباب ، ورآها شيئاً قبيحاً غير لائق .

ــ من الطارق ؟

هبط الصوت من طابق أعلى كأنه صدى الضجة التي أحدثها الخفير ، لا السؤال الذي أعقبها .

ــ القنصل الشاب . افتح !

كذلك صــاح آليجا بتلك اللهجة المزعجة الحادة التي يصطنعها المرءوسون في حضرة رؤسائهم •

بدت أصوات الرجلين مع خرير الماء الآتي من بعيد أشبه بأصوات مجهولة تصل الى المسامع عبرَ غابات • و ُسمعت أخيراً قرقعة سلاسل، وصرير قفل ، وضجة مزلاج يُشد • انفتح البــاب ببطء ، ولاح في الفرجة رجل شاحب الوجه من النوم ، ملفع بمعطف من معاطف الرعاة ، يحمل بيده فانوساً • ان ضوءين آخرين ينيران الفناء المنحدر والنوافذ المظلمة في الطابق الأرضي • وأخذ الفانوسان يشقان الطريق للقنصل الشاب الذي أذهلته عن نفسه حركةُ الأصوات والأضواء على هــذا النحو ، فاذا هو يجد نفسه فجأة أمام باب القاعة مفتوحاً على مصراعيه ، والقاعة يملؤها دخان التبغ •

هذا هــو كولونيا الطويل القامة المتقوس الظهر واقف في وسط الغرفة قرب شمعدان عالٍ • انه يرتدي عدداً كبيراً من ملابس تركية وغربية ، تراكم بعضها فوق بعض ، وعلى رأسه طاقية صغيرة تفر من تحتها خصل كثيفة من شعره الشائب المبعثر • انحنى العجوز انحناءةً كبيرة ، وقال بضع كلمات ترحيبية بلغة يمكن أن تكون ايطالية فاسدة أو فرنسية رديئة • بدت هذه الكلمات للشاب سطحية متصنعة خاليةً من المعنى خاليةً من الصدق بل ومن اللباقة ، ولا علاقة بينها وبين من يقولها • ان كل ما قابل دي فوسيه في هذه القاعة الواطئة ، من الهواء الفاسد الى الرائحة الكريهة الى الوجه الغريب الى الكلمات المتصنعة ، كل ذلك لخَّصه الشاب بكلمة واحدة فرضت نفسها عليه فرضاً بلغ من الوضوح أنه أوشك أن ينطق بهــا : الشيخوخة • شيخوخة حزينة ، هتماء ، بغير ذكريات ، منزوية ، يستحيل ارضاؤها ، شيخوخة تشوه وتفسد وتخلّل الأفكار والآفاق والحركات والأصوات وكل شيء ، حتى الروائح وحتى الضياء •

قدم الطبيب الشيخ للقنصل الشاب مقعداً دعاه أن يجلس عليه بلهجة احتفالية ، وظل هو واقفاً ، يبرر وقوفه بهذا المبدأ القديم من مبادىء مدرسة سالرن : عليك بالبقاء واقفاً بعد الطعام[1] .

جلس دي فوسيه على كرسي صلب لا ظهر له ، وهو يشعر بتفوق جسمي وروحي يجعل مهمته سهلة بسيطة ، بل تكاد تكون ممتعة . وبدأ الحديث بتلك الثقة العمياء التي يباهي بها الشبان حين يلقون الشيوخ الذين يبدون لهم مهترئين غرباء عن العصر ، دون أن يفطنوا الى أن هذا البطء الجسمي وهذا البطء الذهني يخفيان خبرةً بالرجال وفناً في معاملتهم . نقل دي فوسيه رسالة دافيل الى فون ميترر ، وحرص على أن يوضح الاقتراح على حقيقته ، ذاكراً أنه صادر عن نبل النفس ، وعن الحرص على المصلحة المشتركة ، لا عن ضعف أو خوف . وختم كلامه راضياً عن نفسه كل الرضى مسروراً بها كل السرور .

وما كاد القنصل الشاب ينهي كلماته الاخيرة ، حتى عبَّر له كولونيا عن تشرفه بلقائه ، وقال انه سينقل الرسالة الى السيد فون ميترر نقلا أمينا ، وانه يفهم الدوافع التي أملت هذا الاقتراح ، وانه يشارك السيد دافيل رأيه ، وانه بحكم أصله ووظيفته واقتناعاته مؤهل للقيام بدور الرسول في هذا الامر .

وشعر كولونيا ، هو أيضا ، برضى عن نفسه وسرور بها .

كان الفتى يصغي اليه اصغاءه الى خرير ماء ، ويختلس النظر الى وجهه الطويل المتسق ، وعينيه المدوَّرتين ، وشفتيه الكابيتين ، وأسنانه التي تتلحلح حين يتكلم . فكان يقول لنفسه : « هي الشيخوخة . ألا

---

(١) باللاتينية في الأصل .

ان الشيخوخة شر من العـذاب ومن الموت • ألا ان الشيخوخة هي العذاب بلا دواء ولا أمل ، ألا انها هي الموت يستمر ويدوم » • لم تبدُ له الشيخوخة حظا مشتركا بين جميع الناس ، حظا سيكون حظه هو أيضا في المستقبل ، بل بدت له مصيبة خاصة بالطبيب العجوز •

أردف كولونيا يقول :

ـ لا حاجة الى شروح طويلة • انني أفهم وضع السيدين القنصلين ، كما أفهم وضع كل انسان غربي متحضر ألقت به المقـادير في هـذه المناطق • ان الرجل الغربي المتحضر الذي يعيش في تركيا أشبه بمن يمشي على سكين ، وأشبه بمن يُشوى بنار • أنا أعرف ذلك ، لأننا نولد نحن هنا على حد الخنجر ، وعليه نعيش ، وعليه نموت ؛ وعلى هذه النار ننمو ونذوي •

حاول دي فوسيه ، رغم استرساله في خواطره عن الشيخوخة ، أن يفهم أقوال الطبيب حقّ فهمها •

ـ لا يعلم الناس ماذا يعني ان يولد المرء وأن يعيش على تخوم عالمين ؛ أن يعرف وأن يفهم كلا من هـذين العالمين ثم هو عاجـز عن التقريب بينهما ، عن ردّهما الى التفاهم ؛ أن يحب وأن يكره كلا منها ؛ أن يظل مترددا وخاضعا طوال حياته ؛ أن يوجد قرب بلدين دون أن يكون له بلد ؛ أن يشعر في كل مكان انه في وطنه ثم يظل أجنبيا الى الابد ؛ أن يعيش مصلوبا ، أن يكون ضحية ، أن يحيا متمزقا •

كان الفتى يصغي دَهِشا • أحس أن شخصا ثالثا قد تدخل في الحديث • أصبح لا يسمع كلمات جوفاء ومجاملات • ان أمامه الآن رجـلا متوقد العينين يفتح ذراعيه الطـويلتين النحيلتين فيريه كيف يعيش المرء مصلوبا بين عالمين متعاديين •

وتراءى للفتى دي فوسيه ، كما يحدث ذلك للشبان ، أن هذا الحديث ليس ثمرة المصادفة ، وان صلة وثيقة تربطه بأفكاره الخاصة ، وتربطه بالكتاب الذي هو بسبيل كتابته. لم يتح له في ترافنك أن يسمع أحاديث كهذا الحديث . وشعر بتأثر ممتع ، وأخذ يسأل ، وأخذ يبدي بعض الملاحظات ، وأخذ أخيرا يعرض بعض أفكاره . انه يتكلم الآن ، لحاجته الى التعبير ، ولرغبته في الاستماع أيضا . ولم يكن صعبا أن يدفع العجوز الى المزيد من الكلام . ان العجوز يتدفق ولا يتوقف . انه يتحدث حديثاً ملهم ، ويحاول في بعض الاحيان أن يجد الالفاظ الفرنسية التي تترجم الالفاظ الايطالية ، ويتكلم كأنه يقرأ :

ـ نعم ان آلام مسيحيي الشرق هي ما تعجزون عن فهمها ، أنتم مسيحيي الغرب ، وهي ما يعجز عن فهمها الاتراك مزيدا من العجز أيضا . لقد كتب على هؤلاء الناس أن يترجحوا بين الشرق والغرب ، فلا هم من الشرق ولا هم من الغرب ، وانما يضربهما الطرفان من الجهتين. انهم يتكلمون عدة لغات ، وليست لغةٌ منها لغتَهم . وهم يعتنقون ديانتين دون أن يتعلقوا بأي منهما تعلقا قويا . انهم ضحايا هذا الانقسام المحتوم ، انقسام البشر الى مسيحيين وغير مسيحيين . وسطاء بين عالمين، لا يملكون وضوح الفكر ولا أدوات التعبير . يعرفون الشرق والغرب ، ويعرفون عاداتهما واعتقاداتهما ، ولكن الشرق والغرب كليهما يحتقرانهم ويشكان فيهم . يصدق عليهم ما قالة الشاعر العظيم جلال الدين الرومي منذ عشرة قرون : « انني لا أظفر بمعرفة من أنا : ما أنا بالمسيحي ولا باليهودي ولا بالفارسي ولا بالمسلم . ما انتمائي الى الشرق ولا الى الغرب ، ولا الى الارض والا الى البحر » . كذلك هم أهل المشرق . انهم انسانية صغيرة على حدة ، تنوء تحت عبء خطيئة أصلية مزدوجة ، فلا بد من تخليصها وفدائها مرة ثانية ، ولا يُعرف من يخلصها وكيف

يمكن تخليصها • أناس يعيشون على تخوم روحية جغرافية معا ، على حدود دامية رهيبة رسمها سوء التفاهم الفظيع بين بشر هم جميعا مخلوقات من مخلوقات الله ما ينبغي أن يكون بينها حواجز وسدود • طرف بين الارض والبحر كتب عليه أن يظل متحركا قلقا الى الابد • ان هذا « العالم الثالث » هو الذي تنصب عليه جميع اللعنات الناشئة عن انقسام الانسانية الى عالمين • ان ••••

وتشب الحماسة في نفس دي فوسيه ، وتسطع عيناه بلهب متأجج وهو ينظر الى الشيخ المتحمس الذي يبحث عن الكلمات مكتف اليدين ، ويختم كلامه بقوله :

ــ هي البطولة بلا مجد ، هو الاستشهاد بلا جزاء • ان عليكم أنتم على الاقل أن تفهمونا وأن تساعدونا وأن تخففوا بلاءنا ، انتم اخواننا في الدين وأقرباءنا من أهل الغرب الذين أنعم الله عليكم بالهداية الى المسيحية مثلما أنعم علينا •

خفض الطبيب ذراعيه وقد ظهر في وجهه ألم يشبه أن يكون غضبا • لم يبق فيه أي أثر من آثار « الطبيب الايليري » المزعج • انه الآن رجل ذو تفكير أصيل وبلاغة قوية • وتحرق دي فوسيه شوقا الى مزيد من كلامه ، الى مزيد من التعلم منه ، ونسي شعوره بالتفوق الذي شعر به منذ برهة ، ونسي المكان الذي هو فيه ، والمهمة التي جاء من أجلها • ثم أحس أنه مكث أكثر مما ينبغي أن يمكث وأكثر مما كان من المقدر أن يمكث • ومع ذلك لم يتحرك •

الشيخ ينظر اليه صامتا متأثرا ، كما ينظر المرء الى شخص ينصرف ويحزنه انصرافه •

ــ نعم أيها السيد ،قد تتوصلون الى أن تفهموا حياتنا ، ولكن حياتنا لن تكون في نظركم الا حلما مزعجا • فلئن كنتم تعيشون هنا ،

فانكم تعلمون أن مقامكم الى حين ، وأنكم عائدون الى بلادكم عاجلا أو آجلا ، وواجدون هناك ظروفا من الحياة أكرم وأفضل ، فتستيقظون عندئذ من الكابوس ، وتتحررون منه ، بينما نحن لا نستطيع ذلك أبدا ، لأن هذه الحياة هي الحياة الوحيدة التي يمكن أن نحياها .

في نحو نهاية الحديث ، لاح على الطبيب هدوء مؤثر . انه الآن قريب من الفتى كل القرب ، يميل عليه ميل من يفضي بأسرار ، وكأنه يشير له بكلتا يديه أن يظل ساكنا ، أن لا يطرد ولا يخيف بأية حركة أو بأية كلمة شيئا خفيا لا يُرى ، موجودا هنالك أمامهما ، شيئا مرهفا ثمينا وجلا . قال :

ـ في النهاية ، في نهاية النهايات ، سيجري كل شيء على خير ، وسينتهي كل شيء الى انسجام ، رغم ان كل شيء يبدو هنا متنافرا لا مخرج له ، معقدا تعقدا رهيبا . « سيأتي يوم يجري فيه كل شيء على خير ، ذلك مناط أملنا ومعقد رجائنا » .هكذا قال أحد فلاسفتكم . ثم ان من المستحيل أن يتصور المرء خلاف ذلك . اذا كان تفكيري سليما صحيحا ، فلماذا لا يصدق هنا كما يصدق في روما أو باريز ؟ ألأنه نشأ في هذا الركن النائي من ترافنك ؟ هل يمكن أن لا يكون مثل هذا التفكير قد كُتب أو نشر ؟ كلا ثم كلا ! ان كل شيء مترابط خاضع للانسجام ، رغم انه يبدو في الظاهر سديما مضطربا . ما من فكرة انسانية وما من جهد عقلي يمكن أن يضيع أبدا . اننا نسير جميعا في الطريق السليمة ، وسيدهشنا في ذات يوم أن نرى أنفسنا وقد التقينا على هذه الطريق . سنلتقي في يوم من الايام وسنتفاهم مهما تكن الدروب التي نمشي فيها اليوم ، ومهما تكن الاتجاهات التي نطوّف بينها . وسيكون لقاؤنا لقاء فرحا ، وسيكون ظفرا مجيدا وخيرا عظيما .

كان الفتى يتابع تفكير الشيخ في مشقة وعنـاء ، ولكنه يتمنى أن يستمر في كلامه . ويستمر كولونيا في الكلام بتلك اللهجة نفسها التي يشيع فيهـا الفرح لكنها تحمل طابع الافضاء بسر . وكان دي فوسيه يؤيد كلام الطبيب متأثرا ، ويقول كلمة من حين الى حين . قصَّ على الطبيب احساساته على طريق توربيه ، وحـدثه عن مختلف العصور التاريخية التي اكتشف وجودها في طبقات حجارة هذا الطريق . وذلك ما سبق أن حاول شرحه لدافيل فلم يفلح . قال الشيخ مؤيدا :

ـ أعرف أنك تلاحظ ما حولك . انك تعنى بالماضي والحاضر معا . انك تعرف كيف تنظر وترى .

ثم دمـدم يقول ، وكأنه ينقل اله سرَّ كنز مخبأ ، وكأنه يحاول أن يفصح عن تفكيره بابتسامة النظرة أكثر مما يفصح عنه بالالفاظ :

ـ حين تجتاز المدينة توقف على « يني جامع[1] » . ستجد هنالك أرضا محاطة بجدار عال جدا ، ووراءه تحت أشجار كبيرة قبور لا يعرف أحد أصلها . العامة تقول انهذا الجامع كان قبل وصول الاتراك كنيسة القديسة كاترينا . والعـامة تعتقد ان خزانة الكنيسة ما تزال موجودة في ركن من الاركان لا يستطيع أحـد فتحها . فاذا أنعمت النظر في حجارة هذا السور القديم ، رأيت انه مبني من حجارة آثار رومانية وقبور . ومن السهل عليك أن تقرأ في الصخرة التي تسدُّ جدار الجامع أحرفا لاتينية هي بقايا نص روماني . وتحت ذلك ، في أسفل ، عند الآساس التي لا تبين ، هنالك كتل من الغرانيت الاحمر ، هي بقايا ديانة أشد اغراقا في القدم . فعلى حجر من هذه الاحجار ترى بروزا دارسا هو صورة الاله الشاب ، اله النور ، وهو يجري ويقتل خنزيرا بريا .

---

(١) مسجد ترافنك .

ومن ذا الذي يعرف ما تخفي هذه الآساس أيضا ؟ هل يمكن أن نعرف أولئك الذين دُفنت جهودهم هناك وامحت آثارهم الى الابد ؟ وهذا كله في جزء صغير من الارض ، في مدينة صغيرة منسية ، فكيف في الاماكن الاخرى التي لا يحصى عددها من العالم بأسره ؟

نظر الفتى الى الشيخ ينتظر شروحا أخرى . ولكن الطبيب غير لهجته فجأة ، وحاول أن يعبِّر عن فكرته تعبيرا أوضح كأنه يخاطب شخصا آخر :

ـ اسمع . ان كل شيء مترابط ، ومع ذلك يبدو كل شيء ضائعا منسيا متفرقا لا خيط ينظمه ولا خطة تجمعه . ان كل شيء يتحرك نحو غاية ، كما تتلاقى الاشعة في بؤرة مجهولة . يجب أن لا ننسى ما جاء في القرآن : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ؛ والله قدير والله غفور رحيم » . هل فهمت ؟

وعادت نظرته الى تجهم يعبر عما يشبه الانتصار ، كأنه يحاول أن يشجع الفتى وأن يهديء روعه ؛ ثم رسم بيده دائرة في الهواء : دائرة مغلقة هي الكون .

ـ هل فهمت ؟

كذلك ردَّد الشيخ بالحاح بليغ ، كأنه يرى ان من نافل الامور أن يعبِّر بأقوال عن شيء يبلغ في نظره هذه الدرجة من الوضوح والبداهة والقرب والوثوق واليقين .

ولكن اللهجة تغيرت في آخر الحديث . نهض كولونيا واقفا أمام الفتى ، نحيلا منتصبا ، ثم انثنى وانحنى وهو يقول كلمات لا قيمة لها . وأكد للشاب انه يشعر بأنه نال شرفا عظيما حين جيء اليه وكلف بهذه المهمة .

وافترق الرجلان •

كان دي فوسيه ، وهو عائد الى القنصلية ، يسير ذاهلا في دائرة الضوء التي يسقطها فانوس الخفير تحت قدميه • انه لا يرى من حوله شيئا • انه يفكر في ذلك الطبيب الشيخ الغريب الذي يملك فكرا نشيطا غير مفهوم معا ؛ ويحاول أن يمسك خيط خواطره التي تجري متعاقبة على غير علم منه ، وتتقاطع وتتصالب وحدها من تلقاء نفسها •

الفصل السادس عشر

الانباء التي تصل من القسطنطينية الى ترافنك ما تنفك تزداد سوءا وابهاما • لم يتحسن الوضع بعد انتصار برجقدار ، ولا بعد موت السلطان سليم الثالث على ذلك النحو الفاجع • ان انقلابا جديدا وقع منذ نهاية تلك السنة نفسها ، فأطاح بحياة مصطفى برجقدار •

والاضطرابات والانقلابات التي تحدث في العاصمة البعيدة تترجع اصداؤها في هذا الاقليم النائي متأخرة متبدلة تبدلا كاريكاتوريا كأنها تنعكس في مرآة مشوّهة • الخوف والاستياء ، وأنواع الحرمان ، والحنق من خيبة الامل ، كل ذلك يعذّب السكان الاتراك في المدن • الناس يشعرون بالهزات السياسية والتقلبات المقيتة ، فيحسون بأن القادة يخونوهم في الداخل وأن الاجانب يهددونهم من الخارج • غريزة البقاء والدفاع تدفعهم الى العمل ، بينما تحرمهم الظروف من وسائل العمل وتوصد دونهم الطرق ، فاذا قواهم تتحرك في دائرة مفرغة وتتبدد بغير طائل • وأثناء ذلك ، في القرى الصغيرة القائمة على أعالي الجبال ، حيث تتجاور ديانات مختلفة متعارضة المصالح ، ينشأ جو ثقيل مشحون بالكهرباء ، جو يمكن أن ينشق عن جميع انواع الهول ، جو يمكن للقوى العمياء التي تتصادم فيه أن تتفجر في كل لحظة ثورات مسعورة •

وتلك هي الفترة التي كانت تدور أثناءها في أوروبا رحى معارك لا عهد بمثلها من قبل ، معارك كانت نتائجها التاريخية التي لا يدرك مداها أحد تبث الهلع والذعر في القلوب • والانقلابات في القسطنطينية

تتعاقب ، والسلاطين يخلعون ، ورؤساء الوزارات يقتلون .

ان ترافنك تغلي غليانا شديدا . واستعدادات الهجوم على الصرب قائمة على قدم وساق ، ككل عام من الاعوام ، تقرع جلبتها الآذان ، من أجل أن لا تؤدي الا الى ثمرات ضئيلة كالاستعدادات التي سبقتها في السنين الخوالي . سليمان باشا يتقدم ، بجيش صغير لكنه منظم والحق يقال . وبعــد يوم أو يومين سيلحق به الوزير . والواقع ان الوزير نفسه يجهل خطة الحملة ، ولا يعرف ما هو الجيش الذي يجب عليه أن يسير به . ولكن كان لا بد له من المسير ، لأن الاوامر الصادرة قطعية ، فها هو ذا يقرر المسير آملا أن يكون مسيره قدوة لغيره . غير ان أحدا لم يستطع أن يحمل الناس على المسير ، فهم يتعللون بشتى المعاذير ، ويهربون اذا أُريد احصاؤهم ، ويفتعلون كل ما من شأنه أن يتيح لهم فرصة العودة الى بيوتهم . لكن هذا لا يمنع أن أسماءهم تظل موجودة في كشوف القطعات التي تحارب منذ ذلك الحين على الجبهة الصربية .

والقنصلان يبذلان كل ما يطيقان بذله من جهود حتى يعرفا نيات الوزير ، وحتى يعرفا عدد القوى المرسلة وقيمتها ، وحتى يعرفا ما يحدث فعلا على مسرح العمليات الحربية الدائرة ضدَّ الصرب .

. . .

بعد سفر الوزير الى جهــة نهر درينــا ، أصبحت السلطة في يد القايمقام ، المكلف بالامن أيضا . وللمرة الثانية أغلقت حوانيت البازار أبوابها على حين فجأة . انه استمرار للفتنة التي شبت نارها في العام الماضي ، ولم تنطفيء انطفاءً كاملا ، وانمــا اختبأت تحت رماد من الصمت ، تنتظر حجة من الحجج حتى تعود الى الاندلاع . وسخط

الجمهور منصب في هذه المرة على صربيي البوسنة ، يوقفون بأماكن مختلفة من البلاد ، ويقادون الى ترافنك بتهمة أن لهم علاقات بالصربيين العصاة ، وانهم أعدوا عصيانا مماثلا في البوسنة • ولكنه منصب أيضا على السلطات العثمانية المتهمة بالضعف والفساد والخيانة •

لقد شعر أتراك البوسنة أن العصيان الصربي يهدد أقدس ما عندهم تهديدا مباشرا ، وان الوزير والعثمانيين لا يدافعون عنهم دفاعا كافيا ، وانهم ، هم ، لا يملكون أية وسيلة من وسائل الدفاع عن أنفسهم ولا يملكون أية ارادة حقيقية تمكنهم من هذا الدفاع ، لذلك استسلموا استسلاما كاملا لتلك الشراسة التي تجتاح نفوس الطبقات المهددة ، فانتقموا لانفسهم بوحشية عمياء وقسوة عقيمة •

هؤلاء أناس صربيون يقادون ، واحدا واحدا ، أو اثنين اثنين ، أو جماعة جماعة ، في الليل والنهار ، من منطقة نهر درينا أو من كراينا ، مكبلين بالاغلال معذبين ، متهمين بتهم خطيرة بمقدار ما هي مبهمة غير واضحة • ان منهم رجالا من سكان المدن ورهبانا ، ولكن أكثرهم فلاحون • ما من أحد يكلف نفسه عناء استجوابهم أو مقاضاتهم ، وانما هم يرمون في ساحة ترافنك وسط جمهور حانق مسعور ، كما يرمون في فوهة بركان فائر ، فتقتلهم ترافنك بدون تحقيق وبدون حكم •

مضى دي فوسيه في ذات مرة يشهد كيف عذب اثنان من الغجر رجلين من أولئك الرجال وكيف قتلاهما في سوق البهائم ، مضى يشهد ذلك رغم ملاحظات دافيل بل رغم توبيخاته وتقريعاته • استطاع من وراء الجمهور الذي كان يتحرق شوقا الى رؤية ما سيحدث ، استطاع من على أرض مرتفعة ، أن يرى الضحيتين والجلادين والمشاهدين رؤية واضحة دون أن يبصره أحد •

الضحيتان رجلان طويلان أسمران يتشابهان تشابه أخوين • وفي

وسع المرء أن يحزر مما بقي من ملابسهما التي تمزقت أثناء الطريق أو أثناء التعذيب ، انهما من سكان بلدة صغيرة بالريف • وقد قيل انهما بوغتا وقبض عليهما وهما يحاولان أن يهرّبا الى الصرب ، ضمن أغصان مجوفة من أشجار الخيزران ، رسائل كتبها أسقف سراييفو الصربي •

ساحة المدينة تسودها الفوضى ويسودها الصخب • الجنود الاتراك يقودون الرجلين عاريي القدمين حاسري الرأس ، في سراويل من الجوخ وقمصان ممزقة مقطّعة •

لم يمكن اخلاء المكان اللازم للشنق الا في كثير من المشقة والعناء • الغجريان يحاولان أن يحلاّ عقدة الحبال ، فما يظفران بذلك • الجمهور ثائر الاعصاب ، يشتم الرجلين مثلما يشتم الغجريين والجنود الذين يهرعون هنا وهناك ويهددون هؤلاء وأولئك •

الرجلان الموثوقان بالحبال ، اللذان لهما عنقان طويلان عاريتان ، ما ينفكان ساكنين منتصبين ، وقد بدا عليهما نوع غريب غامض من الضيق • ان وجهيها لا يعبران عن أي خوف ، ولا يعبران عن أية شجاعة ، ولا عن أية حماسة ، ولا يعبران عن قلة الاكتراث • كأن كل ما يجري حولهما من حركات وما ينطلق حولهما من صراخ لا يعنيهما ولا يمت اليهما بصلة • انهما يكتفيان بأن يطرفا أعينهما ، وأن يخفضا رأسيهما من حين الى حين ، كأنهما يحاولان أن يحميا نفسيهما من هذه الضجة وهذه الصرخات التي تمنعهما من الغرق الكامل في أحلامهما • وعلى جبينيهما وأصداغهما تبرز أوردة متشعبة وتتقاطر قطرات كبيرة من العرق ، لا يستطيعان مسحها لأنهما موثقان ، فالعرق يسيل خيوطا متصلة على عنقيهما اللذين تغشاهما الاوردة ويملؤهما الزغب •

استطاع الغجريان أخيرا أن يحلاّ عقد الحبال ، فاقتربا من أحد المسكينين • تراجع الرجل قليلا ، قليلا جدا ، ثم لم يلبث أن توقف

واستسلم على الفور • وفي الوقت نفسه تراجع الثاني على غير ارادة منه ، كأنه مشدود الى الاول برابطة خفية لا ترى •

الى ذلك الحين ظل دي فوسيه ينظر الى المشهد هادئا ، ولكنه أدار عندئذ ظهره ومضى في شارع آخر • لذلك لم يرَ المرحلة الفظيعة من المنظـر •

فبعد أن وضع الغجريان العقدة حول عنق الرجـل ، لم يشنقاه ، وانما ابتعدا عنه وشدّ كل منهما الحبل الى جهته • أخذ الرجل يحشرج ، ويغمض عينيه ، ويقذف ساقيه هنا وهناك ، ويعقف ركبتيه ، ويترجح ترجح لعبة على حبل صلب •

أسرع الجمهور وأخذ يتزاحم • هرع النـاس جميعا نحو المشهد الرهيب • انهم يردون على الاختـلاجات الاولى بضحكات وصرخات حماسة وفرح ، ويقلدون حركات المسكين مرحين • حتى اذا أمسك به الاحتضار المميت ، وأصبحت حركاته فظيعة ، أخذ القريبون منه يلتفتون الى خلف أو يتراجعون • واضح أنهم جاءوا الى هنا لرؤية شيء غريب ، دون أن يعرفوا ما هو على وجه الدقة ؛ جاءوا من أجل أن يسرّوا عن أنفسهم وأن يتخففوا من استيائهم العميق • انهم يريدون ويتمنون منذ أمد طويل أن يستطيعوا ملء أبصارهم بمنظر عدوّهم وهو يُعاقب ويُصرع آخر الامر • ولكنهم مالبثوا أن دُهشوا وذُعروا فأخذوا يديرون وجوههم أو يحجبون أبصارهم •

ولا كذلك المشاهدون البعيدون الذين لم يستطيعوا الاقتراب ؛ فهم ما ينفكون يدفعون أناس الصف الاول ، على حين أن هؤلاء ، وقد روّعهم قربهم من هذا التعذيب الذي لم يكن في حسبانهم ، يحاولون مستميتين أن يشقوا لانفسهم مخرجا وأن يهربوا ، ويخابطون بقبضات

أيديهم كمن يفرُّ من حريق • وفي أثناء ذلك يسترسل الواقفون في الخلف ، الجاهلون بالاهوال التي تجري على مقربة منهم ، يسترسلون في أمازيحهم ويقذفون نكات وصرخات كتلك التي تُسمع في كل جمهور متدافع هائج • فكذلك كانت تختلط وتتقاطع وتتصادم أصوات ونداءات لا يُحصى عددها ، بعضها حانق فظ َدِهش غاضب ، وبعضها ساخر مازح هازيء ، وكلها ممتزج بتلك الصرخات الخفيفة التي تخرج من المِعَدِ والرئات في كل جمهور بشري •

هؤلاء صبية « عفاريت » يحاولون ان يبعثوا في الجمهور مزيدا من الفوضى ، فيصيحون بصوت واحد :

ـ ها ••• ها ••

فيجيبهم الآخرون وهم يدفعون في الجهة المعاكسة :

ـ ادفع ••• ادفع •••

ـ لماذا تضرب هكذا ؟ أأنت مجنون ؟

فيقول واحد بصوت مجنون :

ـ مجنون ••• مجنون •••

ويهتف آخر من بعيد ، معتقداً أن ذلك كله مزاح :

ـ ولكن اضربه ••• اضربه ••• لماذا تتردد ؟ أهو أخوك ابن امك ؟

وتُسمع أصوات نعالٍ تقرع الارض :

ـ خذ ••• خذ ••• أتريد مزيدا ؟ خذ •••

ـ وأنت ••• هناك ••• لابس الطربوش !

ـ من يدفعني هكذا ! قرِّب حتى ادبِّرك !

ـ مالك تداعبه هكذا ؟ ضربةً على النافوخ !

ـ و •• ق •• ق ••• فو •• و •• و •• وا !•••

وفي أثناء ذلك لا يقدر ان يرى ما يجري في ساحة التعذيب الا

الذين وقفوا على مرتفع • لقد أغمي على الرجلين واحداً بعد آخر ، وسقطا على الارض • فهرع الغجريان يحاولان انهاضهما ، وسكبا على وجهيهما ماءً ، وصفعاهما بأيديهما ، ووخزاهما بأظافرهما ، حتى اذا ثاب اليهما شعورهما ، استؤنف التعذيب ، فوضع عنق كل منهما في عقدة الحبل ، واخذ الغجريان يشدان • فعاد المسكينان ينتفضان ويحشرجان ، ولكن بمقاومة قليلة في هذه المرة ، وعاد المشاهدون الواقفون على مقربة من المنظر يلوون رؤوسهم ويحاولون الابتعاد ، ولكن الازدحام لا يسمح لهم بالمرور ، ويردهم بصراخ وشتم الى المكان الذي أرادوا مبارحته •

وأغمي على شاب مسلم من رجال الدين ، ولكنه لم يسقط على الارض ، من شدة الازدحام حوله ، بل ظل قائما وسط هذا الجمع من الاجسام البشرية المتحركة ، مائل الرأس ، أصفر الوجه ، مُزبدَ الفم •

استؤنف التعذيب ثلاث مرات • وفي كل مرة كان الرجلان البائسان يعودان الى الوقوف هادئين ، ويمدان رأسيهما لعقدة الحبل طائعين ، كأنهما لا يريدان الا شيئا واحدا هو أن يسهّلا العملية فتجري الامور كما يجب أن تجري • انهما ساكنان متجمعان على نفسيهما ، انهما أهدأ من الغجريين ، وأهدأ من أي مشاهد ، ولكنهما مهمومان مفكران يبلغان من الهم والتفكير ان انتفاضات الاحتضار لم تستطع أبدا أن تطرد من قسمات وجهيهما ذلك التعبير عن همٍ عميق بعيد •

حتى اذا لم يستطع الغجريان بعد التعذيب الرابع أن ينعشاهما ، أجهزا عليهما بضربات قوية على الحالبين •

ولفّف الغجريان حبليهما كبّتين ، استعدادا لمهمة أخرى من هذا النوع ، بينما أخذ الجمهور يتفرق ، حتى اذا فرغا من لف الحبلين أخذا يدخنان سيجارا كان قد قدّمه اليهما أحد المشاهدين ، اخذا يدخّنانه

بشراهة وقد بدت نظراتهما زائغة قلقة • ان وجهيهما يعبران عن غضب ، غضبٍ من هذا الجمهور المسعور الذي يدور حولهما ، وغضبٍ من هذين الميتين الراقدين هنالك ساكنين ضائعين وسط الارجل الكثيرة التي لا يحصى لها عدد ، أرجل الناس المستطلعين الذين يتدافعون الآن مرةً أخيرة •

وبعد ذلك بقليل شنقت الجثتان على سور المقبرة حتى تمكن رؤيتهما من جميع الجهات • لقد استطال وجهاهما ، واستردا تعبيرهما السابق ، وأصبحا اهيفين متشابهين تشابه أخوين ، وكأنهما خفيفان خفة ورق ؛ وقصر رأساهما ، لان الحبل قد حفر اللحم حفرا عميقا تحت الذقن • ان وجهيهما ساكنان اصفران ، وليسا مشوهين أو أزرقين كوجوه المشنوقين العاديين • وقدماهما مضمومتان احداهما الى الاخرى، وقد تقدم اخمصاهما الى أمام كأنهما تهمان بوثوب •

هكذا رآهما دي فوسيه وهو عائد الى القنصلية عند الظهر • ورأى على كتف احدهما كمَّ قميصٍ قذر ممزق يتموج تموجا بطيئا مع هبات الريح •

لقد راقب دي فوسيه وجهي هذين الشقيين ، قابضا فكيه مصرا مع ذلك على رؤية المشهد ، مضطربا منفعلا ولكنْ في حالة نفسية تشبه أن تكون عظمة وأبهة •

ولازمته هذه الحالة النفسية الى أن وصل القنصلية ، وهناك رأى دافيل ودافنا ، فبدا له دافيل تافها خاليا من قوة العزم خوّافا من أيسر الامور ، وبدا له دافنا جاهلا عاميا • تراءت له مخاوف دافيل صبيانية خيالية ، ولاحت له ملاحظاته نظرية فقيرة بوروقراطية • وأدرك أنه يستحيل عليه أن يكاشفهما بما رأى وما أحس • وبعد العشاء دوّن بأمانة في كتابه عن البوسنة ، وهو على تلك الحالة النفسية ، فقرةً « عن اعدام المتمردين » •

أخذ الناس يألفون هذه المنــاظر الدامية المروّعة ، فهم ينسون المناظر القديمة ويبحثون عن مناظر جديدة أو مختلفة .

وعلى سهل مرتفع أُحسن تمهيده وتنظيفه ، على سهل عــالٍ يقع بين الخان وقنصلية النمسا ، نُصبت صقالة جديدة كان جلاد الوزير يقطع الرءوس عليها ثم يرفعها فوق خازوق .

لذلك أصبحت قنصلية النمسا مسرح دموعٍ لا تنتهي ، وصريرِ أسنانٍ لا ينقطع . ان آن ماري تقف أمام زوجها صائحة : « جوزيف ، ناشدتك الله » ، بلهجات ونبرات تعلو وتهبط وتتلون الى غير نهاية . انها تشبه زوجها بروبسبيير ، وتحزم امتعتها استعدادا للرحيل ، ثــم تتهاوى بين ذراعي فون ميترر وقد تهدمت تعبا وحنقا ، واخذت تنتحب انتحاب ملكة شقية ستمضي الى المقصلة والجلاد ينتظرها على الباب .

أما الصغيرة آجاتي فانها تجلس مذعورة على مقعد صغير في الشرفة، تذرف سيولا من دموع هادئة ، وكان هذا أشق على نفس فون ميترر من جميع المشاهد التي تمثلها امرأته .

وأما روتا ، الترجمان الاحدب ، فانه ما يني يجري بين القناق و « المتسلم » (وهو أحد كبار موظفي الوزير) يهدّد الموظفين أو يرشوهم ، متضرعا آمرا في آن واحد ، من اجل ان لا يتم تنفيذ أحكام الاعدام بعد الآن أمام القنصلية .

وفي ذلك المساء جيء بعشرة صــربيين من كراينــا ، وهم جميعا فلاحون ، فأعدموا في ضوء الفوانيس والمشاعل ، وسط الصرخات التي تقطعها دبدبات الاتراك الحانقين ، ثم علقت رؤوسهم على خوازيق . وسمع سكان القنصلية طوال الليل نباح الكلاب السائبة التي تجمعت حول الجثث ، والتي كانت تُرى في ضوء القمر وهي تتواثب على الخوازيق لتختطف ِمزقا من اللحم .

وفي الغداة زار القنصل القايمقام ، فنزعت الخوازيق عقب هذه الزيارة واصبح تنفيذ الاعدام يتم في غير هذا المكان .

لم يبارح دافيل مسكنه خلال ذلك الوقت كله . ولكن صرخات الجمهور البعيدة كانت تبلغ مسامعه ، وكان دافنا يطلعه على مجرى الاحداث وسلسلة الاعدامات . وحين علم بما يحدث في قنصلية النمسا ، بارحته مخاوفه فجأة ، فاذا هو يكتب رسالة صداقية الى فون ميترر ، دون ان يكترث باعتبارات شخصية ، ودون ان يستشير أحدا البتة ، ودون ان يتساءل هل هذه البادرة الطيبة تتفق مع الاعراف الدولية او مع مصلحة الوظيفة . كان دافيل عندئذ في ظرف من تلك الظروف التي يسكت فيها ترddاته المعتادة ، ويرى الامور رؤية واضحة ، ويملك الشجاعة اللازمة لفعل ما يجب فعله .

ودار الحديث في رسالته ، طبعا ، على « بيلون » الهة الحرب ، وعلى « صليل السلاح الذي ما يزال يقرع الآذان ، وعلى اخلاص كل منهما لامبراطوره » .واضاف الى ذلك قوله : « ولكنني ما أحسب أنني اصدم عواطفكم او اخالف واجبي حين اسمح لنفسي في هذه الظروف الخاصة التي نعيشها ، ان اوجّه اليكم هذه الاسطر . لقد علمنا بما يجري على مشهد منكم ، فثارت نفوسنا اشمئزازا وألما ، ونحن نعاني كل يوم من هذه الوحشية ، فحرصنا انا وزوجتي على أن نخبركم أننا نذكركم دائما في هذه الظروف ، فبصفتنا مسيحيين وأوروبيين ، ورغم كل ما قد يفرق بيننا موقتا ، أحببنا ان لا تمر أيام كهذه الايام دون أن نبعث اليكم ببضعة أسطر تعبر لكم عن عواطفنا وتعازينا » .

ولم يتساءل دافيل هل أحسن صنعا بتوجيه هذه الرسالة الا بعد أن بعث بها الى قنصلية النمسا بطريق غير مباشر .

وفي ذلك اليوم ، في اللحظة التي كان فيها فون ميترر يفض رسالة دافيل ــ اليــوم الخامس من عــام ١٨٠٩ ــ كانت تنشب معــركة واجرام •

خلال عشرة أيام من أجمل أيام شهر تموز ، سيطرت على مدينة ترافنك فوضى كاملة • ان سُعُرا شاملا ساريا يخرج الناس من بيوتهم ويدفعهم الى ارتكاب أعمال جهنمية لم تخطر لهم ببالٍ قبل الآن • قانون القتل يسود ، والغرائز الشوهاء هي التي تملي على الاحداث مجراها ، ورب فعل من هذه الافعال ينشأ عن مصادفة ، عن صيحة ، عن مزحة يمزحها شبان • فاذا الامور تتطور الى ما لم يكن في الحسبان ، وتنتهي على نحو لم يتوقعه أحد ، او تتغير تغيرا كاملا على حين فجأة • يكون عدد من الصبية سائرين في اتجاه معين لهدف معين ، فاذا وجدوا أنفسهم أثناء الطريق أمام منظر أبعث على الاثارة ، تركوا فكرتهم الاولى ، وشاركوا في هــذا المشهد كأنهم أعدوا ذلك منذ أسابيع • حماسة الجمهور حماسة عجيبة • الناس يتحرقون شوقا الى المشاركة في الدفاع عن الدين والنظام ، تدفعهم الى ذلك نيات طيبة ، ما في ذلك شك ، ولكن يقود خطاهم حقد شديد ، فهم حريصون على المشاركة في تعذيب أولئك الخونة المسئولين عن شقاء البلاد وشقاء كل فرد من الافراد ، فاعلين لا مشاهدين • انهم يذهبون الى المكان الذي يجري فيه التعذيب ذهابهم الى مكان مقدس يلتمسون عنده شفاء من آلامهم او تخفيفا لها • وكان كل واحد يحرص على ان يجيء بمجرم او خائن ، وعلى أن يلعب دوره في اختيار العقاب ، وموضع توقيعه ، وطريقة تنفيذه •

المناقشات تصير الى مشاجرات ومقاتلات ، والمشاجرات والمقاتلات تحمل كل ما يسيطر على الجو من حميًّا وحنق • عشرات من الاتراك يتحركون ويضطربون حول محكوم موثق بالحبال ، و « يزاودون » في اختيار العقوبة التي يجب توقيعها فيه ، كأنهم حول بهيمة تباع او

تشرى . الصبية يركضون حتى تنقطع أنفاسهم من شـدة الركض ، وينادي بعضهم بعضا ، وقد انتفخت سراويلهم وراءهم ، وفي أيديهم سكاكين صغيرة سيغمسونها في دم المحكوم عليه ، ليتباهوا بذلك أمام من هم أصغر سنا منهم أو ليخيفوهم .

والايام في أثناء ذلك صاحية مشمسة ، والسماء بلا غيوم ، والمدينة متألقة بتفتح الازهار وانطلاق الامواه وانعقاد الاثمار . وضوء القمر يسطع في الليل طريا ندياً رائقا شفافا .

ان احقادا قديمة مدفونة تستيقظ الآن من سباتها في هذا الجو من الاهتياج العام الذي يسري سريان وباء ، ان ضغائن قديمة تهب من رقادها تنشد الارتواء . ابرياء يُقبض عليهم . اخطاء فاحشة ترتكب .

واعضاء القنصلية قابعون في منازلهم لا يبارحونها ، يطلعهم الخفراء على ما يحدث في المدينة . الا كولونيا الذي لا يستطيع ان يبقى في داره المنعزلة الرطبة . كان كولونيا ينزل الى القنصلية ، رغم أن عليه ان يجتاز صفوف الجماهير الحانقة ، وان يمر بأماكن التعذيب هنا وهناك . جميع الناس يلاحظون الانفعال العميق الذي لا يبارح كولونيا لحظة من اللحظات . عيناه تسطعان بلهيب محموم ، وجسمه يضطرب بارتعاشات وارتعادات ، وكلامه لا يكاد يستطيع ان يخرج من بين شفتيه. ان هذه الاعصارات المسعورة تعصف بالشيخ عصفا قوياً ، كما تعصف الريح العاتية بقذاة .

ورأى كولونيا ، في ظهر أحد الايام ، حين كان عائدا من القنصلية ، في وسط المدينة ، جماعة من الاتراك يجرون رجلا موثقاً بالحبال يكاد يكون مقتولا . كان في وسع كولونيا ان يمضي في شارع آخر . ولكن هذا الحفل جذبه اليه بقوة لم يستطع مقاومتها . وها هوذا ، في اللحظة التي يدنو فيها ، يسمع صوتا ابح يناديه قائلا :

ـــ دكتور ، دكتور ، امنعهم يا دكتور ، أنا بريء

فشده كولونيا ، واقترب ، ونظر الى الرجل بعينيه الحسيرتين ، فعرف فيه رجلا من سكان فوينتسا ، كاثوليكيا ، اسمه كوليير • كان الرجل يقول كلمات متقطعة ، دون تخير ولا انتقاء ، ويصيح مبتهلا الى الجمهور ان يطلقه لانه بريء • حاول كولونيا ان يعرف من بين أفراد الجمهور شخصا يستطيع ان يكلمه ، فلم يقع بصره الا على نظرات جهمة قاتمة • ولكن قبل أن يتسع وقته لقول كلمة أو اجراء اشارة ، انتصب أمامه رجل طويل القامة شاحب الوجه مجوّف الخدين ، فقال له :

ـــ امض أنت في طريقك •

قال الرجل ذلك بصوت مرتجف زاخر حنقاً يخرج من خلال هدوء متصنع حاقد •

كان يمكن ، لولا هذا الرجل وهذا الصوت ، أن يمضي الشيخ في طريقه تاركا هذا الشقي لمصيره ، ولكن الصوت جذبه اليه كهاوية • ودّ ان يقول انه يعرف الرجل ، فهو شخص مسالم من سكان فوينتسا ، وان يسأل عن الذنب الذي اقترفه وعن المكان الذي يقودونه اليه ، ولكن الرجل المنتصب أمامه لم يسمح له بالكلام ، اذ قال له بصوت أعلى :

ـــ امض في طريقك •

ـــ كلا ، كلا ، هذا لا يمكن ••• الى أين تقودونه ؟

ـــ اذا حرصت على ان تعرف ذلك ، فاعلم اننا نقوده الى المشنقة• اعلم اننا سنشنقه كما يشنق كلب ، كما يُشنق جميع من يشنقون •

ـــ كيف ؟ لماذا ؟ لا يمكن شنق بريء ! سأستدعي القايممقام •

وأخذ كولونيا يصيح كما يصيح الآخرون ، دون ان يشعر بذلك •

وسُمعت في الجمهور دمدمات • ومن أعلى مئذنتين احداهما قريبة والاخرى بعيدة سُمعت أصوات أذان تؤذن في الناس للصلاة •

زأر الرجل الطويل المستبسل قائلا :

ـ ما دمت حريصا على الدفاع عنه ، فسأشنقك أنت ••• على هذه التوتة ••• هنا •••

صاح الشيخ يقول بلهجة قوية :

ـ لا تقدر ••• سأذهب الى القايمقام ••• ما اسمك ؟ من أنت ؟

ـ أنا من لا يخاف منك • أهرب بجلدك حتى لا أراك •• والا فالويل لك ! •••

وتبع ذلك صراخ وشتم • وهرع الجمهور حولهما • فكان الرجل الطويل يختلس النظر الى أعين الناس بعد كل جملة يلتمس ان يرى تأييدا وتحبيذا ، ولكن الناس ينظرون اليه دون حركة أو اشـارة ، مع شيء من الرضى •

اتجه الرجل نحو شجرة التوت القائمة على حافة الطريق ، فتبعه الجمهور ، وتبعه كولونيا • الناس جميعا يصرخون ويحركون ايديهم • كولونيا يصرخ أيضا ، ولكن ما من احد يصغي اليه ، وليس يُتاح له أن يتكلم •

ـ لصوص ، وقحون ، قطاع طرق ••• تلطخون سمعة السلطان ••• قطاع طرق ••• رُفَّاض ••• مرتدون •••

ـ سدّ بوزك ، والا شنقت !

ـ من ؟ أنا ؟ لا تجرؤ ان تمسني مسا ، ايها الجاحد ، ايها المارق !

جميع أعضاء كولونيا تتحرك مفككة • انه يقذف ساقيه الى أمام ، ويرفع ذراعيه الى فوق • وقد اصبح وحيدا مع الرجل الطويل تحيط

بهما حلقة من الناس • أما المحكوم الموثق فقد بقي منتحيا منسيا •

وعندئذ استدار الرجل الى الجمهور ، وصاح متحديا :

ــ لقد سبَّ ديننا والهنا • أما سمعتموه ؟

ــ بلى !

ــ اشنقوا الاثنين اذن • حالا !

وهرع الجمهور نحو كولونيا •

ــ من سبَّ دينك والهك ؟ أنا أعرف الاسلام أكثر منك ، أيها الهجين البوسني ••• أنا ••• أنا ••• أنا تركي ••• أنا مسلم اكثر منك !

كذلك أخذ كولونيا يعول مهتاجا مزبدا وقد جُن من الغيظ والغضب ، ولكن الغمار والتزاحم يخنقان أقواله •

واستطاع بعض التجار الذين كانوا يتبعون الحفـل أن ينتزعوا الطبيب من بين أيدي الجمهور الهائج • وظهر ثلاثة أشخاص شهدوا بأنهم سمعوا الشيخ يعتنق الاسلام جهارا بكلام واضح جلي ، فلا يجوز بعد ذلك ان يُمس بسوء • ومضوا بالطبيب بعد ذلك الى بيته في موكب مهيب وهم يحيطونه بأنواع العناية والرعاية ، كما تحاط بمثل ذلك عروس • كذلك أنقذ الشيخ الذي خرج عن طوره ، واصبح جسمه كله يرتعش ، وأخذ يفافيء بكلمات مقطعة لا معنى لها •

ولم يسع اولئك الذين كانوا يقتادون كوليير متَّهمين وقضاةً ومنفِّذين ، الا أن يتركوه مدهوشين خائبي الامل ، فمضى نحو بلدته فوينتسا لا يلوي على شيء ولا يلتفت الى وراء •

وسرعان ما راج في المدينة كلها ان طبيب قنصلية النمسا قد استترك • واحدث هذا النبأ دويا كبيرا ، رغم ان المدينة عاشت أياما مسعورة ، وكانت تنتقل من هولٍ الى هولٍ أشد •

واذ كان لا يجرؤ مسيحي ان يخرج من بيته ، صعب التحقق من صدق الشائعة . وأرسل القنصل بعض الخدم الى دولاتس لمقابلة الراهب ايفو . فرفض الراهب ان يصدق التهمة ، ووعد بالمجيء الى القنصل متى انتهت الفتنة ، وربما جاء اليه في غد .

وذهب روتا في المساء الى كولونيا بأمر القنصل ، عبر منحدرات وعرة وطرق حجيرة . وعاد بعد نصف ساعة شاحب الوجه صامتا على غير عادته . لقد اعترضه مجهولون مسلّحون بدا عليهم التوحش ولاحت فيهم الشراسة واخذوا يحركون ايديهم باشارات سكارى وايماءات مجانين ، وراحوا يصيحون في وجهه قائلين : « استترك ايها الكافر قبل ان يفوت الاوان » . غير أن ما رآه في منزل كولونيا قد روّعه أكثر من ذلك أيضا :

لقي عناء كبيرا من أجل ان يدخل الى المنزل الذي كان يخرج منه بعض الاتراك هادئين بغير سلاح .

ظهر الخادم الالباني أولا وقد بدت عليه امائر اضطراب شديد وانفعال قوي . ان ارض حجرة المدخل مبللة بالماء . ولم يلبث صوت الطبيب ان بلغ سمع روتا صادرا عن غرفته .

ثم جاء الشيخ نفسه وهو في حالة تأثر عميق . ان وجهه الادكن الذي يشبه وجوه المصابين بفقر الدم قد غشّته الآن موجة من حمرة . وأخذ فكاه يصطكان . انه لا يكاد يتعرف الزائر . فهو ينظر اليه طويلا من خلال عينيه المغمضتين نصف اغماض كأنه ينظر الى بعيد ، وفي نظرته قسوة وغموض .

فلما شرح له روتا غرض زيارته وذكر له الشخص الذي أرسله اضطرب اضطرابا شديدا وقاطعه بقوله :

ــ لم يحدث شيء ولن يحدث شيء . ولا يقلقنّ أحد عليّ . انني

أدافع عن مواقعي • ما زلت هنا ، وسأظل أدافع عن مواقعي كما يدافع عنها جندي باسل •

ووقف الشيخ عن الكلام ، وردّ رأسه بقوة الى وراء وهو ينفخ صدره :

— نعم ، ما زلت هنا ! ما زلت واقفا ! أنظر !

— نعم نعم • ابق واقفا يا سيدي الدكتور •

كذلك أجابه روتا الوجل المتطيِّر مفأفئا • لم تسعفه طلاقة لسانه • وتراجع الى وراء دون ان يحول بصره عن الطبيب ، وهو يبحث بيده المرتعشة عن قبضة الباب ويردد :

— نعم نعم • ابق واقفا !

ترك الشيخ تصلبه ، ثم مال ببساطة على روتا المضطرب ، كأنه يريد ان يفضي اليه بسر ، ولكن ابتسامة ظافرة لم تلبث ان أضاءت حدقتيه ووجهه العجوز على حين فجأة • فقال وهو يهدد روتا باصبعه :

— قال عليه الصلاة والسلام : « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم • » • ولكنه قال أيضا : « انكم سترون ربكم عيانا • انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر • » •

ثم استدار فجأة وقد تجهم وجهه كمن لحقت به اهانة • ولم يكن روتا في حاجة الى هذا كله حتى يخاف ، فانتهز هذه الفرصة ، ففتح الباب في رفق واختفى اختفاء طيف ، دون ان يستأذن بالانصراف •

ضوء القمر يغمر المدينة • وأسرع روتا يسلك الشوارع الضيقة • ان رعدات قوية تسري في ظهره ، والظلال نفسها تخيفه • فلما صار أمام القنصل ، كان لا يقوى أن يثوب الى رشده ، وان يشرح تخلي كولونيا عن دينه شرحا واضحا ، وأخذ يؤكد تأكيدا قاطعا بغير توقف أن

الدكتور اصبح مجنونا . فلما سأله القنصل على أي اساس يبني رأيه هذا ، أجابه بقوله :

ــ مجنون ! مجنون يجب تكبيله . متى أخذ المرء يتكلم على الله وعلى الشيطان فهو مجنون . ثم ... ليتك رأيته ... ليتك رأيته ...

وقبل هبوط الليل راج في المدينة ان طبيب قنصلية النمسا أعلن على ملأ من الناس عن رغبته في اعتناق الاسلام ، وأن دخوله في الدين الاسلامي رسميا سيتم في الغد . ولكن القدر شاء ان لا يتم هــذا الاحتفال ، وان لا يعرف احد شيئا عن حقيقة الامر في هذا الموضوع .

ذلك ان نبأ آخر راج في المدينة منذ الصباح بسرعة أكبر من سرعة رواج النبأ الاول ، وهو ان الطبيب قد ُوجد ميتا ببستانه ، قربَ جدول ماء ، في حفرة تحت التلة التي يقع عليها منزله . وقد ُوجدت جمجمته مكسورة . ولم يستطع خادمه ان يقول في اية لحظة من الليل خرج من منزله ، ولا كيف انزلق هناك .

علم كاهن دولاتس بموت الطبيب ، فنزل الى ترافنك ليرى كيف يُدفن ؛ واستطاع ان يصل الى بيت كولونيا رغم الخطر الذي يهدده ، لكنه لم يستطع ان يمكث لحظة في ذلك البيت . ان ضخامة جسمه لم تمنعه من ان يهبط الطريق المنحدرة بسرعة ، مارا امام العصي والفؤوس يشهرها الاتراك المهتاجون ليمنعوه من المرور.وجد الخوجا يحضّر دفن الميت ، بعد ان شهد الشهود الثلاثة بأن الطبيب قد أعلن طائعا مختارا ، ثلاث مرات ، أنه يعتنق الاسلام ، ما دام يشعر أنه أقوى ايمانا من كثير من المؤمنين في ترافنك .

وجاء روتا أيضا بصحبة خفيره ، ولكنه حين لم ير في البيت الا اتراكا يذهبون ويجيئون ، أسرع يعود الى القنصلية ، تاركا لخفيره أن يشهد الدفن .

لو كان الوقت غـير ذلك الوقت ، ولو كان في القنـاق رئيس ، لتدخلت السلطات الاكليركية في الامر ، ولهبّت قنصلية النمسا تتوسط في الموضوع ، ولزار الراهب ايفو جميع الادارات وجميع الوجهاء الاتراك ؛ وربما كان يمكن عندئذ ان يُعرف مصير الطبيب المسكين على حقيقته . ولكن الفوضى والهياج كانا شاملين ، فما من أحد يسمع وما من أحد يحاول أن يفهم . والثورة التي كانت تهدأ شيئا بعد شيء قد استعرت مرة أخرى بسبب جثمان العجوز الذي اتخذته غنيمةً من الغنائم لا يمكن أن تتركها دون ان تقطع رءوسا أخرى وان تسفك دما جديدا .

في نحو الظهر من ذلك النهار ، دُفن العجوز على منحدر خَضِر من المقبرة التركية . ورغم أن البازار كان لا يزال مغلقاً ، فان عدداً كبيراً من الاتراك تركوا منازلهم ليشتركوا في جنـازة الرجل الـذي استترك على هذا النحو الغريب الذي لم يكن في الحسبان . وكان أكثر المشيّعين من أولئك الهائجين الذين نووا بالأمس أن يشنقوه ، فهم الآن يتناوبون حمل النعش في سهولة وخفة وقد تجهمت وجوههم والتمعت نظراتهم ، والكفن الذي يغطي الجثمان ينسدل على أكتافهم المختبئة تحت النعش .

انتهت تلك الفتنة اذن بأحـداثٍ مؤثرة غير متـوقعة . وأصبح الاتراك لا يقتادون الصربيين لاعدامهم . عادت المدينة الى جوها المبهم الداله الذي يحاول فيه كل انسان أن ينسى ماوقع ؛ وجمهور المحرّضين القساة انكفئوا الى أحيائهم كانكفاء ماء النهر الى مجراه بعد فيضان . رجع الأمن والنظام الى ما كانا عليه ، وأصبح الناس يحتملونهما أكثر مما كانوا يحتملونهما قبل ذلك . ان سلاماً متشابهاً يجثم على ترافنك ، كأن ترافنك لم تضطرب من قبل يوماً .

. . .

وكان من شأن عودة سليمان باشا سكوبلاك أن عجّلت استتباب الامن والنظام ، فسرعان ما عُرف تأثيرُ صوته القوي ويده الحاذقة .

منذ وصل الى ترافنك ، استدعى أعيان المدينة فسألهم عمّا جرى أثناء غيابه لهذه المدينة المسالمة وهؤلاء السكان الهادئين .

وقف أمامهم بجسمه النحيل وثيابه البسيطة التي عاد بها من الحرب، وبقامته الطويلة ، واضلاعه الرقيقة البارزة كأضلاع كلب سلوقي ، بعينيه الزرقاوين الواسعتين المحملقتين ، وقف يستجوبهم ويؤنبهم كأطفال . انه بعد اسبوعين قضاهما في ساحات القتال ، وشهرين قضاهما في أراضيه بكوبرس ، يرشق بنظرات قاسية هؤلاء الرجال المصفرّين الذين أضناهم التعب ولم يكادوا يصحون من سكرهم ويثوبوا الى رشدهم ، يسألهم منذ متى أصبح التجار قوّامين على العدالة يقضون ويحكمون ، ومن أسند اليهم هذه المهمة وأولاهم هذا الحق ، وما هي الاحكام التي أصدروها خلال هذه الايام العشرة ؟

ــ تقولون ان الرعية متمردة ، انها لا تطيع ، انها تستجيب لنداء غرائزها الشريرة . طيب . ولكن يجب أن تعلموا أن الرعية لا تعيش بروحها ، بل بروح الراعي . تعرفون ذلك حق المعرفة . فكذلك كان الامر دائماً : يزول الراعي فتزول الرعية . ولكن حين تهرب الرعية ، فابحث لك عن رعية غيرها ، لأنك لن تجد الاولى .

ان سليمان باشا يتحدث حديث رجل كان بالأمس يعاني أحداثاً خطيرة أليمة لا يستطيع سكان ترافنك أن يتصوروها في أفقهم الضيق، فكان عليه أن يشرحها لهم على نحو ما يقدر أن يشرحها .

ــ لقد أعطانا الله تعالى أمرين : الارض والسلطة . اجلس على أريكتك مرتاحاً واترك الاوغاد والرفّاض ترَ كيف يثور الفلاحون . ان عليهم أن يعملوا وان على الاغوات أن يراقبوا . كل عشب يقتضي

ندى ومنجلا معاً . ولا يجدي ندى بغير منجل . انظـر اليَّ أنا (قال ذلك متوجها الى الرجل الذي كان قربه ، شاعرا بشيء من الزهو) : لقد تجاوزت الخامسة والخمسين من عمري ، ومع ذلك أطوف كل يوم قبل الظهر بمزارعي جميعها حول بوجوينا ، ولهذا لا تجد عندي فلاحين أشرارا ولا تجد عندي تمردا على النظام .

لم يكن سليمان باشا بالكاذب ، ان عنقه الطويل ويديه المعروقتين السمراوين من الشمس ، الخشنتين كيدي عامل ، كل ذلك يشهد بصدق ما قال .

واذ لم يجد أحـد ما يرد به على كلام الباشا ، فان كل واحد كان يحاول أن يبتعد عنه ، وأن ينسى ما حدث ، وأن يُنسيه نفسه .

* * *

ما ان هدأت العاصفة حتى أخذ فون ميترر يجري تحقيقا حول تخلي كولونيا عن دينه تخليا لا يجد له تفسيرا ، وعن ميتته الغـريبة . ولم يكن ذلك من فون ميترر اكراما لشخص كولونيا ، فقد كان يعده دائما شخصا ليس له كبير وزن ، وانسانا لا يصلح للعمل . بل ان فون ميترر الذي يعرف الطبيب حق المعرفة ، كان يقدّر أن من الجائز جدا أن يعلن هذا الرجل اسلامه ، في لحظة من لحظات الغضب ، الى حين . وهو يقدّر أيضا أن من الجائز جدا أن يكون كولونيا قد انتحر أو سقط في حفرة بعد أن فقد وعيه في نوبة من فرط التهيج . أضف الى ذلك أن الفتنة قد هدأت ، وأن وجه الامور قد تغير ، وأن الناس وسلوكهم قد تبدلوا ، فليس من السهل كثيرا على فون ميترر أن يدرس الاحداث التي جرت في ظروف مختلفة ، في جو من الفوضى العـامة والحمى الدموية الشاملة .

ولكن فون ميترر رأى نفسه مضطرا الى اجراء ذلك التحقيق صيانة لسمعة الامبراطورية ، وتفاديا لوقوع هجمات جديدة على رعايا الامبراطورية أو موظفي القنصلية • وكان الراهب ايفو من جهته ، يحضه على طلب ايضاحات عن ترك كولونيا دينه ، وعن دفنه ، ارضاء للكاثوليكيين •

ولقد كان سليمان باشا ، منذ البداية ، يحب فون ميترر أكثر مما يحب دافيل ، ويشعر أن بينه وبينه صلة أوثق من صلته بدافيل الذي كان مضطرا الى مخاطبته بمخاتلة ترجمان • لذلك حرص على ترضّي القنصل النمسوي ، ونصحه مع ذلك بأن لا يبالغ كثيرا وأن لا يعقد الامر • قال له بتلك اللهجة الباردة الايجابية الدقيقة التي يراها الناس جميعا ، كما يراها هو نفسه ، قاطعة لا تُرد :

ـ أعلمْ أنك مضطر الى اجراء تحريات في موضوع يهم امبراطوريتك • وأعلم أنك لاتملك الا أن تجري هذه التحريات • ولكنني أرى مع ذلك أن من الغلو أن تشرك كل فرد من أفراد الامبراطورية في كرامة الامبراطورية كلها • ان في الامبراطورية أنواعا كثيرة من الناس ، على حين أن كرامة الامبراطورية واحدة •

ثم عرض له سليمان باشا ، بجفاف وبرود ، الاجراءات التي يمكن اتخاذها لتسوية هذا الامر على نحو يرضي الطرفين •

فأما تخلي كولونيا عن دينه فمن الافضل أن لا يُبحث قط ، لأن الفتنة قد بلغت من الاضطراب أن من المستحيل أن يُميَّز فيها بين الاسود والابيض ، بين ديانة وأخرى ، بين تركي ومستترك • والحق ان الديانة المسيحية لم تخسر كثيرا من تخلي كولونيا عنها ، كما ان الديانة الاسلامية لم تربح كثيرا من اعتناق كولونيا لها • وأما موت الطبيب على هذه الصورة الغامضة بعد تغييره دينه على ذلك النحو

الذي لم يقم عليه دليل قاطع ، فمن الافضل أن لا تتعمق بحثه ، فالميت لا يتكلم ، والانسان الذي لا ينظر الى أمام حين يسير يمكن جدا أن تزل قدمه وأن يقع في حفرة . هذا هو الحل الطبيعي أكثر من سائر الحلول ، وهو حل لا يصدم أحدا ولا يسيء الى أحد ، ففيم نبحث عن تعليلات أخرى لا نستطيع أبدا أن نبرهن على صحتها ، ولا تستطيع القنصلية يوما أن تفرض الاقتناع بها على أحد .

وختم سليمان باشا كلامه بقوله :

ـ أنا نفسي عاجز عن اكتشاف أولئك الهائجين والحمقى الذين نصبوا أنفسهم حكاما على ترافنك ، واسندوا الى أنفسهم حق مقاضاة الناس ، وأنت أيضا لن تستطيع أن تبعث من القبر المتوفى الراقد في مقبرة تركية لتستجوبه وتحقق معه . من ذا الذي يملك أن يصحح هذه الامور كلها ؟ لذلك أرى أن ندع هذه القضية ، وأن نهتم بأمور معقولة . واني لأفهم همك كأنه همي . فسأصدر أوامري باجراء تحقيق حول موت الطبيب ، لننتهي الى اصدار قرار مكتوب بعدم ادانة أحد في هذا الحادث ، فترسل أنت التقرير الى رؤسائك ، حتى لا يتعرض أحد للوم ، وحتى لا يبقى أي شك في أنفسنا أو في نفسك .

رأى فون ميترر أن هذا الحل هو الحل الممكن الوحيد ، ان لم يكن أفضل الحلول . ومع ذلك طلب الى مساعد الوزير أن يصدر بعض البلاغات التي يمكن أن توهم بشيء من الترضية للقنصلية ، فوافقه الوزير على ذلك ووعده به .

هذا التقرير الرسمي ، بالاضافة الى تقرير روتا عن حديثه الاخير مع الطبيب ، أرضى سلطات فيينا ، لأن التقريرين كليهما يصوران كولونيا على أنه رجل مختل العقل سيء الحظ . وكان من شأن ذلك كله أن أنقذ هيبة القنصلية . ولكن فون ميترر ظل في قرارة نفسه غير

راض عن مجرى الاحداث الاخيرة .

وفي حجرة عمله التي خيّم عليها الظلام كان القنصل يستعرض في خياله هذه الامور كلها ، شاحبَ الوجه ، شاعرا بأنه عاجز غير مسلّح في مواجهة ظروف معقدة هـذا التعقيد . لقد كان فون ميترر يقوم بواجبات مهنته بكثير من الاخـلاص والتفاني ، وينفق في سبيل ذلك جهودا فوق طاقته . وها هي ذي تلك الجهود تبـدو له الآن عقيمة باطلة لا طائل تحتها .

كان القنصل يرتعـد رغم حرارة شهر تموز ، بل انه ليخشى في بعض اللحظات أن يغمى عليه وأن ينزلق الى الهاوية التي تنفتح أمامه .

الفصل السابع عشر

هـذه الفتنة الثانية التي كانت أخطر كثيرا من الاولى ، لم تمسّ قنصلية فرنسا بشيء ، لأن محورها قد انتقل في آخر الامر الى جهة القنصلية النمسوية والدكتور كولونيا • ومع ذلك عاش سكان القنصلية الفرنسية خلالهـا أياما صعبة وليـالي مسهّدة • وباستثناء خـروج دي فوسيه من القنصلية مرتين قصيرتين ، لم يجرؤ أحـد من سكان هذه القنصلية أن يظهر حتى في النافذة • وقاسى دافيل أثناء الفتنة عذابا أشد من العذاب الذي قاساه أثناء الفتنة الاولى • ان المرء لا يتعود هذا النوع من الانفعالات ، بل ان عذابه بها ليشتد كلما تكررت •

وقد خطر ببال دافيل ، كما خطر بباله في المرة الاولى ، أن يترك ترافنك انقاذا لذويه • كان يخلو الى نفسه في غرفته ، فتراوده أفكار سود مرهقة ، ولا يتصور الا احتمالات أليمة • ولكنه يحرص على أن لا يفضح نفسه أمام خدمه أو موظفيه ، حتى ولا أمام امرأته • أضف ذلك أن هذه الايام الشقية التي عاشها هو ودي فوسيه معا ، لم تقرب بين الرجلين • كان دافيل يتحدث مع معاونه الاول عدة مرات في اليوم ، وكانا لانعزالهما كليهما تحت سقف واحد يلتقيان أكثر مما كانا يلتقيان في الايام العادية • ولكن ما من حديث من الاحاديث التي دارت بينهما في هذه الفترة شفى غليل دافيل وسرّى عنه • ان دافيل مضطر الى الاعتراف بأنه يعيش مع رجل أجنبي تبعده عنه عاداته ومفاهيمه ابعادا لا سبيل الى التغلب عليه ؛ هذا الى همومه الاخرى وخيبات أمله الاخرى وشكوكه •

عبثا برهن الشاب في تلك الظروف الصعبة على مزايا نادرة لا شك في قيمتها ، من قوة الشجاعة وحضور الذهن والخلو من الانانية خلوا مطلقا • فان هذه المزايا جميعا لم تستطع أن تتغلب على دافيل • اننا لا نقبل فضائل الآخرين ولا نعجب بها الا اذا ظهرت في صورة تغري آراءنا نحن •

كان دافيل ، على عادته ، ينظر الى كل ما يجري حولهما نظرة امتعاض واحتقار ، ويعلل كل شيء بأن أهل البلاد أناس متوحشون ممتلؤون حقدا وبغضاء ، ولا يهتم الا بأمر واحد هو انقاذ المصالح الفرنسية وحمايتها • أما دي فوسيه فكان ينظر الى الامور نظرة موضوعية تخيف دافيل • كان دي فوسيه يحلل هذه الفتن ، ويحاول أن يكتشف أسبابها ، ويريد أن يعللها وأن يلقي ضوءا على الظروف التي ولّدتها ، دون أن يعنى بالخسائر أو الارباح التي قد تنجم عنها بالنسبة الى القنصلية ، ودون أن يهتم بالافراح أو الاتراح التي قد تسببها للقنصلية • وكانت هذه الموضوعية الباردة المبرأة من الغرض التي يتمسك بها الشاب تضايق رئيسه كثيرا ، لا سيما وأنها علامة تفوق • ان شعور دافيل بتفوق مرؤسه عليه يؤلمه في الظروف الراهنة ايلاما خاصا •

ان كل حديث سواء أكان رسميا أم شبه رسمي أم خاصا ، يوقظ في نفس دي فوسيه طائفة كبيرة من الافكار ، ويجعله يدرس الامور دراسة حرة وينتهي الى نتائج موضوعية باردة ، على حين أنه يولّد في دافيل حنقا واهتياجا ، ويدفعه الى صمت مليء بالغيظ ، دون أن يلاحظ دي فوسيه ذلك •

ان هذا الفتى الذي يتحدر من أسرة غنية ، ويملك مواهب قوية ، وتتجلى في تفكيره الجرأة والنزوة والسماحة ، كان يتصرف تصرّفاً

من يملك الملايين.ولكن دافيل لايستفيد كثيرا من مواهبه . من ذلك ان درجته في الوظيفة تفرض عليه أن ينسخ تقارير القنصل ، ولكن القنصل لا يعهد اليه بهذا العمل : كان القنصل حين يحرر تقاريره لا يستطيع الا أن يتخيل أن هذا الفتى الذي يبدو أن لفكره مائة عين ، سينتقد هذه التقارير اذا هو نسخها ؛ كان لا يملك أن يمتنع عن تصور التأويلات التي سيتناول بها دي فوسيه كل جملة من الجمل التي هو بسبيل كتابتها ، ويحنقه أن لا يملك الامتناع عن تصور ذلك . ولهذا على كل حال انما كان يؤثر أن يتولى نسخ تقاريره الهامة بنفسه .

هكذا كان الفتى دي فوسيه حملا ثقيلا على دافيل ، بدلا من أن يكون معاونا مفيدا ، سواء فيما يتعلق بالعمل وفيما يتعلق بمخاوف دافيل من سير نابوليون الى فيينا . ان الخلافات بين الرجلين تبلغ من العمق أنهما لا يستطيعان حتى الاشتراك في فرحة . فحين بلغهما ، في نحو منتصف شهر تموز ، لحظةَ هدأت الفتنة ، نبأُ الانتصار في معركة واجرام ، الذي أعقبه توقيع معاهدة الصلح مع النمسا ، أحسَّ دافيل أنه يدخل شخصيا في مرحلة هدوء وطمأنينة ، وأن جميع الصعوبات قد أمكن تذليلها ، ولم يُفسد عليه فرحته الا ما لاحظه في الشاب دي فوسيه من قلة المبالاة وعدم الاكتراث : ان دي فوسيه لم يعرف الحماسة التي تعقب النجاح ، كما لم يعرف الشكوك والمخاوف التي سبقت هذا النجاح .

ان دافيل يتألم ويحتار حين يرى دي فوسيه على حالته هذه من الابتسام الدائم الذكي الذي لا يبالي . حتى لقد خرج عن صمته يوما فقال لزوجته : « لكأن صاحبنا مكتئب في الانتصارات » .

وجاءت نهاية الصيف ، على عادتها ، بأيام رائعة حارة هي للسعداء أجمل الايام ، وهي للاشقياء أخف الايام وطأة .

في شهر تشرين الاول من عام ١٨٠٩ وقع نابوليون وبلاط النمسا معاهدة الصلح ، وأنشئت المقاطعات الايليرية ، فضمت دلماسيا وليكا ، أي ضمت مناطق كانت تدخل في اختصاص دافيل . وشهدت لوبليانا ، عاصمةُ ايليريا الجديدة ، وصولَ حاكم عام ومدير عام ، أعقبه وصول هيئة بكاملها من رجال الشرطة ورجال الجمارك وموظفي الضرائب ، مهمتها انشاء الادارة وتنظيم التجارة والاشراف على المواصلات بين البلد الجديد والمشرق . وعُيِّن قائد دلماسيا الجنرال مارمون مارشالا ، اذ كان قد وصل في الوقت المناسب للاشتراك في معركة واجرام . فكان دافيل الذي يراقب هذه التبدلات التي تجري من حوله ، يشعر بارتياح حزين الى أنه أسهم في تحقيق الظفر لغيره وبقي هو في الظلام بلا مجد ولا جزاء . كان هذا الشعور يرضيه في حقيقة الامر ، بل كان يجعله أقوى على احتمال المصاعب التي يلقاها في ترافنك والتي لا يمكن أن يقللها أي انتصار .

ومع ذلك عاوده عذابه الابدي ، وهو عذاب لايستطيع أن يكاشف به أحدا . تُرى أهذا نصر نهائي حاسم ؟ ترى الى متى يدوم هذا السلام ؟

على هذا السؤال يتوقف سلام نفسه ومصير أولاده ، وهو لايهتدي الى جواب عليه لا في ذاته ولا فيما حوله .

في استقبال فخم مهيب ، نقل دافيل الى الوزير تفاصيل انتصارات نابوليون وشروط معاهدة النمسا التي تهم بلاد البوسنة المجاورة . فأعرب له الوزير عن تهانيه وتمنى أن تقوم بين البلدين المتجاورين أطيب الصلات ، وأن يستتب الامن والسلام على الحدود بفضل الادارة الفرنسية الحكيمة .

ولكن كلمات « الحرب » و « السلام » و « النصر » التي نطقها

الوزير بصوت صلب صَقع ، كانت تبدو في فمه أشياء ميتة بعيدة ، فاذا نظرت الى وجهه الذي يوشك أن يكون من حجر ، حسبت أنالامر أمر أحداث مضت وانقضت منذ زمن بعيد •

أما الدفتردار طاهر بك ، سكرتير الوزير ، الذي قابله دافيل في ذلك اليوم نفسه ، فقد كان أكثر أقل صمتا ، وأكثر نشاطا ، فحرص على أن يعرف شيئا عن الوضع في اسبانيا وفي بولونيا ، وحرص على أن يعرف بعض التفاصيل عن ادارة المقاطعات الايليرية الجديدة • ولقد كان يحاول معرفة هذه الامور لعقد بعض المقارنات طبعا ، ولكنه رغم كل لطفه وتودده واستطلاعه وذكائه ، لم تنفتح نفسه أكثر مما انفتحت نفس الوزير الابكم المتجهم الذي كان لا يكترث بشيء • ومع ذلك يمكن أن يستنتج المرء من كلامه أنه لا يتوقع أن تنتهي حروب نابوليون ولا أن تنتهي غزواته • ولكن حين أراد دافيل أن يدفعه الى شرح رأيه بمزيد من الوضوح ، تجنب الاجابة وقال :

ـ امبراطوركم ظافر ، وكل انسان يرى الظافر في تمــام الروعة وكمال الالق •

وختم كلامه وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

ـ وقديما قال الشاعر الفارسي « وجه المظفر كالورود سناءً » •

لا يدري دافيل ما هذا الشعور المزعج الذي يشعر به كلما رأى تلك الابتسامة الغريبة تغزو وجه طاهر بك الذي تنظر عيناه نظرات شزراء فيها شيء من حول • انه بعد كل حديث له مع طاهر بك يشعر بانزعاج لا يجد له تعليلا : يشعر بأنه جُرِّد من شيء ما • ان أحاديثه مع طاهر بك تدخل الى ذهنه مزيدا من الفوضى بدلا من أن تنتهي الى اتفاق أو الى حل ؛ وكان هذا يخيفه أشد الخوف • ومع ذلك فان طاهر بك هو بين رجال القصر الشخص الوحيد الذي يريد أن يهتــم بهذه الامور ويقدر على أن يهتم بها •

ما ان عقدت معاهدة الصلح حتى استأنفت القنصليتان علاقاتهما ، فأصبحتا تتزاوران ، وتعبران بسيول دافقة من الكلام عن ابتهاجهما بالصلح الاخير ، وتخفيان تحت هـذه الحماسة المفرطة الألم الـذي تحسَّانه من أن كلا منهما بذلت تلك الجهود كلهـا لايذاء الاخـرى في الاشهر الخالية . وحاول دافيل المنتصر أن لا يجـرح شعور فون ميترر في شيء ، ولكنه لم يفقد شيئا من شعور التفوق الذي يكسبه اياه النصر . وتكلم الكولونيل عن كل شيء في حنكة ودراية ، كرجل يرتبط بالحاضر أقل ارتباط ، ويعقد على المستقبل جميع الآمال . كان الرجلان يخفيان ما يعتمل في ذهنيهما من آراء ومخاوف حقيقية تحت ستار من تلك الاحـاديث الحزينة التي يختارها الكهول حين يظلون يرجون من الحيـاة شيئا ، دون أن ينقص هـذا الرجاء من شعورهم بعجزهم .

لم تتزاور السيدة فون ميترر والسيدة دافيل بعد ، غير أن السيدة فون ميترر التقت يوما بالفتى دي فوسيه الذي مات حبا بها منذ الربيع ثم رقد حبه لها في المقبرة الكبرى من خيبة آماله . انها أثناء تقدم الفرنسيين نحو فيينا ظلت تناصر « الكورسيكي العظيم الـذي لا يضارع » ، تناصره بكل قلبها ، في عنـاد وتهور ، فتسمم بذلك أيام وليالي فون ميترر الذي لا يطيق أية كلمة متهورة ، ولو قيلت بين جدران حجرة النوم ، والذي كان كل حديث يسبب له ألما جسيما اذا جاء في غير محله .

وفي ذلك الصيف عاد الى آن ماري هيامها القديم بالحيوانات . انها تندفع الآن اندفاعا شديدا مرضيا في حب الحيوانات على اختلافها من مواش وكلاب وقطط وبهائم ، حتى لتصاب بنوبات عصبية حقيقية حين ترى الابقار الصغيرة المسكينة ذات الوبر المهترىء ، تسـير على قوائمها النحيلة متعبة مضناة ، بينما تتجمع أسراب الذباب في حفـر أعينها الهادئة الوادعة . ان طبيعتها المفـرطة تحملها على الدفاع عن

الحيوانات في جميع الظروف وجميع الاماكن ، دون قصد ولا اعتدال ، ودون أية مراعاة وأية مداراة • وهكذا كانت تمضي الى أنواع جديدة من خيبة الامل • انها تجيء الى بيتها بكلاب عرج وقطط جرباء فما تزال تعالجها حتى تشفى ؛ وهي تطعم العصافير المرحة الساغبة ، وتؤنب الفلاحات اللواتي يحملن على أكتافهن دجاجا مقلوب الرأس ، بل هي في المدينة تستوقف العربات التي يلوح لهـا أن أحصنتها محملة فوق طاقتها ، فتأمر بانزال جزء من الحمل تخفيفا عنهـا ، وتطلب تضميد جروحها واصلاح الالجمة التي تجرحها ، أو تأمر بفك المحازم •

وتلك أوامر يصعب تنفيذها الى ابعد حدود الصعوبة في هذه البلاد التي لا يستطيع فيها أحد أن يفهم هذه المرأة ، ومن ذلك كانت تنشأ سلسلة من المشاهد المضحكة والنزاعات المؤلمة •

في ذات يوم أبصرت السيدة فون ميترر ، في شارع ضيق وعر ، عربة مملوءة بأكيـاس قمح • والعربة تجرها بقرتان تحاولان عبثا أن تصعدا المنحدر ، فجيء بحصان هزيل كدن أمام البقرتين ، وأخذت البهائم الثلاثة تتسلق الشارع بتأثير الصياح والصراخ • الفلاح يسير في محاذاة البقرتين ، يجلدهما تارة على الجنبين الضامرين وتارة على البوز في أطرى موضع • والى جانب الحصان يسير رجل يقال له ابرو زفالو ، تركي طويل القامة مكشوف الصدر ، يضرب الحصان بسوطه ضربات قوية : انه سكّير من حسالة ترافنك ، يتعاطى مهنة الحوذي في العادة ، ولكنه يتعاطى مهنة الجلاد أحيانا فيحرم الغجر من رزقهم •

لم تستطع البقرتان مع الحصان أن تجرا العربة • الفلاح يركض في كل لحظة يضع حجرا وراء احدى العجلات • البهائم تلهث وترتجف• الحوذي يحلف أغلظ الايمـان بصوته الاجش ، ان البقرة اليسـرى لا تجر • وقسرت البقرة مرة أخرى على أن تتحرك ، لكنها ما لبثت

أن تداعت ساقطة على ركبتيها . واستمرت البقرة الثانية تجر العربة مع الحصان . فاذا بامرأة القنصل تطلق عندئذ صرخة قوية ، وتهرع الى الحوذي والفلاح تقرّعهما والدموع في عينيها . سند الفلاح عجلة العربة من جديد ، ونظر الى المرأة الاجنبية حائرا مضطربا.ولكن زفالو المتبلل عرقا ، الحانق من البهيمة التي تتظاهر بالعجز ، التفت نحو المرأة التفاتا عنيفا ومسح عرق جبينه بسبابته اليمنى التي أخذ يلوّح بها ، وطفق يصيح لاعنا شقاءه ، ساخطا على من جاء به الى هذه الحياة ، ثم اقترب من آن ماري والسوط في يده ، وقال :

ـ وأنت ايتها المرأة ، اختفي من امامي ، ولا تتدخلي في عذابي ، والا ... قسما بالله .. لسوف ...

قال الحوذي ذلك وهو يشهر سوطه . فاستطاعت آن ماري أن تبصر وجهه المكشّر المجعّد المتغضن ، المملوء ندباتٍ وعرقا وغبارا ، المريعَ الحاقد الناقم . انه وجه انسان مرهق مضنى ، يكاد يبكي من فرط التعب . ارتاع الخفير ، فدفع الحوذي عن السيدة فون ميترر وعاد بها الى باب القنصلية باكيةً من شدة الغيظ عاجزة .

ظلت السيدة فون متيرر يومين كاملين ترتجف اضطراباً من تذكر ذلك المشهد ، فكانت تسأل زوجها من خلال الدموع ان يطلب معاقبة هؤلاء الناس جميعا على قسوتهم وعلى الاهانة التي الحقوها بها . وكانت تستيقظ في الليل منتفضةً مذعورة ، فتثب من سريرها وتأخذ تدفع خيال زفالو من أمام عينيها وهي تطلق صيحات قوية .

وكان القنصل يعلم ان لا حيلة له في الامر ، فما يزيد على أن يهدىء زوجته بكلام طيب . ان العلف الذي تحمله العربة ، كان مرسلا الى مستودعات الوزير . ولئن كان زفالو هذا رجلا حقير الشأن فليس يمكن أن يُصنع به شيء ، ومن الخير أن لا يقحم القنصل

نفسه في شأن معه • ثم ان الذنب ذنب امرأة القنصل ، فهي التي ما تنفك تتدخل في امور لا تعنيها تدخلا ليس في محله • على أنها الآن عاجزة عن التفكير ولا يمكن اقناعها بشيء • لذلك كان القنصل يكتفي بتهدئتها ما وسعه ان يهدئها ، يعدها بتنفيذ ما تطلبه كما يوعد بذلك طفل ، ويصبر على الملامات والتقريعات التي تجرح بها كرامته ، وينتظر ان تنقضي النوبة كما انقضت نوبات لها من قبل •

• • •

وفي قنصلية فرنسا حدث شيء جديد •

ان السيدة دافيل حامل منذ أربعة أشهر • وهي ما تزال على عهدنا بها خفيفة نجيلة ، تجري في البيت والحديقة بسرعة وبغير ضوضاء ، وتقوم باستعداداتها وتشتري حاجاتها وتشرف على كل شيء • ان حملها الرابع هذا شاق ، ولكن الهموم الجديدة بل والاوجاع الجديدة تذهلها بعض الشيء عن الالم الذي يسببه لها فقد ابنها الصغير ذاك على حين فجأة ، وهي ما تزال تفكر فيه دون ان تكلم عنه أحدا •

وهذه أيضا أواخر ايام دي فوسيه بمدينة ترافنك • ان دي فوسيه ينتظر بريدا ذاهبا من القسطنطينية او سبليت الى باريز من أجل ان يرحل • لقد استدعي الى وزارة الشئون الخارجية ، ولكنه أُبلغ أنه سيلتحق بسفارة القسطنطينية في بحر السنة • ولقد جمع لكتابه عن البوسنة جميع عناصره ، فهو راضٍ عن أنه عرف هذه البلاد ، لكنه سعيد بأنه سيرحل عنها • لقد قاوم صمت البوسنة بجهود كثيرة ولقي في سبيل ذلك محنا كبيرة ، وهو يتركها الآن منتصرا هادىء البال •

وزار دي فوسيه دير جوتشا جورا زيارة اخيرة ، بصحبة السيدة دافيل ، في يوم ميلاد العذراء • لم يشترك دافيل في هذه الزيارة ،

لأن العلاقات بين القنصلية والرهبان كانت متوترة جدا . ان الصراع بين الحكومة الامبراطورية وبين الفاتيكان قد بلغ أوجه ، فالبابا سجين ونابليون محروم . اصبح الرهبان منذ عدة اشهر لا يزورون القنصلية . ومع ذلك استُقبل دي فوسيه استقبالا حسنا بفضل حضور السيدة دافيل . أعجب دي فوسيه بكياستهم في التوفيق بين ما يجب ان يقابلوا به الضيوف وبين ما يفرضه عليهم واجبهم وتمليه عليهم وظيفتهم . كان في وضعهم شيء من التحفظ والتصلب اللذين تتطلبهما الكرامة الجريحة ، وكان فيه ، في الوقت نفسه ، ذلك الصدق الذي تفرضه تقاليد الكرم وعادات الضيافة وتفرضه العاطفة الانسانية المحلقة فوق النزاعات المعارضة والظروف الطارئة . كان في وضعهم شيء من كل شيء ، على قدر مناسب ومزاج معتدل ، وكان كل شيء يترابط ترابطا منسجما يحك الزوايا ويعبر عن نفسه بلطف لا تكلف فيه ، وحركات طبيعية وهيئة من غير تصنع . من ذا الذي كان يمكن ان يتخيل مثل هذا الاعتدال لدى اناس غلاظ جفاة لهم عادات فظة وشوارب متهدلة وجماجم مدوّرة محلوقة على نحو مضحك ؟

مرةً أخرى رأى دي فوسيه في ذلك ميزةً من مزايا العاطفة الدينية لدى هؤلاء الفلاحين الكاثوليكيين ، ولاحظ حياة الفرنسيسكانيين البوسنيين مرةً أخيرة . ومرةً أخيرة أيضا تناقش مع « سيادة خصمه » الراهب جوليانو .

كان النهار جميلا دافئا . الاشجار ما تزال خضراء ، ولكن الثمار قد نضجت . وسرعان ما غصّت كنيسة الدير الواسعة المبيّضة بالكلس، بالفلاحين الذين يرتدون ملابس الاعياد وهي كلها بيضاء تقريبا . مضت السيدة دافيل الى الكنيسة للصلاة ، بينما ظل دي فوسيه يتجول في بستان الخوخ مع الراهب جوليانو الذي لم يشترك يومئذ في اقامة القداس .

وعلى عادتهما في كل لقاء ، تحدث الشابان عن العلاقات بين الكنيسة ونابليون ، وعن البوسنة ، وعن وظيفة رجال الدين ودورهم ، وتحدثا أخيرا عن حظ هذا الشعب الذي ينتمي الى هذا العدد من الديانات .

كانت جميع نوافذ الكنيسة مفتوحة ، فصوت جرس الراهب الذي يقوم بالقداس يُسمع من حين الى حين ، وكذلك الصوتُ الضخم الشائخ ، صوت رئيس الرهبان .

ان الشابين يجدان في المناقشة من اللذة ما يجده الاطفال الاصحاء في اللعب . وحديثهما المنسوج من بساطة وآراء مرسلة وعناد عقيم ، يجري بلغة ايطالية ركيكة . وهما يدوران في حلقة مفرغة فيعودان دائما الى النقطة التي انطلقا منها .

يجيب الراهب على جميع ملاحظات الشاب بقوله :

ـ لن تستطيع ان تفهمنا أبدا .

ـ اعتقد انني ، في ختام اقامتي هنا ، أصبحت أعرف ظروف بلادكم ، خلافا لكثير من الاجانب الآخرين ، واصبحت أفهم قيمتها المختفية كما أفهم عيوبها ونقائصها التي تفجأ هؤلاء الاجانب فيسرعون الى اداتتها . ولكن اسمح لي أن أقول لك ان الموقف الذي تتخذونه ، انتم معشر الرهبان ، موقف غريب لا استطيع فهمه .

ـ قلت لك انك لن تستطيع ان تفهمنا أبدا .

ـ بل أنا أفهمكم حق الفهم أيها الاخ جوليانو ، ولكنني لا أحبِّذ ما أفهم وما أرى . ان هذه البلاد في حاجة الى طرقات ، الى اطباء ، الى علاقات بسائر العالم ، الى عمل ، الى حركة . صحيح انكم لن تصلوا الى شيء ما ظلت السيطرة التركية قائمة ، وما لم تنشأ مواصلات بين البوسنة واوربا . ولكن عليكم ، معشرَ الرهبان ، وانتم الطبقة

المثقفة الوحيدة في هذه البلاد ، ان تهيئوا شعبكم لهذا وان توجهوه في هذه الطريق • فما الذي تفعلونه في الواقع ؟ انكم تفعلون عكس هذا ، فتؤيدون السياسة الاقطاعية المحافظة التي تنهجها الدول الرجعية في أوروبا ، وتحرصون على الاتحاد بهذا الجزء الزائل من اوروبا • أنا لا افهم هذا ، ذلك ان شعبكم ليس مثقلا لا بتقاليد بالية ولا بأوهام طبقية ، فمن الواجب ان يكون في صف البلدان الحرة والقوى الطليعية•

فقاطعه الراهب قائلا :

ــ ما نفع الحضارة دون ايمان بالله ؟ لن تبقى هذه الحضارة في أوروبا طويلا ، وما بقيت فلن تحمل الينا الا الاضطراب والشقاء •

ــ أنت مخطيء ايها الاب المحترم ، انت مخطيء كل الخطأ • لا خير في مزيد من هذا الاضطراب في بلادكم • ان شعب البوسنة موزع بين ثلاث ديانات او اربع ، والطوائف الدينية منقسمة انقسامات دامية ، منفصلة عن سائر اوروبا ، أي منفصلة عن العالم والحياة بسدٍ حصين • حذار ان تتحملوا ، انتم الرهبان ، مسئولية خطيئةٍ تاريخية ، حذار أن تجهلوا دوركم وان توجهوا شعبكم في طريق خاطئة • انكم لا تهيئون شعبكم للحدث الذي ينتظره في يوم من الايام لا محالة • ان مسيحيي الامبراطورية العثمانية كثيرا ما يتحدثون عن التحرير والحرية • ولكن قيل منذ زمن قديم : ليس المهم ان تنتزع حريتك ، بل المهم ان تصبح جديرا بها • وما لم تقبلوا على تعليم احدث وما لم تتبنوا نظرة أوسع وأقرب الى التفكير الحر ، فلن يجديكم شيئا ان تتحرروا من السيطرة التركية • انكم خلال هذه القرون الطويلة من الاحتلال التركي قد بلغتم من الاخذ بعادات المحتل انكم لن تستفيدوا كثيرا اذا هو جلا عن أرضكم تاركا فيكم آفاته وعيوبه من كسل وتعصب وحب للسيطرة وحرص على القوة الوحشية • الحق ان تحرركم من المحتل لن يكون

تحررا ، لانكم لن تكونوا جديرين بالحرية ولن تعرفوا كيف تنتفعون بالحرية • لن تكونوا الا كالاتراك أنفسهم : عبيــدا أو مستعبِدين • لا شك ابدا في ان بلادكم ستدخل يوما في اطار اوروبا ولكنها قد تدخل فيه منقسمة مثقلة بميراث من المفاهيم والعادات والاهواء التي لم يبق لها وجود في أي مكان ، والتي ستكون اشباحا من الماضي تعوق نموها السليم • والشعب مع ذلك لا يستحق هذا • انك لترى انه ما من شعب وما من بلد في أوروبا يقيم ازدهار حياته على أساس الدين •

ـ هذه هي المصيبة !

ـ بل المصيبة ان تعيشوا كما تعيشون •

ـ المصيبة ان نعيش بلا رب ، وان نتخلى عن ايمان ابائنا واجدادنا • ونحن على أخطائنا وعيوبنا لم نتخل عن هذا الايمان ، ويمكن ان تقول عنا ما قاله احد الناس عن نفسه يوما : أثمت كثيرا لكنني لم اكفر [١] •

كذلك ختم الاخ جوليانو كلامه سعيدا بأنه استطاع ان يستشهد بقول مأثور •

ان مناقشة الشابين تعود الى نقطة البداية • وكانا كلاهما مقتنعين بآرائهما اقتناعا راسخا ، ولكن ما من احد منهما يعبر عن فكره بوضوح كاف او يصغي الى كلام صاحبه اصغاء كافيا •

وقف دي فوسيه قرب خوخة هرمة مائلة مغطاة بأوراق كثيفة خضراء

ـ هل يمكن ان لا يكون قد خطر ببالك أبدا ان هذه الشعوب التي تسمى في ظل الاحتلال التركي بأسماء مختلفة ، وتنتمي الى ديانات شتى ، ستكون مضطرة في ذات يوم ، حين تنهار الامبراطورية العثمانية

---

(١) باللاتينية في الاصل .

وتجلو عن هذه المناطق ، ان تجد لحياتها اساسا مشتركا ، وان تهتدي الى صيغة اوسع وافضل وأقرب الى العقل وادنى الى الروح الانسانية ؟

ــ اننا معشر الكاثوليكيين ، نملك هذه الصيغة منذ زمن طويل ، وهي « عقيدة » الكنيسة الكاثوليكية • ولسنا في حاجة الى صيغة أخرى •

ــ ولكنك تعلم أن مواطنيكم الآخرين في البوسنة والبلقان لا ينتمون جميعا الى هذه الكنيسة ولن ينتموا اليها يوما • وأنت ترى أن الشعوب في أوروبا لا يرتبط بعضها ببعض على هذا الاساس • فلا بد اذن من الاهتداء الى صفة مشتركة أخرى •

كانت تراتيل المصلّين تصل الى الشابين من الكنيسة • أصواتهم في أول الامر مترددة ثم هي تتحد ثم هي تعلو • انهم جميعا ، رجالا ونساء ، ينشدون بلهجتهم القروية ، البطيئة قليلا : « جسد يسوع المقدس ••• » •

ويعلو الترتيل مزيدا من العلو • ان الكنيسة المتراصة ، الواطئة ، التي لا ناقوس لها ، ذات السقف الخشبي الاسود المائل قليلا من الصدر الى الهيكل ، تهتز وتدوي كسفينة نُشرت أشرعتها في الريح وامتلأت بمنشدين لا يُرون •

سكت الشابان كلاهما • تمنى دي فوسيه أن يعرف هذا النشيد الذي ينشده الشعب بهذا الايمان كله وهذا التقى كله • فترجمه له الراهب كلمة كلمة • انه يشبه النشيد القديم :

السلام عليك أيها الجسد الحقيقي
المولود من مريم العذراء

وفيما كان الراهب يحاول أن يتذكر كلمات الفقرة التالية ، كان

الشاب يتابع محاولته ذاهلا . ذلك أنه يصغي الى اللحن الحزين الرتيب الخشن الذي يصل الى اسماعه تارة كثغاء قطيع كبـير من الخراف ، وتارة كأنين الريح في الغابات المظلمة . تساءل : هل يمكن أن يكون انتحاب الرعاة هذا الذي يترجع في الكنيسة معبِّرا عن نفس العقيدة التي يعبر عنها الغناء الوادع الذي يغنيه الكهنة المطهَّمون أو التلامذة الشاحبون في الكاتدرائية الفرنسية ؟ « نباح كلاب » ، كذلك قال بينه وبين نفسه ، متذكرا رأي دافيل وفون ميترر في غناء موسى . وابتعد على غير ارادة منه ، هربا من هذا اللحن ، كما يشيح المرء بوجهه حتى لا يرى منظرا أليما ، ثم استمر يتبادل الآراء مع الاخ جوليانو ، مع ثبات كل منهما على مواقعه .

ــ انني لأتساءل منــذ وصلت الى البوسنة ، كيف لا تستطيعون أنتم الرهبان الذين رأيتم العالم وتعلمتم في المدارس ، والذين تملكون نفوسا طيبة ، وتنعمون بمزية الايثار حقا ، كيف لا تستطيعون أن تروا الامور نظرة أوسع وأقرب الى التحرر ، كيف لا تدركون مقتضيات العصر ، ولا تشعرون بالحاجة الى تقريب الانسان من أخيه الانسان ، بغية أن يبحثا معا عن حياة كريمة سليمة ؟

ــ مع نادي اليعاقبة ، أليس كذلك ؟

ــ يا أخ جوليانو ، منذ زمن طويل لم يبق في فرنسا نوادي يعاقبة .

ــ نعم ، لانها انتقلت جميعا الى الوزارات والى المدارس .

ــ ولكنكم هنا بغير مدارس وبغير تنظيم ؛ وحين ستصل اليكم الحضارة في يوم من الايام ، لن تجدكم متأهبين لاستقبالها ، وستظلون نهبا للانقسام والاضطراب ، ستظلون كتلة لا شكل لها ولا اتجـاه ولا هدف ولا روابط بسائر الانسانية ، بل ولا صلات بأقرب النـاس اليكم من أهل وطنكم وسكان بلادكم !

ــ لكن لنا ايماننا بالله يا سيد !

ــ نعم لكم ايمانكم بالله • ولكن أأنتم وحدكم مؤمنون ؟ ان ملايين الناس مؤمنة بالله • وكل انسان يؤمن بالله على طريقته الخاصة • ولكن هذا لا يعطي أحدا حق الانعزال ، ولا يجيز له أن يحبس نفسه في زهو مسيء وغرور ضار ، وأن يدير ظهره لسائر الانسانية ، بل ولجيرانه الاقربين •

وأخذ المصلون يخرجون من الكنيسة ، بينما الغناء مستمر استمرار اهتزاز الناقوس الذي أصبحت دقاته تتباعد تدريجا • وجاءت السيدة دافيل فقطعت حبل الحديث بين الشابين •

وتناولوا طعام الغــداء في الدير ، ثم عادوا الى ترافنك • فكان الاخ جوليانو والشاب دي فوسيه ما يزالان يتناكدان أثناء الغداء ، ثم افترقا الى الابد افتراق صديقين حميمين •

مضى دافيل بمعاونة دي فوسيه الى القصر لتحية الوزير واستئذانه بالسفر • فاستطاع القنصل الشاب أن يرى ابراهيم باشا مرة أخرى • انه الآن أشد ثقلاً وأكثر جهامةً منه في أي وقت مضى ، وهو يتكلم بصوت أجش عميق ، يدحرج ألفاظه بطيئةً ، ويحرك أثناء ذلك فكه الاسفل كأنمــا هــو يطحن الكلمات طحنــا ، ويحــاول أن ينظــر الى الفتى بعينيه اللتين أكلهما التعب • ولكن كان من السهل على من يراه أنه مستاء ، وأن ذهنه يطوف في مكان آخر ، وأنه عاجز عن فهم هؤلاء الشباب الذين يتنقلون ويستأذنون بالسفر ويرحلون ، والذين لا يحرص على فهمهم وانما يحرص على الخلاص منهم •

وقام دي فوسيه بزيارة رسمية لقنصلية النمسا ، فكانت زيارةً سريعة انتهت نهاية موفقة • استقبله الكولونيل بوقار حزين ، ولكن بلطف ومودة أيضا ، واعتــذر اليه عن أن السيدة فون ميترر تعاني

صداعا شديدا فلا تستطيع أن تستقبله •

أما فراق دافيل فكان أكثر ازعاجا واملالا • فالى جانب التقارير المكتوبة التي حمّله اياها دافيل ، عهد اليه بنقل رسائل شفهية معقدة مسرفة في الرهافة • وكانت هذه الرسائل الشفهية تتبدل وتضاف اليها توصيات أخرى وتحفظات جديدة كلما اقترب يوم الرحيل ، حتى أصبح دي فوسيه في آخر الامر لايميز ما ينبغي له أن يذكره عن الحياة في ترافنك وعن العمل بالقنصلية ، ذلك أن مطالب الوزير وملاحظاته أصبحت لا نهاية لها ، فبعضها موجه الى الوزير ، وبعضها موجه الى الوزير والوزارة ، وبعضها موجه الى دي فوسيه نفسه ، وبعضها لا تدري من هو الشخص الموجه اليه•وقد بلغ دي فوسيه من سأمه من هذه الاحتياطات وهذه الفذلكات وهذا التفيهقات التي يلف بها القنصل رسائله الشفهية هذه أنه كان يتمنى لو يتثاءب ، ويأخذ يفكر في شيء آخر •

وسافر في اليوم الثاني من شهر تشرين الاول ، في يوم بارد صقع أثناء عاصفة ثلجية وافت المدينة قبل الاوان • في جو كهذا الجو انما وصل قبل ذلك الى هذه البلاد •

بدلا من أن تختفي ترافنك شيئا فشيئا من أمام عيني الفتى الذي يبارحها ، امتصها خياله كلّها دفعة واحدة • وعلى هذه الصورة انما بقيت ترافنك في ذكريات دي فوسيه • ان آخر شيء أبصره هو القلعة وقد تضاءلت حتى صارت بحجم قبعة ، والى جانبها المسجد مع مئذنته الجميلة • والى يمين القلعة ، على منحدر حجير ، رأى بخياله المنزل المتداعي الذي زار فيه كولونيا •

وفي الطبيب كولونيا انما فكر الفتى وهو يتجه الى توربه ، على طول الطريق المستوية الجميلة ، فكر فيه ، وفي مصيره ، وفي الحديث

الغريب الذي قام بينهما ليلتذاك .

« لئن كنتم تعيشون هنا ، فانكم تعلمون أن مقامكم الى حين ، وأنكم عائدون الى بلادكم عاجلا أو آجلا ، وواجدون هنالك ظروفا من الحياة أكرم وأفضل ، فتستيقظون عندئذ من الكابوس ، وتتحررون منه ، بينما نحن لا نستطيع ذلك أبدا ، لان هذه الحياة هي الحياة الوحيدة التي نملك أن نحياها » .

وخيل اليه أنه يشم الرائحة التي كانت تشيع في غرفة الطبيب كما شمَّها يومَ كان جالسا قربه في حجرته الملأى بالدخان ؛ وخيِّل اليه ، وهو في حالة من الانفعال العميق ، أنه يسمع صوته يسرُّ اليه بدمدمة دافئة خفية :

« وفي النهاية ، في نهاية النهايات ، سيجري كل شيء على خير ، وسينتهي كل شيء الى انسجام » .

بصحبة الطبيب الايليري وحده انما غادر دي فوسيه ترافنك . على أن ذلك لم يدم الا لحظة ، لأن الشباب لا يتلبث على ذكرياته ، ولا يحتفظ بخواطر واحدة زمنا طويلا .

الفصل الثامن عشر

ذكرنا أن حياة عائلية حقيقية قد عمرت القنصلية الفرنسية منـــذ الايام الاولى ، حياة عائلية تعرف ولادة الاطفال وتعرف موت الاطفال ، حياة عائلية تقوم فيها المرأة بدور كبير ، ولا يعرف العالم الخارجي آلامها وأفراحها وجمالها ، ولا تستطيع تبدلات العالم ومصاعبه وهمومه أن تفسد روابطها • وكانت هذه الحياة العائلية تشع وتشرق من القنصلية فتحقق من النتائج ما لا تستطيع أن تحققه القوة أو الرشوة أو الاقناع ، فتقرب أهل القنصلية من سكان المدينة ولو الى حين ، رغم كل ما يشعر به هؤلاء السكان من كره للقنصلية نفسها •

حين فقدت أسرة دافيل صغيرها فجأة منذ سنتين حرص جميــع الناس بلا استثناء على استطلاع تفاصيل هذه الفاجعة وشاركوا فيها • وظل الناس بعد ذلك مدة طويلة يلتفتون بمودة وتعاطف حين تمر بهم السيدة دافيل • أضف الى ذلك أن الخدم ونساء ترافنك أو دولاتس (والنساء اليهوديات خاصة) قد أشاعوا في المدينة انطباعاتهم عن الحياة العائلية المتحدة التي تعيشها أسرة دافيل ، عن « يدي السيدة دافيــل الملائكيتين » ، عن براعتها وحذقها ، عن روح الاقتصاد عندها ، عن نظافتها وشهامتها • كان الناس ، حتى في البيوت التركية التي لا يجري فيها حديث عــن القنصليتين دون بصاق ، يعرفون أن امرأة القنصل الفرنسي تحمم أولادها قبل النوم ، ويعرفون الثياب التي يرتديهـــا الاطفال ، ويعرفون كيف يمشّطون ، ويعرفون لون الشرائط التي تزين شعرهم •

ان النساء في جميع بيوت ترافنك تتابع حمل السيدة دافيل باتنباه ، وتهتم بولادتها اهتمامها بولادة جارة من الجارات ، وتحاول أن تعرف أين هي من يوم الوضع وكيف حالها ، وتراقب تبدلات جسمها ، وتعنى باستعداداتها لساعة المخاض • ان الولادة والامومة أمران خطيران عند هؤلاء الناس الذين لاتزخر حياتهم بكثير من الاحداث والافراح •

فلما اقتربت لحظة الولادة ، وصلت الى القنصلية امرأة عجوز اسمها السيدة ماتيشتش ، وهي أرملة تاجر محترم فقد ثروته • انها تعد خير قابلة في دوتسه ، فما من ولادة تتم بدونها في البيوت التي أوتيت حظا من اليسار • والسيدة ماتيشتش هذه هي التي نشرت أكثر من غيرها ما أتيح لها أن تعرفه من حقائق عن السيدة دافيل ربة البيت والام التي لا نظير لها • فكانت لا تكل عن مدح النظام الذي يسود البيت ، وأسباب الراحة التي تتوفر فيه ، والاشياء الجميلة التي يقع عليها بصر الناظر في داخله ، والنظافة التي تشيع في هذه « الجنة » : حدثت الناس عن طيب رائحة المنزل ، عن دفئه وضوئه في أصغر ركن من أركانه ، وذكرت لهم كيف كانت السيدة دافيل ، وهي في أوج آلام الخلاص ، تصدر أوامرهامن على سريرها ولو بغمز من عينيها ، وتملي اجراء آخر الترتيبات في حنكة ودراية • وتحدثت عن ايمانها وتقاها ، وعن احتمالها العجيب لآلام الوضع ، وتحدثت عن الوقار والحنان في موقف القنصل الذي لا يستطيع المرء أن يجد له نظيرا في ترافنك • حتى لقد ظلت السيدة ماتيشتش ، بعد ذلك بسنين كثيرة ، تضرب مثلا بامرأة قنصل فرنسا للامهات الشابات اللواتي يستسلمن للمخاوف والالم ، من قبيل التطمين والتشجيع •

ووُلدت بنت في آخر شهر شباط •

هذه أسر من ترافنك ودولاتس تُرسل أولى الهدايا • لئن لم يألف الناس وجود القنصليتين الى الآن ، انهم ليحسون بالقرب من أسرة دافيل في هذه المناسبة • الخادمات يصلن الـى القنصلية محمَّرات الوجوه ، يخطرن بجلابيب الساتان بخطى خفيفة متبخترة كخطى البط على الجليد ، ووراءهن خادم مرتعد الفرائص محمر الاذنين من البرد ، يتقاطر الماء على أنفه ويتجلد ، وهو لا يستطيع مسحه لان يديه مشغولتان بالهدايا التي لُفّت بعناية وأناقة • وكثير من نساء البكوات يرسلن عطاياهن مع غجرية يكلفنها بالسؤال عن صحة « السيدة » • وتُصفّ الاشياء في حجرة النفساء : أطباق ملئت بالبقلاوة ، علب صُفّ فيها التمر مواربا كقطع الخشب ، أقمشة مطرّزة ، كبب حرير ، قناني خمرة وقوارير راكي ، أصص نباتات منزلية •

وكما شاركت السيدة فون‌ميترر في الحداد مشاركة قوية ، كذلك شاركت في الحدث السعيد • أهدت الى الطفل ايقونة ايطالية جميلة جدا ، من ذهب مرصّع بأزهار مينا سوداء وماس ، وهي حلية لا شك أنها باهظة الثمن ، وأسرعت تقص عن هذه الحلية قصة مؤثرة معقدة • وعادت بعد ذلك عدة مرات ، مع أسف غامض على أن الامور تجري على هذه الصورة البسيطة بلا تعقيدات ولا أحداث مفاجئة • كانت تجلس قرب النفساء طويلا تتحدث بغير توقف في أمور لا علاقة لها بالمولود الصغير ، ولكنها تدور على حظ النساء في المجتمع وعلى المصير والقدر عامة • فكانت السيدة دافيل ، الساذجة النحيلة ، تنظر اليها من على سريرها الابيض ، وتصغي الى كلامها دون اظهار أية امارة من امارات الرضى والقبول •

وكانت هدية الوزير أضخم هدية وأجمل هدية طبعا : طبق كبير من أطباق البقلاوة مغطى بغلالة من حرير ثم بقطعة كبيرة من بروكار وردي زاه • وقد حمل الهديةَ عدد من الخدم يشق لهم الطريق أحـد

الموظفين ، وقد اجتازوا المدينة عند الظهر تماما •

كان لا بد من اختيار الطبق والقماش • وقد أصدر الوزير أمره بأخذ أكبر طبق في القصر ، ولكن باقي حاول في أول الامر أن يقول انه لا داعي الى ارسال شيء ، لان ارسال الهدايا في هذه المناسبة ليس من عادات الفرنسيين • فلما لم يطعه أحد ، خبّأ الطبق الكبير ، وأظهر طبقا أصغر منه ، ولكن خدم طاهر بك لم يلبثوا أن اهتدوا الى الطبق المخبأ ، فأخذ الخازن ينق بصوته النحيل الذي يخنقه الغضب (ان دافنا الذي يتوصل الى معرفة كل شيء هو الذي علم بالعراقيل التي حاول أمين الصندوق أن يضعها ليحول دون ارسال الهدية) ، ويقول حانقا من شدة حرصه على الاقتصاد :

ــ خذوا طبقا أكبر أيضا ••• ذلك أفضل • وزعوا كل شيء • قدموا كل شيء هدايا ، ما دمتم تبذرون كل شيء على كل حال •

حتى اذا رآهم يأخذون أجمل قطعة من القماش غطاءً للطبق ، فقد صوابه ، وطفق يرغي ويزبد ، وارتمى على الارض فوق القماش يشده اليه ويتلفف باطرافه :

ــ لا !•• لن تأخذوه !•• لن أعطيه !•• لصوص !•• نهابون ! أعطوا من مالكم لا من مال غيركم !

ولم يُنتزع الغطاء من باقي الا بعد لأي • فكان يئن أنين جريح ، ويصب لعناته على قنصليات الدنيا بأسرها ، وعلى كل مولود وكل والدة في العالم كله ، ويشتم العادات الحمقاء البلهاء ، ويسب الهدايا ، بل يسب وزيره الاحمق الذي لايعرف كيف يحمي ماله وكيف يصونه ، وانما يطيع سكرتيره المتلاف المضياع الذي ما يني يعطي ذات اليمين وذات الشمال للاتراك والكفار على السواء •

لم تعمد الطفلة التي ولدت بالقنصلية الفرنسية الا بعد شهر ، حين انتهى البرد الشديد الذي لم يظهر تلك السنة الا في أواخر الشتاء . وحملت الطفلة اسم « أوجيني ستيفاني آنونسياد » ، وسجلت في سجل أبرشية دولاتس على ورقة اليوم الخامس والعشرين من شهر آذار عام ١٨١٠ ، وهو يوم عيد البشارة .

• • •

عام هادىء زاخر بالوعود ، يحمل الى كل انسان شيئا مما كان يتمنى وما كان ينتظر .

وتلقى فون ميترر أخيرا تعليمات دقيقة عن الموقف الذي يجب أن يقفه من القنصلية الفرنسية : « كونوا في علاقاتكم الخاصة بهم أصدقاء مخلصين ، أما أمام النـاس ، الاتراك منهم والمسيحيين ، فلا تظهروا صداقتكم لهم ، بل أظهروا شيئا من البعد والتحفظ » . فأصبح يسهل على فون ميترر ، وقد تسلح بهذه التعليمات ، أن يختار أسلوبا وأن يبدو طبيعيا . ولكن المصيبة هي أن امرأته لا تريد أن تنفذ تعليمات أحد ولا أن تلتزم الحدود المرسومة .

خطب نابوليون الارشيدوقة ماري لويز وتزوجها ، فـكان ذلك ينبوع انفعالات قوية عنيفة لآن ماري . انها تتابع تفاصيل الحفلات في الجرائد ، وتعرف أسماء جميع الشخصيات التي حضرت الحفلات ، وتتذكر كل كلمة قيلت في تلك المناسبة مما ذكرته الجرائد . فلما قرأت في احدى الجرائد أن نابوليون لم يصبر على انتظار وصول خطيبته الامبراطورية في المكان المعيّن ، فوثب متخفيا الى عربة عادية ليمضي الى لقائها ، ثم هرع الى عربتها حين التقى بها ، تفجرت دموع آن ماري من فرط الحماسة ، وأسرعت الى مكتب زوجها كالاعصار لتقول له

انها كانت على حق حين كانت تعد هذا الكورسيكي انسانا خارقا ، ومثالا فريدا لعظمة النفس ورهافة العاطفة .

استغلت السيدة دافيل الايام المشمسة من شهر نيسان في أعمال بستنة . ان بستانيا أصم أبكم اسمه منيب ، ولقبه منجاره ، قد كلف منذ السنة الاولى لاقامتها في ترافنك بأعمال البستنة والعناية بالحديقة. وقد بلغت السيدة دافيل من الفتها له وتعودها عليه أنها تستطيع أن تُفهمه ماتريد باشارات بسيطة ، بحركات من الرأس أو من الاصابع . حتى لقد كانا يستطيعان أن يجريا أحاديث صغيرة في شئون أخرى : بعض حوادث المدينة ، حديقة الوزير ، قنصلية النمسا ، الاطفال خاصة.

كان منجاره يسكن مع امرأته الشابة في بيت صغير حقير بحيٍّ أوسوى . ان كل شيء في هذا البيت نظيف مرتب . والمرأة صحيحة الجسم شديدة العناية ، ولكن الزوجين لم ينجبا ، وهذا هو حزنهما الوحيد . لذلك كان منجاره ينظر نظرة عاطفة وحنان الى أولاد السيدة دافيل الذين يراقبونه أثناء عمله . انه نظيف المظهر ، نشيط الحركة ، حاذق ، فاذا أخذ يعزق الارض بالمرّ ، كان ينظر الى الاولاد بغير انقطاع ، ويبتسم لهم بوجهه المغضّن الاسمر ذلك التبسم الذي يجيده من لا يجيدون الكلام .

وضعت السيدة دافيل على رأسها قبعة كبيرة من قش ، وراحت تراقب البستاني وهو يفرش الزبل أو يفتت باصابعه كرات صغيرة من التراب اعدادا لغرس سوسنات جديدة تريدها في الربيع . وفيما هي كذلك أُبلغت أن السيدة فون ميترر جاءت لزيارتها ، فلم تستطع أن تمتنع عن عدّ هذه الزيارة ازعاجا وعائقا عن انجاز العمل الذي عينت لانجازه هذا اليوم ، ومع ذلك مضت تغير ثوبها .

في ركن مضيء دافيء فُرشت جدرانه ونوافذه بقماش أبيض ،

جلست السيدتان لتثرثرا مرتاحتين ولتسترسلا في التعبير عن عواطف جميلة • وكانت آن ماري مستعدة للامرين كليهما • فلم تأذن عواطفها وطلاقة لسانها للسيدة دافيل أن تقول كلمة واحدة • وجرى الحديث كله على زواج نابوليون • ان السيدة فون ميترر لم يفتها نبأ من أنباء هذا الزواج • انها تعرف عدد الشخصيات التي حضرت الحفلة ، وتعرف مراتب هذه الشخصيات ، وتعرف طول المعطف الذي ارتدته ماري لويز بمعاونة خمس ملكات ، وهو معطف من ثقيل المخمل ، طوله تسعة أقدام ، مطرز بنحلات من ذهب كالتي تُرى في أسلحة أسرة باربريني التي أنجبت بابوات ورجال دولة ، كما يعرف كل انسان •••

واتنقلت أحاديث السيدة فون ميترر الى ماضٍ بعيد ثم انتهت الى صيحات غامضة لا تعبر عن شيء غير الحماسة :

ـ آه ما أروع أن نعيش في مثل هذا العصر رغم أننا قد لا نكون شاعرين بعظمته شعورا كافيا •

قالت ذلك وهي تقبّل السيدة دافيل التي كانت تحتمل كل شيء ، ولا تجد سبيلا الى الخلاص من هذا السيل من الكلام ، والتي كانت سعيدة بأن تعيش دون اهتمام بزواج الامبراطور أو بأحداث السياسة ، شريطة أن يكون أولادها أصحاء ، وأن يكون كل شيء في بيتها مرتبا•

وأعقبت ذلك حكاية الامبراطور الذي مضى الى لقاء خطيبته في الطريق كأي راكب ، بلباسه العسكري الذي يرتديه كل يوم ، لأنه لم يصبر على انتظارها حتى الساعة التي حددها البروتوكول ، فاذا هو يظهر في عربة الارشيدوقة على حين فجأة •

ـ صحيح ! صحيح !

كذلك قالت السيدة دافيل دون أن تدرك عظمة هذه اللفتة على

وجه الدقة ، وهي تؤثر في قرارة نفسها أن ينتظر الخطيب خطيبته في المكان المحدد ، وأن لا يختل نظام الاحتفال على ذلك النحو •

قالت آن ماري وهي ترد شالها الكشميري على كتفيها :

ــ رائع رائع ، هذا هو الوصف !

انها تشعر بحرٍ من شدة هذه الانفعالات كلها ، رغم أن الثوب الاحمر الذي ترتديه خفيف جدا بالنسبة الى هذا الفصل • وحرصت السيدة دافيل على ان تشاركها الكلام وأن تقول شيئا جميلا ممتعا هي الاخرى ، وذلك من قبيل التأدب ، ولكن لفتات الاباطرة والشخصيات الشهيرة وعاداتها أمور غريبة عنها كل الغرابة بعيدة عنها كل البعد ، فليس لها في هذه المواضيع الكبيرة رأي من الآراء ، لذلك لم تجد ما تقوله في هذا المجال ولو كذبا أو تظاهرا بالتأثر • فلم يسعها ، من أجل أن تقول شيئا ، الا أن تحدثها عن السوسنات المضاعفة التي تنوي زرعها ، فشرحت لها بحماسة كيف ستصطف في وسط الحديقة الكبيرة أربعة صفوف من سوسن مختلف الالوان ، وأرتها علب الابصال السمراء مرتبةً على حسب لونها في المستقبل •

ان في علبة من هذه العلب أبصالَ نوعٍ نادر من السوسن الابيض جاء بها حامل البريد من فرنسا ، وتعتز بها السيدة دافيل كل الاعتزاز • سوف تزرعها متعرجةً على الصفوف الأربعة ، فتكون أشبه بشريط أبيض • ما من أحد في ترافنك يعرف هذا النوع النادر رائحة ولونا وشكلا • وذكرت السيدة دافيل العقبات التي اصطدمت بها من أجل الحصول على هذا النوع الثمين ، وأضافت أنها لم تكلفها ثمنا باهظا على كل حال •

فكانت آن ماري التي ما تزال حماستها متأججة تهتف من الفرح قائلة :

ـ عظيم ! سوف تكون سوسنات امبراطورية في هـذا البلد المتوحش • آ ••• ليتك ، يا عزيزتي ، تسمين سوسنك الجميل « أفراح الزواج » أو « خطيبة الامبراطور » أو •••

كانت آن ماري مفتونة بآرائها هذه ، فهي تحاول أن تجد للسوسن أسماء أخرى من هذا القبيل ، فما يسع السيدة الا أن تؤمن على كلامها ، كما يؤمن المرء على كلام طفل لا يريد معارضته حتى لا يطول الحديث •

ومع ذلك لم يلبث حديث السيدتين أن تباطأ • ان الكلمات ، في الحوار العادي ، يشتعل بعضها من بعض ويلهب بعضها بعضا ، أما في حوار هاتين السيدتين فكانت أقوال كلٍ منهما تجري في موازاة أقوال الاخرى على مسافة كبيرة • ولم يكن في الامكان أن تتم الامور على غير هذا النحو • ذلك أن آن ماري تتحمس لكل ما هو غريب بعيد لا علاقة له بشخصها ، على حين أن السيدة دافيل لا تتخيل الا ما هو قريب منها ومن ذويها ، الا ما هو متصل بهم أوثق اتصال •

وكما جرت العادة في كل حديث مع السيدة دافيل ، جاء الصبيان يحييان الزائرة أخيرا ، بينما كانت الصبية الصغيرة التي لم تكد تبلغ الشهرين من عمرها راقدة في سريرها المغطى بتول أبيض •

ان بيير الذي بلغ الثامنة من عمره صبي نحيل شاحب ، يرتدي الآن بدلة حمراء قاتمة تزينها باقة مخرّمة بيضاء • انه جميل هـادىء كصبي في جوقة انشاد • وهو يمسك بيد أخيه جان بول ، البالغ من عمره خمس سنوات ، الطفل الجميل المعافى ، ذي الضفـائر الشقر والخدين الورديين •

ان آن ماري لا تحب الاطفال ، على حين أن السيدة دافيل لاتتصور أن يكون في الدنيا انسان يمكن أن لا يكترث بالاطفال • آن ماري

ترى أن الوقت الذي يقضيه المرء مع الاطفال وقت ضائع : ان فراغا كبيرا وضجرا شديدا يعذبانها حين تكون مع أطفال • ان أجسامهم الصغيرة الرقيقة تورثها نوعا من النفور الجسمي ، وتبعث فيها قلقا لا سبيل الى مغالبته • وهي تخجل من هذا الشعور دون أن تعرف لماذا ، فتخفيه تحت ستارٍ من كلمات لطيفة وصيحات فرح صغيرة • ولكنها في قرارة نفسها تخشى هذه الكائنات الصغيرة التي تنظر الينا بأعينها الواسعة الجديدة نظرات لا تكلف فيها ، ولكنها نظرات سائلة ، وتحكم علينا بهدوء وبرود وقسوة ؛ أو هذا ما كانت تتصوره آن ماري ••• فكانت تخفض بصرها دائما أمام النظرات الطويلة التي ينظرها الاطفال ، على حين أن هذا لا يقع لها أبدا مع الكبار : ولعل ذلك راجع الى أن الكبار هم في أكثر الاحيان اما قضاة يمكن رشوتهم ، واما أناس يريدون من تلقاء أنفسهم أن يشاركونا ضعفنا ورذائلنا •

وقد شعرت آن ماري يومئذ بذلك الحرج نفسه وبذلك الضجر نفسه ، ومع ذلك قبّلت الصبيين فرحة ، لأنها استمدت الحماسة اللازمة من احتياطي النشوة التي أغرقها فيها زواج الامبراطور •

واستأذنت السيدة فون ميترر أخيرا بالانصراف ، وخرجت تجتاز طرائد الازهار المزروعة حديثا بخطى كخطى عروس ، بينما وقفت السيدة دافيل مع ابنيها على عتبة الباب ينظرون اليها دهشين • فلما بلغت باب الحديقة التفتت تلوّح بيدها ، وهتفت تقول ان عليهما أن تلتقيا مزيدا من الالتقاء بعد الآن ، لتتحدثا في الامور الرائعة ••• الرائعة ••• التي تجري في هذا الزمان •

رأى الكولونيل أن هذه الحماسة العظيمة لا تتفق كثيرا مع التعليمات التي تلقاها من حكومته ، ولكن أسعده كما أسعد بيته كله أن تجد آن ماري غذاء دائما وبسيطا لحاجتها الى النشوة • لقد

أختفت ترافنك كلها من أمام عينيها في ذلك العام ، واختفت الحيـاة المسكنية الشاقة التي تعيشها في القنصلية ، حتى لقد نسيت من ذلك رغبتها في الاستدعاء ، وأصبحت لا تحيا الا فـي تصور السعادة الزوجية التي ينعم بها الزوجان الامبراطوريان ، وفي تصور الصلح الشامل والاتحاد الصوفي بين مختلف أجزاء العالم • وأحاديثها لا تدور الا على هذه الامور التي تملي عليها موقفها وتلهمها موسيقاها • انها تعرف أسماء جميع وصيفات امبراطورة فرنسا الجديدة ، وتعرف أثمان وأشكال وأنواع جميع الهدايا التي تتلقاها ماري لويز ، وتعرف كيف تقضي ماري لويز أيامها وكيف توزع أوقاتها • وتشفق على مصـير الامبراطورة جوزيفين ، وترثي لحالها • ان انصرافها الى هذه الامور البعيدة يشفي حاجتها الى الانفعال ، ويجنب الكولونيل كثيرا مـن المزعجات •

أما قنصلية فرنسا فان هذا العام لم يحمل اليها أي تبدل ولا أي انفعال • وفي نهاية الصيف أرسل دافيل ابنه الى مدرسة ثانوية بفرنسا• وفي الوقت نفسه حصل ابن دافنا على منحة واتجه الى باريز ، بفضل توصية من دافيل •

جن دافنا سعادة واعتزازا • كان يستحيل عليه ، وقد اسود لونه وتكلس كحطبة مطفأة ، أن يفرح فرحا ظاهرا وأن يعبر عن فرحه جهارا كسائر الناس ، ولكن جسمه كله كان يرتعش وهو يشكر دافيل ويعلن له أنه مستعد في كل لحظة أن يضحي بحياته في سبيل القنصلية ، من عمق حبه لابنه ، ومن شدة حرصه على أن يضمن له حياة أجمل من حياته وأكرم وأفضل •

يستحق ذلك العام اذن أن يوصف بأنه عام سعيد•لقد جرت الامور فيه جريانا عاديا رتيبا بغير انفجارات • وساد السلم دلماسيا ، فلم تقع فيها نزاعات على الحدود • وما من حادث خارق وقع في قصر الوزير •

وكان القنصلان يلتقيان في أيام الاعياد ، بغير مزيد من المودة الحميمة ، ويراقب أحدهما صاحبه في سائر الايام بلا كره شديد وبلا حماسة مفرطة . وتعودت الطوائف الدينية المختلفة على القنصليتين ، وأصبحت لا تناصبهما العداء ما دامت المصاعب والمصائب التي نزلت بهؤلاء الاجانب لم تجبرهم على الرحيل .

كذلك جرت حياة القنصليتين وحياة سكان ترافنك في ذلك العام ، وانتقل الناس من الصيف الى الخريف ومن الشتاء الى الربيع دون أن تقع أحداث ضخمة ، ودون أن تطرأ تبدلات كبيرة ، الا ما تجيء به الحياة اليومية وما يحمله تعاقب الفصول .

ولكن زمان السنين السعيدة قصير وا أسفاه .

الفصل التاسع عشر

ان البريد الذي حمل الى ترافنك عام ١٨١١ الأنباء المبشرة بميلاد ملك روما ، قد أبلغ فون ميترر قرار استدعائه ووضعه تحت تصرف وزارة الحربية • هذا هو الخلاص الذي طال انتظاره سنين كثيرة ، ولكنه حين يعرض الآن يبدو بسيطا كل البساطة ، عاديا الى أبعد حد ، مبكرا أو متأخرا على حدٍّ سواء : متأخراً لأنه ما من شيء يمكن أن يلطف العذاب الذي وقع أثناء انتظاره ، ومبكرا لأنه يطرح عددا من المشكلات : الانتقال ، المال ، الوظيفة ، وهي أمور لم تخطر ببال أحد من قبل •

ومن عجائب الامور أن آن ماري التي هدأت منذ الاشهر الاخيرة قد أخذت تبكي الآن • ان الامراض والابلال منها ، وان الرغبات وتحقيقها ، تحدث عندها نوبات من الدموع • وهي تثور على زوجها ثورة عنيفة ، وتأخذ عليه ما كان ينبغي أن يأخذه هو عليها ، لو كان يملك أن يأخذ عليها شيئا ، وأن يلومها في شيء • وبثت فيها هذه الثورة العنيفة ما كانت في حاجة اليه للبدء في اعداد الرحيل •

وبعد أيام وصل القنصل العام الجديد ، الليوتنان كولونيل فون باولتش • كان القنصل العام الجديد الى ذلك الحين قائدا لكتيبة على حدود كوستاينتسا[1] ، فأتاح له هذا أن يتسلم مهام وظيفته الجديدة من يدي فون ميترر نفسه •

---

(١) على الحدود بين النمسا (البوسنة) وتركيا .

وصل القنصل الجديد في يوم مشمس من أيام نيسان ، وكان دخوله الى المدينة مهيبا فخما ، رغم أن الوزير لم يبعث للقائه عددا كبيرا من الرجال • هو رجل قوي البنية ، شاب المظهر ، يمتطي جوادا جميلا • التفتت اليه جميع الانظار ، وأثار حب الاستطلاع وأيقظ اعجابا خبيئاً لدى أناس ما كان لهم أن يريدوا الاعتراف بذلك في يوم من الايام • ولم يكن القنصل وحده رائعا ، بل كانت حاشيته كلها كذلك ، حتى لكأنها متأهبة لاستعراض • فالسكان الذين شهدوا مروره حدثوا أولئك الذين لم يكونوا يومئذ في المدينة أو كانوا واقفين على نوافذ بيوتهم ، حدثوهم عن القنصل الجديد فقالوا انه رجل جميل وان منظره خطف أبصارهم خطفا •

وحين سار موكبه بعد يومين ليقوم بأول زيارة للوزير بصحبة فون ميترر ، حدثت معجزة • ان الناس يرقبون الموكب ويحاولون رؤية القنصل ما استطاعوا ، ولكنهم صامتون • النساء التركيات وراء النوافذ ، والصبيان فوق جدران الأسوار ، ولكن مامن صوت يُسمع ، وما من شفة تنفرج عن كلمة اهانة • على أن الاتراك ظلوا في حوانيتهم لا يتحركون وقد اكفهرت وجوههم وظهرت فيها أمائر القسوة والشراسة •

كذلك ذهب الوزير الى القصر وكذلك عاد منه •

وكان فون ميترر قد قصّ على فون باولتش كيف استقبل زميله الفرنسي وكيف استقبل هو أيضا ، فشعر من هذا الاستقبال الجديد بشيء من حسرة ، فروى للقنصل الجديد ـ بانزعاج يشبه أن يكون حسدا ـ تفاصيل الشتائم والاهانات التي تساقطت عليه يوم وصل • كان يتكلم وقد بدا في وجهه أسى ، وظهرت في صوته لهجة عتب ، كأنه يريد أن يلفت نظر القنصل الجديد الى أن الآلام التي قاساها هي التي مهدت الطريق لخلفه ، وسهلت عليه الامور •

ينتمي فون باولنتش الى أسرة غنية من مدينة زغرب التي أصبحت مدينة نمسوية • أمه ألمانية من مدينة شتاير ، من أسرة نيدرماير الكبيرة• عمره خمسة وثلاثون عاما • انه ذو جمال نادر : قامة فارعة ، جلد ناعم ، شارب صغير أسمر يلقي على فمه ظلا خفيفا ، عينان واسعتان غائرتان يبرز بياضهما العميق حدقتيهما الزرقاوين الضاربتين الى ظلمة ، شعر متموج مفروق مصفف على طريقة العسكريين • وفي كيانه كله يشيع شيء مما تراه في الرهبان ، شيء واضح المعالم ، بارد المزاج ، معتدل الطبع ، لكنه خالٍ من صراعات النفس وعذابات الضمير التي تدمغ بطابعها الرهبان • ان هذا الرجل الذي يبلغ هذا المبلغ من الجمال يشبه أن يكون مدرّعا بدرع من جليد يختفي تحته كل أثر من آثار أية حياة شخصية ، وتختفي تحته كل علامة من علامات أي نوع من أنواع الضعف الانساني ، وأي مطلب من مطالب النفس الانسانية • حديثه متشابه : حديث عياني غير مجرد ، لطيف ودود لكنه غير شخصي ، وكذلك صوته العميق • وابتسامته التي تضيء وجها ساكنا ذا أسنان بيضاء متسقة تصرف خيالك الى ضياء بارد من ضياء القمر •

ان هذا الرجل الهادىء كان في طفولته صبيا موهوبا جدا ، كان حدثا عجيبا في قوة ذاكرته وتبكير نضجه ، ثم كان واحدا من أولئك التلاميذ الافذاذ الذين لا ترى منهم واحدا بين مائة ، أولئك التلاميذ الذين لا تواجههم في دراستهم صعوبة ، ويجتازون صفين في سنة واحدة • وقد عقد عليه الآباء اليسوعيون الذين تعلم في مدارسهم آمالا كبارا ، فكانوا يرجون أن يصبح ركنا من أركان نظامهم ، لكن الفتى أدار ظهره للجمعية منذ الرابعة عشرة من عمره ، وخيّب أمل الآباء حين قرر الانتماء الى السلك العسكري على حين فجأة • وقد أيده أبواه في اختياره هذا ، وخاصةً أمه التي ظلت أسرتها وفية للتقاليد

العسكرية • وهكذا فان التلميذ الذي حظي باعجاب اساتذة الدراسات الانسانية الكلاسيكية بفضل ما أوتي من حدة في الفهم وسعة في المعرفة قبل الاوان ، أصبح بعد ذلك طالبا في المدرسة العسكرية ممشوق القوام ، ذكي الفؤاد ، ينتظر له مستقبل كبير ، ثم أصبح ضابطا لا يدخن ولا يشرب ، يعيش بلا مغامرات نسائية ولا مشاكل مع الرؤساء ، ولا مبارزات ، ولا ديون • وكانت كتيبته أحسن الكتائب نظاما وتسلحا ، وكان لواء التفوق معقودا لها في جميع التدريبات والامتحانات • وكان ذلك كله خاليا من تلك الحماسة التي تلاحق الرجال الطموحين كما تلاحقهم ظلالهم •

حين تخرج فون باولتش من المدرسة العسكرية حائزا على الدرجة الأولى في ترتيب المتخرجين طلب ، خلافا لما كان يتصور رؤساؤه ، أن يُعيَّن لهذه المناطق الثانوية ، التي يُعيَّن لها على وجه العموم ضباط أقل علماً وأضعف استعداداً • تعلم اللغة التركية ، وألف الحرب في هذه الميادين ، وتعمق أساليب القتال وسيكولوجية البشر وظروف الحياة • فلما تكررت رسائل فون ميترر التي يطلب فيها نقله ، فلفتت أنظار الرؤساء ، أسعف الحظُّ باكتشاف فون باولتش ، « العازب » الذي يضرع فون ميترر أن يحل محله في ترافنك •

ان فون ميترر المرهق المروَّع من تعقد الحياة يلاحظ الآن هذا الرجل الذي ما يزال شاباً والذي ينهج في العمل نهجاً جديداً كل الجدة على فون ميترر • ان جميع المسائل تصبح أمام عينيه وتحت يديه واضحة مرتبة في الزمان والمكان ، بغير اضطراب ولا اختلاط ، وبدون تعجل ولكن بدون بطء • وجميع المسائل تجد سبيلها الى الحل عنده بدون مفاجآت ، كأنها عمليات حسابية دقيقة ، وكأنه هو نفسه محلق في مكان فوق كل شيء وخارج كل شيء ، مكان لا يمكن بلوغه ولا ادراكه ، وكأنه لا يهتم بأعماله الا لأنه أوتي وعياً وطاقةً يضبطان مجرى

الأمور ، ويرتبان الأعمال ، ويحلان المسائل • انه لا يعرف ما تعرفه الطبيعة البشرية من أنواع التردد وضروب الضعف وصنوف الحب والكره ، ولا يعرف تلك الحساسية المرهفة التي تسدّ الطريق وتعرقل السير وتفتح بذلك أمام النشاط اتجاهاً غير الاتجاه المنشود • انه مجرد تماماً من ذلك الحمل الثقيل ، أو هذا ما كان يتصوره فون ميترر وهو فيما هو فيه من تعب وارهاق • فيخيّل اليه أن فون باولتش يعمل بعقل متفوق وقلب لا عاطفة له •

وانتقال المرء مع أمتعته من مكان الى مكان يعرّيه ويفضح أخفى ما يتصل به جملة وتفصيلا • وقد أتيح لفون ميترز أن يقارن بين انتقاله هو وانتقال هذا الرجل العجيب ، وكان يمكن أن يستغني عن هذه المقارنة لو سمحت السيدة فون ميترر بذلك • ان كل أمر من أمور هذا الانتقال يسير لدى القنصل الجديد على خط مستقيم بلا عوائق ولا عقبات ، كالأعمال سواء بسواء • فلا فوضى في الأمتعة ، ولا ارتباك لدى الخدم • الأشياء تجد مكانها من تلقاء نفسها ، وهي جميعاً نافعة بسيطة ، قد حُسب عددها وعُرفت وجوه استعمالها على أكمل نحو • الخدم يتفاهمون بنظرا ت، لا تردد في أمر ، ولا أثر لشيء من اعتكار المزاج ، أو بلبلة الرأي أو سوء التنظيم • ان العملية الحسابية تتم دائماً وفي كل أمر من الأمور بلا خطأ ولا بواقٍ • وكانت سجلات الأشياء التي جاءت مع الليوتنان كولونيل كاحاديثه عن مشكلات العمل وشئون الموظفين •

حين وقع الحديث على روتا غضّ فون ميترر بصره على غير ارادة منه ، وأصبح صوته مترددا • انه يجر كلماته جراً وهو يقول ان ترجمانه شخص غريب ••• بعض الغرابة ••• فليس هو زينة القنصلية طبعاً ، لكنه مفيد ومخلص على كل حال • وكان فون باولتش يصغي اليه متواري النظرة بينما تلتمع في عينيه شرارة باردة • استقبل شروح

فون ميترر ببرود وصمت ، دون أن تظهر عليه أية امارة من امارات التحبيذ أو الاستنكار • وعلى عاتقه طبعا انما كان يقع أمر البتّ في الأشياء التي تقدم اليه كشوفها ، والأشخاص الذين توصف له أحوالهم، وفقاً لآرائه الخاصة وحساباته التي يجب أن لا تشتمل على أي خطأ •

حين هبط فون باولتش هذا الهبوط على آن ماري المضطربة دائماً ، لفت انتباهها وحرّك حاجتها الأبدية الى الاعجاب الغرامي ، وصبوتها القلقة الى الانسجام الروحي • وسرعان ما خلعت اليه اسم « آتينوئس بالزي العسكري » ، فقبل الكولونيل ذلك دون أن يهتز أو يتأثر، كشيء لا يمكن أن تكون له علاقة به أو بالناس الذين يقودهم من حوله • وأطلعته على هيامها بالموسيقي • ولكن الليوتنان كولونيل كان غريباً عن هذا الفن كل الغرابة • ولم يخطر بباله أن يكتم هذه الحقيقة ، ولو أراد أن يفعل لعجز • انه مبرأ من تلك الحساسية الزائفة التي يظن من لا يحبون الموسيقى أن عليهم أن يضمنوها أقوالهم عن هذا الفن ، كأنهم يريدون بذلك أن يكفّروا عن خطيئة • ودارت أحاديث على الأساطير اليونانية والشعراء الكلاسيين ، فكانت أقرب الى الأنس ، ولكن آن ماري ظهرت في هذه الأحاديث دون الكولونيل معرفة وبراعة • كان الليوتنان كولونيل العجيب يرد على كل بيت من أبيات الشعر التي ترويها آن ماري بعدد كبير من الأبيات وربما روى القصيدة كلها ، على حين أن آن ماري لا تعرف الا بعض الأبيات ، حتى لقد كانت تخطيء في روايتها أحياناً ، فيبادر الكولونيل الى تصحيح الأخطاء • على أن فون باولتش لم يدع أثناء ذلك لهجته الباردة ، المستقلة عنه ، المستقلة عمّا حوله ، المستقلة عن جميع الكائنات عامة • هكذا كانت كل اشارة عاطفية تتكسر على صفحة نفسه دون أن تهزّها •

ذُهلت آن ماري • ان لقاءاتها حتى ذلك الحين كانت تنتهي

بخيبات مرة ومشاجرات قوية • ولكنها كانت في « ضلالاتها » تتأدى بالرجل دائماً الى أن يخطو الخطوة الأولى أو الخطوة الأخيرة أو الخطوتين معاً ، ولم يسبق لها أن قابلت رجلا لا يتحرك ولا يهتز ، لم يسبق لها أن قابلت هذا الآتينوئس القاسي الذي تلعب معه لعبتها الكبرى في غير طائل • ولوحظ أثر ذلك فيها • لقد قال روتا ، منذ اليوم الاول ، بتلك اللهجة الكالحة التي يستعملها التعساء في الكلام على من هم أعلى منهم ، ان امرأة القنصل « تبحث عن علاقة » • كانت آن ماري أثناء انصراف زوجها الى اطلاع القنصل الجديد على شئون القنصلية ، تحدث صخباً قوياً وتغير أوامر زوجها ، ثم تجلس وتأخذ تبكي • انها تستأخر السفر تارة ، وتستقدمه تارة أخرى • وتمضي توقظ زوجها حين يظفر بالنوم ، لتصب عليه تقريعاتها وشتائمها •

حتى اذا انتهى حزم الأمتعة لوحظ أن لا شيء قد وضع في مكانه ، وأن لا أحد يعرف أين توجد الأشياء ولا كيف حُزمت • وفي اليوم المحدّد لسفر الأثاث والحقائب لم تصل الخيول التي وعد بها «المتسلم» فاذا بآن ماري تنتقل من الصخب العاصف الى الهمود الساحق • وأخذ روتا يركض ويصرخ ويهدد • فلما أمكن جمع عدد كاف من الخيول بعد ثلاثة أيام لوحظ أن بعض الصناديق كبيرة جدا فيجب اعادة صنعها • لقد كان يمكن تفادي ذلك لو لم تحرص آن ماري على اصدار أوامرها • وخربت أشياء كثيرة قبل السفر • وكانت قافلة من الخيل والعربات ترابط حول القنصلية •

وأخيراً ُوضع كل شيء في مكانه وُرحّل • وسافرت أسرة فون ميترر في الغداة • ودّعت آن ماري الليوتنان كولونيل أمام القنصلية الخاوية ، في الفناء المملوء قشا وخشبا مكسرا وروثَ خيل ، ودّعته ملزوزة الشفتين جافة النظرات حانقةً تصطنع برودة مقصودة • وسافرت هي وابنتها في الطليعة • وتبعهما فون ميترر وفون باولتش راكبين •

ومضى دافيل ، بصحبة دافنا وأحد الخفر ، يشيع فون ميترر الى أول مفرق • وافترق الرجلان على وضع هو الى التصلب المصطنع أقرب منه الى الجفوة وقلة المودة ، على نحو ما تلاقيا قبل ذلك في يوم من أيام الخريف منذ ثلاث سنين ، وعلى نحو ما تلاقيا بعد ذلك اللقاء الاول مرارا كثيرة أثناء هذه الفترة •

وعند المفرق كان النساء والاطفال من الكاثوليك ينتظرون على جانبي الطريق ، ويقتربون من فون ميترر المتأثر أشد التأثر فيقبلون يده أو يلامسون ركابه بعاطفة وحنان قبل أن يفسحوا المكان لغيرهم •

وعلى صورة هذا المنظر الذي يشهد بظفر فون ميترر ، انما عاد دافيل الى بيته ، متأثرا هو الآخر ، ان لم يكن من رحيل الكولونيل ، فمن تفكيره في مصيره هو ، ومن الذكرى التي يخلفها له الكولونيل • ان سفر هذا الرجل يحمل اليه شيئا من العزاء لا لأنه يتخلص من عدو خطر ــ فالناس يقولون ان القنصل الجديد أذكى وأرهب ــ بل لأن الكولونيل الاصفر الوجه المتعب العينين الحزين النظرة كان في نظره تجسيدا لشقائهما المشترك المكتوم في هذا العالم المتوحش • ان دافيل كائنا من كان خَلَفُ فون ميترر ، يشعر عند وداع هذا الرجل الصعب المراس بسعادة لم يشعر بمثلها عند تحيته •

وفي نحو الظهر ، عند المحطة الاولى ، على ضفة نهر لاشفا ، ودّع فون باولتش سلفه • وعاقبته آن ماري بحرمانه من فرصة وداعها • فقد تركت العربة تصعد الشاطيء خالية ، ومضت تسير على قدميها على طول المنحدر المخضوضر ، دون أن تلتفت الى وراء في جهة السهل ، حيث كان يودّع كل من القنصلين صاحبه قرب النهر • ان الحزن المليء بالدموع ، الحزن الذي يغزو أكثر النساء توازناً حين يبارحن بلدا عشن فيه عدة سنين ، سواء أكانت سنين سعيدة أم سنين شقية ،

يمسك الآن بخناق آن ماري • فالدموع تقبض حلقها وتقلص شفتيها• ولكن تفكيرها في هـذا الكولونيل الجميل البارد هو الذي يعذبها خاصة • لقد أصبحت لا تسميه آتتينوئس ، بل تسميه « كتلة الجليد » ، لأنها تجده أبرد من تمثال الرخام الذي يمثل الطالب القديم آتتينوئس •لقد اهتدت الى هذا اللقب الجديد في الليلة البارحة ، ارضاء لحاجتها الى أن تخلع على كل انسان لقبا يتفق وسلوكه حيالها • ان آن ماري تمشي الآن على طول الطريق بخطى مختالة كأنها تصعد قمة تراجيدية •

وأمامها ، على الضفة الاخـرى من الطريق ، كانت تتقدم آجاتي خرساء مروّعة • كانت هذه الفتاة ، على خلاف أمها المشبوبة الحماسة ، لا تحس بأنها تصعد جبلا من الجبال في عظمة وجلال ، بل تحس بأنها تهبط الى سهل من السهول في حزن وأسى • وكانت الدموع تخنقها ، ولكن لأسباب أخرى • انها الشخص الوحيد الذي يأسف لفراق الهدوء والحرية في الحديقة والشرفة ، ويحزنه الذهاب الى فيينا المدينة الكبيرة المزعجة الصاخبة المحرومة من السماء والهواء ، التي تطالع الداخل اليها منـذ أبوابها ببيوت كالحة يقبض منظرها الصدر ، والتي سترى فيها أمهـا في كل لحظة من اللحظات أمام عينيها ، وهي التي تشعر بالعار من أمها حتى في المنـام •

ولكن آن ماري ذاهـلة عن دموع ابنتهـا ، بل انهـا لا تحس وجودها وهي فيمـا هي فيه من حنق على زوجها الذي يلاطف هـذا الانسان الذي لا قلب له ، بدلا من أن يدير له ظهره كما تفعل هي ؛ وكانت لا تنفك تدمدم بكلمات حاقدة متقطعة • وما لبثت أن شعرت بالريح تهب على المنديل الأخضر الطويل المثبت بالقبعة على رقبتهـا ، فتركته يتماوج في مهب الريح ، وبلغت من السرور بجمال هذا المنظر وقوة تأثيره في العاطفة أن مزاجها تغير فجأة ، فهدأ بالها وسكنت روحها اذ علا قَدْرُها في نظر نفسها • اختفت جميع تفاهات حياتها اليومية ،

وصوّرها لها خيالها ضحيةً سامية تبتعد عن أنظار الناس المعجبين بها على طريق نكران الذات والتضحية بالنفس •

ان هذا المنظر هو كل ما يستطيع ذلك الرجل القطبي المتجلد أن يناله منها : قامتها المبهمة عند الافق ، ومنديلها المتموج في مهب الريح رسالةَ كِبْرٍ أخيرة تغمُض وتختفي شيئا شيئا بعد شيء •

هذه هي الخواطر التي شدت أزرها وهي تقطع الرابية كأنها تتحرك على مسرح كبير • ولكن زوجها وحــده كان يلمح منديلها الاخضر ويرشقه بنظرات مهمومة ، أما « كتلة الجليد » فلم يلاحظ شيئا البتة ، وكان في أثناء ذلك يودّع الزوج ، وداعا مهذبا لطيفا •

ولم تكن آن ماري الانسان الوحيد الذي فتنته شخصية القنصل الجديد ، لأول وهلة على الاقل •

حين قام فون باولتش بأول زيارة لدافيل ، لاحظ الفرنسي أن أمامه رجلا مختلفا عن سلفه كل الاختلاف • ان فون باولتش يتحدث في الشئون القنصلية بحرية أكبر وصراحة أعظم • ثم ان من الممكن التحدث معه في موضوعات أخرى ، وفي الادب الكلاسيكي خاصة •

لاحظ دافيل أثناء زيارات أخــرى أن فون باولتش يملك معرفة واسعة عميقة معا بالنصوص والشروح • وأرسل اليــه دافيل ترجمة دليل لآثار فرجيل ، فتصفحها فون باولتش ثم أبدى رأيه فيها • انه يرى أن ترجمة الشعر لا تكون صادقة الا اذا التزمت الابحر الاصلية ، ويريد أن يبرهن على ذلك لدافيل ، ويأخذ على دليل استعمال الايقاع واسرافه فيه • ودافع دافيل عن معبوده ، سعيدا بالوقوع على مخاطَب جدير به •

ولكن سرور دافيل بوصول هذا الرجل المثقف زال زوالا سريعا جدا • ذلك انه لم يلبث أن لاحظ أنه لا يبقى له ، بعد حديث مع هذا الليوتنان كولونيل المتأدب ، شيء من تلك المتعة التي يخلفها في العادة

تبادل الآراء مع فكر مثقف في موضوع مصطفى • فالحديث مع فون باولتش أقرب الى تبادل معلومات كثيرة عن جميع الناس وجميع الاشياء منه الى تبادل آراء وأفكار ومشاعر • ان كل شيء في هذا الحديث بارد ، عام ، غير شخصي • ان الليوتنان كولونيل يسترسل في الكلام مزودا بمئونة غنية من المعلومات الدقيقة ، الواضحة ، الباردة ، الصلبة ، على حين ان دافيل يشعر بأن جعبته قد فرغت مع بقاء رغبته في حديث ممتع • لا شيء يبقى من حديث مع باولتش ، لا في الجوارح ولا في الجوانح ؛ بل ان المرء لا يتذكر جَرْسَ صوته • انه يجري كلامه على نحو لا يستطيع معه محدِّثه أن يعرف شيئا عنه ولا أن يقول شيئا عن نفسه • ان جميع الموضوعات الحميمة أو الشخصية تصطدم بالليوتنان كولونيل ثم ترتد الى صاحبها • وسرعان ما فقد دافيل كل أمل في أن يكلم هذا الهاوي من هواة الادب عن آثاره الشعرية •

وكان دافيل قد نظم بمناسبة الحادث السعيد الذي حدث في بلاط فرنسا ، قصيدة جعل موضوعها تعميد ملك روما وأرسلها الى الوزارة راجيا رفعها الى المقام العالي ، وكان هـذا مطلع القصيدة : « سلاما سليل الربيع ، سلاما سليل اله الحروب » • وفي القصيدة تعبير عن أفكار تتصل بالسلم ، وفيها تمنيات لجميع شعوب أوروبا أن تعيش في سعادة ، وفيهـا اشارة الى العاملين المتواضعين الذين يعملون في « مناطق حزينة متوحشة » •

وقد قرأ دافيل هذه القصيدة لصاحبه فون باولتش في أثناء احدى الزيارات ، فلم يظفر منه بطائل • لم يشأ الليوتنان كولونيل أن ينتهز فرصة الاشارة الى تعاونهما بالبوسنة ، ولا قال كلمة واحدة عن القصيدة وموضوعها • والانكى من ذلك انه ظل لطيفا مهذبا على عادته في جميع الظروف • فلم يكن في وسع دافيل الذي شعر بخيبة الظن والحنق أن يظهر شيئا من الانزعاج •

الفصل العشرون

ان عامي ١٨١٠ و ١٨١١ اللذين وصفناهما بالهدوء ، وهما فترة معاهدة فيينا ، قد كانا حافلين بالعمل عند دافيل .

فلئن انتهت الحرب وأزماتها ، ان العقود التجارية لتستنفد نشاط القنصلية استنفادا كاملا : معلومات يجب الحصول عليها ، تقارير تجب كتابتها ، شهادات منشأ يجب اعطاؤها ، توصيات يجب ارسالها الى سلطات سبليت أو الى جمرك كوستاينتسا . « شقت التجارة طريقها الى البوسنة » ، هكذا كان يقول الناس ؛ « ولّى زمان الدبلوماسيين وبدأ زمان القناصل » ، هكذا قال نابوليون .

ومنذ ثلاث سنين اقترح دافيل أن تنمي فرنسا علاقاتها التجارية بتركيا والبلاد الخاضعة لحكمها . وألح على أن تتولى فرنسا انشاء مصلحة بريدية منظمة في الاراضي التركية ، حتى لا تكون رهنا بمصلحة البريد النمسوي ، أو حتى لا تعهد بهذا الى الاتراك الذين تعرف فرنسا سوء النية والفوضى لديهم . وقد رقدت هذه الاقتراحات في مكان ما بباريز ، بين اضبارات مزدحمة بالمشاريع . ولكن ظهر بعد معاهدة النمسا بقليل ، أن نابوليون يحرص على تحقيق هذا المشروع بلا ابطاء بل يحرص على تحقيقه على نطاق أوسع من النطاق الذي تخيله قنصل ترافنك .

ان النظام الاقتصادي الذي تصور نابوليون تحقيقه في القارة ، يقتضي أن تُوسَّع شبكة الطرق توسيعا ضخما ، وأن تُنشأ في القارة

الاوروبية طرق جديدة . ومن أجل هذا الغرض انما أوجدت المقاطعات الايليرية واتخذت لوبليانا مركزا لها.ان الحصار الذي فرضته انجلترا يمنع البحر الابيض المتوسط عن فرنسا ، وقد حرمت فرنسا من تلقي عدد كبير من المواد الاولية ، وخاصة قطن المشرق . فلا بد لفرنسا أن تحول تجارتها الى طرق في القارة ؛ وعلى ايليريا الجديدة أن تكون الصلة بين البلدان التركية وفرنسا . وهذه الطرق موجودة منذ زمان بعيد : الطريق المؤدية من القسطنطينية الى فيينا على طول الدانوب ، أو الطريق المؤدية من سالونيك الى تريستا عبر البوسنة . والتجارة مع البلاد النمسوية كانت تسلك هذه الطرق دائما . وانما يجب الآن توسيعها ، وجعلها ملائمة لحاجات فرنسا النابوليونية .

وفي صيف عام ١٨١١ شرعت فرنسا في تنفيذ الخطة . ان دافيل يحاول بجميع الوسائل أن يجد في المدن التي تجتازها المعدات الفرنسية رجالا يعتمد عليهم في تأمين تموين الخيل ، وفي مراقبة النقل والناقلين بعض المراقبة . وهذا أمر ليس بالسهل ولا بالسريع ، حتى لقد ظل ناقصا نقصا كبيرا ككل شيء في هذه البلاد ، ولكن الامل معقود على تحسن قريب ، فكان العمل يجري نشيطا ، وكان العاملون يقبلون عليه في حماسة وفرح . لقد كانت الريح تجري بما تشتهي سفينة نابوليون .

ان مؤسسة من المؤسسات الكبرى بمارسيليا هي مؤسسة « فرايسينه اخوان » التي تملك وسائط نقل الى المشرق ، قد افتتحت فرعا لها بمدينة سارايفو ، بعد أن حصلت على امتياز من الحكومة الفرنسية ، وطلب اليها أن تتعاون مع القنصل.وجاء أحد الاخوة الذين يملكون هذه الشركة ، وهو رجل ما يزال شابا ، جاء يقيم في سارايفو ليتولى ادارة الوكالة بنفسه .ووصل منذ قليل الى ترافنك ليزور القنصل ويتفق معه على اتمام الاعمال .

صيف ترافنك الجميل القصير هو الآن في أوجه • ان ضياءً شفافا وشمسا ساطعة في سماء لازوردية يغمران الوادي •

ُوضعت على السطحة الواسعة التي يظللها مبنى القنصلية منضدةٌ وكرسيان • ان من يجلس هنـــالك يتنفس هواء طليقا ، رغم شعوره بشيء من الحر الذي يخنق المدينة في البيوت المتراكمة بجوف الوادي • ان زواحف كثيرة تترك أوكارها صاعدة من المنحدرات الوعرة والوادي العميق ، وجنبات الحرادين تنبض سريعة في وهج الشمس •

لقد نوَّرت سوسنات السيدة دافيل منذ زمن طويل ، البيضاء منها والملونة ، البسيطة منها والمضاعفة • وعلى طول الطرائد تفتحت أزهار أخرى متعددة الالوان •

جلس دافيل والشاب فراسينه في الظل أمام طاولة وضعا عليهـــا تقاريرهما وأعدادا من جريدة « المونيتور » ونصوصا تنظيمية و « ما يجب للكتابة » •

ان جاك فراسينه شاب سمين بعض السمنة ، نضر الخدين ، أوتي تلك الثقة في الصوت والحركات ، تلك الثقة التي يملكها أبناء الاسر الميسورة • ان التجارة تجري في جسمه مجرى الدم ، وما من أحد في أسرته عمل في غير التجارة أو حاول شيئا غير التجارة • وهو كسائر أفراد أسرته واضح مهذب متروٍ متبصّر ، حازم في الدفاع عن حقه ، لا تغيب مصلحته عن باله لحظة ، لكنه ليس عبدا لها •

لقد قطع فراسينه الطريق بين سارايفو وكوستاينتسا في الاتجاهين ، واستأجر في سارايفو نزلا اتخذه مقرا له ، واتصل بالتجار والمشتغلين في أمور النقل واتصل بالسلطات التركية • وقد أتى الآن الى دافيل يبـــادله المعلومات ويبلغه ملاحظاته ويطلعه على مشاريعه ، والقنصل سعيد بأن يكون هذا الشاب الجنوبي النشيط المهذب معاونا له في

هذا المجال الذي يراه محفوفا بالمصاعب •

استأنف فرايسينه يقول بتلك اللهجة الواثقة التي يصطنعها التجار من أجل أن يؤكدوا الامور التي تعنيهم :

ــ أعود فأقول ان الطريق من سارايیفو الى كوستاينتسا يستغرق سبعة أيام ، فيجب انشاء المحطات التالية للقافلة التي تقطع هذا الطريق : كيسلاك ، بوسوفاتشا ، قره أولا ، يايتسه ، زمبيانيه ، نوفيهـان ، بريدور ، وأخيرا كوستاينتسا • ويجب أن يكون عدد المحطات في الشتاء ضعفي هذا العدد ، أي أربع عشرة محطة • ويجب أن يقام على هذا الطريق خانان على الاقل ، اذا أريد أن تحمي البضائع من سوء المنـاخ ومن السرقات • ان أسعار النقل مرتفعة ، وهي ما تنفك في ارتفاع • والمنافسة النمسوية هي التي ترفع الاسعار ، وكذلك بعض تجار سارايیفو الصربيين أو اليهود الذين يعملون لحساب انجلترا • الاسعار الآن هي التالية : سالونيك ــ سارايیفو ١١٥ قرشا عن ١٥٠ كغ ، سارايیفو ــ كوستاينتسا ٥٥ قرشا • وكانت قبل سنتين لا تتجـاوز نصف ذلك • يجب اذن أن نعمل المستحيل للحيلولة دون مـزيد من الارتفاع ، والا كان المشروع كله مهددا • أضف الى ذلك عناد الموظفين الاتراك وطمعهم ، وميلَ السكان الى السرقة والنهب ، وخطرَ توسع العصيان الصربي ، ووجودَ اللصوص من قطاع الطرق في المنـاطق الالبانية ، وخطر انتشار الاوبئة آخر الامر •

واذ كان دافيل يحرص على أن يرى أصـابع المخابرات السـرية البريطانية في كل مكان ، أراد أن يعـرف الوقائع التي يبني عليهـا فايسينه اعتقاده بأن تجارا من سارايیفو يعملون لحساب الانجليز • ولكن الشاب لم يتشوش ولا انحرف عن طريقه ، بل استمر يقول وهو يمسك أوراقه بيديه :

ـــ ألخص وأختم : ان الاخطار التي تهدد أعمال النقل هي التالية : العصيان الصربي ، قطاع الطرق الالبان ، السرقات في البوسنة ، ارتفاع أسعار النقل ، الرسوم الحكومية ، المنافسة ، وأخيرا الطاعون والامراض السارية الاخرى . أما التدابير الواجب اتخاذها فهي : أولا ـــ انشاء خانين بين سارايبفو وكوستاينتسا ؛ ثانيا ـــ منع تغيرات قيمة العملة التركية ، بالحصول على فرمان خاص يحدد سعر الريال الفرنسي ذي الستة فرنكات بخمسة قروش ونصف ، وكذلك ريال ماري تيريز ، على أن يحدد سعر الدينار البندقي بأحد عشر قرشا ونصف ، الخ ؛ ثالثا ـــ توسيع المحجر الصحي في كوستاينتسا ، بناء جسر بدلا من الطوف ، انشاء مستودع يتسع لثمانية آلاف بالة قطن ، اقامة محطات للمسافرين ، الخ ؛ رابعا ـــ تقديم هدايا للوزير ولسليمان باشا ولبعض الموظفين الاتراك الذين قد يكون لهم رأي مسموع بشأن مطالبنا . وهذا كله يكلف مبلغا يتراوح بين عشرة آلاف وثلاثة عشر ألف فرنك . أعتقد أننا نستطيع بذلك أن نؤمن النقليات بعد أن نكون قد أزلنا المصاعب الرئيسية .

فكان دافيل يسجل هذه المعلومات ليضمنها تقريره الخاص ، ويستعد في الوقت نفسه لأن يقرأ للشاب التقرير الذي كتبه عام ١٨٠٧ ، وفيه يستبق نيات الامبراطور ويستبق كل ما يبحثانه الآن .

قال له :

ـــ أيها السيد العزيز، ما أكثر ما أستطيع أن أقوله لك عن المصاعب التي تعرقل القيام بأي عمل معقول في هذه البلاد ! ولكنك تدرك بنفسك نوع البلاد التي نعيش فيها ، والشعب الذي نعامله ، والادارة التي نعالجها ، والعقبات التي نصطدم بها في كل خطوة .

غير أن الفتى الذي أوضح المصاعب وحدد وسائل تذليلها لم يضف

الى ما قاله شيئا • كان واضحا أنه لا يشتهي كثيرا أن يصغي الى شكاوى عامة أو الى وصف « حالات نفسية » • ومع ذلك رضي من قبيل التأدب أن يسمع تلاوة التقرير الذي كتبه القنصل عام ١٩٠٧ ، فلم يلبث القنصل أن أخذ يتلو عليه ذلك التقرير •

كان الظل الذي يتفيئانه يستطيل وكان شراب الليمون المسكوب في أقداح كبيرة يسخن أمامهما شيئا فشيئا •

• • •

في ذلك الصمت نفسه من صمت أيام الصيف ، تحت القنصلية بشارعين ، على يسارها قليلا ، قرب الساقية التي تصب في مجرى السيل جدول نحيلا مختفيا ، كان موسي كرديالي قاعدا في حديقته مع بعض أصدقائه •

ان نباتات زاخرة طافحة تغشي وتخنق كل شيء في هذه الحديقة البوار المهملة التي تنحدر الى قرارة الوادي • لقد مدُّوا بساطا على الارض في ظل شجرة ضخمة من أشجار الخوخ ، وأمامهم طبق فيه بقايا طعام وأقداح وراكي • ان الشمس قد غابت من هذه الجهة ، ولكنها ما تزال تسطع على الضفة الاخرى من نهر لاشفا • هذان هما موسى المغني وحمزة الطبال راقدان على العشب ، وهذا مراد خُجتش ، الملقب لول خجا مستلقٍ نصفَ استلقاء وقد أسند قيثارته الى شجرة الخوخ ووضع قدحه المملوء بالراكي على القيثارة •

ان مراد هذا رجل قصير أسمر حاد المزاج كديك ، في وجهه الضيق الضارب الى صفرة تتوهج عينان واسعتان قاتمتان لهما نظرة ثابتة وسطوع عنيد متعصب • انه ينتمي هو أيضا الى اسرة محترمة من أسر ترافنك ، وقد تعلم في المدرسة خلال فترة من الوقت ولكن الخمرة

حالت بينه وبين اتمام دراسته ، ومنعته من أن يصبح امام ترافنك كما كان كثير من أفراد أسرته أئمة لها • يقال انه في الامتحان الاخير الذي كان عليه أن يجتازه تقدم الى لجنة الامتحان متمايلا مترنحاً من شدة السكر ، فلم ينجح في الامتحان ، ولـُقـِّب منذ ذلك الحين لول خجا ، أي الخجا المترنح • واسترسل مراد في تعاطي الشراب ساخطا حانقا ، فكلما أمعن في الشراب اشتد غروره الجريح وازدادت المرارة في نفسه • انه يحلم ، وقد نبذه أهله ، أن يتفوق عليهم بمأثرة خارقة فينتقم بذلك منهم • ان طموحا مجنونا يأكله أكلا كما يأكل جميع أمثاله من المخفقين الذين أوتوا قامة قصيرة وذهنا متوقدا : انه يأمل أن لايبقى طوال حياته مجهولا محتقرا بائسا ، ويرجو أن يبهر العالم في يوم من الايام ، دون أن يعرف أين يبهره ولا كيف يبهره • وكان الشراب يغذي هذه الفكرة في رأسه ، فما تنفك تستولي عليه حتى صارت كالجنون • وكلما أمعن في هذا الفجور ازداد اكتفاء بالاكاذيب وازداد رأسه امتلاء بالتهاويل وازداد تبجحا بكلمات كبيرة وأقاصيص جريئة وأخيلة كاذبة ، حتى صار يتندر به ويسخر منه رفاقه في الادمان على السكر •

كان الاصحاب الثلاثة يجلسون الى الشراب في الايام الصاحية المشمسة في حديقة موسى ، حتى اذا هبط الليل نزلوا الى المدينة ليستمروا في السكر • وبانتظار أن تزدان السماء بنجوم كبيرة في أعالي الافق المزرق ، يأخذون يدندنون ألحانا قصيرة بمعاونة الشراب ، أو يجمجمون بكلام لا تدري ما هو ، دون أن يـُعنى أحد منهم بما يقوله مخاطبه ، وانما هو يحاور نفسه ويغني لنفسه كما يفعل أولئك الذين سمـَّمتهم الخمرة • وقد انطلقوا في ذلك المساء يحلمون بألف مفخرة ومفخرة ، ويحققون رغباتهم في آخر الامر ، فيرون مناظر لن يروها قط ، ويسمعون أمورا لن يسمعوها أبدا ، وأصبحوا منتفخين بخطورة شأنهم وعلو جاههم ، مقتنعين بعظمتهم ، مرتفعين الى أعلى ، طائرين

على أجنحة ، صائرين الى ما لن يصيروا اليه في يوم من الايام ، مالكين أشياء لا وجود لها في مكان ولا يستطيع شيء غير الشراب أن يهيئها لمن اندفعوا اليه جسما وروحا .

ان موسى يتكلم أقل مما يتكلم صاحباه . انه غاطس في العشب الكثيف ذي الخضرة القاتمة الجميلة ، مكتّف ذراعيه ، جاعل ساقه اليمنى فوق ركبته اليسرى المطوية ، فكأنه جالس . نظرته تائهة في السماء الصافية . أصابعه تلامس من خلال العشب ، الترابَ الفاتر الذي يتراءى له أنه يتنفس تنفسا طويلا متساويا . ثم هو يحس الهواء الساخن يتسلل في كميه وينفذ الى ساقي سرواله . ان هذه النسمة ريح خفيفة خاصة بمدينة ترافنك ، تهب في الصيف عند المساء ، وتصعد بطيئة لكنها تتوقف قرب الارض بين الاعشاب والادغال . كان موسى وهو في منتصف الطريق بين انزعاج الصباح الذي يعقب سكر الليلة البارحة وبين السكر الجديد الذي يتهيأ ، يحب أن يستسلم لهذا الفتور في الارض ، ولهذا النبض المستمر الخفيف في الهواء ، ويحس أنهما يهمان أن ينهضا به ، وانه يوشك أن يطير ، وأنه يطير فعلا ، لا لأنهما قويان ، بل لأنه هو نفسه نسمة صغيرة وفتور متحرك ، يبلغ من الخفة والوهن أن أخواته النسمات تهم به فتحمله معها .

وفيما هو يطير هذا الطيران أثناء رقوده ، يخيل اليه من خلال وسنه أنه يسمع حديث صاحبيه . ان صوت حمزة صوت أجش لا يُفهم ، أما صوت لول خجا فهو صوت عميق قاطع . ان لول خجا يتكلم في وقار وفخامة وقد ثبت نظره على نقطة بعينها كأنه يقرأ .

لقد لاحظ الاصدقاء الثلاثة منذ ثلاثة أيام أن دراهمهم نضبت وان عليهم أن يحصلوا على شيء من المال بأي ثمن . وكان لول خجا هو الذي يجب عليه أن يدبر المال في هذه المرة . ولكن الامر صعب غاية الصعوبة . ولول خجا يؤثر أن يشرب على حساب صاحبيه .

وكان الحـديث في تلك اللحظة يدور على مبلغ يجب على لول خجا أن يقترضه من عمه المقيم بمدينة بودلوجوف ، الذي أثرى حديثا.

ــ من أين يأتيه المال ؟

كذلك سأل حمزة غاضبا وهو لا يصدق ما يقال له عن اثراء الرجل، لأنه يعرفه ويعرف أن الاثراء ليس سهلا الى هذا الحد .

ــ ربح من القطن .

ــ أهو ينقل قطنا للفرنسيين .

ــ لا . انه يشتري القطن الذي « يجده النـاس » في القـرية ، ثم يبيعه .

سأل حمزة بصوت كسول :

ــ أما تزال تصل البضاعة ؟

ــ بفظاعة ! أنت تعلم أن الانجليز أغلق طريق البحر . عندئذ لم يبق لدى بانابارت قطن . لكن بانابارت لا بد له أن يكسو جيشه . وهو الآن مضطر أن يشحن القطن عن طريق البوسنة . من نوفي بازار الى كوستاينتسا لا ترى الا حصانا وراء حصان ، وبالات وراء بالات. لا ترى الا قطنا . الطرق مزدحمة والمحطات ملأى . لا تستطيع أن تجد في أي مكان شخصا تكلفه بنقل شيء ، لأن الفرنسيين شغّلوهم جميعا. وهم يدفعون لهم أجورهم دنانير حقيقية . من يملك في هـذه الايام حصانا فهو يساوي وزنه ذهبا ؛ ومن يعمل في القطن يصبح غنيا في شهر .

ــ ولكن من أين يجيء الناس بالقطن ؟

ــ المسألة بسيطة جدا . الفرنسيون لا يبيعون قطنهم بامبراطورية. لو قدمت لهم بيتك ثمنا لكيلو واحد من القطن ما باعوك . لذلك يجد

النـــاس مخرجا فيسرقون • يسرقون قطنا من المحطات ، حيث يبيت حرس القوافل ويُنزَل القطن عن ظهور الدواب • حين انزال البضاعة يكون كل شيء على ما يرام ، ولكن في الغد يُكتشف فقد احـــدى البالات حين تحميل البضاعة من جديد • يُسرعون باحثين : أين البالة ؟ من أخذ البالة ؟ ولكن القافلة كلها لا تستطيع أن تنتظر من أجل بالة • وتسير القافلة بغير البـــالة المفقودة • وفي القرى انما يسرقون أكثر • يختبيء الاولاد في الاسيجة ، ويمزقون البالات بطعنات موسى • ولمـــا كان الطريق ضيقا ومحفوفا بالاسيجة على جانبيه فان القطن يأخـــذ بالتساقط ويعلق بالاغصان • فما ان تغب القافلة حتى يسرع الصبيان الى جمع القطن في سلال ، ثم يعودون يختبئون بانتظار نقلة جديدة • والفرنسيون يشاجرون الحمّالين ، ويخصمون ثمن القطن المفقود من أجر النقل • وفي بعض الامكنة يجيء درك فيقبضون على الاولاد • ولكن من ذا يستطيع أن يقبض على عدد كبير هذا الكبر ؟ انهم يأكلون قطن بانابارت ، يقطفونه من الاغصان كما في مصر • ثم يجيء الآخرون فيشترون هذا القطن • وعلى هذه الصورة انما أثرى عدد لا بأس به من النـــاس •

قال حمزة نائما :

ــ أكان لا بد أن يمر القطن بالبوسنة ؟

ــ لا بالبوسنة وحدها ، بل بالامبراطوريـــة كلها • لقـــد حصل بانابارت من القسطنطينية على اذنٍ بارسال قناصل وتجار الى كل مكان، ومعهم المال • هل فهمت الآن ؟ هل تعلم يا عزيزي أن عمي ، من أجل قطن بانابارت •••

فقاطعه موسى باحتقار قائلا :

ــ هات المال أنت ، وليس يهمنا أن يأتي من عمك أو خالك ، وليس

يعنينا أن نعرف أين يُزرع القطن ولا أين يُزرع الفولاذ • نحن في حاجة الى مال ، هه ؟

ان موسى لا يحب كثيرا حكايا لول خجا الطويلة المليئة بالمبالغات ، التي يرويها طلبا للاعجاب بثقافته وشجاعته ومعرفته بخفايا الامور في هذا العالم • ولكن حمزة أطول بالا وأكثر صبرا ، فهو يصغي الى حكايا لول خجا هادئا ، مع شيء من روح النكتة لا يبارحه لحظة حتى في أشد الايام ضيقا وأحرج اللحظات عوزا • قال حمزة مؤيدا كلام موسى :

ـ حقا نحن في حاجة الى مال ، فيجب أن نحصل على المال بأية طريقة مهما كلف الامر •

قال لول خجا في تفخم :

ـ ستحصلون على المال ، أقسم بشرفي ، ولو كان عليّ أن أموت في سبيل الحصول عليه •

فلم يجب أحد على العهد الذي قطعه •

صمت•ان الاجسام الثلاثة التيأوهنتها البطالة ، وأدفأها الكحول، وعذبتها الرغبة في مزيد من الشرب ، تستريح الآن راقدة على العشب في الظل الحار •

أردف لول خجا يقول بلهجة رخوة :

ـ رجل مدهش هذا البانابارت • تغلب على العالم كله وسيطر على العالم كله ، ويقال انه قصير ، يبلغ من القصر أنك اذا نظرت اليه لم تر شيئا •

قال حمزة متثائبا :

ـ قصير من ناحية القامة ، لكن قلبه كبير •

أضاف لول خجا :

ــ يقال أيضا انه لا يحمل سيفا ولا بندقية ، وانما يكفيه أن يرفع ياقته ويغطس قبعته حتى عينيه ، ويسرع على رأس جيشه ، حتى يصرع كل من يلقاه في طريقه • من عينيه يخرج لهب • لا سيف يقطعه ولا رصاصة تنفذ فيه •

وتناول لول خجا قدحه فصب فيه خمرا ثم أمسك القدح بيده اليسرى • يده اليمنى على نحره من خلال قميصه المفتوح ، ورأسه مائل على صدره ، وهو لا يحول نظرته الفارغة عن القشرة الخشنة من ساق شجرة الخوخ • ان الخمرة تحضه على الغناء ، وها هو ذا يشق شفتيه قليلا ، دون أن يغيِّر وضعه ودون أن يحوِّل نظرته ، فيغني بصوته الليِّن (باريتون) : « متألمةً كانت الجميلة نازا ، وحيدةُ أمها » • ثم يتناول الكأس مرة أخرى ، فيصب فيها خمرة ويشرب ويعيد الكأس الى مكانه على القيثارة •

ــ ليتني أستطيع أن أقابله •••

ــ من هو ؟

سأله حمزة هذا السؤال رغم أنه سمعه يقول مثل هذا الكلام مئة مرة • فأجابه لول خجا قائلا :

ــ هو ، بانابارت • ليتني أبارز هذا الكافر ، وسترون عندئذ لمن يبسم الحظ !

وضاعت هذه الكلمات المجنونة في صمت مطلق • وتناول لول خجا كأسه مرة أخرى ، فأفرغه في جوفه ، وهزه هزا صاخبا ،ثم تابع يقول بصوته العميق :

ــ اذا غلبني فليقطع رأسي ، ولن آسف عندئذ على رأسي أما اذا

رميته أنا على الأرض وأوثقته بالحبال ، فلست أطلب الا شيئا واحدا هو أن "أمرِّه" أمام الجيش موثقا وأن أجبره على دفع الجزية للسلطان.

قال حمزة بلطف :

ــ بانابارت بعيد يا حمزة ، بعيد جـدا ، وجيشه كبير ، وقوته عظيمة ، وماذا تصنع بالامبراطوريات المسيحية الاخرى التي يكون عليك أن تجتازها يا مسكين ؟

فأجاب لول خجا بلهجة متكبرة متعالية :

ــ الامبراطوريات الاخرى لا تهمني . هو بعيد حقا حين يكون ببلده ، ولكنه يتجول في العالم كله ، لانه لا يستطيع أن يبقى ساكنا هادئا . لقد وصل فـي العام الماضي الى أسوار فيينا ، وتزوج بنت الامبراطور الالماني ...

قال حمزة ضاحكا :

ــ أرأيت اذن ؟ كان حول فيينا ، وكان يمكن أن تبارزه ، لو خطر ببالك هذا قبل فوات الاوان .

ــ قلت لك ألف مرة ان عليَّ أن أستيقظ في صباح من الاصباح مبكِّرا فأسافر بدلا من أن أظل أعفِّن في نتن ترافنك هذا : فاما أن أعمل عملا خارقا واما أن أموت . قلت لكما هذا منذ زمان طويل . ولكنكما تظلان ترددان حكاية بعينها : لا ، انتظر ، لنسافر اليـوم ، بل لنسافر غدا ، وهكذا يمضي الوقت ولا أفعل شيئا !

قال لول حجا هذا ، ثم رفع قدحه بحركة قاطعه فملأه ثم أفرغه .

لم يجب حمزة ولا أجاب موسى . انهما يحتسيان ، بحركات قصيرة، من أقداح الراكي الموضوعة في العشب . انطوى لول خجا على نفسه ، واعتصم بالصمت المزهوِّ المحتقِر الذي يعقب المبارزات الخطرة ، ويعقب

الاعمال الكبرى التي لا يعترف لك الناس بجميلها ، وليس في الدنيا بأسرها على كل حال مكافأة توازيها • انه قاتم الوجه مكفهر الملامح ، قد أدخل يده اليمنى تحت قميصه المفكوك الازرار ، وسقطت لحيته على صدره ، وأخذ ينظر الى أمام بعينٍ شرسة ؛ وفجأة انطلق يغني بصوته الحزين البعيد كأن أحدا يغني من ورائه : « متألمةً كانت الجميلة نازا ، ثلاثَ سنين كانت متألمة » • وتنحنح موسى :

ـ يعيش مراد ، المبارز القديم • سوف تسافر ان شاء الله ، سوف تسافر • وسوف يعرف العالم كله عندئذ من هو مراد ، ومن أي أسرة تحدر ، والى أي قوم ينتمي !

فرد عليه نول خجا منفعلا انفعالا أليما ، رافعا كأسه بيد متعبة ، كانسان يثني ظهره عبء المجد :

ـ يعيش حمزة •

كذلك كان ينقضي الوقت • أما موسى الصامت فيظل راقدا لا يتحرك • انه يحلق في الفضاء ، يطير على أجنحة الهواء والحرارة ، متحررا من قانون الثقالة وأغلال الزمان ولو الى حين •

وكان ضياء شفاف وشمس ساطعة في سماء لازوردية يغمران الوادي •

الفصل الحادي والعشرون

في مطالع عام ١٩١٢ ، حين لاحت في الافق علائم نشوب حرب جديدة ، كان دافيل ، كلما سمع شيئا عن الشائعات الرائجة ، يتصور المصاعب التي تنتظره ، لانه سبق أن قاساها مرتين ، فيشعر بدوار : « يا رب ، يا رب ! » •

انه ينطق بهاتين الكلمتين على غير شعور منه ، لاصقا بكرسيه ، واضعاً جبينه في يده اليمنى ، حابساً أنفاسه •

سيُستأنف اذن كل شيء ، كما حدث قبل سنتين ، وكما حدث في عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٦ ! وستجري جميع الامور على ذلك النحو نفسه : قلق ، وهموم ، ومخاوف لا نهاية لها ، وشعور بالعار والاشمئزاز ، مع أمل يبقى في نفسه ، يعده بأن تنتهي الامور على خير ويقول له ان الحياة (على خلوها من المنطق وامتلائها بالعذاب) حياة الامبراطورية والعالم ، حياته وحياة أسرته ، ستستقر وستبقى ، وان هذه المرة هي آخر مرة ، انها ختام الصعود الدائم والهبوط المستمر اللذين كانا يضعان الانسان على أرجوحة شيطانية ، ولا يتركان له من أنفاسه الا ما يمكّنه من أن يقول انه ما يزال على قيد الحياة •

نعم ستنتهي الامور كلها ، في هذه المرة أيضا ، الى نشرات تتحدث عن النصر ، والى معاهدات صلحٍ تحقق منافع وتجيء بمكاسب • ولكن من ذا الذي يستطيع أن يحتمل هذه الحياة التي ما تنفك تزداد ثقلا على النفس ، من ذا الذي يستطيع أن يجد في نفسه ما يدفعه ضريبة لها ؟

ما الذي يستطيع أن يعطيه انسان أعطى كل ما عنده ، وماذا ُينتظر من طاقة أضناها التعب هذا الاضناء كله ؟ انه ليجب مع ذلك أن يحاوَل المستحيل للخلاص من هذه الحروب نهائيا ، ليتاح للانسان أن يتنفس وأن ينعم بشيء من الاستقرار والسلام •

ـ « السلام !•• السلام وحده !•• السلام !•• السلام !•• » • كذلك كان يفكر دافيل ، وبهذه الكلمة كان يدمدم ، فكانت الكلمة تهدهده في خدره •

وها هو ذا طيف فون ميترر يظهر له•لقد نسي دافيل وجهه الاصفر المهموم الذي تخدّده غضون عميقة يرقد فيها ظل ضارب الى خضرة ، مع شاربيه المرفوعين ككلاّبين ، ومع سطوع عينيه السوداوين سطوعا مريضا • لقد قال له فون ميترر في العام الماضي ، في هذه الغرفة نفسها ، وهو على هذه الهيئة نفسها ، ان البوقسيدق فيالربيع المقبل• نعم ، بهذهاللغة التي ألفها في الثكنات ، انما عبَّر فون ميترر عن رأيه • وها هو ذا يطل عليه فيالموعد المضروبطيفا متعالماً لا روح فيه ، ليبرهن له على أن نبوءته كانت صادقة ، وعلى أن السلام ليس له وجود ولن يكون له وجود • وتردد له صورة فون ميترر بمرارة خبيثة ، كما رددت في العام الماضي : « ستحدث جلبة كبيرة » • ما أسوأ هذا الكلام ، وما أوقح هذه اللهجة فوق ذلك !•• جلبة كبيرة ••• جلبة •• جلبة ••• ويهتز وجه فون ميترر وهو ينطق بهذه الكلمات ، ويصفر ، ويصبح وجه جثة • ثم يتغير الوجه فلا يكون وجه فون ميترر ، بل رأسا مقطوعا شاحبا داميا يترنح على حربة الثائر الذي لمحه دافيل من نافذة بيته بباريز قبل عشرين عاما •

سحب دافيل يده فجأة ، وانتفض خارجا من وسنه ، ليبعد هول هذا الوجه الذي جاء يعذّبه فوق عذابه ! ودقت ساعة الحائط الكبيرة في الحجرة المدفأة •

ان الربيع يحمل نذرا أليمة •

اذا صدقت النشرات والبُرُد الكثيرة والصحافة ، فان أمورا خطيرة تتهيأ الآن • ان آلة الحرب في الامبراطورية أخذت تتحرك • وما من مخاطَب يستطيع دافيل أن يحدثه ، أن يدرس معه الاحتمالات، أن يراقب بواسطته مخاوفه وشكوكه ، أن يستمد منه آراء أخرى، أي أن يرى أثناء أحاديث ذكية تجري بينه وبينه ما هو جانب الصواب في مخاوفه وما هو جانب الوهم الناشيء من الخيال والخوف والتعب ! ان دافيل ، كسائر المنعزلين المضنين المرهقين ، يود لو يرى في أحاديث شخص آخر أو في نظرات شخص آخر مصداقا لآرائه ، وحافزا الى العمل ، بدلا من أن يبحث عن ذلك في ذات نفسه • من سوء الحظ أن المرء يجد دائما من ينصحه ، الا حين يكون في حاجة الى النصح • فما من أحد يحدثك عندئذ حديثا صادقا صريحا في الامور التي تقلقك وتعذبك •

فون باولتش منصرف الى عمله ، وما يزال على العهد به جمالا ساحقا وكياسة باردة • آلة نمسوية تسير بلا خطأ ولا تردد • وكان القنصلان ، اذا التقيا عرضا ، يتحدثان عن فرجيل أو عن نوايا بلاطات أوروبا ، ولكن دافيل لا يستطيع معه أن يتحقق من مخاوفه وهواجسه • ان فون باولتش لا يقول الا أمورا عامة عن « صلات القرابة والتحالف بين بلاطي النمسا وفرنسا » وعن « روح التعقل والتبصر لدى أولئك الذين يقررون مصير الدول الاوروبية متعاونين » ، ويتحاشى قول أية كلمة عن رأيه في المستقبل • ودافيل لا يجرؤ أن يطرح عليه أسئلة مباشرة ، مخافة أن يفضح نفسه ، ويكتفي بأن ينظر محموما الى عينيه العجيبتين اللتين لهما زرقة قاتمة واللتين يرى فيهما دائما ذلك التحفظ العاتي الذي لا يرحم •

وليس مفيدا أن يتحدث في هذا الى دافنا • ان دافنا لا يعنى الا

بالامور المحسوسة والمسائل الملموسة • وكل ما يخرج عن هذا الاطار فلا وجود له في نظره •

لم يبق لدافيل اذن الا أحاديثه مع ابراهيم باشا ورجال القصر • وما استطاع أن يعرفه دافيل من الوزير منذ سنين كان على صورة هذا الوزير معادا مكرورا •

نحن في أوائل نيسان • والوزير يكون في هذه الفترة من العام مهتاج الاعصاب قلقا ، لاقتراب اللحظة التي يجب عليه فيها أن يعدّ الجيوش لمحاربة الصرب • القسطنطينية تطلب أمورا تفوق قوى ابراهيم باشا كثيرا ، فهو يشكو أمره الى دافيل ، آملا هو أيضا أن يجد في هذه الشكوى تخففا من همومه :

ــ لا يعرف هؤلاء الناس ماذا يعملون ، ذلك كل ما يمكن أن يقال• يأمرونني أن أتقدم بجيوشي أثناء تقدم باشا نيش بجيوشه ، وذلك لمهاجمة العصاة من الجهتين في آن واحد • انهم لا يعرفون أو لايريدون أن يعرفوا الوسائل التي أملكها هنا ! كيف تستطيع أبقاري أن تسير بسرعة خيولهم ؟ أين أجد عشرة آلاف مقاتل ؟ كيف أطعمهم وكيف أسلّحهم ؟ انك لتعلم حق العلم أن المرء لا يستطيع أن يجمع ثلاثة رجال من أهل البوسنة دون أن يتشاجروا ليعرفوا من هو الاول فيهم ، وما من أحد يرضى أن يكون الاخير طبعا • وهبني استطعت ذلك ، ففيم يفيدني مادام هؤلاء الابطال البوسنيون لا يريدون أن يقاتلوا على الضفة الاخرى من نهر ساف ومن نهر درينا ؟ ان شجاعتهم وبطولتهم الاسطوريتين تتوقفان على حدود بلادهم •

واضح أن الوزير كان عاجزا في هذه اللحظة عن التفكير في شيء آخر • انه يكاد يتحمس ، ان صح وصفه بالحماسة ، وها هو ذا يقوم بحركة من يده كأنما ليطردمن نفسه هذا الهمّ الذي يحاصره •

ـ ثم ان بلاد الصرب هذه لا تستحق أن تتكلم عنها هذا الكلام كله . آه ... ليت السلطان سليم كان حيا ، اذن لجرى كل شيء مجرى آخر .

ومتى ُوضع السلطان سليم على بساط البحث أصبح من المستحيل أن يدور الحديث على غير هذا الموضوع . وكذلك كان الامر في هذا اليوم .

وكان دافيل قد أرسل هدية الى طاهر بك ، لا لشيء الا أن تتاح له فرصة الكلام معه .

ان طاهر بك ، بعد أن قضى في فراشه شطرا كبيرا من الشتاء ، قد أبلّ الآن وامتلأ نشاطا وأصبح يتدفق في الكلام ، فحركاته نشيطة وان تكن مصطنعة . وقد لوحت شمس نيسان وجهه منذ الآن . وعيناه تلتمعان التماع الأعين في سكر .

تكلم بسرعة وحرارة عن ترافنك ، عن فصول الشتاء التي قضياها كلاهما هنا (قضى هو الشتاء الرابع وقضى دافيل الشتاء السادس) ، عن عواطف الصداقة والمودة التي شعر بها الوزير وشعروا بها جميعا ، طوال هذه المدة ، نحو القنصل ونحو زوجته الكريمة ؛ ثم انتقل الى الكلام على الاولاد ، وعلى الربيع ، وعلى موضوعات أخرى كثيرة ، فكانت أحاديثه مقطّعة في الظاهر ، لكنها مرتبطة أوثق ارتباط بحالته النفسية حينذاك . كان طاهر بك يتحدث كمن يقرأ ، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة متأثرة ، ولاح في وجهه أنه يكتشف ما يقوله لحظةَ يقوله :

ـ الربيع يسوّي كل شيء ويصلح كل شيء . ما أزهرت الارض ثم أزهرت ، وما بقي بشـر يمتعون أبصارهم برؤية الزهر ، فكل شيء بخير .

قال ذلك ثم أوضح فكرته وهو يقوم بحركة خفيفة من يده السماء

الملفوحة ذات الاظافر الزرقاء المخططة تخطيطا عجيبا :

ـ وسيبقى بشر ، لان الذين يصبحون عاجزين عن رؤية الشمس والازهار يزولون ، ويحل محلّهم وافدون جدد . وقديما قال الشاعر : « بالاطفال يتجدد نهر الحياة ويروق » .

وكان دافيل يؤيد كلامه ويبتسم له وهو ينظر الى وجهه المبتسم ، ويقول لنفسه : « لا يعلم الا الله ما هي الحاجة النفسية التي تدفع هذا الرجل الى قول هذا الكلام في هذه اللحظة » .

وانحرف الحديث من الكلام على الربيع وعلى الاولاد الى الكلام على الامبراطوريات والحروب . فكان طاهر بك يقبل كل رأي ، ويتحدث عن كل شيء ، وهو على تلك الحال نفسها من النشوة الهادئة المبتسمة ، كأنه يقرأ نصا لطيفا جديدا .

ـ نعم لقد سمعنا نحن أيضا أن حروبا جديدة ستقع : من الذي يشن الحرب ؟ مع من ؟ ضد من ؟ سيُعرف ذلك فيما بعد ، ولكن يظهر أن نشوب الحرب في هذا الصيف أمر محقق .

سأله دافيل في لجاجة أليمة :

ـ أأنت واثق ؟

فأجابه السكرتير ضاحكا :

ـ واثق ، لأن صحفكم تقول ذلك ، وليس هناك ما يدعوني الى أن لا أصدقها .

ومال طاهر بك برأسه قليلا ، وألقى على دافيل ، رغم حَوَلـه ، نظرة واضحة كالنظرات التي تلقيها الثعالب والسمامير على الحيوان الذي تقتله فتمتص دمه دون أن تمسّ لحمه . وأردف يقول :

ـ أنا واثق ، لان الحرب قائمة بين البلاد المسيحية منذ قرون فيما أعلم .

فقاطعه دافيل قائلا :

ــ والبلاد الشرقية وغير المسيحية تتحارب أيضا •

ــ تتحارب أيضا ، نعم • ولكن هناك فرق : ان البلاد الاسلامية تحارب بدون نفاق • هي ترى الحرب سبيلا الى تحقيق رسالتها على الارض•لقد وصل الاسلام الى اوروبا بالقتال ، وبقي في اوروبا بحروب قام بها أو بحروب قامت بين البلاد الاوروبية • أما البلاد المسيحية فهي تستنكر الحرب فيما أعلم ، حتى أن كل بلد من هذه البلاد يلقي تبعة قيام الحرب على البلاد الاخرى • وتظل هذه البلاد تحترب رغم ذلك •

قال دافيل ليشجعه على المضي في الحديث ، وليجره الى الكلام على النزاع الروسي الفرنسي بغية أن يعرف رأيه :

ــ في نظرتك جانب من صواب ولا شك ، ولكن هل تعتقد أن قيصر روسيا يريد أن يعـــادي أكبر امبراطور مسيحي وأكبر جيش مسيحي ؟

فأجاب السكرتير وقد ازدادت عيناه وضوحا وحولا :

ــ لا أعرف نيات القيصر أيها السيد العزيز ، ولكنني أسمح لنفسي بلفت نظرك الى أمرٍ لاحظته منذ زمن طويل ، هو أن الحرب تقوم دائما في داخل حدود اوروبا المسيحية ، وأنها لا تزيد على أن تنتقل من طرف الى طرف فيها ، كما يُنقّل المرء جمرة من يد الى يد حتى لا تحترق يداه الا أقل احتراق • أما الآن فالحرب تشب في مكان على الحدود الاوروبية من روسيا •

أدرك دافيل أنه لن يفهم من السكرتير أيضا شيئا عن الامر الذي يقض مضاجعه ، لان السكرتير ، كمولاه ، لا يتكلم الا فيما تفرضه عليه حاجة نفسية الى حين • ومع ذلك أراد دافيل أن يقوم بمحاولة أخرى أقرب الى الصراحة والقسوة ، قال :

ـ معروف أن الهدف الرئيسي الذي ترمي اليه سياسة الروس هو تحرير اخوانهم في الـدين ، أي تحرير الاقاليم التـي تخضع اليوم للعثمانيين • لذلك يرى كثير من الناس أن ما ينتويه الروس موجه ضد تركيا أكثر مما هو موجه ضد البلاد الغربية •

ولكن السكرتير لم يستجب لمحاولة دافيل فيخرج عن طوره ؛ قال:

ـ ليس ما يرجّحه الناس هو الذي يقع دائما • وهب رأي الناس صادقا ، فليس يصعب على المرء أن يتنبأ بمجرى الاحداث • ليس سرا أن هذه البلاد قد ُأخذت بالحرب ، فبالحرب اذن انما سيدافَع عنهـا وبالحرب انما ستُفقد •• اذا ُفقدت • ولكن هذا كله لا يغير شيئا مما قلته لك •

وعاد طاهر الى رأيه في عناد قائلا :

ـ اذا راقبت الامور وجدت أنه حيثما ُتقمْ أوروبا سلطتهـا وتفرض عاداتها وقوانينها تنشب الحرب ، الحرب بين المسيحيين • هذا ما يقع في أفريقيا ، وفي أمريكا ، وفي الاجزاء الاوروبية من الامبراطورية العثمانية حين تسقط في يد دولة مسيحية • فاذا شاءت ارادة الله أن نفقد هذه المناطق وأن تصبح هذه البلاد دولةً مسيحية ، فان ذلك لن يغير من أمرها شيئا • ومن الجائز جدا ، بعد قرن من الزمان أو قرنين ، فـي هذا المكان نفسه الذي نتحدث فيه نحن الاثنين عن امكان وقوع حرب تركية مسيحية ، من الجائز جدا أن يأخذ المسيحيون ، بعد تحررهم من الاحتلال العثماني ، بقتل بعضهم بعضا وذبح بعضهم بعضا •

كان طاهر يتخيل هذه الصورة وهو يضحك ملء صدره • وكان دافيل يشاركه الضحك تأدباً ومن أجـل أن يدع للحديث مظهر المتعة والسذاجة ، رغم ما شعر به من خيبة الامل ومن الاستياء ، لان الحديث جرى هذا المجرى •

وانتهى كل شيء بعودة السكرتير مرة أخرى الى الكلام على الربيع، وعلى خلود الشباب رغم أن شبانا جددا يحلون محل شبان قدامى ، وعلى الصداقة وصلات الجوار التي تجعل المرء قادرا على تحمل الحياة والتمتع بها في بلاد مزعجة .

فكان دافيل يستقبل هذه الاقوال بابتسامة تخفي استياءه .

وفي أثناء العودة من القصر تبادل بضع كلمات مع دافنا كما يحدث ذلك في أحيان كثيرة . سأل القنصل ترجمانه ليبدأ حديثه :

ـ ما رأيك في طاهر بك ؟

ـ رجل مريض .

كذلك أجاب دافنا موجزا ثم صمت .

ـ يبدو في هذه المرة منتعشا انتعاشا خاصا .

ـ هذا هو الامر الذي ليس طبيعيا . انهم ينعشونه فيسرفون . وبسبب ذلك ، لا بد أن يجيء يوم" ...

فقاطعه دافيل منتفضا :

ـ أتظن ذلك ؟

ـ طبعا . هل رأيت عينيه ويديه ؟ ان هـذا الرجل يداوي نفسه بتعجيل ساعة موته ، ولا يعيش الا على العقاقير .

قال دافنا ذلك بلهجة لطيفة لكنها قاطعة .

لم يجب دافيل بشيء . انه ، وقد لُفت نظره ، يستعيد بذاكرته بعض كلام طاهر بك ويتصور ابتسامة ولهجته الخاصة ، فيتراءى له في ذلك كله مرض وغلو وتفكك .

ومع ذلك ساءته هذه الوحشية العامية من دافنا ، دون أن يعرف لماذا . وحثّ حصانه فتقدم الحصان ، وكان هذا اشارة الى أن الحديث قد انتهى . قال لنفسه وهو ينظر الى المنكبين العريضين ، منكبي صف الضابط الذي كان يتقدمهما مرافقا بأمر الوزير : يَدهَش المرء حين يكتشف مدى خلوّ قلوب الناس هنا من تلك الشفقة وذلك العطف الاولين اللذين يعروان قلوب الناس في بلادنا أمام منظر الالم والعذاب. في هذه البلاد يجب أن يكون المرء متسولا ، أو محترقا أو ذا عاهة حتى يثير الشفقة . أما بين الانداد فلا شفقة . لو عشت مائة عام ما ألفت هذه القسوة في الكلام ، وما تعودت هذا النوع من العري الاخلاقي والوحشية العفوية ، وما قسوت الى حيث لا يؤذيني ذلك ولا يجرحني.

وفجأة دوّى فوقهما صوت المؤذن في جامع شارينا . تخيل دافيل وراء هذا الصوت ايمانا قويا مقاتلا مندفعا يزخر به صدر المؤذن . الوقت ظهر . وانطلق مؤذن آخر من جامع ثانٍ لا يُرى . ان صوته العميق المنفعل يتبع صوت مؤذن جامع شارينا أمينا تقيا . وظل الصوتان يرافقان دافيل وحاشيته الى القنصلية ، وهما يتلاقيان فوقه ثم يغيبان في الفضاء .

. . .

جاء عيد البشارة . انقضى اذن عام على تعميد ابنة دافيل الصغيرة. ستحتفل أسرة دافيل بذلك . وانتهز دافيل هذه الفرصة ليدعو الى الغداء زميله فون باولتش ، وقسّ دولاتس الاخ ايفو ، وسادن الكنيسة . قبل الراهبان الدعوة . ولكن سرعان ما لوحظ أن موقفهما لم يتغير . كانا لطيفين غاية اللطف ، ولكنهما ظلا ينظران الى دافيل نظرة مواربةً على مستوى الكتفين . ان القنصل يعرف هذه الطريقة في النظر لدى البوسنيين ، علّمته اياها السنون والاعمال ، وهو يعرف أنه

لا حيلة لاحد في دفع ما تخفيه هذه النظرات ، سواء أسلك الى ذلك طريق اللطف أم سلك اليه طريق العنف • ان دافيل يعرف حق المعرفة تلك العقدة الخفية المريضة التي تثوي في أعماق هؤلاء البوسنيين ، الحسَّاسين في شئونهم ، العنيفين القساة في شئون غيرهم • لذلك هيأ نفسه للانخراط في مبارزة ، وهو يعلم سلفا أنه لن ينتصر ولكن لا بد له من هذا الانخراط •

قبل الغداء وأثناء الغداء ، دار الحديث على أمور عامة في نفاق ومداراة ، بسيطا لطيفا • ولكن الراهب ايفو بلغ من الاسراف في الطعام والشراب أن وجهه الاحمر بطبيعته أصبح يضرب الآن الى لون كلون البنفسج ، ثم انحلت عقدة لسانه آخر الامر • ولا كذلك الراهب الشاب فقد أثر فيه الطعام والشراب تأثيرا آخر ، فشحب وجهه وازداد صمته •

وما ان نشق الراهب ايفو أولى أنفاس الغليون وهو قابض يـده على المائدة (وقد لفتت الانظار قَبضةُ يده المغطاة بزغب كثيف أحمر)، حتى دفع الحديث صراحةً الى الكلام على العلاقات بين السدة الرسولية وبين نابوليون •

دُهش دافيل من دقة معرفته بالامور الخاصة ببعض مراحل هـذا الصراع • انه لا يجهل شيئا من تفاصيل اجتماع المجمع الديني الوطني الذي دعا اليه الامبراطور في العام الفائت ، ولا من المقاومة التي أبداها الاساقفة الفرنسيون ، وهو يعرف كذلك جميع الاماكن التي حُبس فيها البابا ، وجميع الاحوال التي تقلب عليها ، وجميع أنواع الضغط التـي خضع لها •

وأخذ القنصل يدافع عن السياسة الفرنسية ويشرحها ويعللها ، ولكن صوته كان يترجع في أذنه نفسها خاليا من الاقتناع • وحاول لأن يحرف الحديث الى الكلام على الوضع الدولي آمـلا أن يعرف ما يراه وما

يتوقعه من المستقبل القريب هذا الراهب وزملاؤه وسائر الاهالي ، ولكن الاخ ايفو لم يخطر بباله لحظة أن ينخرط في الكلام على أمور عامة من هذا النوع . انه لا يعرف شيئا غير ما تمليه عليه طبيعته الجامحة وايمانه المتعصب . أما في كل ما عدا ذلك فكان لا يزيد على أن ينظر الى فون باولتش كأنه يستفتيه في الامر ويستلهم رأيه ؛ وكان فون باولتش يتحدث مع السيدة دافيل متنحيا بعض التنحي . واضح أن أمر الروس والفرنسيين لا يعني الراهب ايفو في قليل ولا كثير . فهو لا ينفك يردد ، بصوته الذي يعدُّ نحيلا صافرا بالقياس الى جسمه البدين ، أن الامة التي تعامل الكنيسة ورئيسها هذه المعاملة لا بد أن تلقى أسوأ مصير .

قال الراهب ايفو جوابا على محاولةدافيل سبرَ رأيه :

ــ لست أعرف يا سيادة القنصل هل يحارب جيشكم روسيا أو غير روسيا ، ولكنني مقتنع ــ أقول لك ذلك بصراحة ــ بأن هذا الجيش لن يُبارك أنىّ اتجه ، لان من يعامل الكنيسة هذه المعاملة ...

ويمضي الراهب ايفو يكيل التهم لنابوليون ، مستندا الى شواهد مستمدة من الرسالة البابوية الاخيرة ، ذاكرا « الطعنات الجديدة العميقة التي ما تنفك تتناول السلطة الرسولية في كل يوم ، فتضرب حقوق الكنيسة ، وتنال من قداسة الدين ، وتسيء الى البشر » .

شعر دافيل مرة أخرى ــ وذلك شعور ليس ابن اليوم بل يرجع عهده الى سنين طويلة ــ شعر وهو ينظر الى الراهب الثقيل الجسم العابس الوجه الذي لا يتزحزح عن مكانه قيد شعرة ، أن هذا الرجل يفيض غضبا وحقدا ينتشران في كل كلمة من كلماته بصفير أبح ، وأن آراءه وأقواله عن البابا نفسه ليست في حقيقة الامر الا حجة يتخذها لتفجير هذا الحقد ، ولارواء ظمئه الى التحدي .

والى جانب القس السمين كان يجلس الراهب الشاب ساكنا هادئا ، يشبه زميله بوضعه وردائه لكنه لا يشبهه بشيء عدا ذلك • انه يضع قبضة يده على المائدة هو أيضا ، لكنها قبضة صغيرة بيضاء لها أصابع محمَّرة لا تكاد تُرى • اذا نظرت اليه في صمته الابكم تخليته « مصغَّرا » للراهب ايفو الضخم القوي •

وعلى الطرف الآخر من المائدة كان يدور حديث نشيط بين السيدة دافيل وفون باولتش • ان السيدة دافيل ، منذ وصول الليوتنان كولونيل ، قد دهشت وسُرَّت باهتمامه الصادق ومعرفته العجيبة بكل ما له علاقة بالمنزل وأثاثه وشئونه وحاجاته ، كما دُهش دافيل وسُرَّ بمعرفته بفرجيل وأوفيد على نحو ما كان فون ميترر في زمانه عارفا بالشئون العسكرية • فكلما التقت السيدة دافيل بفون باولتش جرى الحديث بينهما على هذه المواضيع الممتعة التي لا تنتهي • وفي ذلك اليوم ، كانا لا يتحدثان الا عن الاثاث وعن طريقة حماية الامتعة من مناخ هذه البلاد •

الحق أن معارف الليوتنان كولونيل لا ينضب معينها ولا حدود لها• انه يتكلم في كل شيء من الاشياء كأنه الشيء الوحيد الذي يعنيه في تلك اللحظة ، وهو يعالج كل أمر من الامور بموضوعية باردة بعيدة خالية من أي طابع شخصي • انه يشرح تأثير الرطوبة في مختلف أنواع الخشب المستعملة في داخل المنزل ، ويتحدث عن النباتات البحرية أو عن شعر الخيل الذي تحشى به الارائك ، بتجربة علمية تماما كأن الامر أمر تأثيث المنازل عامةً لا أمر تأثيث منزله هو •

وكان الليوتنان كولونيل يتكلم بلغة فرنسية منتقاة ، بطيئة بعض البطء لكنها تتميز تميزا ممتعا عن فرنسية فون ميترر الذي يستعمل ألفاظا مبتذلة وينطق نطقا سريعا على ما هو مألوف لدى الشرقيين ،

والذي سرعان ما تصبح فرنسيته هـذه ثقيلةً على النفس لا تطاق ٠ وكانت السيدة دافيل تسعف فون باولتش حين لا توافيه الكلمات ٠

انها سعيدة بالتحدث مع هذا الرجل المهذب الدقيق في أمور هي ما يعنيها قبل كل شيء آخر ٠ والسيدة دافيل ، سواء في الحـديث أو في العمل أو في الصلاة ، مساوية لنفسها دائما ، نشيطة لطيفة ، لا تعرف التردد ولا تعرف اضطراب الفكر ، واثقة بالله واثقة بالمستقبل، واثقة بكل عطاء الارض وكل قدرة البشر ٠

فكان دافيل ، كلما نظر الى هذه الوجوه من حوله ، وكلما سمع هذه الاصوات ، يخاطب نفسه بقوله : « انهم جميعا هادئون راكنون ٠ انهم جميعا يعرفون ماذا يريدون ، ولو الى حين ٠ وأنا الشخص الوحيد الذي يقلقني الغد ويرهبني ٠ أنا المتعب الوحيد ، أنا الشقي الوحيد ٠ وأنا مضطر فوق ذلك أن لا أكشف عما بنفسي ، أن لا أفضح نفسي»٠

٠ ٠ ٠

في ذلك الربيع ، وصل الى ترافنك المطران كالينيك والاسقف المساعد يوانيكييه من الكنيسة الارثوذكسية ٠ وقد دعاهما دافيل الى الغداء أيضا ، آملا أن يعرف آراءهما في الاحداث الاخيرة ٠

المطران رجل سمين لمفاوي يدل مظهره على أنه مريض ٠ وهو يضع على عينيه نظارتين يتفاوت سُمك زجاجتيهما الكبيرتين ، فيتشوه من ذلك منظر عينيه تشوها فظيعا حتى لتحسب أنها توشكان أن تخرجا من حجاجيهما وتسقطا على الأرض ٠ انه ليّن العريكة لطيف العشرة ، يكيل المديح لجميع الدول الكبرى بطريقة واحدة ولهجة مسالمة مصالحة ٠ وهو على كل حـال يستعمل عبارات واحدة في كل أمر من الامور ، بغير اختيار وبغير احكام ، بل وبدون أن يولي كلامه كبير اهتمام ، مهما

تكن الظروف ومهما تكن الآراء التي يريد شرحها . ان هذا الغلو في التلطف الذي يخفي استهتارا أكيداً واستخفافاً كاملا بما يقوله أو قد يقوله الآخرون ، أمر مألوف في الكهنة الطاعنين في السن من جميع الديانات .

ولا كذلك الأسقف يوانيكيه ، الراهب القوي البدين ، الممتلىء الوجه بلحية سوداء . ان له وجهاً غاضباً ، وان في وضعه شيئاً قاطعاً جازماً عسكرياً ، كأنه يخفي تحت مسوحه الأسود درعاً وعدة قتال . والأتراك يتهمونه بأن له صلات بعصاة الصرب ، ولكن لم يثبت عليه شيء بهذا الصدد .

انه يجيب على أسئلة دافيل اجابة موجزة لكنها صريحة خشنة :

ــ تريد أن تعرف هل أؤيد الروس ، وأنا أقول لك اننا نؤيد من يساعدنا على البقاء ومن يحررنا بعد ذلك . أنت تعيش هنا على الاقل ، فتعرف اذن ما نقاسي . لذلك يجب أن لا يستغرب أحد" ...

التفت المطران نحو الأسقف وغمزه بعينيه غير المعبرتين اللتين تتراءيان فظيعتين وراء نظارتيه . ولكن الأسقف استمر في كلامه لايبالي :

ــ ان الدول المسيحية تحترب بدلا من أن تتعاون على انهاء هذه الكارثة الى الأبد . واحترابها يدوم منذ قرون ، ثم تأتي أنت فتريد أن تعرف من تؤيد ...

التفت المطران مرة أخرى ، فلما لا حظ أن الغمز لايجدي ، قاطع الأسقف يقول بلهجة الدعاء والصلاة :

ــ حفظ الله وأيد الدول المسيحية التي يرسلها الله ويرعاها الله ! اننا نضرع الى الله دائماً أن ...

ولكن الأسقف قاطعه متجهاً بالكلام الى القنصل :

ـ نحن نؤيد روسيا أيها السيد ، ونؤيـد تحرير المسيحيين من اضطهاد الكفار . نحن نؤيد هـذا ، واذا قال لك أحد غير ذلك فلا تصدقه ...

وتدخل المطران مرة أخرى ، فطفح تودداً وتلطفاً وكلاماً معسولاً وألفاظا عـذبة لا يظفر دافنا بترجمتها الا في عناء وتعجل ، مع اغفال بعضها .

أخذ دافيل يراقب الأسقف المتجهم . ان أنفاسه قصيرة كأنها مخنوقة . وصوته الصافر يتكسر أحياناً ، ويختنق ، وكأن هذا الاختناق انفجار غضب رهيب تراكم منذ زمن طويل فامتلأ به هذا الرجل حتى بلغ منه الحلق ، ما دام يفلت منه في كل كلمة وفي كل حركة .

حاول دافيل أن يشرح للمطران والأسقف ، رغم يأسه من اقناعهما ، نيات حكومته ، وأن يظهرها في أجمل صورة . ولكن لا شيء يمكن أن يمسح عن وجه الأسقف علائم الغضب والاستياء ، كما أن المطران لا يحفل بشيء مما يمكن أن يقال له ، فهذا الكلام كله ليس في رأيه الا دندنة لا قيمة لها ، يستقبلها بما ألف أن يستقبلها به من اكتراث قليل وتلطف منافق .

وكان الراهب باهوميه يرافق هذين الرجلين الكبيرين من رجـال الكنيسة الارثوذكسية ، وهو الراهب النحيل الشاحب الـذي يقوم بالقداس في كنيسة ترافنك . انه مريض في أكثر الأحيـان ، مقوس الظهر ، ترى في وجهه من المرارة والتجعد ما تراه في سائر المصابين بأمراض المعدة . انه لا يزور قنصلية فرنسا الا نادراً ، ويرفض دعواتها بحجة أنه يخشى الأتراك أو بحجة أنه مريض . وكلما التقى به دافيل وحاول بتحية لطيفة أن يعقد معه حديثاً ، تقوس ظهره مزيداً من التقوس

وتقبض وجهه ، وتهربت نظرته (ان دافيل يعرف نظرة البوسينين حق المعرفة) فلم تثبت على مكلّمه بل تلبثت على احدى كتفيه تارة وعلى كتفه الأخرى تارة ثانية . وهو لا ينطلق في حديث حر الا مع دافنا .

لقـد اضطر في ذلك اليوم أن يرافق رئيسيه . فهو يجلس على حافة الكرسي صامتاً متجمعاً كضيف مستاء يهم أن يهرب ؛ وهو ما ينفك ينظر الى أمام دون أن ينبس بكلمة . ولكن حين لقيه دافنا بعد سفر المطران بيوم أو يومين ، وأخذ يكلمه « على طريقته » ، أخـذ الراهب الركيك الأصفر يتكلم وكأنه صحا من نوم ، بل أصبحت نظرته مباشرة وقوية ، وانتعش الحديث بين الرجلين شيئاً بعد شيء . فكان دافنا يفند براهينه ويدحض آراءه قائلاً له ان على جميع الشعوب وجميع الأديان وجميع من يبغون شيئاً ويرجون شيئاً أن يتجهـوا بأبصارهم صوب الامبراطور الجبار ، لا صوبَ روسيا ، الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تخضع لسلطانه والتي سيهزمها في هذا الصيف .

فما ان سمع الراهب هذا الكلام حتى فغر فمه واسعاً ــ وهو في العادة مطبق على تشنج ــ فكشف في هذا الوجه الضيّق المبهم عن أسنان ضخمة متسعة كأسنان ذئب ؛ ثم اذا بامارات فرح ساخر تبدو فجأة على كل جهة من جهتي الفم فيراها دافنا في هذا الوجه أول مرة . ورد الراهب رأسه الى وراء وراح يقهقه قهقهة مجلجلة فرحة هازئة لا يتوقع دافنا مثلها في مثله ، فلبث حائراً مشدوهاً . ولكن هذه النوبة لم تدم الا لحظة . فسرعان ما استرد وجه الراهب غضونه المعهودة ، فصغر وقصر وتقبض ، ثم التفت الراهب قليلا يلقى نظرة سريعة على ما حوله ، ليرى هل بقربهما أحد ، فلما لم ير أحداً قرّب رأسه من أذن دافنا اليمنى وقال له بصوت نشيط قوي يناسب ما كان عليه منذ هنيهة من ضحك أكثر مما يناسب وضعه الراهن :

ـ اسمع ما أقوله لك أيها الجار العزيز : أشطب هذا من دفاترك •

قال الراهب هذا الكلام وهو مائل على صاحبه ميل من يفضي اليه بسر ،ويشعر نحوه بمودة وصداقة ، ويتخذ ما يجب اتخاذه من حيطة ، وكأنه يهدي اليه هدية ثمينة • ثم حيّاه بسرعة ، ومضى يتابع طريقه في الشوارع الرئيسية •

الفصل الثاني والعشرون

هؤلاء الأجانب الذين جيء بهم الى الوادي الضيق الرطب ، وحكم عليهم أن يعيشوا هنالك زمناً غير محدود في أحوال غير طبيعية ، كانت مصائرهم تغذ الخطى مبكرة النضج سريعة الجـريان . ان الظروف الخارقة التي ألقوا فيها قد أعجلت تفتح البذور النفسية التي حملوها الى هذا المكان حين وصلوه ، فهي تدفعهم في طريق أهـوائهم دفعاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، فاذا بهذه الأهواء تجمح جموحاً ما كان لها أن تعرفه لو أحاطت بها ظروف غير هذه الظروف .

منذ الأشهر الأولى التي انقضت على وصول فون باولتش بدا واضحا أن العلاقات بين القنصل الجديد والترجمـان روتا ستكون صعبة وانها ستئول الى نزاع صريح عاجلا أو آجلاً . والحق أن من المستحيل أن يوجد في العالم شخصان متنافران هذا التنافر ومهيئان للاختـلاف الكامل هذا التهيؤ .

ان الليوتنان كولونيل المتحفظ الجاف الذي ينشر من حوله هذا الجو من البرودة القاسية والضياء الشفاف ، يثير الاضطراب والحنـق في نفس الترجمان المغرور ، اذ يوقظ فيه حسابات مشوشة لا نهاية لعددها كانت الى ذلك الحين نائمة مختبئة .

خطأ أن نقول ان هذين الانسانين ينفِّر كل منهما صاحبه . ذلك أن روتا وحده قد اعترته صدمة حـين احتك بالليوتنان كولونيل ، وأحس أنه يرتطم بكتلة من جليد ، ولم يمنعه هذا من العودة اليه بغير انقطاع ، كأن قانوناً قاهراً يدفعه الى ذلك دفعاً لا راد له .

هل يمكن أن يخطر ببال أحد أن يلتقى رجلان هما من حيث المبدأ ذكيـان معتدلان ، ثم اذا بأحدهمـا يدمّر الثـاني تدميراً ؟ هـذا ما وقع مع ذلك . فان روتا لم يلبث أن أصبح في حالة من التفكك النفسي الكامل ، وسرعان ما قاده وجـود هذا الرئيس الجديـد الى نهايته . كان ما يمتاز به الليوتنان كولونيل من هـدوء وموضوعيـة يشبهان أن يكونا غير انسانيين يفعل في روتا المريض فعلَ السم . لو كان رئيس روتا رجلاً ليناً متسامحاً مثل فون ميترر ، أو كان على عكس ذلك رجلا عنيفاً نزقاً خاضعاً لهوى من الأهواء الانسانية ولو كان هـذا الهوى أسوأ الأهواء ، اذن لاستطاع روتا أن يبقى : فاذا كانت الأولى عاش من روح اللين والتسامح ، واذا كانت الثانية اشتدت أهواؤه هو بتلاقيها مع أهواء رئيسه ، فقام ثمة توازن . ولكن ما حيلته في رئيس من هذه الطينة ؟ كان روتا يرتطم كالمسعور بجدار من جليد أو بحزمة من ضياء لا وجود له .

نظام فون باولتش في العمل ، وطريقته في الحياة ، ونظرته الى الأمور ، كل ذلك قد حطّم مركز روتا . يجب أن نذكر قبل كل شيء أن حاجة الليوتنان كولونيل الى روتا لم تكن كحاجة فون ميترر اليه. لقد كان الترجمان ضرورة لفون ميترر لا يستطيع الاستغناء عنها . كان روتا بالنسبة الى فون ميترر ستارا يختفي وراءه في الخصومات الحرجة الصعبة ، بل كان أشبه بقفاز ليديه حين يريد أن يلامس أموراً ليست على جانب كبير من النظافة . يضاف الى ذلك أن الظروف ، منذ السنوات الأخيرة خاصةً قد جعلت روتا نوعاً من المتكأ يستند اليه فون ميترر . فحين كان فون ميترر ، أثناء الأزمات العائلية أو صعوبات العمل ، يصاب بوهن طارىء ناشيء عن الاجهاد أو عن حالة كبده ، كان روتا يسنده ويسرّي عنه ، فهو يمسك « القضية » بيديه ، ويُشعر ذلك الانسان المرهق بشيء من العزاء ويوقظ في نفسه عاطفة العرفان

بالجميل . انه يحل « القضية » بسهولة ، حتى لكأنها لم تكن صعبة ، ولا كانت بغير حل الا في نظر فون ميترر .

فكيف يمكن تصور حالٍ كهذه الحال مع فون باولتش ؟ ان العمل عند القنصل الجديد مرتب دائماً ، منظم دائماً ، كأنه مائدة شطرنج يحرك عليها القنصل ِقطَعَه حاضرَ الذهن سديد النظرة ، كلاعب يفكر طويلا ، ، ولكنه لا يعرف الخوف قبل الحركة ولا الندامة بعدها ، وليس في حاجة الى أن ينصحه أحد أو أن يحميه أحد أو أن يسنده أحـد .

وكانت هذه الطريقة في العمل تحرم روتا من آخر ملذات حياته الحزينة الخائبة . ذلك أنه في سقوطه وفوضى نفسه أصبح منذ زمن بعيد لا يعرف الا فرحة واحدة ، لا يعرف الا شعوراً وهمياً واحداً بالقوة ، لا يعرف الا علامة ظاهرية واحدة على الاستقلال والسيادة : هي قدرته على أن يتصرف تصرفاً فظاً غليظاً مع الآخرين ، مع من هم دونه ، مع جميع أولئك الذين لا يقدرون عليه ومع جميع أولئك الذين يخضعون له ويرتبطون به .

كان حين يخرج من مشهدٍ استطاع خلاله أن يصرخ وأن يشتم شخصاً لا يقدر أو لا يعرف أو لا يجرؤ أن يرد عليه ، وقد انتفخ تعاظماً وتباعد ساقاه واحمر وجهه ، كان حين يخرج من مثل هذا المشهد يشعر، خلال لحظة قصيرةٍ لكنها رائعة ، بهناءة عميقة وسعادة لا حدود لها ، لأنه استطاع أن يحطم شيئاً ، استطاع أن يسحق شخصاً ، استطاع أن يُعدم انساناً . انه في أثناء ذلك يقيس خصمه الصامت الذي يود لو يغور تحت الأرض ، فيحسُّ أنه يرقى فوق مستوى البشر ، ولكنه يظل قريبا منهم بحيث يستطيعون جميعاً أن يروه وأن يقدروا قوته ويحسوا بعظمته . والآن يريد هذا الليوتنان كولونيل أن يحرمه حتى من هذا السراب ، سراب السعادة .

ان مجرد وجود هذا الرئيس يمنعه من اتخاذ أوضاع كتلك الأوضاع • ما من وهمٍ يمكن أن يبقى أمام النظرة الباردة من عينيه الزرقاوين القاتمتين • ان جميع الأوهام تسقط أمام هذه النظرة وتتحطم وترتد الى العدم الذي جاءت منه •

منذ الأسابيع الأولى انتهز فون باولتش أول فرصة فقال لروتا ان هنالك أسلوباً أنيقاً رصيناً في سؤال الناس شيئا من الأشياء بغية الحصول منهم على ما يراد الحصول عليه ، وانه على كل حال لا يفهم أن يعمد موظفو القنصلية الى غير هذا الأسلوب في معاملة الناس ، سواء في مكاتب القنصلية وفي خارجها • حاول روتا ، للمرة الأولى والأخيرة ، أن يغير رأي القنصل ، فلم يظفر بطائل ، وشعر روتا الذي كان قبل ذلك واثقاً بذكائه وجرأته ، أنه أصبح بغير سلاح البتة ، فارتجفت شفتاه ، وقال وهو يقرع الأرض بقدميه ، خافضاً جفنيه راجعاً برأسه الى وراء :

ـ أوامرك ستنفذ ، سيدي الليوتنان كولونيل •

ثم خرج •

وحاول روتا مرة أخرى ، سواء لأنه نسي أو لأنه أراد أن يمتحن قوة رئيسه وثباته ، حاول أن يتهجم على بعض المرءوسين وأن يهينهم • فلما علم القنصل بذلك استدعاه وقال له انه اذا عاد الى هذا فسوف يعاقب العقاب الذي ينص عليه القانون بشأن الخروج المتكرر على النظام • ولاحظ روتا يومئذ أن عيني القنصل قد تضيقتا وتوهج طرفاهما بشعلتين مهددتين ، وأن ذلك قد بدل نظرته وغيَّر تعبير وجهه كله • وانطوى الترجمان على نفسه منذ ذلك الحين خائفاً مذعوراً ، يجتر كرهه لرئيسه في قرارة قلب مترع بالحقد والضغينة وحب الانتقام •

وحاول فون باولتش بعد أن درس حالة روتا ببساطة باردة على عادته ، أن لا يستخدمه الا في القليل النادر • حمّله بريدا الى برود والي كوستاينتسا ، وانتظر أن يُعيَّن فون ميترر لوظيفة جديدة فيأخذه اليه • لكنه لم يعمل شيئاً من أجل ابعاده عن ترافنك • ومن العجيب أن روتا لم يخطر بباله أن يقدم استقالته ، رغم أن وظيفته أصبحت لا تحمل له أي رضى • فكان يحوم ويدور حول القنصل كمن نوِّم تنويماً مغناطيسياً ، ولا ينفك يرتطم بهذا الرئيس البارد الواضح في صراع خفي غير ظاهر •

وكان دافنا يعرف أو يحزر كل ما يجري في ترافنك ، فسرعان ما أدرك وضع روتا ، فخطر بباله أن القنصلية الفرنسية تستطيع أن تستغله • والتقى دافنا بالترجمان النمسوي في ذات يوم ، فدار بين الرجلين حديث من تلك الأحاديث المسترسلة ، وقال دافنا لصاحبه روتا مازحا ان في وسعه أن يعتمد على حماية قنصلية فرنسا اذا اقتضى الامر ذلك ، فأجابه روتا بمزحة أخرى •

بعد المشاجرات الاولى ساد بين فون باولتش وترجمانه هدوء مخاتل خلال عام برمته • ولو أناليوتنان كولونيل كلف روتا ببعض الاعمال ، لو أنه كان يأمره بشيء ، لو أنه أظهر له استياءً أو كرهاً ، فلربما استطاع روتا أن يحتمل الوضع وأن يصبر الى النهاية • ولكن برودة القنصل وطريقته في تجاهل شخص روتا تجاهلاً كاملا ، كان لا بد أن تؤديا الى قطيعة •

وجاء ربيع ١٨١٢ فوقعت الواقعة • كان يستحيل على الأحدب القصير أن يظل يحيا على الهامش مجهولاً ، وأن يظل يكبح أهواءه التي كانت الى ذلك الحين بلا لجام ، وأن تختل عاداته الراسخة هذا الاختلال الكبير • وأصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه فاذا هو يأخذ بالتهجم على الخدم

وعلى الموظفين الصغار ويشاجرهم ، حتى أنه لم يتورع في ذات مرة عن قذف القنصل وتهديده أثناء غيابه ، فكان ذلك يخفف عنه • ولكن النزاع مع القنصل مباشرة ما لبث أن وقع ، فلما قال له القنصل بهدوء وبرودة انه سيطبق في حقه القانون ، وانه سيرسله الى برود لخروجه على النظام وابتعاده عن العقل ، وجد روتا في نفسه من القوة ما يمكنه من مجابهته رأساً ومن معاملته بفظاظة ما بعدها فظاظة ، قائلاً له انك لا تملك ذلك ، وانني أنا الذي سأقصيك عن ترافنك • فما كان من فون باولتش الا أن أصدر أمره برمي أمتعة روتا خارج القنصلية ، وبمنعه من دخول القنصلية بعد الآن ، وأبلغ محافظ المدينة في الوقت نفسه أن نيقولا روتا قد أنهيت خدمته في قنصلية النمسا العامة ، فأصبح لا يتمتع بالحماية الامبراطورية ، وأصبح بقاؤه في ترافنك أمراً غير مرغوب فيه •

توجه روتا الى دافنا رأساً وطلب بواسطته حماية قنصلية فرنسا •

ما من فضيحة كهذه الفضيحة وما من جلبة كهذه الجلبة وقعت منذ افتتاح القنصليتين • ان اعتناق كولونيا الاسلام وموته المشبوه لم يولّدا من الانفعال ومن الذهاب والاياب ما ولّده هذا الحادث • ثم ان قصة كولونيا قد حدثت أثناء فتنة وكانت مرحلة من مراحل هذه الفتنة ، على حين أن الايام التي تنقضي الآن هي من أهدأ الأيام • أضف الى ذلك أخيرا أن « الطبيب الايليري » قد مات وصمت ، أما روتا فما يزال حياً ، وصوته ما ينفك يعلو أكثر من أي وقت مضى •

ورأى الناس في مشكلة روتا مع قنصله النمسوي نصراً لدافنا • ولكن دافنا لم يظهر عليه ذلك ، وكان يتصرف تصرف منتصر متواضع عاقل • والواقع أنه كان يحاول أن يستغل الظرف أحسن الاستغلال بحذق وكياسة ومن غير تعجل •

وشعر دافيل فيهذه القضية بتمزق نفسي ، كما كان يشعربهذا التمزق في ظروف أخرى • انه لا يستطيع ولا يجرؤ أن يتنازل عن الفوائد التي تجنيها المصالح الفرنسية من طرد روتا : ان الترجمان الأحدب مدفوع بحكم الظروف وبحكم طبيعته الى الانزلاق في الخيانة الصريحة حتماً ، وهو يبوح شيئاً فشيئاً بكل ما يعرفه عن نشاط رؤسائه وعن نواياهم • ولكن دافيل كان يشعر مع ذلك بانزعاج أليم من اضطراره الى حماية هذين الرجلين الشرقيين اللذين يعرف صغارهما وحطتهما ، ضدّ رجل محترم شريف ذكي كفون باولتش • وكان يتمنى في قرارة نفسه أن تنطفيء هذه القضية وأن تزول بعد أن يستخرج دافنا من صاحبه روتا كل ما يستطيع استخراجه من فوائد • ولكن هذا ليس ما كان يتمناه الترجمانان ، وخاصة روتا • ان روتا ، في صراعه مع القنصل ، يكتشف الآن لأهوائه وشهواته الخبيثة هدفاً شريفاً • وها هو ذا يبعث رسائل طويلة لا الى قنصل النمسا فحسب ، بل الى القائد النمسوي في برود والى الوزارة في فيينا أيضاً ، يشرح الوضع ، ساكتاً بطبيعة الحال عن علاقاته بقنصلية فرنسا • وذهب ذات مرة الى قنصلية النمسا بصحبة خفير القنصلية الفرنسية ، ليأخذ بعض أمتعته ، فوقف على الباب يناقر الموظفين على مرأى ومسمع من الناس ، ويثير مشاجرات صاخبة ، ويلفق مطالب جديدة ، ثم هرع يركض خلال المدينة الى قصر الوزير والى المحافظ • لقد أصبح روتا يتمرغ في الفضيحة كمجنونة لا حياء لها •

لم يفقد فون باولتش هدوءه ، ومع ذلك ارتكب خطيئة : طلب الى المحافظ رسمياً أن يقبض على روتا بتهمة سرقة أوراق رسمية من القنصلية • فاضطر دافيل عندئذ أن يبلغ المحافظ أن روتا قد أصبح في حماية قنصلية فرنسا فلا يجوز القبض عليه ولا تجوز ملاحقته • وأرسل نسخةً عن هذا التبليغ الى فون باولتش ، ذاكراً له أنه يأسف

لهذا الأمر لكنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأن روتا الذي قد يكون مزاجه عنيفاً مزعجاً ، رجل شريف مستقيم وضعَ نفسه في حماية القنصلية الفرنسية •

فاحتج فون باولتش احتجاجاً جافاً على هذه الطريقة التي تعمد اليها قنصلية فرنسا ، اذ تحمي جاسوساً مأجوراً ، تحمي شخصاً سرق أموالاً ، تحمي خائناً • وطلب الى دافيل أن يذكر على غلاف كل رسالة يبعثها بعد الآن أنها لا تتناول قضية روتا ، والا كان مضطراً أن يرد اليه جميع رسائله دون أن يفضها ما ظلت هذه القضية المؤسفة قائمة •

فتأذى دافيل من ذلك وحزن حزناً شديداً ، وأصبحت هذه القضية من أبغض القضايا اليه ومن أشدها ازعاجاً له •

والمحافظ العجوز المعتكر المزاج الذي أُقحم في هذه الخصومة بين القنصلين ، أصبح حانقاً ساخطاً على هؤلاء الناس جميعاً ، ولكنه حانق ساخط على روتا خاصة • فكان يردد ، عدة مرات في اليوم ، وهو ينفخ نفخاً قوياً :

ــ الكلاب تتذابح ، وفي حديقتي أيضا •

وأبلغ القنصلين بواسطة رجل يثق به أنه يؤثر أن يستقيل على أن يتحاربا فوق ظهره المثقل ، على حين أن امبراطوريهما في سلام ووئام • وأضاف الى ذلك قوله انه لا يريد أن يُزعلهما في أي من الامور ، وخاصة في أمر هذا الأحدب المسعور الذي ليس الا خادماً أو ساعياً ، ولا يستحق لذلك أن يكون موضوع مباحثات بين موظفَين امبراطوريين رئيسين • وأرسل الى روتا من يؤنبه ويوبخه قائلا ان عليه ان يهدأ ، وأن يحتفظ بالقليل الذي بقي له من عقل في رأسه ، فبسببه يختصم الآن أكبر شخصيتين في هذه المدينة التي كانت الى الآن هادئة كمعبد ، مع أنه لا يستحق هذا العناء ولو كان رأسه من ذهب وكان

عقله عقل وزير . فاذا أراد أن يعيش في ترافنك ، فالمحافظ يسمح له بذلك ، شريطة أن لا يعكر صفاء المدينة بركضه من قنصلية الى قنصلية وباثارته مشاجرات يجر اليها الاتراك والمسيحيين على السواء ، والا كان عليه أن يختار أحد الطريقين الخارجين من ترافنك ، أن يختاره في أقرب فرصة .

ذلك أن روتا كان في الواقع يملأ المدينة بمشاجراته ، ويقحم فيها جميع من يستطيع اقحامهم . وقد استأجر الطابق العلوي من منزل رجل يقال له بيرو كالاجدتش ، وهو شخص عازب سيء السمعة ، وجاء بعمال من الغجر يضعون على نوافذه قضباناً حديدية ويضعون لجميع أبواب المنزل أقفالا خاصة . واقتنى ، عدا المسدسين الانجليزيين المتنازين اللذين يضعهما تحت وسادته ، اقتنى بندقية طويلة وبارودا ورصاصاً . وأصبح يهيء طعامه بنفسه ، خشية أن يدسّ له سم ، ويتولى القيام بأعمال المنزل بنفسه أيضاً ، خشية أن يسرق أو أن ينهب . ان الحجرات التي يشغلها تسودها تلك الفوضى الصقعة التي تسود بيوت العازبين المستهترين : فالخرق والفضلات يتراكم بعضها فوق بعض في الغبار وسواد الدخان . وبعد فترة من الوقت أصبح المنزل يبدو حتى من الخارج مهملا مهجوراً .

وتغير روتا نفسه أيضاً . تضاءلت قواه ثم زالت . أهمل هندامه . أصبح وسخاً قذراً . انه يلبس قمصانه مجعّدة بلا نشاء مدة طويلة . ربطة عنقه السوداء مغطاة ببقع . أحذيته مهترئة متلوثة بالوحل . وأصبح لشعره الابيض التماعات ضاربة الى صفرة وخضرة . أظافره سوداء . لحيته لا تحلق في مواعيدها . رائحة الطعام والشراب تفوح منه . الناس حين يرونه لا يرون روتا القديم : فلا رأس مرفوع ، ولا مشاجرات مع الآخرين ، ولا مشية واثقة مطمئنة . انه يركض في المدينة بخطى صغيرة متعجلة ، ويفضي بأحاديثه وشوشة لمن لا يزالون يحبون أن

يسمعوا كلامه ، لكنه يرفع صوته عالياً بلهجة متحدية حين يأخذ يندد بقنصل النمسا في المقاهي مقدّماً لمستمعيه عدة كؤوس من الراكي ، لأنه أخذ يدمن على الشراب . انه يفقد في كل يوم شيئاً من وقاره القديم ومن قوته ونبله المصطنعين .

كذلك أصبح يعيش نيقولا روتا متوهماً أنه يخوض معركة كبيرة ضد أعداء رهيبين متنوعين . لقد أعماه حقده المرضي ، فأصبح لا يرى أنه يتبدل تبدلاً سريعاً وأنه ينحدر تاركاً الطريق الـذي قطعه أثناء صعوده الطـويل المحفوف بالمتاعب . انه لا يبصر هـذه المصادفات الصغيرة الكثيرة التي ترجع به القهقرى ، على تيار لا يحس به لكنه لا يستطيع مغالبته ، نحو الحياة الشقية البائسة في حي سان جيوستو من مدينة تريستا التي تركها طفلاً صغيراً ، نحو ذلك العالم الذي يعج ببؤس رهيب ويغوص في رذائل كثيرة ، ذلك العالم الذي حاول النجاة منه بوثوب قوي خلال ثلاثين عاماً وظن أنه حذفه من حياته الى الأبد .

الفصل الثالث والعشرون

ان دافيل الذي يثور على الاعتقادات الخرافية لم يستطع أن يفلت منها هو نفسه . كان الناس في ترافنك يعتقدون مثلاً أن أشهر الصيف تجيء بالمصائب ، وأن الأخبار السيئة توافي في أشهر الصيف . فكان دافيل يقول لنفسه : ذلك أمر طبيعي . فجميع الحروب تبدأ في الصيف، وكذلك جميع الثورات . ان أشهر الصيف أطول من أشهر الشتاء ، فيتسع وقت الناس فيها لاجتراح هذه الآثام واقتراف هذه الحماقات التي تقابل أبقى وأعمق ما في نفوسهم من حاجات . فما ان قال دافيل لنفسه هذا الكلام حتى أصبحت هذه الفكرة مسيطرة عليه : نعم ، ان الصيف يجيء بالكوارث ، وان أشهر الصيف أخطر أشهر العام من جميع النواحي .

وقد بدأ هذا الصيف بنذر شؤم . ففي صباح أحد الايام من شهر أيار ، بعد ساعتين من العمل في جزء من « ملحمة الاسكندر » ، وجد دافيل نفسه مع الشاب فرايسينه الذي جاء الى ترافنك خصيصا ليعرض على القنصل ما آلت اليه المحطة الفرنسية بمدينة سراييفو من حال سيئة ، بالاضافة الى العوائق الكثيرة التي تصطدم بها القوافل الفرنسية عبر البوسنة .

كان الشاب جالساً قرب الشرفة المزهرة ، يتحدث نزقاً على عادة أهل الجنوب . هذه هي السنة الثانية يقضيها في سارايیفو . ولم يجيء قبل ذلك الى ترافنك الا مرة واحدة ، لكنه كان يراسل القنصل العام

بغير انقطاع ، وكانت شكاواه من أهالي البلاد ومن الظروف العامة تحتل في رسائله المكان الاول . لقد خاب ظن الشاب وخارت عزيمته وسيطر عليه اليأس . نحل جسمه ، وابيض شعره في قمة رأسه ، وأصبح وجهه وجه مريض. لاحظ دافيل أن يديه ترتعشان وأن أنفاسه مضطربة. ان الصفاء الهاديء الذي لاح عليه وهو يعرض مشاريعه قبل سنتين على هذه الشرفة نفسها قد زال الآن زوالاً كاملاً . « هذا أثر الحياة في الشرق » ، كذلك قال دافيل لنفسه وهو يحس بذلك الرضى الخبيث الذي يساورنا على غير شعور منا حين نكتشف في الآخرين أعراض أمراضنا . لقد نفذ الشرق في جسم هذا الرجل الشاب ، فخربه وأفسد دمه .

والحق أن فرايسينه كان قد احتد مزاجه وتثبط عزمه . ان التجهم الذي يستولي على الغربيين الوافدين الى هذه المناطق لاعمال ، قد نفذ فيه نفاذاً كاملاً ، ولم يقو هو على السيطرة عليه أو كبحه .

وكانت الحلول التي يقترحها على دافيل حلولاً جذرية . انه يرى أن يُصفّى كل شيء ــ والاسراع في ذلك أفضل ــ وأن يُبحث عن طرق أخرى تجتاز مناطق يمكن أن يعيش فيها المرء وأن يعمل منسجماً مع السكان . وواضح أن « السم الشرقي » أصبح لا يتيح له أن يميّز الواقع ، وأن يُصدر حكماً متزناً ، وأن أعصابه جميعاً وأفكاره جميعاً كانت في صراع دائم مع كل ما كان يحيط به . ان دافيل يعرف هذه الحالة حق المعرفة ، فليس يستطيع أن يمثل أمامه دور الرجل الذي يكبره سناً ويفضله حالاً فيعزيه ويسرّي عنه ويهديء باله . ثم ان الشاب كان يتمرد على كل تعزية ، ويعد كل مواساة تهجماً عليه واهانة له . كان يقول بلهجة حانقة :

ــ لا . انهم لا يستطيعون في باريز أن يتخيلوا كيف نعيش هنا .

لا أحد يقدر أن يتصور ذلك. لا شيء غير العمل مع هؤلاء الناس والحياة بينهم يمكن أن يكشف عن مدى استحالة الثقة بهم والركون اليهم، وعن مدى ما يتصفون به من زهو وكبر وختل ومكر. نحن وحدنا نعرف هذا كله.

خيّل الى دافيل أنه يسمع ما سبق له أن قاله وكتبه مراراً ومراراً. فكان يصغي بانتباه شديد ولا يحوّل بصره عن الشاب الذي يرتعش حنقاً مكظوماً واشمئزازاً شديداً. قال لنفسه: « لا شك أنني على هذه الصورة كنت أبدو للشاب دي فوسيه ولجميع من قلت لهم هذه الأمور نفسها بهذه اللهجة نفسهاوهذه الطريقة نفسها في أحيان كثيرة.» ومع ذلك حاول أن يطمئن الفتى الغاضب وأن يهدىء روعه. قال:

ـــ نعم ان الظروف صعبة. نحن نعرف ذلك بالتجربة. ولكن لا بد من الصبر. يجب أن ينتصر التعقل الفرنسي وأن تنتصر الكبرياء الفرنسية أخيراً على ما فيهم من عنف ومن زهو. وانما ينبغي...

ـــ... ينبغي الهرب ياسيادة القنصل العام، ينبغي الهرب بأقصى سرعة ممكنة. ذلك أننا نفقد هنا ذلك التعقل نفسه وتلك الكبرياء نفسها، بغض النظر عن الجهود التي نبذلها سدى. هذا عن عملي الذي جئت من أجله على كل حال...

قال دافيل لنفسه: « هو المرض نفسه، والاعراض نفسها »، وظل يهدئه، ويحاول أن يقنعه بأن عليه أن يتحمل وأن ينتظر، وبأنه لايمكن ترك هذا العمل، وبأن ساراييفو، في الخطة الامبراطورية الكبرى لنظام القارة الامبراطورية والتنظيم الاقتصادي الأوروبي، هي مركز هام ـــ عاق لكنه هام ـــ وبأن التخلي عن بذل الجهد في نقطة واحدة يهدد الخطة كلها ويسيء بذلك الى أهداف الامبراطور.

ـــ يجب علينا أن نتحمل نصيبنا من الجهد والمرارة. ولئن كنا

لا نميز وجهة هذه الخطة التي نساهم في تحقيقها ، فان نتائجها ستظهر حتماً ، شريطة أن يصمد كل منا في مواقعه وأن لا يتراجع عنها . يجب أن لا يغيب عن بالنا أن العناية الالهية قد وهبت لنا أعظم امبراطور في جميع العصور ، وأن هذا الامبراطور يتحكم بجميع المصائر ومنها مصيرنا ، وأن في وسعنا أن نثق به ثقةً عمياء . ليس مصادفةً أن مصير العالم بين يديه . ان عبقريته وطالعه يقودان كل شيء الى نهاية موفقة سعيدة . يجب أن نعتمد دائماً على هذا وأن ننصرف الى أعمالنا مطمئنين هادئين رغم المصاعب الكبرى التي نلقاها ورغم المتاعب الكثيرة التي نقاسيها .

كان دافيل يصغي الى كلامه هادئاً مرتاحاً ، ويعجب بالالفاظ والحجج التي يدلى بها ولم يستطع يوماً أن يقولها لنفسه خلال ترداداته اليومية ومخاوفه الجمة . كانت فصاحته تزداد شيئاً بعد شيء ، وكانت قوة اقناعه ما تنفك في اشتداد . وقع له ما يقع أحياناً لمربية عجوز تحاول أن تُنيم طفلا من الأطفال بقصٍّ حكاية طويلة له ، فاذا هي تنام قبل أن ينام الطفل . وفي نهاية الحديث كان راضياً عن نفسه مقتنعاً برأيه كل الاقتناع ، بينما كان الشاب الذي يسمّم تجار سارايفو ورجال القوافل حياته لا يزيد على أن يهز رأسه ببطء ، وأن ينظر الى دافيل كازاً شفتيه على مرارة . ان قسمات وجهه التي ترتعش قليلاً تحمل علامات من سوء الهضم وارتشاح الصفراء .

وفيما هما كذلك دخل دافنا ، فاعتذر عن قطع حديثهما ، ثم أبلغ القنصل بصوت منخفض أن بريد القسطنطينية الذي وصل بالأمس قد حمل الى ابراهيم باشا نبأ انتشار الطاعون في منزله . ان الطاعون الذي فشا في القسطنطينية منذ عدة أسابيع قد دخل قصر الوزير القائم على البوسفور ، فأودى في برهة قصيرة بحياة خمسة عشر شخصاً،منهم عدد من الخدم ، ومنهم أيضاً بنت الوزير الكبرى وابنه البالغ من العمر

اثنى عشر عاماً . وقد لجأ باقي الاسرة الى الجبال في الداخل .

تخيل دافيل وجه صاحبه الوزير ، تخيل وجهه الضخمَ المزيَّن على نحو مضحك ، يميل تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال ، ويرتعش ولا شك في هذه الساعة بتأثير هذه الضربات الجديدة .

وتقرر ، عملاً برأي حامل البريد ووفقاً للعادات الشرقية ، أن لا يطلب القنصل مقابلة الوزير فوراً ، وانما يدع ذلك الى أن تنقضي لحظات الحداد الاولى .

وحين استأنف القنصل حديثه مع فرايسينه كان قد امتـلأ بحزنِ غيره ، فازداد حكمةً وازداد دعوة الى التذرع بالصبر . ووعد الفتى ، دون أن يتردد لحظة ، بأن يذهب الى ساريبفو في الشهر القادم ليدرس الاجراءات الواجب اتخاذها مع السلطات هنالك من أجل أن تؤمَّن للقوافل الفرنسية ظروف أفضل .

. . .

بعد ذلك بثلاثة أيام استـُقبل دافيل في القاعة الصيفية من الطابق الاول بالقصر . انتقل رأساً مـن الحر الشديد والضياء الساطع في الخارج الى الجو الطري والظلمة الساجية في الداخل . ارتعش ارتعاش من يدخل سرداباً . كان في الطابق الاعلى قليل من الضوء ، ولكن هناك أيضاً كان يسود ظل مليء بالطراوة اذا قيس بما في الخارج من وهج وقيظ . احدى النوافذ مفتوحة ، ومنها يدخل الى القاعة غصن كثيف من أغصان كرمة .

الوزير مرتد ثياب الاحتفال ، مائل الى أحد الجنبين قليلا كتمثال قديم ، جالس في مكانه المعهود ، لا يظهر عليه أي تغير . فلما رآه دافيل على هذه الحال بذل جهداً من أجل أن يبدو بسيطاً هو أيضاً ،

ومن أجل أن لا يظهر عليه أي تغير ، ولكنــه تساءل ما عساه يقول بمناسبة المصيبة التي نزلت بصاحبه من أجل أن تكون كلماته حــارة مع بقائها متخفية محتشمة لا تــذكر الموتى ـ ولا سيما النساء ـ وتستطيع مع ذلك أن تدل على أنه يفهم حالته ويشاركه حزنه •

وقد سهّل مهمته ما كان عليه الوزير من خدر نفسي يناسب سكونه الجسمي • فبعد أن أصغى الوزير الى عبارات القنصل يترجمها دافنا ، دون أن يقوم بأية حركة ، ودون أن يطرأ على وجهه أي تبدل ، ودون أن يقول كلمةً عن الراحلين الذي خطفهم الطاعون ، انتقل رأساً الى الكلام على مصير الأحياء وعملهم • قال بصوته البارد الــذي يقرع الآذان ، كأنه يتكلم بفم من صخر :

ـ وصل الطاعون الى استامبول ، وصل الى مناطق لا يذكر أحد أنه شهده فيها من قبل ؛ لقد أبى الطاعون الا أن يلبي النداء • وكان لا بد أن يجيء جزاءً لنا على ذنوبنا • وما دام قد جاء الى منزلي فلا شك أنني مذنب أنا أيضاً •

وصمت الوزير • فلم يلبث دافيل أن أمر دافنا ، من حيث هو طبيب ، أن يشرح طبيعة المرض وأن يذكر أن هناك أفراداً أبرياء وأسراً بكاملها قد أهلكها المرض لمجرد انتقال الجرثوم •

أدار الوزير رأسه ببطء ونظر الى دافنا كأنه يلمحه لاول مرة ، نظرةً عمياء من عينيه السوداوين اللتين تنظران دون أن يبدو أنهما تبصران • ثم لم يلبث أن التفت الى دافيل قائلاً :

ـ بل هي الذنوب • كل شيء يأتي من الذنوب • لقد تخلى سكان العاصمة عن الشرف والعقل ، وأصبحوا مجانــين لا يفكرون الا في الرذيلة والترف • والسلطات العليا لا تعمل شيئاً • لقد نشأ هذا الفساد

كله عن موت السلطان سليم • حين كان السلطان سليم على قيد الحياة ، حين كان على رأس الحكم ، كانت الرذيلة في العاصمة تلاحق ملاحقة شديدة ، كان السكارى والعاطلون والاشرار يطاردون ويحاربون • أما الآن ••

وتوقف فجأة عن الكلام ، كآلة فرغ نابضها • حاول دافيل أن يقول بضع كلمة معزّية ملطّفة ، وأن يشرح أن هناك توازناً بين الذنب والقصاص لا بد أن يحصل فيتيح انتهاء الآلام •

فأجاب الوزير رافضاً كل عزاء :

ـــ الله واحد أحد وهو أعدل العادلين •

من خلال النافذة ، كانت تصل زقزقات عصافير لا ترى وتهز أوراق الكرمة المتسللة الى القاعة • وعلى الرابية التي تحجب الأفق تتراءى للناظر حقول القمح الناضج تفصلها حدود خضراء أو أسيجة متوهجة • واذ سكت الباشا ، سمع في الصمت صهيل حصان بمكان على الرابية •

وانتهت المقابلة بكلام عن السلطان سليم الذي قضى نحبه شهيداً • ان الوزير متأثر ، رغم أن تأثره لا يظهر في وجهه ولا في صوته • قال الوزير لدافيل حين استأذن هذا بالانصراف :

ـــ أفرحك الله بأولادك ، وأقر بهم عينيك •

ـــ اسأل الله للوزير السلوان ، وأن تعقب أحزانه أفراح •

ـــ انني بعد كل ما فقدته في هذه الحياة لا أطمع في فرح غير أن انسحب من الميدان فأفرغ للعناية بحديقتي بعيداً عن الناس والأحداث•

قال الوزير هذه الكلمات كمن ينطق بعبارة جاهزة ، ولكنها في

حقيقة الامر كلمات طالما تفكر فيها ، وهي تمثل أعمق تأملاته ، ولهـا في نفسه دلالة عميقة ، وان لم يفهمها الآخرون كثيراً •

• • •

ان صيف عام ١٩١٢ ، الذي بدأ بداية سيئة ، قد تلاحقت أيامه أسوأ من بداياته •

أثناء الحرب الأخيرة ضدّ التكتل الخامس ، في الأشهر الاخيرة من عام ١٨١٠ ، كانت مصاعب دافيل أقل من مصاعبه الآن من جميع النواحي • صحيح أن صراعه مع فون ميترر وتعاونه مع مارمون ومع القادة الفرنسيين على الحدود النمسوية كانا أشد اتعاباً وأكثر ازعاجا ، ولكنهما يملئان أيامه على الأقل ، ويصرفان تفكيره الى مشاغل محسوسة ملموسة ، ويوجهانه نحو غاية يراها ويقترب منها • ثم ان الحملة كانت تتطور تطوراً موفقاً ، وتنتقل من نصر الى نصر انتقالاً سريعاً ، وهذا هو الأمر الاساسي • وجاءت بداية الخريف بمعاهدة فيينا ، فهدّأت الخواطر ولو تهدئة موقتة • أما الآن فان كل شيء يبتعد ويصبح فهمه عسيراً كل العسر ، كما أن فقدان الوضوح في الأهـداف وضخامة الاجراءات المتخذة يبثان الخوف والهلع في النفوس •

ان دافيل يقضي هذه الأشهر من صيف عام ١٨١٢ وخريفه ، ذاهباً آيباً في الممرات من حديقة القنصلية : يحس حياته وفكره رهناً بحركات جيش منخرط في مكان ما بسهول روسيا ، وهو لا يعرف شيئاً عن هذا الجيش ، ولا عن الطرق التي يغامر فيها ، ولا عن وسائله وحظوظه، ولكنه ينتظر كل شيء ، ويتوقع جميع الاحتمالات ، حتى أسوأها • ولا شيء يخفف وطأة هذا التوقع ، وما من أحد يسنده ويشد أزره •

البُرُد تصل كثـيرةً دون أن تحمـل أنباء كبرى عن الحرب •

النشرات تذكر أسماء مدن لا عهد بها من قبل : كوفنو ، فلنا ، فيتبسك سمولسنك ، ولكنها لا تستطيع أن تبدد الشكوك والمخاوف • وهذه النشرات التي كانت تمتليء قبل ذلك بحكايات مرحة وأنباء متنوعة تبدو الآن متعَبة مرهقة صامتة كئيبة ، فما من كذبة ولا من فرضية تزيل الخشية وتقضي على الوساوس والظنون •

وقد أصبح نقل القطن الفرنسي يتم على نحو مرضٍ في النهاية ، على الأقل اذا قيس بالامر الضخم الذي يجري في شمال أوروبا وتصحبه هذه الهموم كلها • ولكن هذا لا ينفي أن العاملين في النقل قد رفعوا أجورهم ، وأن قطناً كثيراً يُسرق في الطريق ، وأن فوضى الجمرك التركي فوضى رهيبة ، وأن ما يطلبه الموظفون فوق السعر المحدد كثير • وقد أصيب فرايسينه بالمرض الذي يصيب الأجانب في هذه البلاد عامة ، بسبب الطعام والمنغّصات ، فكان يكتب الى دافيل رسائل تفيض مرارة ويأساً • وكان دافيل يتابع هذه الأعراض التي يعرفها حق المعرفة ، فيبعث اليه بأجوبة متعقلة حكيمة موزونة ، كما يفعل رجل من رجال الدولة ، ناصحاً له أن يتذرع بالصبر وأن يتذكر الامبراطورية •

ان دافيل غارق في الهم والقلق هو نفسه ، يبحث فيما حوله عن أي شيء يمكن أن يحمل اليه بعض الراحة ، وأن يسلّحه في وجه هذه المخاوف والشكوك التي تغزوه وتحاصره ، فما يجد شيئاً يستعين به ، ما يجد شيئا يستند اليه ويتكيء عليه• انه ، كما حدث في جميع الظروف، كما حدث في قضية قائد موقع نوفي مثلاً ، يجد نفسه محاطاً بسور من وجوه باردة خرساء مجمعة على أن تكون كالألغاز ومحاطاً بجدار من نظرات فارغة أو كاذبة • فالى من يتجه ؟ ومن عساه يسأل ؟ من ذا الذي يعرف الحقيقة فيستطيع أن يقولها له ؟

والوزير يسأله دائماً هذا السؤال الموجز :

ـ أين امبراطركم الآن ؟

فيجيبه دافيل ذاكراً المدينة التي سمّتها آخر نشرة • فيدمدم الوزير مشيراً بيده قائلاً :

ـ نسأل الله أن يعينه على دخول بطرسبرج قريباً •

وهو يرمقه عندئذ بتلك النظرة التي تجمّده حتى الأحشاء ، وتجرح نفسه جرحاً عميقاً •

وكان موقف قنصل النمسا يفاقم هموم دافيل مزيداً من المفاقمة •

فمنذ أن هاجم الجيش الفرنسي روسيا ، ومنذ ُعلم أن حكومة فيينا هي في هذه المرة حليفة نابوليون ، وأنها تشارك في الحملة بجيش يبلغ عدده ثلاثين الف مقاتل بقيادة أمير شفارتسبرج ، زار دافيل زميله فون باولتش ، رغبةً منه في التحدث معه عن آفاق الامل التي تفتحها هذه الحرب الكبرى التي يتحالف فيها بلاطاهما من حسن الحظ • فلم يجد لديه الا كياسة باردة تكاد تكون خرساء • حرص الليوتنان كولونيل على أن لا يرفع الكلفة وظل غريباً عن صاحبه أكثر مما كان كذلك في أي وقت مضى ، وتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه الحرب ولا عن هذا التحالف ، تاركاً لدافيل أن يفرح وحده بالنصر وأن يرتعد وحده من تصور الهزيمة • وحين أراد دافيل أن ينتزع منه كلمة واحدة تدل على الرضى أو تدل على الاستياء ، خفض فون باولتش عينيه الزرقاوين الجميلتين اللتين لا تعبران عن شيء ، واللتين ساءت نظرتهما على حين بغتة •

ان دافيل يعود الى بيته من كل زيارة وهو أكثر اضطراباً وأشد انهياراً • كان واضحاً أن قنصل النمسا يحاول أن ُيشعر الوزير والأهالي بأنه لا يحرص شخصياً على الاسهام بأي نصيب في هذه الحرب ،

وأن هذه القضية قضية فرنسية صرفاً . وقد جاءت معلومات دافنا مؤيدة لهــذا .

فكان دافيــل يعود الى بيته وقــد استحالت انطبــاعاته الى اقتنــاعات ، فيجــد امرأته منهمكــةً انهمــاكاً كامــلاً في اعــداد الأطعمة المحفوظة لفصل الشتاء . لقد اكتسبت أثناء هذه السنين التي قضتها في ترافنك خبرة كبيرة ، فهي تعرف الآن أي الخضار أحسن حفظاً وأطول بقاء ، وأي الثمار أفضل وأنسب ، كما تعرف آثــار الرطوبة والبرد وسائر تقلبات المناخ في الأطعمة المحفوظة . لذلك كانت البواقيل والعلب تتحسن عاماً بعد عام ، وكانت المائدة تزداد غنى وتنوعاً ، وكان التلف والتبذير يقلان بنسبة ذلك . ان عدداً من النساء يعملن بتوجيهها بل وباشرافها ، وكثيراً ما تشاركهن العمل بنفسها .

ان دافيل يعلم منذ زمن طويل أنه لا فائدة من قطع امرأته عــن أعمالها ، وأن هذا لا يؤدي الى شيء ، لأنها لاتحب ولن تحب الاحاديث العقيمة عن الوساوس والمخاوف التي لا يتخلص منها في يوم من الايام . ان أيسر شأن من الشؤن العائلية التي تتعلق بأحد الاطفال أو بالمنزل أو به هو نفسه أهم عندها وأولى بأن يدور حولــه الحديث من حالاته النفسية المعقدة ومن تنبؤاته التي يود لو يشركها فيها . انه يعلم أن هذه الزوجة الوفية الفريدة مشغولة دائماً ـ وفي هذا اليوم أيضــاً ـ باللحظة الحاضرة وبالعمل الذي يجب عليها أن تنجزه ، كما لو لم يكن في العالم كله عمل آخر غيره ، وكما لو كان جميع الناس ، من نابوليون الى زوجة القنصل في ترافنك ، عاكفين الآن بهذه الهمة نفسها على تحضير الأطعمة المحفوظة للشتاء . وكانت تؤمن أن ارادة الله تصرّف كل شيء في كل لحظة وفي كل مكان ، ففيم المناقشة اذن ؟

جلس دافيل على كرسيه الكبير ، ووضع يديه على عينيه ، وزفر

زفرة خفيفة (يارب ! يارب !) ، ثم فتح ديوان شاعره « دليل » على غير هدى عند الوسط من أحد الاناشيد • الحق ان دافيل كان يبحث عن شيء لا يجده لا في الحياة ولا في الكتب : كان يبحث عن صديق روحي يلاطفه ويجاريه ، يسمع منه كل شيء ، ويفهم عنه كل شيء ، ويحدثه حديثاً صادقاً ، ويجيب على جميع أسئلته واضحا صريحا • فلو أتيح له حديث مع مثل هذا الصديق اذن لاستطاع أن يرى وجهه الحقيقي لاول مرة كما يراه في مرآة ، ولاستطاع أن يعرف القيمة الحقيقية للعمل الذي يقوم به ، وأن يعيّن مركزه في العالم بغير لبس ولا اشتباه ، ولاستطاع أن يميّز جانب الواقع وجانب الخيال فيما يحسه من وساوس وفيما يتصوره من تنبؤات وفيما يشعر به من مخاوف ، ولكان هذا سلاما له في الوادي الحزين الكئيب الذي يقضي فيه سنة سادسة من عزلته •

ولكن هذا الصديق لم يصل ولن يصل ، وانما كان يصل بدلا منه زوار غريبون يكره دافيل زيارتهم ويمقت لقاءهم •

لقد رأى في السنين الأولى فرنسيين أو أجانب يحملون جوازات سفر فرنسية ، يأتون اليه طالبين خدمة أو عارضين خدمة • ولكن عدد هؤلاء القادمين قد زاد منذ مدة زيادة كبيرة •

مسافرون وتجار مشبوهون ومغامرون ومحتالون ضلوا الطريق فوصلوا الى ترافنك واضطروا أن يتوقفوا في هذا البلد الفقير الوعر • انهم جميعا عابرون أو هاربون ، كانوا متجهين الى القسطنطينية أو مالطة أو بالرم ، فهم يعدون اقامتهم في ترافنك عقاباً أو مصيبة • وكان هؤلاء الزوار الذين يكره دافيل زيارتهم ولا يتوقع وصولهم يسببون له كثيراً من النكد والانفعال • لقد فقد دافيل عادة الاتصال بمواطنيه وبالغربيين عامة • وهو كسائر الانفعاليين

لا يطمئن كثيرا الى انطباعاته الاولى ويصعب عليه أن يميز الحقيقة من الكذب ، ويتقلب دائما بين شكوك لا أساس لها وثقة مبالغ فيها • وأصبح من فرط الذعر الذي أحدثته فيه بلاغات الوزارة التي تنبه القناصل دائما الى العملاء الانجليز الذين يحسنون التخفي ، اصبح يرى جاسوساً انجليزياً في كل مسافر من المسافرين ، فيقوم بسلسلة من الاجراءات الزائدة العقيمة من أجل أن يكشف القناع عنهم وأن يحمي نفسه منهم • والواقع أن هؤلاء المسافرين هم في أكثر الأحيان أناس انحرفوا عن طريقهم ، أناس أشقياء تائهون ، أناس أقصوا من مكانهم ، أناس لاجئون ، أناس غرقى في هذه الاوروبا المتلاطمة الامواج التي كانت السياسة وغزوات نابوليون تحرثها حرثاً وتجرفها في كل جهة من الجهات • ان دافيل حين يرى هذا المشهد المتجدد المتكرر يدرك ادراكا دقيقا ما صنعه « الجنرال » بالعالم في أربع سنين أو خمس •

ان ذعر هؤلاء الرجال ، ورغبتهم في الرحيل بأقصى سرعة ، وما يظهر فيهم من عصبية ازاء الفوضى وسوء المعاملة وفقدان الدقة لدى الأهالي ، وعجزهم عن مغالبة هذه البلاد وناسها وظروف الحياة فيها ، ان كل ذلك كان يحمل دافيل على أن يكرههم ويمقتهم ، خاصةً وأنهم يجبرونه على أن يرى المستوى الذي انحدر اليه هو نفسه ، وأن يحكم على هذه البلاد التي قضى فيها زهرة عمره •

كان كل زائر من هذا النوع شؤماً على دافيل يعذبه ويرهقه • كان دافيل يتخيل أن هؤلاء الناس يذلونه أمام ترافنك كلها ، فكان لا يضن بشيء من أجل ابعادهم عن البوسنة : لا يضن بفصاحة ولا بتساهل ولا بمال • انه لا يريد أن يرى هؤلاء الناس الذين يجسدون مصيره هو ويشهدون على أنواع البؤس التي يعانيها •

ولئن لم يكثر عدد هذا النوع من المسافرين الا منذ الحملة على روسيا ، فانهم لم يكونوا في يوم من الأيام مشبوهين شاذين مجهولي الأغراض مثلما هم الآن • ومن حسن الحظ أن دافنا موجود ، مايزال يتمتع بحسٍّ الواقع وبرودة الدم وحضور البديهة وفقدان الضمير • فكان هذا يتيح له أن يحل أعوص المسائل •

• • •

في أصيل يوم ماطر من شهر أيار ، وصل عدد من المسافرين أمام الفندق ، فسرعان ما تجمع حولهم الصبية والمتعطلون • ثلاثة أشخاص يرتدون ملابس على الزي الأوروبي يخرجون من تحت الأغطية والشالات : رجل قصير كثير الحركة ، امرأة طويلة القامة بدينة الجسم مثقلة الوجه بالمساحيق مصبوغة الشعر على طريقة الممثلات ، وفتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها • انهم جميعاً مشعثون من طول السفر وركوب الخيل ، جائعون ، ما ينفكون يتشاجرون ويشاجرون كل من يحيطون بهم ، ولا يفرغون من ملاحاة الحوذي ومناقشة صاحب الفندق• الرجل القصير ذو البشرة الصفراء والشعر الأسود يتحرك ويهتز على الطريقة الشرقية ، ويصيح ويصرخ ، ويصدر الاوامر لزوجته وابنته ويوبخهما • وأُنزلت أمتعتهم أخيرا وكُدّست أمام الفندق • رفع الرجل المضطرب ابنته بذراعيه وأجلسها على صندوق موضوع فوق الأمتعة ، وأمرها بالبقاء هنالك دون حراك لتراقب كل شيء • ثم أخذ يبحث فوراً عن قنصل فرنسا •

نظر دافنا الى الرجل القصير يروزه ويقيسه • فقصّ عليه الرجل أن أسمه لورنزو جامبيني ، وأنه ولد بمدينة بالرم ، وأنه كان تاجراً في رومانيا ، لكنه ، وقد أصبح لا يطيق الحياة في الشرق ، يعود الآن الى ايطاليا ، بعد أن ُخدع وسرق وتهدمت صحته • وقد قيل له ان في وسعه

أن يحصل في ترافنك على التأشيرة اللازمة لدخول ميلانو • انه يملك جوازاً بالياً صادراً عن الجمهورية السيزالبينية ، ويريد أن يرحل على الفور ، على الفور ، لأن كل يوم يقضيه بين هؤلاء الناس يفقده صوابه و يجننه ــ هكذا قال ــ ولن يكون مسئولاً عن أعماله اذا هو اضطر أن يبقى في هذه البلاد مدة طويلة أيضاً •

توسط دافنا لدى صاحب الفندق من أجل أن يؤمّن له سكن وطعام ، دون ان يلقي بالاً الى الشروح المتحمسة التي يزجيها الرجل •

ولكن زوجته تدخلت في الحديث بصوت دامع مرهق ، صوت ممثلة تشعر أنها تطعن في السن ، فلا تستطيع أن تنسى ذلك ولا أن تقبله • وصاحت الفتاة الصغيرة من مكانها فوق الأمتعة تقول انها جائعة • وأخذ الثلاثة أخيرا يتكلمون في آن واحد معا • ماذايريدون ؟ ان تؤمن له الغرف ، وأن يوفر لهم الطعام ، وأن ينالوا قسطا من الراحة ، ثم أن يحصلوا على التأشيرة ، فيرحلوا من ترافنك ويخرجوا من البوسنة بأقصى سرعة ممكنة • ومع ذلك يحس من يسمعهم ان القضية الأساسية عندهم هي أن يتكلموا وأن يتشاجروا ، فما من احد منهم يصغي الى ما يقوله الآخر ، وما من احد منهم يفهم اذن ما يقوله له الآخر •

أشاح الايطالي الصغير عن صاحب الفندق وأدار ظهره لدافنا ، والتفت الى زوجته التي يبلغ طولها ضعفي طوله ، وصاح يقول لها :

ــ لا تتدخلي في الأمر • اسكتي • لا تتكلمي • لعنة الله على الساعة التي تكلمت فيها أول مرة ، فأصغيت اليك واتبعت رأيك • بسببك انما وقع كل ما وقع !

ــ بسببي أنا ؟ اسمعوا يا ناس ! أعطيته شبابي ، وموهبتي ، وكل

شيء ! ثم يقول الآن بسببي أنا وقع كل ما وقع !

كذلك أعولت المرأة وهي تستشهد السماء وتستشهد الحاضرين جميعاً •

ــ بسببك أنت يا حلوة ! نعم بسببك أنت ! بسببك أنت ياغليون ! بسببك أنت أقاسي ما أقاسي ، بسببك أنت فسدت حياتي • وبسببك أنت سأنتحر في هذه اللحظة وهذا المكان •

قال الرجل القصير ذلك ثم مد يده بحركة سريعة فأخرج من معطفه الفضفاض مسدساً ضخماً قربه من جبهته ، فصرخت المرأة مولولةً ، وهرعت الى الرجل الذي لم يكن في نيته أبداً أن يطلق رصاص مسدسه، وأخذت تقبله وتغازله بكلمات عذبة •

وفي أثناء ذلك كانت الصبية السمينة ما تزال قاعدة في أعلى كومة الحقائب تلتهم حلوى ألبانية مدّها اليها أحد الناس • وأخذ دافنا يحك أذنيه • لقد نسي الرجل القصير امرأته وتهديده بالانتحار ، فهو يشرح الآن لدافنا بكثير من الحماس والحرارة ان عليه أن ينال التأشيرة غدا ، ويحرك بيده جوازاً مقطعا ممزقا مرقعا ، ويؤنب ابنته التي تظل قابعة فوقُ ولا تساعد أمها •

أنهى دافنا القضية مع صاحب الفندق ، ووعد الرجل بأن يحمل اليه الجواب في غد ، ثم اتجه الى القنصلية لا يحفل بهذه الاسرة الغريبة ، ولا يجيب على مايلاحقه به الايطالي من توسلات حارة وتأكيدات قاطعة •

وكان جمهور غريب ما يزال يرابط أمام الفندق دهشا لمنظر هؤلاء الاجانب وزيهم وسلوكهم العجيب كأنهم فرقة مسرحٍ أو سيرك• وكان أتراك الحوانيت وعابرو السبيل يرشقونهم بنظرات شرزاء مظلمة ، ثم ما يلبثون أن يشيحوا بوجوههم عنهم •

ما كاد يصل دافنا الى القنصلية ويحكي للقنصل قصة وصول هؤلاء الزوار العجيبين ويريه جواز سفر جامبيني ، المشبوه الاصل ، المليء بالتأشيرات ، المخيط المرقّع ، حتى سُمعت جلبة كبيرة على الباب. لقد جاء لورنزو جامبيني بنفسه يريد أن يكلم القنصل على انفراد . والحارس يدفعه . وصبية المدينة قد تبعوه لانهم أحسوا أنه حيثما يتجول هذا الاجنبي فثمة ضجة وصياح ومشاهد مثيرة . خرج دافنا ، وأخذ يهدد الرجل المهتاج تهديدا عنيفا قاسيا ، والرجل المهتاج يؤكد أن له لدى الفرنسيين حظوةً وسنداً وانه يستطيع أن يقول كلمته في ميلانو وباريز . وقبل أخيرا ان يعود الى الفندق مؤكدا أنه سينتحر في غدٍ اذا لم يحصل على التأشيرة .

ذُعر دافيل وغضب . وأوصى دافنا أن ينهي هذه القضية بأقصى سرعة وأن يخلّص المدينة من مثل هذه المشاهد . ودافنا يدرك مثل هذه الاعتبارات ، لكنه ألف أن يعد المشاجرات حوادث ترافق جميع القضايا في الشرق ، لذلك هدأ من روع القنصل قائلا له بلهجته الهادئة :

— دعك منه ، لن ينتحر . وسيرحل كما جاء حين يرى أننا لا نعطيه شيئـا .

وذلك ما حدث . غادرت الاسرة مدينة ترافنك بعد يومين ، على أثر مشاجرة صاخبة بين دافنا ولورنزو جامبيني ، مشاجرة كان الايطالي في أثنائها يهدد تارة بالانتحار وتارة بشكوى القنصلية الى نابليون شخصيا ، بينما كانت امرأته الوافرة ترشق دافنا بنظرات ثقيلة خطيرة من نظرات امرأة كانت في الماضي ذات جمال .

تنفس دافيل الصعداء ، من شدة حرصه على سمعة بلاده وسمعة القنصلية . لكن زائرا جديدا كريها ظهر في ترافنك بعد ثلاثة أسابيع .

هو تركي حسن الهندام ، آتٍ من القسطنطينية ، نزل الفندق

الكبير ، ولم يلبث أن طلب مقابلة دافنا • ان اسمه اسماعيل رئيف • لكنه في حقيقة الامر يهودي من الالزاس اعتنق الاسلام ، وكان اسمه قبل ذلك مندلسهايم • انه يريد ان يكلم القنصل نفسه ، قائلا ان لديه أخبارا هامة يجب ان يفضي بها اليه لتعلم بها الحكومة الفرنسية ، وان له شبكة طويلة عريضة من العلاقات في تركيا وفرنسا والمانيا ، وانه عضو في أول محفل للاحرار الماسونيين الفرنسيين ، وانه مطلع على مشاريع كثيرة يعدها أعداء نابوليون • هو رجل رياضي المنكبين ، سمين الجسم ، مزهر الوجه ، أحمر الشعر ، وقح الحركات ، سريع الكلام • وفي عينيه ما في أعين السكيرين من بريق • تخلص منه دافنا باللجوء الى حيلة يلجأ اليها كثيرا • نصح اليه ، جاداً أكبر الجد ، أن يتابع سفره على الفور لا يضيع لحظة واحدة ، وان يُبلغ كل ما يريد ابلاغه من معلومات الى القائد العسكري الذي هو الشخص الوحيد المؤهل لمعالجة هذه القضايا • وقد غضب الرجل اليهودي ، وقال ان الفرنسيين لا يعرفون مصلحتهم ، فلو قد عرض آراءه على قنصل انجلترا أو قنصل النمسا لقبلاها مرحبين ، ولدفعا ثمنها ذهباً • ومع ذلك سافر بعد بضعة أيام • وعرف دافنا غداة سفره أنه عرض خدماته ضدّ نابليون على قنصل النمسا قبل ان يرحل بيوم • فأبلغ قائد سبليت ذلك على الفور • وما كادت تنقضي عشرة أيام على ذلك ، حتى تلقى دافنا رسالة طويلة من بوجوينا • ان اسماعيل رئيف يبلغه في هذه الرسالة انه توقف في مدينة بوجوينا ودخل في خدمة مصطفى سليمان باشتش ، وأنه يكتب اليه الآن بأمرٍ من مصطفى راجيا باسمه أن يبعث اليه بزجاجتين من أي شراب فرنسي ، « شريطة ان يكون قويا » •

ان مصطفى هو أكبر ابناء سليمان باشا سكوبلاك ، وهو شاب قصير خائب بائر ، ميّال الى جميع الرذائل ، والى الشراب خاصة ، لا يشبه في شيء أباه اللطيف المستقيم الشجاع الحازم النشيط • ان

الباشا الصغير يعيش حياة باذخة فارغة ، يصدّع رءوس الفلاحين ، ويشرب الخمرة مع المتعطلين ، وما ينفك يعدو على حصانه في حقول كوبرس . وكان سليمان باشا العجوز الذي يعرف كيف يصرّف الناس وكيف يفرض ارادته ، ضعيفا جبانا أمام هذا الابن الكسول المتردي ، وكان ينتحل له الاعذار دوما .

قرر دافيل فورا أن ينتهز فرصة هذه العلاقات التي قامت بين الشخصين . فلم يلبث أن كتب الى الباشا الصغير ، بموافقة القنصل ، يخبره ان الزجاجتين ستُرسلان اليه بغير ابطاء ، ولكنه ينصحه بان لا يثق باسماعيل هذا ، فهو رجل مغامر ، وأغلب الظن أنه جاسوس نمسوي .

ووصلت الى دافنا رسالة طويلة يدافع فيها اسماعيل رئيف عن نفسه ، ويبرر سلوكه ، قائلا انه ليس جاسوسا لاحد ، وانما هو مواطن فرنسي صالح ، بل انسان وطنه العالم كله ، انسان شقي ، انسان مشرّد . ويختم اسماعيل رئيف رسالته التي أملتها عليه خمرة كوبرتش ، بأبيات من الشعر قاتمة مظلمة يندب فيها حظه : « ان حياتي ، ياحلما عقيما ، يا عمرا قصيرا تلهو به الشبهوات ، تأكله التجربة . أهذا اذن مصير البشر ! آمال وضلالات ، وألم فموت ؟ » .

وكتب بعد ذلك مرات أخرى ، يذكر أخباره ويحاول أن يبرر سلوكه بكلام سكارى وشعر غريب ، ويذيل رسائله بهذا التوقيع : « عبدكم مندلسهايم » ، ويتبع التوقيع بذكر رتبة مزعومة من رتب الماسونيين الاحرار : « وسام الفارس الذهبي » . ولكن ادمانه على السكر وتشرده والاحداث ، كل ذلك طرده من البوسنة آخر الامر .

وكأن هؤلاء الزوار كانوا على اتفاق . فما أن انقطع اليهودي عن ارسال اخباره حتى وصل مسافر فرنسي آخر اسمه بيبان ، وهو رجل قصير

أنيق معطَّر يزيِّن وجهه بمساحيق ، ذو صوت ناعم وحركات رشيقة • ذكر لدافنا أنه قادم من فارصوفيا حيث يدير مدرسة للرقص ، وأنه توقف في ترافنك لانه سُرق أثناء الطريق ، ولكنه ذاهب الى القسطنطينية التي سبق أن عاش فيها زمنا وله بها صلات • ومع ذلك لم يشرح كيف هبط ترافنك وهي لا تقع على الطريق بين فارصوفيا والقسطنطينية•

كان الرجل جريئا جرأة مومس • فلما رأى دافيل على حصانه ، وقف أمام الحصان ، ورجاه بلطف ان يستقبله وأن يصغي الى كلامه • فوعده دافيل بذلك وهو يرتعد انفعالا وغضبا • واستدعى دافنا وتضرع اليه ان يخلصه من هذا الرجل الوقح •

واذ كان القنصل يرى جواسيس انجلترا حتى في منامه ، أكـد لدافنا ان لهجة الرجل أجنبية وأن نطقه بالفرنسية هو نطق الانجليز بها • ولكن دافنا الذي لا يضطرب ولا يستسلم لنزوات الخيال ولا يستطيع أن يرى ما لا وجود له ، ولا أن يزيِّن ما يرى ، كان قد استقر على رأي في هذا المسافر •

قال القنصل لدافنا ، منفعلا أشد الانفعال :

ـــ راقب لي هذا الرجل أرجوك • خلصني ، أرجوك • خلِّصني منه ، أرجوك • لا شك في انه جاسوس أُرسل من أجل تعريض القنصلية للخطر ، او أوفد لمهمة أخرى لا يعرف احد ما هي ! انه عميل مثير !

فقال دافنا بجفاف :

ـــ لا شيء من هذا قط !

ـــ كيف ؟

ـــ رجل مأبون •

ـــ ماذا ؟

ـــ مأبون يا سيادة القنصل •

فأمسك دافيل رأسه بيديه ، وقال :

ـ ما عسى أن نرى أيضا في هذه القنصلية ؟ ماذا قلت ، مأبـ ••• أوه ! •••

فهدّأ دافنا رئيسه ، ثم خلّص ترافنك من هذا الرجل في الغداة : بدون ان يقول لاحد شيئا ، دفع « الخول » الى ركنٍ بحجرته ، وأمسك بخناقه عند تخريمة قميصه الانيقة ، وهو يهدده تهديدا عنيفا « بعلقة » حلوة في البازار قبل ايداعه سجن القلعة ، اذا هو لم يرحل فورا • ولم يُحوِجْ استاذُ الرقص صاحبنا دافنا الى تكرار كلامه مرتين •

سعد دافيل بالخلاص من هذا المتشرد ، ولكنه تساءل مذعورا : ما عسى أن ترسل هذه الايام المضطربة العجيبة من نفايات وغرقى الى هذا الوادي الذي يعيش فيه المرء حياة شقية !

وكان الخريف السادس الذي يقضيه في ترافنك يتقدم سريعا نحو نوع من « الختام » كما يحدث في مسرحية من المسرحيات •

في أواخر شهر ايلول وصل نبأ الاستيلاء على موسكو ونبأ حريقها • لم يجيء احد الى دافيل مهنئا • ظل فون باولتش يؤكد بهدوئه الجرىء انه لم يعلم بشيء عن الحرب ، وهو يتحاشى أي حديث في الامر • ولاحظ دافنا أن رجال فون باولتش يلتزمون هذا السلوك نفسه مع السكان ، أي يتظاهرون بأنهم يجهلون ان الامبراطورية النمسوية تحارب روسيا •

ذهب دافيل خصيصا الى القصر ، وتحدث مع أهل القصر ، فلاحظ أنهم يشبهون أن يكونوا متفقين جميعا على ان يتحاشوا الخوض في موضوع الحملة على روسيا ، وأنهم يعتصمون وراء عبارات عامة

وجمل لطيفة لا قيمة لها ولا تورّط في شيء . وأحس دافيل في بعض اللحظات ان رجال القصر يرقبونه دَهِشين خائفين كأنهم يرقبون مجنونا يسير على حافة هاوية رهيبة ، فيحاولون ان لا ينبهوه بكلمة طائشة قد تودي بحياته .

ومع ذلك كانت الحقيقة تنفذ شيئا بعد شيء . وفي ذات يوم ، سأل الوزير دافيلَ عن أنباء روسيا ، على عادته ، فلما أطلعه قنصل فرنسا على البلاغ الذي يذيع نبأ احتلال موسكو ، هنأه الوزير رغم علمه بالنبأ قبل ذلك ، وعبر له عن أمله في ان يتوغل نابوليون في روسيا مزيدا من التوغل ، كما توغل فيها القائد العادل كير[1] .

ــ ولكن لماذا اتجه امبراطوركم نحو الشمال في الشتاء ؟ هذا خطر ، خطر جدا . كنت أوثر أن أراه اقرب الى الجنوب قليلا .

ولقد لفظ الوزير تلك العبارة بذلك الصوت نفسه الذي عبَّر به عن تمنياته حين شبَّه نابليون بالقائد كير . وكان دافنا يترجم كلامه موجِزا هادئا على عادته في ترجمة كل ما يقال له . أحس دافيل بأحشائه ترتجف . « هذا ما كنت أخشاه ، هذا ما يعتقده جميع الناس ويأبون ان يقولوه » . كذلك قال دافيل لنفسه وهو ينتظر تتمة الكلام . ولكن ابراهيم باشا سكت . فقال دافيل لنفسه متألما « هو أيضا لا يريد أن يقول شيئا » . وبعد صمت طويل استأنف الوزير كلامه . ولكنه تناول موضوعا آخر . قصَّ على دافيل كيف مشى جسري شلبي خان على روسيا في الزمان القديم وكيف دمَّر عدة مرات جيش العدو الذي كان يتراجع دائما نحو الشمال ، الى أن فاجأه البردُ ، فاذا بجيشه الذي كان منتصرا الى ذلك الحين يدب اليه الضعف من شدة القر ، بينما أخذ الاعداء الكفرة ، وهم أناس متوحشون

---

(١) غازي آسيا الصغرى .

لهم شعر كثيف وأجسام الفت البرد ، يغيرون على جيشه من كل جهة من الجهات . وعندئذ انما أنشد جسري شلبي خان قوله المأثور عنه : « اذا بارحتك شمس وطنك ، فمن ذا يضمن لك العودة ؟ »

ان شغف الاتراك برواية أبيات من الشعر أثناء الحديث ، كما لو كان لهذه النصوص شأن ، أمر يضايق دافيل . انه لا يصل الى ادراك المعنى الحقيقي في الابيات التي يستشهدون بها ، ولا الى ادراك الرابطة التي تربطها بالموضوع المطروح على بساط البحث ، ولكنه يحزر ان الاتراك يضفون عليها شأنا وخطورة لا يستطيع اكتشافهما .

وقد غضب الشاب خان غضبا رهيبا على المنجمين الذين جاء بهم معه ، والذين كانوا قد تنبأوا له بأن فصل الشتاء سيبدأ بعد ذلك الحين بكثير . لذلك أمر بأن يوثق هؤلاء الحكماء الذين ظهر جهلهم ، وبأن يسيروا في مقدمة الجيش حفاةً لا يرتدون الا ثيابا خفيفة ، حتى يحسوا نتائج خيانتهم في أجسامهم . وحدث ان هؤلاء العلماء النحيلين المتخشنين المحرومين من الدم كالبق ، قد تحملوا البرد أكثر مما تحمله الجنود . فبينما ظلوا صامدين كانت قلوب المحاربين الشبان المملوءة دما تنفجر في صدورهم كانفجار خشب الزان أثناء برد شديد . يقال ان البرد قد بلغ من الشدة أيامذاك أنه كان يستحيل على المرء ان يلامس الفولاذ ، فلقد كان الفولاذ محرقا كأنه ُسخن على النار الى درجة الاحمرار ، وكان ينتزع جلد اليد التي تلامسه . تلك كانت النهاية الحزينة لحملة جسري خان الذي فقد جيشه الرائع ، ولم يستطع ان ينجو بنفسه الا في كثير من العناء .

وانتهى الحديث بأدعية وتمنيات على الله أن ينتصر نابليون وان ينهزم أولئك الموسكوبيون الذين ُعرفوا بأنهم جيران أشرار وأناس طائشون لا يفون بعهد قطعوه .

واضح أن قصة القائد كير وقصة جسري شلبي خان ليستا من عند الوزير بل من عند طاهر بك • لا شك أن طاهر بك قد رواهما في القصر حين جرى الحديث على احتلال موسكو وعلى عواقب تقدم نابوليون في روسيا • وكان دافنا الذي يعرف كيف يجمع الاخبار ويستطلع الآراء قد عرف الرأي الحقيقي الذي يسود القصر بصدد مركز الجيش الفرنسي•

لقد شرح طاهر بك للوزير ولسائر شخصيات القصر أن الفرنسيين قد أسرفوا في التوغل ، وانهم لن يستطيعوا الانسحاب الا بعد تكبد خسائر طائلة ، قال سكرتير الوزير :

ــ اذا بقي جنود نابليون بضعة اسابيع أخرى في مواقعهم الراهنة ، فلسوف تغمرهم اكوام صغيرة من الثلج الروسي • اني لأراهم تحت هذه الاكوام منذ الآن •

ان رجلا من عملاء دافنا قد نقل اليه أقوال طاهر بك هذه بنصها ، فنقلها دافنا الى دافيل بهدوء وبرود •

• • •

« جميع المخاوف تتحقق في النهاية » • بهذه الكلمات نطق دافيل جهارا في ذات صباح من الشتاء حين استيقظ من نومه •

كان ذلك في يوم شديد القر من أيام كانون الاول • لقد استيقظ القنصل منتفضا ، وهو يحس بشعر رأسه كأن يدا أجنبية باردة قد حطّت عليه وأخذت أصابعها تعبث به ، فلما فتح عينيه نطق بتلك الكلمات كأنها هاتف مجهول المصدر •

وقد رددها بعد ذلك بثلاثة أيام حين جاء دافنا يقول له ان الناس في القصر يتحدثون كثيرا عن هزيمة نابليون في روسيا ، وان البلاغ

الروسي الاخير يجري في المدينة ذاكرا تفاصيل البلبلة والفوضى التي دبت في صفوف الجيش الفرنسي • وتدل المعلومات التي جمعها دافنا على أن النشرات الروسية قد تولت سفارة النمسا توزيعها سرا بواسطة عملاء متخفين ، وان طاهر بك يملك نسخة من ذلك البلاغ أطلع عليها الوزير •

فكان دافيل يسمع هذه الانباء التي ينقلها اليه دافيل ، فما يزيد على أن يردد قوله : « تحقق كل شيء » • ولكنه لم يلبث ان ثاب الى رشده فأمر دافنا ان يذهب الى طاهر بك متذرعا بحجة من الحجج ، بغية ان يسأله الحصول على هذا البلاغ • ثم استدعى الترجمان الثاني رافا آتيجاس وأمره بأن يمضي في المدينة مكذبا هذه الشائعات مؤكدا أن جيش نابليون ما يزال الجيش الذي لا ُيغلب ، رغم بعض الصعوبات الطارئة الناشئة عن البرد والبعد لا عن انتصارات روسية •

تحدث دافنا مع طاهر بك ، ورجاه ان يعطيه النشرة ، ولكن السكرتير لم يشأ ان يلبي الرجاء • قال :

ــ لو أعطيتك النشرة ، فستطلع عليها السيد دافيل ، وهذا ما لا أريده • ان الكلمات التي يتضمنها هذا البلاغ تسوءه وتسوء بلاده كثيرا • وأنا أقدره واحترمه فلا أحب ان يعلم بالامر مني • قل له انني ما أزال أرجو له أطيب التمنيات •

نقل دافنا هذه الاقوال بما عهدنا فيه من دقة وبرودة لا ترحمان ، ثم انصرف على الفور • وبقي دافيل وحيدا مع خواطره ومع تصور هذا اللطف الشرقي الذي يظهره طاهر بك فيقف من ذلك شعر رأسه • « اذا عامل العثمانيون أحد الناس بهذه الحيطة كلها ، فاعلم انه ميت او انه أشقى الناس طراً » ، كذلك قال دافيل لنفسه وهو متكيء على النافذة ينظر الى شفق الشتاء » •

فوق جبل فيلنتسا ، كان هلال القمر الجديد ، القاطع كحرف من معدن ، قد ظهر منذ قليل في الشريط الضيق من سماء زرقاء ضاربة الى شحوب • لا ، لن ينتهي الامر في هذه المرة ببلاغات تتحدث عن النصر ، ولا بمعاهدات صلح يفرضها الغالب •

ان الخشية التي استقرت في دافيل منذ زمن طويل أصبحت الآن ، في هذه الليلة التي يلفها برد غريب ، تحت هذا القمر الذي ينذر بشر مستطير ، أصبحت واقعة دقيقة واضحة تضطره الى التفكير فيما عسى أن يحمله اليه والى ذويه انهيار كامل واخفاق جاسم • وهو يحاول ان يفكر في هذا الامر بكل ما اوتي من قوة ، لكنه يحس ان هذا التفكير يحتاج الى شجاعة اكبر من الشجاعة التي يملكها في ذلك المساء •

وفعلا لم ينتهالامر في هذه المرة ببلاغات تتحدث عن النصر ، وانما انتهى بالهزيمة والبلبلة • ان الصمت والانتظار اللذين يسبقان انهيارا رهيبا يرينان الآن على العالم كله ، أو هذا ما كان يحسه دافيل في أقل تقدير •

ظل دافيل في الاشهر التالية بلا أنباء ، بل انه ليكاد يكون مقطوع الصلة بالعالم الخارجي الذي تتجه اليه افكاره جميعها ومخاوفه جميعها ، والذي يرتبط به مصيره • لقد عُزلت ترافنك وضواحيها بفترة طويلة من برد شديد ، وكان ذلك الشتاء أقسى شتاء قضاه دافيل في البوسنة •

قالوا انه قد جاء شتاء كهذا الشتاء منذ خمسة وعشرين عاما ، ولكنهم أضافوا الى ذلك ، كما هي العادة ، أن البرد الآن اشد من البرد آنذاك • وتوقفت الحياة كلها منذ مطلع شهر تشرين الثاني ، وبدّل الشتاء مظهر الارض وشكل الكائنات : انه يغطي الوادي فيساوي بين الاشياء ، ويجثم على الارض خرابا لا أمل في الخلاص منه ، ويُفرغ العنابر ويسد الطرق • ومن اغصان لا تُرى ، تسقط العصافير ميتةً كأشباح ثمار •

والحيوانات المتوحشة تهرع على طول الروابي الوعرة فتظهر في المدن ناسية خوفها من الناس امام خوفها من الشتاء . وفي نظرات الفقير أو المتشرد يرى الرائي خوفا أخرس من موتٍ لا مناص منه . وهؤلاء أناس يموتون من البرد في الطرق،وهم ذاهبون يبحثون عن خبز او عن ركن يستدفئون فيه . والمرضى يقضون نحبهم أيضا ، لان البرد لا يجدي فيه دواء .

وفي الليالي الصقِعة تُسمع طقطقة جسور الخشب تحت السقوف ، كما تسمع أصوات الذئاب تعُول فوق جبل فيلنتسا ... النار تشتعل في مدافيء الآجر ليلا نهارا . والسيدة دافيل التي ما تزال تفكر في فقيدها الصغير ، تخشى على أولاد الأُخَر . وها هي ذي ، في ذات مساء ، بعد العشاء ، وقد أرهقت قواها مشاغل النهار ، ها هي ذي جالسة قرب زوجها ، هي تغالب النعاس ، وهو يغالب الارق والهموم الجديدة ، هي تريد ان تنام وهو يريد أن يتكلم . ان هـذه المرأة الشجـاعة التي ظلت طوال يومها تحـارب البرد والبؤس ، نحيلةً في شالاتها ، رصينة على نشاط لا يهدأ ولا يفتر ، ان هذه المرأة لا تحب الاحاديث التي تدور على مواضيع عامة ؛ ولا كذلك زوجها ، فهو يجد في هذه الاحاديث عزاء لنفسه ، ولو كان عزاء عابرا . وهي لذلك تصغي اليه محطمة من التعب ، فتقوم بواجبها تجاه زوجها كما تقوم بواجبها تجاه جميع الناس .

قصَّ عليها دافيل ما يدور في رأسه من خواطر تتصل بهذا البرد الرهيب ، وبهذا البؤس الشامل ، وتتصل بما يعتمل في قرارة نفسه من مخاوف .

قال انه رأى وعاش أنواعا كثيرة من هذا الشقاء الذي يلم بالانسان أثناء صراعه مع قوى الطبيعة والقوى التي تحيط بنا او تحيا فينا ،

ومع القــوى التي تنشأ في أنفسنا حين نخــوض حلبة الصــراع •
لقــد عرف الجوع وضروب الحرمان ببــاريز أثناء عهد الارهاب :
كانت أنواع العنف وفنون الفوضى هي الآفاق الوحيدة التي يطل عليها الناس ايامذاك ، وهي المستقبل الوحيد الذي ينتظره شعب بأسره • كانت حزم الاوراق النقدية المتسخة البالية التي تبلغ قيمتها ألوف الفرنكات مبدئيا ، لا تساوي في حقيقة الامر شيئا البتة • كان الناس من أجل ان يحصلوا على قطعة من الشحم او قبضة من الطحين يذهبون الى الضواحي البعيدة ليلا ، يساومون على الاسعار اناسا مشبوهين في كهوف مظلمة • كان همُّ كل انسان في الليل والنهار ان يحافظ على حياته التي أصبحت من جهة أخرى لا تساوي شيئا ، لانها مهددة بالزوال في كل لحظة ، بوشاية بسيطة ، أو بخطأ ترتكبه الشرطة ، أو بمجرد نزوة من نزوات المصادفات •

وتناول كذلك ذكرياته عن حرب اسبانيا • لقد لبث أسابيع وأشهرا لا يملك الا قميصا واحدا يعفّن على ظهره من فرط تشبعه بالعرق والغبار ، ثم هو لا يجرؤ أن يغسله مخافة ان يسقط خيوطا مهترئة • وكان لا يملك ، عدا بندقيته وحربته وقليل من الرصاص والبارود ، الاكيساً من جلدٍ وجــده على جندي آراغوني ميت ، وهو فلاح مضى يقتل يعاقبة فرنسيين دفاعاً عن دين الله • وكان الكيس فارغاً دوماً الا في الايام التي يستطيع ان يضع فيه قطعة قاسية من خبز الشعير يكون قد وجدها مع جندي قتيل أو سرقها من بيت مهجور • وكان هنالك زوابع ثلجية أيضا ، لا تحمي منها احسن الملابس ولا أفضل الاحذية ؛ ولا بد للمرء أثناءها أن يترك كل شيء بحثا عن غطاء أو مأوى •

لقد عرف دافيل ذلك كله ، ولكنه لم يشعر يوما بما يشعر به اليوم من هول امام البرد ، امام هذه القوة الجبارة الصامتة المدمِّرة • هل كان في وسعه ان يتخيَّل هذا العوز وهذا البؤس اللذين يفتكان بهذه

المناطق الشرقية فتكا ، هل كان في وسعه ان يتخيل هذا الشلل الشامل الذي يسقط على هذه البلاد الجبلية الشقية طوال الشتاء سقوطَ عقاب الهي ؟ ! انه لم يعرف هذا الا بمدينة ترافنك وفي هذا الشتاء .

وكانت السيدة دافيل لا تحب الذكريات بوجه عام ، وكانتِ كسائر أهل النشاط الفعّال والايمان الديني الصادق ، تكره الملاحظات التي لا تؤدي بنا الى شيء ، وانما تثير شفقتنا على أنفسنا ، وتزيد ضعفنا أمام ما يحيط بنا ،وتحرف فكرنا عن طريقه في غير طائل . وقد اصغت السيدة دافيل الى حديث زوجها بجهد طيب خيِّر ، ولكنها كلَّت آخر الامر ، فنهضت قائلة انه آن لها ان تنام .

وبقي دافيل في الغرفة الكبيرة التي كان يقل دفؤها . انه الآن جالس على كرسيه صامتا ، « يسمع » ويحس هذا البرد الذي ينفذ الى كل مكان ، ويخرب كل شيء . وسواء أفكر في الشرق والاتراك وما يملأ حياتهم من فوضى واضطراب يجعلانها بغير معنى وبغير قيمة ، ام فكر فيما عساه يجري بفرنسا من أحداث ، فانه لا يتصور الا آلاما وشقاء وقلقا وأخطارا .

كذلك كانت تنقضي الليالي والايام في هذا الشتاء الذي ليس له آخر.

اذا خفّت وطأة البرد يوما او يومين هطل ثلج غزير يتراكم على الثلج القديم المغطى بقشرة متجلدة ، فيضفي على الارض وجها جديدا . ولكن البرد ما يلبث ان يشتد أقسى مما كان : فالانفاس تتجمد ، والماء يصير الى جليـد ، والشمس تظلم ، والعقل يتعطل فما يزيد على التفكير في وسيلة تحمي من البرد . ولا يستطيع المرء ان يتذكر الا بجهود ضخمة عنيفة ان قد كان هنالك في الاعماق ، أرض خيِّرة حية دافئة ستزهر وستثمر في يوم من الايام ، وانما حجبها عن الانسان في هذه الاوقات هذا العنصر الجليدي الذي لا حيلة لاحد فيه .

ارتفعت أسعار المواد الغذائية منذ اولى أشهر الشتاء ، ولا سيما أسعار القمح • ثم ان القمح قد اختفى • فالمجاعة تسود القرى وتسود المدن ، والعوز الى ما يسد الرمق عام شامل • انك ترى على طول الطرق فلاحين شاحبين هزيلين قلقي النظرات يتأبطون كيسا ويمضون باحثين عن قليل من القمح ؛ وعند منعطفات الشوارع يهرع اليك شحاذون متلففون بأسمال بالية وقد ازرقت وجوههم من الصقيع • والجيران يراقب بعضهم بعضا ، ويحصي بعضهم اللقمَ التي يلتهمها بعضهم الآخر •

وقد قامت القنصليتان بما وسعهما ان تقوما به لمساعدة السكان وتخفيف البؤس • كانت السيدة دافيل وفون باولتش يتنافسان في الحماسة لتوزيع المساعدات طعاما ومالا • وعلى باب القنصلية يقف الجائعون ــ وأكثرهم من الاطفال ــ جماعات جماعات • كان لا يأتي في أول الامر الا اطفال من الغجر وعدد من الاطفال المسيحيين • ولكن الشتاء يطول ، ويطول معه الحرمان ، فاذا باطفال من فقراء الاتراك يفدون الآن من الضواحي • فكان صغار الاتراك في المدينة يسيئون معاملة الاطفال الفقراء في أول الامر ويسخرون منهم لانهم يتسولون ويأكلون « طعام الكفار » ؛ كانوا يرمونهم بكرات من الثلج صائحين :

ــ يا كافر يا جوعان ! كلْ لحم الخنزير ! يا كافر يا جوعان !

ولكن حين اشتد البرد بعد ذلك ، أصبح أطفال ترافنك لا يبارحون منازلهم ، فكان الاطفال والشحاذون يرتعشون على بابي القنصليتين وهم يضربون الارض بنعالهم • وكنت لا تستطيع على كل حال ان تميز الديانة التي ينتمون اليها ولا المكان الذي جاءوا منه ، لانهم يرتدون جميعا اسمالا من كل نوع •

وقد بلغت القنصليتان من توزيع المساعدات ان مئونتهما أوشكت

على النفاد . ولكن حين خفت شدة البرد وأصبح في امكان العربات ان تذهب الى برود ، استطاع فون باولتش ، بكثير من المهارة والحذق ، أن يؤمن وصول دفعات مطردة من الدقيق وأنواع المواد الغذائيـــة لقنصليته ولدافيل .

ولقد توقفت أعمال نقل القطن منذ أول الفصل . ان فرايسينه ما يزال يكتب رسائل يائسة ويهيء نفسه لهجر كل شيء . ان السكان مجمعون على القول بأن الفرنسيين قد صرفوا الفلاحين عن حقولهم اذ أغروهم بأسعار باهظة لنقل القطن ، وان ذلك كان سببا لا في ارتفاع الاسعار فحسب ، بل في ندرة المواد الغذائية أصلا . ثم ان « حرب بانابارت » هي أصل هـــذا البلاء على كل حال . ان الناس ، كما حدث مرارا كثيرة في التاريخ ، يبحثون عمّن يحملونه جميع الخطايا ويسندون اليه جميع الجرائم . وكثر عدد الذين يرجون عزاء في هزيمة نابوليون وفي زواله ، دون ان يستطيعوا تعليل هذه العاطفة ، اللهم الا أن يقولوا ان الامبراطور « أثقل من ان تستطيع الارض حمله » ، وانه ينشر الحربَ والاضطرابات وغلاء الاسعار والمرض والمجاعة في كل مكان .

وفي البلاد النمسوية حيث كانت الضرائب وأزمات النقد والخدمة العسكرية والخسارات في ساحات القتال تسحق الناس سحقا ، أصبح بونابرت موضوعَ أغان وحكايات تجعله سبب جميع أنواع الشقاء التي تحل بأي فرد من الافراد . كانت البنات في سلافونيا تغني هكذا : « ايه أيها الفرنسي ، أيها الامبراطور الجبار . اطلق سراح شبابنا فلقد بقينا فتيات . ان ثمار الخوخ والتفاح تفسد في كل مكان . وكذلك القمصان الجميلة المطرزة بالذهب . » واجتازت الاغنية نهر ساف فدخلت البوسنة ، ووصلت الى ترافنك .

وكان دافيل يتتبع سير الرأي العام . انه يعلم ان مغالبة الرأي العام

أمر عسير كل العسر في هذه المناطق ، بل امر لا جدوى منه • ومع ذلك كان يغالب ، رغم ترنح ارادته ونقص طاقته الى نصفها • انه يكتب نفس التقارير ، ويصدر الى موظفي القنصلية وعملائها نفس الاوامر ، ويداري الوزير ومن حوله • ان كل شيء يجري كما كان يجري في الماضي ، لكن دافيل اليوم لم يبق دافيل الامس •

لو كان يمكن أن تقاس قوة الارادة وسرعة التفكير وطاقة النفس وقدرة الحركات ، لامكن ان يُلاحظ ان ايقاع الاعمال التي يقوم بها دافيل في تلك الايام هي أقرب كثيرا الى الايقاع الذي يفرض نفسه على الانفاس والحياة والعمل في هذه المدينة البوسنية منه الى ايقاع العالم الذي نشأ فيه دافيل وتطور قبل وصوله الى هذه البلاد • لقد طرأ عليه هذا التغير متدرجاً على غير علم منه ، ولكنه تبدل مطرد ثابت لا يرحم • أصبح دافيل يخشى الكتابات ويهاب القرارات السريعة الواضحة ، ويخاف من الاخبار ، ويخاف من المسافرين ، ويتطير من كل تغير ، بل يتطيَّر من تصور أي تغير • انه مستعد لان يبيع جميع السنين الآتية التي لا يعرف احد ماذا تحمل بلحظة واحدة من سلام حقيقي وراحة حقيقية •

وأصبح التبدل الجسمي الذي طرأ على دافيل واضحا منذ ذلك الحين • حين يعيش الناس في بيئة محدودة ضيقة لا يغيب فيها احد عن أنظار احد ، فانه يصعب عليهم أن يلاحظوا انهم يهرمون • ومع ذلك كان واضحا للناظرين ان القنصل قد هزل جسمه في هذه الآونة الاخيرة ، ودب اليه الهرم •

ان خصلة الشعر التي كانت في الماضي تتموج على جبينه قد تسطحت الآن ، وتلونت باللون الاشهب الذي يتلون به شعر الشقر حين يهرمون • ولئن كان وجهه محتفظا بشيء من النضارة فقد رثَّ

جلده وتهدّل عند العنق • وكانت أسنانه تسقط بعد ان يقاسي منها اوجاعا هائلة •

تلك هي الآثار الظاهرة التي خلفتها منذ سنين في دافيل ، هجماتُ البرد والمطر والريح الرطبة بمدينة ترافنك ، والهمومُ العائلية صغيرها وكبيرها ، والمزعجات القنصلية التي لا يحصى عددها ، وخلّفها خاصةً ذلك الصراع النفسي الذي أطلقته فيه الاحداث الجارية في فرنسا وفي العالم •

ذلك هو دافيل في نهاية السنة السادسة من اقامة متصلة بمدينة ترافنك ، عند فجر الاحداث التي لاحت تباشيرها في الافق بعد عودة نابليون من روسيا •

الفصل الرابع والعشرون

في منتصف آذار ، حين خفت وطأة البرد الكبير ، وأخذ يذوب الجليد الذي ظن أنه ابدي ، سفرت المدينة عن منظر رهيب : لقد خرّبت المياه الشوارع ودمّرت المنازل ، وعرّت الأشجار ، وأرهقت السكان • والهموم تحاصر الناس ، فلئن ظلوا على قيد الحياة رغم الجليد ، فان مشكلات أخطر من مشكلة الجليد تقض الآن مضاجعهم ، أهمها مشكلة التموين والبذار ، دع عنك تلك المشكلات الأخرى التي لا تحل ، أعني سداد الديون أو القروض التي تمت في الشتاء •

وفي ذات صباح جاء دافنا يخبر دافيل ، بلهجته المرة الرصينة ، المعهودة فيه حين يخبر بأي نبأ ، سواء أكان النبأ ساراً أم محزناً ، هاماً أم تافها ، جاء يخبره بأن ابراهيم باشا قد أقيل من وظائفه ، دون أن يُعيَّن لمنصب جديد ، وبأن الأمر قد صدر اليه بمغادرة ترافنك وانتظار تعليمات جديدة في جاليبولي •

لقد سبق لدافيل أن اضطرب لنبأ رحيل محمد باشا قبل خمس سنين ، وشعر عندئذ بحاجة الى أن يتحرك وأن يتكلم وأن يقوم بأي عمل من شأنه أن يحول دون تنفيذ ذلك القرار • واليوم يدهشه نقل ابراهيم باشا ويسوءه ويسبب له خسارة كبيرة ، ولكنه لا يجد في نفسه من القوة ما يمكنه من الاحتجاج على هذا النقل أو معارضته • انه منذ وقوع كارثة موسكو يشعر شعوراً واضحاً بأن كل شيء ينهار وينهدم ، فاذا جاءت خسارة جديدة من أي مصدر ومن أي جهة ، وجدت في هذا الشعور معناها ومبرّرها •

فاذا كان كل شيء يهوي ، اذا كانت تهـوي الأباطرة والجيوش والنظم والثروات والاندفاعات نحو السماء ، فكيف لا يهوي هـذا الوزير المسكين الذي يشبه أن يكون ميتاً منذ الآن ، كيف لا يهوي هذا الوزير المسكين القاعد على كرسيه منذ سنين ، يميل برأسه تارةً الى الشمال وتارةً الى اليمين ؟ والناس يعلمون ما معنى « انتظـار تعليمات جديدة » في جاليبولي ٠ ان معنى هذا الانتظار هو البقـاء في المنفى بموارد قليلة ، والعجز عن تحريك اللسان بأي شكوى ، واستحالة القيام بأي دفاع عن النفس لتخفيف الحكم على المصير ٠

ولم يخطر ببال دافيل الا عرضاً أنه يفقد بذلك صديقاً قديماً وسنداً موثوقاً في لحظة يحتاج فيها الى الصـديق والسند ٠ ولكنه أصبح لا يملك من الانفعال والحماسةما يدفعه الى الكتابة والتوسلوالتحريض واللوم والاستنجاد ، كما فعل يوم نُقل محمد باشا ٠

ان كل شيء يتداعى ، فلا صديق يبقى ولا سند يدوم ٠ ومن يتحرك في مثل هذه الظروف ويحاول أن ينقذ غيره أو أن ينقذ نفسه ، لا يظفر بطائل ٠ كذلك كان يهوي ويرحل الوزير المائل الرأس دائماً ٠ ولا شيء يبقى في هذه الأيام الا الحسرات ٠

وفيما كان دافيل غارقاً في هذه الخواطر عاجزاً كل العجز عن اتخاذ أي قرار ، دعاه الوزير اليه للتحدث معه ٠ ان المرء يحس في القصر باضطراب محموم مرتبك ، ولكنه لا يرى أي تغير في مـلامح سيد القصر ٠ تحدث الوزير عن استدعائه حديثه عن أمر مقبول تماماً بعـد سلسلة المصائب التي تلاحقه منذ سنين ٠ وكان الوزير يريد أن يختم هذه السلسلة من المصائب ، لذلك قرر أن لا يتأخر رحيله ، وأن يسافر بعد عشرة أيام في مطلع شهر نيسان ٠ لقد علم أن خلفه في الطريق ، وهو لا يحرص على انتظاره بترافنك ٠

وكما فعل محمد باشا قبل ذلك ، أكدَّ ابراهيم باشا أنه ضحية عطفه على فرنسا . ولكن دافيل كان يعلم حق العلم أن هذا الكلام كذب على الطريقة الشرقية ، أو هو على الأقل كذب يختلط بالواقع الراهن فيجري مجرى الصدق ، كما تختلط العملة الزائفة بالعملة الصحيحة فتجري مجراها .

ــ نعم نعم ، لقد أبقوني في منصبي ما بقيت فرنسا منتصرة ، وكانوا لا يجرؤون أن يمسوا شخصي ولا أن يعرقلوا علاقاتي بالفرنسيين !

هكذا صارت العملة الزائفة عملةً صحيحة على حين فجأة . نسي دافيل المقدمات المغلوطة التي ساقها الوزير ، وشعر بواقع الهزيمة الفرنسية . ان تلك الكلابة الجلدية التي طالما أمسكت بقلبه في ذلك القصر ، تمسك به الآن أثناء اصغائه الهادىء الى كلام الوزير ، المنسوج من تودد كاذب وواقع مر . قال لنفسه تاركاً للترجمان أن يترجم تلك الكلمات التي فهمها فهماً كاملاً :

« هذه حقيقة ممزوجة بكذب . لقد أبهم كل شيء حتى ليعجز أي انسان عن فهم أي شيء ؛ غير أن هناك أمراً محققاً لا شك فيه هو أن كل شيء ينهار . » .

وترك الوزير موضوع فرنسا وأخذ يتكلم على علاقاته مع البوسنيين ومع دافيل نفسه . قال :

ــ صدقني اذا قلت لك ان هذا الشعب في حاجة الى وزير أصلب مني وأقسى مني . ويقال مع ذلك ان الفقراء يباركونني في جميع أرجاء البلاد . وهذا كل ما أتمناه . ان الأغنياء والأقوياء يكرهونني . وقد

ُصوِّرت لي في أول الأمر على غير حقيقتك ، ولكنني رأيتك فسرعان ما أدركت أنك صديقي الوحيد . الحمد لله... صدقني اذا قلت لك... انني طلبت الى السلطان مراراً أن يقيلني من منصبي . لم أكن في حاجة الى شيء . وكل ما كنت أرجوه هو أن أعمل في مزارعي بستانياً بسيطاً ، وأن أقضي ما بقي من أيام هادئاً على تلك الحال .

ورفض الوزير قبـول أي مواساة وأي أمنية من أجل مستقبل أفضل .

ــ لا لا ! انني أعـرف ما ينتظرني . انني أعرف أنهم يريدون أن يشهِّروا بي ، كما فعلوا ذلـك مراراً الى الآن ، وأن يزيلوني بغيـة الاستيلاء على أملاكي . يخيل اليَّ انني أسمع أصواتهم وهم يكيدون لي ويتآمرون عليَّ ويشون بي ، ولكن ما حيلتي ؟ لا حول ولا قوة الا بالله ... انني منذ فقدت أعزَّ أولادي وعدداً كبيراً من أفراد أسرتي أصبحت أتوقع المصائب الاخرى وأتهيأ لها . لو بقي السلطان سليم حياً ، لجرت جميع الأمور غير هذا المجرى ...

وكان دافيل يعرف التتمة ، وكان دافنا يترجم على ظهر القلب كمن يتلو نصاً محفوظاً . وحين غادر دافيل القصر فهم ذلك القلق وذلك التعجل اللذين كانا يزدادان في القصر في كل لحظة . ان الأثاث المتنوع المعقد الذي يملكه الوزير قد ملأ رحاب ذلك المنزل الذي اهتز فجأة كأنه يوشك أن يسقط .

في جميع الأفنية ، ووراء جميع الجدران ، كانت تعلو أصوات نداء وضجات أقدام وضربات مطـارق وجلبة سحاحـير وسلال تتحرَّك وتنقل . كل فرد من الأفراد مشغول بشخصه يحاول أن يؤمِّن خروجه. ا نهذه الأسرة الكبيرة ، المفككة هذا التفكك كله والمتحدة رغم ذلك هذا الاتحاد كله ، تستعد للرحيل في ظروف قلقة من الحياة بتركيا ،

فهي تغلي غلياناً شديداً وترتعد فرائصها وتهتز مفاصلها ؛ والوزير من بينها هو الشخص الوحيد الذي بقي هادئاً بارداً وسط هذا التعجل وهذا الصخب ، فهو ما يزال قاعداً في مكانه المألوف ، مائلاً الى احدى الجهتين ، ساكناً كتمثال من صخر ، وسط هذه الأسرة التي عصف بها الاضطراب واندفعت تتحرك هنا وهناك مروعة قلقة .

وفي الغداة جاء الخدم الى القنصلية بمجموعة كبيرة من الحيوانات الأهلية والحيوانات المروّضة ، من قطط الأنجورا ، والكلاب السلوقية، والثعالب ، والأرانب البيضاء ، فتلقاها دافيل في فناء المنزل باحتفال مهيب : وقف الموظف الذي يرافق موكبها في وسط الفناء ، وصرّح بصوت رسمي أن مخلوقات الله هذه قد كانت صديقات منزل الوزير ، وان الوزير يدعها الآن لمنزل صديق :

ــ لقد أحبها الوزير ، فلا يستطيع أن يتركها الا لمن يحبه .

وتلقى الموظف والخدم هدايا في مقابل ذلك ، ووُضعت الحيوانات في الفناء وراء البيت ، ففرح بها الأطفال فرحاً شديداً ، وكان ذلك كله من سوء حظ السيدة دافيل .

وبعد بضعة أيام دعا الوزيرُ دافيل مرة أخيرة لوداعه وداعاً صداقياً خاصاً على انفراد .

وفي هذه المرة لم يُخف الوزير انفعاله ، ولا كان في كلامه عملة زائفة وعملة صحيحة . قال له :

ــ انني أفارق كل شيء . وقد آن أن نفترق نحن أيضاً . لقد كنا كلانا منفيين في هذه البلاد ، لقد كنا كلانا سجينين مدفونين وسط هذا الشعب الفظيع . وسرعان ما أصبحنا صديقين ، وسنظل صديقين مدى الحياة ، اذا أتيح لنا أن نلتقي في مكان أفضل من هذا المكان .

وعندئذ ، في وسط هذا الاحتفال ، حدث شيء مجهول . لقد هرع المستخدمون ليساعدوا الوزير في النهوض ، فاذا بالوزير ينهض من تلقاء نفسه بحركة مباغتة قاسية . وأمكن عندئذ أن يُرى طوله وأن ترى ضخامته . اجتاز القاعة ببطء وثقل . وكانت ساقاه ما تزالين مختفيتين فكأنه يدور على محور . وظهر جميع سكان القصر في الفناء حيث كانت ترابط عربة سوداء هي الهدية القديمة التي أهداها اليه فون ميترر ، وقد نُظّفت الآن وجُهّزت ، وعلى مسافة غير بعيدة منها ، حصان رائع له منحزان أبيضان ووردیان ، وقد أسرج وأعد اعداداً كاملاً .

اقترب الوزير من العربة ، وتمتم ببضع كلمات كأنه يتلو دعاء ، ثم التفت نحو دافيل وقال :

ــ انني ، وأنا أغادر هذا البلد الحزين ، أترك لك هذه الوسيلة التي سوف تتيح لك أن تغادره أنت أيضاً بأقصى سرعة ...

ثم جيء بالحصان ، فالتفت الوزير نحو دافيل مرة أخرى وقال :

ــ ... وأترك لك أيضاً هذا الجواد الكريم آملا أن يمضي بك الى لقاء السعادة .

تأثر دافيل أشد التأثر ، وأراد أن يقول بضع كلمات ، ولكن الوزير أردف يقول وهو ينفّذ واجبات الاحتفال تنفيذاً دقيقاً :

ــ أما العربة فهي رمز السلام ، وأما الجواد فهو رمز السعادة ، وهما ما أتمناه لك ولأسرتك .

وبعد ذلك انما استطاع دافيل أن يعبّر عن امتنانه وعن تمنياته للوزير بسفر ميمون ومستقبل سعيد .

وما كاد دافيل يغادر القصر حتى علم دافنا أن الوزير لم يتهد

الى فون باولتش شيئاً ، وأنه ودّعه وداعاً مختصراً ، وخاطبه بلهجة أقرب الى الفتور . وكانت تصطف على باب القصر صفوف من الخيل ، وكان سائقو العربات يحمّلون ويُنزلون ، وينتظر بعضهم بعضاً وينادي بعضهم بعضاً . وفي المنزل الخاوي يُسمع ترجّعُ وقع الاقدام وأصوات الأوامر وجلبة المشاجرات . وكان صوت باقي يلعلع حاداً ويعلو على سائر الأصوات .

كان باقي تعيساً مريضاً من مجرد تصور أنه سيرحل في هذا الجو البارد ـ فما تزال الجبال مغطاة بالثلج ـ وأنه سيسلك تلك الطرق الرديئة . أما النفقات التي صُرفت وأنواع التلف التي تُتوقع ، واستحالة الوقوف في وجه هذه الأمور كلها ، فقد ألقته الى يأس ما بعده يأس .

انه يركض من حجرة الى حجرة ، فيرى هل نُسي شيء ، ويأمر بالانتباه الى كل شيء ، ويوصي بأن لا يُرى شيء ولا يكسر شيء ، مهدداً تارة متضرعاً متوسلا تارة أخرى . وكان يشعر بحقد على بهجت وتغيظه ابتسامته التي ينظر بها الى هذه الفوضى كلها ، ويقول : « لو لم يبق لي شيء من عقل لابتسمت مثله » ، أو يقول « انه مدمِّر فلماذا لا يدمِّر معه الآخرين ؟ » . وقد بلغ انصعاقه من تقديم تلك الهدايا الى دافيل أنه نسي الحقائب ونسي سائقي العربات ، فأخذ يركض ذات اليمين وذات الشمال يبتهل الى الوزير أن لا يهدى الحصان، حتى اذا لم يصغ اليه أحد ، تهاوى على كرسي عارٍ وأخذ يشهق ويتكلم على غير هدى كمن يهذي . قال لكل قادم ان روتا علم من مصدر موثوق أن فون ميترر حمل معه من ترافنك خمسين ألف ريال اقتصدها خلال فترة لا تتجاوز أربع سنين ...

ـ خمسون ألف ريال . خـ ... مـ ... سـ ... و ... ن ...

ألف اقتصدها ذلك الخنزير الألماني ••• في أربع سنين ! فقط ! فكم تراه اقتصد الفرنسي !! •••

كذلك كان باقي يصرخ وهو يلطم رداءه الحريري في الموضع الذي يوجعه لطمه •

وفي نهاية الأسبوع ، أثناء مطر باردٍ تحول الى تساقط ثلوج الجبال مبللة بالماء ، سار ابراهيم مع أهل منزله •

ورافقه القنصلان يتبعهما حرسهما ، ورافقه عدد من بكوات ترافنك بعض الوقت أيضاً ، ما شين أو راكبين ، لأن ابراهيم باشا لم يسافر خفيةً ، ولا سافر مصحوباً بكره جميع الناس مثل محمد باشا •

صحيح أنه كان في السنتين الأوليين ، كسائر أسلافه ، هدف فتن وثورات ومؤامرات يقوم بها وجهاء المسلمين ، لكن كل شيء قد هدأ بمضي الزمن • فان سكونه الكامل ، وأمانته ، وحذق طاهر بك ، واعتداله وتسامحه في حكم البلاد ، كل ذلك قد استطاع أن يخلق جواً مقبولاً ، وأن يقيم بين القصر والبكوات علاقات باردة لكنها مسالمة • كانوا يأخذون على الوزير أنه لم يفعل شيئاً في البلاد ، ولا حاول شيئاً ضد الصرب • ولكن البكوات كانوا يذكرون ذلك ابراءً لذمتهم أكثر مما يذكرونه رغبة في تعكير الهدوء الذي ساد البلاد أثناء وزارة ابراهيم باشا ، وكان هدوءاً ممتعاً رغم أنه عقيم • وكان الوزير ، من جهته ، يشتكي صادقاً من أنه لا يستطيع أن ينشيء جيشاً ضد الصرب بسبب بطء البوسنيين وفوضاهم وما يقوم بينهم من خلاف دائم • ومن سنة الى سنة ، كلما كان مظهر الوزير يزداد شبهاً بمظهر جثة ، كانت أحكام الناس عليه تتلطف ، وكان الرأي في ادارته يتحسن •

تضاءل الموكب شيئاً فشيئاً • اختفى الماشون أولاً ثم اختفى الراكبون ، وفي النهاية لم يبق الا رجال الدين المسيحيون وعدد من

وجوه المسلمين ، والقنصلان مع حاشيتيهما • وودّع القنصلان الوزير أمام المقهى الصغير الذي افترق أمامه دافيل ومحمد باشا قبل ذلك • وكان الكوخ الصغير المبني من أوراق الشجر والمبلل بالماء والمسودّ من الأمطار ، ما يزال قائماً هناك أمام المقهى • توقف الوزير ، ولفظ بضعة أصوات لا تُفهم ولا ترجمها أحد ، ثم ودّع القنصلين • كرر دافنا بصوت عالٍ التمنيات وكلمات الوداع التي نطق بها مولاه ، بينما قدم فون باولتش تحياته وتمنياته باللغة التركية •

كان يهطل مطر خفيف • الوزير يمتطي حصانه القوي الذي يُلقّب في القصر بالبقرة • وهو يرتدي معطفاً من جوخ أحمر لا يتفق لونه الفرح وهذا الوجه الحزين المخضل بالمطر • ووراء الوزير يُرى وجه طاهر بك الأصفر وتُرى عيناه الملتمعتان ، ثم وجه أشرف افندي الذي يشبه وجوه الصيادين ، ثم الطبيب ، ثم تُرى تحت كومة مدوّرة من الملابس ، عينا باقي الزرقاوان اللتان تهمان ببكاء من فرط الغيظ •

وأسرع الجميع يبتعدون عن هذا الفج الرطب ، وكأنهم يتفرقون بعد الفراغ من تشييع جنازة ودفن ميت •

عاد دافيل مع فون باولتش • الوقت ظهر • انقطع المطر ، وفي مكان بقبة السماء ظهر شعاع ضئيل من شمس بلا حرارة • وظهرت خواطر وذكريات تحت ستارٍ من حديث ظاهره تافه •

الفج يضيق بين الجبال كلما اقترب الركب من المدينة • الروابي الوعرة تتغطى بعشب جديد يمتد عليه ظل مطر • ويلمح دافيل في بعض الأماكن أزهاراً تتفتح ، لكنه قد بلغ من شدة اختناقه بالحزن أمام هذا الربيع السابع الذي يقضيه في البوسنة أنه لا يكاد يحسن الرد على شروح فون باولتش بما تقتضيه آداب اللباقة والكياسة •

• • •

دهش دافيل حين تلقى أنباء من الوزير بعد سفره بعشرة أيام . لقد التقى ابراهيم باشا بخلفه سلقدار علي باشا في مدينة نوفبازار[1]، ولبثا في تلك المدينة بضعة أيام معاً . واذا مرَّ حامل البريد الفرنسي بتلك المدينة ، انتهز ابراهيم باشا هذه الفرصة فحمَّله الى صديقه أولى أخباره . ان الرسالة مملوءة بذكريات صداقية وتمنيات طيبة . وأضاف ابراهيم باشا الى ذلك بضع كلمات عن الوزير الجديد عابراً :

« وددت لو أصف لك خلفي أيها الصديق المحترم ، لكن ذلك يستحيل استحالة كاملة . هناك شيء واحد أستطيع أن أقوله ، وهو أن أسأل الله الرأفة بالمساكين وبجميع من لا حول لهم ولا قوة . سيدرك البوسنيون الآن ... » .

وكان ما ذكره حامل البريد لدافيل عن شخصية الوزير الجديد وما كتبه فرايسينه بشأنه ، يتفق كل الاتفاق وما يقوله ابراهيم باشا .

ان الوزير يجيء بدون عدد كبير من الموظفين الاداريين ، وبدون نساء ، يجيء « وحيداً عارياً كحيوان في غابة » ، ولكن يصحبه ألف ومائتا مقاتل من المقاتلين الألبان الذين يحملون أكمل سلاح ويبث منظرهم الرعب في القلوب ، ومعهم مدفعان من مدافع الميدان . وقد سبقته سمعته التي تقول انه رجل متعطش الى الدم ، وبأنه أقسى وزير في الامبراطورية العثمانية .

وفي مكان بين بليفليه[2] وبريبوري[3] غاص أحد المدفعين في الوحل لسوء الطرق في هذا الفصل . فلما وصل الوزير الى بريبوي أمر بقطع رءوس جميع كبار الموظفين (ومن حسن الحظ أنهم كانوا

---

(١) مدينة بالهرسك .
(٢) مدينة بالهرسك .
(٣) مدينة بالبوسنة .

ثلاثة فحسب) ، وأمر كذلك بقطع رأسي رجلين من أعيان المدينة ٠ ومضى رسول خاص يتقدم الموكب ويأمر باصلاح جميع الطرق ، ولكن الناس لم يكونوا في حاجة الى تلقي هذا الأمر ، فقد أحدث مَثَلُ بريبوي أثره ، فأصبحت لا ترى على الطريق بين بريبوي وسارايفو الا رجالاً يمهدون الأرض ويسدون الحفر ويردمون برك الماء ويصلحون جسور الخشب ٠ لقد سهّل الخوف مرور الوزير ٠

كان علي باشا يتقدم بطيئاً ، ويتوقف في كل مدينة زمناً طويلاً ، يقيم النظام على طريقته ، ويجبي ضرائب جديدة ، ويقطع أعناق أتراك متمردين ، ويعتقل أعياناً ووجهاء ، ويلقي القبض على جميع اليهود بغير استثناء ٠ وبلغ الذعر في سارايفو أن جميع كبار البكوات والتجار مضوا لاستقبال الوزير حتى كوزيا تشوبريا من أجل أن يقدموا اليه أولى هداياهم ٠ ولكن علي باشا الذي يعرف روح الكتمان وروح المعارضة اللتين يستقبل بهما بكوات سارايفو الوزراءَ الجدد حين مرورهم بمدينتهم ، رفض هداياهم ، وصاح بهم من أعماق خيمته يأمرهم بالانصراف فوراً ، قائلاً انه سيعرف كيف يأخذ منهم ما هو في حاجة اليه ٠

وفي الغداة سُجن جميع الأغنياء من يهود سارايفو مع عدد من البكوات انتقوا من بين أعلاهم جاهاً وأرفعهم شأناً ٠ فاذا تجرأ أحد أن يسأل لماذا يُعتقل أوثق بالحبال وضرب بحضور الوزير ٠ ولم تلبث ترافنك أن علمت بما يجري ٠ وراجت قصص تصوّر الوزير الجديد على أنه شيطان عجيب ٠ ولكن وصول علي باشا الى ترافنك وطريقته في استقبال الزعماء وفي اجتماعه الاول بهم قد فاقا السمعة التي سبقته ٠

نحن في شهر أيار ٠ ان مفرزة مؤلفة من ثلاثمائة ألباني هي التي

دخلت المدينة في أول الأمر ، صفوفاً عريضة منتظمة لأن رجالها جميعاً بطول واحد ، وهم على جانب عظيم من الجمال كأنهم فتيات • انهم يحملون بنادق قصيرة ويسيرون بخطى صغيرة ناظرين الى أمام • ثم دخل الوزير مع حاشية خفيفة ومفرزة من الفرسان ، فكانوا يسيرون بخطى قصيرة أيضاً ، كأنهم يشيعون جنازة ، لا يحدث أحد ضجة ولا يقول أحد كلمة • وعلى رأس الموكب ، أمام حصان الوزير ، كان يتقدم جندي ضخم يحمل بيديه سيفاً جعله أمام وجهه • ذعر الأهالي من منظر هذا الموكب البطيء ذعراً ما كان لهم أن يشعروا بمثله أمام أفواج مسعورة من أعنف الجنود بطشاً وأشد الشراكسة هياجاً حين ينطلقون معولين صائحين ويطلقون نيرانهم على غير هدى •

وفي المساء نفسه تم القبض على يهود وأعيان ، وفقاً للمبدأ القائل : « انك تتحدث حديثاً آخر مع من قضى ليلة في السجن » • أما أقرباء السجناء واصدقاؤهم الذين كانوا يبكون أو ينتحبون أو يحاولون أن يساعدوهم أو أن يمدوا اليهم شيئاً من الأشياء ، فسرعان ما كانوا يضربون •

اعتقل جميع أرباب الأسر اليهودية ، لأن علي باشا كان يملك قائمة دقيقة بأسمائهم ، وكان يعرف أنه مامن أحدٍ يقدر أن يدفع ثمن حريته غالياً كيهودي ، وما من أحد يبث الذعر في مدينة من المدن كيهودي • ان أهالي ترافنك الذين يتذكرون أشياء كثيرة يتذكرون أنهم رأوا بين كثير من الغرائب والفضائح ، ستة أفراد من أسرة آتيجاس قد كبّلوا بسلسلة واحدة •

وفي ذلك المساء نفسه ، رُئي قس دولاتس الراهب ايفو جانكوفتش ، ورئيس دير جوتشا جورا ، والراهب الارثوذكسي باهوميه ، يصلون الى السجن موثقين •

وفي الغداة أخرج من القلعة جميع سجنائها الذين ارتكبوا جرائم قتل أو جرائم سرقات خطيرة ، وكانوا ينتظرون صدور الحكم عليهم من ابراهيم باشا الرجل البطيء الشديد التورع ، فشنقوا جميعاً في ساحات المدينة قبل طلوع النهار . وعند الظهر عقد أول لزعماء المدينة أول اجتماع في « الديوان » .

لطالما شهد هذا « الديوان » اجتماعات صاخبة ، ولطالما سمع أحاديث خطيرة ، واتخذ قرارات هامة ، وأصدر أحكاماً بالاعدام كثيرة ، ولكن « الديوان لم يعرف في يوم من الأيام صمتاً كالصمت الذي يخيم عليه الآن فيقطع الأنفاس ويقبض الاحشاء . ان علي باشا رجل فذ في هـذا الفن الذي يخلق ويحفظ وينشر ذلك الجو الرهيب المرعب الذي يروّض حتى من لا يهابون الا الموت .

قرأ علي باشا الفرمان الامبراطوري ثم أبلغ الزعماء قراره بالحكم بالاعدام على القايمقام راسم بك ، محافظ ترافنك . ان الضربات التي يكيلها علي باشا انما تبث الرعب خاصة لأنها لم تخطر بالبال ولا كانت متوقعة .

حين غادر ابراهيم باشا ترافنك قبل ثلاثة أسابيع ، كان سليمان باشا سكوبلاك غائباً مع جيشه في مكان ما على نهر درينا ، فرفض لعذر مقبول أن يحل محل الوزير بانتظار وصول علي باشا ، لذلك أصبح العجوز راسم بك هو السلطة العليا في المدينة بصفته محافظاً لها .

قال الوزير :

ــ لقد اعتقل هذا الرجل ، وسيتم اعدامه يوم الجمعة ، فانه قد بلغ من الرخاوة والفوضى في حـكم البلاد أثناء ولايته ، أنه يستحق الموت مرتين . وهذه خطوة أولى على كل حال ، سوف تتبعها خطوات أخرى ، فيعدم أشخاص آخرون . أن جميع الذين لم يقوموا على الوجه

الأكمل بما عُهد اليهم من أعباء الامبراطورية وما كلفوا به من أعمال الدولة ، وجميع الذين عارضوا هذا صراحة أو ضمناً سينالون قصاصهم •

فلما فرغ الوزير من تلاوة القرار ، قُدمت القهوة وقدم الدخان والشراب • حتى اذا انتهى احتساء القهوة قال خالد بك تذكرجتش ، وهو أقدم البكوات ، قال بضع كلمات يدافع بها عن القايمقام المسكين • وفيما كان خالد بك يتكلم ، كان أحد الخدم قد قدم شرابا للوزير ، وأخذ يتراجع القهقرى نحو الباب الايمن ، فاذا به يصدم الخادم الذي كان يجيء بالغلايين ، فيسقط أحد الغلايين على الارض • وكأن الوزير كان لا يرجو الا أن يحدث شيء من هذا القبيل ، فاذا هو ينظر الى الخادم نظرة تصعقه صعقا ، ثم يميل الى أحد الجنبين مشدود الجذع فيتناول سكينا كانت في متناول يده ، فيرشق بها الخادم الذي كان لا يستطيع حراكا • اضطرب الخدم اضطرابا شديدا وأسرعوا يحملون المسكين غارقا بدمه ، بينما كان الزعماء والبكوات يحدقون في أقداحهم، غافلين عن النراجيل التي تحترق قربهم ، يحاولون أن يسيطروا على انفعالهم بمزيد من التصلب ومزيد من البرود •

وكان خالد بك الشخص الوحيد الذي حافظ على رباطة جأشه وحضور ذهنه • فختم دفاعه عن المحافظ العجوز راجيا من الوزير أن ينظر الى سنه الهرمة ومزاياه السابقة أكثر مما ينظر الى أخطائه الراهنة • فأجابه الوزير بصوت قوي واضح ، وقسوة شديدة ، قائلا ان كل فرد من الافراد سينال أثناء حكمه ما يستحق : فمن عمل صالحا وكان مطيعا أثبناه ، أما العصاة والاشرار فليس لهم الا السوط والموت •

— ما جئت الى هنا لأقص عليكم الاكاذيب ، ولا لأتسلى بالنظر اليكم من فوق النراجيل ، ولا لأنام على هذا الفراش ، وانما جئت الى

هنا لاقرار النظام في هذه البلاد التي ُعرفت حتى استامبول بفوضى تعتز بها • كل رأس مهما قسا فله سيف يقطعه • ورءوسكم على أكتافكم، والسيف بيدي ، وفرمان السلطان تحت وسادتي • فمن أراد أن يأكل خبزا وأن يظل يرى الشمس ، فعليه أن يعلم ذلك وأن يسلك وفقا لذلك • ألا اني قد بلغتكم فبلغوا الناس • ولننصرف من بعد معا الى تحقيق ما يرجوه منا السلطان •

عندئذ نهض البكوات والزعماء واستأذنوا بالانصراف محيين ، وقد زاغت أبصارهم وحارت عقولهم كأنهم خارجون من مشهد سحر •

وفي الغد استقبل الوزير دافيل في احتفال فخم • جاء الالبانيون يرافقون القنصل وهم يرتدون ملابس الاستعراض ويركبون جيادا رائعة • صعدوا الشوارع الصغيرة الخالية مارِّين بالبازار الذي يشبه أن يكون ميتا • لا باب فتح ، ولا نافذة رفعت ، ولا رأس ظهر •

وتم الاستقبال وفقا للمراسم الاحتفالية المألوفة • وأهدى الوزير الى دافيل ودافنا أنواعا جميلة من الفـراء • لوحظ خلو الحجرات والردهات من الاثاث والزينات • وكان عدد الموظفين والخدم قليلا جدا • ان كل شيء يبدو الآن خاويا عاريا بعد الحركة الكثيرة التي كانت تملأ القصر في عهد ابراهيم باشا •

وُدهش دافيل أشد الدهشة من مظهر الوزير الجديد ، وشعر من ذلك بانفعال قوي وعجب كبير • الوزير فارع القامة قوي البنية نحيل العظام • وهو يمشي بسرعة ، لا يحرص على ذلك الوقار الثقيل المألوف في الشخصيات التركية • وجه برونزي وبشرة ملوَّحة وعينان خضراوان ولحية بيضاء وشاربان أبيضان أحسن قصهما • وهو يتكلم بسهولة وحرية وطلاقة ، وكثيرا ما يضحك مقهقها ، حتى لتبلغ قهقهته من العلو ما لا عهد بمثله في موظف من كبار الموظفين الاتراك •

تساءل دافيل : أهذا هو حقا الوزير الذي سمع عنه تلك الامور الرهيبة كلها ، أهـو حقا الوزير الذيحكم بالاعدام على القايمقام العجوز ، ورشق أحد الخدم بسكين في هذا « الديوان نفسه » ؟.. كان الوزير يضحك ويتحدث عن أهدافه في اعادة تنظيم البلاد ، وعن تصميمه على شن حرب جادة على الصرب . وشجع القنصلَ على مواصلة عمله كما في الماضي ، وأكد له حسن نيته وحمايتَه ورغبتَه في منحه انتباهَه كله .

ولم يضن دافيل ، من جهته ، بازجاء عبارات التودد وتأكيدات الاخلاص ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن مئونته من الالفاظ الكبيرة واللفتات الكريمة ضئيلة . فما أن ينقطع وجهه عن التبسم لحظة ، وما ان يصمت حتى يصبح الوزير قاتما قاسيا وكأن عينيه القلقتين تبحثان عن نقطة يستطيع أن يسددانيها ضربته . ان الحركة في هاتين العينين الباردتين لا تطاق ، وهي تتعارض تعارضا قويا مع الضحك المقهقه .

ـــ لا شك في أن بكوات البوسنة قد حدثوكم عني وعن أساليبي في الحكم ، فلا يزعجنكم هذا . أنا واثق من أنهم لا يحبونني ، ولكنني ما جئت الى هنا من أجل أن يحبوني . هؤلاء أناس بُلهاء يعيشون على نبالة زائفة وألفاظ كبيرة جوفاء . ولا يجوز أن يدوم هذا . لقد آن لهم أن يبلغوا الرشاد . ولكن الناس لا يرشدون بواسطة الرأس بل بواسطة الطرفين الآخرين : راحتي القدمين . ما رأيت في حياتي انسانا جُلدت راحتا قدميه جلدا طيبا ثم نسي ذلك . ولكنني رأيت الناس مائة مرة ينسون أفضل النصائح وأحكم التوصيات .

قال الوزير ذلك وهو يضحك ملء صدره ، وقد طاف بوجهه تعبير حي نشيط يضفي ملامح الشباب والفتوة على فمه ولحيته وشاربيه المقصوصين .

أردف يقول :

ـــ دعهم يقولون ما يشاءون ، ولكن ثق أنني سأعرف كيف أدخل الانضباط والنظام الى عظام هؤلاء الناس ! ولا يقلقنك شيء مع ذلك ، واذا احتجت الى أي أمر من الامور ، فتعال اليّ رأساً . اني لأرغب أشد الرغبة في أن أعرف أنك هاديء البال راضٍ .

هذه أول مرة يجد فيها دافيل نفسه أمام واحد من أولئك الولاة العثمانيين الذين حدثته الكتب وحدثه التاريخ عن جهلهم الكامل وغلظتهم وتعطشهم الى الدم .

جاء الزمان الذي يحرص فيه كل انسان على أن ينكمش كل الانكماش ، على أن يعيش مجهولا لا يراه أحد ، جاء الزمان الذي يبحث فيه كل فرد عن ملاذ يعتصم به ، عن ملجأ يأوي اليه ، حتى صار يُقال في المدينة « ان وكراً من أوكار الفئران يساوي ثمنه في هذا الزمان ألف دينار » . لقد ألم بترافنك ذعر شامل كالضباب ، يخنق كل من يتنفس وكل من يفكر . هو ذلك الخوف الكبير الذي لا يُرى ولا تعرف أبعاده ولا يقاس به خوف آخر ، هو ذلك الخوف الساحق الذي يلم ببعض الجماعات الانسانية من حين الى حين فيلوي الرءوس أو يقطع الاعناق . ان كثيرا من الناس ، وقد عميت أبصارهم وطاشت ألبابهم وفقدوا كل عقل وكل شجاعة ، ينسون عندئذ أن الحياة تمضي كما يمضي كل شيء ، وأن قيمتها ليست قيمة غير محدودة ، فاذا هم وقد أسرهم الخوف ، يقدّرون حياتهم فوق قدرها ، فيوسخون أنفسهم ويلطخون شرفهم بأعمال خسيسة دنيئة ، حتى اذا انقضت لحظة الذعر أدركوا أنهم دفعوا الثمن باهظا ، وأنهم لم يكونوا في حقيقة الامر مهددين ، وأن وهم الأخطار هو الذي عصف بهم فلم يستطيعوا له دفعا .

الصوفا في مقهى لوتفا خاوية ، رغم أن الربيع قد حل ورغم أن

شجرة الزيزفون التي تظللها قد أزهرت • كل ما كان يجرؤ بكوات ترافنك أن يعملوه هو أن يضرعوا الى الوزير بمذلة أن يغفر للقايمقام أخطاءه ، رغم أن أحدا منهم لا يعرف الذنب الذي اقترفه القايمقام ، وأن يصفح عنه فما يعدمه •

وصدرت على جميع السجناء الآخرين ، من مقامرين وسارقي خيل ومشعلي حرائق ، أحكام سريعة ، فقطعت أعناقهم ورفعت رءوسهم على خوازيق •

وما لبث قنصل النمسا أن تدخل من أجل الافراج عن الرهبان المسجونين ، ولم يشأ دافيل أن يقصّر عن زميله ، ولكنه لم يذكر الرهبان وحدهم بل أضاف اليهم اليهود ، فأطلق سراح الرهبان أولا ثم أطلق سراح اليهود ، واحدا بعد واحد ، فلم يلبثوا أن دفعوا للقصر دياتٍ أنضبت خزائنهم • وكان القس الارثوذكسي باهوميه آخر من أطلق سراحه ، لان أحدا لم يتشفع له ، ولكن طائفته ، وهي ضئيلة العدد قليلة الثراء ، قدمت ديةً من ثلاثة آلاف قرش أضاف اليها الرهبان فوفيش وبطرس وحنا ألفين آخرين •

وقد أفرج عن عدد من بكوات ترافنك وغيرها ، ولكن اعتقل بكوات آخرون ، فكانت القلعة تضم في كل من الاوقات عددا يتراوح بين عشرة وخمس عشرة • هكذا بدأ في ترافنك حكم علي باشا الذي أسرع يُعدُّ جيشه لحملة على الصرب •

الفصل الخامس والعشرون

المصائب التي نزلت بترافنك وسكانها عند وصول الوزير ، على تلك الصورة القاسية التي لا ترحم ، ظلت محصورة في حدود الجبال التي تحيط بالمدينة ، وظلت مدفونة في تقارير القنصلين التي لم يقرأها أحد باهتمام لا في باريز ولا في فيينا . لقد كان العالم يومئذ غارقا في جو الانباء التي تصل اليه عن الدرامة الأوروبية : هزيمة نابوليون .

قضى دافيل عيد الميلاد وعيد رأس السنة في انتظار وانشداه ، فريسةً لنوع من الذعر . كان يبدو له أن كل شيء قد ضاع . ولكن ما أن عُلم أن نابوليون عاد الى باريز حتى جرت الأمور مجرى أدعى الى الطمأنينة . ووصلت أنباء مفصَّلة تحمل ما يبعث على العزاء ، ثم وصلت أوامر وأنظمة وأخبار عن تعبئة جيوش جديدة ، واتخاذ اجراءات قوية تنفذها الحكومة في جميع الميادين .

شعر دافيل مرة أخرى بالعار من جبنه ؛ وأحسَّ باندفاع جديد الى أمل غامض مبهم . ان الحاجة الى الانخداع قوية لدى النفوس الواهنة ، وان امكان الانخداع واسع لدى هذه النفوس .

ان الارجوحة الخطيرة الطائشة التي ما فتئت منذ سنين تعلو بدافيل نحو القمم ثم تهبط به الى الدرك ، تهدهده الآن بالامل قبل أن تلقيه الى اليأس المطلق . ولكن الامل يتفتت في كل لحظة ويضوي .

وفي نهاية شهر آذار وصلت الى ترافنك بلاغات الانتصارات في لوتزن وباوتزن . لقد عادت اللعبة القديمة . ولكن ترافنك كانت تعيش

في جو يبلغ من العبوس ، ومن العوز والحرمان ، ومن الخوف من الوزير والألبانيين ، أن دافيل لم يجد أحدا ينقل اليه هذه البلاغات ٠

ولقد وصلت هذه البلاغات في الوقت الذي كان فيه علي باشا ييمّم وجهه شطر الصرب بعد أن « فرض على جميع الناس ، بغير استثناء ، النظام والخشية » ٠ ولقد نهج في ذلك غير نهج سابقيه ٠ ففي الماضي كان الشعب كله يحتفل بارسال الحملة الى الصرب ٠ كان قواد المدن والارياف يجتمعون أياما وأسابيع في سهل ترافنك : يقطعون الطريق على مراحل قصيرة ، كما يشاء لهم هواهم ، آتين بعدد من القطعات هو العدد الذي أرادوه ولا شيء غيره ، حتى اذا وصلوا الى ترافنك استقروا بها ، وأخذوا يفاوضون الوزير والسلطات ، ويضعون شروطهم ، ويطلبون امدادهم بمئونات ومعدات وأموال ٠٠ كل ذلك في جو من المظاهرات الحماسية والاحتفالات الحربية ٠

فيرى المرء أثناء ذلك ، خلال أيام طويلة ، أناسا مجهولين ، مجهّزين مسلّحين عاطلين مشبوهين ، يطوفون في المدينة هنا وهناك ٠ ويدوم هذا المعرض المبرقش الصاخب أسابيع برمتها : تُشعل نيران ، وتُقام خيام ، وتوضع في الوسط حربة مع أذيال ثلاثة أحصنة ، ملطخة بدم خراف ذبحت قرابين في سبيل انتصار الحملة ٠ والناس يقرعون الطبول وينفخون في الابواق ويتلون الادعية ٠ والغرض من ذلك كله تأخير المسير ما أمكن التأخير ، وكثيرا ما تكون الاحتفالات التي ترافق الدخول في الحملة هي الشيء الاساسي ، بحيث أن كثيرا من الناس لم يروا ساحة القتال في يوم من الايام ٠

ذلك ما كان يحدث في الماضي ٠ أما الآن ، في عهد علي باشا ، فقد جرى كل شيء في صمت مطلق ، وخوف عميق ، فلا احتفالات خاصة ولا تباطؤ ولا تردد ، وليس ثمة مؤن في مكان ، وانما يعيش الجنود على

ما في غابر الوزير ؛ ولا أحد يجب أن يغني أو أن يعزف موسيقى •

ذهب الوزير بنفسه الى سهل ترافنك ، وأمر بقطع رأس آمر تسازينا ، لان العدد الذي جاء به من الرجال أقل من العدد الذي وعد به بتسعة ، ثم اختار من بين رجال هذه القرعة آمراً جديدا •

كذلك سار الى الصرب الجيش الذي كان ينتظره سليمان باشا على رأس جيشه •

فآلت السلطة الى العجوز راسم بك مرة أخرى بصفته قمائمقام المدينة• انه وقد حكم عليه علي باشا بالاعدام ، وأنقذه البكوات انصافا ، يشعر بخوف هو الآن كفيل بحضه على الحماسة والجد والنشاط في ادارة شئون البلاد وفقا لتعليمات الوزير ونواياه •

قال دافيل لنفسه : « أي فائدة في أن أنقل الى هذا الشيخ المسكين بلاغات انتصار نابوليون ؟ ومن ذا الذي يستحق أن أنقلها اليه ؟ » •

سافر الوزير اذن مع الجيش والالبانيين ، تاركاً وراءه ذعراً يجمد الدم في العروق ، ويبقى بقاء سور جبار لا يتزعزع ؛ ان مجرد تصور عودته أقوى من أي تهديد وأرهب من أي عقاب •

بقيت المدينة صمّاء خرساء فقيرة ساغبة ، كما لم تكن كذلك في الاعوام العشرين الخوالي •

الايام الطويلة مشمسة ، فساعات النوم أقل ، والشعور بالجوع أطول • الاطفال الضاوون قد غطت الاكزما أجسامهم ، وراحوا يبحثون في الشوارع عما لا سبيل الى العثور عليه : الغذاء الذي يسد الرمق ويرد العافية • الناس يمضون حتى منطقة نهر ساف ، بحثا عن القمح ولو للبذار •

أيام السوق لا تختلف عن الايام العادية • حوانيت كثيرة لا تفتح

أبوابها قط • التجار قابعون في دكاكينهم لا يتحركون • القهوة ومحاصيل آسيا أو أفريقيا مفقودة منذ الخريف • لم يبق مؤن ؛ لم يبق الا زبائن يرغبون في شراء ما لا وجود له •

فرض الوزير ضرائب باهظة على التجارة ، حتى اضطر كثير من التجار الى الاستدانة لسداد هذه الضرائب • والخوف قد بلغ من القوة في نفوس الناس أنهم لا يجرؤن أن يتشكوا حتى بين جدران أربعة من بيوتهم • ولكنهم يرددون في داخل المنازل والحوانيت أن ستة أباطرة مسيحيين يقاتلون الآن بانابارت ، وأنهم جنّدوا جميع الرجال الأصحاء ، وأنه ما من أحد يستطيع أن يحرث ولا أن يبذر ولا أن يحصد قبل أن يتم كسر بانابارت وتدميره •

حتى اليهود يحاذرون أن يظهروا في نواحي قنصلية فرنسا • وفرايسينه الذي أخذ يصفي الوكالة الفرنسية بساراييفو ، أبلغ مراجعه أن يهود المدينة جميعا يقدمون سنداتهم ويطالبون بسداد جميع مالهم من ديون حتى أصبح عاجزاً عن الوفاء بالتزاماته • وباريز لا تجيب على أي سؤال من أسئلته ، والقنصلية لم تتلق منذ ثلاثة أشهر شيئا من المال لنفقاتها ومرتباتها •

بينما كان يحل وزير محل وزير في مدينة ترافنك ، وبينما كانت تجري في أوروبا أحداث كبرى ، كانت الحياة تسير سيرها العادي في ذلك العالم الصغير ، عالم القنصلية : مخلوقات جديدة تأتي الى الوجود ، ومخلوقات قديمة يدب اليها الهرم وتتقوس منها الظهور •

ان السيدة دافيل حامل مرة أخرى ، وهي من حملها في أشهره الاخيرة ، ومع ذلك لا يظهر عليها الحمل ، وهي تحتمله في يسر وسهولة كما احتملت الحمل الذي سبقه منذ سنتين • انها تقضي سحابة نهارها في الحديقة مع العمال • وقد استطاعت في تلك السنة بفضل فون باولتش

أن تحصل على بذور جيدة ، فهي تنتظر منها نباتا كثيرا ، رغم أن حملها قد جاء في فرصة غير مناسبة ، أي في أوان يثقل عليها فيه بقاؤهـا في الحديقة .

وأصبح دافيل أباً للمرة الخامسة في نهاية شهر أيار . المولود ذكر . وقد ولد نحيلا هزيلا ، وعمّد دون ابطاء باسم « أوجوست فرنسوا جيرار » وسجّل في سجلات التعميد لأبرشية دولاتس . وجرى كل شيء كما جرى من قبل : أيقظت الولادة كثيراً من مشاعر التعاطف وكثيراً من الاحاديث في العالم النسوي بمدينة ترافنك . واستقبل منزل دافيل زيارات كثيرة ، وأسئلة كثيرة ، وتمنيات من كل حدب وصوب ، بل استقبل هدايا أيضاً ، رغم أنواع الحرمان ورغم الفقر العام الشامل . ونقصت هديةً واحدة هي هدية الوزير التي مشى مع جيشه الى نهر درينـا .

ولكن كل شيء كان قدتغير تغيراً كبيراً عما كان عليه منذ سنتين ، تغير التوازن العالمي كما تغير الوضعَ في البوسنة . لم يثبت على حال واحدة الا أمر واحد هو العلاقات العائلية ، فان مفهوم الحياة العائلية من حيث هي شيء مقدس ذو قيمة شاملة دائمة مستقلة عن أي طاريء تاريخي ، ظلت تهب لهذا العالم البوسني الصغير شيئاًمن التلاحم والانسجام . انحياة كل فرد ، في مجتمع كهذا المجتمع ، ترتسم في الحياة العائلية التي تشكل حلقة محكمة الاغلاق . وهذه الحلقات العائلية ، رغم انفصال بعضها عن بعض ، يرتبط بعضها ببعض في نقطة خفية تمر عليها جميعا ، فما من شيء يقع لأسرة من الأسر الا ويهز سائر الأسر . وهكذا يشارك جميع الناس في الأحداث التي تقع لكل فئة من الناس ، من ولادات أو وفيات ، مشاركة غريزية ودية تكفل التلاحم والترابط في هذا العالم الصغير : البوسنة .

في تلك الآونة نفسها تقريباً ، شن ّ ترجمان قنصلية النمسا القديم ، نيقولا روتا ، حملةً يائسة على القدر •

لقد كان لأسرة فون ميترر منذ زمان قديم طباخة مجرية ضخمة ثقيلة ، لا تتحرك من مكان الى مكان الا في كثير من العناء ، وما تنفك تعاني آلام الروماتزم في الساقين • انها طباخة ممتازة ، أمينة مخلصة ، لكنها ترهق البيت كله وتضطهده اضطهاداً • وكثيراً ما تشاجرت معها آن ماري ثم تصالحت ، خلال خمسة عشر عاماً بكاملها • واذ تفاقم عجزها في السنين الأخيرة ، فقد استخدمت الأسرة فتاة من دوتسه تعين الطباخة العجوز في عملها ، وهي فتاة يقال لها لوسيل قوية الجسم خفيفة الحركة تكب على العمل في نشاط وجد • وقد بلغت الفتاة من تلاؤمها مع الطباخة العجوز أنها أتقنت بفضلها تعلم مهنتها اتقاناً جيداً • فلما تركت أسرة فون ميترر مدينة ترافنك ، اصطحبت « تنينها » على حد تعبير آن ماري ، وتركت لوسيل طباخةً لفون باولتش•

وكان للفتاة لوسيل هذه أخت اسمها آنجا هي عار الأسرة وعار الطائفة كلها في دوتسه • كانت هذه الأخت تدير مقهى على ضفة الطريق المؤدية الى كاليبونار • وكانت لوسيل تتألم كثيراً من سلوك هذه الأخت ، ولكنها تحبها حباً شديداً فلم تقطع صلتها بها في يوم من الأيام ، فكانت تزورها متخفية من حين الى حين ، رغم أن لقاءها بها يسبب لها حزناً أعمق من شوقها الى رؤيتها ، ذلك أن آنجا تظل ماضية في الطريق الذي اختارته ، فما تزيد لوسيل بعد ألوف التوسلات العقيمة على أن تبكيها بكاء ميتاً • وتظل الأختان تلتقيان بين الفينة والفينة •

وكان روتا العاطل الذي أصبح لا يمسك عن شيء ولا يتنازل عن تعاليه ولا يكف عن الحركة ، يطوف كثيراً في شوارع ترافنك ويذهب

الى ضواحيها حتى يبلغ كاليبونار ويدخل مقهى آنجا • وشيئاً فشيئاً انعقدت الصلة بينه وبين هذه المرأة الفاجرة ، الساقطة مثله ، التي أخذ يدب اليها الهرم ، وأخذت تدمن على الشراب •

واستطاعت آنجا ، قبيل عيد الفصح ، أن تـرى أختها لوسيل ، فاذا هي تعرض عليها أثناء الحديث ، على حين فجأة ، أن تدس السم لقنصل النمسا ، حتى أنها قد جاءتها بالسم •

لا شك في أن هذا المشروع لم ينشأ الا أثناء ليلة محمومة قضاها المريضان الشقيان في المقهى السيء السمعة تحت سلطان الخمرة والجهل والحقد والعمى الكامل• وذكرت آنجا لأختها أن روتا يؤكد أن هذا السم بطيء التأثير ، وأن القنصل سيهلك شيئاً بعد شيء دون أن يشعر أحد بذلك ، وأنه سيموت كموته من مرض طبيعي • ووعدتها بمكافأة كبيرة، وعدتها بحياة رائعة الى جانب روتا الذي ستتزوجه والذي سيعود الى احتلال منصب خطير بعد موت القنصل ، حتى لقد عرضت عليها عدداً من الدنانير الذهبية الرنانة الـكاملة الوزن ، قائلة في الختـام انهم سيكونون هم الثلاثة سعداء مطمئنين طوال حياتهم •

أحست لوسيل وهي تسمع هذا الكلام أنها توشك أن تموت خوفاً وعاراً • وقبضت على القارورتين الصغيرتين ، فخبأتها في جيوب ثوبها ، ثم أمسكت بكتفي أختها وأخـذت تهزها كأنها تريد أن توقظها من كابوس • وناشدتها بذكرى أمها وبجميع القديسين أن تعود الى صوابها وأن تطرد من ذهنها مثل هذه الخواطر وهذه المشاريع • ومن أجل أن تقنعها وأن تخجلها حدثتها عن طيبة القنصل وعن فداحة الجريمة التي ترتكبها اذا هي أطاعتها ، وعن الهول الفظيع الذي تحسه متى تصورت أنها ترد على احسانه باساءة كهذه الاساءة • وحضتها على قطع كل علاقة لها بروتا ، سواء في هذا الأمر وفي غيره •

دهشت آنجا من تمنع أختها ومن حزنها ، فتظاهرت بالانصياع لرأيها وطلبت الى لوسيل أن ترد اليها القارورتين . ولكن لوسيل رفضت ذلك ، ثم افترقنا على هذه الحال ، فأما لوسيل فمحطمة ألماً وحزناً وكرباً ، وأما آنجا فصامتة لا تقول شيئاً وقد بدا في وجهها مكر مقلق .

لم تستطع لوسيل أن تغمض جفنيها الليل كله ، فكانت تتعذب وتفكر . حتى اذا طلع الصباح ذهبت الى دولاتس وأفضت بالقصة كلها الى الراهب ايفو وأسلمته قارورتي السم راجيةً منه أن يعمل ما يراه مفيداً لتفادي هذه المصيبة وهذه الجريمة .

لم يضيّع الراهب لحظة واحدة : ذهب الى فون باولتش فأعلمه بالأمر وناوله قارورتي السم . فكتب الليوتنان كولونيل فوراً الى دافيل يبلغه أن الشخص الذي تحميه قنصلية فرنسا قد حاول تسميمه وأن هناك أدلةً وشهوداً ، وأن هذا الشقي لم يبلغ غاياته ولن يبلغها يوماً ، ولكن فون باولتش يترك لدافيل أن يتساءل هل يجوز له أن يشمل مثل هذا الرجل بحماية القنصلية . وكتب رسالة مماثلة بعث بها الى القايمقام . ثم انصرف الى عمله بهدوء ، واستمر يعيش ويأكل كأن شيئاً لم يحدث ، ولم يبدل مستخدميه ولا استبدل بطباخته طباخةً أخرى .

ولكن هذه الحادثة أثارت هزةً كبيرة لدى الآخرين ، لدى القايمقام ، ولدى الرهبان ، ولدى دافيل خاصةً . وأمر دافنا أن يخيّر روتا بين أمرين : فاما أن يغادر ترافنك فوراً واما أن يفقد حماية قنصلية فرنسا فتعتقله السلطات التركية بتهمة محاولة دسّ السم .

في تلك الليلة نفسها اختفى روتا مع آنجا . لقد سهّل له دافنا

الفرار حتى سبيلت ، ولكن دافيل أخبر السلطات الفرنسية في تلك المدينة بآخر انباء روتا وأوصاها بأن لا تستعمل في أي مكان هذا الرجل الخطر الذي لا يمكن الركون اليها أبداً ، وأن تسيِّره الى أبعد مكان نحو الشرق ، ثم تدعه هنالك لمصيره •

الفصل السادس والعشرون

حملت أشهر الصيف شيئاً من الهدوء والراحة • نضجت الثمار ، وأشقرّ القمح • الأيام ساكنة ساجية • لكن الشائعات التي تقول ان حرباً ستقع ، وان تصفية سياسية كبرى ستتم ، وان نابوليون سيسقط، ماتنفك تجري في الناس • وكان الرهبان خاصةً هم الذين يروّجون هذه الشائعات ، ولكنهم قد بلغوا في ذلك من التخفي والمكر أن دافيل لم يستطع أن يفاجئهم يوماً ولا أن يقاومهم صراحة •

وفي مطالع شهر ايلول زار فون باولتش زميله الفرنسي ، ترافقه حاشية أكبر عدداً من حاشيته في الأحوال العادية •

لقد ظل فون باولتش ، طوال أشهر الصيف ، أثناء تلفيق أخطر الشائعات وترويج أعجب الأنباء ، ظل هادئاً أكمل الهدوء مساوياً لنفسه في معاملة جميع الناس • كان في كل يوم من أيام الأحد يرسل الى السيدة دافيل نماذج من أزهار أو خضار أثمرتها البذور التي طلباها كلاهما • وكان أثناء لقاءاته القليلة بدافيل يصرح له بأنه لا يظن أن حرباً عامة ستنشب ، وبأنه لا يرى أي دليل على أن النمسا ستخرج عن حيادها • وكان يروي أشعاراً لأوفيد وفرجيل • وكان يشرح أسباب المجاعة ويستعرض وسائل تجنبها • وكان ، على عادته دائماً ، يعبّر عن آرائه كما لو كان الحديث يدور على حرب في كوكب آخر غير الأرض أو على مجاعة تعم في ركن آخر من أركان العالم •

وفي يوم ساجٍ من أيام أيلول ، عند الظهر تماماً ، جاء فون

باولتش الى زميله دافيل ، هادئاً بارداً على عادته ، فهما الآن جالسان وجها لوجه في مكتب دافيل بالطابق الأرضي من القنصلية • ويعلن فون باولتش لزميله دافيل أنه جاء اليه بسبب ما يروج بين الأهالي من شائعات تزعم أن الحرب ستقع بين فرنسا والنمسا ، ويعلن له أن هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة في حدود علمه بالأمر • ولكنه ينتهز هذه الفرصة ليقول لزميله كيف يتصور العلاقات التي يجب أن تكون بين القنصليتين اذا وقعت الحرب حقاً •

عرض الليوتنان كولونيل وجهة نظره وهو ينظر الى يديه البيضاوين اللتين صالبهما على صدره •

— في رأيي أن علاقاتنا يجب أن تظل ، كما هي الآن ، في جميع الميادين ، بعيدةً عن السياسة ، وينبغي على كل حال أن يكون سلوكنا سلوك رجلين شريفين ، سلوك رجلين أوروبيين ألقاهما الواجب الى هذه البلاد ، وأجبرهما على أن يعيشا فيها محاطين بظروف استثنائية • في رأيي اذن أن علينا أن لا يقاتل أحدنا الآخر ، وأن لايغتاب أحدنا الآخر أمام هؤلاء المتوحشين ، كما حدث ذلك في الماضي • لقد رأيت من واجبي أن أفاتحك في هذا الأمر ، بسبب الشائعات التي تزعم أن الحرب واقعة ، وهي شائعات أعتقد أنها لا تقوم على أساس من الصحة ، وأن أسألك رأيك في الموضوع •

شعر دافيل باختناق في حلقه • لقد أبلغته السلطات الفرنسية المهتاجة في دلماسيا أن ثمة شيئاً يتهيأ ، على نقيض ما يذكره فون باولتش ، ولكنه يأبى أن يظهر أنه على علم بشيء •

فما ان استجمع نفسه لحظة حتى شكر فون باولتش ، بصوت جعله الانفعال أجشّ ، وأضاف الى الشكر قوله انه يؤيده فيما ذهب اليه ، وان هذا الرأي كان رأيه دائماً ، وان الذنب ليس ذنبه في أن

الأمور جرت على خلاف ذلك في عهد سلفه فون ميترر ، حتى لقد أراد دافيل أن يخطو خطوة أخرى فقال :

ــ آمل ياسيدي العزيز أن يمكن تجنب الحرب ، فاذا لم يكن منها بد ، فاني أرجو أن لا تقود خطاها الكراهية والبغضاء ، وأن لا تدوم زمناً طويلاً . انني أعتقد أن الروابط العائلية الكريمة التي تربط البلاطين ستستطيع تلطيف الحدة وتعجيل المصالحة .

كان فون باولتش يحدق في عيني دافيل ، ولكنه غض بصره فجأة، وقست ملامحه ، واتخذ وجهه هيئة العداوة . وعلى هذه الحال افترق القنصلان .

وما انقضى على ذلك أسبوع حتى وصلت "بُرُد" خاصة ، وبرد فرنسية من سبيلت ، تحمل الى القنصلية ، في ساعة واحدة تقريباً ، نبأ اعلان الحرب .

ووصلت الى دافيل في الغداة رسالة من فون باولتش يعلمه فيها أن بلديهما أصبحا في حالة حرب ، ويكرر ما تم اتفاقهما عليه ، ويؤكد للسيدة دافيل في الختام احترامه وتقديره الدائم ويعلن استعداده لأن يقدم لها أية خدمة خاصة . فأجابه دافيل بأنه وسائر موظفي السفارة سيتقيدون تقيداً كاملا بما تم الاتفاق عليه ، لأن « جميع الذين ينتمون الى البلاد الغربية يؤلفون هنا في الشرق أسرة واحدة ، مهما يقم بين بلادهم في أوروبا من سوء التفاهم .» . وأضاف الى ذلك أن السيدة دافيل تشكر له التفاته الكريمة ، ويؤسفها أن تُحرم من صحبته الى حين .

. . .

هكذا أخذت القنصليتان تتحاربان في خريف عام ١٩١٣ ، وهو آخر عام من « زمان القناصل » .

ان الممرات الضيقة الوعرة في البستان الكبير الذي يمتد حول قنصلية فرنسا مغطاة بالأوراق المصفرّة تتساقط على الأرض على طول السواقي الجافة ، فيحدث تساقطها همهمة هادئة ؛ والجو في الطرق التي تظللها الأشجار المثمرة المائلة التي عريت من ثمارها جو جميل دافيء كما يكون في هذه الأيام التي يسيطر فيها على الطبيعة ذلك السلام العجيب ، سلام اللحظة التي تفصل بين الصيف والشتاء .

في هذا الأفق التي تحدّه الرابية المقابلة ، انما كان دافيل يختبيء عن أنظار جميع الناس فيستعرض قائمة مشاريعه وآرائه واندفاعاته .

وهناك أيضاً انما علم من دافنا ، في الايام الأخيرة من شهر تشرين الأول ، بنتيجة معركة ليبزج ، كما علم من حامل بريد كان ماراً بترافنك ، أن فرنسا هزمت في اسبانيا . وانقضت أيام الدفء ،وجاءت ايام البرد ، ووافت الأمطار فأحالت الأوراق المصفرة كتلة لزجة معجونة بوحل لا شكل له .

وفي صباح يوم من أيام الأحد ــ هو أول شهر تشرين الثاني من عام ١٨١٣ ــ دوت في المدينة طلقات مدفع من قلعة ترافنك ، فقطعت ذلك الهدوء الكالح الرطب الذي يسود الروابي الوعرة العارية . رفع السكان رءوسهم ، وأخذوا يعدّون الطلقات ، وينظر بعضهم الى بعض نظرات خرساء . احدى وعشرون طلقة . وتبددت الادخنة البيضاء فوق القلعة ، وعاد السكون الى المدينة . ثم اذا هو ينقطع بعد بضع لحظات :

ان حمزة المتورمَ العنق ، المنادي المصاب بمرض الربو ، الذي يفقد صوته وعقله كليهما شيئاً بعد شيء ، ولكنه لا يزال يحتفظ بابتسامته ونظرته المتحدية ، يمشي الآن في وسط المدينة منادياً معزراً صوته المتردي بحركات واشارات ، معلناً وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس ، أن الله قد مَنّ على جيش الأتراك بانتصار عظيم عادل على

الكفرة العصاة ، وأن بلغراد سقطت في أيدي الترك ، وأن آخر أثر من آثار العصيان قد سحق الى الأبد •

انتشر الخبر انتشاراً سريعاً من أقصى المدينة الى أقصاها •

وحرص دافنا في عصر ذلك اليوم نفسه أن يلاحظ أثر هذا النبأ في صفوف الأهالي •

أما البكوات والتجار فما كان لهم أن يظهروا فرحهم بأي شيء جهاراً ، ولو كان انتصار جيوشهم ، والا لم يكونوا ما هم ، أي لم يكونوا سادة ترافنك • انهم محافظون على وقارهم ورصانتهم ، لا يزيدون على اجترار بضع كلمات متشابهة لا قيمة لها ، لاعتقادهم بأن النطق بها جهاراً أمر زائد لا طائل تحته• ولكنهم في قرارة أنفسهم لا يشعرون بشيء من الارتياح • فلئن كان يسّرهم اقرار السلم في الصرب ، فليس يفرحهم كثيراً أن يروا علي باشا عائداً اليهم وقد انعقد له لواء النصر ، وأصبح أقسى وأشرس في معاملتهم مما كان كذلك في الماضي • ثم انهم أثناء حياتهم الطويلة كثيراً ما سمعوا المنادين يعلنون الانتصارات وليس يتذكر أحد منهم أنه قضى سنةً كانت خيراً من السنة التي سبقتها •

كذلك رآهم دافنا ، رغم أن أحداً في المدينة لم يرض أن ينعم عليه بنظرة واحدة جواباً على استطلاعه الذي جاء في غير محله • ثم ذهب الى دوتسه ليعرف ما يقوله الرهبان ، ولكن الأخ ايفو اعتصم بمشاغله الكهنوتية وأطال صلاة الغروب كما لم يطلها قبل ذلك يوماً وظل لائذاً بالهيكل الى أن تعب دافنا من الانتظار وقفل راجعاً الى ترافنك •

وفي الغد قام دافيل وفون باولتش بزيارة رسمية لمساعد الوزير من أجل تهنئته بالنصر ، ولكنهما رتبا أمورهما بحيث لا يلتقيان لا في الذهاب الى القصر ولا في العودة منه •

وعاد على باشا الى ترافنك في أوائل أيام الثلوج ، تستقبله طلقات

المدافع في القلعة وتحيط به جموع الصبيان عند مروره • ولم تلبث ألسنة بكوات ترافنك أن انحلت عقدتها وانطلقت من عقالها ، فأكثرهم يمجدون النصر والمنتصر ، بأقوال رصينة محسوبة يطلقونها على ملأ من الناس جهاراً •

وقد أسرع دافيل منذ أول يوم فأرسل دافنا الى القصر ليعبر عن تهانيه وليحمل هدية الى الوزير المنتصر • لقد سبق له قبل عشر سنين ، حين كان قائماً بالأعمال في نابولي ، أن اشترى خاتماً كبيراً من ذهب دقيق الصياغة بغير أحجار كريمة ، قد نقش على دائرة الفص" منه اكليل" من الغار ، وهو جزء من تركة فارس مالطي مات عن ديون كثيرة ولم يكن له ورثة ، وكان هذا الخاتم ، فيما يقال ، مكافأة قدمها للفارس المنتصر في ألعابٍ رياضية أعضاءُ جمعية الفرسان •

منذ أصبحت فرنسا تسير في طريق الهزيمة بلا عودة ، ومنذ أصبح دافيل محروماً من التوجيه متروكاً لنفسه في حالة أليمة من القلق على وطنه وعلى نفسه جميعاً ، لاحظ أنه أصبح يقدم من الهدايا أكثر مما كان يقدم في الماضي ، وأنه أصبح يعطي أشياء طالما ضنّ بها وحرص عليها من شدة حبه لها ، وأنه أصبح يجد في ذلك لذةً لا عهد له بها من قبل • انه اذ يهدي أشياء كانت جزءاً من حياته الحميمة ، يحاول على غير علم منه أن يستعطف القدر الذي أصبح يعاكسه ، ويشعر من ذلك بفرح صادق عميق كالفرح الذي شعر به حين اقتنى تلك الأشياء •

واذ لم يُستقبل دافنا في حضرة الوزير ، فقد أسلم الهدية الى سكرتيره ، وذكر له أن هذه القطعة الفنية قد قدمت خلال قرون لمن ينتصر في المعركة ، وان القنصل يبعث بها الى الظافر السعيد مع أطيب التحيات وأصدق التمنيات •

وكان سكرتير علي باشا رجل" يسمى قاسم افندي ويلقب بلتك ،

وهو انسان شاحب هزيل يشبه أن يكون طيفَ رجل ، له عينان تختلف احداهما عن الأخرى لوناً وسعة ، وهو عيّ تأثاء يحس من يراه أنه خائف فيشعر بخوف كخوفه •

واستُقبل القنصلان بعد يومين ، النمسوي أولاً ، والفرنسي بعده• لقد ولّى الزمان الذي كانت فيه الأولية للفرنسي •

كان علي باشا يبدو متعباً لكنه راض • ولاحظ دافيل لأول مرة ، بفضل ضوء ذلك اليوم المثلج أن حدقتي الوزير تثبان أحياناً من أعلى الى أدنى ، فما ان تجمد عيناه وتثبت نظرته ، حتى تأخذ الحدقتان بالتواثب ، وكأن الوزير كان يعرف ذلك ويتألم منه ، فهو لهذا السبب انما يحرك عينيه وينقّل بصره بغير انقطاع فيضفي ذلك على وجهه تعبيراً قلقاً مزعجاً •

وكان يلبس الخاتم في الاصبع الوسطى من اليد اليمنى ، وشكر له تهانيه • ولم يتكلم كثيراً عن الحملة التي شنها على الصرب ، وعن الانتصارات التي حققها ، فان المتكبرين الزهوّين يظهرون شيئاً من التواضع الكاذب في كثير من الأحيان ، لأنهم يرون أن جميع الاقوال قليلة عليهم لا توفيهم حقهم ، ومن شأن صمتهم أن يذل محدثيهم ، لأنهم بهذا الصمت يعلون من قدر انتصاراتهم اذ يحيلونها الى عظائم لا سبيل الى وصفها وليس يستطيع العاديون من الناس أن يرقوا الى ادراكها • وتلك وسيلة من الوسائل التي يعمد اليها أمثال هؤلاء المنتصرين للسيطرة على محدثيهم سنين طويلة •

وجرى الحديث عسيراً شائكاً لا صراحة فيه ، تقطعه في كل لحظة وقفات كان دافيل يحاول في أثنائها أن يجد تعابير جديدة أقوى اشادةً بالنصر الذي عقد لواؤه لعلي باشا ، وكان الوزير يدع له أن يمضي باحثاً عن تلك التعابير ، وينقّل بصره أثناء ذلك في أرجاء

الغرفة وقد ارتسم على وجهه السأم ، وارتسم عليه في الوقت نفسه اعتقاد مطلق بأن القنصل لن يعثر أبداً على الكلمات التي توفيه حقه من المديح والاطراء •

وكما يحدث في مثل هذه الحالة ، أدت رغبة دافيل في اظهـار مشاركة أقوى وفي التعبير عن فرح أصدق ، الى جرح كبرياء الغالب المظفَّر •

ـ هل يعرف أين صار الآن زعيم العصاة ، جورج الأسود ؟

كذلك سأل دافيل الذي كان قد سمع بأن قره جورج ذهب الى النمسا •

فأجابه الوزير بلهجة تعبر عن استخفاف واحتقار :

ـ من ذا الذي يعرف ومن ذا الذي يهمه أن يعرف أين يتشرد هذا الرجل الآن ؟

ـ ألا يُخشى أن تؤويه وأن تساعده دولة من الدول ، ثم اذا هو يعود الى الصرب ؟

فزمَّ الوزير شفتيه حنقاً ، ولكن الشفتين انفرجتا أخيراً عن ابتسامة وقـال :

ـ لن يعود • وأين تراه يذهب ما دامت الصرب قد دُمِّرت الى سنين طويلة • لا هو ولا أحد غيره يمكن أن يخطر بباله عصيان جديد بعد الآن •

هكذا لم يوَّفق دافيل في ادارة دفة الحديث ؛ ثم أخفق مزيداً من الاخفاق حين حاول أن يجري الكلام على الوضع في فرنسا وعلى مشاريع الحلفاء الذين كانوا يستعـدون في تلك الأيام لاجتياز نهر الراين •

كان الوزير قد استقبل بمدينة بوسافاتشا ، في طريق عودته الى

ترافنك ، بريداً خاصاً من فون باولتش يحمل اليه مع التحيات تقريراً عن أوضاع الحرب في أوروبا • لقد كتب فون باولتش يقول « ان الله يقتص من الغرور الفرنسي الذي لا يُطاق ، وان الجهود المشتركة التي تبذلها شعوب أوروبا قد آتت ثمراتها » • ووصف له معركة ليبزج تفصيلا ، وهزيمة نابوليون ، وانسحابه الى ما وراء نهر الراين ، ووصف له تقدم الحلفاء شيئاً بعد شيء ، واستعداداتهم لاجتياز النهر قبل النصر الأخير • وذكر له أرقاماً دقيقة عن الخسائر الفرنسية قتلى وجرحى وعُدداً ، وعن خسائر جيوش الشعوب التي تخضع لنابوليون والتي هي الآن بسبيل تركه •

فلما وصل علي باشا الى ترافنك كانت تنتظره معلومات أخرى جاءت مصدِّقة لتقرير فون باولتش • لذلك خاطب دافيل بتلك اللهجة ، فلا أتى على ذكر امبراطوره ولا أتى على ذكر بلاده ، كأنما هو يحدث ممثل دولة مجهولة ، عرضية ، ليس لها تخوم واقعية ولا حيز في المكان ، متحاشياً من قبيل التطير أن يلامس ولو بالخيال أولئك الذين يحاربهم القدر والذين أصبحوا منذ الآن في حكم الهالكين •

واستأذن دافيل بالانصراف وهو يلقي نظرة أخيرة على الخاتم بأصبع الوزير ، متظاهراً بفرح كبير على قدر الحرج الذي كان يشعر به •

وحين غادر القصر كان الظلام قد خيَّم في الفناء المسقوف ، ولكن بياض الثلج الرخو الذي يغطي السطوح والشوارع بهره حين اجتاز الباب الكبير وهو على ظهر حصانه • ان ليلاً حزيناً يهبط على هذه الحلقة من الجبال قبل الأوان ، كما يحدث ذلك في الشتاء • والمرء يسمع خرير المياه تحت الثلج الكثيف ، ويحس بالرطوبة تحيط به من كل صوب • ودَّوى الجسر الخشبي دوياً أصم من وقع حوافر الخيل •

شعر دافيل بشيء من راحة عابرة وهو يغادر القصر ، كما كان يشعر بذلك دائماً كلما غادره • نسي من هو الغالب ومـن هو المغلوب ، وأصبح لا يفكر الا في اجتياز المدينة مهيباً وقوراً هادئاً في هذه المرة أيضاً •

وسرت رعدة في جسمه ، من الانفعال ومن رطوبة الماء بعد الجو الدافيء في « الديوان » ، فحاول أن لا يرتعش ، وتذكر عندئذ ذلك اليوم من أيام شباط الذي ذهب فيه أول مرة الى محمد باشا يجتـاز السوق وتلاحقه الشتائم والبصقات أو يحيط به صمت الاحتقار مـن هؤلاء الناس المتعصبين ، فتراءى له فجأة أنه منذ وجد في العالم لم يفعل شيئاً غير اجتياز هذا الطريق نفسه راكباً على حصانه ، تتبعه هذه الحاشية نفسها وتراوده هذه الخواطر نفسها •

انه ، خلال هذه السنين السبع ، قد اضطر أن يذعن لكثير مـن الأمور العسيرة المزعجة ، وبهذا الاذعان نفسه ، وبهذا الانزعاج نفسه انما كان يذهب الى القصر • حتى لقد كان في أسعد اللحظات وأحسن الظروف يحاول أن يحل المسائل دائماً بواسطة دافنا ، من أجـل أن يتجنب زيارة القصر ما وسعه أن يتجنبها •

فاذا كان لا بد من حضوره لأمر من الأمور ، تهيأ للزيارة كمن يتهيأ لسخرة ، وأرق وعافت نفسه الطعام ، فهو يردد على نفسه ما يجب أن يقوله وكيف يجب أن يقوله ، وهو يتنبأ بالأجوبة التي سيلقاها ، وبأنواع التودد والتلطف التي سيظهرها ، فيحس بالسأم والملل سلفاً ، وكان من أجل أن يجد شيئاً من الراحة وأن يهدأ وأن يلتمس بعض العزاء يقول لنفسه وهو راقد على سريره في الليل : « غداً ، في مثل هذه الساعة ، سأكون في هذا الموضع الذي أنا فيه الآن ، وستكون الساعتان الشاقتان المرتان قد انقضتا فأصبحتا ورائي • » •

وتبدأ السخرة منذ الصباح . فالخيل تصهل في الفناء أمام القنصلية ، وبعد برهة يصل دافنا بوجهه الملوّح ، وهيئته الكالحة التي لا تثبط عزيمة انسان تهده الهموم فحسب ، بل يمكن أن تثبط عزيمة ملاك من الملائكة . ويبدأ العذاب !

ان الصبية والمتعطلين يتجمعون فيدرك الناس أن أحد القنصلين ذاهب الى القصر . ويظهر لهم عند المنعطف في آخر السوق موكب دافيل الذي لا يتغير : ففي مقدمة الموكب فارس الوزير يشق له الطريق لأنه مكلف بمرافقة القنصل في الذهاب والاياب ، ووراءه القنصل على حصانه هادئاً مهيباً وقوراً ، وبعده بخطوتين ، وعلى يساره قليلاً ، يخطر دافنا فوق صهوة فرسه البلقاء الجامحة التي كان يكرهها أتراك ترافنك كما يكرهون دافنا نفسه ، وفي آخر الموكب يسير حارسا القنصل وقد تسلح كل منهما بمسدس وخنجر على ظهر جواد بوسني جميل .

كان على القنصل في كل مرة أن يجتاز السوق على هذه الصورة ، قائم الجذع فوق حصانه ، لا يلتفت يسرة ولا يمنة ، لا يخفض رأسه ولا يرفعه كثيراً ، ولا يبدو مهموماً ولا ذاهلاً ، ولا ضاحكاً ولا مكفهراً، أي يجب أن يصطنع تلك النظرة التي يضفيها الرسّامون على أعين صور كبار القادة وهي تتطلع الى بعيد من فوق ساحة المعركة الى مكان بين الطريق والأفق هو المكان الذي ستصل منه النجدة المحسوبة في اللحظة المناسبة .

أصبح دافيل لا يعرف كم مرة قطع هذا الطريق خلال هذه السنوات السبع ، ولكنه يعرف حق المعرفة أن هذه المسيرة كانت في كل مرة وفي كل زمن وفي عهد جميع الوزراء ، شاقةً أليمة . وكان يتفق له أن يحلم بهذه المسيرة في نومه فيتراءى له أنه يتقدم موكباً من الأشباح بين صفين من الشباك الخطرة نحو قصر لا يبلغه أبداً .

خطر هذا كله ببال دافيل وهو يجتاز المدينة التي تغيب تحت طبقة الثلج • أكثر الحوانيت كانت قد أغلقت أبوابها • المارّة يقل عددهم ، وهم يسيرون بمشقة فوق الثلج الكثيف كأنهم يجرون بأقدامهم سلاسل من حديد ، وقد انحنت ظهورهم وجعلوا أيديهم في أحزمتهم وربطوا رؤوسهم بمنديل يحمي آذانهم • فلما وصل الموكب الى القنصلية دنا دافنا من القنصل ورجاه أن يستقبله لحظةً لينقل اليه ما سمعه من المحيطين بالوزير •

لقد وصل مسافر من القسطنطينية حاملاً بعض الأنباء عن ابراهيم باشا •

ان الوزير القديم ، بعد أن أقام في جاليبولي شهرين ، نُفي الى مدينة صغيرة بآسيا الصغرى ، وصودرت أملاكه في القسطنطينية وضواحيها • وكانت حاشيته قد تفتتت شيئاً بعد شيء ، فكل فرد من أفرادها يحاول أن يكسب خبز يومه ، ويسعى الى مصير جديد ، حتى لقد سافر ابراهيم الى منفاه شبه وحيد •

وحين اتجه ابراهيم باشا الى تلك المدينة النائية من آسيا الصغرى حيث الأرض عارية محترقة وعرة حجرية لا يقع فيها البصر على عشب ولا على جدول ماء ، كان لا يزال يجتر فكرته التي ما انفك يجترها منذ زمان طويل ، وهي أنه سينسحب الآن من العالم ويمضي يزرع أرضه مطمئناً متوحدا مرتدياً ثياب بستاني بسيط •

وبعد سفره الى المنفى ببضعة أيام مات طاهر بك فجأة ، باحتشاء في القلب كما قيل ، فكان موت هذا السكرتير القديم ضربة قاسية جداً أصابت ابراهيم باشا ، لعله لن يبل منها الا بالنسيان الذي يتربص بالشيوخ •

صرف دافيل ترجمانه • وبقي وحيداً في الغسق الأبيض • الرطوبة

تجتاح الوادي موجات كبيرة • والثلـج الكثيف الناعم يخنق كـل ضوضاء • وفي آخر الأفق يلمح الناظر ضريح عبد الله باشا ثاوياً تحت الثلج ، يخرج من زجاج نوافذه شعاع الشمعة التي تحترق فوق قبره •

ارتعش القنصل • انه يشعر بحمى ويحس أنه مهدود القوى من التعب • لقد أرهقته الأنباء التي سمعها مثلما كانت ترهقه مشاعره الخاصة • وكما يحدث لسائر المهمومين المرهقين نسي ما سمعه وما عاناه أثناء النهار ، وأصبح لا يفكر في المصاعب والمتاعب التي تنتظره غداً وتنتظره في المستقبل ، ولا يخطر بباله شيء غير ما يقع عليه بصره •

فكر في هذا الضريح الحجري المسدس الـذي قضى سنين طويلة على مقربة منه ؛ فكر في هذا الضياء الـذي يخترق ضباب المساء ، والذي كان دي فوسيه يسميه « الضياء الأبدي » ؛ فكر في أصل هذا الضريح ، وفي قصة ذلك الرجل الذي يثوي فيه ، عبد الله •

هو تابوت من حجر ، لا يكاد يعلو عن سطح الأرض ، مغطى بقطعة من جوخ أحمر كتب عليها : « أضاء الله مثواه • » • والشمعة تحترق ليل نهار ، مثبتةً على شمعدان كبير من خشب ، محاولة بجهد عاجز أن يحقق الله تلك الأمنية التي تعبر عنها الكتابة ، والتي يبدو أن الله لا يريد أن يلبيها • ان هذا الباشا قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً وهو في ريعان شبابه ، ثم عاد الى مسقط رأسه مصادفة ليموت فيه • فكَّر دافيل في هذا كله ، ورأى فيه المصير المشترك لجميع الناس ، ورأى فيه مصيره هو نفسه • وتذكر أيضاً كيف حاول دي فوسيه أن يطلع على وصية هذا الباشا ، وتذكر ما رواه له بطريقته النشيطة الحية •

ان عبد الله الذي كان يعرف قلة الضياء في قرارة هذا الوادي ، قد وقف جميع ما يملك من أراض ومنازل ومال على احراق شمعة كبيرة فوق قبره الى آخر الدهر • ولقد نصَّ على كـل شيء كتابةً وأعلنه

جهاراً أمام القاضي بحضور شهود ، محددا نوع الشمع وحجمَ الشمعة وأجرَ الشخص الذي يبدلها ويعيد اشعالها ، فما يستطيع أحد من أعقابه ولا يستطيع أي غريب أن يحول دون تحقق رغباته الأخيرة هذه • نعم لقد كان يعلم هذا الباشا أن هـذا الفجّ ستمر به أمسيات مظلمة وأيام غائمة ، ولكنه في هذا الفج انما سيظل راقداً الى يوم الحساب • وكان يعرف أن الناس ينسون كثيرا وأنهم يخونون عهودهم ويخلفون وعودهم • لذلك فانه حين كان راقداً في أحد هذه الأبراج بغير أمل في الشفاء وبغير أن ترجو عيناه اللتان رأتا بلاداً كثيرة أن تبصرا بعـد ذلك أفقاً أرحب ، كان لا يتأسى قليلاً عن كربه الشديد الذي تسببه له خيبة حياته ويسببه له قصـر عمره ، الا بأن يتصور هـذه الشمعة الصافية من شمع النحل تحترق على قبره شعلةً هادئة صافية بلا دخـان ولا رماد • لذلك وقف كل ما جناه بجهود جبارة بل ببطولة حقة ، وكل ما جلبه له ذكاؤه ، وقفه على هذه الشعلة النحيلة تلتهب فوق رفـاته •

لقد أدرك في آخر حياته النشيطة المتحركة ، بعد أن عرف بلاداً كثيرة وناساً كثيراً ، أن النار أساس الخليقة ، أنها هي التي تحرك الحياة وهي التي تزيلها ، متخذة صوراً لا تخطر بالبال ، ودرجات لا يحصيها عد • لذلك كانت أفكاره الأخيرة موقوفة على النار ؛ ولا شك أن هذه الشعلة النحيلة قد لا تدوم الى الأبد ، ولكن هذا هو كل ما كان يمكن الحصول عليه : أن يضيء خلال فترة كافية من الزمن نقطة من الأرض مظلمة متجلدة ، أن ينير عيني كل من يمر على مقربة منها ، ولو بشعاع صغير جداً •

ما أغرب هـذه الوصايا ، وما أعجب هـؤلاء الناس ! ان المرء لا يستطيع أن يفهمهم حق الفهم الا اذا عاش بينهم سنين طويلة وقضى لياليه قرب هذه النافذة • وكان دافيل لا يستطيع الا في كثير من العناء

أن يحول بصـره عن الشعلة الضعيفة التي تخترق الظـلام والضباب الرطب •

لـكنه لم يلبث أن عاد يعيش يومه مرة أخرى ، فتراءى له حديثه الشاق مع الوزير ، وتراءت له الانباء المحزنة التي بلغته عن ابراهيم باشا وطاهر بك • وهذا هو طاهر بك يمثل أمامه حياً أكثر مما كان حياً في ترافنك ، مقوّسَ الظهر ساطع العينين أحولَ النظرة قليلا أمام توهج النور ، وهـذا هو يقول له ما قاله له في ذات مساء ، في ليلـة باردة كهذه الليلة :

ـــ نعم أيها السيد ، ان كل انسان يرى الظافر في تمام الروعة وكمال الألق • وقديماً قال الشاعر العربي « وجه المظفر كالورود سناء » •

ـــ نعم ، ان وجه الغالب كالورد ، أما وجه المغلوب فكتراب المقابر يشيح بوجهه عنه كل انسان •

بصوت عالٍ انما أطلق دافيل هذا الجواب الذي لم يستطع أن يقوله يوماً للسكرتير • وتذكر عندئذ أنه يخاطب ميتاً • فسرت فيه رعدة جديدة ، ثم أخذ جسمه كله يرتعش • وقرع الجرس ليؤتى له بشموع • ولـكنه لم يستطع أن يمتنع عن الاقتراب من النافذة ليرقب شعاع شمعة الضريح ، وليلاحظ الاضواء المتناثرة من منازل ترافنك : وعاد يفكر فيما للنار من خطورة شأن في العالم ، وعاد يفكر في الغالبين والمغلوبين ، ويتذكر بعض الموتى وبعض الاحياء • وفي أثناء ذلك كانت أضواء النوافذ ينطفيء بعضها وراء بعض ، وانطفأت أضواء نوافذ التنصلية النمسوية • « ان الغالبين يأوون الى فرشهم مبكّرين ، وينامون نوماً عميقاً » •

لم يبق الا ضوءان يتلألآن في الافق ، الضوء الحزين فوق القبر ، وضوء آخر أقوى منه في الطرف الآخر من المدينة ، هو الضوء المنبعث

من مصنع البراميل : انهم يقطرون الراكي ، كما يفعلون في مثل هـذا الفصل من كل عام •

• • •

عند المخرج الآخر من مضيق ترافنك ، في مصنع البراميل الذي يملكه بطرس فوفتش ، ُوضع أول انبيق لتقطير الراكي •

ان المبنى يطل على نهر لاشفا في الطريق المؤدية الى كاليبونار ، حيث تهب تيارات من الهـواء تكنس الثلج الذي يغطي الوادي • المدخنة الدوّارة في معمل التقطير الذي يشرف على النـهر ، تعزف وتصفر فوق السطح طوال الليل وتضرب الدخان في الكوة • الحطب الرطب يطقطق تحت الانبيق • وحوله يدور ويحوم الى غير نهاية وبغير توقف ، رجال" يتدثرون بخرق بالية متسخة بسواد الدخان ، ويلفون رءوسهم بمناديل حمراء ، ويرتعدون ، ويتحامون الدخان وشرارات النار والريح وتيارات الهواء والتبغ الحاد الذي يحرق شفاههم ويلسع أجفانهم •

وآتاناس ، « المعلم » الكبير الخبير في شئون الانبيق والراكي ، واقف هنالك • لئن كان آتاناس لا يعمل كثيراً في الصيف ، فانه متى سقطت أولى ثمار الخوخ ، رآه الناس يمضي من منزل الى منزل في جميع مدن المنطقة حتى يبلغ أبعدها • ما من أحد يعرف مثله كيف ينقع الخوخ ، ولا كيف يدرك أن العصير المتخمر أصبح صالحاً للتقطير ، ولا كيف ُيخرج الراكي • لقد قضى حياته كلها في المصانع المدخّنة الباردة ، فاذا نظرت اليه وجدته مسوّد الوجه شاحب اللون طويل اللحية كالح الهيئة تحسبه نائماً • وهو كسائر الصنّاع الماهرين لايرضى عن عمله ولا عمن يعاونونه أبداً • ولا يزيد كلامه على أن يكون صيحات غاضبة ، ولا تزيد أوامره على أن تكون سلسلة من الزجر والنهي :

ــ ما هكذا !•• لا تجعله يغلي !•• لا تضف شيئاً !•• لا تلمس بيدك !•• دع هذا !•• كفى !•• ابعد !•• امض !••

وفي نهاية هذه الصيحات المضطربة التي يفهمها مع ذلك معاونوه ، تخرج من بين يدي آتاناس المشحرتين ومن هذا الوحل وهذا الدخان وهذه الفوضى الظاهرة ، تخرج ثمرة كاملة : راكي طيب المذاق رائق المنظر ، ينقسم الى راكي ممتاز وراكي قوي ، وراكي خفيف ، وراكي رديء • ان هذا السائل الساطع المتوهج ناراً ، الرائقَ المنعش الخالي من الثفل ، لا يحمل أي أثر من آثار التعب والوساخة اللذين خلق في أحضانهما ، ولا تشم فيه رائحة الدخان والعفن ، وانما تتنشق فيه شذا الخوخ وعبير البساتين • وكان هذا السائل ُيسكب في أوان ثمينة طاهرة كالروح ، وكان آتاناس يحنو عليه حنوه على وليد ، وينسى من ذلك أن يصرخ وأن يشاجر ، ولكنه يظل يحرك شفتيه كأنه يدمدم بشيء ، أو كأنه يتمتم برقى وتمائم كما كان ُيقال ؛ كانت عينه المعصومة التي لا تخطيء تراقب انسكاب الراكي فتقدر مقدار الكحول فيه وتقدر جودته دون أن يكلف آتاناس نفسه عناء تذوقه •

وكان يحلو الطعام والشراب والحديث قرب الانبيق ، رغم الدخان الذي يلسع الأعين ورغم البرد الذي يقصم الظهور ، لذلك كان يتحلق حوله عدد كبير من الضيوف من أهل المدينة وعابري الطريق والمتعطلين ، وكان يوجد فيهم عازف على الربابة أو قصاص في كثير من الاحيان • وكان آتاناس لا يحس بوجود هؤلاء الناس ، وانما هو يمضي في عمله ، صائحاً ، ُمصدراً أوامره ناهياً عما يجب تجنبه بوجه خاص • انه يتحرك فوق هؤلاء الجالسين حول النار كأنهم أطياف أو كأنه يرى أن هؤلاء العاطلين جزء من الانبيق نفسه ، فهو لا يخاطبهم أبداً ، ولكنه لا يطردهم ، وكل ما هنالك أنه يجهل وجودهم •

هكذا كان آتاناس يقطّر الراكي منذ أربعين عاماً ، في المدينة وفي القرى وفي الأديرة • ومن يراه الآن يشعر أن الهرم قد دب اليه ، فصيحاته مختنقة وهي تنتهي بسعال وتقشع مما يعرف في الشيوخ ، وحاجباه الكثيفان الأشعثان قد وخطهما الشيب ، وهما كسائر وجهه مسودّان دائماً بالدخان ومتسخان بالطين الذي يُطلى به الانبيق • وتحت هذين الحاجبين المتداخلين لا تكاد ترى عينيه ، ولا تكاد تلمح الا وميض بلورتين متفاوتين تسطعان تارة وتنطفئان انطفاء كاملا تارة أخرى •

في ذلك المساء كان عدد المتحلقين حول النار أكبر قليلا من عددهم عادة • كان هناك صاحب المصنع بطرس فوفتش ، ومعه تاجران صربيان من ترافنك ، وعازف على الربابة ، وماركو أحد سكان ضاحية دييمريا ، وهو رجل متنبيء ساحر يضرب في طول البلاد وعرضها بلا توقف ، ويمرّ أحياناً بمدينة ترافنك دون أن يذهب الى أبعد من معمل التقطير ودون أن يدخل المدينة أو السوق • ان ماركو هذا ، وهو فلاح من البوسنة الشرقية قصير القامة متوقد النفس بارع الحركة أشيب الشعر ، كان مشهوراً جداً بعرافته • ان له في قريته أبناء متزوجين وبنات متزوجات ، وهو يملك أراضي ويملك داراً ، لكنه منذ ترمّل انقطع للصلاة وتقريع الناس والتنبؤ بالمستقبل ، واذ لم يكن به طمع في مال ، فقد كان لا يبذل فنه لجميع الناس ، وكان يقسو على الخطاة ولا يرحمهم • وكان الأتراك الذين يعرفونه حق المعرفة لا يتعرضون له ويدعونه لنبوءاته •

وكان ماركو لا يتجه الى دور الاغنياء في أي مكان • انه يجلس في معمل تقطير ، تحت سقف فلاح ، قرب النار ، ويأخذ يتحدث الى من يكونون هنالك من رجال ونساء • وكان يخرج في وقت متأخر من الليل ، فيغيب ساعة أو ساعتين ، ثم يرجع وقد تبللت ثيابه بمياه الامطار

أو رذاذ الثلج ، ويعود يجلس في مكانه حيث ينتظره مستمعوه ، ويأخذ بالكلام محدقاً في لوح من خشب السنديان • وكان في بعض الاحيان ، قبل أن يخاطب الحفل ، يتهجم على أحد المستمعين عائباً عليه خطاياه بلهجة قاسية ، طالباً اليه أن ينصرف ، وكثيراً ما كان يفعل هذا مع النساء : فبعد أن يرشق احداهن بنظرة قاسية يقول لها بصلابة هادئة :

ـ أنت يا بنيتي ! ذراعاك تحترقان حتى الكوعين ، فقومي واطفئيهما وتطهري من الخطيئة • وأنت تعرفين الخطيئة التي أعني •

فتنصرف المرأة مضطربة ، ويبدأ ماركو نبوءاته العامة لجميع الحضور •

ولقد خرج في ذلك المساء رغم الريح العاتية والمطر البارد الذي يخالطه ثلج • فلما عاد نظر الى لوح الخشب ثم نقر عليه بسبابة يده اليسرى ورصده طويلا ثم قال في رفق :

ـ في المدينة نار تحت الرماد ، نار تحت الرماد في مواضع كثيرة • هي نار لا ترى ، يحملها الناس في أنفسهم ، لكنها ستكبر في ذات يوم ، فاذا هي تحرق الآثمين والابرياء جميعاً •فعلى البريء أن لا يمكث بالمدينة في ذلك اليوم ، عليه أن يخرج منها ، أن يخرج منها ويبتعد عنها • ألا فليدع كل امريء ربه أن يكون ذلك البريء الذي يخرج من المدينة ويبتعد عنها •

والتفت فجأة نحو بطرس فوفتش على مهل :

ـ يا معلم بطرس ، أرى في دارك دموعاً • هي دموع غزيرة • وستزداد غزارة • لكن كل شيء سينتهي الى خير •• نعم سينتهي كل شيء الى خير • لذلك يجب عليك أن تحسن الى الكنيسة ، ويجب عليك خاصة أن لا تنسى الفقراء • يجب أن لا تنطفيء الشمعة أمام أيقونة القديس ديمتري !

وبينما كان الشيخ يتكلم أغضى بطرس ، وهو رجل متكبر غضوب، وخفض رأسه وثبت بصره على حزامه • وساد صمت مرتبك ، الى أن أخذ ماركو ينظر في لوح الخشب سادراً مفكراً ، ثم أخذ ينقر عليه بظفره ، واستأنف كلامه بصوت عذب رفيق لكنه جازم قاطع • لفظ في أول الأمر أصواتاً غير مفهومة استحالت بعد ذلك الى كلمات واضحة :

ــ وا حسرتاه عليكم أيها المسيحيون المساكين ، أيها البشر البؤساء !

تلك نبوءة من النبوءات العامة التي يطلقها ماركو من حين الى حين ، فتجري بين الصرب من فم الى فم :

ــ اني لأراهم يسيرون في الدم • الدم يصل الى الركب ، ويعلو ثم يعلو • دم لمائة سنة ، ولنصف المائة الاخرى • ذلك ما أراه • أرى ستة أجيال تتناقل الدم من يدٍ الى يد • دم مسيحي • ثم أرى الزمان الذي سيتعلم فيه كل طفل فيحسن الألفباء • سيتخاطب الناس من طرف الى طرف من العالم ، وسيسمعون كل كلمة ، ولكن لن يفهم بعضهم عن بعض شيئاً • سيصبح بعض الناس أقوياء جداً يملكون ثروات طائلة ، ولكنهم في الدم سيفقدون هذه الثروات لا تسعفهم سرعتهم ولا تنجدهم براعتهم • وسيبلغ البعض الآخر من الفقر والجوع أنهم سيأكلون ألسنتهم وينادون الموت ليخفف عنهم ، ولكن الموت أصمّ بطيء • وحتى لو انتجت الارض فان الدم سيجعل كل طعام فاسداً لا يؤكل ، وسيشحب الصليب نفسه • وعندئذ يظهر رجل عارٍ يسير حافي القدمين بلا عصا يتوكأ عليها ولا كيس يحمله على ظهره ، فيبهر الناس جميعاً بحكمته وقوته ، ويخلص الناس من الدم ومن الوحشية ، ويواسي كل نفس ، ويسود كالأقنوم الثالث •

وأصبحت أقوال الشيخ في آخر الكلام أكثر هدوءاً لكنها أقل

وضوحاً ، ثم انصهرت دمدمةً مختلطةً وامتزجت بضربات الظِفر على لوح الخشب الجاف .

كان الحضور يحدّقون الى النار وقد تأثروا بهذه الكلمات التي لا يدركونها أو التي يرهقهم معناها الحرفي ويغرقهم في ذلك الانفعال المبهم الذي يستولى على بسطاء الناس حين يستمعون الى نبوءات .

نهض آتاناس ليراقب الانبيق . وسأل أحد التجار ماركو هل يصل قنصل روسي الى ترافنيك . فساد صمت عميق ، وأدرك جميع الحاضرين أن السؤال في غير محله . ثم أجاب الشيخ غاضباً فقال بخشونة :

ــ لن يصل لا هو ولا غيره ، بل ان الموجودين الآن سيرحلون قريباً . وقريباً أيضاً لن تمر الطريق الكبرى بهذه المدينة . عبثاً ستبحثون عن مسافر أو تاجر . سيمضون جميعا من جهة أخرى . لن يكون لكم تجارة الا فيما بينكم . سينتقل الدينار الواحد من يد الى يد ، لكنه لن يستطيع أن يسخن في يد ، ولن يجني منه أحد ربحاً .

نظر التجار بعضهم الى بعض . وساد صمت عدائي لم يلبث أن قطعته مشاجرة بين آتاناس ومعاونيه . ثم استؤنف الحديث . استرد الشيخ هيئته اللطيفة المتواضعة الباسمة . وفض كيسه المهترىء فتناول منه كسرة من خبز الشعير وعدداً من فصوص الثوم . وأخذ الرجال يشوون على الجمر قطعاً من لحم البقر ، فانتشرت في الجو رائحة قوية . لم يقدم أحد شيئاً للشيخ ، لأنهم يعلمون أنه لا يأكل من طعام أحد ولا يقتات الا بما يخرجه من كيسه . كان يأكل بلذة بطيئاً ، ثم أبدل مكانه ليتحاشى الدخان ورائحة الشواء . وأخيرا غفا ، بتواضع طفل ، متجمعاً على نفسه ، جاعلاً خده الأيمن على راحة يده .

حَمِي الحديث بتأثير الراكي ، ولكن جميع الحضور يلتفتون بين

الفينة والفينة نحو الركن الذي ينام فيه الشيخ ، فيخفضون أصواتهم • ان وجوده يُحدث لهم شيئاً من الحرج والضيق ، ولكنه ينشر في الوقت جواً من المهابة لا يخلو من امتاع •

وآتاناس يستمر في عمله ، ويظل يرمي الى النار بمزيد من الحطب، عابسَ الوجه على عادته ، يشبه أن يكون نائماً ، صابراً لا يتزعزع ، كالطبيعة نفسها ، لا يخطر بباله ولا يدور في خلـده أن هناك في الطرف الآخر من مدينة ترافنك قنصلاً لفرنسا يرقب انعكاسات ناره الحمراء ، ولا يخطر بباله ولا يدور في خلده أن في الدنيا قناصل ، وأن في العالم أناساً مسهَّدين لا يجدون سبيلاً الى النوم •••

الفصل السابع والعشرون

قضى دافيل الأشهرَ الأخيرة من عام ١٨١٤ في وحدة مطلقة ، وهي آخر أشهره في ترافنك . ما من تعليمات وما من أنباء تصل اليه من باريس ولا من القسطنطينية . ومن قروشه انما دفع مرتبات الحرس وأجور الخدم . ان اضطراباً كامــلاً يسيطر على السلطات الفرنسية بدلماسيا . والأنباء غير المؤكدة التي تصل الى ترافنك متأخرة تأخراً كبيراً ، والتي ترجع جميعها الى مصادر نمسوية ، ما تنفك تزداد ظلاماً وحلكة . واللطف الزائف الذي يستقبل به الوزير دافيل ، وما يظهره أثناء لقائه من ذهول وقلة انتباه ، أبلغ ايلاماً لدافيل من الفظاظة أو الاهانة . وانقطع دافيل عن الذهاب الى القصر . أضف الى ذلك أن البلاد أصبحت لا تطيق هذا الوزير الذي تثقل سلطته ثقلا رهيباً يوماً بعد يوم . ان القطعات الألبانية تعيش في البوسنة كما تعيش في بلاد مستعبَدة ، وتنهب الاتراك والمسيحيين على السواء . كانت النقمــة تشتد بين المسلمين ، لا صخباً وتحريضاً على الفتنة ، بل حقــداً مكظوماً متخفياً يثوي تحت الرماد فاذا ظهر كان شهوةً الى الدم والى مذابح .

لقد سكر الوزير من انتصاره في الصرب . والواقع أن هــذا الانتصار ، اذا صدق الشهود ، يبدو أمراً مشكوكاً فيه ، كما أن مساهمة علي باشا في تحقيقه لم تكن ذات بال . ولكن علي باشا كان يضخمه في نظره كلما ابتعد الزمن ، حتى أصبح يعد نفسه أكبر منتصر في التاريخ . وكان يزيد هجماته على البكوات والأعيان من الأتراك يوماً بعد يوم ، وكان هــذا يضعف مركزه ، ذلك أن القــوة اذا استطــاعت أن

تنتزع له بعض المواقع وأن تقلب وجه الامور لمصلحته على حين فجأة ، فانها وحدها لا تتيح له أن يحكم زمناً طويلاً • ان الارهاب سرعان ما يفقد جدواه طريقةً في الحكم : ذلك أمر يعرفه جميع الناس ، الا أولئك الذين تدفعهم غرائزهم الى استعماله أو تحملهم الظروف على اتباعه أسلوباً • وكان الوزير لا يعرف أسلوباً غير هذا الأسلوب • كان لا يدرك أن « الخوف قد مات » سواء لدى البكوات أو لدى القادة ، وأن جولاته التي كانت في أول الأمر تبث الرعب وتنشر الذعر ، أصبحت لا تخيف الآن أحداً ، حتى لقد أصبحت لا تشجع علي باشا كما كانت تشجعه من قبل • ان أولئك الذين كانوا يرتعدون وجلاً أمامه ، قد ثابوا الآن الى رشدهم وملكوا ناصية عواطفهم ، بينما أصبح هو يغضب غضباً مسعوراً لأيسر بادرة تدل على التمرد أو على المعارضة ، ولو لم يظهر هذان الأمران الا صمتاً • وألف قادة المدن أن يتصل بعضهم ببعض ، وأخذ البازار في جميع المدن يصمت صمتاً خطيراً • انه يُخشى أن تشب ثورة صريحة على علي باشا في فصل الدفء ، ودافنا يتنبأ بذلك كالموقن به •

الرهبان يتحاشون قنصلية فرنسا ، مع استمرارهم على البشاشة في استقبال السيدة دافيل يوم الأحد أو أيام الأعياد • والخفراء يتساءلون عن المدة التي سيقضونها في خدمة القنصلية • وقد أخذ رافا آتيجاس يبحث منذ الآن عن وظيفة ترجمان أو عميل ، لأنه لا يحب أن يعود الى العمل في مستودعات عمّه • وبفضل المكائد المستمرة الخفية التي تقوم بها قنصلية النمسا أصبح جميع الأهالي من أعلاهم شأناً الى أدناهم منزلة ، يتوقعون أن يسقط نابوليون وشيكاً بعد انتصارات الحلفاء ، ويعلمون أن نهاية الامبراطورية قريبة • ان هنالك اجماعا في الرأي على أن الفرنسيين قد انتهى أمرهم ، وعلى أن زمان القنصلية الفرنسية قد انقضى ، وعلى أن أيامها أصبحت معدودة •

وكان فون باولتش ، هو أيضا ، لا يظهر في مكان ، ولا يكلم أحداً . ولم يره دافيل منذ ستة أشهر ، منذ قيام الحرب بين فرنسا والنمسا ، ولكن دافيل يحس بوجوده في كل لحظة ، ويشعر حين يفكر فيه بعاطفة خاصة ليست هي الخوف ولا هي الحسد ولكنها شيء منهما كليهما . كان يتراءى له أنه يبصره وهو يوجه شئون أعماله في المبنى الكبير الذي يقع على الضفة الأخرى من نهر لاشفا ، بارداً واثقاً من نفسه ، مصيباً على الدوام ، لا يخامره شك ولا يساوره تردد ، دقيقَ السلوك لكن على مكر ، واضحاً لكن بغير انسانية . والحق أن الرابح في المباراة التي تتم في وادي ترافنك هذا منذ سبع سنين ، انما هو فون باولتش لا ذلك المنتصر المزعوم الذي يقيم في القصر ويشبه أن يكون مجنوناً . ولم يكن على النمسوي الا أن ينتظر هادئاً كل الهدوء ، أن تسقط الضحية مشلولة وأن تنهار ، فيعلن سقوطها للملأ انتصاره .

ودقت تلك الساعة . فتصرف فون باولتش تصرف لاعب في لعبة مهيبة قديمة تقوم على قواعد أليمة لا ترحم ، لكنها قواعد منطقية عادلة شريفة عند المغلوبين والغالبين على السواء .

ففي يوم من شهر نيسان ، ولأول مرة منذ ستة أشهر ، جاء خفير قنصلية النمسا الى قنصلية فرنسا حاملاً رسالة . ان دافيل يعرف هذا الخط الذي يصطف أسطراً منتظمة كأنها أسهم من فولاذ صقيل مرصوصة" كلها في اتجاه واحد ؛ انه يعرف هذا الخط ويحزر فحوى الرسالة .

ان فون باولتش يبلغه أن الأنباء التي وردت اليه تقول ان الحرب بين الحلفاء والنمسا قد انتهت ، وان نابوليون قد تنازل ، وان الملك الشرعي قد دُعي الى تسنم عرش فرنسا ، وان مجلس الشيوخ قد

اقترع على الدستور الجديد ، وان الحكومة الجديدة قد ألّفها تاليران أمير بنفان . ويقول فون باولتش انه يقدّر أن هذه الأنباء التي تتعلق بوطن دافيل لا بد أن تهمّه ، فهو لذلك ينقلها اليه ؛ وانه سعيد بأن تكون نهاية الحرب فاتحة لتجدد العلاقات بينهما ، وان يرجوه أن يُبلغ السيدة دافيل أصدق احترامه ، الخ ...

بلغت دهشة القنصل من القوة أنه لم يدرك على الفور مدى هذه الأمور التي اطلع عليها . وضع الرسالة على المنضدة وابتعد . لقد كان يقدّر منذ زمن طويل ، منذ شهر كانون الأول من العام الماضي ومنذ الهزيمة التي منيت بها فرنسا في روسيا ، أن من الممكن أن تصير الأمور الى هذه النهاية ، وكان يدرس هذا الاحتمال ويحاول أن يحدد الموقف الذي يجب عليه أن يقفه اذا وقعت الواقعة . كان يتهيأ لسقوط الامبراطورية على غير علم منه ، وكان كل يوم وكل حدث يقرّبان منه هذا التهديد البعيد الذي يتسلل الى الواقع شيئاً بعد شيء حتى يحل محلّه ؛ وبعد الامبراطور والامبراطورية تنتصب الحياة خالدةً قوية لا تُدرَك ، غنيةً باحتمالات لا نهاية لها .

كان دافيل يجهل هو نفسه متى بدأ يتصور الأحداث والوقائع بدون نابوليون محوراً أساسياً لها . لقد كان هذا الانفصال شاقاً أليماً : لقد شعر في أول الأمر بدوار نفسي : ان شيئاً يترنح فيه كأن الأرض تنسل أو تترجح تحت قدميه . ثم أحسّ بفراغ كبير ، أحسّ بأنه محروم من كل سند ، أحسّ أن حياته قد يبست وتعرّت وأصبحت بلا أفق تظل عليه ، بلا هدف من تلك الأهداف التي تبث في وجود المرء قوة وتضفي عليه كرامة ومهابة ، ولو ظلت غامضة . ثم بلغ من اتحاده بشعور الاستسلام هذا ، بعد طول التفكير ، أنه بمنظاره انما اصبح ينظر الى العالم والى فرنسا ويتصور مصيره ومصير أسرته .

وظل في أثناء ذلك يقوم بواجبه ، ويقرأ القرارات ومقالات جريدة « المونيتور » التي تتصل بمشاريع الدفاع أثناء الانسحاب وباحتمالات الصلح مع الحلفاء • ولكنه لا يلبث أن يعود الى تلك الفكرة نفسها : ما عسى يحدث حين لا يبقى امبراطور ولا امبراطورية ؟ ويتلبث على هذه الفكرة زمناً أطول •

يمكن القول على وجه الاجمال انه قد حدث في نفسه ما حدث في ضمائر ملايين الفرنسيين الذين تعبوا من خدمة نظام حُكم عليه بالانهيار منذ زمن طويل ، لأنه كان مضطراً الى أن يطالب الناس بأكثر مما يستطيعون أن يعملوه •

أضف الى ذلك أن المرء اذا ألف فكرة انتهى عاجلاً أو آجلاً الى ايجاد مسوّغ لها ، وخاصةً اذا بدا أن الواقع يسير في عين الاتجاه الذي تمضي فيه الأفكار ، حتى لقد يسبقها ويتجاوزها •

ما كان أشد دهشة دافيل حين لاحظ أنه كان قد أوغل في هذا الاتجاه • نسي دافيل الصراعات النفسية الكثيرة الطويلة التي عاناها في السنين الماضية ، وشعر أنه قد وصل الى النقطة التي هو فيها الآن دفعةً واحدة بغير تعب • ومهما يكن من أمر فقد كان مستعداً لكل شيء منذ زمن طويل ، ومعنى هذا أنه كان في قرارة نفسه قد قطع الصلة بالنظام الذي ينتهي الآن في فرنسا ، وأنه متأهب لتبني النظام الذي يعقبه أياً كان •

ولكن في اللحظة التي كان هذا كله يصبح فيها واقعاً ، تراجع دافيل كمن تلقى لطمة عنيفة لم يتوقعها ؛ فهو يذرع الآن حجرة مكتبه جيئة وذهاباً ، وتتكشف له خطورة رسالة فون باولتش مثيرة في نفسه عواطف يمتزج فيها الانشداه بخوف ويمتزج بحسرة وأسف ، بل يمتزج بذلك الارتياح البائس الذي ينشأ عن شعور المرء بأنه هو وذووه في

منجى من ذلك الزلزال وتلك التقلبات • ولكن الخشية والقلق لم يلبثا أن استوليا على دافيل • وتذكر ، لا يدري لماذا ، آية في التوراة تقول : « الله عظيم في أعماله » ، وأخذت هذه الآية تحاصر ذهنه فما يستطيع منها فكاكاً ، ولا يستطيع أن يقول لنفسه ما هي تلك الاعمال ولا ما هي عظمتها ، ولا أن يجد صلةً بين هذا كله وبين الله والتوراة • ظل يذرع غرفته مدة طويلة ، عاجزاً عن تركيز ذهنه ، عاجزاً أكثر من ذلك أيضاً عن التفكر في هذه الامور التي علم بها ، وعن ترتيبها في رأسه ، وأحسّ أنه في حاجة الى زمن طويلٍ من أجل أن يستطيع ذلك •

وأحس أيضاً أن جميع التأملات والتنبؤات والمصالحات النفسية لا تساوي شيئاً ولا تجدي نفعاً حين تلقي اللطمة • فشتان بين أن يحلل المرء مخاوفه بالخيال وأن يتصور اسوأ الاحتمالات وأن يرسم موقفه ويعين دفاعه وأن يحسّ بلذة ترتيب كل شيء واعداد كل شيء ، وبين أن يجد نفسه أمام انهيار حقيقي يفرض عليه قرارات سريعة وأعمالا واقعية • شتان بين أن يصغي المرء الى رفيق له في وزارة البحرية يقول وقد استبد به السكر والغضب « ان الامبراطور مجنون ، واننا نتردى معه في الهوة التي تنتظرنا في خاتمة جميع الانتصارات » ، وبين أن يكون عليه أن يفهم وأن يقبل أن الامبراطورية قد هزمت وتحطمت وأن نابوليون لم يبق له وجود ، وأنه ليس أكثر من مغتصب لو قتل أثناء أحد انتصاراته لكان ذلك أكرم له • شتان بين أن يشك المرء في قيمة هذه الانتصارات وفي ثبات الظفر العسكري ، كما فعل كذلك دافيل في السنين الماضية ، وأن يتساءل عما كان يمكن أن يقع له ولذويه ، لو أن •••وبين أن يعلم بغتة في ليلة واحدة ، لا أن الثورة قد زالت وأن كل ما جاءت به الثورة قد زال ، بل أن « الجنرال » نفسه قد زال هو والسحر القاهر الذي تفرضه عبقريته المظفرة ، هو والعهد الذي كان الذي يقوم عليه ويستند اليه ، كأنه لم يوجد من قبل

يوماً ، وأن يرى أن كل شيء سيرتد الآن الى الزمان الذي وقف فيه فتى في ريعان الشباب وفورة الحماسة يصفق للويس السادس عشر في المدينة التي كانت مسقط رأسه .

يظهر أن هذا كله كان لا بد من تخيله ولو في المنام .

وعجز دافيل عن أن يثوب الى صوابه ، وعن أن ينفذ الى معنى الأحداث الدائرة ، وأن يتنبأ بالمستقبل ، ثم اذا بفكرة تنبجس في خياله ، فيتشبث بها أشد التشبث ، وهي أن حاميه القديم ، تاليران ، هو الذي يرأس الحكومة الآن ، وذلك في نظر دافيل ، وسط هذه الفوضى الشاملة وهذا الاضطراب العام ، بشير سلام ، وعلامة على تلطف القدر به تلطفاً خاصاً .

لم يتحدث دافيل الى تاليران في حياته الا مرة واحدة ، كما لم يتحدث الى « الجنرال » الا مرة واحدة أيضاً . كان ذلك منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ، وكان رئيس الوزارة في تلك الايام بعيداً عن الشهرة وعن امارة بنفان . لقد لاحظ تاليران مقالاته في جريدة « المونيتور » فحرص على أن يعرفه ، واستقبله بضع دقائق في قاعة مرتجلة هي صورة كاملة عن وزارة الشئون الخارجية في ذلك الزمان : لقد كانت الفوضى التامة تشمل العمل والموظفين والأثاث والغرف على السواء ، وقد تميزت تلك المقابلة بهذه الفوضى نفسها على كل حال .

ظل الوزير القوي المظهر واقفاً طوال المقابلة ، وكانت نظرته التي تشتمل على هدوء مستخف بمحدثه ، ما تنفك تحلق فوق رأس الفتى كأنها تبحث وراءه عن شيء هو الذي تهتم به حقاً ، وبلهجة سطحية ذاهلة من هذا النوع انما كلّمه على مقالاته ، وكأنه نادم على ما أظهره له من اهتمام بها ، وعلى ما أبداه من رغبة في رؤيته .

أوصاه بأن يعمل وأكد له أنه سيدعمه . تلك هي جميع العلاقات

التي كانت لدافيل بحاميه • ومع ذلك كان من الأمـور المقررة في الوزارة خلال ثمانية عشر عاماً أن دافيل انما يسنده تاليران ، وان حياته في الوظيفة مرتبطة بنجم تاليران • والواقع أن تاليران قد دعم دافيل كلما جاء انى الحكم • فكذلك يحدث أن يجر الأقوياء وراءهم ، الى آخر حياتهم ، جمهرة من الأفراد يحمونهم ، لا من أجل هؤلاء الأفراد ولا لأنهم يريدون أن ينفعوهم ـ فهم في كثير من الأحيان لا يعرفونهم ولا يقدرونهم ـ بل من أجل أنفسهم ، لأن ما يولونهم من دعم وحماية برهان واضح لهم على أنهم أقوياء وعلى أن لهم قيمة عظيمة •

« سأكتب الى الامير » ، كذلك قال دافيل لنفسه دون أن يتساءل لماذا يكتب اليه وكيف يكتب اليه • وظل يردد هذه العبارة طوال الليل « سأكتب الى الأمير » ، عاجزاً عن عمل أي شيء آخر ، يسحقه أنه لا يجد من يسأله نصحاً • ولكن النهار طلع عليه وهو في حاله تلك من الحيرة المرهقة والتردد المضني • وراقب زوجته وهي تمضي الى أعمالها المنزلية لا يخطر ببالها أن شيئاً قد حدث ، وتصدر أوامرها بشأن الحديقة كأنها ستقضي حياتها كلها في ترافنك ، ثم آب الى نفسه أوبته الى مخلوق حلّت عليه اللعنة فهو يعرف ما يجهله الآخرون ويزداد من ذلك شقاء •

ووصل حامـل البريد من القسطنطينية فأنقذه مما كان فيه من تردد • كان حامل البريد هذا يحمل الى الحكومة الجديدة تهاني السفير وموظفيه ، واعلانهم ولاءهم للمليك الشرعي لويس الثامن عشر ، ولأسرة آل بوربون ؛ ويحمل الى دافيل أمراً باطلاع الوزير والسلطات التركية على التبدل السياسي الذي حدث في فرنسا ، وبابلاغهم أنه سيكون في ترافنك ابتداءً من هذا اليوم ممثلاً للويس الثامن عشر ملك فرنسا ونافار •

فما كان من دافيل الا أن كتب في ذلك اليـوم نفسه الى باريز

ما توجبه الظروف الجديدة : فعل ذلك بلا تردد ، كأنه ينفذ خطةً نضجت في ذهنه منذ زمن طويل ، أو كأنه ينفذ أمراً عقد عليه النية وخبأه الى أن آن أوانه :

« أبلغتني قنصلية النمسا نبأ التبدل المبارك الذي أتاح لسليل هنري الأكبر أن يعـود الى تسنم عرش فرنسا ، وحمل الى الأمـة الفرنسية السلام والامن والأمل في مستقبل أفضل . وسأظل آسف ، ما حييت ، على أنني لم آكن بباريز في هذه المناسبة ، وعلى أنني لم أستطع أن أضم صوتي الى أصوات الشعب الذي يهتف وقد اشتعلت نفسه حماسة » .

بهذا بدأت الرسالة التي كتبها دافيل واضعاً نفسه تحت تصرف الحكومة الجديدة ، راجياً أن « ترفع الى الأعتاب الملكية أسمى آيات الولاء والاخلاص » ، مشيراً بتواضع الى أنه ليس الا مواطناً بسيطاً ، « لكنه واحد من العشرين الف باريسي الذين وقعوا عريضة التأييد للملك الشهيد لويس السادس وأسرته » .

وختم رسالته آملاً أن يطـلع « العصر الذهبي بعـد العصر الحديدي » .

وأرسل الى تاليران ، مع حامل البريد نفسه ، تهاني منظومة ، كما سبق أن فعل ذلك مراراً حين يكون تاليران في الحكم . وقد بـدأ قصيدته بأبيات يصف فيها تاليران بالحكمة والاعتدال ، ويلقبه بالمحرِّر. واذ لم يتح له سفر حامل البريد أن يتم نظم قصيدته ، فقد حرص على أن يشير الى أن الأبيات الاثني عشر التي يرسلها الآن ليست الا جزءاً من القصيدة . واقترح بعـد ذلك الغاء القنصلية ،لأن الوضع السياسي الجديد لا يوجب بقاءها ، وطلب أن يؤذن له بمغادرة ترافنك مع أسرته في بحر الشهر ، تاركاً لدافنا الذي لا يشك في اخلاصه أن

يدير شئونها وأن يقوم بالاجراءات اللازمة لاغـلاقها ؛ وربما غادر ترافنك الى باريز قبل آخر الشهر ، بسبب الظروف الراهنة الاستثنائية، الا اذا جاءته تعليمات مخالفة •

أنفق دافيل الليل كله في كتابة تهنئات وتدبيـج مطالب وتحرير رسائل شخصية • ولم ينم الا ساعتين ، لكنه استيقظ منتعشاً مرتاحاً ، فمضى يلقى حامل البريد •

ومن على الشرفة ، حيث كانت أكمام الزنبق تنفتح تحت قطرات الندى ، أخذ دافيل يتابع بنظره حامل البريد ورفيقه اللذين يهبطان الوادي على الطريق المنحدرة • ان ضباباً كثيفـاً يزحف على الأرض وتصبغه باللون الأحمر شمس" لا تراها الأبصار ، يخفي أرجل الدابتين الى الركب ، وسرعان ما اختفى الرجلان غائصين في الضباب •

وعاد دافيل الى حجرة عمله التي ما تزال تملؤها آثـار سهرة البارحة : شموع مائلة أو محترقة الى النهاية ، أوراق وقطـع شمع مبعثرة • جلس أمام المسوّدات والوريقات الممزقة دون أن يمد اليها يديه • انه يشعر بتعب شديد ، لكنه يشعر أيضاً بارتياح كبير : لقد أنهى كل شيء ، وأرسله الى من يجب ارساله اليه ، فلا عودة عنه ولا نكول ، ولا حاجة الى مزيد من التأمـل والتفكير • وغلبه التعب ، فصالب يديه على المنضدة وأكب فوقهما •

غير أن من العسير عليه أن ينقطع عن التفكير والتذكر والرؤيـة• لقد قضى من عمره خمسة وعشرين عاماً في البحث عن ذلك « الطريق الوسط » الذي يؤدي الى السلام ويوفر للشخصية كرامة لا تطاق بدونها حياة • لقد سار في الدرب خمسة وعشرين عاماً ، فتاه عنهـا حيناً واهتدى اليها حيناً ، وانتقل من حماسة الى حماسة ، ثم ها هوذا الآن يشعر بأنه مهدود القوى ممزق مهترىء ، يعود الى نقطة الانطلاق ،

الى السنة الثامنة عشرة . فما هي الحياة اذن ؟ هل طرقها لا تسير قدماً الا في الظاهر ، وهل تلف هذه الطرق وتدور ، لتعود الى نفسها على غرار دروب المتاهات في حكايا الشرقيين ؟ ألم تردّه هذه الطرق دائماً ، وهو على ما هو عليه الآن من تعب وارتياع ، الى هذا المكتب نفسه الذي يعج بقراطيس لا جدوى منها ولا طائل تحتها ، ليستأنف الدائرة من جديد ؟ هل لتلك « الطريق الوسط » ، تلك الطريق الصادقة التي تؤدي الى الاستقرار والسلام والكرامة ، هل لها وجود حقاً ، أم نحن ندور ثم ندور في طريق خدّاعة واحدة ، ضحايا وهم أبدي ، لنزول في خاتمة المطاف ويطوينا العدم ؟

ووصل هذا الرجل المتعب المضطرب الفكر الى هذه النتيجة ، وهي أنه ما من طريق أخرى غير الطريق التي يمكن أن يقوده اليها مترنحاً بعد الآن ، حاميه الاعرج ، أمير بنفان القوي ... ولكن هذه الطريق نفسها ليست الا جزءاً من الدائرة ... وهذه الدائرة لا تفضي الى أي مكان . فالرحلة اذن دائمة .. أما معناها وكرامتها فلا وجود لهما الا لأننا نحن نخلقهما ، فوجودهما في ذاتنا فحسب ... لا درب ولا هدف ... رحلة بلا غاية نذوب أثناءها وتنفد قوانا ...

ويبتعد دافيل هو أيضاً ، بلا هدنة ولا توقف . رأسه يسقط وعيناه تغمضان ، وأمامه يصّاعد ضباب محمر" من الشمس . أرجل الخيل تتقاطع ، تتقدم محاذرةً ، تغور في الضباب أكثر فأكثر ، تختفي فيه هي وراكبوها ... وتتعاقب خيول جديدة فخيول جديدة ،وينبجس فرسان جدد ففرسان جدد ، يغوصون في هذا الضباب الذي لا نهاية له ، الذي يسقط فيه المرء تعباً ونعاساً .

كذلك نام دافيل بين الأوراق والشموع المستهلكة في الليلة البارحة، جاعلاً يديه ورأسه على المنضدة ، قد غلبه التعب وهدّه اضطراب أفكاره وخواطره .

دعوني أنام ، لا تضطروني الى رفع رأسي ولا الى فتح عيني ، في هذا الضباب الأحمر الرطب ، بين هذا الجمهور المتحرك من فرسان ما ينفك عددهم في ازدياد ! ولكنهم لا يريدون أن يدعوه . ان أحداً وراءه ما ينى ، بغير انقطاع وبغير رحمة ، يضع على رقبته يداً باردة ويقول له كلمات غير مفهومة ... وخفض دافيل رأسه مزيداً من الخفض ، فاذا هو يو َقظ بمزيد من الاصرار والعناد .

فلما رفع جبينه وفتح عينيه طالعه وجه امرأته باسماً يعبر عن بعض العتب . انه يستحق أن يؤنب على اجهاده نفسه هذا الاجهاد كله . وناشدته أن يمضي الى سريره لينام ويرتاح .

وهو لا يطيق أن يتصور أن يبقى في السرير فريسةً لأفكاره . وأخذ يرتب أوراقه وهو يكلم زوجته . لقد أخفى عنها الى الآن التبدلات التي حدثت في فرنسا وفي العالم ، وكتم عنها ما تعنيه هذه التبدلات بالنسبة اليهم . ولكن بدا له في هذه الساعة أن من السهل عليه أن ينبئها .

فلما فهمت دلالة هذه التبدلات السياسية بالنسبة الى وضع الأسرة ، وأحست أن اقامتهم في ترافنك قد شارفت على نهايتها ، شعرت بشيء من الاضطراب والارتباك خلال لحظة ، لكنها لم تلبث أن أدركت ما يمثله هذا كله بالنسبة الى ذويها ولم تلبث أن رأت المسائل التي تطرح عليها ، فاستردت هدوءها ، وأخذ الزوجان يتكلمان على الرحلة ، وعلى نقل الأثاث ، وعلى اقامتهم القريبة في فرنسا .

الفصل الثامن والعشرون

اذن لقد أخذت السيدة دافيل تعمل •

انهاتعنى بالرحيل كعنايتها بالوصول ، رضيةالنفس ، يقظةً لاتكل ولا تمل ولا تشكو ولا تتذمر ولا تسأل أحداً نصحاً • وأخذت ، بعد تفكير ناضج ، تشرف على فك الأثاث الذي اشترته خلال هذه السنين السبع • ثم حزمت كل شيء بعناية كبيرة ، وأشَّرت على كل شيء • ولكن العقدة الكبرى هي الشرفة وما فيها من أزهار ، والبستان وما فيه من خضار •

ان السوسنات البيض التي عمَّدتها السيدة فون ميترر باسم « أفراح العرس » أو « خطيبة الامبراطور » ، ما تزال ناشطة غنية ، وسط الشرفة تملؤه أنواع كثيرة من الزنابق الهولاندية التي استطاعت السيدة دافيل أن تحصل عليها • لقد كانت هذه الزنابق في العام الماضي ضعيفة ، لكنها قد اشتد عودها الآن وتفتحت أزهارها غزيرة متألقة كأنها أطفال تسير في موكب جوقة •

وفي البستان أزهرت الباسلاء الألمانية السكرية التي أهدى فون فون باولتش بذورها الى السيدة دافيل قبيل وقوع الحرب • وكان منجاره ، الأصم الأبكم يقلب ترابها في ذلك الوقت •

كان منجاره يعمل عندئذ في البستان ، كما يعمل في كل ربيع ، جاهلاً كل شيء عن الأحداث والتبدلات التي طرأت على مصير سادته • وكان هذا العام عنده شبيهاً بغيره من الأعوام • انه مكب على الأرض

يفتت التراب مَدرَةً مدرة ، ويفرش الزبل ، وينقل الغراس ، ويسقي الزرع ، ويبتسم لجان بول أو للصغيرة أوجيني حين تأتي بهما الخادمة الى الشرفة ، وبحركة سريعة حاذقة من أصابعه المتسخة بالتراب ، وبدمدمة خرساء من لسانه وجعدات في وجهه ، يشرح للسيدة دافيل أن هذه الباسلاء المسكَّرة نفسها هي في بستان فون باولتش أحفل بالأزهار منها في بستانها ، ولكن ذلك لا يدل على شيء ، لأن العبرة ليست بالأزهار في هذا النوع من النبات ، وانما تعرف قيمته حين تأخذ الأزهار بالانعقاد ثماراً .

أشارت اليه السيدة دافيل ، باصابعها أيضاً ، أنها فهمت ، ثم عادت الى البيت تستأنف حزم الأمتعة . سوف تترك هذا البيت وهذه الحديقة بعد بضعة أيام ، فماترى المحصول ولايراه أحد من أفراد أسرتها بعد ذلك أبداً . فلما تصورت ذلك صعدت الدموع الى عينيها .

. . .

في هذا الجو الهادىء كانت قنصلية فرنسا تستعد للرحيل . ومع ذلك كانت مشكلة هامة تطرح نفسها على دافيل ، هي مشكلة المال . كان دافيل قد أرسل مدَّخراته القليلة الى فرنسا ، وأصبحت المرتبات لا تصل اليه منذ زمن . ويهود سارايفو الذين عملوا مع فرايسينه وكثيراً ما قدموا قروضاً للقنصلية ، أصبحوا الآن يمتنعون عن اقراضها. واذا كان دافنا محتفظاً بمدَّخراته فانه باقٍ بمدينة ترافنك في وظيفة غامضة وظروف قلقة ، فلا يمكن حرمانه مما يملكه ولا يمكن أن يطلب اليه أن يقرض الدولة بدون أية ضمانة .

وكان الترجمانان ، دافنا ورافا آتيجاس ، يعرفان وضع دافيل ، ففي أحد الأيام بينما كان دافيل يتساءل قلقاً عن الباب الذي يجب عليه

أن يطرقه ، جاءه العجوز سالومون آتيجاس ، عمّ رافا ، أوجَهُ اخوته ، رئيسُ أسرة آتيجاس الكبيرة في ترافنك .

هو رجل قصير سمين ، مقوس الساقين ، يبدو رأسه مستنداً الى كتفه من فرط قصر رقبتــه ، له عينــان واسعتان جاحظتان كأعــين المصابين بمرض القلب في كثير من الأحيان . كان العرق يتصبب منه ، وكان لا هثاً من حرِّ أيار ومن صعود المرتفع الذي يفضي الى القنصلية ولم يألف صعوده . أغلق الباب وراءه وجــلاً ، وتهالك على أحــد الكراسي لاهثاً . كانت ثيابه مبقعةً بالدهن ، وكانت تفوح منه رائحة الثوم والجلد غير المدبوغ . يداه السوداوان الزغباوان مقبوضتان على ركبتيه ، وقطرة من عرق تتلألأ في نهاية كل شعرة .

لقد سبق للرجلين أن تبادلا التحيات المألوفة والملاطفات المبتذلة عدة مرات . لم يشأ دافيل أن يذكر أنه سيغادر ترافنك بلا رجعة ولا عزم العجوز أمره على أن يعرض الغرض الذي جاء من أجله . وأخيراً أخذ اليهودي يتكلم بصوت حاد يحك الحلق ويذكّر دافيل باسبانيا . ذكر أنه على علم بالتغيرات المفاجئة ، وبحاجات الدول ورجالها ، فهذه أزمنة صعبة على جميع الناس ، حتى على التاجر الــذي لا يعنى الا بشئون تجارته . ثم ... اذا كان سيادة القنصل لم يتلق الاعتمادات الرسمية في الوقت المناسب ، لأن الأسفار هــي الأسفار ، وكــانت المصلحة لا تقبل مع ذلك مزيداً من الانتظار ، فانه هو سالومون ، يضع نفسه تحت تصرف القنصلية الامبراطورية ... أي الملكية ... وتحت تصرف سيادة القنصل شخصياً ... بالقليل الذي يملكه ويستطيع أن يقدّمــه .

كان دافيل يتصور أن آتيجاس قد جاء يطلب منه أمراً ، فلما سمع كلام العجوز ُدهش وتأثر ، حتى صارت عضــلات وجهه تهتز مــن

الانفعال في المواضع التي أخذ جلدها يذبل ويتغضّن ويبدأ بالتهدل •

وفي الختام ، بعد كلام كثير مرتبك ، تبادل الرجلان العروض والشكر ، واتفقا على قرض بمبلغ خمسة وعشرين ديناراً ، يقدمه العجوز للقنصلية •

كانت عينا سالومون الواسعتان مبتلتين فكان هذا يضفي عليهما سطوعاً غريباً وسط التنفخ الأصفر المخضب بقليل من الدم • وكانت عينا دافيل تلتمعان بدموع ، فالانفعال لم يبارحه منذ أيام • وأصبح في وسع الرجلين أن ينطلقا في الحديث •

ان دافيل ينتقي ألفاظه للتعبير عن شكره ، فيتحدث عن مشاعر المودة التي يحملها لليهود ، وعن العواطف الانسانية التي يحسها تجاه جميع البشر بغير تمييز ، وعن ضرورة فهمهم ومساعدتهم ، وهو يكتفي بتعابير غامضة عامة ، لأنه أصبح لا يستطيع أن يأتي على ذكر نابوليون الذي كان اسمه يستقطب عواطف اليهود ويحمل في اذهانهم معنى خاصاً ، ولأنه لا يجرؤ كذلك أن يأتي على ذكر حكومته الجديدة وملكه الجديد • وكان سالومون الذي لا يزال ينضح عرقاً ويتنفس بعناء ، لا يحول عنه بصره ، وكأنه يرى كل شيء رؤية أوضح من رؤية دافيل ، ويتألم له مثلما يتألم دافيل بل يزيد ، ويدرك المصائب والأخطار التي يمثلها هؤلاء الأباطرة والملوك والوزراء الذين يدخلون الى المسرح ويخرجون منه بغير ارادة البشر المساكين ، ولكنهم يستطيعون أن يحطموهم وأن يورطوهم هم وأسرهم وسائر الناس وكلّ ما يملكون • وكان يلوح على سالومون أنه يبئسه جداً أن يكون قد اضطر الى ترك مخزنه المظلم وأكوام الجلد ليصعد الى هذا المكان المرتفع المشمس وليجلس قرب هؤلاء السادة في حجرات مترفة على كراسي لم يألفها • أما دافيل فكان يسعده جداً أنه تخلص من همه على هذه الصورة

السريعة التي لم تكن في حسبانه • ولحرصه على أن يضفي على الحديث شيئاً من مرح ، أضاف بلهجة تشبه أن تكون مزاحاً :

ـ انني ممتن كل الامتنان ، ولن أنسى أبداً أنك رغم همومك قد فكرت في مصير ممثل فرنسا • والحق أنني ، بعد كل ما حدث هنا وبعد كل تلك الغرامات التي دفعتموها ، يدهشني أن تستطيعوا اعطاء أي قرض ! ان الوزير يتباهى بأنه أفرغ أدراجكم !

فلما ذكرت الغرامات التي فرضها علي باشا ، اكتسبت عينا سالومون تعبيراً جامداً مهموماً يشبه النظرة الحزينة التي ترى في البهائم • قال سالومون :

ـ صحيح أن أدراجنا قد أفرغت ، ولكنني أستطيع أن أعترف لك أنت ، لأن من الواجب أن تعرف ذلك •••

قال هذا وألقى نظرة قلقة على يديه البيضاوين ثم على ركبتيه ، ثم أردف ، بعد صمت قصير ، يقول بصوت آخر أكثر نحولاً وأشد تشوها ، وكأنه يتكلم من بعيد :

ـ نعم لقد خفنا كثيراً ، وكان الوزير قاسياً جداً ، فهو حاكم يستحيل أن يقنع بشيء ، لكنه كان يواجه اليهود أول مرة ، أما نحن فقد رأينا عشرات وعشرات من الوزراء ، يحل واحد منهم محلّ واحد ثم يمضي ، حاملاً بعض الأشياء طبعاً ، ولكن الذين يذهبون ينسون ما صنعوا ، ويصل الجدُد فيستأنف كل شيء • أما نحن فنبقى ونتذكر ونسجل كل ما عانيناه ، ونسجل كيف حمينا أنفسنا ، ونتوارث تجاربنا ابناً عن أب ، ولذلك نجعل لخزائننا قاعين ، تمتد يد الوزير الى أحدهما ولا تنال الثاني ، فيبقى لنا ولأولادنا شيء تنقذ به أرواحنا ونساعد به ذوينا وأصدقاءنا عند العوز •

وحدّق سالومون عندئذ الى دافيل ، ونظر اليه نظرة أخرى غير تلك النظرة الكاسفة الوجلة التي تبعث على الضحك ، نظر اليه نظرة سديدة جريئة .

فما كان من دافيل الا أن تبسم صراحة . قال :

ـ أعجبتني ! ويظن الوزير أنه ماكر !

ولكن سالومون لم يلبث أن قاطعه بصوت خافت ليفرض عليه أن يخفض صوته :

ـ لا أقول انه ليس بماكر . هؤلاء حكام بارعون عقلاء . ولكنك تعرف كيف تجري الأمور . انهم عقلاء ، وان لهم قوة كقوة التنين ، ولكن هؤلاء السادة يحتربون ؛ انهم يتقاتلون وينفقون نفقات ضخمة . وأنت تعلم ما يقوله الناس عندنا : « المجد ريح عاتية تجري وتفني نفسها » . أما نحن فنعمل في هدوء كامل ، نعمل ونربح مالاً . فكذلك يبقى المال عندنا وما ننفك نربح .

فكان دافيل يؤمن على كلام اليهودي . قال مبتسماً ليشجعه على متابعة حديثه :

ـ نعم نعم .

ولكن ابتسامته أوقفت سالومون عن الكلام بدلاً من حضه على الاسترسال فيه ، وها هو ذا يتفرس في القنصل بعينين عاد اليهماالهمّ والوجل . انه يخشى أن يكون قد تجاوز الحدود ، فقال مالا يجدر أن يقوله وسكت عما كان يجب أن يقوله . ومع ذلك كان ثمة شيء يدفعه دفعاً الى الكلام والتشكي والتباهي والتعلل ، كرجل أتيحت له دقائق معدودات لتبليغ رسالة هامة مستعجلة . انه منذ اللحظة التي ترك فيها مخزنه وصعد هذا المرتفع الذي لم يكن يصعده أبداً ، انه منذ

جلس في هذه الحجرة الوضيئة محاطاً بهـذا الجمال وهـذه النظافة اللذين لم يألفهما من قبل ، كان يبدو له أن من الواجب عليه أن يكلم هذا الاجنبي الذي يبارح المدينة بعد بضعة أيام ، وأن يحدثه حديثاً لن يستطيع ولن يجرؤ أن يفضي به الى أحد يوماً .

نسي تردده الأول وارتباكه وشعر بالحاجة الى أن يقول لهـذا الاجنبي شيئاً عن نفسه وعن أهله ، شيئاً مستعجلاً سرياً ، يخرج عن وكره بترافنك ، عن المخزن الذي يعيش فيه حياةً عناءٍ بغير مجـد ولا عدل ولا جمال ولا قضاء ولا شهود : رسالةً يوجهها الى مجهول ، ولكنه مجهول ينتمي الى هناك ، الى عالم أفضل ، الى عالم أكثر نظاماً وأكثر ثقافة ، هو ذلك العالم الذي سيعود اليه القنصل . انه يريد أن يقول ، ولو مرة واحدة ، شيئاً لا شأن له بالربح ولا بالتوفير ، لا شأن له بالحساب اليومي ولا بالمساومات ، شيئاً يمت بنسب الى الـكرم والبذل والكبرياء ...

وكانت تلك الرغبة القوية التي استبدت به فجأة وحملته عـلى تبليغ شيء عام هام عن حياته وحياة سائر أفراد عشيرة آتيجاس ، وعما يلقون من عذاب دائم ، تحرمه من القدرة على ايجاد الكلمات التي تحسن التعبير عما يضطرم في نفسه وتخنقه خنقاً . كان الدم يصعد الى رأسه ، فيفصح عما يتراكم في ذهنه بلسان عي ، ويفأفيء وهو يتحدث عن طريقتهم في الكفاح من أجل الاحتفاظ بالقوة الخفية التي يملكونها ، ولا توافيه الا ألفاظ مقطعة :

ـــ هكذا ... نعم ... نحمي أنفسنا ، نكنز المال ... ولا نضن على الأصدقاء ... الذين يحبوننا ... لأننا نحن أيضاً ...

وتبللت عيناه ، وتكسر صوتـه ؛ ونهض مضطرباً فنهض دافيـل متأثراً ، ومدّ اليه يده يصافحه مصافحة الصديق ، فأمسك بها سالومون

امساكاً قوياً ، بحركة خرقاء غير مألوفة ، وهو يتمتم بكلمات تضرع اليه أن لا ينساها وأن يقول حيث استطاع ولمن استطاع ، انهم يعيشون ويتألمون ويفتدون أنفسهم بالعذاب • كلمات غامضة مفككة تختلط بها عبارات الشكر يزجيها دافيل •

• • •

لئن كان تأثيث المنزل أمراً بطيئاً شاقاً كصعود مرتفع ، فان اخلاءه أسهل وأسرع من هبوط منحدر •

تلقى دافيل جواب باريس بأسرع مما كان يأمل • مُنح اجازة ثلاثة أشهر وأذن له باصطحاب أسرته وترك دافنا • وسُيّبت في أمر اغلاق القنصلية العامة أثناء اقامته بباريس •

طلب دافيل مقابلة الوزير لا بلاغه نبأ سفره •

كان مظهر علي باشا مظهرَ رجل مريض ، وقد تلطف مع دافيل تلطفاً كثيراً ، وكان واضحاً أنه على علم بأن القنصلية قد تُغلق • أهدى اليه دافيل بندقية صيد ، وأهدى هو الى دافيل معطفاً من فراء ، وكان معنى هذا أن الوزير يعد سفر دافيل نهائياً • وافترق الرجلان افتراقَ من ليس لدى أحدهما ما يقوله لصاحبه ، لانشغال كل منهما بهمومه الخاصـــة •

وفي ذلك اليوم نفسه أهدى دافيل الى فون باولتش بندقية مـــن صنعٍ ألماني وبضعَ زجاجات من خمرة الروم المارتينيكي ؛ وأبلغــه برسالة مستفيضة أنه سيغادر ترافنك مع أسرته « في اجــازة طويلة ستكون بلا رجعة انشاء الله » ، ورجاه أن يمنحه التأشيرات والتوصيات اللازمة لمخافر الحدود ورئيس الحجر الصحي بمدينة كوستاينتسا •
كتب يقول له :

« أرجو من أعماق قلبي أن تحمل معاهدة الصلح التي تُهيَّأ الآن بباريس ، أرجو أن تحمل الى العالم سلاماً دائماً عاقلا حكيماً ، كمعاهدة وستفاليا ، بغية أن تكفل للجيل الراهن راحة طويلة • آمل وأتمنى أن تتصالح أسرتنا الأوربية الكبيرة وأن تتحد ، فما تكون بعد الآن في نظر العالم صورة حزينة للخلاف والتفكك • وأنت تعلم أن هذه المباديء كانت مبادئي قبل الحرب وأثناء الحرب ، وهي اليوم مبادئي أكثر مما كانت كذلك في أي يوم مضى • » •

وأضاف دافيل يقول : « ولن أنسى ، أنَّى كنت وأين أرسلتني المقادير ، أنني في هذا البلد المتوحش الذي قضي عليَّ أن أعيش فيه ، قد التقيت برجل هو أوسع رجال أوروبا ثقافة وأرهفهم ذوقاً وأقربهم مـودة • » •

بواسطة هذا الاطراء انما قرر دافيل أن يرحل دون أن يودِّع فون باولتش • كان يحس أن أثقل شيء على نفسه هو أن يرى الليوتنان كولونيل الذي يعبر هدوء وجهه عن معنى الظفر والنصر •

وأبلغ فون باولتش حكومته أن القنصلية الفرنسية ستغلق أبوابها قريباً ، واقترح اغلاق قنصلية النمسا أيضاً • ذلـك أن بقاء قنصلية النمسا أصبح غير مفيد ، لا لأن فرنسا لن تتدخل في المنطقة ، بل لأن الأنباء تدل على أن اضطرابات داخلية ستقع في البوسنة ، فمن المتوقع أن يقوم صراع صريح بين الوزير وبكوات المنطقة ، وستقف البـلاد قواها كلها على هذا الصراع وحده ، فلا يمكن أن يقوم الآن أي عمل على حدود النمسا • وسيتولى الرهبان والعملاء أمر اطلاع فيينا على الشئون الداخلية في البوسنة • وأرفق فون باولتش اقتراحه بنسخة من رسالة دافيل ، معلقاً على الأسطر الأخيرة التي يطري فيها دافيل شخصه

ذلك الاطراء العظيم ، بقوله : « سبق أن لفت نظركم الى ما يتصف به السيد دافيل من جموح في الخيال وميل الى الغلو ٠» ٠

٠ ٠ ٠

قضى دافيل كل فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم الصائف مع دافنا يرتب الأوراق ويصدر التعليمات ٠

دافنا مظلم الوجه على عادته ، وعضلاته تتقبض على فكيه ٠ كان قد تقرر أن يُعيَّن ابنه في السفارة الفرنسية بالقسطنطينية ، فوعده دافيل بملاحقة هذا القرار الذي حالت التبدلات السياسية دون تنفيذه ٠ فكان دافنا لا يفكر في ابنه ، الشاب الذكي الجميل البالغ من عمره اثنتي وعشرين سنة ، ويؤكد لدافيل أنه سيصفي شئون القنصلية على أحسن وجه ، وأنه سيداري كل شيء حتى أصغر ورقة وآخر قلم ، ولو قطّع نفسه من أجل ذلك ارباً ٠

واذ لم يفرغا من العمل قبل العشاء ، استمرا في العمل بعده ، ولم يفترقا الا في نحو الساعة العاشرة من المساء ٠

فلما خلا دافيل الى نفسه أخذ يتأمل الغرفة التي أصبحت كالفارغة ، والتي لا يشق ظلامها الا ضوء شمعة واحدة ٠ النوافذ بلا ستائر ٠ وعلى الجدران البيضاء تظهر مربعات أنصع بياضاً هي المواضع التي كانت اللوحات معلقة فيها ٠ ومن النافذة المفتوحة يصل خرير الماء ٠ وساعتا البرجين تسمع دقاتهما واحدة بعد أخرى ، أما الاولى فهي الساعة القريبة ،وأما الثانية فهي الساعة التي يقع برجها في آخر السوق ، وكأن دقاتها تأتي معززةً لدقات الأولى ٠

القنصل متعب ، ولكن الانفعال يجعله يقظاً نشيطاً ، فهو ما يزال عاكفاً على أوراقه يرتبها ٠

في قمصان من الكرتون مربوطة بشرائط خضراء ، كانت ترقد مخطوطة القصيدة الملحمية عن « الاسكندر » • لقد نظم القنصل من الأناشيد الاربعة والعشرين التي يجب أن تتألف منها القصيدة سبعة عشر نشيداً ، بعضها لم يتم بعد • كان دافيل أثناء وصفه معارك الاسكندر يتخيل « الجنرال » دائماً ، ولكنه أصبح منذ أكثر من سنة ، منذ أخذ يشهد سقوط الفاتح كمن يشهد مصيره الشخصي ، لا يجد ما يقوله عن صعود وهبوط الفاتح الآخر الذي غاب منذ زمن بعيد ، حتى لقد أصبحت ملحمته تبدو له متناقضة ومستحيلة : فان نابوليون قد قطع المنحنى ولامس الأرض بينما لا يزال الاسكندر يحلق فوق جبال سوريا قرب صور لايخطر بباله سقوط •

وكان دافيل يحس ، رغم جميع الجهود ، أن قريحته قد نضبت لفرط قربها من الأحداث الواقعية •

وكان في العام الماضي قد بدأ نظم مأساة تدور أحداثها على فاجعة السلطان سليم المثقف الشقي ، وتستمد وقائعها من الأحاديث الطويلة التي جرت بينه وبين الوزير • وفي القميص أيضاً تهنئات وتمنيات منظومة كان قد أرسلها دافيل الى شخصيات شتى في عهود مختلفة بمناسبة أعياد وأحداث متنوعة • يا للقصائد المسكينة أهديت الى شخصيات غابت الآن عن المسرح ، وأصبحت بالية ، وأصبحت تبدو لدافيل أبعد من موتى !

ووقع أخيراً على رزم من فواتير ورسائل شخصية ، حال لون ورقها وتمزقت أطرافها ، فلما تناولها انحلت الخيوط التي تربطها ، وتبعثرت فوضى : ان بينها أوراقاً يرجع عهدها الى عشرين عاماً خلت ! تعرف دافيل ببعض الرسائل من أول نظرة • هذه رسالة كتبت بخط منتظم ثابت كان قد أرسلها اليه واحد من خيرة أصدقائه هو جان ڤلنوف

الذي مات في العام الماضي فجأة على ظهر باخرة متجهة الى نابولي • ان تاريخها عام ١٨٠٨ ، وهي تتجاوب مع بعض مشاغل دافيل :

« صدّق ياعزيزي أن همومك وخواطرك السود ليس لها ما يسوّغها • ان الانسان الفذ الذي يوجه مصائر العالم يضع الآن قواعد نظام أفضل سيبقى الى أبعد الأزمان • ان من حقنا أن نعتمد عليه كل الاعتماد • انه يكفل مستقبلاً سعيداً لا لكل واحد منا ولكل واحد من أبنائنا فحسب ، بل لكل واحد من أبناء أبنائنا أيضاً • فاطمئن وأهدأ بالاً أيها الصديق العزيز ، كما أنا مطمئن هادىء البال ، لأن هدوئي يستند الى هذا الاقتناع الواضح الذي بسطته لك • » •

رفع دافيل عينيه ونظر الى النافذة المفتوحة التي تدخل منها فراشات المساء • ومن الشارع المجاور ارتفع صوت غناء ، ضعيفاً في أول الأمر ، واضحاً بعد ذلك • ان موسى المغني عائد الى بيته • ان صوته مبحوح مختنق ، وهو يضطر الى التوقف عن الغناء مرة بعد مرة • ان الشراب لم يصرع موسى • ان ما أسماه فون ميترر صرخة من الماضي السحيق لا يزال يعيش فيه ، ولا يزال يحيا هو أيضاً • وصل موسى الى الشارع الذي يقع فيه بيته ، ودخل فيه ، فأصبح صوته يصل الى القنصل ضعيفاً ، وأصبحت فترات الصمت التي تقطعه طويلة ، انه الآن أشبه بنداء غريق يغوص في الماء ثم يطفو فيصيح صيحة أخيرة ، ثم يغوص • دخل المغني حديقة داره أخيراً وهو يتمايل ويترنح • وأصبح صوته لا يستطيع الوصول الى القنصلية •

ومرة أخرى ساد الصمت الذي لا يعكره خرير الماء بقدر ما يجعله متشابهاً عميقاً •

كذلك يهوي كل شيء • لقد هوى « الجنرال » أيضاً ، وقبله هوى كثير من الرجال الأقوياء وهوت حركات كبرى كثيرة •

حين أحاط هذا الصمت الليلي الكامل بدافيل من جديد كأنه ثلج كثيف ، جلس دافيل لحظةً ، مكتّف الذراعين غائب النظرة . انه ما يزال مضطرباً مهموماً ، لكنه لا يشعر الآن بوحشة ولا خوف . انه ، رغم الاحتمالات القلقة والمصاعب الكثيرة التي تنتظره ، يتراءى له لأول مرة منذ وصل ترافنك ، أنه يرى ثمة نوراً يومض ، وثمة طريقاً ينفتح أوله .

انه منذ ذلك اليوم من أيام شباط ، الذي دخل فيه ، قبل سبع سنين ، غرفته بدار باروخ ، بعد أن حضر أول مجلس له مع محمد باشا خزرف ، وتهالك على ذلك المقعد القاسي ، قد أرهقته قضايا البوسنة والأتراك وأضنته الجهود التي بذلها ، حتى كاد يتهدم ؛ وكان يزداد في نفسه ، سنةً بعد سنة ، تأثيرُ ذلك « السمّ الشرقي » الذي يخرب الجسم ويشوه البصر ويأكل الارادة ، والذي سكبته فيه البوسنة منذ أول يوم ؛ ولم يستطع قرب الفرنسيين في دلماسيا ولا ألق الانتصارات الباهرة أن يظهره من آثار ذلك السم . ثم ها هو ذا الآن ، بعد الهزيمة وبعد السقوط ، في اللحظة التي يهم فيها أن يرحل عن هذه البلاد وأن يمشي الى المجهول ، ها هو ذا تستيقظ فيه الارادة ، وتتحرك في نفسه الحماسة . ان همومه وحاجاته أثقل منها في أي وقت مضى ، ولكن هذه الهموم وهذه الحاجات أصبحت الآن ، بما يشبه المعجزة ، لا تفقده صوابه ولا تخرجه عن طوره كما كانت تفعل خلال سبع سنين ، بل هي على خلاف ذلك تشحذ فكره وتوسّع أفقه ولا تضع أمامه حواجز وعقبات ، وانما تجري جرياناً كجريان الحياة نفسها .

وفي الغرفة المتاخمة لغرفته ، كان شيء يتحرك ويحكّ كفأرة في جدار . انها زوجته التي لا تعرف التعب ولا الغياب ، تحزم أواخر الأمتعة . والاولاد في الدار نائمون . انهم سيكبرون ــ وسيبذل دافيل كل ما يملك من طاقة في سبيل أن يكبروا كما يجب أن يكبروا ــ

وسيمضون باحثين عن الطريق التي لم يستطع هو أن يهتدي اليها ؛ وهبهم لم يدركوها ، فانهم على الأقل سيسعون اليها بكرامة وهمة لم توهبا له . انهم يكبرون الآن وهم نائمون . نعم ان كل شيء يحيا ويتحرك في هذه الدار ، ككل شيء في هذا العالم الذي تنفتح فيه آفاق جديدة وتنضج فيه احتمالات جديدة . لكأن دافيل قد ترك ترافنك منذ زمن طويل ، فهو لا يفكر في البوسنة ، لا فيما منحته ولا فيما سلبته . وكل ما يشعر به هو أن نبعاً مجهولاً تتدفق اليه منه الطاقة والصبر والعزم على أن ينقذ نفسه وينقذ ذويه . وظل ينقي أوراقه المصفرّة فيمزق مالا حاجة به اليه ويلف ما قد يكون له شيء من نفع حين يصل الى فرنسا في الظروف الجديدة .

ثمة فكرة غامضة لكنها ثابتة ، ترافقه في هذا العمل الآلي كلحنٍ ثابت : لا بد أن يوجد ذلك « الطريق الحق » الذي بحث عنه طوال حياته دون أن يهتدي اليه . نعم ، لا بد أن يوجد ذلك الطريق ، ولا بد أن يُهتدى اليه عاجلاً أو آجلاً ، فيسير فيه البشر جميعاً . ان دافيل لا يعرف أين سيكتشف هذا الطريق ولا كيف ولا متى ، لكنه موقن أن أبناءه سيكتشفونه ، أبناءَه أو أبناءَ أبنائه ، أو أعقابهم في زمن بعيد .

وكانت هذه الفكرة الصامتة ، وهذا اللحن الداخلي ، يسهّلان عمله .

خاتمة

الجو جميل منذ ثلاثة أسابيع • أخذ البكوات يختلفون الى مقهى بوتفا ويجلسون على الصوفا ، شأنهم في كل عام • لكن أحاديثهم مظلمة محاذرة • ان البلاد مطبقة على تفاهم مضمر يُعدُّ المقاومة ويهيء الثورة على سيطرة المجنون علي باشا • ذلك في جميع الأذهان قرار مبرم لا يقبل الرد ، فهو ينضج في النفوس من تلقاء ذاته •

نحن في آخر يوم جمعة من شهر أيار ١٨١٤ ؛ البكوات كلهم مجتمعون • الحديث نشيط لكنه رصين • لقد علموا جميعاً بسقوط نابوليون وبتنازله عن عرش فرنسا ، وهم يكتفون بتبادل المعلومات والمقارنة بينها وتكميلها • هذا واحد منهم يقول ، وقد تحدث في ذلك الصباح نفسه مع بعض رجال القصر ، ان كل شيء قد أعد لرحيل قنصل فرنسا وأسرته ، وان قنصل النمسا سيرحل بعده فوراً كما علم ذلك من مصدر موثوق ، لأن قنصل النمسا لم يجيء الى ترافنك أصلاً الا بسبب مجيء قنصل فرنسي • فيمكن الاعتقاد اذن بأن القناصل والقنصليات ستزول قبل حلول الخريف ، وسيزول معها كل ما جاءت به الى هذه البلاد ، وكل ما أدخلته في هذه البلاد •

كانت هذه الأنباء في نظر جميع البكوات انتصارات • فلئن ألفوا وجود القنصليتين ، فانه ليسرهم أن يروا اختفاء هؤلاء الأجانب وزوال طريقتهم الغريبة في الحياة وتدخلهم الوقح في شئون البوسنة • ومع ذلك كان هناك سؤالان يُطرحان : من يأخذ « فندق دبروفنك » الذي تقيم فيه الآن قنصلية فرنسا ، وماذا تصير الدار الكبرى التي تملكها

أسرة حافظادتش اذا غادر قنصل النمسا ترافنك ؟ وكـان المتكلمون يتكلمون بصوت مرتفع حتى يستطيع حمدي بك تسكردجتش أن يسمع الكلام من حيث يجلس • لقد طعن حمدي في السن كثيراً ، فهو متكوم على نفسه تكومَ دارٍ أصبحت أطلالاً • ان سمعه ضعيف ، وقد أصبح يصعب عليه أن يفتح جفنيه • ولذلك كان يضطر الى أن يرد رأسه الى وراء ، حتى أن شفتيه المزرقّتين كثيراً لا تكادان تطبقان حين يتكلم • أنهض حمدي رأسه وسأل آخر من تكلم :

ــ متى وصل هؤلاء ••• القناصل ؟

فنظر البكوات بعضهم الى بعض يحاولون أن يتذكروا • قال بعضهم ان القنصلين وصلا منذ ست سنين ، وقال بعض آخر انهما وصلا قبل ذلك • وما زالوا يقرّبون ويحسبون حتى أجمعـوا على أن القنصل الاول وصل منذ سبع سنين قبل عيد الفطر بثلاثة أيام •

فقال حمدي بك متفكراً يجر كلماته جراً :

ــ سبع سنين ••• تذكروا الشائعات والاحتجاجـات التي قامت يومئذ بسببهما وبسبب ذلك الـ ••• ذلك الـ ••• بانابارت • بانابارت جـاء ••• بانابارت ذهب ••• بانابارت فعل ••• بانابارت ترك••• العالم كله صغير عليه •• قوته لا تعرف حدوداً •• قوته لاتعرف شفقة • ورفع الكفار رؤوسهم في بلادنا كسنابل جوفاء • وتعلق بعضهم بأذيال قنصلية فرنسا ، وتعلق بعضهم بأذيـال قنصلية النمسا ، وانتظر بعض ثالث وصول القنصل الموسكوفي • فقـدت الرعية صوابها ، وطاش عقلها • ثم ••• هاهو ذا كـل شيء ينقضي • نهض الأباطرة فحطموا بانابارت • وسيجلو القناصل عن ترافنك ••• سيتذكرهم الناس بضع سنين أخرى ، ثم يلعب الأطفال على شاطيء النهر لعبة القناصل والخفراء

ممتطين عصياً ، ويُنسى القناصل أخيراً كأنهم لم يوجدوا يوماً ، ويعود كل شيء الى ما كان عليه دائماً والحمد لله .

توقف حمدي بك عن الـكلام ، لأن أنفاسه لم تسعفه . وصمت الباقون ينتظرون ما سيقوله الشيخ أيضاً .

ويتذوقون ، وهم يدخّنون ، لذة الصمت المظفَّر .

بلجراد ، نيسان ١٩٤٢

الفهرس

مقدمة المترجم

مقدمة ١ — ٥

في مقهى لوتفا ، تشرين الاول ١٨٠٦

الفصل الاول ٧ — ١٨

تاريخ ترافنك . شباط ١٨٠٧ : وصول قنصل فرنسا العام ، جان دافيل

الفصل الثاني ١٩ — ٣٦

اقامته المؤقتة . صورته . زيارته الاولى للوزير محمد باشا المعجب بنابوليون . عداوة الأهالي .

الفصل الثالث ٣٧ — ٦٤

استقراره . دافنا طبيب الوزير ينتقل الى العمل بالقنصلية . سقوط سليم الثالث يهدد مركز محمد باشا . السلطان الجديد مصطفى يكلف رسولاً خاصاً بأن يحمل اليه راس محمد باشا . الرسول يموت فجأة . وصول السيدة دافيل واولادها الثلاثة .

الفصل الرابع ٦٥ — ١٠٦

وصول المستشار الشاب دى فوسيه . تعارض المزاجين . حياة دافيل في الوظيفة واعماله الأدبية . الاتصال الأول بين دافيل وقس دولاتس ورهبان جوتشا جورا ، مشكلات أولى . بعض وجوه البازار: القباني، المنادي الطبال، «المجنون» .

الفصل الخامس ١٠٧ — ١١٨

وصول قنصل النمسا العام ، فون ميترر . صورته . العلاقات بين القنصلين .

الفصل السادس ١١٩ — ١٤٠

حياة فون ميترر في الوظيفة . صور زوجته آن ماري ، وابنته آجاتي ، وترجمانه نيقولا روتا . حياة نيقولا روتا .

الفصل السابع ١٤١ — ١٧٣

الشتاء الأول . ضريح عبد الله باشا . قصة موسى المغني . دافيل ودي فوسيه وفون ميترر يسهرون الليل . نوبة آن ماري .

الفصل الثامن ١٧٤ — ١٩٦

عزل محمد باشا في مطلع عام ١٨٠٨ ، وداعه دافيل . ثورة الاهالي على القنصلية الفرنسية . الحادث الذي ولّدها . الهدوء يعود بعد ثلاثة أيام .

الفصل التاسع ١٩٧ — ٢١٦

وصول الوزير الجديد ابراهيم باشا . صورته وصور حاشيته : المستشار طاهر بك ، الطبيب اشرف افندي ، الخازن باقي .

الفصل العاشر ٢١٧ — ٢٣٥

قصة صبي الحلاق الذي تسلق شجرة ليرى بنت قنصل النمسا . نوبة تقى لدى آن ماري . مغامرة لا غدَ لها بين دي فوسيه وفتاةٍ قروية تعمل لدى السيدة دافيل .

الفصل الحادي عشر ٢٣٦ — ٢٦٥

ابراهيم باشا يبلغ القنصلية نبأ انتصار نائبه

سليمان باشا سكوبلاك على الصرب . «الغنائم». تصارع القنصلين . فون ميترر يسلم الوزير القائد أحمد بك الموالي للفرنسيين ، فيتم اعدام أحمد بك . نابوليون يوقع معاهدة الصلح مع روسيا . انقلاب في القسطنطينية ، ومصرع السلطان سليم الفاجع .

الفصل الثاني عشر ٢٦٦ — ٣٠٢

تشرين الثاني من عام ١٨٠٨ ، موت ابن دافيل. جمال آن ماري يخطف بصر دى فوسيه اثناء الجنازة . صور الأطباء او من يسمون كذلك ممن عالجوا الصغير : دافنا ، الصيدلاني موردو آتيجاس ، الراهب لوقا ، من دير جوتشا جورا ، العجوز كولونيا طبيب قنصلية النمسا .

الفصل الثالث عشر ٣٠٣ — ٣١٣

وليمة عيد الميلاد في قنصلية النمسا . مناقشة بين دي فوسيه والراهب جوليانو باشالتش عن البوسنة. دى فوسيه الواقع في غرام آنماري. العودة الى قنصلية فرنسا .

الفصل الرابع عشر ٣١٤ — ٣٢٨

مطلع عام ١٩٠٨ : نزهات على الخيل يقوم بها دي فوسيه وآن ماري في اللحظة التي تصبح فيها الحرب بين فرنسا والنمسا محتومة . صبيحة فائرة بالعواطف . ما حدث يومئذ .

الفصل الخامس عشر ٣٢٩ — ٣٤٩

التكتل الخامس . نشاط القنصلين . السيدة دافيل تمضي الى قس دولاتس تطلب منه تعيين راهب يقوم بالطقوس الدينية في قنصلية فرنسا . رفض الطلب . زيارة دى فوسيه للعجوز كولونيا . « الحياة على تخوم عالمين » .

الفصل السادس عشر ٢٥٠ — ٢٧٣

انقلاب جديد في القسطنطينية ، موت السلطان مصطفى . حملة جديدة على الصرب . فتنة جديدة في ترافنك : تعذيب صربيي البوسنة ، مشنقة أمام قنصلية النمسا . كولونيا يعرض حياته للخطر دفاعاً عن بريء . انقاذه بدعوى أنه أعلن اسلامه . العثور عليه ميتاً في الغداة ، وقد كسرت جمجمته .

الفصل السابع عشر ٢٧٤ — ٢٩١

انتصار واجرام ، الصلح مع النمسا ، انشاء المقاطعات الايليرية . اغفال دافيل عند توزيع المكافآت . حمل السيدة دافيل . استدعاء دى فوسيه الى باريس . حديثه الأخير مع الراهب جوليانو . سفره في نهاية تشرين الاول ١٨٠٩

الفصل الثامن عشر ٢٩٢ — ٤٠٣

الحياة العائلية في منزل دافيل . ولادة بنت في شباط ١٨١٠ ، حماسة آن ماري لزواج ماري لويز ونابوليون . منجاره البستاني الأصم الأبكم . السلام يسود دلماسيا ، وترافنك تألف القنصلين . سنة سعيدة .

الفصل التاسع عشر ٤٠٤ — ٤١٤

نيسان ١٨١١ ، استدعاء فون ميترر . وصول خلفه الليوتنان كولونيل فون باولتش . صورته. نوبة أخيرة تصاب بها آن ماري قبل السفر . دافيل ينظم قصيدة عن ميلاد ملك روما .

الفصل العشرون ٤١٥ — ٤٢٨

نشاط دافيل في عامي ١٨١٠ و ١٨١١ لانشاء شبكة طرق . افتتاح وكالة فرايسينه بمدينة ساراييفو . زيارة جان فرايسينه . حديث

موسى المغني وحمزة المنادي ولول خوجا عن وسيلة الحصول على مال ، وعن « بانابارت » .

الفصل الحادي والعشرون ٤٢٩ — ٤٤٦

مطلع عام ١٨١٢ ، نذر حرب جديدة . أحاديث دافيل مع ابراهيم باشا وطاهر بك . وليمة في منزل دافيل احتفالاً بأول عيد ميلاد للبنت الصغيرة . نزاع نابوليون مع الفاتيكان . صورة المطران ونائب الأسقف الارثوذكسي .

الفصل الثاني والعشرون ٤٤٧ — ٤٥٦

استحالة الصلات بين فون باولتش وترجمانه روتا . روتا يلتمس حماية قنصلية فرنسا بتحريض من دافنا . فضيحة . تبدل روتا : سقوطه مرة ثانية في بؤس أصوله .

الفصل الثالث والعشرون ٤٥٧ — ٤٨٩

عام ١٨١٢ ، فرايسينه يزور القنصل مرة جديدة . الحرب في روسيا . تفاقم هموم دافيل . مرور أشخاص غير مرغوب فيهم . حريق موسكو : تشاؤم الوزير وروايته قصة جسري شلبي خان . في كانون الاول يجيء دافنا بنبأ الهزيمة . شتاء رهيب .

الفصل الرابع والعشرون ٤٩٠ — ٥٠٧

آذار ١٨١٣ : استدعاء ابراهيم باشا . هداياه الى دافيل . خلفه المرعب : سلقدار علي باشا . السجن والشنق . صورة الوزير الجديد . الرعب في ترافنك .

الفصل الخامس والعشرون ٥٠٨ — ٥١٦

عودة نابليون الى باريس . دافيل يسترد شجاعته ، ولكن الناس يبتعدون عن القنصلية .

علي باشا يسير الى قتال الصرب . السيدةدافيل تلد ولدها الخامس . روتا وخليلته يحاولان دسَّ السم لفون باولتش . المتآمران يفران .

الفصل السادس والعشرون ٥١٧ — ٥٣٨

ايلول ١٨١٣ ، استئناف الحرب بين فرنسا والنمسا . أول تشرين الثاني ، الاتراك يدخلون بلجراد . القنصلان يزوران علي باشا المنتصر . قصة عبد الله باشا . العجوز آتاناس يقطّر الراكي في مصنع البراميل الذي يملكه بيرو فوفتش . ماركو العرّاف يتنبأ برحيل القناصل .

الفصل السابع والعشرون ٥٣٩ — ٥٥٠

مطلع عام ١٨١٤ ، وحدة دافيل . فون باولتش ينبئه بتنازل نابوليون . حامل البريد يبلغه أنه أصبح ممثل لويس الثامن عشر ملك فرنسا ونافاز . دافيل يبعث بقصيدة الى تاليران ويطلب استدعاءه .

الفصل الثامن والعشرون ٥٥١ — ٥٦٤

السيدة دافيل تهيء الانتقال . العجوز سالومون آتيجاس يجيء الى القنصلية ويعرض على دافيل اقراضه ما هو في حاجة اليه من مال . الحديث بين الرجلين . دافيل يرتب أوراقاً قديمة . غناء موسى في الليل . الأمل .

خاتمة ٥٦٥ — ٥٦٧

في مقهى لوتفا ، أيار ١٨١٤

ملتزم النشر والتوزيع

مكتبة اطلس

دمشق